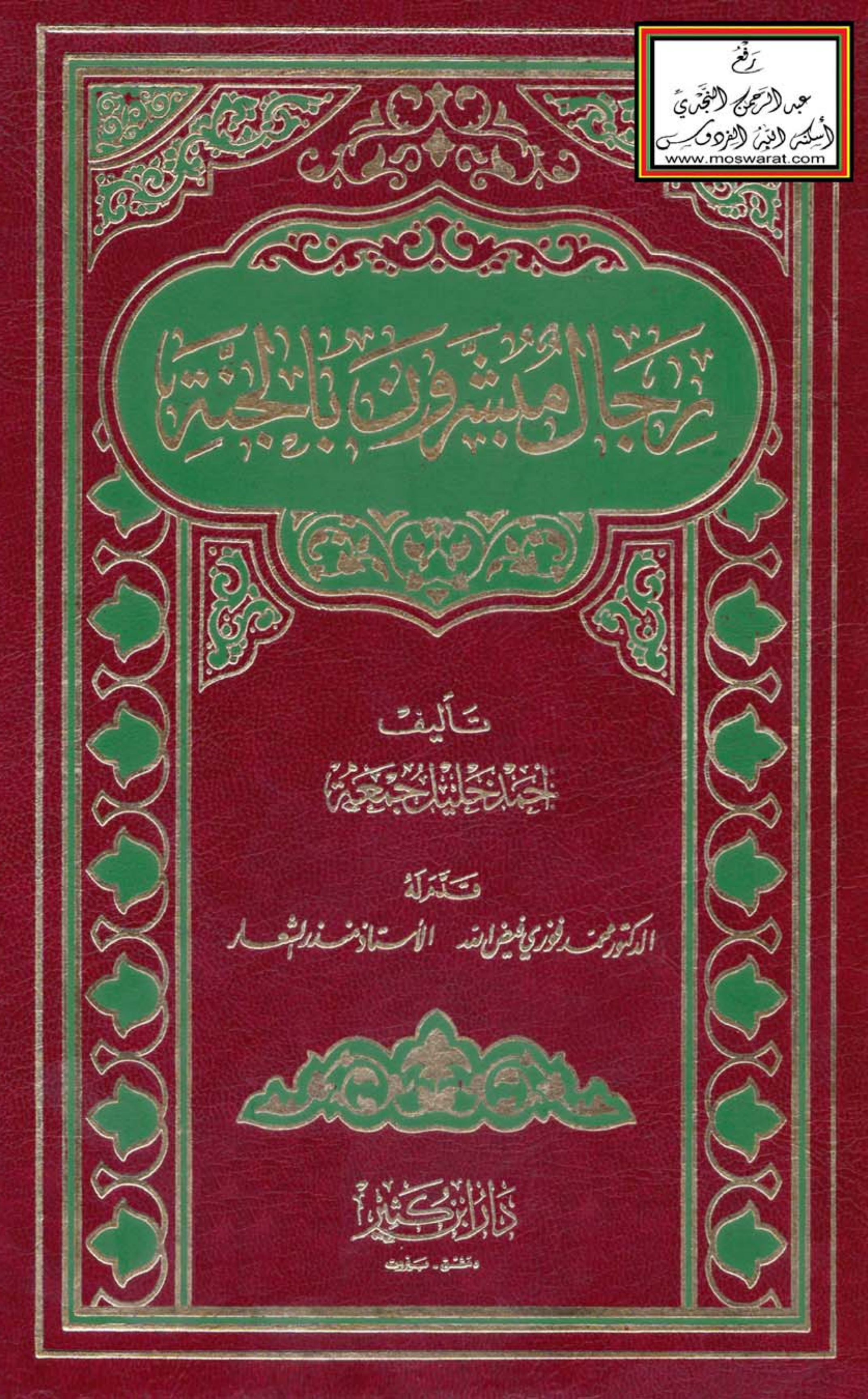


رَفَعَ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com
رجال مبشرون بالجنة
تأليف
أحمد خليل جمعة
قدم له
الدكتور محمد فوزي فيض الله
الأستاذ نذير الشعار
دار ابن كثير
دمشق - بيروت


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com


رجال مبشرون بالجنة

● الموضوع: تراجم
العنوان: رجال مبشرون بالجنة
التأليف: أحمد خليل جمعة

الطبعة الرابعة

1433 هـ - 2012 م

ISBN 978-614-415-027-6

ISBN 978-614-415-027-6
9 786144 150276

● الطباعة: مطبعة الحافظ - بيروت ــ التجليد: شركة كاتبة ومحايري للتجليد - دمشق

● الورق: أبيض ــ ألوان الطباعة: لون واحد ــ التجليد: فني

● القياس: 17x24 ــ عدد الصفحات: 494 ــ الوزن: 870 غ



دمشق - سوريا - ص.ب: 311
حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي - صالة المبيعات تلفاكس: 2225877 - 2228450
الإدارة تلفاكس: 2243502 - 2258541
بيروت - لبنان - ص.ب: 113/6318
برج أبي حيدر - خلف دبوس الأصلي - بناء الحديقة - تلفاكس: 817857 01 - جوال: 204459 03

www.ibn-katheer.com - info@ibn-katheer.com

رجال مبشرون بالجنة

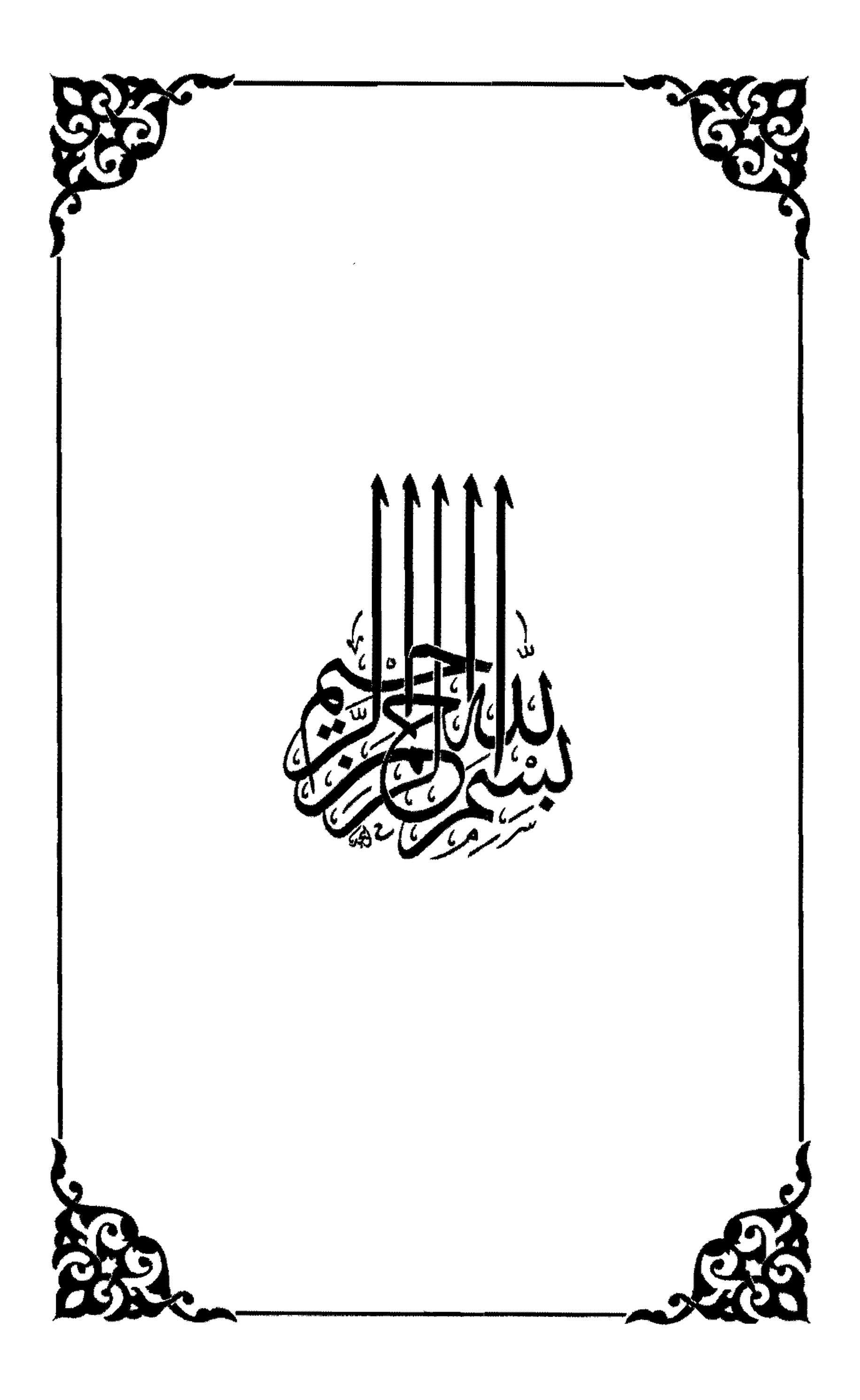
مالك بن سنان	حمزة بن عبد المطلب
عمرو بن الجموح	عبد الله بن جحش
عبد الله بن عمرو بن حرام	سعد بن الربيع
جعفر بن أبي طالب	سعد بن معاذ
عكاشة بن محصن	زيد بن حارثة
أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب	عبد الله بن رواحة
حاطب بن أبي بلتعة	ثابت بن قيس
عبد الله بن سلام	بلال بن رباح
حارثة بن النعمان	صهيب بن سنان
زيد بن أرقم	عبد الله بن أنيس

تأليف
أحمد خليل جمعة

قدم له
الدكتور محمد فوزي فيض الله　　الأستاذ منذر الشعار



دار ابن كثير
دمشق - بيروت


بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

الحمد لله رب العالمين ، حمداً يوافي نعمه ، ويكافىء مزيده ، ويدفع نِقمه ، والحمد لله الذي هدانا لطلب العلم ، ونهانا عن اللغو والعبث ، ووفَّقنا لصراطه الحميد.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، الذي حثَّنا على الخير والصلاح ، ودعا إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة ، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

أمَّـا بعـد:

فإن الله عز وجل أرسلَ رسولَه ﷺ في زمنٍ بعدتْ فيه الشُّقَّة بينه وبين الهداية ، إذ عمَّ الجهل ، وفشا الفساد ، واستشرى الفسق والظلم في كل مكان ، حتى أصبح الناسُ لا ينكرون ضلالاً ، ولا يفكرون بإصلاح ، فكأنهم يحيون في غابةٍ تسيطر عليها شريعة الأقوى ، ﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور: ٤٠].

وجاء رسول الله ﷺ ليخرج الناسَ من الظلمات إلى النور ، ويهديهم صراطاً مستقيماً ، فكانت رسالتُه عليه الصلاة والسلام بداية لعهدٍ جديدٍ يقوم على العودة إلى جادة الحق والصواب ، والتمسك بهدي السماء ، والرجوع

إلى الفطرة السليمة ومقتضياتها ، وضرورة التخلص من الواقع المظلم ، والارتقاء في معارج النور والتألق.

وربّى ﷺ الناسَ على الخُلق القويم ، والامتثال لأوامر الله تعالى واجتناب نواهيه ، فكان جيلُ الصحابة واجهة الحياة الجميلة ، وغرّة الناس ، وأعجوبة الأعاجيب على مدى الزمن ، وتكرار الأيام.

واستطاع النبيُّ الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم أن يُنشىء أمةً على مستوى خاص ومتميز ، علماً ، وخُلُقاً ، واندفاعاً ، وإخلاصاً ، وورعاً . . فكانوا سيوفَ الإسلام ، ودعاة الحق ، وحملة لواء الخير ، ففتحوا قلوب العباد ، قبل أن يفتحوا البلاد ، فكانوا خيرَ أمة أُخرجت للناس ، يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ويؤمنون بخالقهم إيماناً عميقاً ثابتاً ، لا يتزعزع مع الأعاصير والشدائد ، وبذا يتجلّى سرُّ آيات القرآن الكريم ، والتربية النبوية ، التي قوّمت النفوس ، وأصلحت القلوب ، وقادت الأمم ، فكان التطبيقُ واضحاً للعيان ، يُبشّر بنشوء رجالٍ آمنوا بالله تعالى ، وأدركوا حقيقة الرسالة المحمدية ، فكان ميزان الحق رائدهم في كل ميدان ، وهو الميزان السليم الذي تُوزَن به الدعوات.

ومما لا شكَّ فيه أن الإسلامَ رسالةُ تشريع وأحكام ، وتربية خُلُقية ، وقِيم ثابتة ، تُشكّل سرَّ عظمة هذا الدين ، الذي يجمع بين خيري الدنيا والآخرة ، ويحقق توازناً معتدلاً في مجالات الفكر والنفس والاجتماع . . . انطلاقاً من لدن العقيدة الصحيحة ، مروراً بالتشريع الأمثل والمنظَّم ، لتأصيل العبادة ، وتحقيق جوهر الرسالة في الخُلُق الفاضل ، والقدوة الصالحة ، والتربية العامة في ميادين النفس الإنسانية ، وصولاً إلى إنارة الضمير ، وإقامة مجتمع نظيف في كل شيء . . . في علاقاته ، وسلوكه ، ومشاعره ، وتعامله . . . وهو مجتمع يقوم على العدل ، والتكافل ، والود ، والوفاء ، والحق.

ولقد مكث رسول الله ﷺ ثلاثة عشر عاماً في مكة المكرمة بعد البعثة ، وهو يدعو إلى الله ، ويربي القِلّة المؤمنة التربية السليمة ، فانتصرت على مقومات الجاهلية انتصاراً ساحقاً ، بدليل تميُّز الصحابة في العقيدة والسلوك

وأهـداف الحياة الجديـدة ، وبدليـل أن المشركيـن لم يهـدأ لهـم بـال وهـم يسمعون صـوت الحـق يعـلو مناديـاً بضـرورة الانفصـال عن واقـع الظـلم والضلال .

وكانت الهجرة إلى المدينة انطلاقةً جديدةً ، تلقَّى فيها الصحابةُ الكرام دروساً توجيهية ، وسمعوا أحاديث النبي ﷺ ، وأدركوا مرامي تربيته الدقيقة ، لمنهج الفطرة ، والمعرفة ، والعلم ، والفكر ، والعبادة ، فوصلوا إلى امتلاك أفئدة صافية ، ونفوس مُطهَّرة ، وسلوك موجَّه ، وتفكير منطقي ، واندفاع تلقائي لا يتوانى عن تنفيذ المهام مهما كانت صعبة وشاقة .

وكان نجاحُ التربية النبوية مُحقِّقاً لأعلى نسبة من التفوق والتقدير ، إذ وصل الصحابة إلى مستوى ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ [المائدة : ١١٩] .

وليست أسماء الصحابة ببعيدةٍ عنا ، فهي تُنوِّر صفحات كُتُب كثيرة ، ومجلدات عديدة ، تحكي قصة المؤمنين ، الذين درسوا في معهد القرآن والسنة ، وكان معلِّمهم ومربِّيهم النبيُّ الكريم محمد بن عبد الله ﷺ .

ولم تقتصر التربيةُ على العهد المكي ، بل استمرت في العهد المدني ، حيث كان المسجدُ مركزاً للدعوة ، وانطلاقاً لدروس العلم ، ومكاناً لوضع الخطط ، ولقاء الوفود ، وعَقْد مجالس المشاورة ، ونقطة لتوجيه الجيوش ، وتنظيم نواحي الحياة .

والشيءُ اللافتُ للنظر ، أن التربية النبوية للصَّحب الكريم ، بلغت غايتها القصـوى من الرفعـة المجنِّحـة ، والمجـد السامـي ، والتغيير العميق لقيعان النفس ، وأطواء الضمائر .

ويسردُ هذا الكتاب (رجال مبشرون بالجنة) قصصاً للصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وكل قصة تتحدث عن جانب من التربية النبوية ، وتنضح بصفاتٍ جليلة ، اتصف بها أولئك العظماء ، وأهمها : الطاعة لله ولرسوله ﷺ ، فما إن يتناهى الأمرُ أو النهيُ إلى أسماعهم ، حتى يكونوا كتلةً واحدةً من التنفيذ

الحي ، والتجسيد العملي ، وبالسرعة القصوى ، دون السؤال عن العِبَر أو الحِكَم، أو الدروس المستفادة، لأنَّ طاعة الله أولى، وتنفيذ أمر رسول الله هو الهدف الأسمى.

فعندما سمع الصحابة النهي عن شرب الخمر ، قالوا: «انتهينا يا رب ، انتهينا يا رب». ولما أصدر ﷺ أمره بهجر الثلاثة الذين خُلِّفوا ، نفَّذ الجميع هذا الأمر ، وعاش الثلاثة سجناً نفسياً مريراً ، حتى نزل القرآنُ الكريم بالتوبة عليهم ، يقول كعب بن مالك: «فاجتنبنا الناسُ ، وتغيَّروا لنا ، حتى تنكرت لي الأرض ، فما هي بالأرض التي أعرف ، حتى إذا طال عليَّ من جفوة المسلمين...».

والأمثلة كثيرة ، ولو شئتُ الاستقصاء لجئتُ بمثل هذا الكتاب ، وكلها أمثلة حيَّة ، واقعية ، مُستقاة من حياة الصحابة ، الذين تربوا على عين رسول الله ﷺ.

وكان هذا الكتاب «رجال مبشرون بالجنة» من أوائل الكتب التي أَلَّفْتُها ، فله في نفسي وقعٌ خاص ، ومكانة أثيرة ، إذ أتذكر الليالي الطوال ، والساعات التي لا تحصى ، وأنا أبحث في بطون المصادر وثنايا المراجع ، أقلِّب النظر ، وأُرجع الفكر ، وأجمع المادة العلمية ، ثم أُنسقِّها ، وأجعلها تحت فقرات جانبية ، تعطي لمحة سريعة عمَّا يضمُّه البحث من أفكار وموضوعات.

والشخصيات المنتقاة معروفة للناس بأسمائها ، فهي تتردَّد على الشفاه لدى طلاب العلم وشُداة المعرفة ، ولكن جمعها في كتابٍ واحدٍ ، وإيراد معلومات كافية عن كل شخصية ، يعطي هذا التصنيف أهمية متفردة ، فهو يجمع المبشَّرين بالجنة من صنف الصحابة الكرام ، ويتحدَّث عن ملامح حياتهم حديثاً مستفيضاً ، فيه الألق الروحي ، والمحبة الآسرة ، والودّ الفيَّاض.

والملاحظ أن جميع الشخصيات في هذا الكتاب بُشِّرت بالجنة على لسان

رسول الله ﷺ بموجب أعمال خيِّرة ، وتضحيات رائدة ، قام بها هذا الصحابي أو ذاك ، باندفاعٍ عفوي ، وانطلاقة منداحة ، حباً في الله ، وطاعة لرسول الله ﷺ .

فالكتابُ بُشرى مستمرة لجيل الصحابة ، والأجيال اللاحقة ، كي تتملَّى تلك الأعمال ، وذاك السلوك ، فتكون الأقباسُ انبجاساً لمُثُل المؤمن ، وقيمه ، وأخلاقياته ، وتغنِّيه بالجانب الخيِّر ، نتيجة التزامه ، وتربيته الصائبة ، المستمدة من روح القرآن ، وحقائق السُّنَّة النبوية .

ومن المشهور أن التبشير يكون في الخير ، والبشرى خُلقٌ كريم ، وجزء من الهدي النبوي ، حيث حظي الصحابةُ بالبشارة بالجنة ، ومع تلك البشارة ازداد تقدُّمهم في طريق الهداية والخير ، فكانوا قدوة يُقتدى بها مع مضيّ الأيام . ورحم الله القائل :

انظرْ إلى هَدْي الصحابة والذي ... كانوا عليه في الزمان الخالي
دَرَجُوا على نَهْج الرسول وهَدْيه ... وبه اقْتَدوا في سائرِ الأحوالِ
نِعْمَ الطريقُ لطالبٍ يَبْغي الهدى ... فمآلُهُ في الحَشْر خيرُ مآلِ

وقد تناولتُ بعضاً من أولئك المبشَّرين بالجنة ، من خلال وقفات جميلة ، ولحظات بهيجة ، فكانوا عقداً منظوماً ، يحلو مرآه ، ويجلو منظره ، إذ البشرى تطبع النفوسَ بطابع الفضائل ، وتستحث الهممَ ، وتنعش القلوب ، وينعم المرءُ في رحابها الأفيح .

إن الحديث عن الماضي المجيد ، وعَرْض تاريخ الصحابة ، ليس للتغني والتفاخر ـ وإن كان ذلك لائقاً ـ لكنه بيانٌ لكل ذي بَصَرٍ وبصيرة ، كي يتملّى حياة تلك النخبة ، بكل أبعادها الحيوية ، وآمادها الفسيحة ، ونماذجها التطبيقية ، والتي نراها في أيامنا هذه أحلاماً أو كالأحلام ، فالمرجوُّ من هذا الكتاب أن يجدَ آذاناً مصغية ، وقلوباً ترنو للحق ، ونفوساً تتأجَّج بالإيمان ، فترسم صورة الماضي ماثلةً أمام الأعين ، تدعو كل مؤمن للانطلاق من جديد ، وتمثُّل تلك المقاييس الحقيقية ، لتكون خير خلف لخير سلف ، والله الموفِّق لكل خير .

ولابُدَّ أن أتوجَّه بالشكر العميق للأستاذ الفاضل علي ديب مستو ـ صاحب دار ابن كثير ـ لتفانيه وإخلاصه في خدمة كتاب الله ، وسنة رسوله ، وكتب التراث ، والمؤلفات النافعة للمسلمين ، فجزاه الله خيراً ، ووفَّقه لمزيد من الهداية والتوفيق.

كما أتقدم بالشكر والعرفان للصديق الوفي يوسف علي بديوي ، الذي ما فتىء يُقدِّم النصيحة ، والملاحظات القيِّمة ، ويعتني بتصحيح تجارب مؤلفاتي ، فله منِّي كل تقدير ، وأسأل اللهَ عز وجل أن يديمَ عليه نُصحه ، ويزيده من نِعمه ، ويُسبغ عليه من مِنَنه وفضله الواسع ، إنه ـ سبحانه ـ على كل شيء قدير.

اللهم علمنا ما ينفعنا ، وانفعنا بما علمتنا ، وزدنا علماً يا أرحم الراحمين.

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الجمعة ٩ ذو الحجة ١٤١٩ هـ	أحمد خليل جمعة
٢٦ آذار ١٩٩٩ م	دمشق ـ حرستا

بين يدي الكتاب

بقلم الأستاذ الدكتور
محمد فوزي فيض الله

الحمد لله حق حمده، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ورسوله وعبده، وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهديه، واستن بسنته.

هذا كتاب جديد وقديم معاً؛ جديد في فكرته، وجديد في عرضه، وفي أسلوبه؛ وقديم في مادته، وقديم في نصوصه وفي أحداثه.

إنه يتناول فئة متميزة من صحابة سيدنا رسول الله ـ ﷺ ـ ذات سمة خاصة، وطابع خاص، هم المبشرون بالجنة.

وكان من المعروف أن الصحابة المبشرين بالجنة، عشرة معدودون؛ فإذا بهم عند الأخ الكاتب الأديب، الداعية الملتزم الموفق، الأستاذ أحمد خليل جمعة، عشرون، أو يزيدون؛ ـ رضي الله تعالى عنهم أجمعين ـ.

ولا شك أن هذا العدد الكبير المضاعف، يدل على اطلاع كبير، ودأب متواصل، ومعاناة مصممة، وجهد لا يني، في تتبع كتب التراجم، وعيون الآثار، وأسفار التاريخ، والسيرة النبوية، والمغازي، والطبقات وكل ما يتصل بالسلف الصالح، مما سجله القدامى، وتمّمه لهم المحدثون.

كما يدل على الوقت الثمين الطويل، الذي أنفقه الكاتب في مطالعة المصادر القديمة، والمراجع الحديثة، لاختيار نصوصه، وجمعها وترتيبها، وضبطها وتوثيقها، وتفسير غامضها، وتبيين مجملها، وتعليقه عليها، ثم، من قبل ومن بعد، في حسن تناولها بأسلوبه الأخّاذ، وبيانه الحلو العذب.

وإني لأقول هذا بملء فيَّ، إعجاباً بما قرأت من فصول هذا الكتاب القيم اللطيف، الذي كان يستهويني بفصوله ورجاله الأفذاذ، كلما قرأت صورة لصحابي جليل، استهوتني بإلحاح صورة أخرى لصحابي جليل آخر؟ وكلما تمثلت حياة صحابي مبشَّر، هرعت نفسي إلى تمثُّل صحابي آخر من المبشَّرين. . . ولقد كنت أحس في أعماقي بإجلال يزيد، كلما قرأت عن هذا الرعيل الأول، من هذه الأمة، ذلك الذي نوّه به الله ـ جلّ وعزّ ـ في كتابه العظيم، ووعده بالأجر العظيم، والمغفرة؛ وشهد له الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بالخيرية والأفضلية، في سنته الصحيحة.

وكيف لا يجلّ القارىء، حين يتابع الكاتب الرائع، وهو يتحدث عن سيدنا أبي سفيان بن الحارث، أحد المبشَّرين بالجنة، ويروي قول السيدة عائشة ـ أم المؤمنين ـ رضي الله تعالى عنها: إن جبريل عليه السلام قال: «إن الله تكفل للذين صبروا يوم حنين، مع رسول الله ﷺ بأرزاقهم، وأرزاق عيالهم، في الجنة».

كيف لا يهتزُّ قلب المؤمن، وهو يقرأ في أخبار سيدنا حارثة بن النعمان، في طبقات ابن سعد ـ كما نقل الكاتب الموفق في اختياراته ـ أنه كانت له منازل، قرب مسجد رسول الله ﷺ، وحوله؛ وكلما أحدث رسول الله ﷺ، أهلاً، تحوّل له حارثة بن النعمان عن منزله؛ حتى صارت منازله كلها لرسول الله ﷺ ولزوجاته: صفية، ومارية. . . .

ولما تزوج سيدنا عليّ، من فاطمة ـ سيدة نساء العالمين ـ رضي الله تعالى عنهما، قال حارثة للنبي ـ ﷺ ـ: «يا رسول الله! إنه بلغني أنك تحوّل فاطمة إليك؛ وهذه منازلي، هي أسقب (أقرب) بيوت بني النجار إليك؛ وإنما أنا ومالي لله ورسوله، والله يا رسول الله! للذي تأخذ مني، أحب إليَّ من الذي تدع»! فقال له: «صدقتَ وباركَ الله عليك».

أليس هذا من صور الإيمان الراسخ، والحب الدفين، والإيثار الفريد؟ وهل بعد هذا الكَرم الأصيل من مزيد؟ أفلا يستحق بعده حارثة بن النعمان، أن يبشّره النبي ـ ﷺ ـ بالجنة؟.

ثم انظر إلى هذه الصورة التاريخية، الفذة، التي يقتطفها لك الكاتب الذواقة المؤمن، من تاريخ المبشَّرين بالجنة:

أطْلع الله ـ سبحانه ـ نبيه ـ ﷺ ـ وهو على المنبر، وكشف له ما بينه وبين الشام، فهو ينظر إلى المعركة، ويحدثهم عن القواد الشهداء، واحداً إثر واحد: مِن زيد بن حارثة، إلى جعفر بن أبي طالب، إلى عبد الله بن رواحة؛ ثم سعى إلى أسماء بنت عُميس، زوج جعفر، وبشّرها، وقال: «ألا إن جعفراً قد استشهد، وإن الله ـ عز وجل ـ جعل له جناحين، يطير بهما في الجنة، أنّى شاء». ثم أعلن ذلك على المنبر، لما طلبت ذلك زوجة جعفر، وعبد الله اليتيم الصغير، بين يديه على المنبر.

لا بد أن تأخذ منك هذه الصورة، وغيرها، مما انتزعه الكاتب المتفنن، من أحسن قصص المبشَّرين بالجنة وأخبارهم، ما تأخذه من روعة وإعجاب، ولا بد من أن تترك في الحنايا والضلوع، ما تستحق من رصيد الإيمان واليقين.

فقد استطاع الكاتب البصير الموفق، أن يقتبس من القديم، ويعرض بفنه الحديث، ما يلذ الأسماع، ويوقظ القلوب، ويعجب ممن يحبّ السلف، ويقدِّره قدره.

إنّ عرضَ هذه النخبة الممتازة من الصحابة، المبشرة بالجنة، ليس للتغني بالسلف، ولا الاستطراف بأخباره، ولا لتدبيج الكتب والصفحات بجهاده وبلائه، ولكن لتبيان مقاييس الإيمان الحق، ونماذجه وتطبيقاته، تلك التي خلت ـ أو كادت تخلو ـ منها حياتنا العملية المادية الجافة؛ فنُشر بعضُها مستحضَراً في هذا الكتاب النفيس، ليقيس أهل الإيمان إيمانهم بإيمان السلف، وأخلاقهم بأخلاقهم، وجهادهم بجهادهم، وحياتهم بحياتهم، فليستقلّوا أو ليستزيدوا.

هذا الكتاب القيم، كتبه كاتبه ـ في ظني ـ ليقول للمؤمنين: أيها المؤمنون! هؤلاء هم المؤمنون؛ هؤلاء هم أهل الجنة، هذا هو السلف الذي

تحبونه بألسنتكم، وتتبعونه بالقليل الهيّن المتيسّر من أعمالكم.

كتبه ـ فيما يبدو لي ـ ليقول لي ولغيري: هؤلاء هم المبشَّرون، بجنان الخلد؛ هؤلاء الذين أحبوا الله ـ جل وعلا ـ حقّ الحبّ؛ وأحبوا رسوله ـ حق حبه؟ وهذه نماذج حبهم، ومواقفهم، وبطولاتهم، وبلاؤهم، وجهادهم المبين، في سبيل هذا الدين، وحبه المكين، فماذا عسى أن تفعلوا، أيها المؤمنون؟.

هذه ثمرات الإيمان، وهذا ثمن الجنان، ومَن أغلى الثمن، فقد بالغ في العطاء؟ فهل أنتم متّبعون فتُبشَّرون؟.

وهؤلاء هم الذين عناهم ربنا تعالى بقوله: ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴾.

جزى الله الكاتب الصادق، عما كتبه عن المبشَّرين أفضلَ ما يجري الكاتبين عن السلف والصحابة أجمعين، ووفَّقه لإضافات أخرى، ممتعة مثرية للمكتبة السلفية، في حلقات تشدُّ أهلَ الإيمان إلى العمل الصالح، وتوثِّق صلتهم العملية، بأهل الأسوة والقدوة؛ فإنه لا يصلح شأن هذه الأمة، إلا بما صلح به شأن أولها.

هذا، وأوصي بطباعة هذا الكتاب، ونشره، وتوزيعه بين المسلمين؛ ليطلعوا على ما فيه من خير وهداية وصلاح.

وصلى الله على خير خلقه، سيدنا محمد وآله وصحبه.

الكويت: ٢٧ من شوال ١٤٠٩هـ.

١/٦/١٩٨٩م.

وكتبه الدكتور

محمد فوزي فيض الله

أستاذ ورئيس قسم الفقه والأصول

في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

في جامعة الكويت

تقديم

بقلم الأستاذ
منذر شعار

الحمد لله والصلاة على نبيه وآله.

أما بعد:

فَحَسَنٌ كل الحَسَنِ ما فعله الأستاذ مؤلف هذا الكتاب، مِن ذِكْرِه للسادة الأجِلّة، كبرائنا وأكابر ديننا، الذين ورد في النص أنهم مبشَّرون بالجنة، وهم صحابة نبيِّنا ﷺ، وكانوا مصابيح الهدى، وأبطال العرب، وهم غير العشرة الأبرار، السادة الأخيار، الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ.

فقد تصدّى المؤلف ـ أحسن الله إليه ـ إذاً لأن يجمع ما ورد من أحاديث شريفة في غير العشرة المشهورين، فصحب طويلاً كتب التراجم، والتاريخ، والتفسير، والحديث.. ويالها من صحبة، إن كان الواحد منا لَيَجِدُ الدقيقة منها تعدل أحقاباً في غيرها.

فتحصّل مما فعله المؤلف تاريخ صحيح، وخبر جليل، ودين قويم، وتفسير وسنّة، ورفعٌ أيّ رفعٍ لهذا الجيل الذي يُغزى في عقر داره بسلاح وثقاف.

وإنها لصيحة أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ يوم سمع أن هرقل الروم قد سيّر إلى الشام أربعة جيوش من عنده، عليها قواده وأركانه.. فقال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ يومئذ: والله لأَقتلنّ ملوك الروم بملوك العرب.

إن الحقيقة العلمية حيث وُضعت تنشر اللألاء ساطعاً، وهي إن وُضعت في زمن ما، كانت أشدّ توهُّجاً، وأحرى أن تُمحَقَ بها الظلمات.

ولله الحمد في أولٍ وآخر

منذر شعار



سيدنا

مالك بن سنان

رضي الله عنه

* مِن شهداء أحد وممن ثبت حول النبي ﷺ فيها .
* «من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا . . . . مالك بن سنان» .
* «من مسَّ دمُه دمي لم تمسّه النار» .

مقدمـــة

* هذه سيرةٌ عطرةٌ لصحابيٍّ جليلٍ كريم، آثرَ الدارَ الآخرة واختارَها على الدنيا، وفوقَ هذا كلِّه حظِيَ مِن رسولِ الله ﷺ ببشارةِ الجنة، ونالَ وِسامَ الشجاعةِ مِنَ الدرجةِ الأُولى في ساعةٍ مِن ساعاتِ الجهادِ والثبات.

* برزَ الصحابيُّ الكريمُ هذا في «أُحُد»، تلك الغزوةُ التي ميَّزت الخبيثَ مِنَ الطَّيب، وظهرتْ فيها الصفوةُ المختارةُ مِنَ الصحابةِ الكرامِ رضوانُ الله عليهم، وتخلّص المسلمونَ مِن شوائب النفاقِ والمنافقينَ وزعيمِهم عبدِ اللهِ بن أبيٍّ ابنِ سَلول، وبالتالي أكرمَ الله مَنْ بقي مِنَ المسلمينَ بالرضوانِ والمغفرة، وأما مَنِ استُشهد فقد حَظِي بجوارِ اللهِ وفازَ بمرضاتِهِ سبحانَه وتعالى.

* وبطلُ قصتِنا هذِه عَلَمٌ مِن هؤلاء الرجالِ الذينَ صدقوا ما عاهدوا الله عليه فترجموا صِدقَهم قولاً وعملاً. ولا شكّ أنّ سِيَرَ الأبطالِ تصقلُ النفوسَ وتهذِّب الطباعَ، وذلك حينما نعرفُ السجايا الجميلة التي تحلَّتْ بها، وبطلُنا هذا على الرغمِ من أنّ له عدداً من المواقفِ العظيمةِ الوضاءةِ مع رسولِ الله ﷺ، إلا أننا نجهلُ بعضَ سِيرتِهِ إنْ لم نقلْ معظَمها، ولكنْ في هذه الصفحاتِ سنُلقي بعضَ الأضواءِ على حياةِ هذا الصحابيِّ البطلِ ما استطَعْنا إلى ذلك سبيلاً.

والآنَ لندخلِ الأجواءَ العَبِقَةَ لِبطلِ قصتِنا نعطِّرُ بها الأسماعَ، فمَن هو هذا الصحابيُّ الذي بزغَ نجمُه في يوم واحد؟ وظلَّ يسطعُ أبدَ الدهر!.

* * *

* إنه «مالكُ بن سِنان بنِ عُبيد» الأنصاريّ الخزرجيّ الخدريّ الصحابي[1]، وهو والدُ الصحابيِّ الكريم «سعدِ بنِ مالك» المشهور بكنية

(١) انظر الاستيعاب (٣/ ٣٥٠) وانظر تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٨١).

«أبي سعيد الخدري»، الذي لازمَ الرسولَ الكريمَ ﷺ، وروى عنه سبعين ومئة وألف حديث.

أما زوجُ مالكِ بنُ سنان فهي «أنيسةُ بنتُ عمرو بن قيس» الأنصارية النجارية. كانت أنيسةُ زوجاً للنعمانِ بنِ عامرٍ الأوسيّ الظفريّ، فولدت له «قتادةَ بنَ النعمان»[1] الصحابيَّ الكريم ـ وما أدراكَ ما قتادة ـ ثمّ خلفَ عليها «مالكُ بنُ سِنان» فولدت له «أبا سعيد الخدري» و«الفريعة». وقد أسلمتْ أنيسةُ هذه وبايعتْ[2] رسولَ الله ﷺ، كما أن الفريعةَ ابنةَ مالكِ بنِ سِنان أختَ سيدِنا أبي سعيد الخدريّ قد أسلمتْ وشهدتْ بيعةَ الرضوان، وهي التي جاءتْ إلى رسولِ الله ﷺ تسألُهُ أن ترجعَ إلى أهلها في بني خدرة، حيث إن زوجَها قد خرجَ في طلب عبيدٍ له أَبَقُوا فقُتلَ، فقال لها النبيُّ ﷺ: «امكثي في بيتكِ حتى يبلغ الكتاب أَجَلَه»[3]

* وكان لمالكِ بنِ سِنان أَخَوان هما: «حارثة بن سنان»، و«ثابت بن سنان»، وكان لحارثةَ ابنتان هما: «الربابُ بنتُ حارثة» و«الربيعُ بنتُ حارثة»، وقد أسلَمتا وبايعَتا رسولَ الله ﷺ.

كما كان لثابتٍ ابنتان أيضاً وهما: «خليدة بنت ثابت»، و«أم ثابت بنت ثابت ابن سنان»، وقد أسلَمتا وبايعَتا رسولَ الله ﷺ[4].

---

(١) هو سيدنا قتادة بن النعمان بن زيد الأنصاري المدني، وهو أخو سيدنا أبي سعيد الخدري لأمه. شهد قتادة مع النبي عليه الصلاة والسلام العقبة وبدراً وأحداً والخندق وسائر المشاهد، وقلعت عينه يوم أحد فردها رسول الله ﷺ وكانت أحسن عينيه، وكان سيدنا قتادة رضي الله عنه من فضلاء الصحابة وكانت معه راية بني ظفر يوم الفتح. روي له عن رسول الله ﷺ سبعة أحاديث، وروى عنه أخوه أبو سعيد الخدري. توفي سيدنا قتادة بالمدينة سنة ثلاث وعشرين هجرية وكان عمره خمساً وستين سنة وصلى عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) انظر الإصابة (٤/ ٢٣٩) وطبقات ابن سعد (٨/ ٤٢١).

(٣) الإصابة(٤/ ٣٧٥)، وانظر طبقات ابن سعد (٨/ ٣٦٧ و٣٦٨). أبَقَ العبدُ: هرب.

(٤) انظر طبقات ابن سعد (٨/ ٣٦٩).

* هذه هي أسرةُ مالكِ بن سنانَ التي عاشَتْ في يثربَ ودخلَ الإيمان في قلوب أفرادِها، وها هي الأسرةُ الكريمةُ تستقبلُ رسول الله ﷺ بقلوبٍ متفتحةٍ بالإيمان، ونفوسٍ راغبةٍ في التضحية، وقد أضحى الأوَسُ والخزرجُ بفضلِ الله أنصاراً لرسولِ الله ﷺ، ومِن بينهم مالكُ بنُ سِنان الذي أحسنَ استقبالَ الرسولِ الكريمِ في بلدتِه الطيبةِ حيثُ المنعةُ والنصرُ، وحيثُ التضحيةُ والحبُّ والجهادُ في سبيلِ الله، ومنذ أن وَطِئَتْ قَدَما رسولِ الله ﷺ المدينةَ المنوّرةَ اصطَحبَ مالكُ بنِ سِنان ولدَه الصغيرَ ـ الممتلىءَ الجسم أبا سعيد ـ إلى مجالسِ رسولِ الله ﷺ لينهلَ مِنَ المعينِ النبويِّ، فأصبحَ مِنْ نُجبَاءِ الصحابةِ وعلمائِهم ببركةِ صحبتِه رسولَ الله ﷺ ونقاءِ نفسِه وصفائِها.

* * *

اللقــاء المبــارك:

* كان سيدُنا مالكُ بنُ سِنان يتمتعُ بمكانةٍ ساميةٍ في قومِه الخزرجِ، وكانوا يُوفدونه لإصلاح ذاتِ بينِهم، وذلكَ لما حباه الله مِن سلامةِ المنطقِ وهدوءِ العبارةِ واتّزانِ الشخصيةِ، ناهيكَ بحسنِ الحديثِ والحوار، وكان كذلك مِنَ المصلحينَ بينَ نِزاعات الأوس والخزرج، والدّاعين إلى إنهاءِ الحروب وَوَقْفِ النزيفِ والجراحاتِ التي دامتْ بين الحيّيْنِ زمناً طويلاً، والتي كان اليهودُ يغذّونها بكلِّ السبلِ والوسائلِ.

* وكان مالكُ بنِ سِنان يسمعُ مِنَ اليهودِ عن ظهور نبيّ، وكانوا يدرسون ذكرَ رسولِ الله ﷺ في كتبهم ويعلِّمونَ أبناءَهم صفتهَ واسمَه ومهاجره إلى المدينة، فاستقرّتْ في نفسِ مالكِ بنِ سنان ملامحُ رسولِ الله ﷺ، ولم يكن مالكُ يكتمُ هذا الإعجاب في نفسِه، بل كان يُفضي به إلى أهلِ بيتِه وإلى ولدِه الأثيرِ لديه، فقد روى أبو سعيدِ الخدريُّ رضوانُ الله عليه خبراً عن هذا فقال:

سمعت أبي «مالك بن سنان» يقول:

جئتُ بني عبدِ الأشهلِ يوماً لأتحدثَ فيهم ـ ونحن يومئذ في هدنةٍ مِنَ الحرب ـ فسمعتُ يوشعَ اليهوديَّ يقول:

أظلَّ خروجُ نبيٍّ يُقال له أحمد يخرجُ مِنَ الحرم.

فقالَ له خليفةُ بنُ ثعلبةَ الأشهليّ كالمستهزىء به: ما صفتُه؟ قال يوشعُ: رجل ليسَ بالقصيرِ ولا بالطويل، في عينيه حمرةٌ يلبسُ الشَّملة[1] ويركبُ الحمارَ، سيفُه على عاتقِه، وهذا البلد مهاجُره. قال مالكُ بنُ سِنان: فخرجتُ إلى قومي بني خدرة، وأنا يومئذ أتعجّب مما قال: فأسمعُ رجلاً يقولُ: ويوشعُ يقولُ هذا وحدَه؟! كلُّ يهودِ يثربَ تقولُ هذا.

* ويتابعُ أبو سعيدِ الخدريّ قصته الشائقة هذه عن والدِه فيقول: قال أبي «مالكُ بنُ سِنان»:

فخرجتُ حتى جئتُ بني قريظةَ، فأجدُ جمعاً، فتذاكروا النبيَّ ﷺ، فقال الزَّبيرُ بن باطا[2] اليهوديّ:

قد طلعَ الكوكبُ الأحمرُ الذي لمْ يطلعْ إلا بخروجِ نبيّ وظهوره، ولم يبقَ أحدٌ إلا أحمدُ وهذا مُهَاجرُه.

قال أبو سعيدٍ رضي الله عنه:

فلما قدمَ رسولُ الله ﷺ المدينةَ أخبرهَ أبي هذا الخبر، فقال رسولُ الله ﷺ: «لو أسلم الزَّبيرُ وذووه مِن رؤسائهِم كلُّهم له تَبع»[3].

* كان هذا هو اللقاءُ المباركُ بينَ رسول الله ﷺ وبينَ مالكِ بنِ سِنان رضي الله عنه، كان لقاءً موفّقاً حَظِيَ فيه مالكٌ بمكانةٍ خاصةٍ عندَ الرسولِ الكريمِ،

---

(١) ثوب يُتغطى به ويُلتف.

(٢) هو الزَّبير بن باطا بن وهب ـ بفتح الزاي ـ وهو أحد يهود بني قريظة. كان الزَّبير هذا قد أسر ثابت بن قيس بن شماس في يوم بعاث وأطلقه بعد أن جزّ ناصيته، ثم وقع الزَّبير أسيراً بيد المسلمين في غزوة بني قريظة. وأحب سيدنا ثابت بن قيس أن يشفع له عند رسول الله ﷺ فقبل الرسول ذلك ولكن الزبير آثر أن يُقتل مع اليهود فقتل كافراً قتله الزُّبير بن العوام رضي الله عنه. راجع القصة في حديثنا عن ثابت بن قيس من هذه السلسلة.

(٣) انظر دلائل النبوة للأصبهاني (١/ ٩٢ و٩٣).

فكانَ وابنُه صحابِيَّيْنِ فاضلَيْن مِن نجباءِ الصحابةِ وَخُلَصائِهم، وكان لسيدِنا مالك مواقفُ مشهورةٌ تنضحُ بالطيبِ وتتّسمُ بالصدقِ والوفاءِ وتعبِّرُ عَنِ الحبِّ والفداءِ.

* * *

مـواقف مضيئـــة:

* لم يشهدْ سيدُنا مالكُ بنُ سِنان غزوةَ «بدر» معَ رسولِ الله ﷺ، بل ظنّ كَغَيْرِهِ مِنَ الصحابةِ الذينَ ظلّوا في المدينةِ أنّ رسولَ الله ﷺ والمسلمينَ قد خرجوا لملاقاةِ عِيرِ قريشٍ ليسَ غَيْرَ، ولكنّ الله أكرمَ رسولَه والمسلمينَ فانتصروا على المشركينَ في بدر، وجاءَ البشيرُ إلى المدينةِ يزفُّ بشائرَ النصر، فَلَقِيَهُ الناسُ يهنئونه ـ بالرَّوْحاءِ ـ بفتحِ الله ولَقِيَه وجوهُ الأوسِ والخزرجِ يحمدونَ الله على سلامةِ رسولِه، حتى إنّ سيدَنا «أُسَيْدَ بنَ حُضَير» قال له: «يا رسول اللهِ، الحمدُ للهِ الذي ظَفَّرَكَ وأقرَّ عينَك، واللهِ يا رسولَ الله ما كانَ تخلُّفي عن بدرٍ وأنا أظنُّ أَنَّكَ تلقى عدوّاً، ولكني ظننتُ أنها العِيرُ ولو ظننتُ أنه عدوٌّ ما تخلَّفت».

فقال له رسولُ الله ﷺ: «صدقتَ»[1].

* ولما كان العامُ القادم وَرَدَ إلى النبيِّ ﷺ كتابٌ مِن مكةَ مِن عمِّه العباسِ بنِ عبدِ المطلب يُفضي إليه بخبر قريشٍ الموتورة، في بدر، والتي ما برحتْ تذكرُ قتلاها وتودُّ أنْ تطيرَ إلى المدينةِ بلا أجنحة، لتأخذَ بثأرِها مِنَ المسلمين الذين فعلوا بهمُ الأفاعيلَ في بدر، وخرجَ أبو سفيان بنُ حرب وهو قائد تلك الجموع المشركة بزوجه هندٍ بنت عتبة، وكان لها ثاراتٌ ثلاثيةٌ عندَ المسلمينَ فقد قُتلَ أبوها وابنها وأخوها، وخرج عكرمةُ بنُ أبي جهل ومعه زوجُه أمُّ حكيم بنتُ الحارث، وخرجت نساء كثيراتٌ من ذواتِ الشرفِ في

(١) انظر المغازي (١/ ١١٧) وما بعدها.

قريشٍ مع أزواجهنَّ ليكونَ خروجُهنَّ محرِّضاً على الجِلاد والثباتِ ومانعاً من الفرار.

* لم تكتفِ قريشٌ باصطحابِ النساءِ معها، بل رصدتْ كلَّ أموالِها وأرباحِها للقضاءِ علَى المسلمين، ناهيك أنهم جاؤوا معهم بالشعراء والخطباء ليحرِّضوا وليدفعوا في الجند روحَ البأسِ والقوةِ وحبّ النضالِ والجلاد.

* كانت رسالةُ العباسِ بنِ عبد المطلب للرسول ﷺ إشعاراً لأخذ الحِيطةِ والحذرِ والتدبير، وبالفعلِ فقد أخذَ النبيُّ الكريمُ الأهبةَ والاستعدادَ للمشركين بقوةِ الإيمانِ والحقِّ والشورى، فإن الشورى مفتاحٌ مِن مفاتيحِ النجاحِ والتعاون، وجعلَ الرسولُ عليه الصلاة والسلام يستشير المسلمين قبلَ المعركةِ في مجلس شورى عقده لهذا الأمر الطارىء، وكان محورُ الشورى يدور على أَمْرَينِ اثنين، الخروجِ إلى لقاءِ المشركين، أو البقاءِ والقتالِ في داخلِ المدينة، وكانَ رأيُ المسلمينَ ينقسمُ إلى صنفين:

* صنفٌ مِن أهلِ البأس والقوةِ والسنِّ لم يجدوا في الانتظار ما يتفقُ مع ما عندهم من شجاعة وإقدام، فلا بدّ مِن أنْ يُلاقوهم خارجَ المدينةِ، وكان من هؤلاء أَسَدُ الله «حمزة بن عبد المطلب»[1]، وسعد بن عبادة، والنعمان بن مالك، وطلبوا مِن رسولِ الله ﷺ الخروجَ إلى المشركين، وقالوا:

«إنا نخشى يا رسولَ الله ﷺ أن يظنَّ عدوُّنا أنا كرهْنا الخروجَ إليهم جُبناً عن لقائهم فيكون هذا جرأةً منهم علينا»[2].

واندفع سيدُنا حمزةُ بنُ عبد المطلب يقولُ بحماسةٍ وكان صائماً:

«والذي أنزلَ عليكَ الكتابَ لا أطعمُ اليومَ طعاماً حتى أجالدَهم بسيفي خارجاً مِنَ المدينة».

أما النعمانُ بنُ مالك فقال:

---

(١) انظر حديثنا عن حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه من هذه السلسلة.

(٢) انظر المغازي (١/ ٢١٠) وما بعدها.

«يا رسولَ اللهِ لِمَ تحرمْنا الجنة؟ فوالذي لا إلَه إلا هوَ لأدخلَنّها، قال رسول الله ﷺ: «بم»؟.

قال: إني أحبُّ الله ورسولَه ولا أفرُّ يومَ الزحف.

فقال رسولُ الله ﷺ: «صدقتَ».

* وكان الصنف الآخر مِنَ الذين لم يحضروا بدراً، وأحبوا أن يكونَ لهم في هذه الموقعةِ شرفٌ مثلُ شرف بدر، وعبّروا عن ذلك بقولهم الذي ينضح بالصدق:

«كنا نتمنى مثلَ هذا اليومِ وندعو الله فقد ساقَه إلينا وقَرّبَ المسيرَ».

* وفي هذه اللحظاتِ الدقيقةِ تبرزُ صورةُ بطلنا مالكِ بن سِنان للمرة الأولى، بصورةٍ مشرقةٍ وموقفٍ جريءٍ ينبضُ بالإقدام والجرأةِ ونفسٍ تواقةٍ للفداء، وتقدّم بأدبٍ مِن رسولِ الله ﷺ، وقد لبسَ دِرْعَهُ وتقلّدَ سيفَه وقال:

«يا رسولَ اللهِ، نحنُ والله بينَ إحدى الحُسْنَيَيْنِ: إما أنْ يُظفِرَنا الله بهم، فهذا الذي نريدُ فيذلّهم الله لنا فتكون هذه وقعةٌ معَ وقعةِ بدر، فلا يبقى منهم إلا الشريد، والأخرى يا رسولَ الله يرزقُنا الشهادةَ، واللهِ يا رسولَ الله ما أبالي أيُّهما كان، إن كلاًّ لَفِيه الخيرُ»[1].

وشدّ أَزْرَ مالكِ بنِ سِنان بطلٌ آخرُ هو خَيْثَمةُ أبو سعد بن خيثمة، وتقدمِ مِن رسولِ الله ﷺ وأدلى دَلْوَهُ في الشجاعةِ وقالَ:

«لقد أخطأَتْني وقعةُ بدر، وقد كنتُ عليها حريصاً، لقد بلغَ مِن حِرصي أن ساهمتُ ابني في الخروجِ فخرج سَهمْه، فرُزقَ الشهادةَ، وقد كنتُ حريصاً على الشهادةِ. وقد رأيتُ ابني البارحةَ في النوم في أحسنِ صورةٍ يسرحُ في ثمارِ الجنةِ وأنهارِها وهو يقول:

الحقْ بنا ترافقْنا في الجنة، فقد وجدتُ ما وعدَني ربي حقاً.

---

(١) انظر مغازي الواقدي (١/ ٢١١).

وقدْ واللهِ يا رسولَ اللهِ أصبحتْ مشتاقاً إلى مرافقتهِ في الجنةِ، وقد كبرتْ سِنّي ورقَّ عظمي وأحببتُ لقاءَ رَبِّي، فادعُ الله يا رسول اللهِ أن يرزقَني الشهادةَ ومرافقةَ سَعْدٍ في الجنة. . . . »[1].

* وهزَّ حديثُ الشجاعةِ وحديثُ الاستشهادِ القلوبَ وظهرتِ الكثرةُ واضحةً في جانبِ الذينَ يقولونَ بالخروجِ إلى العدوِّ ومُناجَزَتِه. . . .

هكذا كان مجلسُ الشورى، وكلُّ واحدٍ من هؤلاءِ الأبطالِ أدلى برأيهِ وعبَّرَ عَن وجهةِ نظره في المعركة، وبذلك انتهى الرأيُ بالخروج لكثرة الذينَ أرادوه ورغبوه، وقد استجابَ الرسولُ الكريم لهم، فالحرب إنما هو الرأيُ والمكيدةُ والإعدادُ.

وعقدَ رسولُ الله ﷺ ألويتهَ الثلاثَة، وانطلقَ الجيشُ نحو «أُحُد» وكان سيدُنا مالكُ بنُ سِنان قربَ الرسولِ الكريم ﷺ، وقد اصطحبَ معه ابنَه أبا سعيد. ومضى رسولُ اللهِ حتى أتى مكاناً يقال له «الشيخان»[2] فعسكر به، ووقفَ عليه الصلاةُ والسلامُ يستعرضُ الجيشَ، فألفى عدداً مَنْ الصبيانِ الصغارِ، وقد بلغَ عددُهم سبعةَ عشرَ صبياً، ولم تتجاوزْ أعمارُهم خمسةَ عشرَ عاماً، من بينهم: أبو سعيد الخدريّ ابنُ سيدنا مالكِ بنِ سنان.

* وفي ذلك المكانِ، تقدّمَ الأبُ البطلُ مِن رسولِ الله ﷺ ليسجِّلَ موقفاً رائعاً ومشهداً نادراً، شهد له الرسولُ الكريمُ بصدقه ودوَّنَتْ كُتبُ المغازي والسير ذلكَ الموقفَ المشرقَ، فقد عرضَ سيدُنا مالكٌ ولدَه الوحيدَ أبا سعيد على رسولِ الله ﷺ ليقبلَه جندياً في صفوفِ المجاهدين، وحاولَ أن يُعطيَ رسولَ اللهِ صورةً واضحةً عن رجولةِ ولدِه فوصفَه بأنه يستطيعُ الجِلاد، وأنه قد اشتدَّ عودُه، وروى أبو سعيدٍ نفسُه هذه القصةَ فقال:

---

(١) المصدر السابق (١/ ٢١٢ و٢١٣).

(٢) الشيخان: موضع بالمدينة كان فيه معكسر رسول الله ﷺ ليلة خرج لقتال المشركين بأحد وهناك عرض الناس فأجاز من أجاز وردَّ مَنْ رَدَّ. انظر معجم البلدان (٣/ ٣٨٠).

«عُرضتُ يومَ أُحُدٍ على النبيِّ ﷺ وأنا ابنُ ثلاثَ عشرةَ، فجعلَ أبي يأخذُ بيدي ويقول: يا رسولَ الله إنه عَبْلُ العظام[1]. وجعل نبيُّ الله يصعِّد فيَّ النظرَ ويصوِّبه ثم قال: «رُدَّه»، فردّني»[2].

وارتسمَ الحزنُ على وجهِ الصبيِّ الصغيرِ إذ فاتَتْه فرصةُ الجهاد، وعادَ إلى المدينةِ مع ثُلّةٍ مِنَ الصبيان الذين رَدَّهم رسولُ الله ﷺ لِصِغَرِهم، وكانَ مِن هؤلاءِ الصغارِ الأبطالِ: عبدُ الله بنُ عمر بن الخطاب، وزيدُ بنُ أرقم[3]، وأسامةُ بنُ زيد، وأُسَيدُ بن ظهير، وزيدُ بن ثابت، وغيرهم.

* * *

استشهـــادُه:

* انطلقَ رسولُ الله ﷺ إلى أُحُدٍ وعسكرَ بجيشِه مستقبِلاً المدينةَ، وهنالك عَبَّأَ جيشَه وهيّأَهم صفوفاً للقتال، وانتخب منهم فصيلةً مِنَ الرُّماةِ، قوامُها خمسون، بقيادة عبدِ الله بنِ جُبير الأنصاريّ، وأوصاهم بالتمركزِ على أعلى الجبلِ وعدمِ مغادرتِهم أماكِنَهم مهما كانت ظروفُ المعركة وقال لهمَ:

«إن رأيتمونا تخطَّفَنا الطيرُ فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أُرسِلَ إليكم، وإن رأيتُمونا هَزَمْنا القومَ ووطئناهم فلا تبرحوا حتى أُرسلَ لكم»[4].

* وتقاربَ الجمعانِ، واشتدّ القتالُ بينَ الطرفَيْن، وخاضَ سيدنا مالكُ بنُ سِنان المعركة معَ مَن خاضَ غِمارَها، فكانَ مِن ذوي القلوبِ التي لا يتطرّقُ إليها وهنٌ أو تخاذلٌ في أيِّ موقفٍ مِن مواقفِ الحقِّ والبطولةِ، وها هو يبدو بين الصفوف وقد استلَّ سيفَه والموتُ يتراقصُ فوقَ حَدِّهِ، أما المسلمونَ فقد أبدَوا من ضروبِ البسالةِ ما جعلَهم في قمةِ الإقدامِ، إذ حقّقوا في أَوّلِ المعركةِ مِنَ المعجزاتِ الحربيةِ ما حيرَ ألبابَ عدوِّهم وأفقدَهم صوابَهم، وكانَ

---

(١) عبل العظام: أي ضخم أو كامل العظام.

(٢) انظر سير أعلام النبلاء (٣/ ١٦٩)، والاستيعاب (٣/ ٩٠).

(٣) انظر حديثنا عن زيد بن أرقم من هذه السلسلة.

(٤) الحديث رواه البخاري في كتاب المغازي (٧/ ٣٤٩) حديث رقم (٤٠٤٣).

المشركونَ يتلاشَوْنَ أمامَهم ويتفرّقونَ خوفاً مِن أن يكونوا طعاماً لِسُيوفهم.

وهكذا سجّل جيشُ المسلمينَ انتصاراً ساحقاً مرة ثانيةً لا يقلُّ رَوْعةً عن سابقِه في بدر، غيرَ أن غلطةَ عددٍ كبيرٍ مِنَ الرُّماةِ، ونزولَهم مِن على الجبلِ لجَمْعِ الغنائم والأسلاب أدَّتْ إلى إلحاقِ الخسائرِ بالمسلمين، وتبدَّلَ الموقفُ لصالحِ المشركينَ، حيثُ انتهزَ خالدُ بن الوليد ـ وكان من فرسان قريش ـ هذه الفرصةَ النادرة، واعتلى الجبلَ وتبعَه عكرمةُ بنُ أبي جهل مع عدد من فرسانِ قريش. وحملَ عكرمةُ على أمير الرماةِ عبدِ الله بنِ جُبير وقتلَه بعد أن دافعَ عَن نفسِه، وقتلوا كذلك بقيةَ الرُّماةِ ومثّلوا بهم وخاصةً بأميرِهم، ثم باغتوا جيشَ المسلمينَ، فأدخلوا الإرباكَ في صفوفِهم، فعمّتِ الفوضى وانتشرَ الذعرُ وتفرّقَ المسلمونَ، وبقيَ رسولُ الله ﷺ في ثُلَّةٍ مِن أصحابِه، وأخذَ الصحابةُ هؤلاء في طريقةِ الدفاع عن النبيِّ ﷺ عليه الصلاة والسلام، حيثُ تضاعفَ ضغطُ المشركينَ على الرسولِ الكريم ومَنْ حَوْلَه.

وكان أربعةٌ من قريشٍ قد تعاهدوا وتعاقدوا على قتلِ رسولِ الله ﷺ وتواصَوْا فيما بينهم بذلك، وقد عرف المشركون نِيّتَهم الخبيثةَ هذه، وهؤلاء النفرُ هم: عبدُ اللهِ بن شِهاب، وعتبةُ بنُ أبي وقّاص، وعمرو بنُ قَمِئةَ، وأبيُّ بنُ خَلَف.

فأما عبدُ الله بنُ شهاب، فقد شجَّ رسولَ الله ﷺ في جبهتِه حتى سالَ الدمُ على وجهِه الشريف.

وأما عتبةُ بنُ أبي وقّاص، فقد أصابَ شفةَ النبيِّ السُّفلى وكسرَ رباعِيَّتَه اليمنى.

وأما عمرو بنُ قمئة، فقد أصابَ وجنتَه الشريفةَ حتى دخلَتْ فيها حلقتان مِن حلقِ المغفرِ[1]، ثم ضربه بالسيف على عاتقه، وظل رسولُ الله ﷺ يجدُ ألمَ هذهِ الضربةِ شهراً.

---

(١) المغفر: قناع من حديد يوضع على الوجه.

وأما أُبيُّ بنُ خلف، فقد شدَّ على رسولِ الله وهو يقول: يا كذاب أينَ تَفِرُّ؟ فطعنَه رسولُ الله ﷺ بحربةٍ في عنقِه، فمال على فرسِه وهو يخورُ خوارَ الثور، ثم مات في الطريق والمشركون عائدونَ إلى مكةَ.

* وقامَ المسلمونَ ببطولاتٍ نادرةٍ ومشرِّفةٍ خلالَ تلكَ اللحظاتِ العصيبةِ، وفي ذلك الوقتِ اشتدَّتِ الحماسةُ في الدفاع عن رسولِ الله ﷺ، وبخاصةٍ لما رأوا الخطرَ يقتربُ منه، فاجتمعَ حوله ثُلَّةٌ مِن أصحابِه وأبطالِه منهم: أبو دُجانةَ الأنصاريّ، ومصعبُ بنُ عُمير، وعليّ بنُ أبي طالب، ومالكُ بن سِنان بطلنا الآن، وقتادةُ بنُ النعمان، وعمرُ بنُ الخطاب، وحاطبُ بن أبي بَلْتَعَة، وأبو طلحة الأنصاريّ، وسهلُ بنُ حُنيف وغيرهم.

وكلُّ واحدٍ منهم أظهرَ مِن ضروبِ الصبرِ والشجاعةِ ما جعلَه يتبوَّأُ المركزَ الأسمى في ميدانِ التضحيةِ والوفاء، فقدْ قامَ أبو دُجانة أمامَ رسولِ الله ﷺ فترّسَ عليه بظهرِه والنّبلُ يقعُ عليه، وتبعَ حاطبُ بنُ أبي بلتعةَ عتبةَ بنَ أبي وقّاص ـ الذي كسرَ رباعيةَ رسولِ الله ـ فضربَه بالسيفِ حتى طرحَ رأسَه ثمّ أخذَ فرسَه وسيفَه، ونظرَ مالكُ بنُ سِنان فرأى الدمَ يسيل من وجنةِ رسولِ الله ﷺ فنسيَ الدنيا وطارَ صوابُه وتقدّم مِنَ النبيِّ الكريمِ ﷺ وامتصَّ الدم مِن على وجنتِه الشريفة وابتلعَه، فقالَ له رسولُ الله ﷺ: «مُجَّه» فقال: والله لا أمجُّه أبداً. فقيل له: أتشربُ الدمَ؟ فقال: نعم، دمَ رسولِ الله ﷺ، قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ مَسَّ دَمُه دَمِي لمْ تَمَسَّهُ النَّار»[1].

ثم انطلق سيدُنا مالكُ بنُ سِنان يبحثُ عمّن أصابَ رسولَ الله ﷺ، فاعترضَه غُرابُ بنُ سفيانَ الكِنانيّ[2]، أحدُ فرسانِ المشركين، وضربَه بسيفِه فجرحَه جرحاً بليغاً، ولم يلبثْ وقتاً طويلاً حتى قضى نحبَه شهيداً والبسمة لا تفارقُ فمَه، وكيف لا يكونُ مبتسماً وقد حَظِيَ بملامسة وجهِ الرسولِ ﷺ في آخرِ لحظات حياتِه واختلطَ دمُه بدمِه الشريف؟! أَعْظِمْ بها مِن مَكْرُمة..

---

(١) انظر أنساب الأشراف (١/ ٣٢١)، والمغازي (١/ ٢٤٧).

(٢) الاستيعاب (٣/ ٣٥٠).

* ولما انصرفَ المشركونَ أمَرَ رسولُ الله ﷺ بِدَفْنِ القتلى حيثُ صُرِعوا وقال:

«نفّوهم بدمائهم وجراحهم وانظروا أكثرَهم جمعاً للقرآنِ فاجعلوه أمامَ أصحابِه في القبرِ».

وكان المسلمونَ يدفنونَ شهداءَهم بثيابِهم ودمائِهم دونَ أنْ يغسلوا، وكانوا يَجعلونَ كلَّ اثنين وكلَّ ثلاثةٍ في القبرِ، لِما كانَ عليه الصحابةُ الكرامُ رضوانُ الله عليهم مِنَ الإعياءِ والجراحِ، وقد بلغَ عددُ الشهداءِ قرابةَ سبعينَ شهيداً.

* * *

الخلف الصالح:

* تركَ سيدُنا مالكُ بنُ سنان رضيَ الله عنه ولده الأثير الفطن أبا سعيد الخدري صبياً لا يتجاوزُ ثلاثَ عشرةَ سنةً مِن عمرِه، ولكنه غرس في نفس صبيّه الصغير حبَّ اللهِ وحبَّ رسولِه الكريم، فآتتْ غرسَتَه أُكلَها سريعاً، فخلدَ ذكره وذكر ابنه أبي سعيد إلى قيامِ الساعة، فسيدُنا أبو سعيدٍ الخدري أحدُ الصحابةِ الكرام المكثرين لروايةِ الحديث النبويّ الشريف[1]، وقد بدأ أبو سعيد حياته عظيماً وظلّ عظيماً إلى أن لقي الله سبحانه وتعالى.

* وعندما استُشهد مالكُ بنُ سنان في أُحُد سمعَ ابنهُ بذلك، فجاءَ مع غلمانٍ مِن قبيلتِه نحوَ ميدانِ المعركةِ ينتظرون سلامةَ رسولِ الله ﷺ، وكان الصّبيُّ النّبيهُ في مقدمة الغلمانِ يتلهّف على رؤيةِ رسولِ الله ﷺ، فلما لَقِيَه

---

(١) وكان في مقدمة هؤلاء الصحابة سيدنا أبو هريرة وعبد الله بن عمر بن الخطاب وأنس بن مالك وعبد الله بن عباس وجابر بن عبد الله رضوان الله عليهم وقد نظمهم أحد الشعراء ـ وكانوا سبعة ـ فقال وقد عدّ معهم أم المؤمنين عائشة:

سبع من الصحب فوق الألف قد نقلوا ... من الحديث عن المختار خير مضر
أبو هريرة، سعد، جابر، أنس ... صدّيقة وابن عباس كذا ابن عمر

النبيُّ الكريمُ قال له: «سعد»؟ ولنترك سيدَنا أبا سعيد نفسَه يحدثُنا عن هذا اللقاءِ المباركِ المثمرِ فيقول مجيباً رسول الله:

«قلتُ: نعم، بأبي وأمي، ودنوتُ منه فقبّلتُ رُكْبَتَيْه وهو على فَرَسِه. . . . فقال رسول الله ﷺ: آجرَكَ الله في أبيكَ».

* ويتابع سيدُنا أبو سعيد حديثَه يصفُ لنا حالةَ رسولِ الله ﷺ ويصفُ وجهَه الشريفَ فيقول:

«فنظرتُ إلى وجهه فإذا في وَجْنَتَيْهِ مثلُ موضعِ الدرهمِ في كل وجنةٍ، وإذا شجّةٌ في جبهته وإذا شفته السفلى تدمى، وإذا رباعيتُه اليمنى شَظِيّةٌ، وإذا على جُرحِه شيءٌ أسودُ فسألَ عن ذلكَ فأخبروه».

* وأسرع أبو سعيدٍ إلى أهلِه يزفُّ لهم نبأَ وصولِ رسولِ الله ﷺ وعودتِه سالماً، وأخبرهم أنّ الله قد اتّخذَ أباه شهيداً معَ ثُلّةٍ مِنَ الشهداءِ أيضاً، وحَمِدَ جميعُهُم الله على ذلك وقاموا لملاقاةِ رسولِ الله ﷺ ولسانُ حالِهم يقولُ: كلُّ مصيبةٍ بعدَكَ يا رسولَ الله هَيِّنَةٌ، أَما إذْ رأيناكَ سالماً فقد هانَتِ المصيبةُ. . . . .

* تلكَ هيَ الأسرةُ الكريمةُ الفاضلةُ، أسرةُ سيدِنا مالكِ بنِ سِنان، استُشهدَ رضيَ الله عنه ولم يتركْ لها السُّرُرَ المرفوعةَ ولا النمارقَ المصفوفةَ ولا الزرابيَّ المبثوثةَ، ولكنه تركَ فيها محبةَ الله ورسولِه وغنى النفسِ، فأغناهمُ اللهُ مِن فضلِه وكَرَمِهِ، ويتحفُنا ابنُه أبو سعيدٍ عن ذلك فيقول:

«استُشهد أبي يومَ أُحُدٍ، وتَرَكَنا بِغَيْرِ مالٍ فأصابَتْنا حاجةٌ شديدةٌ، فقالت لي أمي: أيْ بُنَيّ، ائتِ رسولَ الله ﷺ فسَلْه لنا شيئاً، فجئتُ فسلّمتُ وجلستُ وهو في أصحابِه جالسٌ فاستقبلَني بقوله:

«إِنّه مَنْ يستغنِ يُغْنِهِ الله ومَنْ يستعففْ يُعِفهُ الله ومَنْ يتصبّرْ يُصَبِّرْهُ الله»[1].

فقلتُ: ما يريدُ غيري. فانصرفتُ ولم أكلّمْه في شيء.

---

(١) انظر الإصابة (٢/ ٣٣).

فقالتْ لي أمي: ما فعلتَ؟ فأخبرتها الخبرَ. فصبَّرَنا اللهُ ورزَقَنا شيئاً فبلّغنا، حتى ألحّت علينا حاجةٌ أشدّ منها، فجئتُ لأسألَ رسولَ الله ﷺ وهو في أصحابه جالسٌ فاستقبلَني بالقولِ الأولِ وزادَ فيه:

«ومَنْ سألَ ولهُ قيمةُ أوقيةٍ فهو مُلْحِفٌ».

فقلت: الياقوتةُ ناقتي خيرٌ مِن أوقية. فرجعتْ ولم أسألْه، فواللهِ ما رجعتُ إلى نبيِّ الله ﷺ أسألُه شيئاً مِنَ الفاقةِ حتى مالتْ علينا الدنيا ففرّقَتْنا أو أغرقَتْنا إلا مَن عصمَ الله».

* وهكذا أكرمَ الله هذهِ الأسرةَ القانعةَ الراضيةَ، أسرةَ شهيدٍ أكرمَه الله في جناتِه يتبوّأُ منها حيثُ يشاءُ فنعمَ أجرُ العاملينَ.

* * *

بشـارتـه بالجـنـة:

قال تعالى:

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩/ ١٧٠].

* سيدُنا مالكُ بنُ سِنان رضي الله عنه واحدٌ مِن صحابةِ رسولِ الله ﷺ، الذين بذلوا حياتَهم مِن أجلِ إعلاءِ كلمةِ الله، وواحدٌ من أولئك الأبطالِ الذين علّمهم رسولُ الله ﷺ دروسَ الثباتِ والإقدام في أحلكِ الظروفِ، وكان سيدُنا مالكُ ممّن أتقنَ هذا الدرسَ قولاً وعملاً، فكان وهو يخوضُ غِمار المعركةِ يرى الموتَ يتخطّفُ إخوانَه مِنْ حَوْله فلا يخشى ولا يفرُّ، ولا يحاولُ أن يُبقي على حياتِه ولو ماتوا، فكلُّ واحدٍ منهم كان يدافعُ عن رسولِ الله وقد نسيَ نفسَه، وسيدُنا مالكُ بنُ سِنان ممن أصابَتْه الجراحُ ولكنه ثبتَ وصمدَ صمودَ الأشدّاء، واستطاعَ أن يقتربَ مِن رسولِ الله ﷺ وأن يمتصَّ بفمِه الدمَ مِن

وَجْنَةِ الرسول الكريم ويبتلعَه، فاستحقَّ مِنَ الله التكريمَ ونالَ بصدقِ نيّتِهِ بشارةَ رسولِ الله بالجنةِ فقال:

«مَنْ مسَّ دمي دمهَ لم تمسَّه النار»[1].

وسيدُنا مالكُ بنُ سِنان ممّن خالطَ دمُه دمَ رسولِ الله ﷺ فقد روى «الهيثميُّ» في «مجمع الزوائد» الحديثَ على النحو التالي:

«مَن خالطَ دمي دمَه لا تمسُّه النارُ»[2].

وفي لفظِ هذا الحديث أيضاً بشارةٌ لسيدِنا مالكٍ بالجنة.

* وقال كذلكَ عنه رسولُ الله ﷺ مؤكِّداً أنه ممّن يدخلُ الجنةَ إن شاءَ الله فقال:

«مَن أراد أنْ ينظرَ إلى رجلٍ مِنْ أهلِ الجنة فلينظرْ إلى هذا»[3] وأشار إلى مالكِ بنِ سِنان.

وفي لفظٍ آخرَ قال عليه الصلاة والسلام:

«مَنْ سَرَّهُ أنْ ينظرَ إلى مَنْ لا تمسُّه النارُ فلينظرْ إلى مالكِ بنِ سِنان».

* وروى الطبرانيُّ عن أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه قال: أُصيبَ وجهُ النبيِّ ﷺ فاستقبلَه مالكُ بنُ سِنان فمصَّ جُرْحَه ثم ازْدَرَدَهُ ـ ابتلعه ـ فقال ﷺ:

«من أحبّ أنْ ينظرَ إلى مَنْ خالطَ دمي دمَه فلينظرْ إلى مالك بن سنان»[4].

* والآنَ... ونحنُ نودِّعُ سيدَنا مالكَ بنَ سِنان وشهداءَ أُحُد نوردُ ما رواه ابنُ إسحاقَ عن فوزِهم جميعاً ببشارةِ النبيِّ الكريمِ بالجنة، وذلكَ حينَ أرادَ أبو سُفيانَ بنُ حربٍ الانصرافَ مِن أُحُدٍ أشرفَ على الجبلِ ثم صرخَ بأعلى

---

(١) انظر المغازي (١/ ٢٤٧) وتاريخ الإسلام للذهبي (٢/ ١٩٣) والسيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٨٠).
(٢) انظر مجمع الزوائد (٨/ ٢٧٠).
(٣) الإصابة (٣/ ٣٢٥) وانظر السيرة الحلبية (٢/ ٥١٥).
(٤) عن حياة الصحابة (١/ ٢٧٩).

صوته: أنعمتَ[1]، إنّ الحربَ سِجالٌ، يومٌ بيومِ بدر، اعلُ هُبَلْ ـ أي ظهر دينُك ـ فقالَ رسولُ الله ﷺ لعمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه: «قمْ يا عمرُ فأجبْه فقلْ: الله أعلى وأجلّ، لا سواء قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار»[2].

* كما كانَ لشهداءِ أُحُد أثرٌ عظيمٌ في نفس رسولِ الله ﷺ، فقد روى الإمامُ أحمدُ رحمه الله عن جابر بن عبدِ اللهِ رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقولُ بعد أن ذكرَ أصحابَ أُحُد:

«أما واللهِ لوددتُ أني غُودرتُ مع أصحابِه بحضنِ الجبلِ»[3] ـ يعني سفح الجبل ـ.

* * *

* ذلكم هو الصحابيُّ الكبيرُ «مالك بن سنان» الشهيدُ السعيدُ الذي نالَ الأمنيةَ العظيمةَ ـ الحظوةَ عند اللهِ ـ فكانَ مِنَ الذين رضيَ الله عنهم ورَضُوا عنه.

وفي تاريخِ المسلمينَ المُشرقِ في أُحُدٍ سجَّلَ سيدُنا مالكُ بنُ سِنان رضي الله عنه أروعَ البطولاتِ وأجملَ آياتِ الشجاعةِ والإقدامِ، ورسمَ أجملَ صورِ الحبِّ للهِ ورسولِه فكان مِنَ الذينَ قالَ الله فيهم:

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٣٢] صدق الله العظيم. . . .

* * *

---

(١) أنعمت: اسم للفعل الحسن ـ وكان أبو سفيان يقصد الأزلام وكان قد استقسم بها حين خروجه إلى أحد.

(٢) انظر البداية والنهاية (٤/ ٣٨).

(٣) البداية والنهاية (٤/ ٤٤).

سيدنا

عمرو بن الجموح

رضي الله عنه

* «نعم الرجل عمرو بن الجموح».
* «كأني أنظر إليك تمشي برجلك هذه صحيحة في الجنة».
* «والذي نفسي بيده، إن منكم لمن لو أقسم على الله لأبرّه، منهم عمرو بن الجموح، ولقد رأيته يطأ في الجنة بعرجته».
* «يا هند، قد ترافقوا في الجنة جميعاً، عمرو بن الجموح، وابنك خلاد، وأخوك عبد الله».

مقــدمــة:

* كانَ العربُ قبلَ البعثةِ تابعينَ لقريشٍ وأهلِ مكةَ في أمورِ العقيدةِ والديانةِ، وكانوا ينظرون إلى قريش نظرةَ إكبار، فهم سدَنَةُ البيتِ وقادةُ الدين، يقتدون بهم في الاعتقاد والعبادة، وكانوا خاضعين شبهَ خضوعٍ كاملٍ للوثنية السائدةِ على أرض العرب، يعبدون مِنَ الأصنام ما كانت تعبدُ قبيلةُ قريشٍ، وأهلُ مكة، غير أنّ هذه الأصنامَ كان لبعضها تعظيمٌ في النفوس أكثر مِن بعضها الآخر، وكانت العلاقةُ والارتباط بها أقوى مِنْ سائرها، وذلك لاعتباراتٍ كانوا ينظرون إليها بمقاييس ومعايير خاصة بهم.

* تُعتبر «مَنَاة»[1] مِنَ الأصنام الهامةِ التي احتلّتْ منزلةً كبيرةً في نفوسِ العرب، وكانت مناةُ هذه لأهلِ المدينةِ ومَنْ حَوْلها، وتعتبرُ مِن أقدمِ الأصنامِ التي عرفها العرب، وكان الأوسُ والخزرجُ أشدَّ إعظاماً لها من سائرِ العرب قاطبة، وكانوا يُهِلّون لها شركاً بالله تعالى، وتقع مناةُ حذوَ «قديد» ـ الجبل الذي بين مكةَ والمدينةِ مِن ناحية الساحل ـ.

وكانتِ «اللاتُ» لأهلِ الطائفِ يعظِّمونها أكثرَ مِن غيرها ويُهلّون لها أيضاً.

أما أهلُ مكةَ أنفسُهم فكانوا يعظِّمون «العُزّى» ويجعلونها في مقدمةِ الأصنامِ ويحلفون بها مع اللات عندما يقسمون.

* عُرف أهلُ المدنِ هذه أنهم أكثرُ تعصّباً وَحَميَّةً لأصنامهم مِن سائر العرب، وقد بلغتْ هذه الأصنامُ مكانةً عظيمةً في نفوسِهم، إذْ كان مِن شأنِ الأشرافِ في الجاهليةِ أن يتخذَ أحدُهم صنماً لنفسِه يهلُّ له، ويتبرّك به، وكان مِن بينِ هؤلاءِ الأشراف، سيدٌ مِن سادات بني سَلِمة «عمرو بنُ الجموح ابنِ زيدِ الخزرجيّ الأنصاريّ»[2] وكان سادِناً لأصنامِ قومه أيضاً.

---

(١) انظر كتاب الأصنام لابن الكلبي (١٣) وانظر كذلك معجم البلدان (٥/ ٢٠٥).

(٢) انظر سير أعلام النبلاء (١/ ٢٥٢).

* كان عمروُ بنُ الجموح قد اتّخذ في دارِه صنماً صُنع مِنَ الخشب النفيس، وكان يبالغ في العنايةِ به، وقد عكف على رعايتِه زمناً طويلاً حتى ناهز عمرهُ الستين، وهو ما يزالُ يرعى صنمه الذي يُدعى «مَنَاة» كالصنمِ الذي يعظِّمه قومُه في مكة.

وكان لعمرو بنِ الجموح أربعةُ أولاد، وهم: معاذُ بن عمرو قاتلُ أبو جهل[1]، ومعوِّذُ، وخلاّدُ، وعبدُ الرحمن، وابنةٌ أخرى تدعى هند، أما زوجُه فهي هندٌ بنت عمرو بنِ حرام[2] أختُ «عبدِ الله بنِ عمرِو بنِ حرام» رضي الله عنه، وكانت زوجُه وأولادُه قد استجابوا لداعي الإسلام في المدينة «مصعبِ بنِ عُمير» سفيرِ رسول الله ﷺ، وآمنَ أولادُه مع أمِّهم، وأسلَم كذلك معظمُ أفرادِ قبيلتِه وقومِه، ولم يتأخْر عَنِ الإسلامِ سواه، فكيف أسلمَ عمروُ بنُ الجموح؟ وكيف تخلّى عن صنمه «مناة»؟.

تعالَ نتعرف معاً على إسلام الصحابيّ الكبير «عمرِو بنِ الجموح»، وقصته الطريفة.

* * *

إسـلام عمـرو وهـدايتـه:

* أوجسَ عمرُو بنُ الجموح خِيفةً مِنَ الداعيةِ المكِّيِّ مصعبِ بنِ عُمير، فقد استطاعَ هذا الشابُّ المكِّيُّ أن ينتزعَ كبارَ الأشرافِ مِن شَرَكِ الوثنية، وقد انضمَّ إلى ركبِ الإسلامِ عددٌ غيرُ قليلٍ مِنَ الأوس والخزرج، وأعلنوا إسلامَهم، وقد نُميَ إليه أن سيِّدَ الأوس «سعدَ بنَ معاذ» قد أسلم وقومُه أجمعين، وكما نُمي إليه أنَّ كثيراً من أبناء قبيلتِه بني سَلِمة قد فارقوا دِينَهم

---

(١) المصدر السابق (١/ ٢٤٩).
(٢) هي هند بنت عمرو بن حرام بن ثعلبة الأنصارية السلمية، أسلمت هند وبايعت رسول الله ﷺ، وشهدت هند خيبر مع الرسول الكريم ﷺ، وكان لهند أربع أخوات وهن: الشموس ولميس وأم عمرو وأم معاذ، وكلهن أسلمن وبايعن الرسول ﷺ. وقد شهدت هند غزوة أحد مع زوجها عمرو بن الجموح رضي الله عنهما.

ودِيَن آبائهم، وانضمّوا إلى رعيلِ المسلمين، حتى إنّ صديقَه وصفيَّه «عبدَ اللهِ ابنَ عمرِو بن حرام»[1] قد أعلن إسلامه، وكذلك ولدُه الأثيرُ لديه «معاذُ بن عمرو» قد أسلم أيضاً، وقد شهد كلٌّ مِن عبدِ الله صديقِه ومعاذٍ ولدِه العقبةَ وبايعا الرسولَ ﷺ، وأضحى عبدُ اللهِ بنُ عمرِو بنِ حرام أحدَ النقباء في تلك الليلة المباركة؛ وليسَ هذا هو الأمر فحسب، بل استيقظ بنو سَلِمة ذات صباحٍ فإذا أصنامُهم محطَّمةٌ قد عبثتْ بها الأيدي وطُرحت أشلاؤها ذاتَ اليمين وذات الشمال، ولم يكن يسخرُ بهذه الأصنام، إلا فتيةٌ مِن بني سَلِمة آمَنوا بربِّهم، من هؤلاء الفتيان «معاذُ بنُ جبل» صديقُ معاذِ بنِ عمرو بن الجموح وتِرْبِه يساعدُه في ذلك «عبدُ الله بن أُنَيس»[2] و«ثعلبةُ بنُ عنمة»[3] رضي الله عنهم، وبات عمرُو بنُ الجموح يخشى على أولادِه أن يتخلّوا عن الأصنام وعن دِين الآباء والأجداد، وخشي كذلك أن تصيبَهم الآلهة بسوءٍ لأجل ما يُصنع بها ويُسخر منها، وراحتِ الهواجسُ تطاردُه وتقضُّ مضجعَه، وخاف أن يتّبعَ أولادُه ما يدعو إليه ذاك الشابُ المكِّيُّ ذو البيان الساحر، فأفضى ما يدورُ في خاطرِه وما يساورُه إلى امرأتِه وقال لها:

«لا تدَعي أحداً من عيالِك في أهلِك حتى ننظرَ ما يصنعُ هؤلاء» فقالت له امرأته: أفعلُ؛ ولكن هل لك أن تسمعَ مِن ابنِك معاذٍ ما روى عن الشابّ المكّيِّ مصعبِ بنِ عُمير؟.

قال عمرو مستنكراً: فلعلّه صبأ؟.

فأجابته امرأته ـ وهي ترجو الله أن يذعنَ للحقّ ـ قائلة:

لا، ولكن كان مع القوم يسمع.

---

(١) انظر عبد الله بن عمرو بن حرام في هذه السلسلة.

(٢) انظر عبد الله بن أنيس في هذه السلسلة.

(٣) هو سيدنا ثعلبة بن عنمة بن عدي الأنصاري السلمي والخزرجي، شهد العقبة في السبعين، وشهد بدراً وأحداً، وهو أحد الذين كسروا آلهة بني سلمة مع معاذ بن جبل وعبد الله بن أنيس، قتل ثعلبة بن عنمة يوم الخندق وقيل يوم خيبر رضي الله عنه.

* وأرسلَ عمرو إلى ابنهِ معاذٍ وقال له: أخبرني ما سمعتَ من كلامِ مصعب، فقرأ عليه ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ. . .﴾.

* كان عمروُ بنُ الجموحِ يصغي لتلاوةِ ولدِه بكل حواسِّه، وأحسّ بجمالِ القرآنِ وطِيبه وحسنِ إيقاعِه في النفس، فقال لابنه:

«ما أحسنَ هذا الكلام وأجملَه، وهل كلُّ كلامِه مثلُ هذا»؟ فقال له ابنه وقد لاحَظَ تأثُّرَه بالقرآن:

«نعم يا أبتاه وأحسنُ مِن هذا فهل لك أن تبايعَه؟ فقد صنع ذلك عامةُ قومك»[1].

قال عمرو: لست فاعلاً حتى أنظرَ في هذا الأمر؛ ثم بعث إلى مصعبِ بنِ عُمير ومَن تبعه وقال لهم:

«ما هذا الذي جئتمونا به»؟.

قالوا: إن شئتَ جئنا وأسمعناك.

فواعدَهم فجاؤوا، فقرأ عليه مصعبُ بنُ عُمير رضي الله عنه ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ. . .﴾[2] فقرأ ما شاء أن يقرأ.

فقال عمرُو بن الجموح: إنّ لنا مؤامرةً في قومِنا ـ وكان سيِّدَ بني سَلِمة ـ فخرجوا، فدخل على صنمه مناة[3] فقال: «يا مناة تعلم والله ما يريد القومُ غيرَك، فهل عندك مِن نكير»؟[4].

---

(١) عن حياة الصحابة بتصرف (١/ ٢٣١) وانظر كذلك دلائل النبوة للأصفهاني (١/ ٤١١ ـ ٤١٤).
(٢) أول سورة يوسف عليه السلام.
(٣) ورد في بعض المصادر أن اسم الصنم «مناف».
(٤) انظر تاريخ الإسلام للذهبي المغازي (٢١٥).

* ترك عمروُ بن الجموح صنمَه الأثيرَ وخرج، وفي الليل تسلّلَ ولدُه معاذُ بنُ عمرو مع صديقِه معاذِ بنِ جبل مع فتية من بني سَلِمة وأدلجوا إلى المكان الموجود فيه «مناة» فألفوا رائحةَ الطيبِ تنبعثُ منه، فحملوه ثم طرحوه في إحدى حفر بني سَلِمة وكانوا يلقون فيها أقذارَهم، ونكسوه على رأسِه، ولما أصبح عمرو دخل على صنمِه ليتبرَّكَ به، فلم يره في مكانه فصاح عالياً:

«ويلكم مَن عدا على إلهنا هذه الليلة»؟!.

ولكنّ صياحَه يذهبُ سدى، فلا يجيبُه إلا صدى صوتِه مِن بعيد، ثم بدأ البحثَ عن صنمِه، فلم يتركْ مكاناً في البيت إلا فتش فيه عنه، ثم غدا بعيداً فوجده في إحدى الحفرِ القذرةِ منكساً على رأسِه في منظرٍ سيِّىء، فحمله وعاد إلى البيتِ والغضبُ يرتسمُ على وجهِه، ثم غسلَه وطهَّره، وسكبَ عليه الطيبَ وخاطبه قائلاً:

«وايمُ الله، لو أني أعلمُ مَن صنعَ بك هذا لأخزينّه» ثم وضع صنمَه «مناةَ» في مكانه، وعند المساء تكررتْ فعلةُ الأمسِ، وعدا الفتيةُ مع ابنهِ معاذِ بنِ عمرو على الصنم وألقوه في حفرةٍ أخرى أكثرَ قذارةً، ولما أصبح عمروُ بن الجموح، راح يبحث عن صنمِه حتى ألفاه في أسوأ حالٍ منكساً على رأسِه أيضاً.

فحمله وعاد به ثم غسله وأكثر مِن تضميخِه بالطيب الفاخرِ وأعاده إلى مكانه، غير أن فتيةَ بني سَلِمة راقت لهم هذه العمليةُ الطريفة، فكانوا يعيدون الكرةَ كلَّ يوم، ولما أكثروا عليه ذلك، استخرجه من حيث ألقوه يوماً، وقد ضاق بهم صدرُه، وقرر في نفسه شيئاً ما وتساءل:

إلى متى أذهب وأُخرج «مناة» من الأقذار؟.

ومَن الذي يعدو على صنمي ويتجرّأُ عليه؟.

ألا يخشى غضبَ الآلهة؟!....

ولكن سأجرب هذه المرة الأخيرة....

* نهض عمروُ بنُ الجموح وأتى بالصنم فغسله وطهره وطيّبه، ثم جاء بسيفِه فعلّقه عليه ثم خاطبه قائلاً: «إني واللهِ ما أعلمُ مَن يفعلُ بك ما ترى، فإن كان فيك خيرٌ فامتنعْ فهذا السيفُ معك».

ولما أمسى عمرو بن الجموح ونام، انتظره الفتيان حتى استغرق في نومه، ثم عَدَوا على الصنم كالعادة، فألفوا سيفاً معلقاً في عنقه هذه المرة، فأخذوا السيف، ثم خطرت في بالهم فكرة، قد تجعلُ عمرَو بن الجموح يستيقظ من غفلِته هذه، فأخذوا كلباً ميتاً فقرنوه مع الصنم بحبلٍ، ثم قذفوا بهما في بئر من أبيار بني سَلمة تتجمع فيها الأقذار، ولما أصبح غدا على صنمه فلم يجدْه، فخرج في طلبه حتى وجده في تلك البئر القذرة منكساً ومقروناً بكلب ميت، ولم يجدِ السيفَ معه، فأحسّ أن صنمَه لا يستطيعُ دفعَ الأذى عن نفسِه، فتركه في البئر واحتقره، ثم كلّمه مَنْ أسلم مِن قومه، فأعلن إسلامَه، وودّع الأصنام وداعاً لا لقاءَ بعده، وأنشأ يذمُّ صنَمه، ويشكرُ الله الذي أنقذه مما كان فيه من العمى والضلال ويقول:

تالله لو كنتَ إلهاً لم تكن ... أنت وكلبٌ وسْط بئر في قَرَنْ[1]
أفٍّ لملقاك إلهاً مستدن[2] ... الآن فتشناك عن سوءِ الغَبَنْ[3]
الحمدُ لله العليِّ ذي المنن ... الواهب الرزاق ديّان الدِّيَنْ
هو الذي أنقذني مِن قبل أن ... أكون في ظلمة قبر مرتهَنْ[4]

* * *

من الظلمات إلى النور:

* منذ اللحظةِ الأولى التي أعلن فيها عمرو بن الجموح إسلامَه، اجتثّ

---

(١) قرن: حبل.
(٢) أي: ذليل مستعبد.
(٣) الغبن: السفه.
(٤) انظر البداية والنهاية (٣/ ١٦٦). وانظر كذلك دلائل النبوة للأصفهاني (١/ ٤١٤ و٤١٥).

الإيمانُ الضلالَ والزيفَ مِن قلبه، ووجد في الإسلام متعةً ولذة، حيث اكتشفَ حياتَه مِن جديد بعد أن قضى زمناً طويلاً في ظلماتِ الجاهليةِ ومتاهاتها، ورأى بعينهِ ما في الشركِ والوثنيةِ من ضلالٍ يهوي بنفس صاحبِهِ إلى دركٍ ليس له قرار، ورأى كذلك أن أُفُقَه أخذ يتّسعُ، وأمورَه بدأت تستقيم، ونفسَه الكبيرة قد تحوّلت إلى الخير، وعملَه أضحى ذا هدف بعد أن كان لا معنى له.

وخلع سيدُنا عمرو بن الجموح كلَّ جاهليته ونزعاته وتصوراته وتقاليده، فقد رآها لا تستقيم مع إيمانه الذي استنار به قلبُه وطريقُه، وطفق يُكثر من الاستغفار والندم على ما فرط منه في حياتِه، وقد أنشد له المرزباني قولَه لما أسلم:

أتـــوبُ إلـــى اللهِ سبحـــانـــه وأستغفـــرُ اللهَ مِـــن نـــارِه
وأُثنـــي عليـــه بـــآلائـــه بـــإعـــلان قلبـــي وإســـرارِه

وهكذا فقد أسلم سيدنا عمرو بن الجموح بقلبه ولسانِه وجوارحِه وحسُن إسلامُه، وذُكر أنه كان آخر الأنصارِ إسلاماً[1] رضي الله عنه، وعادتِ البسمةُ إلى وجوه بني سَلِمة والفرحةُ قد ملأتْ قلوبَهم، وبخاصةٍ صديقَه وقريبَه عبدَ اللهِ بنَ عمرِو بنِ حرام.

وعادت حياة الصفاءِ والألُفةِ بينهما، وتوثّقت عُرى الصداقة والمحبة أكثرَ مِن ذي قبل، وأضحت في سبيلِ الله، فقد كان عبدُ اللهِ بنُ عمرِو بنِ حرام يتمنى لعمرِو بنِ الجموح كلَّ الخيرِ إذ كان عمرو زوجاً لأختِ عبدِ الله «هند بنتِ عمرو» وجاء اليومُ الذي تحقّقت فيه أمنيتُه بإسلام صهره عمرِو بن الجموح وخروجه مِنَ الظلماتِ إلى النور، ومِن طريق الزللِ إلى طريقِ النجاة.

* * *

---

(١) انظر الإصابة (١/ ٥٢٢).

في سبيل الله:

* أوقف سيدُنا عمرُو بنُ الجموح حياتَه لله، فلم يمنعْه عرجُه الشديدُ مِن أن يجودَ بنفسِه في سبيلِ الله، وكان لسيدنا عمرٍو أربعة أولاد، وكلُّهم تربَّوا على حبِّ الفروسيةِ والقتال، وكانوا يخرجون معَ الرسولِ ﷺ في الغزو يقاتلون كالأُسود ويثابرون على الجهاد، ولما كانت غزوةُ بدرٍ أرادَ عمرو بنُ الجموح أن يخرجَ معَ مَن خرجَ لقتال المشركين، فمنعه أبناؤُه وطلبوا مِن رسولِ الله ﷺ أن يأمرَه بعدمِ الخروج لكبر سِنِّه ووهنِ عظمِه، وعرجِه الشديد الذي قد يعيقُه في القتال والنزاَل، وتألّم سيدُنا عمرٌو ألماً شديداً لعدم خروجِه إلى الجهادِ ومشاركتِه فيه، ولكنه امتثلَ لأمرِ رسولِ الله ﷺ وبقي في المدينةِ، وخرجَ أولادُه جميعاً إلى «بدر»، ولما وصل الرسولُ ﷺ إلى «السقيا» - وهي آبار على بعد ميل مِنَ المدينة - عرض جندهَ هنالك، فلما عاود السيرَ برجالِه اتّخذ تشكيلَ الحرب خشيةَ أن يفاجئَه عدوُّه أثناءَ سيرِه وهو على غيرِ أُهبةِ القتال؛ وقد عرضتْ حاجةٌ في المدينةِ لخلّاد بنِ عمرو فذهب لقضائها، وسأله والدُه عَنِ الرسولِ ﷺ وعَنِ الجيش، فأخبره أنّ الرسولَ ﷺ يعرضُ الناسَ هناك، عندها تفاءل سيدُنا عمرٌو بالنصر وقال:

«نعمَ الفألُ، واللهِ إني لأرجو أن تغنموا وأن تظفروا بمشركي قريش»[1].

* وخاض المسلمون معركةَ بدرٍ مع المشركين، والتحم الجيشان واختلط الناسُ، واندفع أولادُ سيدِنا عمرِو بن الجموح يقاتلون قتالَ الأبطال، وهذا معاذُ بنُ عمرٍو يبدو في وسط الناس يبحث عن أحدِ رؤوس الكفرِ ليقضيَ عليه، وبالفعل فقد لقي أبا جهل وضربه بسيفِه فأصَاب ساقَه، تعال نستمع إلى البطل الشاب معاذِ بنِ عمرو يحدثنا عن لقائِه مع أبي جهل قال:

«جعلتُ أبا جهلٍ يومَ بدرٍ مِن شأني، فلما أمكنني حملتُ عليه فضربتُه، فقطعتُ قدمَه بنصفِ ساقِه، وضربني ابنُه عكرمةُ بنُ أبي جهل على عاتقي فطرحَ يدي وبقيت معلقةً بجلدةِ جنبي، وأجهضني عنها القتال، فقاتلتُ عامّةَ

---

(١) انظر المغازي (١/ ٢٣).

يومي وإني لأسحبُها خلفي، فلما آذتْني وضعتُ قدمي عليها ثم تمطّأتُ عليها حتى طرحتُها»[1].

* وانطلقتْ سيوفُ المسلمين تحزُّ في الأعناقِ، وتبترُ الأيدي وتبعثرُ الأشلاءَ، وقد ألقى الله الرعبَ في قلوب المشركين، ولم تمضِ ساعاتٌ قليلةٌ حتى تحقّقَ النصرُ للمسلمين، وعادوا وبشاراتُ النصرِ قد سبقَتْهم إلى المدينة، ونادى المنادي أن قُتل أبو جهل وقُتل معه عددٌ مِن كفار قريش وفرسانِهم، واستطار فؤادُ عمرِو بنِ الجموح فرحاً بصنيع ولدِه معاذِ بنِ عمرو وقَتْلِه أبا جهل، وحمدَ الله الذي جعلَ أولادَه يكسبون شرفَ الجهادِ وثوابَه.

* * *

وتحقـقت الأمنيـــة:

* استدارَ عامٌ كاملٌ، فخرجتْ قريشٌ إلى «أُحُد»، وقد جمعتْ جموعَها لمعركةِ الانتقامِ والثأرِ مِنَ المسلمينَ في بدر، فأعدّتْ عزائمَها وأحقادَها وثاراتِها وسلاحَها، وزحفتْ بذلك جميعِه نحوَ «أُحُد» تريد القضاءَ على الإسلام في عقرِ دارِه، وخرج الأنصارُ وبنو سَلِمَة قوم عمرِو بنِ الجموح مع رسول الله ﷺ، وأرادَ سيدُنا عمرٌو أنْ يَخرجَ إلى ساحِ الجهادِ، ولكنّ أولادَه أرادوا حبسَه عَنِ الخروج هذه المرةَ أيضاً وقالوا له: عَذَرَكَ الله، فلجأ إلى رسول الله ﷺ يشكوهم، وهو يودُّ ألاَّ يحرمَه مِن أملٍ يرجوه ورغبةٍ يسعى لها وأمنيةٍ تجول في فكرِه وخاطرِه منذ أن نطقَ بالشهادة، ورأى رسولُ الله ﷺ رغبتَه في الجهادِ فقال له:

«أمّا أنتَ فقد عذرَكَ الله فلا جهادَ عليك».

ولكن عَمْراً كرر رجاءَه، فالتفتَ رسولُ الله ﷺ إلى بنيه وقال لهم:

«لا عليكم ألاَّ تمنعوه لعلّ الله يرزقُه الشهادةَ»[2].

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء (١/ ٢٥٠ و٢٥١).

(٢) انظر سير أعلام النبلاء (١/ ٢٥٤)، والبداية والنهاية (٣/ ٣٧).

وانفرجت أسارير عمرِو بن الجموح برخصةِ الرسولِ ﷺ بالجهاد، وانطلقَ إلى زوجتِه وحملَ سلاحَه ثم خرج وهو يقول:

«والله إني لأَرجو أن أطأ بِعَرْجتي هذه في الجنة».

وتوجّه إلى الله بكلِّ جوارحِه، وأقبلَ على القبلةِ وقال: «اللهم ارزقْني الشهادةَ ولا تردَّني إلى أهلي خائباً»[١].

* وأسرع سيدُنا عمرٌو مع أولادِه إلى ساحةِ الجهادِ واصطحبَ معه مولاه أبا أيمن، وانضمّ إلى جموعِ بني سَلِمة، وكان في مقدمتهم صديقُه الحميمُ عبدُ الله بنُ عمرِو بنِ حرام، وبدأ القتالُ بين الفريقين، وانطلقَ بنو سَلِمة يقاتَلون بضراوةٍ وثبات، وها هم في ساحةِ المعركةِ يشتمُّون رائحةَ الجنةِ، ويرون بأعينِهم نعيمها، ويبدو سيدُنا عمرُو بنُ الجموح بقامتِه الطويلةِ في وسْطِ القومِ يقاتلُ كالأسدِ الضاري ومن ورائه ابنه خلاّد بنِ عمرو، وقد اخترقَ كلاهُما الصفوفَ، والثقةُ بالله تملأُ قلبَهَ، فلا خوفَ ولا جزعَ، بل شجاعةٌ وعزيمةٌ لا تلين أمام أيِّ صعوبة، فلا العرجُ ولا كبرُ السنِّ يقفان أمامَه، فالموتُ اليوم نعيمٌ يُشتهى، والقتلُ في سبيلِ الله كرامةٌ تُبتغى، والشهادةُ هي ما يتمناها وينشُدُها؛ وبينما كان عمرٌو يصولُ ويجولُ لقيه «الأسودُ بنُ جَعونة»[٢] أحدُ فرسانِ المشركين وضربَه بسيفِه فنالَ الشهادةَ ثم عاجلَ ابنه خلاداً بضربةٍ أخرى ففازَ بالشهادة أيضاً، أما «أبو أيمن»[٣] مولى سيدِنا عمرِو بن الجموح فقد صرعه أحدُ فرسانِ المشركين ولحق بركبِ الشهداءِ مع مولاه، كما كان سيدنا عبدُ الله بنُ عمرِو بنِ حرام أولَ الشهداءِ مع سبعين مِنَ المسلمين؛ وانتهتِ المعركةُ، وجاءتْ زوجُ عمرِو بنِ الجموح هندِ بنتِ عبدِ الله بنِ عمرو، وكانت قد حضرتْ غزوةَ أُحُد مع زوجِها وولدِها وأخيها عبدِ الله بنِ عمرو بنِ حرام، واستشهد الزوجُ والولدُ والأخُ، وحملتْهم

---

(١) الاستيعاب (١/ ٤٩٧).
(٢) انظر المغازي (١/ ٣٠٦).
(٣) انظر السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٢٦).

المجاهدةُ العظيمةُ على بَعيرِها، واتجهتْ نحوَ المدينةِ ولقيتُها عائشةُ أمُّ المؤمنين رضي الله عنهما في طريقِ المدينةِ فقالت لها:

«عندكِ الخبرُ فما وراءك»؟.

فقالت هند: خيراً، أمّا رسولُ الله فصالحٌ، وكلُّ مصيبة بعده جللٌ، واتّخذ الله مِنَ المؤمنين شهداءَ ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾[1].

قالت أم المؤمنين عائشة: مَنْ هؤلاء؟ - وأشارت إلى الشهداء معها - قالت هند: أخي عبدُ الله بنُ عمرِو بنِ حرام، وابني خلّاد، وزوجي عمرُو بنُ الجموح.

فقالت عائشة رضي الله عنها: فأين تذهبين بهم؟.

قالت: إلى المدينة أقبرُهم فيها... ثم زجرتْ هندٌ بعيرَها ليتابعَ سيرَه نحو المدينة، فما استطاع ثم برك، وحاولتْ زَجْرَه ثانيةً فوقفَ ثم وجَّهَتْه نحوَ المدينةِ فبرك أيضاً، فوجَّهَتْه راجعةً إلى أُحُدٍ فأسرع؛ فرجعت إلى النبيِّ الكريم فأخبرَتْه بذلك، فقال رسول الله ﷺ: «فإنَّ الجملَ مأمور»[2].

* وعندما انصرفَ المشركون مِن ميدان أُحُد، أقبلَ المسلمون على شهدائهم يدفنونهم، ويأمُر رسولُ الله ﷺ بدفنِ عمرِو بن الجموح وعبدِ الله ابنِ عمرِو بنِ حرام في قبر واحد، وكان المشركون قد مَثّلوا بهما أبشعَ تمثيل، قطعوا آرابهما - يعني عضواً عضواً - فلا تُعرف أبدانُهما، ويقفُ الرسولُ الكريم ﷺ على قبرهما قائلاً: «ادفنوا هذين المتحابَّين في الدنيا في قبر واحد»[3].

---

(١) الأحزاب (٣٥) وجَلَل تعني هين.
(٢) انظر المغازي (١/ ٢٦٥ و٢٦٦) بتصرف يسير.
(٣) المصدر السابق (١/ ٢٦٧).

ولم يُغَسَّلوا بل تركهم بجراحِهم ودمائِهم، ثم التفتَ رسولُ الله ﷺ وخاطبَ أصحابَه قائلاً:

«أنا شهيدٌ على هؤلاء، إنه ما مِن جريحٍ يجرحُ في سبيلِ الله إلا ويبعثُه الله يومَ القيامةِ يَدمى جُرحُه، اللونُ لونُ دمٍ والريحُ ريحُ مِسك»[1].

* * *

مناقب عمرو بن الجموح رضي الله عنه:

* سيدُنا عمرو بنُ الجموح رضي الله عنه، واحدٌ مِنَ الصحابة الذين باعوا أنفسهم لله منذ أن عرفَ طريقَ الهداية، وقد بدأ إيمانُه يثمرُ منذ الدقائق الأولى، وبدأت ثمارُه تؤتي أُكُلَها، وطرح كلَّ أدران الجاهليةِ عن نفسِه، وراح يشكر الله الذي أخرجَه من الظلماتِ إلى النور، وأنقذه مما كان فيه من الضلالة والبعدِ عنِ الحق، وقد عبر عن ذلك في قصيدة له إذ يقول:

أتوبُ إلى الله مما مضى ... وأستنفذُ الله مِن نارِه
وأثني عليه بنعمائِه ... إليه الحرامُ وأستارُه[2]
فسبحانه عدد الخاطئين ... وقطرَ السماءِ ومدرارَه
هداني وقد كنتُ في ظلمةٍ ... حليف مناة وأحجاره
وأنقذني بعد شيب القُذا ... ل[3] من شَيْن ذاك ومن عارِه
فقد كدتُ أهلكُ في ظلمةٍ ... تداركَ ذاك بمقدارِه
فحمداً وشكراً له ما بقيـ ... ـت إلهَ الأنامِ وجبارَه
أُريدُ بذلك إذا قلتُه ... مجاورةَ الله في دارِه[4]

كانت حياةُ سيدِنا عمروِ بن الجموح في ظلِّ الإسلام مليئةً بالمواقف

---

(١) انظر البداية والنهاية (٣/ ٤٢).
(٢) البيت الحرام وكسوة الكعبة.
(٣) القذال: ما بين الأذنين من مؤخرة الرأس.
(٤) انظر حياة الصحابة (١/ ٢٣٢) وانظر دلائل النبوة (١/ ٤١٤).

الحميدة، وكانت كلُّها وضّاءةً على الرغم مِن أن حياتَه في الإسلام لم تتجاوز بضعَ سنوات، ولكنها كانت دانيةَ القطوفِ نديةَ العطاء، وكيف لا وقد شهد له رسولُ الله ﷺ شهادةً كريمةً رفعتْه إلى أعلى المراتب، وذلك أن الرسولَ ﷺ سأل بني سَلِمة فقال:

«يا بني سَلِمة، من سيِّدُكم»؟.

قالوا: «الجدّ بنُ قيس وإنا لنبخِّلُه».

قال: «وأي داء أدوى من البخل؟ بل سيدكم الجعد الأبيض عمرو بن الجموح»[1]. وكان سخياً رضي الله عنه.

* نعم فقد كانت شهادةُ رسولِ الله ﷺ لعمرِو بنِ الجموح شهادةَ إكبار، فقد كان عمرٌو كريمَ النفسِ سخيَّ اليدِ، وضعَ ما يملكُ مِن مالٍ وأولادٍ في خدمةِ الإسلامِ؛ وفي كرمِ وسيادةِ عمرِو بن الجموح يقول شاعر الأنصار في ذلك:

وقالَ رسولُ الله والحقُّ قولُه ... لِمَن قال منّا مَنْ تسمُّون سَيِّدا
فقالوا له جَدُّ بنُ قيسٍ على التي ... نبخِّلُه فيها وإن كان أسودا
سوَّدَ عمرَو بنَ الجموح لِجوده ... وحُقّ لعمرِو بالندى أن يسودا
إذا جاءَه السُّؤّالُ أذهبَ ماله ... وقال خذوه إنه عائدٌ غدا
فلو كنتَ يا جدَّ بنَ قيس على التي ... على مثلِها عمرٌو لكنتَ المسوَّدا[2]

* وهذه شهادةٌ أخرى موقعةٌ مِن رسول الله ﷺ، تُضاف إلى مناقبِ سيدِنا عمرِو بنِ الجموح، فتزيد في رصيدِه الإيمانيّ نوراً، وترفع مِن درجاتِه درجة، فقد قال فيه عليه الصلاة والسلام:

---

(١) الإصابة (١/ ٥٢٣)، وانظر سير أعلام النبلاء (١/ ٢٥٤)، وانظر مجمع الزوائد (٩/ ٣١٤).

(٢) انظر السيرة الحلبية (٢/ ٧٠٢).

«والذي نفسي بيدِه، إنّ منكم لَمَن لو أقسم على اللهِ لأبرَّه، منهم عمروُ بنُ الجموح. . . . »[1].

كان سيدُنا عمروُ بنُ الجموح لا يدعُ مكرمةً إلا ويسارعُ إليها، فكان يُولم على رسولِ الله ﷺ إذا تزوج[2]؛ ولم يكن بنو سَلِمة أقلَّ مكانةً مِن سيدِهم عمروِ بنِ الجموح، فقد حازوا رضا رسولِ الله ﷺ ونالوا دعوةَ الرحمةَ منه عليه الصلاة والسلام بقولِه في غزوِة حمراء الأسد «اللهم ارحم بني سَلِمة».

* * *

كرامـــة وإكـــرام:

* في سيرة سيدِنا عمروِ بنِ الجموح رضي الله عنه، نفحةٌ من النفحاتِ اللطيفة، ومكرمةٌ عظيمة حباه الله إياها مع شهداءِ أُحُدٍ رضي الله عنهم، فقد سجّلتْ له كتبُ المغازي والسيرِ منقبةً عظيمةً بعد أن مضى قرابةُ نصفِ قرنٍ على استشهادِه، فتعال نستمع إلى هذه الكرامةِ التي تشنِّفُ الأسماعَ وتعطي العبرة؛ فقد رُوي «أنّ عمرَو بنَ الجموح وعبدَ الله بنَ عمرِو بنِ حرام رضي الله عنهما، كانا قد حفر السيلُ قبرَهما، وكان قبرُهما مما يلي السيل وكانا في قبرٍ واحد، وهما ممّن استُشهد يومَ أُحُد فحُفر عنهما ليُغيَّرا مِن مكانهما، فوُجدوا لم يتغيَّرا كأنهما ماتا بالأمس، وكان أحدُهما قد جرح فوضع يده على جرحه فدُفن وهو كذلك، فأُميطت يدهُ عن جرحه ثم أُرسلت فرجعتْ كما كانت، وكان بين أُحُد وبينَ يومِ حُفر عنهما ستٌّ وأربعون سنةً»[3].

يقولُ سيدُنا جابرُ بنُ عبدِ الله بنِ عمرِو الأنصاري في تلك الحادثة: «فأخرجناهما يتثنّيان تثنّياً كأنهما دُفنا بالأمس».

* ومما أكرمَ الله به هؤلاء الشهداء أنّ الأرض لم تأكلْ أجسادَهم، لا بل

---

(١) الاستيعاب (١/ ٤٩٧) وانظر المغازي (١/ ٢٦٦).

(٢) انظر الاستيعاب (١/ ٤٩٩) والسيرة الحلبية (٢/ ٥٢٧).

(٣) انظر سير أعلام النبلاء (١/ ٢٥٥) وانظر حياة الصحابة (٣/ ٥٩٣).

عندما كانوا يحفرون قبورَهم حتى يغيِّروا أماكنهم، فكلما حفروا شيئاً يسيراً من تراب فاح عليهمُ المسك[١].

* نعم فالشهداء مختارون يصطفيهم الله سبحانه وتعالى من بين خلقه، وهم أحياءٌ عندَ ربِّهم يُرزقون، وهؤلاء الشهداء هم الذين قال عنهم رسولُ الله ﷺ لأصحابه قبل أن ينصرفَ مِن ميدان أُحُد:

«أيها الناسُ، زُوروهم وائتوهم وسلِّموا عليهم، فوالذي نفسي بيدهِ لا يُسلِّم عليهم مسلمٌ إلى يومِ القيامةِ إلاّ ردُّوا عليه السلام».

أليست هذه منقبة عظيمة لعمرِو بن الجموح وصحبه؟ بلى، فقد ظل الرسولِ الكريم ﷺ يتعهّدهم بعد ذلك بالزيارة في كلِّ عام، وكان إذا دخل إلى ميدان أُحُد رفع صوته فيقول:

«السلام عليكم بما صبرتم، فنعم عقبى الدار»[٢].

ثم كان سيدُنا أبو بكر رضي الله عنه يزورهم أيضاً كلَّ حَوْل، وكذلك عمر بنُ الخطاب وعثمانُ بنُ عفان رضي الله عنهما، وكذلك معاويةُ رضي الله عنه حين يمرّ حاجاً أو معتمراً»[٣].

* وبعد فهذا هو سيدُنا عمرُو بنُ الجموح رضوان الله عليهِ، الشيخُ الشهيدُ امنَ بالله فصدق في إيمانه، وأحبَّ رسولَه محمداً ﷺ فأخلص في حبِّـه، وآثر رضوانَ الله إيماناً منه بوعدِه سبحانَه فنالَ جزاءَ صدقِه جائزةَ الفائزينَ بالرحمةِ والرضوانِ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٦].

* * *

بشـــارة عمـرو بـن الجمـوح بالجنـــة:

قالَ تعالى: ﴿ إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ

---

(١) انظر المغازي (١/ ٢٦٨).
(٢) المغازي (١/ ٣١٣).
(٣) المصدر السابق.

﴿ تُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٤٠ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٠ ـ ١٤١].

* سيدُنا عمرُو بن الجموح واحدٌ مِن فُضَلاء الأنصار من الصحابة الذين أنعم الله عليهم بمنزلةِ الأخيار المخلصين من عبادِه الذين يبتغون مرضاتِه، فاصطفاهُم الله سبحانَه ليكونوا شهداءَ على الحقِّ في سبيلِه، وكانتِ الشهادة في سبيلِ الله اختياراً وانتقاءً، وتكريماً واختصاصاً، فهؤلاء الشهداءُ الذين اختصّهم الله في أُحُد ورزقهم مرتبةَ الشهادة يعيشون في جناتِ الله بخيرِ جوار، وسيدُنا عمرو بنُ الجموح ممّن نَعِمَ بهذا الجوارِ الكريم.

* نال سيدُنا عمرُو بنُ الجموح مديحَ رسولِ الله ﷺ بالفضلِ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ:

«نعم الرجل عمرو بن الجموح»[1].

وكان عمرو بن الجموح رضوانُ الله عليه يعمل للجنة ويرجوها ويسعى لها سعيَها، فقد رُوي أنه قال لبنيه:

«أنتم منعتموني الجنةَ يومَ بدر، والله لئن بقيتُ لأدخلنّ الجنةَ، فكانَ يومُ أُحُد في الرعيلِ الأولِ رضي الله عنه»[2].

وتحقق حلمُ سيدِنا عمرِو بن الجموح، ونالَ بشارةَ الرسولِ ﷺ بالجنة، روى الإمام أحمد فقال:

«أتى عمرُو بنُ الجموح إلى رسولِ الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله، أرأيتَ إن قاتلتُ في سبيلِ الله حتى أقتلَ، أأمشي برجلي هذه صحيحةً في الجنة؟ ـ وكانت رجله عرجاء ـ».

فقال رسول الله ﷺ: «نعم».

---

(١) انظر تاريخ الإسلام للذهبي، المغازي (٢١٦).
(٢) المصدر السابق (٢١٦).

فقُتلوا يومَ أحد هو وابنُ أخيه ومولىً له. فمرّ رسول الله ﷺ فقال:

«كأني أنظر إليك تمشي برجلك هذه صحيحةً في الجنة»[١].

* وقد روى ابن عبد البر في كتابه النفيس «الاستيعاب» أن رسول الله ﷺ رأى عمرو بن حرام في الجنة فقال:

«والذي نفسي بيدِه، إنّ منكم لَمَن لو أقسمَ على الله لأبَرَّه، منهم عمرُو بنُ الجموح، ولقد رأيتُه يطأُ في الجنةِ بعرجتِه».

وقد بشّرَ النبيُّ الكريم عليه الصلاة والسلام هنداً زوجَ عمرِو بن الجموح أنّ زوجَها وأخاها وابنَها في الجنة ينعمون برضوانِ الله حيث قال لها:

«يا هند، قد ترافقوا في الجنة جميعاً؛ عمرُو بنُ الجموح، وابنُك خلاّد، وأخوك عبدُ الله».

قالت هند: يا رسول الله، ادعُ الله عسى أن يجعلَني معهم[٢].

* والآن، ألا يحق لسيدِنا عمرِو بن الجموح أن ينالَ هذا التكريمَ مِن رسول الله ﷺ؟ فالرسول الكريم الذي خَبِرَ الرجالَ وعرفَهم حقَّ المعرفة، هو الذي ربَّى هؤلاء الأبطالَ، فأعطَوا أكرمَ العطاء، وكان عمرُو بنُ الجموح إحدى غراسِ رسولِ الله ﷺ، فسعى لينالَ رضاءَ اللهِ، فكان من الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه.

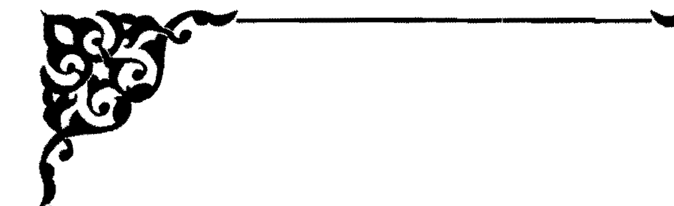
* وختاماً ونحن نودِّعُ سيِّدَنا عمرَو بنَ الجموح وسيرتَه العطرةَ نقرأُ معاً قولَ اللهِ سبحانَه في هؤلاء الرجال الصادقين: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣]. صدق الله العظيم.

* * *

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء (١/ ٢٥٤ و٢٥٥) الحاشية. وانظر الإصابة (٢/ ٥٢٣)، وانظر مجمع الزوائد (٩/ ٣١٥).

(٢) انظر المغازي (١/ ٢٦٦).



سيدنا

عبد الله بن عمرو بن حرام

رضي الله عنه

* عقبيٌّ، نقيبٌ، بدريّ، شهيد.

* «تبكيه أو لا تبكيه، ما زالت الملائكة تظلّله بأجنحتها حتى رفعتموه».

* «يا هند قد ترافقوا في الجنة جميعاً، عمرو بن الجموح، وابنك خلاد، وأخوك عبد الله».

* «ما كلّم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب، وإنه كلّم أباك كفاحاً ـ أي مواجهةً ـ قال: سلني أعطك».



مقـــدمـــة:

* أقبلَ نفرٌ مِن حجاجِ يثربَ ـ يزفّون لقومِهم نبأَ الإسلام، وظهورِ المبعوثِ رحمةً للعالمين بجوارِ البيتِ العتيق هنالك في أُمِّ القرى، وتوزّعتِ الأخبارُ على البيوتِ والقبائلِ اليثربية، ولامستْ أنباءُ الإسلامِ سمعَ عبدِ اللهِ ابنِ عمرِو بن حرام بنِ ثعلبةَ السلميّ الخزرجيّ، ذلك الرجلُ الذي ورثَ المجدَ والشرفَ عن أبيه وعن أُمِّه الربابِ بنتِ قيس إحدى شريفات بني سَلِمَة.

لم يُعِرْ عبدُ الله تلك الأخبارَ أيَّ اهتمام، فقد كان يقضي وقتَه مع صديقِه وصفيِّه عمرِو بنِ الجموح، وكانت الأصنامُ والأوثانُ تملأُ عليهما حياتَهما وبخاصةٍ صنمَ عمرِو بنِ الجموح «مناة».

* مَرّتْ سنةٌ فإذا باثني عشرَ رجلاً من أهلِ يثربَ قد أقبلوا مِن مكةَ، وبصحبتِهم فتىً يبدو عليه الجلالُ والإشراق، قد بعثَه رسولُ الله ﷺ معهم يفقِّهُهم في الدين ويعلِّمُهمُ القرآن الكريم، واستطاع الفتى أن يدعوَ أهلَ يثربَ إلى الإسلام ويقرأَ عليهمُ القرآنَ، فيسلمُ الرجلُ والرجلان، وأسلم على يديه عددٌ مِن ساداتِ يثربَ وعددٌ مِن فتيانها، وكان من بين الفتيان الذين استجابوا وأسلموا ولدُ عبدِ الله بنِ عمرِو بن حرام الوحيد، فقد كان لعبدِ الله تسعُ بنات ولم يكن له سوى جابر الذي يكنّ له الحبَّ والحنان، وكان عُمْر جابر آنذاك لا يتجاوزُ أربعةَ عشرَ عاماً، ولكن والده لم يسلم إلا بعدَ سنةٍ مِن إسلامِ ابنه جابر، وعلى وجه التحديد في ليلة العقبة، فكيف أسلمَ عبدُ الله؟ ومتى كان ذلك؟.

* * *

الليـلـة المبـاركـة:

* لبث الفتى المكّيُّ مصعبُ بنُ عُمير في أهلِ يثربَ يدعو حتى لم يعدْ بيتٌ من بيوتِ الأوس أو الخزرجِ إلا ومِن بين أفرادِه عددٌ من المؤمنين، وعادَ رضيَ الله عنه إلى مكةَ فخوراً بثمرةِ بعثتِه وقد أَينعتْ وآتتْ أُكُلَها، وعرضَ

الحالةَ على رسولِ الله ﷺ، حتى إذا كان موسمُ الحجّ حضرَ إلى مكةَ مع مَنْ حضرَ إليها بضعةٌ وسبعونَ رجلاً وامرأتان، وكان مِن بينِ حجّاج يثربَ بطلُ سِيرتِنا هذه «عبد الله بنُ عمرِو بنِ حرام»، ولم يكنِ الإيمانُ قد دخلُ قلبَه بعدُ، لكنّه لم يقفْ في وجوه المسلمين ولم ينكرْ عليهم إسلاَمهم، وكان معه ولدُه جابر بنُ عبدِ الله في هذه الحجة، وكان عبدُ الله قد جاءَ لأداءِ الحجّ ولم يكن في ذهنه أنه سيكون مسلماً بل نقيباً، ولكن هدفَه تعظيمُ «مَنَاة» ذلك الصنم الذي كانت الأوس والخزرج يهلّون له، يحدثنا عمارُ بن ياسر رضي الله عنه وكان أعلمَ الناس بحال الأوس والخزرج فيقول: «كانتِ الأوسُ والخزرجُ ومَنْ يأخذُ مأخذَهم من عرب أهل يثربَ وغيرها، فكانوا يحجّون ويقفون مع الناسِ المواقفَ كلَّها، ولا يحلقون رؤوسهم، فإذا نفروا وأتَوا «مناةَ» وحلقوا رؤوسهم عنده وأقاموا عنده لا يرون لحجِّهم تماماً إلا بذلك». فلإعظامِ الأوسِ والخزرجِ يقول عبد العزى بن وديعة المزني:

إنّي حلفتُ يمينَ صدقٍ برّةً ... بمناةَ عند محلّ آلِ الخزرجِ[1]

* أما قومُ عبدِ الله بنِ عمرِو بنِ حرام فقد حضروا مِن يثربَ وكلُّهم تحمّسٌ إلى الإسلام، يلهجون بذكر رسولِ الله ﷺ، وتواعَدوا معَ رسولِ الله ﷺ عندَ العقبة ـ ليلةَ ثاني أيام التشريق ـ ليعرضوا عليه استعدادَهم لإقامتِه في المدينةِ هو وصحبه ويضمنوا له الأمنَ والطمأنينةَ والنصرة، ولنتركِ الحديثَ الآن إلى أحدِ هؤلاء الحجاج ـ وهو سيدُنا كعبُ بنُ مالك رضي الله عنه ـ يقصّ علينا نبأ ما حدث في تلك الليلة المباركة عن كيفيةِ إسلام عبدِ الله بنِ عمرِو بنِ حرام بعدَ أن كلَّمه جماعةٌ مِن قومِه فيقولُ من حديث طويل نقتطفُ منه هذه الفِقْرةَ الكاشفةَ:

«ثم واعدْنا رسولَ الله ﷺ العقبةَ أوسطَ أيامِ التشريق ونحن سبعون رجلاً للبيعة، ومعنا عبدُ الله بنُ عمرو بنِ حرام والدُ جابر وإنه لعلى شِركه، فأخذناه وقلنا له: يا أبا جابر والله إنا لنرغبُ بك أن تموتَ على ما أنتَ عليه فتكونَ

(١) انظر معجم البلدان (٥/ ٢٠٥)، والأصنام لابن الكلبي (١٣).

لهذه النار غداً حطباً، وإنّ الله قد بعثَ رسولاً يأمرُ بتوحيده وعبادته، وقد أسلم رجالٌ مِن قومك، وقد واعدْنا رسولَ الله ﷺ للبيعة، فأسلم وطهّر ثيابَه وحضرَ معَنا فكان نقيباً. . . .»[1].

* وهكذا استجابَ عبد الله للإسلام فأعلنَ الشهادةَ، وسرعان ما طرح ملابَسه وألقاها بعيداً، ولبس ثوبين طاهرين أعطاه إياهما البراءُ بنُ معرور أحدُ النقباءِ ليلةَ العقبةِ أيضاً[2].

في تلك الليلةِ خرجَ الأوسُ والخزرجُ يتسلّلون إلى موضع العقبة، وكان الرسول الكريم قد سبقهم إليها ومعه عمُّه العباسُ بنُ عبد المطلب الذي كان يثق به في أمرِه، وتكلّم العباسُ مخاطباً الأوس والخزرجَ فقال:

«صِفوا ليَ الحربَ كيف تقاتلون عدوَّكم»؟.

وهنا تحرك الإيمان في قلب عبدِ الله بنِ عمرِو بن حرام، ونظر إلى رسول الله ﷺ فإذا وجهُه يتلألأُ نوراً وهو كما وصفه حسان بن ثابت:

متى يَبْدُ في الداجي البهيم جبينُه ... يَلُحْ مثلُ مصباحِ الدجى المتوقِّدِ

وتحدّث عبدُ الله بكلماتٍ طمأنتْ قلوبَ الجميع، ودبّت فيها الشجاعة فقال يخاطب العباس:

«نحنُ واللهِ أهلُ الحرب غُذّينا بها، ومُرِنّا عليها وورثناها عن آبائنا كابراً عن كابر، نرمي بالنبلِ حتى تفنى ثم نطاعنُ بالرماحِ حتى تُكسرَ الرماح، ثم نمشي بالسيوف فنضاربُ بها حتى يموت الأعجلُ منا أو مِن عدوِّنا»[3].

ولم يكن البراءُ بنُ معرور أقلّ شجاعة مِن عبدِ الله بن عمرو وقال مخاطباً العباس أيضاً:

«إنا والله لو كان في أنفسِنا غيرَ ما ينطقُ به لقلناه، ولكنا نريدُ الوفاءَ

---

(١) انظر تاريخ الإسلام للذهبي (١/ ٣٠٢)، والسيرة الحلبية (٢/ ١٧٤).
(٢) انظر أنساب الأشراف للبلاذري (١/ ٢٤٨).
(٣) انظر طبقات ابن سعد (٤/ ٧و٨).

والصدقَ وبذلَ مُهجِ أنفسنا دونَ رسولِ الله ﷺ».

وتلا عليهم رسولُ الله ﷺ القرآنَ ثم دعاهم إلى الله ورغَّبهم في الإسلام، وذكر لهُم الجنةَ وما أعدّ الله فيها للمتقين. ولما سمع هؤلاء بما لا يخطر على قلب بشر مِن نعيم الجنة، هذا النعيم المقيم الذي أعلنه الرسولُ الكريم أحسوا بالنشاط والأملِ يدبُّ في نفوسِهم فقالوا للنبيِّ ﷺ: «ابسطْ يدك» فبسط يده، فبايعه الجميعُ وغدا الأوسُ والخزرجُ أنصاراً، واختارَ رسولُ الله منهم تلك الليلة اثني عشرَ نقيباً[1]، وكان عبدُ الله بنُ عمرو بن حرام أحدَ النقباءِ على قبيلتِه من بني سَلِمَة الخزرجيين، ومنذ تلك الليلةِ أضحى اسمُ عبدِ اللهِ في سجلِّ السعداء، وفاحتْ أقوالُه وأعمالُه أريجاً إلى أن لقي الله شهيداً في أُحُد.

* * *

من العقبــة إلـى أحــد:

* دخلَ سيدُنا عبدُ الله بنُ عمرِو بن حرام التاريخَ مِن باب مضيء، فمنذ عودتِه مِن بيعةِ العقبةِ إلى المدينة وضعَ نفسَه ومالَه وأهلَه في سبيلِ الله وفي خدمةِ الإسلام، وبدأت أعمالُه تفوح بالشذا، فلم يتوقفْ عَنِ الدعوةِ إلى الحقِّ لحظةً واحدة، ودعا صديقَه عمرَو بنَ الجموح[2] إلى نبذ الأصنام، ولما أسلم عمرٌو استطارَ قلبُ عبدِ الله فرحاً به. وحينما هاجر رسولُ الله ﷺ إلى المدينة، كانت سعادةُ عبدِ الله عظيمة، فحرص على لقائه واستقبالِه وسعدَ بالقربِ منه، فكانت له مكانةٌ رفيعةٌ عندَ النبيِّ الكريم عليه الصلاة والسلام.

* وبدأتْ حياةُ الجهاد، فبرزَ سيدُنا عبدُ الله ليكون في عِداد المجاهدين ومِن المسارعين إلى تلقي أوامرِ الرسولِ وتنفيذها، وعندما استعدّ رسولُ الله ﷺ للخروج إلى بدر، كان سيدُنا عبدُ الله مِن أوائل الذين استجابوا

---

(١) انظر الدرر (٦١).

(٢) انظر سيدنا عمرو بن الجموح من هذه السلسلة.

لداعي الجهاد، ولما بلغ جيشُ المسلمين «السقيا»[1] نزلَ رسولُ الله ﷺ عندها، ثم صلى ودعا لأهلِ المدينة، واستعرض صحابتَه، وجاءَه سيدُنا عبدُ الله بنُ عمروَ بن حرام مسروراً ومتفائلاً بنزوله وقالَ له يومئذ:

«يا رسولَ اللهِ لقد سرّني منزلُك هذا، وعَرْضُك فيه أصحابَك، وتفاءلتُ به، إن هذا منزلنا ـ بني سلمة ـ حيث كان بيننا وبين أهل حُسَيْكَة[2] ما كان، فعرضْنا هاهنا أصحابَنا فأجزنا مَنْ كان يطيق السلاح ورددْنا مَن صغر عن حمل السلاح، ثم سِرْنا إلى يهود حسيكة وهم أعز يهود كانوا يومئذ، فقتلناهم كيف شئنا فذلّت لنا سائر يهود إلى اليوم، وأنا أرجو يا رسولَ الله أن نلتقيَ نحن وقريشٌ فيقرَّ الله عينَك منهم»[3].

وراح رسولُ الله ﷺ مِن بيوتِ السقيا، وخرج معه المهاجرون والأنصار باتجاه بدر، وكان النفرُ منهم يتعاقبون بعيراً واحداً، فكان رسول الله ﷺ وعليُّ ابن أبي طالب ومرثد يعتقبون بعيراً، وكان عبدُ الله بنُ عمرو بنِ حرام بطلُنا وقطبةُ بنُ عباد بن حديدة وخراشُ بنُ الصمة على بعير، ورثى الرسولُ الكريم لحالةِ أصحابِه إذا كان بعضُهم حفاةً والآخر شبهَ عراة، فتوجّه إلى الله ودعا لهم وقال:

«اللهمّ إنهم حفاةٌ فاحملْهم، اللهمّ إنهم عراةٌ فاكسُهم، وجياعٌ فأشبعْهم، وعالةٌ فأغنهم من فضلك»[4].

* ولما التقى الجمعان نصرَ الله المسلمين وردَّ الذين كفروا بغيظهم، وقُتلَ منهم سبعون وأُسر سبعون، والباقي ولّوا مدبرين وقد تركوا وراءهم متاعهم، فغنمه المسلمون واستجابَ الله دعاءَ نبيّه الكريم، فلما عادوا إلى المدينة كان

---

(١) السقيا: بئر بالمدينة كان يُستقى منها لرسول الله ﷺ. انظر معجم البلدان (٣/ ٢٢٨).
(٢) هم جماعة من اليهود يسكنون جبلاً بناحية المدينة.
(٣) انظر المغازي (١/ ٢٣).
(٤) السيرة الحلبية (٢/ ٣٨٢).

كلُّ رجلٍ منهم قد وجد البعير والبعيرين، واكتسى مَنْ كان عارياً وأصابوا طعاماً مما غنموه من قريش، وأصابوا فداء الأسرى، واغتنى بذلك كلُّ فقيرٍ ببركةِ دعاءِ رسولِ الله ﷺ.

* وعاد عبد الله بنُ عمرو بن حرام إلى المدينة مع مَن عاد، وكان قد ترك ابنَه جابراً عند أهلِه وأخواتِه ومنعَه مِنَ الخروج إلى بدر، ثم استأنفَ حياتَه في المدينةِ إلى أن حانت غزوةُ أُحد فكانت له فيها مواقفُ مضيئة، ومواقفُ عظيمة مع المنافقين تدلّ على شجاعتِه وحزِمه، فإلى السطور التالية نقرأ فيها قصةَ سيدِنا عبدِ الله واستشهادِه.

* * *

شجاعته واستشهاده:

* مضى عامٌ على انتصار المسلمين في غزوة بدر، غيرَ أنّ المشركين في مكة كانوا يُعِدُّون أنفسَهم للثأرِ منَ المسلمين، وسارت جموعُهم في جيشٍ اقتربَ عددُه مِن ثلاثةِ آلافِ مقاتل، وخرجتْ معهمْ نساءٌ يسكبْن الدمعَ سخيّاً على أزواجِهن وإخوانِهن وآبائِهن ممّن قُتل يومَ بدرٍ ليندبْنَ قتلاهم فيلهبن بذلك حماسَ المقاتلة.

فقد رُوي أن أبا سفيان بنَ حربٍ خرج بامرأتين: زوجِه هندٍ بنت عتبةَ، وأميمةَ بنتِ سعدِ بنِ وهب، وخرجَ صفوان بنُ أميةَ بامرأتَين أيضاً، وكذلك عكرمةُ بنُ أبي جهلٍ[1] خرج بزوجِه أمّ حكيم، وطلحةُ بن أبي طلحة وعمروُ ابنُ العاص، وخرجت كذلك خناس بنتُ مالك والدة مصعبِ بنِ عُمير وغيرُهم كثير[2].

وأصبح المشركون قابَ قوسينَ أو أدنى مِنَ المدينة، وغدتْ طلائع خيلِهم

---

(١) انظر عكرمة بن أبي جهل من هذه السلسلة.

(٢) عن المغازي (١/ ٢٠٢) وما بعدها.

تقتربُ منها حتى توجّسَ المسلمين خِيفةً، فباتوا في السلاحِ يحرسونَ المدينةَ ويحوطون رسولَ الله ﷺ خِشيةَ أن يصلَ إليه العدوُّ، وكان سيدُنا عبد الله ابنُ عمرِو بنِ حرام ممّن أَعدَّ نفسَه ومالَه لحمايةِ رسولِ الله ﷺ، وعقدَ الرسولُ الكريمُ مجلسَ الشورى كعادته في كلِّ أمر يهمُّ المسلمين ليخرجَ في أمرٍ جماعيٍّ ناضجٍ من كلِّ أصحابِه حتى ممَّنْ تظاهرَ بالإسلام مِنَ المنافقين وعلى رأسِهم زعيمُهم عبدُ الله بنُ أبيّ ابن سلول.

* استشارَ رسولُ الله ﷺ أصحابَه في الخروج إلى المشركين أو لقائِهم في مداخلِ المدينة، فانبعثَ بعضُ مَنْ فاتهمُ الخروجُ إلى بدر وقالوا: نخرجُ إليهم ولم يكن ذلك رأيُ الرسولِ الكريم عليه الصلاةُ والسلام وبعضِ كبارِ الصحابةِ رضوانُ الله عليهم، ودخلَ الرسولُ بيتَه يستعدّ للخروجِ إلى أُحُدٍ فبعثَ إليه أولئك النفرُ يقولون له:

الرأي هو ما يراه رسولُ الله ﷺ.

فقال عليه الصلاة والسلام: «ما كان لنبيٍّ يلبس لأْمَةَ القتالِ أنْ ينزعَها حتى يقضيَ الله تعالى بينه وبين عدوِّه».

* وخرجَ رسولُ الله ﷺ في ألفٍ مِنَ الصحابة، وخرج معه مِن بني الخزرجِ عبدُ الله بنُ أبيّ المنافقُ وقال لجماعتِه ـ وكان رأيُ هذا المنافقِ البقاءُ في المدينة ـ:

لقد عصاني وأطاعَ الغِلمانَ، علامَ نقتلُ هاهنا؟.

ثم انحاز بفريقٍ مِنَ الجيشِ يبلغُ الثلثَ، وهنا انبرى له ولشيعتِه مِنَ المنافقين سيدُنا عبدُ اللهِ بنُ عمرو بنِ حرام[1] يريدُهم على الرجوع وعدمِ إحداث التصدُّعِ والخذلانِ وقال لهم:

(١) انظر تفسير الماوردي النكت والعيون (١/ ٣٥١ و٣٥٢).

«أذكِّرُكمُ الله ودينَكم ونبيَّكم وما شرطتُم له أن تمنعوه مما تمنعون منه أنفسَكم وأولادكم ونساءَكم»[1].

فقال عبدُ الله بنُ أبيّ: ما أرى يكونُ بينهم قتالٌ، ولئن أطعتَني يا أبا جابرٍ لترجعنّ فإنّ أهلَ الرأي والحِجىٰ قد رجعوا، ونحنُ ناصروه في مدينتنا، وقد خالفَنَا وأشرتُ عليه بالرأي فأبى إلا طواعيةَ الغلمان.

وكرّر سيدُنا عبدُ الله بنُ عمرِو بنِ حرام المحاولةَ معَ ابنِ أبيّ وذكّره بالعهودِ ثانيةً وقال له:

«ويحك لم ترضَ بأنِ انخزلتَ راضياً بالمدينةِ حتى ثبط مَنْ ثبط معك»[2].

ولكنّ رأسَ المنافقين أبىٰ أن يرجعَ ويقاتلَ مع المسلمين ودخل معَ مَنْ تبعه أزقةَ المدينة، وعندما يئسَ منهم سيدُنا عبدُ الله بنُ عمرِو بنِ حرام قال لهم قَوْلَتَه المشهورة:

«أبعدَكُم الله إنّ الله سيُغني النبيَّ والمؤمنين عن نصرِكم»[3].

ومع انسحابِ زعيمِ المنافقين ابنِ أبيّ نزلت هذه الآيةُ الكريمةُ:

﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْۖ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾[4] [آل عمران: ١٦٧].

* وأصبح جيشُ المسلمين خالياً مِن كلِّ شائبةٍ مِنَ المنافقين، وانصرفَ سيدُنا عبدُ الله بنُ عمرِو بنِ حرام يعدو حتى لحقَ رسولَ الله ﷺ وهو يسوّي

---

(١) انظر المغازي (١/ ٢١٩)، وسيرة ابن هشام (٢/ ٦٤).
(٢) انظر أنساب الأشراف للبلاذري (١/ ٣١٥).
(٣) المغازي (١/ ٢١٩).
(٤) انظر تفسير ابن كثير (١/ ٤٣٤) وكذلك تفسير القرطبي (٤/ ٢٦٤) للآية (١٦٧) من سورة آل عمران. وانظر كذلك تفسير الآية (٨٨) من سورة النساء في تفسير الماوردي وابن كثير والقرطبي أيضاً.

الصفوفَ استعداداً للمعركة، فانخرط مع قومِه بني سَلِمة ووقف في مقدمِة الصفوفِ الأُولى وبدا بوجهه الأحمر كأنه ينظرُ إلى الجنة، وها هو يستعدُّ لها، وما إن بدأتِ المعركةُ حتى اندفع يقاتلُ بما أُوتيَ مِن قوة، والتقى فارساً مِن فرسانِ المشركين هو «سفيانُ بنُ عبدِ شمسٍ السّلمي»(١) فضربه سفيانُ بسيفِه فأصابَه في وجِهه فجرحَه جرحاً كبيراً خرّ على إثرِه شهيداً، وكان أوّل شهيدٍ مِن شهداءِ المسلمينَ في أُحُد، وتحقّق ما كان يصبو إليه وما عاهدَ رسولَ الله عليه عند العقبة ـ الجنة ـ مع قومِه الأنصار، واستشهدَ قريباً منه ثُلّةٌ مِنَ الصحابة بلغوا سبعين شهيداً منهم: حمزةُ بَنُ عبد المطلب، ومصعبُ بنُ عُمير، وصهرُه عمرو بن الجموح، وأحدُ النقباء ليلة العقبة سعدُ بنُ الربيع رضوان الله عليهم. . . .

* * *

حـــال الشـهــداء:

* أخذت قريشٌ طريقَها إلى مكةَ مسرعةً خيفةَ أن يسقطَ منها النصرُ الذي أحرزتْه في أُحُد، وأقبلَ المسلمونَ على ميدانِ أُحد يتحسّسون مُصابَهم وشهداءَهم، وكان عددُ الشهداء يومَها يساوي عددَ أسرى المشركين يومَ بدر، وكانت جثثُ أولئك الشهداءِ في حالٍ يُرثى لها، لقد ظمئَتْ نساءُ قريشٍ إلى الثأر، فتركْنَ الدفوفَ وارتمَيْنَ في حالةٍ مِنَ الجنون على الشهداء يمثِّلْنَ بهم أقبحَ تمثيل، وكانت هند بنت عتبةَ زوجُ أبي سفيان سبّاقة في مضمار الوحشيةِ، فاتخذتْ مِن آذانِ الرجالِ وأنوفِهم قلائدَ وأقراطاً وخلاخلَ، وأعطتْ حُلِيَّها وقلائدَها الذهبية وحشياً، ولم تتوقفْ عند هذا الحدِّ مِنَ الحقدِ الأسود فحسب بل بقرتْ عن كبدِ حمزةَ بنِ عبد المطلب رضي الله عنه فلاكَتْها ولم تستطعْ أن تسيغَها فلفظتها، ثم علتْ صخرةً وصرختْ بأعلى صوتها تعبِّر عن حقِدها وفوزِها بالثأر:

---

(١) انظر الاستيعاب (١/ ٣٣١) وطبقات ابن سعد (٣/ ٥٦٢) وأنساب الأشراف (١/ ٣٣٣).

نحـنُ جـزينـاكـم بيـومِ بـدرٍ   والحـربُ بعـد الحربِ ذاتِ سُعُـر

* ولم يكن كفارُ قريشٍ أقلَّ وحشيةً مِن نسائِهم، فقد مثّلوا بسيدِنا عبدِ الله ابنِ عمرو بنِ حرام أقبحُ مُثلة، فقُطعت أعضاؤه وأذناه وأنفُه، وكذلك صديقُه عمروُ بن الجموح حتى لم يُعرفا إلا بصعوبة حيث كان عمرو بن الجموح رجلاً طويلاً، وسيدُنا عبدُ الله بنُ عمرِو بنِ حرام رجلاً أحمرَ أصلعَ ليسَ بالطويل.

* تأثّرَ رسولُ الله لحالةِ أصحابِه تأثُّراً عميقاً ظلَّ يذكرُه إلى قُبيل وفاتِه، روى جابرُ بنُ عبدِ الله أنّ رسولَ الله ﷺ لما خرج لدفنِ شهداءِ أُحُد قال:

«زمّلوهم بجراحِهم فإني أنا الشهيدُ عليهم، ما مِن مسلم يُكْلَمُ في سبيلِ الله إلا جاءَ يومَ القيامةِ يسيلُ دماً؛ اللونُ لونُ الزعفران والريحُ ريحُ المِسْك»[1].

وقد ضمّ ثرى أُحُدٍ أقربَ الناس إلى قلبِه ﷺ مِنَ المهاجرين والأنصار، أولئك الذينَ آثروا مرضاةَ اللهِ ورسولِه وباعوا أنفسَهم في سبيلِ اللهِ فربح بيعُهم وفازوا بالرضوان.

* * *

المتحـابـون فـي قبـورهـم:

* وصلتْ أخبار شهداء المسلمين إلى المدينة، فجاءت النساءُ ليُداوين الجرحى ويبكينَ الموتى، وجاءت أنيسة بنتُ عنمة بنِ عديّ زوجُ عبدِ الله بنِ عمرو بنِ حرام، وقد قُتل زوجُها وأخوها، كما جاءتْ هند بنتُ عمرِو ابنِ حـرام أختُ سيدِنـا عبـدِ اللهِ، وقد قُـتل زوجُهـا وابنهـا وأخوهـا، وعلـم رسولُ الله ﷺ أنّ بعضَ الناسِ قد نقلوا موتاهم إلى المدينةِ ليدفنوهم فيها، فنادى منادي رسولِ الله: «ادفنوا القتلى في مصارعِهم»[2] فرُدُّوا إلى ميدان أُحُد وكان سيدُنا عبدُ الله ممّنِ احتُملَ على بعيرٍ مع ثلّةٍ مِنَ الشهداء إلى المدينةِ

---

(١) انظر طبقات ابن سعد (٣/ ٥٦٢).

(٢) سير أعلام النبلاء (١/ ٣٢٥).

فرُدُّوا جميعاً. ويقف الرسول الكريم ﷺ عند الشهداء ويقول:

«أيُّ هؤلاء كان أكثر أخذاً للقرآن»؟.

فإذا أُشير له إلى الرجلِ قال:

«قدِّموه في اللحدِ قبلَ صاحِبه»[1].

وأمر ﷺ بدفنِ الشهداء وقال:

«ادفُنوا عبدَ اللهِ بنَ عمرو، وعمرَو بنَ الجموح في قبرٍ واحد، لِمَا كان بينهما مِنَ الصفاء».

وكان المشركون قد مثّلوا بهما أبشعَ تمثيل فلا تكادُ تُعرف أبدانُهما وقال ﷺ:

«ادفُنوا هذين المتحابَّين في الدنيا في قبرٍ واحد»[2].

* * *

مناقب عبد الله ومكانته:

* سيدُنا عبدُ اللهِ بنُ عمرِو بنِ حرام رضي الله عنه واحدٌ مِن تلك الجماعةِ المختارةِ التي تربّتْ على يديْ رسولِ الله ﷺ وصُنعتْ على عينِه، فكانت نفسُه مبنيةً بناءً سليماً صافياً، ومنذ أن دخل الإيمانُ في قلبِه تلاشتْ صورُ الماضي مِن حياتِه فوراً، وأصبحَ إنساناً لا يعرفُ إلا الإيمانَ ولا يحلُمُ إلا بالجنة، فلم يعدْ يهمُّه سوى مرضاةِ اللهِ ورسولِه، وأشرقتْ نفسُه بالنقاء.

وقد لاحظَ رسول الله ﷺ هذه السِّمة في شخصِ سيدنا عبد الله فأحبَّ فيه هذه الخصلةَ التي بوّأتْه مكاناً عليّاً بين الصحابةِ الكرامِ رضوانُ الله عليهم جميعاً، وجعلَتْه مكانَ إكبارٍ في نفسِ الرسولِ الكريم ﷺ حيث قال فيه:

---

(١) انظر طبقات ابن سعد (٣/ ٥٦٢).

(٢) المغازي للواقدي (١/ ٢٦٧).

«جزى الله الأنصارَ عنّا خيراً لا سيما عبدُ الله بنُ عمرو بن حرام وسعدُ بنُ عبادة»[1].

وحسبُك بهذا التكريم مِن رسول الله عليه الصلاة والسلام لعبدِ الله ابنِ حرام ليكون مِنَ الأوائلِ في مضمارِ الخير.

* ولقد كانَ الرسولُ الكريمُ ﷺ ذلكَ الخبيرَ الصادقَ الحريصَ على المؤمنين والرؤوفَ الرحيمَ بهم، يوجِّه الصحابةَ الكرامَ إلى التزامِ الطريقِ الصحيحةِ ليسعَدوا في الدارَين، وقد فعلوا ذلك فسعدوا في الدنيا والآخرة.

وسيدُنا عبدُ الله بنُ عمرِو بنِ حرام رضوانُ الله عليه ممّن صفتْ سريرتُه وزكتْ نفسُه بصحبةِ رسول الله ﷺ وترفّعتْ عن دنايا الأمورِ وأضحتْ مطالبُها عالية، وأخذ يحلُم بالجنة ويسعى لها سَعْيَها لينالَها، فلم تغِبْ عن ذاكرتِه مطلقاً مشاهدُ بدرٍ وفضلُها، وكان يستمعُ إلى رسولِ الله ﷺ وإلى هَدْيه في فضلِ الشهداءِ وفضلِ مَن شهدَ بدراً، فصارَ يتمنى الشهادةَ، وقد دُعي سيدُنا عبدُ الله إلى مائدةِ الشهداء بإشارةٍ مِن رسول الله ﷺ وذلك بتأويلِ رؤيا له حيث قال:

«رأيتُ في النوم قبلَ أُحُد كأني رأيتُ مبشرَ بنَ عبدِ المنذر[2] يقول لي: أنت قادمٌ علينا في الأيام.

فقلت: وأين أنت؟.

قال: في الجنة نسرحُ فيها كيف نشاء.

---

(1) انظر الإصابة (١/ ٣٤٢) وانظر مجمع الزوائد (٩/ ٣١٧) في معنى قريب بلفظ «جزاكم الله معشر الأنصار خيراً ولا سيما آل عمرو بن حرام وسعد بن عبادة» والحديث رواه البزار.

(2) هو سيدنا مبشر بن عبد المنذر بن رفاعة الأنصاري وأخواه رفاعة بن عبد المنذر وأبو لبابة بن عبد المنذر وأمهم نسيبة بنت زيد. آخى رسول الله ﷺ بين مبشر بن عبد المنذر وعاقل بن أبي البكير، وقد شهد مبشر بدراً وقتل يومئذ شهيداً رضي الله عنه.

قلت له: ألم تُقتَلْ يومَ بدر؟.

قال: بلى ثم أُحييت....

فذكر ذلك لرسولِ الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «هذه الشهادة يا أبا جابر»[1].

* ولم تبرحْ هذه الرؤيا العطرةُ وذكرى الجنةِ نفسِ سيدِنا عبدِ الله، وأضحتْ نفسُه متعلقةً بالجنةِ كأنّه يراها، ولما كان يومُ أُحُد توقَّع الشهادةَ ودعا ابنه جابراً رضي الله عنهما، ووصّاه بأخواته قائلاً:

«إني أرجو أن أكونَ في أولِ مَنْ يصابُ غداً فأُوصيك ببناتي خيراً..»[2].

وصدقَ حدسُ الرجلِ فكان أَوّلَ الشهداءِ رضي الله عنه واستقبلَتْه الملائكةُ مع صحبِه الشهداءِ أحسنَ استقبال، واحتفَتْ بجنائزها أجلَّ احتفاءٍ وأكرمه، وعبّر النبيُّ الكريم ﷺ عن احتفاءِ الملائكةِ لهؤلاء الشهداء، روى جابرُ بنُ عبدِ الله رضي الله عنهما قال:

«لما قتُل أبي يوم أُحُدِ جعلتُ أكشِف عن وجهه وأبكي وجعل أصحابُ رسولِ الله ينهوني وهو لا ينهاني وجعلتْ عمّتي تبكيه. فقال النبيُّ ﷺ: «تبكيه أو لا تبكيه ما زالتِ الملائكةُ تظلِّله بأجنحتِها حتى رفعتموه»[3].

هنيئاً لظليلِ الملائكةِ عبدِ الله بن عمرِو بنِ حرام، هنيئاً لمن عاشَ حياتَه نقاءً، فكان يرى كلَّ شيءٍ صافياً، فلقيَ الله على ما عاهدَه عليه، وظلّ طيِّبَ العملِ في حياتِه وطيبِ الرائحةِ في مماته، فقد ذُكر أن رائحةَ المسكِ كانت تفوحُ مِن قبرِه بعد مضيٍّ قرابةِ نصفِ قرنٍ[4]، ناهيك بأن جسدَه لم يتغيَّرْ بعد

---

(١) انظر حياة الصحابة (٣/ ٦٧٢).

(٢) انظر سير أعلام النبلاء (١/ ٣٢٧) والمغازي (١/ ٢٦٦).

(٣) انظر سير أعلام النبلاء (١/ ٣٢٥). والحديث رواه البخاري ومسلم والإمام أحمد.

(٤) راجع هذا الموضوع في المغازي (١/ ٢٦٨) والبداية والنهاية (٤/ ٤٣)؛ وخروج رائحة الطيب من قبور شهداء أحد يذكرنا بقول أبي تمام الطائي:

أرادوا ليخفوا قبره عن عدوه ... فطيب تراب القبر دلّ على القبر

هذه الأعوامِ المديدة، وقد رُوي أن عبدَ الله بنَ عمرِو بنِ حرام وعمرَو بنَ الجموح رضي الله عنهما قد حفرَ السيل عنهما وعليهما نَمِرتان، وعبدُ الله قد أصابه جرحٌ في وجهه فيدُه على جُرحه فأميطت يدهُ عن جرحِه فانبعث الدمُ فرُدَّتْ يدُه على مكانِها فسكنَ الدم. وقال ابنُه جابرٌ رضي الله عنه يصفُ حال أبيه:

«فرأيتُ أبي في حفرته كأنه نائمٌ وما تغيَّرَ مِن حالِه قليلٌ ولا كثيرٌ».

فقيل له: فرأيتَ أكفانَه؟.

قال: «إنما كُفِّنَ في نَمِرةٍ خمر بها وجهه وجُعل على رجلَيه الحَرْمَل فوجدنا النمرةَ كما هيَ والحرملُ على رجليه على هيئته، وبين ذلك ستٌّ وأربعونَ سنةً، فحوِّلا إلى مكانٍ آخرَ وأخرجوا رطاباً يتثنون»[1].

* كرامةٌ مِنَ الله لهؤلاءِ الشهداءِ، فالأرضُ لم تأكلْ أجسادَهم بإذنِ اللهِ لأنهم أرادوا أن يرتفعَ ذكرُ الله وتكونَ كلمتُه هي العليا وكلمةُ الذين كفروا السلفى. وحين استشهد بطلنا عبدُ اللهِ بنُ عمرو بنِ حرام وجدوا عليه دَيناً، ويروي سيدُنا جابرُ بنُ عبدِ اللهِ وفاءه دينَ أبيه قال:

«قُتل أبي يوم أُحُدٍ شهيداً وعليه دَين، فاشتدَّ الغرماءُ في حقوقهم، فأتيتُ النبيَّ ﷺ فسألهم أن يقبلوا تمر حائطي أو يحلِّلوا أبي من الدَّين فلم يفعلوا، فلم يعطهمُ النبيُّ ﷺ حائطي وقال:

«سنغدو عليك».

فغدا علينا حين أصبح، فطافَ في النخيلِ ودعا في ثمرها بالبركة، فجذذتُها ـ قطفتها ـ فقضيتُهم وبقي لنا مِن ثمرِها»[2].

* وهكذا وفّى جابرٌ دَينه وبقيَ له مثلُ الذي أعطى غرماءَه، وهذا مكرمةٌ للنقيب الشهيدِ عبدِ الله بنِ عمرِو بن حرام، ومعجزةٌ مِن نَبيّ الله في طرحِ

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء (١/ ٣٢٦) وطبقات ابن سعد (٣/ ٥٦٢).

(٢) رواه البخاري.

البركةِ في التمرِ، وتكريمٌ للولد البارِّ جابرِ بنِ عبد الله. وبعدُ، ألا يستحق سيدُنا عبدُ الله هذا التكريم؟ إنه علوٌّ في الحياةِ وفي الممات!.

* وفي غزوةِ حمراءِ الأسد كان لجابرٍ قصةٌ، فقد سمحَ رسولُ الله ﷺ له بالخروجِ معه، وذلك أنّ والدَه كان قد خلّفه في غزوة أُحُدٍ عند أخواته قائلاً:

«يابنيّ إنه لا ينبغي لي ولا لك أن نتركَ هؤلاءِ النسوةَ لا رجلَ فيهنّ ولستُ بالذي أُوثرُك بالجهادِ مع رسولِ الله ﷺ فتخلّفْ على أخواتِك»[1].

واستجابَ جابرٌ لرغبةِ أبيه وتخلّفَ عن غزوةِ أُحُدٍ، وقضى الله على أبيه فنالَ الشهادةَ، ولم تطبْ نفسُ جابرٍ بعدَ أنْ تخلَّف عن أُحُد أن يتخلّف عن غزوةٍ أُخرى وقد علم أن الغدوةَ في سبيلِ الله والروحةَ خيرٌ مِنَ الدنيا وما فيها، وانطلقَ إلى رسولِ الله ﷺ وعرضَ عليه قصةَ تخلُّفِه عن غزوةِ أُحُدٍ بالأمسِ، فأذنَ له رسولُ اللهِ في الخروج إلى حمراءِ الأسد دونَ غيرِه ممن لم يشهدْ أُحداً حيثُ عَهِد الرسولُ الكريمُ ألاّ يخرجَ معه إلا مَنْ حضرَ غزوةَ أُحُدٍ بالأمس.

أرأيتَ كيف يتبعُ الخيرُ الرجلَ في الحياة وبعدَ الممات؟ ذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاءُ والله ذو الفضل العظيم.

* * *

الحيـــاة بعـد الحيـــاة:

* في حضنِ جبلِ أُحُدٍ تفوحُ تربتُه بالأريجِ تحكي ماضيَ الشهداء، كلُّ قبر يشهدُ لصاحبِه أنه مات في سبيلِ الله، ثم إنّ الرسولَ الكريم ﷺ أوّلَ الشاهدين، والملائكةُ يشهدون أيضاً بفضلِ هؤلاء الشهداءِ، فكأنّ حياتَهم باقيةٌ تعطّر الأسماعَ وتصقلُ النفوسَ وتهذِّبُها، وتبعثُ فيها الإكبارَ لهؤلاء الرجالِ الذين طلبوا رضوانَ الله فنالوه، وقد تحلّى الصحابةُ الكرامُ بفاضلِ الأخلاقِ الكريمةِ، اقتبسوها مِن رسولِ الله ﷺ، لذلك أضحتْ مطالبُهم عاليةً

---

(١) انظر عيون الأثر (٢/ ٥٢).

فنالوا الجزاءَ الأَوفى، وعاشوا في أفضلِ جوارٍ وأكرمِه أحياءً يُرزقون، روى جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال:

«نظرَ إليَّ رسولُ الله ﷺ ذاتَ يومٍ فقال: يا جابرُ مالي أراك مهتماً؟.

قلتُ: يا رسولَ الله، استُشهد أبي وتركَ دَيناً وعيالاً. فقال ﷺ: ألا أخبرك؟ ما كلّم الله أحداً قطّ إلا مِن وراءِ حجاب، وإنه كلَّم أباك كفاحاً ـ أي مواجهةً ـ قال: سَلْني أُعطِك.

قال: أسألك أن أُردَّ إلى الدنيا فأقتلَ فيك ثانية.

فقال الرب عزَّ وجلَّ: إنه سبقَ مني القولُ أنهم لا يرجعون.

قال: أي رب، فأبلغ مَنْ ورائي. فأنزل الله:

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1] [آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧١].

* إذاً هي الحياةُ بعدَ الحياة، ولكنها حياةٌ لا تشبهُ حياتَنا هذه، فحياتُهم لا همّ فيها ولا حزن، بل سرورٌ واستبشارٌ بنعمةِ الله، يقول الإمام القرطبيّ في تفسيره «الجامع لأحكام القرآن»:

«أخبرَ اللهُ فيها عَنِ الشهداء أنّهم أحياءٌ في الجنة يُرزقون، ولا محالةَ أنهم ماتوا وأن أجسادَهم في التراب وأرواحَهم حيّةٌ كأرواح سائِر المؤمنين، فُضِّلوا بالرزق في الجنة مِن وقت القتلِ حتى كأن حياة الدنيا دائمة لهم».

* وبعد فهذا سيدُنا عبدُ الله بنُ عمرِو بنِ حرام رضي الله عنه عاش قرابةَ ثلاثِ سنواتٍ في الإسلام، كان عطاؤه خِلالها دانيَ القطوفِ نديَّ الرائحةِ،

---

(١) انظر أسباب النزول للواحدي ص (١١٠) وتفسير ابن كثير (١/ ٤٣٦)، وانظر كذلك سير أعلام النبلاء (١/ ٣٢٧ و٣٢٨).
والحديث رواه الإمام أحمد.

وكان مباركاً وصادقاً فعاشَ في قلوبِ المؤمنينَ وكانَ عندَ اللهِ مِنَ السعداءِ المكرمين.

بشارته بالجنة:

* قال تعالى:

﴿ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٢].

* سيدُنا عبدُ اللهِ بنُ عمرِو بن حرام الأنصاريّ، ذلك الصحابيُّ الذي تبوَّأَ مكانةً عظيمةً في نفسِ رسولِ الله ﷺ، فهوعقبيٌّ بدريٌّ أحديٌّ نقيبٌ، وما أدراكَ ما هذه الأوسمةُ الرفيعةُ التي كانت لسيدِنا عبدِ الله، فالعقبةُ ليلةٌ مباركةٌ وهي مفتاحُ هجرةِ المسلمين مِن مكةَ إلى المدينةِ، لهذا فإنّ العقبةَ مِنَ المشاهدِ التي يتمايزُ بها أصحابُ الرسولِ الله ﷺ ويُنسبون إليها فيقال: فلان عَقْبِيٌّ أو بَدْرِيٌّ، روى كعبُ بنُ مالك رضي الله عنه قال: «ولقد شهدتُ مع رسولِ الله ﷺ ليلةَ العقبةِ حين تواثَقْنا على الإسلامِ، وما أحبُّ أن لي بها مشهدُ بدر، وإنْ كانت أذكرَ في الناسِ منها»[١].

* وسيدُنا عبد الله ممّن نجح في مدرسِ النبوةِ ونالَ أعلى الشهاداتِ مِن رسولِ الله ﷺ، ونال الرعايةِ والعنايةَ أيضاً، ولما استُشهد في أُحُدٍ ارتفعتْ منزلةُ ولده جابرٍ عندَ رسولِ الله ﷺ، فأولاه عطفَه ورحمتَه وأكرمَ مثواه، وهذا الإكرامُ امتدادٌ لوالدِه الشهيدِ الذي نالَ بِشارةَ رسولِ الله ﷺ بالجنةِ حيث قالَ لهند بنتِ عمرِو بن حرام:

«يا هندُ قد ترافَقوا في الجنةِ جميعاً، عمرُو بن الجموح وابنُك خلاّد وأخوك عبدُ الله».

قالت هند: يا رسول الله، ادعُ الله عسى أن يجعلَني معهم[٢]. وقد بشّر

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم.

(٢) المغازي (١/ ٢٦٦).

رسولُ الله ﷺ جابراً بأن والدَه في الجنة فقال:

«يا جابر ألا أبشِّرُك؟.

قال: بلى بأبي وأمي.

قال: فإنّ الله أحيا أباك ثم كلَّمَه كلاماً فقال: تمنَّ على ربِّك ما شئتَ.

فقال: أتمنى أن أرجعَ فأُقتلَ مع نبيِّك ثم أَحيا فأُقتل مع نبيِّك.

قال: إني قد قضيتُ أنهم لا يرجعون»[1].

وقد بشَّر رسولُ الله ﷺ شهداءَ أُحُدٍ جميعاً بالجنةِ فعن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«لما أصيبَ إخوانُكم بأُحُد، جعلَ الله أرواحَهم في أجوافِ طيرٍ خضرٍ تَرِدُ أنهارَ الجنةِ وتأكلُ مِن ثمارِها وتأوي إلى قناديلَ مِن ذهبٍ في ظلِّ العرشِ، فلما وجدوا طِيبَ مأكلِهم ومشربِهم وحُسْنَ مَقيلِهم قالوا: يا ليتَ إخوانَنا يعلمونَ ما صنعَ الله بنا لئلاّ يزهدوا في الجهادِ ولا ينكُلوا عندَ الحربِ. فقال الله تبارك وتعالى: فأنا أبلِّغُهم عنكم، فأنزلَ الله عزّ وجلّ على نبيِّه هذه الآيات.....

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾[2].

* وهكذا فقد استُشهد سيدُنا عبدُ الله بنُ عمرِو بن حرام مع الطيِّبين، ودُفن معهم في حِضنِ جبلِ أُحُدِ الذي قال رسول الله ﷺ عنه:

«أُحُدٌ جبلٌ يحبُّنا ونحبُّه وهو على بابٍ مِن أبوابِ الجنّة»[3].

---

(١) المصدر السابق (١/ ٢٦٨) وانظر كذلك تفسير ابن كثير (١/ ٤٣٦)، وانظر مجمع الزوائد (٩/ ٣١٧).

(٢) انظر تفسير ابن كثير (١/ ٤٣٦) وانظر عيون الأثر (٢/ ٥١) والحديث رواه الإمام أحمد.

(٣) انظر البداية والنهاية (٤/ ٩) وانظر معجم البلدان (١/ ١٠٩).

والآن، وقبل أن نودِّعُ سيدَنا عبدَ الله شهيداً وفارساً وسيِّداً، لا بدَّ أن نعرفَ أنه قد روى عن رسولِ الله ﷺ، وروى عنه ابنُه جابرٌ رضي الله عنه قال: «رأيتُ رسولَ الله ﷺ يتختّم في يمينه»[1].

ذلكم هو عبدُ الله بنُ عمرِو بن حرام الشهيدُ السعيدُ، الذي خلّف ذكراً حميداً، فكان مِنَ الذين فازوا بمرضاةِ الله سبحانه وكان مِنَ الذين رضيَ الله عنهم ورَضُوا عنه، ومعَ الخالدِين وسيرتهم العطرةِ يفوحُ ذِكْرُ سيدِنا عبدِ اللهِ بالطِّيب والمِسْكِ كما فاح ترابُ قبرِه ليكونَ ممّن قالَ الله فيهم:

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

صدق الله العظيم

* * *

(١) انظر الاستيعاب (١/ ٣٣١).

سيدنا

جعفر بن أبي طالب

رضي الله عنه

* أمير المهاجرين في الحبشة .
* الأمير الشهيد في مؤتة .
* «أشبهت خَلْقي وخُلُقي» .
* «إن الله عز وجل جعل لجعفر جناحين يطير بهما في الجنة» .

مقـــدمـــة:

* لم يشأْ «عبدُ المطّلب بنُ هاشم القرشي» أَنْ يتركَ حفيدَهُ اليتيم هَمَلاً بعد موتِه، ولمّا أَنْ أحسَّ دنوَّ أَجَلِه أرسلَ إلى ولدِه أبي طالب، فأوصاه بأَنْ يجعلَ محمداً في كفالتِه ويرعاه ويُوليه كلَّ عناية، فهو ابنُ أخيه وشقيقُه «عبدُ الله ابنُ عبد المطلب».

ثم مات عبدُ المطّلب ودُفنَ بالحجون[1]، وهو مطمئنٌّ القلب إلى أنّه قد أسْلمَ يتيمَه محمداً إلى اليدِ الأمينة، وإلى القلبِ الرحيم والركنِ الأمين.

* برْهنَ أبو طالب على أنَّه عند حُسْن الظنِّ به، وأنَّه كان أهلاً لتلك الثقةِ التي أَولاه إياها أبوه عبدُ المطلب بن هاشم، فطفق يغمرُ ابنَ أخيه محمداً ويحوطه بعطفِه ورعايتِه، وينزلُه منزلةَ الإكرام والإيثارِ والحنان، واصطحبه ذاتَ مرةٍ إلى الشّامِ في تجارةٍ حيثُ كان أولادُ أبي طالبٍ صغاراً.

* شبَّ محمدٌ ﷺ مع عمِّهِ أبي طالب يكلؤهُ الله ويحفظُه مِنْ أمورِ الجاهلية ومعايبها، ولمَّا بلغَ أَشُدَّهُ وصارَ رجلاً كان أفضلَ قومِه مروءةً وأحسنَهم خُلُقاً، وأكرمَهم مخالطةً، وأحسنَهم جواراً، وأعظَمَهم حلماً وأمانة، وأصدقَهم حديثاً وأبعدَهم عَنِ الفُحش والأذى، ما رُؤي مُلاحياً ولا مُمارياً أحداً حتى سمّاه قومُه «الأمين» لِمَا جمعَ الله فيه مِنَ الأمورِ الصالحةِ، وكان أبو طالب يحفظُهُ ويحوطُه وينصرُهُ ويعضدُه حتى مات، ولما بلغَ سيّدُنا محمدٌ الخامسة والعشرين تزوّج مِن «خديجةَ بنتِ خُويلد» فكان زواجاً موفقاً مباركاً، فاتجر بمالها وتيسرتْ له سبلُ العيش، وقد ظلَّ محمدٌ عليه الصلاة والسلام ينظر إلى عمِّه نظرةَ حبٍّ وعرفانٍ بالجميل.

* كان أبو طالب قليلَ المالِ كثيرَ العيال، وأصابَ النَّاس شدةٌ، ومرّتْ عليهم سنةٌ مجدبةٌ فازدادتْ حالُ أبي طالب سوءاً، ونظرَ محمدٌ عليه الصلاة والسلام إلى حالِ عمِّه فألفاهُ رقيقَ الحالِ كثيرَ العيالِ، فانطلقَ إلى عمِّه

---

(١) انظر البداية والنهاية (٢/ ٢٨٢) والسيرة الحلبية (١/ ١٨٤).

العبَّاسِ بنِ عبدِ المطلب وكان مِنْ أَيْسَرِ بني هاشم فقال له:

«يا عبّاسُ: إنَّ أخاكَ أبا طالب كثيرُ العيالِ، وقد أصاب الناسَ ما ترى مِنْ هذه الأزمةِ، فانْطَلِقْ بنا إليه فلنُخفِّفْ عنه مِنْ عياله، آخذُ مِنْ بنيه رجلاً وتأخذُ أنتَ رجلاً، فنكِلَهما عنه» فقال العباس: نعم.

فانطلقا، حتى أتيا أبا طالب فقالا له:

إنَّا نريدُ أَنْ نخفِّفَ عنك مِنْ عيالِكَ حتى ينكشفَ عنِ النَّاسِ ما هم فيه.

فقال لهما أبو طالب: إذا تركتُما لي عقيلاً[1] فاصنَعا ما شئتُما. فأخذَ رسولُ الله ﷺ عليّاً وضمّه إليه، وأخذ العباسُ جعفراً فضمّه إليه»[2].

* انتقل جعفرُ بنُ أبي طالب بن عبد المطلب إلى بيت عمّه العباس بن عبد المطلب بإشارةِ مِنْ محمدٍ ﷺ، وكان جعفر يكنُّ لابن عمهِ محمداً كلَّ الحبِّ والإعجاب، وذلك لاهتمامِهِ به وبأخيه عليّ وبأسرتِهِ كلِّها؛ وظلَّ جعفرُ مع عمِّه العباس حتى شبَّ وأيفعَ، ولما بُعثَ رسولُ الله ﷺ، بدأ يدعو أهلَه وعشيرتَه إلى نَبْذِ عبادةِ الأصنامِ، فاستجاب له بعضُ أفرادِ أسرتِه وأقربائِه، فآمنَ به «عليُّ بن أبي طالب» رضي الله عنه، ثم ما لبث جعفرُ أَنْ انضمَّ إلى ركبِ النّور، وأسلم مع زوجه «أسماءَ بنتِ عُميس»[3] وترك دار عمه العباس، يقول ابن سيّد الناس:

«فلم يزلْ عليٌّ معَ رسولِ الله ﷺ حتى بعثه الله نبياً فاتّبعهُ عليٌّ وآمن به وصدّقه، ولم يزلْ جعفرُ عند العبَّاس حتى أسلمَ واستغنى عنه»[4].

---

(١) هو عقيل بن أبي طالب أخو سيدنا علي بن أبي طالب. كان عقيل أكبر من جعفر بعشر سنين، وجعفر أكبر من علي بعشر سنين، وكان عمر جعفر عندما أخذه عمه العباس قرابة خمسة عشر عاماً.

(٢) انظر عيون الأثر (١/ ١١٦) والسيرة الحلبية (١/ ٤٣٢).

(٣) هي أسماء بنت عميس بن النعمان أسلمت قديماً قبل دخول الرسول ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم. وهاجرت إلى الحبشة مع زوجها جعفر بن أبي طالب ثم هاجرت معه إلى المدينة. وكانت أسماء من أكرم الناس.

(٤) عيون الأثر (١/ ١١٦).

* ويروي ابن سعد في الطبقات فيقول: «وأسلمَ جعفر بن أبي طالب قبل أنْ يدخلَ الرسولُ ﷺ دارَ الأرقمِ بن أبي الأرقم ويدعو فيها»[1].

بدأتْ قريش تذيقُ الذين أسلموا أصنافَ العذاب وتضيّق على المسلمين، وتَحول دونهم ودونَ أداءِ شعائرِ الإسلام، وصبرَ الرسولُ والمسلمونَ ولمْ يثْنِ عزمَهم عذابٌ أو أذى، بل زادهم إيماناً وإصْراراً على التَّمسُّكِ بدينهم وأداءِ شعائره في مختلفِ الظروف.

كان رسولُ الله ﷺ إذا حضرتِ الصَّلاة خَرجَ معه علي بن أبي طالب مستخفياً مِنْ أبيه ومن جميع قومِه، فيُصَليان في تلك الشِّعاب حتى إذا أمسيا رجعا، فمكثا كذلك ما شاء الله أَنْ يَمْكُثا، ثم إِنَّ أبا طالب عثَر عليهما يوماً وهما يُصلِّيان، فقال لرسولِ الله ﷺ:

يابن أخي ما هذا الدِّين الذي أراكَ تدينُ به؟.

قال: «يا عمّ هذا دينُ الله ودينُ ملائكته ودينُ رسلِهِ، ودين أبينا إبراهيم، بعثني الله به رسولاً إلى العباد وأنتَ يا عمّ أحقّ مَنْ بذلتُ له النّصيحة ودعوتُه إلى الهدى، وأحقُّ مَنْ أجابني إليه وأعانَني عليه».

فقال أبو طالب: يابن أخي إني لا أستطيعُ أَنْ أفارقَ دينَ آبائي وما كانوا عليه، ولكنْ والله لا يخلصُ إليك شيءٌ تكرهُه ما بقيت...».

ثم قال لعَليٍّ: أَي بُنَيّ إنَّه لم يدْعُكَ إلا لخيرٍ فالزَمْه[2].

ولم ينكرْ أبو طالب على ولدَيه جعفر وعليّ اتّباعَ ابنِ أخيه محمدٍ عليه الصلاة والسلام، فقد كان يكنُّ لمحمدٍ كلَّ الحبِّ والاحترام.

روى العسكريُّ في كتابه «الأوائل» قال:

«مرَّ أبو طالب ومعه جعفرُ على نَبيِّ الله ﷺ وهو يصلِّي وعليٌّ على يمينه فقال لجعفر: صِلْ جناحَ ابنِ عمِّك، فتأخَّرَ عليٌّ وقام معه جعفرُ وتقدَّمهما

---

(١) انظر طبقات ابن سعد (٤/ ٣٤).

(٢) انظر عيون الأثر (١/ ١١٧) بتصرف يسير، وانظر السيرة الحلبية (١/ ٤٣٦).

رسولُ الله ﷺ، . . . . . فكانت أولَ جماعةٍ في الإسلام»[1].

* * *

الهجـرة إلـى الحبشـة:

* بدأ عددُ المؤمنين يزدادُ يوماً بعد يوم، ولما كثرت أعداد المسلمين، وظهرَ الإيمان، أقبل كفارُ قريش على مَنْ آمنَ مِنْ قبائِلهم يعذبونَهم ويؤذونَهم ليردُّوهم عَنْ دينهم، ولمَّا رأى رسول الله ﷺ ما يصيبُ أصحابَه مِنَ البلاء، وما هو فيه مِنَ العافية بمكانِهِ مِنَ الله ومن عمّه أبي طالب، فقال عليه الصَّلاة والسَّلام لِمَنْ آمَنَ به: «تفرَّقُوا في الأرض فإنَّ الله سيجمعكم» قالوا: إلى أين نذهب؟ قال: «هاهنا وأشار بيده إلى الحبشة»[2] وقال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإنَّ بها ملكاً لا يُظلم عنده أَحَدٌ، وهيَ أرض صدق حتى يجعلَ الله لكم فرجاً ممّا أنتم فيه»[3].

فخرج عند ذلك المسلمون منْ أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة مخافةَ الفتنة فكانت أولَ هجرة في الإسلام.

وكان عددُ الذين خرجوا عشرة، وكان عليهم «عثمان بن مظعون» رضي الله عنه، فأَكْرمَ النَّجاشي مثْواهم، وأحْسَنَ لقاءهم، فأرسلوا نفراً منهم ليخبروا رسولَ الله ﷺ بِمَا هم فيه مِنْ حُسْنِ الجوار وطيبِ العيش، ويعرضوا على مَنْ شاء منْ إخوانهم المعَذَّبين أَنْ يهاجروا معهم، فاستأذنَ «جعفر بن أبي طالب» رسولَ الله ﷺ الخروج إلى الحبشة فأذنَ له، فخرج ومعه زوجه أسماء بنت عُميس رضي الله عنها وخرج معه بعض المسلمين.

* كان سيدُنا جعفرُ ـ رضي الله عنه ـ حريصاً على الصّلاة، ولمْ ينسَ قبل أَنْ يفارقَ رسولَ الله ﷺ أَنْ يسألَه عن كيفيةِ الصّلاة في هجرته هذه؛ روى

(١) انظر الأوائل ص ٧٥ و٧٦ والسيرة الحلبية (١/ ٤٣٣).
(٢) انظر الدرر ص ٣٢.
(٣) انظر البداية والنهاية (٣/ ٦٦).

السهيلي عن ذلك في كتابه النفيس «الروض الأنف» فقال:

«ومما في حديث الهجرة إلى الحبشة أَنَّ جعفر بن أبي طالب قال لرسول الله ﷺ: كيف نُصلي في السَّفينة إذا ركبنا في البحر؟ فقال ﷺ: «صَلِّ قائماً إلا أَنْ تخافَ الغَرق»[1].

وتتابع المسلمون بالخروجِ إلى الحبشة، منهم مَنْ خرج بنفسِه ومنهم مَنْ خرج بأهِله، وبلغ عدد المهاجرين ثلاثةً وثمانين مهاجراً وعليهم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه.

وقد يسَّر الله لهم السَّفر، فانحازوا إلى نجاشي الحبشة، ووجدوا عنده ما يبغونَ مِنَ الأمنِ والسَّلام وطيبِ الجوار وحُسْنِ الوفادة.

* * *

جعفرُ والمسلمون في الحبشة:

* أقام المسلمون المهاجرون عند النَّجاشي في خيرِ قيام، فغَاظَ ذلك قريشاً، وعزَّ على المشركين أَنْ يجدَ هؤلاء المهاجرون الضُّعفاء مأمناً لأَنفسهم، بل مأمناً لدِينهم الذين عادوهم مِنْ أجله، ودَعَاهم إلى التفكير في أمْرِ هذه الهجرةِ غيرِ المتوقعة، فائتمروا بينهم أَنْ يبعثوا إلى النّجاشي وفداً منهم يُبيِّنُ له خطرَ المهاجرين لأرضه وخروجَهم عَنْ عادات قومه. ثم وقعَ اختيارهم على رجلين جَلدَيْن عُرِفَا بالدهاء هُما: «عمرو بن العاص وعبد الله ابن أبي ربيعة»[2] ـ وذلك قبل أَنْ يُسْلِما ـ وحمَّلَتْهُم قريشٌ نفائسَ الهدايا للنَّجاشي ولبطارقته، وشحنتْ صَدْر كل واحد منهما بكل ما تملك مِنْ حقدِ على المسلمين ليُفْرِغاه في قلب النّجاشي، وهذا شاهدُ عيان يحدثنا عن قصّةِ

---

(١) انظر الروض الأنف على سيرة ابن هشام (٢/ ٩٤).

(٢) هو عبد الله بن أبي ربيعة: كان اسمه بحيرى، فحين أسلم سماه رسول الله ﷺ عبد الله وهو والد الشاعر الغزلي عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة، ووالد الحارث بن عبد الله أمير البصرة في أيام عمر وعثمان رضي الله عنهما وهو المعروف بـ «القباع».

إرسال قريش وفدها إلى النَّجاشي، وهذا الشّاهد هو أمّ المؤمنين «أم سلمة»[1] زوج الرسول ﷺ، قالت:

«لمّا نزلَنا أرضَ الحبشة، جاورْنا بها خير جار، النَّجاشي، أَمنّا على ديننا، وعبدْنَا الله تعالى لا نُؤْذى ولا نسمع شيئاً نكرهه، فلمّا بلغَ ذلك قريشاً ائتمروا بينهم أنْ يبعثوا إلى النّجاشي فينا رجلين منهم جَلْدَيْن، وأَنْ يُهدوا للنّجاشي هدايا مما يُستْطرفُ مِنْ متاعِ مكةَ، وكان مِنْ أعجب ما يأتيه منها الأَدَم[2] فجمعوا له أدماً كثيراً ولم يتركوا مِنْ بطارقته بَطْريقاً إلا أهدَوا له هديته، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص وأمروهما بأمرِهم وقالوا لهما:

ادفعا إلى كلِ بِطْريق هديتَه قبلَ أَنْ تُكلِّما النَّجاشي فيهم، ثم قدِّما إلى النّجَاشي هداياه، ثم سَلاَهُ أَنْ يُسلِّمَهم إليكما قبلَ أَنْ يكلِّمَهم.

قالت: فخرجا حتى قدما على النّجاشي، ونحنُ عنده بخير دارٍ عند خير جار، فلم يبْقَ مِنْ بطارقته بِطْريق إلا دَفَعا إليه هديته قبل أَنْ يُكلِّما النّجاشي، وقالا لكل بِطريق منهم:

إنّه قد ضَوَى[3] إلى بلد الملك منَّا غلمانٌ سفهاء فارقوا دينَ قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاؤوا بِدِين مُبتدَع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعَثَنَا إلى الملك فيهم أشرافُ قومهم لِيردَّهُم إليهم، فإذا كلَّمنا الملكَ فيهم فأشيروا

---

(١) أم سلمة رضي الله عنها: هي هند بنت أبي أمية بن المغيرة المخزومية. كانت زوجة لابن عمها أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي، هاجرت معه إلى الحبشة وأنجبت له هنالك وعادت معه إلى مكة. ، ثم هاجر إلى المدينة وتبعته، شهد بدراً وأحداً وجرح يومذاك وعوفي، ثم انتقض عليه جرحه ومات في بداية السنة الرابعة للهجرة، وهو ابن عمة الرسول عليه الصلاة والسلام. فلما مات تزوجها رسول الله ﷺ.

(٢) الأدم: الجلود.

(٣) ضوى: لجأ وأتى ليلاً.

عليه بأنْ يُسلمَهم إلينا ولا يكلِّمهم، فإنَّ قومهم أعلى بهم عيناً[1]، وأعلمَ بما عابوا عليهم. فقالوا لهما: نعم.

ثم إنّهما قدّما هداياهما إلى النّجاشي فقبلها منهما، ثم كلَّماه فقالا له: أيها الملك؛ إنَّه قد ضوى إلى بلدك منّا غلمان سفهاء فارقوا دينَ قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدين ابتدعوه، لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم مِنْ آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردَّهُم إليهم، فهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه.

قالت: ولم يكن شيءٌ أبغضَ إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص مِنْ أَنْ يسمعَ كلامَهُم النّجاشيُّ، فقالتْ بطارقُته حوله: صَدَقَا أيها الملك، قومُهم أعلى بهم عيناً، وأعلمُ بما عابوا عليهم فأسلِمْهُم إليهم فليردّاهم إلى بلادهم وقومهم.

قالت: فغضب النَّجاشي ثم قال:

لا هاالله، إذاً لا أسلمُهم حتى أدعوَهم فأسألَهم عمّا يقول هذان في أمرِهم، فإنْ كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم، وإنْ كانوا على غير ذلك منعتُهم منهما وأحسنتُ جِوارهم ما جاوروني.....

قالت: ثم أرسل إلى أصحابِ رسولِ الله ﷺ فدعاهم، فلما جاءهم رسولُه اجتمعوا، ثم قال بعضُهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟.

قالوا: نقولُ والله ما علِمْنا وما أَمَرَنا به نبيُّنا ﷺ كائناً في ذلك ما هو كائن.

فلما جاؤوا ـ وقد دعا النّجاشي أساقفَتَه فنشروا مصاحفَهم حوله ـ فسألهم فقال لهم:

ما هذا الدِّينُ الذي فارقتم فيه قومَكم ولم تدخلوا بهِ في دِيني ولا في دين أحدٍ مِنْ هذهِ المللِ؟.

قالت: فكان الذي كلَّمَه جعفر بن أبي طالب رضوان الله عليه، فقال له:

---

(١) أعلى بهم عيناً: أي أبصر وأعرف بهم من غيرهم.

أيّها الملك، كُنَّا قوماً أهْلَ جاهلية نعبدُ الأصنام ونأكلُ الميتةَ ونأتي الفواحش ونقطعُ الأرحام ونسيءُ الجوار، ويأكلُ القويُّ منَّا الضعيفَ؛ فكنَّا على ذلك حتى بعثَ الله إلينا رسولاً مِنَّا، نعرفُ نسبَه وصدقَه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحِّدَه ونعبدَه ونخلعَ ما كنَّا نعبدُ نحنُ وآباؤنا مِنْ دونه مِنَ الحجارة والأوثان، وأمرَنَا بصدقِ الحديث وأَدَاءِ الأَمانةِ وصلةِ الرَّحم وحُسْنِ الجوار والكفِّ عَن المحارم والدِّماءِ، ونهانا عنِ الفواحش وقولِ الزّور وأَكْلِ مال اليتيم وقذفِ المحصنات، وأَمَرنا أَنْ نعبدَ الله وحده لا نشركُ به شيئاً، وأمرنا بالصّلاة والزّكاة والصّيام.

قالت: ـ فعدّد عليه أمورَ الإسلام ـ فصدّقناه وآمنا به وحرَّمنا ما حرَّم علينا، وأحللْنَا ما أحلَّ لنا، فَعَدا علينا قومُنا فعذبونا وفتنونا عَنْ ديننا ليردُّونا إلى عبادة الأوثان مِنْ عبادة الله تعالى، وأَنْ نستحلَّ ما كنَّا نستحلُّ مِنَ الخبائث، فلمّا قهرونا وظلمونا وضيّقوا علينا وحالوا بيننا وبينَ ديننا، خرجْنا إلى بلادِك واخترناك على مَنْ سواك ورغبْنا في جوارك، ورَجوْنَا ألاَّ نُظلَم عندك أيها الملك.

قالت: فقال له النّجاشيُّ: هل معك ممّا جاءَ بِهِ عنِ الله مِنْ شيء؟.

فقال له جعفر: نعم.

فقال له النّجاشي: فاقرأهُ عَلَيَّ.

قالت أم سلمة: فقرأَ عليه صدراً مِنْ «كهيعص»[١]، فبكى والله النَّجاشي حتى اخضلّت[٢] لحيتهُ، وبكتْ أساقفتُه حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال لهم النّجاشي:

إنَّ هذا والذي جاء به عيسى لَيخرجُ مِنْ مشكاة[٣] واحدة، انطلقا[٤] فلا

---

(١) أول سورة مريم.
(٢) أخضلت: ابتلت.
(٣) المشكاة: الكوة غير النافذة يوضع فيها المصباح.
(٤) الخطاب هنا لعبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص.

والله لا أسلمُهم إليكما ولا يُكَادون»[١].

* استطاع سيدُنا جعفر بن أبي طالب رضوان الله عليه أنْ ينافحَ عَنِ المسلمين أمامَ النّجاشي، ويكسبَ الجولة الفاصلة التي تكشفُ لنا عَنْ إيمانه النّابع مِنْ قلبه، ناهيك بما أُوتي مِنْ بلاغة وفصاحة في كلامه. وحُسْنِ عرضٍ في خطابه، ممّا جعلَ لكلامه الصّادقِ تأثيراً في نفوس سامعيه، واستطاع بفضلِ شجاعته في الحقِّ، وهدوئه في الحوار أَنْ ينتزعَ إعجابَ الجميع، وأن يُرسي قواعد الإقناع بنفوسهم والتأثير فيها إلى درجة البكاء بدمعٍ غزير.

إنَّ وفداً يستطيعُ أَنْ يُبكيَ ملكاً ويُبكي مَنْ حوله عَنْ صدق وقناعة، هو أعلى وفد ينجح في مهمته بعد أَنْ كانت البداية هي تعرُّضه للطرد والإبعادِ مِنْ بلدِ هذا الملك[٢].

ولكنْ، هل ألقى عمرو بن العاص سلاحه ضد وفد المسلمين وأعلنَ الاستسلام أمام الحقيقة؟! لا، إنَّه قد بيَّتَ في نفسه مكيدةً أخرى للمسلمين ليوغر صدر النّجاشي عليهم وعلى أميرهم جعفر الذي هزمَه في مَيدان الحجّة وكسب الجولة عليه، ولنستمعْ إلى بقيةِ الحديث مِنْ أمّ المؤمنين أم سَلَمة رضوان الله عليها قالت:

«فلمّا خَرَجَا مِنْ عنده، قال عمرو بن العاص: والله لآتينّه غداً بما أستأصلُ به خضراءَهم[٣]، فقال له عبد الله بن أبي ربيعة ـ وكان أَتْقى الرجلين فينا ـ: لا تفعلْ فإنَّ لهم أرحاماً وإنْ كانوا قد خالفوا!.

قال: والله لأخبرنّه أَنّهم يزعمونَ أَنَّ عيسى ابن مريم عَبْدٌ، ثَمَّ غدا منَ الغَد

---

(١) انظر سيرة ابن هشام (١/ ٣٣٤ ـ ٣٣٥ ـ ٣٣٦ ـ ٣٣٧).

(٢) ذكر السهيلي أن بكاء النجاشي عندما تليت عليه سورة مريم حتى أخضل لحيته يدل على طول مكثه ببلاد العرب حتى تعلم من لسان العرب ما فهم به تلك السورة. وحدّثَ النجاشي نفسه ما يؤكد هذا الخبر من أنه كان يرعى غنماً لسيّدٍ له من بني ضمرة قرب بدر. انظر السيرة الحلبية (٢/ ٤٦٢).

(٣) خضراءهم: شجرتهم التي تفرعوا منها.

فقال له: أيُّها الملك، إنَّهم يقولونَ في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً، فأَرْسِلْ إليهم فَسَلْهُم عمّا يقولون فيه. فَأرسَلَ إليهم ليسألَهُم عنه.

قالت: ولمْ ينزلْ بنَا مثلُها قطُّ، فاجتمعَ القومُ ثم قال بعضُهم لبعض: ماذا تقولونَ في عيسى ابن مريم إذا سألَكُمْ عنه؟.

قالوا: نقولُ والله ما قالَ الله؛ وما جاءَنَا به نبيُّنا كائناً في ذلك ما هو كائن؛ فلما دخلوا عليه قال لهم:

ماذا تقولون في عيسى ابن مريم؟.

فقال جعفر بن أبي طالب: نقولُ فيه الذي جاءَنا به نبيُّنا ﷺ يقول: هو عبدُ الله ورسوله ورُوحُه وكلمتُه أَلَقَاها إلى مريم العذراءِ البتول، فضربَ النَّجاشي بيدِه إلى الأَرض، فأخذَ منها عوداً ثم قال: والله ما عدا عيسى ابن مريم ما قلتَ هذا العود، فتناخرتْ[1] بطارقته حوله حين قال ما قال:

فقال: وإنْ نخرتم والله، اذهبوا فأنتم شيوم[2] بأرضي، مَنْ سبَّكم غَرِم؛ ثم قال: مَنْ سبّكم غرم ثم قال: مَنْ سبّكم غرم، ما أُحبُّ أَنَّ لي دَبْراً[3] مِنْ ذَهَب وأنّي آذيتُ رجلاً منكم، ردّوا عليهما هداياهما فلا حاجة لي بها، فوالله ما أَخذَ الله مني الرشوة حين ردَّ عليَّ ملكي فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع النَّاسَ فيّ فأطيعهم فيه.

قالت: فخَرجَا مِنْ عنده مقبوحَيْن مردوداً عليهما ما جاءا به. وأقمنا عنده بخير دارٍ مع خير جار»[4].

* مرة أخرى استطاع سيدُنا جعفرُ بن أبي طالب أَنْ يكسبَ الموقف، وأَنْ يستحوذَ على قلب النّجاشي وعقلِه وعواطفِه، وذلك بالأسلوب السَّابق نفسِه، واستطاعَ أيضاً أَنْ يدعوَ النَّجاشي إلى اعتناقِ الإسلام، فاستجابَ وآمن بالله

---

(١) أي: أخرجوا أصواتاً من أنوفهم.
(٢) شيوم: أي آمنون أحرار.
(٣) الدَّبْر: الجبل في لغة أهل الحبشة.
(٤) انظر سيرة ابن هشام (١/ ٣٣٧ ـ ٣٣٨) وانظر حلية الأولياء (١/ ١١٦).

وصدَّقَ برسالةِ محمدٍ ﷺ، وناصَرَ المسلمين وآواهم وحماهم، وظهرتْ منه بعضُ الأعمال العظيمة التي تدلّ على صدق إسلامه وتترجمُ عَنْ وفائه وتضحياتِهِ في سبيلِ الإسلام، روى المقريزي في كتابه القيّم «إمتاع الأسماع» فقال:

«وأمّا النّجاشي، فإنّه آمنَ برسول اللهِ ﷺ واتّبعه وأسلمَ على يد «جعفر بن أبي طالب» رضي الله عنه، وأرسلَ ابنه في ستين مِنَ الحبشة إلى رسول الله ﷺ فغرقوا في البحر».

ولم يتوقف النّجاشي عند هذا الحدّ المشَرِّف المُشْرِق، بل ظهر مِنْ صدقِ إيمانه وحُسْنِ إسلامه ومودته للمسلمين أنَّ رسول الله ﷺ طلبَ منه أَنْ يزوِّجَه بأم حبيبة بنت أبي سفيان إذ كانت مهاجرةً مع زوجها «عُبيد الله بن جحش» الذي تنصَّرَ هناك وتوفي عنها، فدعا النّجاشيُّ المهاجرين وأبلغَهم رغبة رسول الله ﷺ في الزَّواج مِنَ «أم حبيبة»، فدفع أربعمئة دينار[1] من ماله الخاص نيابة عَنْ رسول الله ﷺ؛ وأرادَ المسلمون أَنْ يقوموا ويخرجوا فقال لهم النجاشي: «اجلسوا فإنَّ مِنْ سُنَّةِ الأنبياء إذا تزوجوا أَنْ يُؤكلَ طعامٌ على التّزويج، فدَعَا بطعام فأكلوا ثم تفرقوا»[2].

ازداد النجاشي حباً للإسلام والمسلمين وبخاصة أميرهم جعفر بن أبي طالب، وأضحتْ منزلته ومَنْ معه رفيعة عند النَّجاشي، فقد ربط مصيره بمصيرِ المسلمين وذلك عندما خرج عليه أهل الحبشة لمفارقته دينهم، وهيأَ كلَّ السُبُلِ ليكون جعفرُ وأصحابُه بخير، يحدثنا ابن إسحاق عَنْ قصة ذلك بقوله:

«اجتمعتِ الحبشةُ فقالوا للنّجاشي: إنَّك فارقتَ ديننا، وخرجوا عليه، فأرسلَ إلى جعفر وأصحابه فهيأَ لهم سفناً وقالوا: اركبوا فيها وكونوا كما أنتم، فإنْ هُزِمتُ فامضوا حتى تلحقوا بحيث شئتم وإنْ ظَفرتُ فاثبتوا، ثم عَمد إلى

---

(١) انظر البداية والنهاية (٤/ ١٤٣) وانظر السيرة الحلبية (٢/ ٧٥٨).
(٢) انظر طبقات ابن سعد (٨/ ٩٨) والبداية والنهاية (٤/ ١٤٨).

كتاب فكتبَ فيه: هو يشهدُ أَن لا إله إلا الله وأَنَّ محمداً عبده ورسوله، ويشهد أَنَّ «عيسى بن مريم» عبده ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى «مريم»، ثم جعله في قبائه عند المنكب الأيمن، وخرج إلى الحبشة، وصَفُّوا له؛ فقال: يا معشر الحبشة، ألستُ أحق الناس بكم؟.

قالوا: بلى.

قال: فكيف رأيتم سيرتي فيكم؟.

قالوا: خير سيرة.

قال: فما بالكم؟.

قالوا: فارقتَ ديننا زعمتَ أنَّ عيسى عَبْد.

قال: فما تقولون أنتم في عيسى؟.

قالوا: نقول هو ابن الله.

فقال النَّجاشي ووضعَ يده على قبائه: هو يشهدُ أنَّ «عيسى ابن مريم» لمْ يزدْ على ذلك شيئاً وإنّما يعني ما كتَبَ، فَرَضُوا وانصرفوا عنه فبلغَ ذلك النَّبيَّ ﷺ، فلمّا مات النَّجاشي صلّى عليه واستغفرَ له[1].

* إنَّ موقفَ النّجاشي هذا ليدل على مدى حرصه على حياة المسلمين في كنفه بخير وسلام؛ ولم يكن المسلمون وعلى رأسِهم جعفرُ ليقفوا مكتوفي الأيدي إزاء هذه التضحيات، ولم يعيشوا في بلاد الحبشة بمعزلٍ عَنِ النَّاس ولا بمنأًى عن الحوادث التي كانت تجري هنالك، بل شاركوا النَّجاشي والأَحباش في عواطفهم، ففرحوا لفرحهم وحزنوا لحزنهم، وبذلوا لهم كلَّ عواطف الودّ والمجاملة، وحين ثار على النَّجاشي بعضُ أعدائه، رأى المسلمون مِنْ واجبهم أَنْ ينضَمُّوا إلى صفِّ النَّجاشي ويشاركوه في حربه لأنَّه

(١) انظر سيرة ابن هشام (١/ ٣٤٠ ـ ٣٤١) والسيرة الحلبية (٢/ ٤٦٥) والبداية والنهاية (٣/ ٧٧).

كان لهم خير جار بخير دار، وتحدثُنا أمّ المؤمنين أم سلمة عن موقف المسلمين المشرق مع النَّجاشي قالت:

«فوالله إنَّا لَعَلَى ذلك إذْ نزلَ به رجلٌ مِنَ الحبشة ينازعه في ملكه؛ فوالله ما علمتُنا حَزنَّا حُزْناً قطّ كان أشدّ علينا مِنْ حزنٍ حزنّاه عند ذلك، تخوُّفاً أَنْ يظهرَ ذلك الرجل على النَّجاشيّ فيأتي رجل لا يعرف مِنْ حقّنا ما كان النَّجاشي يعرفُ منه.

قالت: وسار النّجاشي وبينهما عرض النيل، فقال أصحابُ رسول الله ﷺ: مَنْ رجلٌ يخرج حتى يحضرَ وقيعة القوم ثم يأتينا بالخبر؟.

فقال الزُّبير بن العوام رضي الله عنه: أنا.

قالوا: فأنتَ.

وكان مِنْ أحدثِ النَّاس سِنّاً، فَنَفَخُوا له قِربَة فجعلها في صدره ثم سبَحَ عليها حتى خرج إلى ناحيةِ النيل التي بها مُلْتَقى القوم، ثمّ انطلقَ حتّى حضَرهم.

قالت: فدعَوْنا الله تعالى للنّجاشيِّ بالظُّهور على عدوِّه والتّمكين له في بلاده، فوالله إنَّا لَعَلَى ذلك متوقعون لِمَا هو كائن، إذْ طلعَ الزُّبيرُ وهو يسعى فلَمَعَ[1] بثوبه وهو يقول: ألا أَبْشروا فقد ظفر النَّجاشي، وأهلكَ الله عدوَّه ومكَّنَ له في بلاده.

قالت: فواللهِ ما علمتُنا فَرِحنا فرحةً قطّ مثلَها، ورجعَ النَّجاشي وقد أهلكَ عدوَّه ومكَّن له في بلاده واستوثقَ عليه أمْرُ الحبشة، فكُنَّا عنده في خير منزل حتى قدمنا على رسول الله ﷺ وهو بمكة»[2].

* ولما آخى الرسول ﷺ بين أصحابه، لم ينسَ جعفراً من هذه المؤاخاة

---

(١) لمع بثوبه: أي رفعه وحرّكه ليُرى من بعيد فيجيء الناس إليه.
(٢) انظر السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣٣٨) وانظر الدرر أيضاً ص ١٣٨ وما بعدها.

على الرغم مِنْ بُعدِ المسافة، بل كان نصيبُ جعفر في المؤاخاة مع «معاذ بن جبل» أحد فضلاء الصحابة.

أَحْــداثٌ جَـديــدة:

* حزنتْ قريشٌ حزناً بالغاً حينَ عاد إليها عبدُ الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص خائبَيْنِ مِنَ الحبشة، وزاد مِنْ حنق المشركين وغيظِهم حينما علموا بما كانَ مِنْ إكْرامِ النَّجاشي للمسلمين الذين هاجروا إلى بلاده، فلم يكن يسرُّهم أَنْ ينالَ المسلمون خيراً أينما ذهبوا، وكانوا يريدون أَنْ يُضيِّقُوا عليهم الأرض بما رحُبت حتى لا يجدوا مكاناً يأْوونَ إليه، مِنْ أَجْلِ ذلك بذلوا كثيراً مِنَ الهدايا للنّجاشي وبطارقته ليساعدوهم في تحقيق رغبتهم، وأنفقوا الأموال الكثيرة ليصدوا عن سبيل الله.

ولكنَّ الله سبحانه وتعالى أراد بالمسلمين خيراً وللمشركين الخزي والخيبة والندامة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾[1].

وهكذا نَعِمَ المسلمونَ بجوارِ النَّجاشي، وطابَ لهم العيشُ في أرضِ الحبشة، وترجَمَ سيدُنا جعفر عن طيب عيشه مع المسلمين في الحبشة فقال:

«لمّا نزلنا أَرضَ الحبشة جاورنا خير جار وأَمِنَّا على ديننا وعَبَدْنَا الله لا نُؤْذى ولا نسمعُ شيئاً نكرهه»[2].

* ظلَّ المسلمون في الحبشة يتطلعون إلى أخبارِ المسلمين في مكة ثمَّ في المدينة المنورة بعد أَنْ هاجروا إليها، يتسقطونَ أخبارَهُم مِنْ كل واردٍ إليهم، ويسألونَ عَنْ معيشتِهم وأحوالهم. ولمّا خَاضَ المسلمونَ بقيادةِ رسول الله ﷺ معركةَ بَدْر وانتصروا على المشركين، جاءَ البشيرُ إلى الحبشة وأَلقى نبأَ النّصر هنالك، وعندما بلغَ النّجاشيَّ نصرةُ رسول الله ﷺ ببدر، فرحَ فرحاً شديداً

---

(١) سورة الأنفال آية (٣٦).

(٢) انظر السيرة الحلبية (٢/ ٣٠).

وزفَّ بشارة النَّصر إلى جعفرَ وصحبِهِ مِنَ المهاجرين، فامتلأتْ نفوسُهم سروراً، يتحفنا سيدُنا جعفر بن أبي طالب رضوان الله عليه بأنباء هذا الخبر السار بأَنَّ النَّجاشي أرسلَ إليهِ وإلى أصحابه الذينَ معه في الحبشة ذاتَ يوم، فدخلوا عليه فوجدوهُ جالساً على التُّراب لابساً أثواباً خَلقة[1]، فقالوا له: ما هذا أيُّها الملك؟! فقالَ لهم: إنّي أبشِّرُكم بما يَسُرُّكم، إنّه قد جاءَني مِنْ نحو أرضِكم عَيْنٌ[2] لي فأخبرَني أَنَّ الله عزَّ وجلَّ قد نصرَ نبيَّهُ وَأهلكَ عدوَّه فلاناً وفلاناً وعدَّد جَمْعاً التقوْا بِمَحَلٍّ يُقالُ له «بَدْرٌ» كثير الأَراكِ كنتُ أرعى فيه غنماً لسيدي مِنْ بني ضمرة.

فقال له جعفر: مالكَ جالس على التّراب عليك هذه الأخلاق؟!.

قال: إنّا نجدُ فيما أَنزلَ الله على عيسى أَنَّ حقاً على عباد الله أَنْ يُحدثوا لله عزَّ وجلَّ تواضعاً عندما يحدثُ لهم نعمةً، فلمَّا أَحْدثَ الله تعالى نصرةَ نبيِّه ﷺ أَحْدثْتُ هذا التَّواضع»[3].

عودة جعفر والمُهاجرينَ إلى المدينةِ:

* مكثَ سيدُنا جعفر بن أبي طالب مع المهاجرين في أرضِ الحبشة آمنين، ووجدوا مِنْ ملكها النَّجاشي كلَّ عونٍ وعنايةٍ وحماية، لم يرجعْ منهم أَحَدٌ إلى مكة إلا سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه، فقد رجع إليها بعد قليل هو وامرأته رقيةُ بنتُ رسول الله ﷺ، أمّا جعفرُ وبقيةُ المسلمين المهاجرين مِنْ أصحابِ الرسولِ الكريم فقد ظلوا مقيمينَ بالحبشة عَنْ أَمْرِ رسولِ الله ﷺ، ورسولُ الله في المدينة حتى إذا أَزْمعَ السيرَ إلى اليهود في خَيَبر، أرسل عليه الصلاة والسلام إلى النّجاشي عمرو بن أمية الضمري ليأتي بالمسلمين في الحبشة، فأرسل النّجاشيُّ جعفرَ بنَ أبي طالب والمسلمين وحملَهُم في سفينتين، وقدمَ معهم أيضاً أبو موسى الأشعري في جماعة مِنَ الأَشعريين

---

(١) خلقة: أي قديمة.
(٢) عين لي: أي رجل يحدث النجاشي ويخبره بأحوال المسلمين.
(٣) انظر السيرة الحلبية (٢/ ٤٦٢ ـ ٤٦٣) وانظر البداية والنهاية (٣/ ٣٠٧ ـ ٣٠٨).

يزيدونَ على سبعين، وعاد جعفرُ ومعه زوجُه أسماءُ بنت عُميس، وولدت له هناك عبد الله ومحمد وعون[1].

* وصلَ جعفر رضي الله عنه مع أصحابه إلى المدينة في أخريات السنة السابعة من الهجرة[2] ورسولُ الله ﷺ غائبٌ عنها في غزوة خيبر، فلما رجَعَ رسول الله ﷺ وقد فُتحت له خيبر استقبله جعفر، وقد هشَّ له النَّبيُّ ﷺ، وبدا عليه السرور فرحاً بمقدم جعفر، وعبَّر عن ذلك بالقول والفعل، فعن الشَّعبيّ قال:

«استقبل النَّبيُّ ﷺ جعفرَ بنَ أبي طالب حين جاء مِنْ أرضِ الحبشة فاعتنقه وضمَّه إليه وقبَّل ما بين عينيه وقال: «ما أدري بأيهمِا أنا أفرح؟ بقُدوم جعفر أو بفتح خيبر»[3].

عبَّر النَّبي الكريم ﷺ تعبيراً كريماً نحو جعفر بن أبي طالب والمهاجرين الذين قدموا معه، حيث أشركهم في الغنائم التي غنمها المسلمون مِنْ خيبر، ولمْ تكنِ الفرحةُ خاصةً بالرسول عليه الصلاة والسّلام، بل كانت فرحةَ المسلمين جميعاً إذ أظهروا فرحتهم بقدوم جعفر وصحبه عملياً وترجموا عَنْ ذلك، روى المقريزي في كتابه «إمتاع الأسماع» والواقدي في «المغازي» قالا:

«وهمَّ المسلمون أَنْ يُدخلوا جعفراً ومَنْ قدم معه في سهامهم ـ أي في أنصبتهم مِنَ الغنائم ـ ففعلوا، وقدم الدَّوسيون فيهم «أبو هريرة» و«الطفيل بن عمرو» وأصحابهم ونَفَرٌ مِنَ الأشجعيين فكلَّم رسول الله ﷺ أصحابَه فيهم أَنْ يشركوهم في الغنيمة، فقالوا: نعم يا رسول الله...»[4].

---

(١) طبقات ابن سعد (٤/ ٣٤) وانظر تهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٤٩).
(٢) انظر الاستيعاب (١/ ٢١٢).
(٣) انظر طبقات ابن سعد (٤/ ٣٥) وسير أعلام النبلاء (١/ ٢١٣) والسيرة الحلبية (٢/ ٧٥٧).
(٤) انظر مثلاً: مغازي الواقدي (٢/ ٦٨٣).

أعلنَ الرَّسولُ ﷺ والمسلمون فرحتهم بقدوم جعفر وصحبه، ومكثَ جعفر بالمدينة المنورة فترة قصيرة، ثم ما لبث أنْ سار رسولُ الله ﷺ مع ألفينَ مِنْ أصحابه إلى مكة، فأدّوا عمرة القضاء في شهر ذي القعدة مِنَ السَّنة السَّابعةِ للهجرة أي نفس السَّنة التي قدم بها جعفر من الحبشة، وكان جعفر مع رسول الله ﷺ في هذه العمرة إذ كان جعفر بغاية الشَّوق إلى مسقطِ رأسه مكة التي حُرِمَ مِنْ رؤيتها قرابةَ خمسة عشر عاماً.

* نالَ سيدُنا جعفرُ بنُ أَبي طالب رضوان الله عليه شهادةً عظيمة من رسول الله ﷺ في تلك العمرة حيثُ شهدَ له بأَنَّه يشبه في الخَلْق والخُلُق وقال له: «أَشْبَهْتَ خَلْقي وخُلُقي»[1].

وعادتِ البسْمةُ إلى وجوهِ الفقراء الذين كانوا ينالونَ عطف جعفرَ بن أبي طالب، كما نال شهادةً أخرى ولقباً عظيماً مِنْ رسولِ الله ﷺ حيث خَلعَ عليهِ لَقَب أبي المساكين

جعفرُ الأميرُ الشَّهيدُ:

* استدار العامُ وجعفرُ يعيش سعيداً بلقاء النَّبيِّ ﷺ، بعد غياب طويل في الحبشة كان خلاله سفيراً ناجحاً للإسلام، ثم أخذ رسولُ الله يرسلُ الكتبَ إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام، فأرسل إلى المقوقس بمصر، وقيصرِ الروم، وكسرى ملكِ الفرس، والنَّجاشيِّ بالحبشة، وقد أرسل ﷺ واحداً مِنَ كتبه مع «الحارث بن عمير الأزدي» إلى ملك الغساسنة في بصرى، ولمَّا وصلَ الحارثُ بنُ عمير الأزدي رسولُ رسولِ الله إلى «مؤتة» اعترضه «شرحبيل بن عمرو الغسَّاني» عامل «الحارث بن أبي شَمِر» وقتله، ثمَّ ذهبتْ جماعةٌ أخرى يُقدَّر عددُها بأربعة عشر رجلاً مِنَ المسلمين إلى جنوب بلاد الشَّام تدعو إلى الإسلام، فقبض عليهم أعوانُ الحارث بن أبي شمر الغساني

---

(١) انظر تهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٤٩) وسير أعلام النبلاء (١/ ٢١٤) وانظر كذلك السيرة الحلبية (٢/ ٧٥٧) والحديث أخرجه البخاري.

وقتلوهم، ناهيك بأنَّ الحارث بن أبي شمر نفسَه كان يفكِّرُ بغزوِ المدينة ويصرِّحُ بذلك أحياناً!.

كان مقْتَلُ الحارث بن عمير الأزدي شديداً أليماً على رسولِ الله ﷺ، إذ لمْ يُقْتَلْ له رسولٌ غيره، لذا فقد رأى عليه الصَّلاة والسَّلام غزو جنوبي بلاد الشّام لتأديب القبائل المتنصِّرة هنالك، وإخافةِ الرّوم حتى لا تسوِّل لهم أنفسُهم الزَّحفَ على الجزيرة العربية عَنْ طريق عمَّالهم الغساسنة، وفي جمادى الأولى مِنَ السَّنة الثَّامنة للهجرة استنفرَ النَّبيُّ ﷺ أصحابَه، فأسرعوا للاستجابة وعَسْكَرَ منهم ثلاثة آلاف في مكان يُسمَى «الجُرُف» على مقربة مِنَ المدينة المنورة، واستعملَ رسول الله ﷺ عليهم زيدَ بنَ حَارثة رضي الله عنه وقال:

«زيدُ بن حارثة أميرُ الناس، فإن قُتِلَ زيدُ بنُ حارثة فجعفرُ بنُ أبي طالب، فإن قُتِلَ جعفرُ فعبدُ الله بنُ رواحة»[1].

ثم عقد رسولُ الله ﷺ لواءً أبيض ودفعه إلى زيد بن حارثة رضي الله عنه، وأوصاهم أنْ يأتوا مقْتَلَ الحارث بن عُمير الأزدي ويدْعوا مَنْ هناك إلى الإسلام، فإنْ أجابوا كان خيراً وإلا استعانوا عليهم بالله وقاتلوهم.

* تجهزَ النَّاس للمسير إلى مؤتة، ووَدَّعَهم رسول الله ﷺ، ورُوي أنَّ رسول الله ﷺ خَرجَ مشيّعاً لهم حتى بلغَ ثنيةَ الوداع، فوقفَ وقال:

«أوصيكم بتقوى الله، وبمَنْ معكم مِنَ المسلمين خيراً، اغزوا باسم الله فقاتلوا عدوَّ اللهِ وعدوكم بالشّام، وستجدونَ فيها رجالاً في الصوامع معتزلين، فلا تتعرضوا لهم ولا تقتلوا امرأةً ولا صغيراً ولا كبيراً فانياً ولا تقطعوا شجرة ولا تهدموا بناءً. . .»[2] وقال لهم المسلمون: صَحِبَكم الله وردّكم إلينا سالمين.

اتجهَ الجيشُ الإسلامي نحو الشَّام بقيادةِ زيد بن حارثة ولواءُ رسول الله الأبيض يرفرفُ فوق رؤوسهم، وساروا حتى نزلوا «معان»، فبلغهم أنَّ

---

(١) انظر السيرة الحلبية (٢/ ٧٨٧)، والحديث أخرجه البخاري.

(٢) السيرة الحلبية (٢/ ٧٨٧).

«هِرَقْل» سار إليهم في مئةِ ألفٍ مِنَ الرُّوم، ومئةِ ألفٍ مِنَ القبائل المتنصّرة مِنْ لخم وجذام وبلقين وبليّ وبهراء وغسّان ووائل؛ وقد نزلوا بآب مِنْ أرض البلقاء، فأقامَ المسلمون بمعان ليلتين ينظرون في أمرهم وقالوا: نكتبُ إلى رسولِ الله ﷺ نخبرُه وننتظرُ أَمْرَه، فشجَّعهم عبد الله بن رواحة[١] بكلمةٍ حماسيةٍ مفعمةٍ بالإيمان والشَّجاعة والثَّبات وقال:

«يا قوم، والله إنَّ الذي تكرهونَ للذي خرجتم تطلبون، الشهادة، وما نقاتِلُ النَّاس بعددٍ ولا قوة ولا نقاتلهم إلا بهذا الدِّين فانطلقوا فما هي إلا إحدى الحسنيين»، فقال النَّاسُ: صدقَ والله وساروا[٢].

* كان لكلمةِ عبدِ الله بنِ رواحة الحماسيةِ أثرُهَا العظيم في نفوس المسلمين، فاخْتَفَتْ مِنْ صفوفهم مشاعرُ التردُّد، وأجمعوا على قتالِ عدوِّهم مهما كانت النتائج.

والحقيقة فقد كانتِ الفئتان غير متكافئتين مِنْ حيثُ العدد، فجيش المسلمين لا يتجاوزُ ثلاثةَ آلافِ رجلٍ، بينما يعدُّ جيشُ الرومِ والعربِ المتنصرةِ قرابةَ مئتي ألفِ رجلٍ، لكنَّ المسلمينَ ما إنْ سمعوا حديثَ الفداء والاستشهاد في سبيلِ الله حتى جاشتْ في أنفسِهم محبةُ الآخرة ولقاءِ اللهِ، ثم ذكروا أنَّهم نُصروا في معاركَ سابقةٍ باستعدادٍ أقلَّ مِن استعدادِهم الآنَ، فأقدموا على القتالِ بقلوبٍ مطمئنةٍ ونفوسٍ راضيةٍ وعزائمَ ماضيةٍ.

ولنستمع إلى شاهد عَدْل يقصُّ علينا صورةً مِنْ صورِ الإقدام في هذه المعركة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

شهدتُ «مؤتة»، فلمّا دنا المشركون رأَينا مالا قِبلَ لأَحَدٍ به من العُدةِ والسّلاح والكراع والديباج والحرير والذَّهب فبرقَ بصري، فقال لي ثابت بن

---

(١) انظر عبد الله بن رواحة في هذه السلسلة.

(٢) الكامل في التاريخ (٢/ ٢٣٥) انظر الدرر ص ٢٤٦.

أقرم[1]: يا أبا هريرة، كأنك ترى جموعاً كثيرة؟ قلتُ: نعم ـ وأبو هريرة مِمَّنْ أسلموا بعد الحديبية ـ وقال: إنَّكَ لمْ تشهدْ بدراً معنا إنّا لمْ نُنصر بالكثرة»[2].

* وعبأَ المسلمون أنفسَهم، كما عبأ الرُّومُ وحلفاؤهم، ونشبَ القتالُ والتحمَ الفريقان واشتدّت الهجماتُ، ووقفَ المسلمون بثباتٍ يتقدّمُهم قائدُهم زيدُ بنُ حارثة رضي الله عنه ومعه لواءُ رسولِ الله ﷺ، فقاتلَ حتى قُتِلَ، وقبل أنْ يسقطَ اللواء على الأرض كان سيدُنا جعفرُ قد أَمْسَكه في يمينه وهو راكبٌ على فرسِه الشقراء، فأقحمها وسط المعركة، وكان اللواء مرفوعاً في يده، والمسلمون يصيحون مِنْ ورائه: الله أكبر، ويندفعون إلى القتال اندفاعَ مَنْ لا يهابُ الموتَ، وطفق جعفر يذيق أعداءَ الله حَرَّ طعناتِه، ولكنَّ كثرة الزّحام وشدة الالتحام وأعدادَ الرومِ الزّاحفةِ جعلتْ فرسَه عاجزةً عَن الحركة والكرِّ كما يُريد فنزلَ عنها وعقرها، وبدأ يقاتلُ ويشدُّ على الرُّوم فيفرِّق صفوفهم ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشمالِ، حتى انتزع إعجاب الجميع بشجاعتهِ، وقد روى أبو داود عَنْ شاهد عيان رأى شجاعة سيدِنا جعفرَ في «مؤتةَ» قال:

«والله لكأنّي أَنظرُ إلى جعفر حين اقتحم عنْ فرسٍ له شقراءَ فعقرها، ثم قاتل القوم حتى قُتل»[3] وهو ينشد:

يا حبذا الجنّة واقترابها ... طيبةً وبارداً شرابها

---

(١) هو ثابت بن أقرم بن ثعلبة البلوي رضي الله عنه، نسبه إلى بلي حليف الأنصار. استشهد في عهد سيدنا أبي بكر الصديق رضوان الله عليه، قتله طليحة بن خويلد الأسدي أثناء فتنة ادعائه النبوة، قتله هو وعكاشة بن محصن عندما كانا يقومان بالاستطلاع لخالد بن الوليد وهو زاحف بجيش المسلمين لقتال حشود المرتدين الذي جمعهم طليحة بن خويلد، وقد روي أن سيدنا عمر بن الخطاب قال لطليحة، وذلك بعد أن تاب وعاد إلى الإسلام: كيف أحبُّك وقد قتلت الصَّالحين: عكاشة بن محصن وثابت بن أقرم؟ فقال طليحة: الحمد لله الذي أكرمهما بيدي ولم يهني بأيديهما.

(٢) انظر البداية والنهاية (٤/ ٢٤٤) وإمتاع الأسماع ص ٣٤٧ والحديث رواه البيهقي.

(٣) انظر الإصابة (١/ ٢٣٧) وسير أعلام النبلاء (١/ ٢٠٩).

والـرُّومُ رومٌ قـد دنـا عـذابهـا كـافـرة بعيـدة أنسـابهـا
عليَّ إنْ لاقيتُها ضرابها[1]

ولنتابع خطوات القتال مع القائدِ الثاني النَّاجح والسَّفير المتفوِّق سيدنا جعفر بن أبي طالب، فقد روى ابن هشام في «السيرة النبوية» فقال:

«وحدثني مَنْ أثق به مِنْ أهل العلم، أنَّ جعفرَ أخذَ اللواءَ بيمينِه فقُطعت، فأخذه بشمالهِ فقُطعت، فاحتضنه بعضديه حتى قُتِل وهو ابن ثلاثٍ وثلاثين سَنَةً، فأثابه الله بذلك جناحين في الجنَّةِ يطيرُ بهما حيثُ يشاء»[2].

* وهكذا سقط جعفرُ بن أبي طالب شهيداً بعْدَ أَنْ قطعتْهُ ضربةُ رجلٍ مِنَ الرُّوم فقطعه نصفين[3]، فَوُجِدَ في نصفه بضعُ وثلاثون جُرحاً[4] وطعنةَ مِنْ رمح قد أنفذته وكلُّ الضربات مِنْ أمامِه تلقَّاها وهو مقبلٌ؛ ولمَّا قُتِلَ جعفر أَخذَ الراية عبد الله بن رواحة رضي الله عنه وتقدم وقاتل بكلّ شجاعة حتى قُتلَ شهيداً، ثم أخذ الرايةَ ثابتُ بن أقرم فقال: يا معشر المسلمين، اصطلحوا على رجل منكم؛ قالوا: أنت. قال: ما أنا بفاعل.

فاصطلحَ النَّاس على «خالدِ بنِ الوليد» رضي الله عنه، فلمّا أخذَ الراية دَافَعَ القومَ وخاشى[5] بهم حتى أتى المساء، فانحازَ بأصحابه وانحاز عنه المشركون، وتحت ستارِ الليل بدّلَ خالد مواقفَ الجيش، فنقلَ الميمنة إلى الميسرة، ونقلَ الميسرة إلى الميمنة، وجعل السَّاقة في موضع المقدمة، وجعل المقدمة في موضع السَّاقة، ورصَدَ مِنْ خلفِ الجيش طائفة يثيرونَ الغبارَ ويكثرون الجلبة عند طلوع النهار، فلمّا التقى الفريقان صباح اليوم التالي، رأى كل فريق منَ العدو أمامه وجوهاً غير التي رآها بالأمس، ورايات

---

(١) البداية والنهاية (٤/ ٢٤٤).
(٢) وانظر أيضاً البداية والنهاية (٤/ ٢٤٤).
(٣) انظر طبقات ابن سعد (٤/ ٣٨).
(٤) سير أعلام النبلاء (١/ ٢١٠).
(٥) خاشى بهم: أي داور العدو وحاوره بهم.

غير التي رآها أيضاً فظنّوا أنَّ المسلمين قد جاءَ إليهمُ المددُ، واستطاع خالدٌ أَنْ يناورَ بأصحابه ويتراجعَ بهم في مهارةٍ وحذَقٍ حتى ظنَّ الرّوم أنَّه يريدُ أَنْ يستدرجَهم إلى الصّحراء فلمْ يتبعوه، وما زال خالد يناوشُ جموعُ العدوِّ حتى استطاعَ أَنْ يفلتَ بجيشه ويعود به إلى المدينة، ولم يفقد منه إلا اثني عشر رجلاً.

وقبل أَنْ يغادرَ الجيشُ الإسلاميُّ أرضَ مؤتة نعى رسول الله ﷺ إلى أصحابه في المدينة الأمراءَ الثّلاثة ودموعُه تفيضُ حزناً عليهم، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أَنَّ رسول الله ﷺ نعى زيداً وجعفرَ وابن رواحة للنّاس قبل أَنْ يأْتيهَم خبرهم فقال:

«أخذ الراية زيد فأُصيبَ، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها ابن رواحة فأُصيب ـ وعيناه تذرفان ـ قال: ثم أَخذَ الراية سيفٌ مِنْ سيوفِ الله حتى فتَحَ الله عليهم»[1].

* وهكذا سقطَ الأمراءُ الثّلاثةُ شهداءَ الواحدُ تِلْوَ الآخرِ بعد أَنْ أظهروا مِنْ ضروب البسَالة ما أدهش أعداءَهم، وكان سيدُنا جعفر مثالَ الشجاعةِ والإقدام إذ تلقّى الأعداءَ بصدرِه، روى ابن عمر رضي الله عنه قال: «فقدْنَا جعفراً يوم مؤتة، فوجدنا به بين طعنة ورمية بضعاً وتسعين وجدنا ذلك فيما أقبل مِنْ جسده»[2].

وروى البُخاريُّ عَنِ ابن عمرَ أنَّهم وقفوا على جعفرَ بعد استشهاده فوجدوا جميع الطعنات التي أُصيبَ بها ليس منها شيء خلفه، بل كلُّها تلقّاها وهو مقبلٌ»[3].

* وصعدت روحُ سيدنا جعفر الطّاهرة إلى بارئها؛ ليأخذ مكانه بين

---

(١) انظر البداية والنهاية (٤/ ٣٤٥) والحديث رواه البخاري.

(٢) انظر سير أعلام النبلاء (١/ ٢١٠) وحلية الأولياء (١/ ١١٧ ـ ١١٨). وانظر كذلك تهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٤٩).

(٣) انظر البداية والنهاية (٤/ ٢٤٦).

الصّدّيقين والشّهداء والصّالحين، وحَسُن أولئك رفيقاً.

* * *

مكـانَـةُ جَعْـفَر ومَنَـاقِبُـهُ:

* حظيَ سيدُنا جعفرُ بنُ أبي طالب رضي الله عنه بمكانةٍ سامية في نفس رسولِ الله ﷺ، فقد كان جعفرُ شاباً ذا أخلاقٍ رفيعةٍ، وصاحبَ كرمٍ وسخاءٍ وهمّةٍ عاليةٍ، وكان مِنَ السَّابقين الأوّلين في الإسلام.

ولمّا هاجر إلى الحبشة كانتْ له هنالك مواقفُ محمودةٌ وضّاءة، فقد أسلم على يده النَّجاشي «أَصْحَمة» إمبراطور الحبشة، ممّا كانَ لإسلامه أكبرُ الأَثر في حمايةِ المهاجرين إلى الحبشة ورعايتهم وعدم تسليمِهم لقريش؛ والحقيقة أنَّ الحوارَ الذي دار بين جعفر والنَّجاشي ورسولَيْ قريش يدلُّ على فطنةِ جعفرَ وذكائِه وعلى إيمانه الراسخ في الله، ناهيك بحُسْنِ منطقِه الذي حَبَاهُ الله به، فقد غلبَ بالحجة والحقِّ ما أتى به المشركون مِنْ باطلٍ وافتراء، ممَّا جعل النَّجاشي يعلنُ حمايتَه للمهاجرين ويأمر بطَرْدِ الوفد القرشي.

وممّا هو جدير بالذكر أنَّ جعفر رضي الله عنه استطاعَ إدخال الإسلام إلى قلب النجاشيّ وعمرُه بضعٌ وعشرون سنةً؛ وقد امتدح الله هؤلاء المؤمنين الصابرين بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ۝٤١ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[1].

لذا فقد كان النَّبيُّ الكريم ﷺ يحبُّ سيدَنا جعفرَ حباً شديداً، لِمَا فيه من خصالٍ حميدة وعلى رأسِها قوةُ إيمانِه وحُسْنُ خُلُقه ونقاءُ ضميره وشجاعتُه وكرمُه، وقد كانتِ الشّجاعةُ والجودُ توأمين في نفس جعفر، وكان يُقال عنه: «ليس أحدٌ أقربَ إلى أخلاق رسول الله ﷺ من ابن عمه جعفر».

وقد أكَّدَ ذلك الرسولُ الكريمُ عليه الصلاة والسلام بقوله يُخاطِبُ جعفر،

---

(١) سورة النحل آية (٤١ و٤٢) وانظر تفسير الماوردي (٢/ ٣٩٠).

وكان معه في عمرة القضاء: «أشبهتَ خَلْقي وخُلُقي»[1] وقال في حقِّه أيضاً يخاطبه: «أشبهَ خَلْقُكَ خَلْقي، وأشبه خُلُقك خُلُقي وأنتَ مني ومِنْ شجرتي»[2].

* ما زلنا في رحاب عُمرة القضاء، وفيها أيضاً حكَمَ رسولُ الله ﷺ لسيدِنا جعفرَ بنِ أبي طالب في قضية «عُمَارة» بنت سيِّدنا حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه[3]. وفيه ظلَّ سيدُنا جعفر يفخر بهذا القضاء الذي شهد فيه رسولُ الله له الخَلْق والخُلق والشَّهامة، لنعشْ في رحاب القضية التي كانت لصالحِ سيدِنا جعفر، وهذه الحادثة الشائقة يرويها لنا سيدُنا «عبدِ الله بن عبَّاس» فيقول:

«إنَّ عُمارةَ بنت حمزة بن عبد المطلب وأمَّها سلمى بنت عُميس كانت بمكةَ، فلمّا قَدمَ رسولُ الله ﷺ كلَّمَ عليٌّ رضي الله عنه النَّبيَّ ﷺ فقال:

علامَ نترك بنت عمِّنا يتيمةً بين ظهري المشركين؟ فلم ينْهَهُ النَّبيُّ ﷺ عن إخراجِها؛ فخرَجَ بها. فتكلّم زيد بن حارثة وكان وصيَّ حمزة وكان النَّبيُّ ﷺ آخى بينهما حينَ آخى بين المهاجرين فقال: أنا أحقُّ بها، ابنهُ أخي!، فلمّا سمع بذلك جعفرُ قال: الخالةُ والدة وأنا أحقُّ بها لمكان خالتِها عندي أسماء بنت عُميس، فقال عليُّ رضي الله عنه: ألا أراكم في ابنةِ عمّي[4] وأَنَا أخرجتُها مِنْ بين أظهرِ المشركين وليس لكم إليها نسبٌ دوني وأنا أحقُّ بها منكم! فقال رسول الله ﷺ: «أنا أحكمُ بينكم؛ أمّا أنتَ يا زيد فمولى الله ورسوله، وأمّا أنتَ يا عليّ فأَخي وصاحبي، وأمّا أنت يا جعفر فتشبه خَلْقي وخُلقُي، وأنتَ يا جعفر أحقُّ بها تحتك خالتها ولا تُنكحُ المرأة على خالتها

---

(١) انظر البداية والنهاية (٤/ ٢٥٦) وانظر مجمع الزوائد (٩/ ٢٧٢) والحديث رواه الإمام أحمد.

(٢) انظر طبقات ابن سعد (٤/ ٣٦) وسير أعلام النبلاء (١/ ٢١٤) والحديث أخرجه الإمام أحمد.

(٣) انظر حديثنا عن حمزة بن عبد المطلب في هذه السلسلة.

(٤) يريد ألا أراكم تختلفون في أمر ابنة عمي.

ولا على عمتها». فقضى بها لجعفر، فلمَّا قضى بها لجعفر قام جعفر فَحَجَلَ حول رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «ما هذا يا جعفر؟» قال: يا رسول الله كان النَّجاشيُّ إذا أرضى أحداً قام فَحَجلَ حوله»[1].

* بلغ سيدُنا جعفر رضي الله عنه مكاناً عليّاً عند النَّبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام، فقد رُوي أنَّ النَّبيَّ ﷺ لمْ يَقُمْ لأَحدٍ جاء مِنْ سفرٍ إلا لجعفرَ بنِ أبي طالب الذي قامَ له عندَ عودتِه بالمهاجرين مِنَ الحبشة وقبَّلَ ما بين عينيه، وهذا يدلُّ على رفعةِ منزلتِه عندَ الرسولِ الكريم ﷺ، فعن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنَّه لما قدم جعفرُ منْ أرضِ الحبشةِ اعتنقه النّبيُّ ﷺ وقبَّلَ بينَ عينيه وقال:

«جعفرُ أشْبهُ النَّاس بي خَلْقاً وخلُقاً»[2].

* تأثَّر رسولُ الله ﷺ لمقتلِ جعفر، وحزنَ عليه حزناً شديداً، وذرفتْ عيناهُ الشريفتان لفقدهِ، وذهبَ بنفسِه إلى بيتِ جعفرَ لمواساة أهلِهِ وأبنائِهِ، وكانوا أطفالاً صغاراً، وتروي لنا أسماءُ بنتُ عُميس زوجُ جعفر قصَّة مواساة الرسول لها ولأبنائِها، واهتمامَه ﷺ بأمورِهم جميعاً، قالت:

«أصبحتُ في اليوم الذي أُصيبَ فيه جعفرُ وأصحابُه، فأتاني رسولُ الله ﷺ، ولقد هيأْتُ أربعين مَناً[3] مِنْ أدم[4]، وعجنتُ عجيني، وأخذتُ بَنِيَّ فغسلتُ وجوهَهم ودهنتُهم فدخَلَ عليَّ رسولُ الله ﷺ فقال:

يا أسماء أين بنو جعفر؟.

فجئتُ بهم إليه فضمَّهُم وشَمَّهُم ثم ذرفَتْ عيناهُ فبكى؛ فقلتُ:

أي رسولَ الله، لعلّكَ بلغكَ عَنْ جعفرَ وأصحابِه شيءٌ؟.

---

(١) انظر طبقات ابن سعد (٤/ ٣٥ ـ ٣٦) والمغازي (٢/ ٧٣٨ ـ ٧٣٩) وانظر السيرة الحلبية (٢/ ٧٨٥ ـ ٧٨٦).
(٢) انظر الروض الأنف (٤/ ٦٧) وانظر كذلك العقد الفريد لابن عبد ربه (٢/ ٤٥٥).
(٣) المَن: الذي يوزن به.
(٤) الأدم: ما يؤكل مع الخبز.

قال: «نعم، أُصيبوا هذا اليوم».

قالتْ: فقمتُ أصيحُ واجتمع إليَّ النساء. قالتْ: فجعلَ رسولُ الله ﷺ يقول: «يا أسماء لا تقولي هجْراً[1] ولا تضربي صدراً».

قالتْ: فخرجَ رسولُ الله ﷺ حتى دخل على ابنته فاطمةَ وهي تقول: واعمّاه فقال رسول الله ﷺ: «على مثلِ جعفر فلتبكِ الباكية» ثم قال: «اصنعوا لآل جعفر طعاماً فقد شُغِلُوا عَنْ أنفسِهم اليوم»[2].

* تركَ سيِّدُنا جعفرُ أثراً عظيماً في نفسِ رسول الله ﷺ، وجعلَ الرسولُ يحدبُ على أولاده جعفرَ ويدعو لهم، ففي حديثٍ رواه الإمام أحمدُ عن عبدِ الله بن جعفرَ رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ أمْهلَ آلَ جعفرَ ثلاثاً أَنْ يأتيَهم، ثمَّ أتاهم فقال: «لا تبكوا على أخي بعدَ اليوم، ادْعوا لي أبناءَ أخي» فجيءَ بنا كأنَّنا أفْرُخٌ فقال: «ادعوا إلي الحلاق» فجيءَ بالحلاق فحلقَ رؤوسَنا ثمَّ قال:

«أمّا محمد[3] فشبيه عمّنا أبي طالب، وأمّا عبد الله فشبيه خَلْقي وخُلُقي» ثم أخذَ بيدي فأشالها وقال:

«اللهم اخلُفْ جعفراً في أهلِه، وباركْ في أهلِه، وباركْ لعبد الله في صفقةِ يمينه» قالها ثلاث مرات. قال: فجاءت أمُّنا فذكرت يُتْمَنا تفرح[4] له فقال: «العيلةَ تخافينَ عليهم؟ وأنا وليُّهم في الدنيا والآخرة»[5].

* وقد حظيَ أولادُ جعفرَ برعايةِ رسولِ الله ﷺ لمكانةِ أبيهم، فقد رُوي أنَّه لمَّا عادَ جيشُ مؤتة ودنوا مِنَ المدينةِ تلقّاهم رسولُ الله ﷺ والمسلمونَ ولقيَهم

---

(١) الهجر: الإفحاش في القول.

(٢) وقد روي: شغلوا عن أمر صاحبهم. انظر سير أعلام النبلاء (١/ ٢١١) والروض الأنف (٤/ ٨٢).

(٣) أي: محمد بن جعفر بن أبي طالب.

(٤) أي جاءت تحزنه.

(٥) انظر البداية والنهاية (٤/ ٢٥٢) والحديث رواه البخاري.

الصِّبيانُ يشتدون، ورسولُ الله ﷺ مقبلٌ معَ القوم على دابة فقال: «خُذوا الصبيان فاحملوهم وأعطوني ابنَ جعفر» فأُتي بعبد الله بن جعفر فحملَه بينَ يديهِ[1].

وبعد؛ فهلْ توقَّفَ تأثُّر رسولِ الله على جعفر عند هذا الحدِّ؟ لا شكَّ أنَّ سيِّدَنا جعفرَ بن أبي طالب رضي الله عنه قد تمكَّن مِنْ تسجيل كثيرٍ مِنَ الأخبار المضيئةِ في صفحات ناصعةٍ، روى صاحب كتاب «الاستيعاب» أنَّه لما أتى رسول الله ﷺ نَعْيُ جعفرَ بنِ أبي طالب وزيدِ بنِ حارثة[2] بكى وقال: «أخواي ومؤنساي ومحدثاي»[3].

وتحدَّث ابن حجر في كتابه القيّم «الإصَابة» عَنْ مكانة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: «وفي المسند مِنْ حديث عليٍّ رفَعَه ـ أي رفعَ إسناده إلى رسول الله ـ أَنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «أُعطيت رفقاءَ نجباءَ فذكرهُ منهم»[4] أي سيدُنا جعفر.

* بلغ جعفرُ ومهاجرو الحبشة مكاناً عليّاً عند رسول الله ﷺ، حتى إنَّ رسول الله ﷺ كان يكرمُ مَنْ كان يكرمهُم، فقد رويَ عن أبي أمامة قال:

«قدم وفدُ النَّجاشي على رسول الله ﷺ فقام يخدمهم. فقال أصحابه: نحن نكفيك يا رسول الله، فقال:

«إنَّهم كانوا لأصحابي مكرمين وإنّي أحبُّ أَنْ أكافيهم»[5].

ويضيفُ سيّدُنا جعفر إلى رصيده الزّكيّ عند النّبي ﷺ رصيداً آخر عند الفقراءِ والمساكين، فقد ظَفرَ منهم بشهاداتٍ عظيمة، وهذا أحدُ الصَّحابة

---

(١) انظر البداية والنهاية (٤/ ٢٥٣).
(٢) انظر زيد بن حارثة في هذه السلسلة.
(٣) الاستيعاب (١/ ٥٢٩).
(٤) الإصابة (١/ ٢٣٩).
(٥) انظر البداية والنهاية (٣/ ٧٨).

الأَجلاء يُوقّعُ لجعفرَ هذه الشَّهادة المضيئة ألا وهو «أبو هُريرة» رضي الله عنه، فيقول:

«كانَ جعفر يحبُّ المسَاكينَ ويجلسُ إليهم، ويخدمهم ويخدمونه، يحدثُهم ويحدثونه فكانَ رسولُ الله ﷺ يُسمّيه أَبا المساكين»(١).

وقد تعوَّدَ المساكينُ على سيِّدنا جعفر، فكانوا يطرقون بَابَه ليعطيهم ممّا في بيته مِنْ طعام، روى الإمام البُخاري أنَّ أبا هريرة رضي الله عنه قال: «كانَ جعفرُ رضي الله عنه خيرَ النَّاس للمساكين»(٢).

* وهذه شهادة أخرى لصالحِ سيدنا جعفرَ مُوَقّعةٌ مِنْ أبي هريرة رضي الله عنه حيث قال:

«إنَّ النّاس كانوا يقولون: أكثَر أبو هريرة، وإني كنتُ أَلزمُ رسولَ الله بشِبعِ بطني حتى لا آكل الخمير ولا أَلبَس الحبير(٣) ولا يخدمني فلانٌ ولا فلانة، وكنتُ أَلصقُ بطني بالحصباء مِنَ الجوع وإنْ كنتُ لأَسْتَقرىءُ الرَّجل الآية هي معي كي ينقلبَ بي فيطعمني. وكان أَخْيَرَ النَّاسِ للمساكين جعفر بن أبي طالب، كانَ ينقلبُ بنا فيطعمنا ما كان في بيته حتى إنْ كانَ ليُخرجُ إلينا العكّة(٤) التي ليس فيها شيء فيشقّها فنلعَق ما فيها»(٥).

* ترك سيدنا جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه أثراً كبيراً بنفوسِ الفقراء والمساكين، ممّا جعلَ بعض الصَّحابة يَرَوْنَ أنَّ جعفراً أفضلَ النَّاس بعدَ رسولِ الله ﷺ، فقد روى الإمامُ أحمد بإسناد جيّد عن أَبي هريرة أنَّه قال:

---

(١) المصدر السابق ص ٢٣٩ وانظر حلية الأولياء (١/ ١١٧)، وانظر كذلك السيرة الحلبية (٢/ ٧٥٧).
(٢) انظر الإصابة (١/ ٢٣٩).
(٣) الحبير: الحرير.
(٤) العكّة: قربة صغيرة من جلد يوضع بها سمن أو عسل.
(٥) انظر فتح الباري (٧/ ٧٥) وانظر سير أعلام النبلاء (١/ ٢١٧) وحلية الأولياء (١/ ١١٧).

«ما احتذى النِّعال ولا انتعلَ ولا ركبَ المطايا ولا لبسَ الثياب مِنْ رجلٍ بعدَ رسول الله ﷺ أفضلَ من جعفر بن أبي طالب»[1].

* وبعد؛ ماذا بقي عند أَمير المهاجرين في الحبشة سيّدنا جعفر؟ لا زالَ هناك الكثير من الإشراقات العظيمة، فقد كان سيدُنا جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، بما أُوتيه مِنَ الشَّبهِ في الخصالِ بسيدنا رسولِ الله ﷺ كريماً سخياً سمحاً، يحبُّ البذلَ والإنفاقَ، وتقديمَ كلّ ما يستطيعُ لعامةِ المسلمين وبخاصةِ المساكينَ، لهذا فقد ترك أثراً عميقاً في نفوس الصّحابةِ أجمعين، وكذلك في نفس زوجه أسماء بنت عُميس وأخيه عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فقد كان جعفرُ مثالَ الزوجِ الموفق النَّاجح الذي تسكنُ إليه زوجُه وتشعرُ بالطمأنينةِ نحوه، وهذا جعلها تَفِيْ لذِكراه وتمتدحُ رجولتَه وتُظهر صفاتِه أمام أخيهِ عليٍّ وأمام أولادِها وذلكَ بصورة مشرقةٍ تنطقُ بالأدب والأخلاق، روى ابن سعد في الطبقات قال:

«تزوج عليّ بن أبي طالب أسماءَ بنتَ عميس[2] فتفاخر ابناها: محمّد بن جعفر، ومحمّد بن أبي بكر قال كل واحد منهما:

أنا أكرمُ منك، وأبي خيرٌ مِنْ أبيك.

فقال لها عليٌّ رضي الله عنه: اقضي بينهما.

فقالت: ما رأيتُ شاباً مِنَ العرب كان خيراً مِنْ جعفرَ، ولا رأيتُ كهلاً خيراً مِنْ أبي بكر.

فقال لها عليٌّ: ما تركتِ لنا شيئاً!.

فقالت: والله، إنَّ ثلاثةً أنتَ أَخسُّهم لخيار.

---

(١) انظر طبقات ابن سعد (٤/ ٤١) والبداية والنهاية (٤/ ٢٥٦)، ويعلق ابن كثير بأن أبا هريرة يفضله في الكرم، أما الفضيلة الدينية فمعلوم أن الصديق والفاروق وعثمان بن عفان أفضل منه».

(٢) بعد استشهاد جعفر بن أبي طالب، تزوج أبو بكر الصديق أسماء بنت عميس ثم بعد وفاة أبي بكر تزوجها علي بن أبي طالب.

فقال لها: لو قُلتِ غير هذا لمقتُّكِ»[1].

* بلغ مِنْ مكانة جعفرَ عندَ أخيهِ عليّ أنَّه كان يقضي الحاجاتِ مِنْ أجلِه فعن عبد الله بن جعفر رضي الله عنه قال:

«ما سألتُ علياً شيئاً بحقِّ جعفر إلا أعطانيه»[2].

وظلَّ سيدُنا عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه يكنُّ كلَّ الحبِّ لأخيه جعفر، بل إنَّ مكانتهَ لمْ تبرحْ قلبَه بعد مرور أعوامٍ عديدة على استشهاده، وتفرَّعَ هذا الحبُّ العظيمُ ليظلِّل به أبناءَ جعفر، إذْ إنَّ علياً بقيَ يهتمُّ بأولادِ أخيه ويتعهدهم ويفضِّلُهم عن سواهم، وظلّ يعطف عليهم إلى نهاية حياته.

* اجتمعتْ لسيِّدنا جعفر أَوَّليّات قَلَّ أَنْ تجتمعَ في رجل غيره، فأبوه أبو طالب أَوّلُ هاشميّ يتزوجُ مَنْ هاشمية[3] وهي أولُ هاشمية ولدتْ لهاشمي، وأمُّ سيدنا جعفر هي «فاطمة بنت أسد»[4] رضي الله عنها. كما أنَّ أوّلَ صلاة جماعة كانت في الإسلام شارك فيها جعفر[5]، وأولُ مولودٍ في الإسلام يولد في الحبشة[6] هو ابنه عبدُ الله بنُ جعفر بن أبي طالب وبه كان

---

(١) انظر طبقات ابن سعد (٤/ ٤١) وانظر سير أعلام النبلاء (١/ ٢٠٨).
(٢) انظر الاستيعاب (١/ ٢١٣) وانظر سير أعلام النبلاء (١/ ٢٠٨) والروض الأنف (٤/ ٨٠).
(٣) انظر تهذيب الأسماء واللغات للنووي (١/ ١٤٩).
(٤) هي فاطمة بنت أسد بن هاشم زوج أبي طالب، ولما توفيت كفّنها رسول الله ﷺ بقميصه تقديراً لها. ولما قيل للرسول عليه الصلاة والسلام: ما رأيناكَ صنعت بأحد ما صنعت بهذه؟ قال: إنه لم يكن بعد أبي طالب أبر لي منها إنما ألبستها قميصي لتكسى من حلل الجنة انظر (أسد الغابة ٥/ ٥١٨).
(٥) انظر كتاب الأوائل ص ٧٦.
(٦) انظر تهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٤٨)، ومما هو جدير بالذكر أن أول مولود للمهاجرين في المدينة هو عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما. ويذكر أيضاً أن عبد الله بن جعفر كان له العقب دون أخويه محمد وعون.

يكنى سيّدنا جعفر رضي الله عنه، كما أنَّ سيِّدَنا جعفر بن أبي طالب هو أولُ مَنْ عَقَرَ في الإسلام[1].

* بقيَ سيدُنا جعفر بن أبي طالب رضوان الله عليه نجماً يسطعُ في سجلِّ الخالدين، ولمَّا نالَ الشَّهادة في «مؤتة» كان موقفُ أصحاب رسول الله ﷺ فيّاضاً بالحزن والألَم، وكذلك زوجه أَسماء بنت عُميَس التي ذكَرت كثيراً مِنْ مناقبه كما مرَّ وَرَثَتْهُ بقولها:

فـآليـتُ لا تنفـكُّ نفسـي حـزينـةً ... عليـكَ ولا ينفـكُّ جلـدي أَغْبـرا

فِلِلَّـهِ عينـاً مَـنْ رأى مثلـه فتـىً ... أكَرُّ وأحمى في الهياج وأصبرا[2]

* وهذا شاعرٌ آخر مِنَ المسلمين، مِمَّنْ رجع مِنْ مؤتةَ مَعَ مَنْ رجع يرثي جعفر وأصحابه ويعبِّرُ عنْ حزنِه فيقول:

كفـى حـزنـاً أَنِّـي رجعْـتُ وجعفـر ... وزيـد وعبـد الله فـي رمْـسٍ أقبـرِ

قضَوا نحبَهم لما مضوا لسبيلهم ... وخُلفـتُ للبلـوى مـع المتغيـر

ثَـلاثـةُ رهْـطٍ قُـدِّمـوا فتقـدمـوا ... إلى وردِ مكروهِ مِنَ الموتِ أحمر[3]

وقد شارك في رثاء جعفر وصحبه رضي الله عنهم شعراء الرَّسولِ ﷺ ومنهم سيدُنا «كعبُ بن مالك» رضي الله عنه فقال:

صلـى الإلـهُ عليهـمُ مـنْ فِتيـةٍ ... وسقـى عظـامَهـمُ الغمـامُ المسبـلُ

صبَـروا بمـؤتـةَ لـلإلـهِ نفـوسهُـم ... حـذرَ الـردى ومخـافـة أَنْ ينكلـوا

إذْ يهتـدونَ بجعفـرٍ ولـوائِـهِ ... قـدَّامَ أوَّلِهـم فنِعْـمَ الأَوَلُ

حتـى تفـرجـتِ الصّفُـوفُ وجعفـرٌ ... حيثُ التقى وعث الصفوفِ مجدلُ

فتغيـرَ القمـرُ المنيـرُ لفَقْـدِه ... والشَّمسُ قد كُسِفتْ وكادت تأفلُ[4]

---

(١) انظر الإصابة (١/ ٢٣٩) وسير أعلام النبلاء (١/ ٢٠٩). وذلك عندما ضرب قوائم فرسه بسيفه في غزوة مؤتة حتى لا ينتفع بها العدو.

(٢) انظر البداية والنهاية (٤/ ٢٥٣).

(٣) الروض الأنف (٤/ ٧٦).

(٤) البداية والنهاية (٤/ ٢٦١).

كانت مشاعرُ المسلمينَ نحوَ استشهادِ جعفرَ مشاعرَ فيّاضةً بالحزن، لِمَا كان يتمتعُ به جعفرُ مِنَ حبٍّ في نفوسهم، وقد شارك شاعرُ الرَّسولِ «حسَّانُ بنُ ثابت» في رثائه بأكثرَ مِنْ قصيدة فمما قال فيه:

رأيتُ خيارَ المسلمينَ تواردوا ... شعوباً وخلفاً بعدهم يتأخرُ

فلا يبعدنَّ الله قتلى تَتَابَعوا ... بمؤتةَ منهمُ ذو الجناحين جعفرُ

أَغَرُّ كضوءِ البدرِ مِنْ آلِ هاشم ... أبيٌّ إذا سِيم الظَّلامةَ مِجْسرُ

فطاعنَ حتى مالَ غير مُوسدٍ ... بمعتركٍ فيه القنا متكسرُ

فصارَ مع المستشهدينَ ثوابه ... جنانٌ وملتفُّ الحدائقِ أخضر[1]

رحم الله سيِّدَنا جعفرَ بنَ أبي طالب، فقد حازَ درجةً رفيعةً ومكانةً ساميةً في نفس الرسولِ ﷺ وفي نفوس المسلمينَ حياً وميتاً، ويكفيه مِنَ الفخر أنْ يكونَ أشبه الصَّحابة في الخَلْقِ والخُلُق بالنبي الكريم ﷺ[2]، ورحم الله أَبا نُعيم الأصبهاني إذْ قدَّمَ وصفاً موجزاً جامعاً رائعاً لسيِّدنا جعفر في حِلْيَتِهِ فقال:

«هو الخطيبُ المقْدامُ، السخيُّ المطعامُ، خطيبُ العارفينَ، ومُضيفُ المساكين، مهاجرُ الهجرتين[3]، ومُصلي القبلتين، البطلُ الشجاع، الجوادُ

---

(١) انظر البداية والنهاية (٤/ ٢٦٠ ـ ٢٦١).

(٢) كان في عبد مناف خمسة رجال يشبهون النبي عليه الصلاة والسلام وهم: سيدنا جعفر بن أبي طالب، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وقثم بن العباس ابن عبد المطلب، والسائب بن عبيد بن عبد زيد، والحسن بن علي بن أبي طالب حفيد الرسول الكريم وكان أشد الخمسة شبهاً برسول الله. عن الاستيعاب (٤/ ٨٤).

(٣) أي: هاجر مرتين مرة إلى الحبشة ومرة إلى المدينة، وعن الشعبي قال: قالت أسماء بنت عميس رضي الله عنها: يا رسول الله، إن رجالاً يفخرون علينا ويزعمون أنا لسْنا منَ المهاجرين الأولين فقال: «بل لكم هجرتان؛ هاجرتم إلى أرض الحبشة ثم هاجرتم بعد ذلك» انظر حياة الصحابة (١/ ٣٥٨).

الشَّعشاع، جعفرُ بن أبي طالب رضوان الله عليه . . .»[١].

* * *

بشـارةُ جعفـرَ بـالجنَّــة:

قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾[٢].

وقال تعالى أيضاً: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[٣].

* كان سيدُّنا جعفر بن أبي طالب واحداً من أولئك الصحابةِ الأعلامِ الذين باعوا أنفسَهم ابتغاءَ مرضاةِ الله، فاشترى الله مِنَ المؤمنينَ أَنْفسَهُم وأموالهم بأَنَّ لهمُ الجنَّة، وذلكَ هوَ الفوزُ العظيم.

* انتقلَ سيدنا جعفر إلى جوارِ الله سبحانه مع صاحبيه زيدِ بنِ حارثةَ وعبدِ الله بنِ رواحة وشهدَ لهمْ رسولُ الله ﷺ بالشَّهادة فهم مِمَّنْ يُقطعُ لهم بالجنَّةِ»[٤].

* وقد بشَّر رسولُ الله ﷺ الأُمراء الثَّلاثة شهداء مؤتة بالجنّةِ وأَنَّهم ينعمون فيها، لنقرأ خبر البشارة، روى الواقدي بسندهِ قالَ:

«لمّا التقى الناسُ بمؤتةَ جلسَ رسولُ الله ﷺ على المنبر وكُشفَ له ما بينه وبينَ الشَّام، فهوَ ينظرُ إلى معتركهم فقالَ رسولُ الله ﷺ:

«أخذَ الراية «زيدُ بنُ حارثة» فجاءَهُ الشَّيطانُ فحبَّبَ إليه الحياةَ وكرّهَ إليه الموت وحبَّبَ إليه الدنيا فقال:

---

(١) انظر حلية الأولياء (١/ ١١٤).
(٢) سورة الواقعة آية (١٠ ـ ١١ ـ ١٢).
(٣) سورة التوبة آية (١٠٠).
(٤) انظر البداية والنهاية (٤/ ٢٥٥).

الآن حينَ استحكمَ الإيمان في قلوب المؤمنينَ تُحبَّبُ إليَّ الدنيا؟! فمضى قُدُماً حتى استُشهِدَ فصلّى عليه رسول الله ﷺ وقال:

استغفروا لأخيكم فقد دخلَ الجنَّة وهو يسعى.

ثم أخذ الرايةَ جعفر بن أبي طالب فجاءه الشّيطان فمنَّاه الحياة وكرّهَ إليه الموت، ومنّاه الدنيا فقال:

الآنَ حينَ استحكمَ الإيمانُ في قلوب المؤمنين تُمنيني الدُّنيا؟ ثم مضى قُدُماً حتى استُشهدَ؛ فصلى عليه رسول الله ﷺ ودعا له، ثم قال:

استغفروا لأخيكم فإنَّه شهيدٌ دَخَلَ الجنَّةَ، فهو يطيرُ في الجنَّة بجناحينِ مِنْ ياقوت حيثُ يشَاءُ مِنَ الجنَّةِ.

ثم أخذ الراية بعدَه عبدُ الله بن رواحة فاستُشهد ودخلَ الجنّة معترضاً، فشَقَّ ذلك على الأَنْصارِ، فقال رسولُ الله ﷺ: أَصَابَه الجراح، قِيلَ: يا رسول الله ما اعتراضُه؟! قال: لمّا أصابتْه الجراحُ نكلَ، فعاتبَ نَفْسَه فَشَجُعَ فاستُشْهِدَ فَدخَلَ الجنَّةِ فسُرِّي عَنْ قومِهِ»[1].

* وهكذا لقيَ الشهداءُ الثَّلاثةُ نَضْرة وسُروراً جزاءَ صبرِهم واستشهادِهم في سبيلِ اللهِ فنالوا رضوانَ الله ونعيمَه وقيل لهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾[2].

* وتحدَّثَ النّبيُّ الكريمُ ﷺ عَنْ قادةِ جيشِ مؤتةَ الذين نالوا الشَّهادة فقال لأَصحابِهِ: «ما يَسُرُّهم أَنّهمَ عندنا»[3] فالجوارُ الذي صاروا إليه والنّعيمُ الذي يعيشونَ فيه بجوارِ الله وفي جنَّتِهِ أحبّ لنفوسهم وأقرّ لعيونهم مِنَ الدنيا كلِّها، فَنِعْمَ عُقبى الدَّار.

* وقد بشَّرَ النَّبيُّ ﷺ أسماءَ بنتَ عُميس زوجَ جعفر بأنَّ زوجَها في الجنَّة،

---

(١) المغازي (٢/ ٧٦١ ـ ٧٦٢) وانظر البداية والنهاية (٤/ ٢٤٧).

(٢) سورة الإنسان آية (٢٢).

(٣) انظر البداية والنهاية (٤/ ٢٥٥) والحديث رواه البخاري.

وقد عوَّضَه الله بجناحين يطيرُ بهما أنَّى شاء، رُوِيَ عَنْ «عبد الله بن جعفر» أنَّه قال:

«أَنا أحفظُ حينَ دخلَ رسولُ الله ﷺ على أمي، فنعى لها أبي، فأنظرُ إليه وهو يمسحُ على رأسي ورأسِ أخي، وعيناه تُهْراقان الدُّموع حتى تَقْطُرَ لحيتُه ثم قال:

اللهم إنَّ جعفراً قد قَدِمَ إلى أحسن الثَّواب فاخلُفْهُ في ذريته بأحسن ما خلفتَ أحداً مِنْ عبادك في ذريته، ثم قال: يا أسماء ألا أُبشِّرُكِ؟.

قالت: بلى بأبي أنتَ وأمي.

قال: فإنَّ الله عزَّ وجلَّ جعلَ لجعفرَ جناحين يطيرُ بهما في الجنَّة.

قالت: بأبي وأمي يا رسول الله فأَعْلِم النَّاسَ ذلك.

فقام رسولُ الله ﷺ وأَخذَ بيدي يمسحُ بيدِهِ رأسي حتى رَقِيَ على المنبر، وأجلسني أمامَه على الدَّرجة السُّفْلى والحُزنُ يُعرَفُ عليه فتكلَّمَ فقال:

إنَّ المرءَ كثيرٌ بأخيهِ وابنِ عمّه، ألا إنَّ جعفراً قد استُشْهِدَ وقد جعل الله له جناحين يطيرُ بهما في الجنَّةِ.

ثم نزل رسولُ الله ﷺ فدخل بيته وأدخلَني، وأَمَرَ بطعام فَصُنِعَ لأهلي وأرسلَ إلى أخي فتغدينا عنده والله غَداءً طيباً مباركاً، عَمَدتْ سلمى خادمتُه إلى شعير فطحنَتْه ثم نَسَفَتْهُ ثمَّ أنضَجَتْه وأَدَمَته بزيت، وجعلتْ عليه فُلفُلاً، فتغدَّيتُ أَنَا وأَخي معه، فأَقَمْنَا ثلاثةَ أيام في بيتِه ندورُ معه كلَّما صارَ في إحدى بيوت نسائِهِ، ثم رجعنا إلى بيتنا؛ فأتى رسولُ الله ﷺ وأنا أساومُ بشاةِ أَخٍ لي، فقال:

اللهمَّ بارِكْ في صفقته.

قال عبد الله: فما بعتُ شيئاً ولا اشتريتُ إلا بُورِكَ فيه[1].

---

(١) المغازي (٢/ ٧٦٦ ـ ٧٦٧) وانظر البداية والنهاية (٤/ ٢٥٦) وانظر كذلك الإصابة (١/ ٢٤٠).

* مرة أخرى يحدثنا عبد الله بن جعفر أنَّ جعفراً والدَه قد ارتقى مكاناً عليّاً مع الملائكة، وقد صرّحَ له رسولُ الله ﷺ بذلك فقال: قالَ لي رسول الله ﷺ:

«هنيئاً لك أبوكَ يطيرُ مع الملائكةِ في السَّماءِ»[1].

* * *

وبعد: فهذا هو الصَّحابيُّ الجليلُ سيِّدُنا جعفرُ الطيّار كهفُ الفضائلِ كلِّها، والذي أخبر عنه رسولُ الله ﷺ بأَنّه شهيدٌ فهو ممَّنْ يُقْطعُ له بالجنّةِ[2]. وقد جاءَ بالأحاديث تسميته بذي الجناحين، روى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما أنَّه كان إذا سلَّم على «عبد الله بن جعفر» قال:

«السَّلامُ عليكَ يابنَ ذي الجناحَيْن»[3].

وذلك أنَّه لمّا قُطعتْ يداه في مؤتَةَ، عوَّضَهُ الله عنهما بجناحين في الجنَّةِ مع الملائكةِ؛ يقول أبو عثمان الجاحظ متُحدثاً عن شأنِ سيّدنا جعفر ومكانته: «قالوا: وحينَ عظَّمَ الله شأْنَ جعفرَ بنِ أبي طالب رضي الله عنه، خلقَ له جناحَين يطير بهما في الجنة، كأنَّه تعالى ألحقه بشبه الملائكة في بعض الوجوه»[4].

* وبعد: فما بقِيَ لنا في هذه الرّحلة الشَّائقة الممتعة مع حياة سيِّدنا جعفر الطَّيار؟ لا شك أنَّ حياتَه حافلةٌ بشتّى أنواع الإشراقات، وقد حظيَ بتكريم الرَّسول الكريم ﷺ إذْ وردتْ بحقِّهِ بعضُ الأحاديث التي تبيّنُ لنا مكانةَ جعفر ومثواه في الجنّة، فقد قال النّبي ﷺ:

«رأيتُ جعفراً في الجنَّةِ مَعَ الملائكةِ»[5].

---

(١) انظر فتح الباري (٧/ ٧٦) وانظر مجمع الزوائد (٩/ ٢٧٣).
(٢) انظر البداية والنهاية (٤/ ٢٥٦).
(٣) فتح الباري (٧/ ٥١٥).
(٤) انظر كتاب الحيوان للجاحظ (٧/ ٤٥ ـ ٤٦).
(٥) الإصابة (١/ ٢٤٠).

ومرّة أخرى حدَّثَ النَّبيُّ أصحابَه عَنْ جعفر وأنَّـه في الجنَّـة فقال:

«ودخلتُ البارحة الجنَّـة فرأيتُ فيها جعفراً يطيرُ مع الملائكة»[1].

وقال عليه الصَّلاة والسَّلام مؤكداً أَنَّ سيدنا جعفراً في الجنَّةِ «لقد رأيتُ جعفراً في الجنَّـةِ له جناحان مضرَّجَانِ بالدِّماء وهو مَصْبُوغُ القَوَادِمِ»[2].

وقال أيضاً: «إنَّ لجعفر بن أَبي طالب جناحين يطيرُ بهما في الجنَّـةِ مَعَ الملائكةِ»[3].

* تلك هي صفحاتٌ مشرقةٌ مِنْ حياةِ الصَّحابي الشَّهيد، كبيرِ المكانةِ والشأنِ، عَلَمٌ منْ أعلام المجاهدين سيِّدُنا «أبو عبد الله جعفرُ بنُ أبي طالب» ابن عمِّ رسولِ الله ﷺ، أميرُ المجاهدين في الحبشة، وسيدٌ من سادات الشّهداء، وكان بالإضافة إلى فروسيته وشجاعته فارساً في الخطابةِ والبلاغةِ، وقد وعى الحديثَ النَّبويَّ، وروى سيِّدنا جعفر شيئاً يسيراً عَنْ رسول الله ﷺ، وروى عنه ابن مسعود وعمرو بن العاص وأمّ سلمة وابنه عبد الله.

* رحم الله «جعفرَ بنَ أبي طالب» رحمةً واسعةً، فقد كان مِنَ الذينَ رضيَ الله عنهم ورضوا عنه، وكانَ مِنَ الذين ابتغَوْا مرضاةَ الله ورضوانَه، فنالَ السَّعادة وحظِيَ بالدَّرجاتِ العاليةِ، وكان مِنَ الذين قال الله فيهم:

﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْـهِ﴾.

صدق الله العظيم

* * *

(1) فتح الباري (٧/ ٧٦) وانظر الاستيعاب (١/ ٢١٣) وانظر الروض الأنف (٤/ ٨٠).
(2) طبقات ابن سعد (٤/ ٣٩). وانظر مجمع الزوائد (٩/ ٢٧٢ ـ ٢٧٣).
(3) المصدران السابقان.



سيدنا

عكاشة بن محصن

رضي الله عنه

* أمير، بدري، بايع تحت الشجرة، استشهد في حروب الردة.

* «منا خير فارس في العرب... عكاشة بن محصن».

* «سبقك بها عكاشة».





مقـــدمـــة:

* كانَ أهل مكةَ ضعافَ التفكير، منقادين للشهوات، تتقاذفُهم الأهواء والمآثم، إشراكٌ بالله وكفرٌ باليومِ الآخر، إقبالٌ على زخرفِ الدنيا، إغراقٌ في اللهو، حب عنيفٌ للفخر والسّيادة، عَصبياتٌ لا هدف لها، وتقاليدُ وَرِثها الأبناء عن الآباء، لا يفكرون بآخرةٍ ولا بأولى، وبُعثَ سيدُنا محمدٌ ﷺ، وأخذَ يدعو إلى الإسلام بالحكمةِ والموعظةِ الحسنة، وأَخذتْ دعوةُ الإسلامِ تنتشرُ فِي مكةَ وتعملُ عملَها في أصحابِ الأفئدةِ الكبيرة،، فسرعانَ ما كانوا يطرحونَ جاهليتَهم العمياء، ويقبلونَ لاعتناقَ الإسلام الذي يدعو إلى وحدانية الله، ونَبْذِ عبادة الأصنام، والعملِ للدّار الآخرة الباقية.

* ترامتْ أنباءُ دعوة الإسلام إلى قريش، فبدأتْ تقفُ في وجهِ الدعوةِ وقوفَ المُعَارِض، وتدافعُ عنْ وثنيتِها دفاعَ المستميت، وقرر المشركون محاربةَ الإسلام وإيذاءَ الداخلينَ فيه والتّعَرضَ لهم بألوانِ العذابِ والنكالَ.

بَيْدَ أَنَّ هذه الحربَ المُسْتَعِرةَ، جعلتْ بعض الشّباب مِنْ ذوي العقولِ الواعيةِ ينظرونَ إلى الإسلام نظرةً صافيةً، خاليةً منْ شوائبِ الجاهلية ورواسبِها، فكانَ بعضُهم يُقْبلُ على الإسلام في صفاءٍ تامٍّ، ويعلنُ إسلامَه وانضمامَه إلى الدِّينِ الحنيفِ.

* * *

* نبّهتْ دعوةُ الإسلام أحدَ الشبابِ الذين عُرفوا بوفرةِ العقلِ، وصدقِ الإحساسِ وصفاءِ السريرةِ، وحرّكتْ في نفسِه نوازعَ الخيرِ والركونِ إلى الإسلامِ وتركِ الشركِ، وأَلْفَتِ الدعوةُ مكاناً خالياً في قلبه فتمكنتْ منه، واقتعدتْ فيه مكاناً علياً؛ فأشرقَت نفسُه بالحقيقة، وانطلق إلى رسول الله ﷺ يعلن إسلامَه، ولم يكن هذا الشابُّ سوى «عُكّاشَةَ بنِ مِحْصَنَ بنِ حُرثان الأسديّ» حليف بني عبد شمس.

* كان «عُكَّاشة بن مِحْصن» معروفاً بجمالِ الطلعة، وحُسْنِ الهيئةِ، والجرأةِ والإقدام؛ وقد تلقّى الأذى من قريش مع مَنْ تلقى من المؤمنين، لكنَّه لمْ يزددْ إلا إيماناً وتسليماً، وإصراراً على التَّمسُّكِ بالإسلام؛ ولم تَفْتُر قريشٌ في الحملةِ على الإسلام ورجالِه لحظةً واحدة، ضيَّقُوا عليهم سُبُلَ العيشِ، وحاولوا أنْ يفتنوهم عن دينهم، لكنَّ هؤلاء المسلمين تحمّلوا في ذاتِ الله الكثيرَ مِنَ الويلات، فهذه إحدى صور العذاب ترويها «ليلى بنتُ أبي حثمةَ العدوية» زوجُ «عامرِ بن ربيعة»[١] أحدِ أصحاب «عكّاشةَ بنِ محصن» قالتَ:

«إنَّا لنرحل إلى أرضِ الحبشة ـ وقد ذهبَ عامر لبعضِ حاجتِه ـ إذ أقبل «عمرُ بنُ الخطاب» ـ وهو على شِرْكه ـ حتى وقف عليَّ وكنّا نلقى منه البلاءَ، فقال: أتنطلقونَ يا أمَّ عبدِ الله؟.

قالت: نعم، والله لنخرجَنّ في أرضِ الله، فقد آذيتمونا وقهرتمونا حتى يجعلَ اللهُ لنا فرجاً.

قالت: فقال عمرُ: صحبكم الله؛ ورأيتُ له رقة وحزناً.

قالت: فلما عاد عامر أخبرْتُه، وقلت له: لو رأيتَ عمرَ ورقَّتَه وحزَنه علينا. . . .

قال: أطمعتِ في إسلامِه؟.

قلت: نعم.

فقال: لا يُسلمُ حتى يسلمَ حمارُ الخطّاب[٢].

---

(١) هو عامر بن ربيعة بن مالك أحد السابقين الأولين إلى الإسلام، أسلم قبل أن يدخل رسول الله ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم وقبل أن يدعو فيها، هاجر إلى أرض الحبشة الهجرتين، ثم إلى المدينة، شهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وقد روى عن أبي بكر وعمر، وتوفي بالمدينة بعد قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه.

(٢) روي أنَّ عامر بن ربيعة رضي الله عنه كان حليفاً للخطاب بن نفيل، وكان الخطاب لما حالفه عامر بن ربيعة تبنّاه وادعاه إليه فكان يقال له: عامر بن الخطاب حتى نزل =

لِمَا كان يراه عامرٌ مِن شدة عمرَ وغلظتِه على المسلمين، إذ كان عمرُ معروفاً بحدّةِ الطبعِ وقوةِ الشكيمةِ. ولكنّ الله سبحانه أراد لعمرَ الخير، فاستكانَ للحقِّ، ومشى إلى الرَّسولِ عليه الصلاة والسلام، وأعلنَ إسلامَه».

* أمّا قريشٌ فإنّها لما رأتْ أنَّ أمْرَ الإسلامِ ينمو ويعلو، شدّدت قبضتَها على المسلمين، وزادتْ من ألوانِ العذاب ما تنوء بحملهِ الجبالُ، فانقلبتْ عداوتُهم للمسلمين إلى تنكيلٍ وسفكِ دماءٍ وسجنٍ وتشريد، وصدٍّ عن سبيلِ الله؛.

* * *

عُكَّاشَةُ والرَّكبُ المُهَاجِر:

* لما رأى رسولُ الله ﷺ ما ينزلُ بأصحابه مِنَ العذاب والأذى، أشار عليهم بالهجرة إلى المدينة، فهُرِعَ المسلمون بإذنٍ منْ رسولِ اللهِ نحوَ المدينةِ، تاركين عَرَضَ الدنيا وراءَ ظهورِهم، وهم يبتغون الأجرَ والرضوانَ مِنَ اللهِ تعالى.

أخذ المهاجرون يخرجونَ مِن مكةَ زرافاتٍ ووحداناً، وكان «عُكّاشة بن محصن» فيمن خرجَ معَ قومِه الذين أَوعبوا جميعاً في الهجرةِ إلى المدينة. فقد روى عمرُ بن عثمانَ عن أبيه قال:

«كان بنو غنم بن دودان[1] أهلَ إسلام قد أوعبوا[2] في الهجرةِ إلى المدينةِ رجالُهم ونساؤهُم، فخرجوا جميعاً وتركوا دورَهم مغلقةً، فخرج عبدُ الله ابنُ جحش، وأخوه أبو أحمد بن جحش واسمه عبد؛ وعُكّاشة بن محصن

= القرآن: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ ﴾ فرجع عامر إلى نسبه فقيل: عامر بن ربيعة وهو صحيح النسب في وائل.

(١) هم قوم عكاشة بن محصن وعشيرته.

(٢) أوعبوا: أي هاجروا بأجمعهم.

وأبو سنان بن محصن[1]... فنزلوا جميعاً على مبشر بن عبد المنذر»[2].
ونظر المشركون، فإذا ديارُ المؤمنين بمكة قد أقفرتْ، وغُلِّقَتْ أبوابُها، وأضحتِ الريـاحُ تعبثُ في جوانِبها، وعلائمُ الحزنِ ترتسـمُ على جانبِهـا وفي دروبِها.

* ومـرَّ «عتبـةُ بـنُ ربيعـة»، و«العبَّـاسُ بنُ عبـد المطلب»، و«أبو جهـل ابن هشام» على دار بني جحش، فنظرَ إليها عتبةُ تخفقُ أبوابُها يباباً ليسَ فيها ساكنٌ، فلما رآها كذلك تنفَّس الصعداءَ ثم قال:

وكـلُّ دار وإنْ طـالـتْ سـلامتهـا يوماً ستدركها النكباءُ والحوبُ[3]

ثم قال: أضحت الدارُ خلاءً مِن أهلها، فقال أبو جهل للعباس: هذا من عملِ ابنِ أخيك، فرّق جماعتنا، وشتَّتَ أَمْرَنَا، وقطع بَيْنَنا.

* انتهى المسلمونَ إلى المدينةِ، ثم ما لبثَ رسولُ الله ﷺ أنْ لحق بهم مهاجراً وفي صحبته أبو بكر الصِّديق رضي الله عنه، وبعد أَنْ استقرَّ الرسولُ في المدينة آخى بينَ أصحابهِ المهاجرين والأنصار، ونظّم أمورهم ومعيشتهم.

* * *

مشَـاهـد عُـكَّـاشـة قَـبْـل غـزوة بـــدر:

* لما استقرَّ الرسولُ والمسلمون في المدينة، أخذوا يرسلون سراياهم بأمرٍ مِنَ الرَّسولِ عليه الصلاة والسلام تستطلع أحوالَ القبائلِ الضَّاربةِ حولَ المدينةِ، وتتعرف على طريقِ القوافلِ المارةِ بين مكةَ والشام، فتجارةُ قريشُ تمرُّ مِنْ هذه الطريق، وقريش حاربتِ المسلمين وأخرجتْهم من ديارِهم بمكة.

* كان «عكّاشةُ بنُ مِحْصَن» ينظر إلى ظلم قريش، ويتمنىٰ لو يستطيعُ أَنْ يقدِّمَ شيئاً يغيظُ به قريشاً، ويزعجُ قوافلهم أوْ رِجالَهم، وسرعانَ ما تحوَّلتْ

---

(١) أخو سيدنا عكاشة بن محصن.
(٢) انظر طبقات ابن سعد (٣/ ٨٩ ـ ٩٠) وسيرة ابن هشام (١/ ٤٧٢).
(٣) انظر سيرة ابن هشام.

أمنيتُه إلى حقيقة، فقد أُسْنِدتْ إليه مهمة تحققُ ما كان يصبو إليه، فقد وقع عليه اخْتِيارُ رسولِ الله ﷺ ليكونَ مِنْ أفرادِ سريةٍ مهمتُها استطلاعُ أخبارِ قريش.

ففي رجبَ مِنَ السنةِ الثانيةِ من الهجرة، بعثَ رسولُ الله ﷺ «عبدَ اللهِ بنَ جحش بن رئاب الأسدي»، وبعثَ معه ثمانيةَ رْهط من المهاجرين، ليس فيهم مِنَ الأَنصار أحدٌ، وهم: «أبو حذيفةَ بنُ عُتبة» و«عكّاشةُ بنُ محصَن بن حرثان»، «وعتبةُ بنُ غزوان» و«سعدُ بن أبي وقاص»، و«عامُر بنُ ربيعة»، و«واقدُ بنُ عبد الله» و«خالدُ بن البكير» و«سهلُ بن بيضاء»[1] وكتب له كتاباً وأمرهُ ألاَّ ينظرَ فيه حتى يسيرَ يومين ثم ينظرَ فيه، فيمضي لما أَمَرَهُ به ولا يستكرهُ من أصحابه أحداً، فلما سار بهم يومين فتحَ الكتابَ فإذا فيه: إذ نظرتَ في كتابي فامض حتى تنزلَ نَخْلةَ بينَ مكةَ والطائفِ فَتَرصَّد بها قريشاً وتعلَّمْ لنا مِنْ أخبارهم، فلما نظر في الكتاب قال: سمعاً وطاعة، وأخبرَ أصحابَه بما في الكتاب وقال: قد نهاني أنْ أستكْرِهَ أحداً منكم، فمَنْ كان يريدُ الشهادةَ ويرغبُ بها فلينطلقْ ومَنْ كَرِهَ ذلك فليرجعْ، فأما أنا فماضٍ لأمر رسولِ الله ﷺ[2].

* كان «عبدُ الله بنُ جحش» يقرأُ لأفرادِ سَرِيتّه كتابَ رسولِ الله ﷺ، ولما انتهى مِنْ قراءتِه أجابه عُكّاشةُ معَ أصحابِه بحماسٍ: «كُلُّنا نرغبُ فيما ترغبُ فيه، وما منّا أحدٌ إلا وهو سامعٌ مطيعٌ لرسولِ الله ﷺ»[3].

مضى «عبدُ الله بنُ جحش»، ومضى معه أصحابُه لمْ يتخلفْ منهم أحدٌ، غيرَ أن «سعدَ بنَ أبي وقّاص» و«عتبةَ بنَ غزوان» أَضَلاّ بَعِيرَهما الذي كانا يتعاقبانِ الركوبَ عليه، فانطلقا يبحثانِ عنه فتخلّفا عن أصحابهما، ومضى

---

(١) انظر أسماء الذين خرجوا في سرية عبد الله بن جحش في المغازي (١/ ١٩)، والبداية والنهاية وسيرة ابن هشام (١/ ٦٠١) وتفسير القرطبي (٣/ ٤١).
(٢) البداية والنهاية (٣/ ٢٤٩).
(٣) انظر تفسير القرطبي (٣/ ٤١).

«عبدُ الله بنُ جحش» وبقيةُ أصحابِه حتى نزلوا بنخلة، وهنالك صادفوا عِيراً لقريشٍ مقبلةً مِنَ الطائفِ تحملُ زبيباً وجلوداً وتجارةً مِن تجارة قريش، ومعها أربعةُ نفر: «عبدُ الله بنُ الحضرميّ»، و«عثمانُ بن المغيرة» وأخوه «نوفلُ» و«الحَكَمُ بنُ كيسان»، وكان ذلك في آخر يومٍ في شهر رجبَ، فلما رأى القومُ أصحابَ رسولِ الله ـ ﷺ ـ هابوهم وخافوا منهم، وأنكروا أَمْرَهم، فقال أميرُ السريةِ المسلمةِ «عبدُ اللهِ بن جحش» لما رأى فزعَ القومِ:

«إنَّ القومَ قد فَزِعوا منكم، فاحلقوا رأسَ رجلٍ منكم فليتعرّضْ لهم»[1] فإذا رأوه محلوقاً أَمِنوا وقالوا: قومٌ عمّارٌ لا بأسَ عليكم».

* وهنا، وفي هذا الموقفِ، تقدَّمَ سيدُنا «عُكّاشةُ بنُ مِحصَن» ليقومَ بالمهمة، ودعا «عامرَ بنَ ربيعة» وأَمَرهُ أَنْ يحلِقَ له رأسَه مِن ساعتِه حتى يشرفَ على القومِ ليطمئنّوا؛ ولْنَدَعْ سيدَنا «عامرَ بنَ ربيعة» رضي الله عنه يحدثنا عن رأيِ «عكّاشة بنِ مِحصَنَ» فيقول:

«حلقتُ رأسَ عكّاشةَ بيدي، وكان رأيُ «واقدَ بنِ عبد الله» و«عُكّاشةَ» أنْ يُغيروا عليهم فيقول لهم: عُمَّار، نحن في شهر حرام، فأشرفَ عُكّاشةُ فقال المشركون بعضُهم لبعض: لا بأس قومٌ عُمَّارٌ، فأمِنوا في أنفسِهم، وقيّدوا ركابَهم وسرحوها واصطنعوا طعاماً»[2].

تشاورَ «عبدُ الله بنُ جحش» وأصحابُه في أمْرِ العِير، فقال بعضُهم لبعض:

«واللهِ لَئِن تركتموهم هذه الليلةَ ليدخُلُنَّ الحرمَ فليمتنعُنّ به منكم، ولئن قتلتموهم لتقتلُنَّهم في الشهرِ الحرامِ، فتردّدوا وهابوا الإقدامَ عليهم، ثم شجّعوا أنفسَهم عليهم وأجمعوا على قتلِ من قَدَروا عليه منهم وأخْذِ ما معهم، فرمى «واقدُ بنُ عبدِ اللهِ التميميّ»[3] عمرَو بنَ الحضرميّ بسهمٍ فقتلَه واستأسرَ

---

(١) انظر السّيرة الحلبية (٣/ ١٤١).
(٢) انظر مغازي الواقدي (١/ ١٤).
(٣) هو واقد بن عبد الله بن عبد مناة التميمي، كان حليفاً للخطاب بن نفيل، كان واقد من المسلمين الأوائل، فقد أسلم قبل دخول الرسول ﷺ دار الأرقم وقبل أن يدعو =

«عثمانَ بنَ عبدَ الله» و«الحكمَ بنَ كيسان»، وأُفلتَ «نوفلُ بنُ عبد الله» وطلبه القومُ فأعجزهم[1].

* استاقَ عبدُ الله وأصحابُه العِيرَ والأَسيرَيْنِ، فلما قدموا على رسولِ الله ﷺ، وقَّفَ العِيرَ فلم يأخذْ منها شيئاً وحبَسَ الأَسيرَيْنِ وقالَ لأصحابِه: «ما أمرتكم بقتالٍ في الشهرِ الحرامِ» وسُقط في أيدي القوم، وظنوا أَنْ قدْ هلكوا، وجعلَ إخوانُهم المسلمونُ يُعنِّفونَهم ويلومونهم على ما أقدموا عليه، وأضحتِ المدينةُ تفورُ فَوْرَ المِرْجَلِ، واستغلَّتْ قريشٌ هذه الواقعةَ، فأخذتْ تشيعُ في النَّاس أَنَّ محمداً وأصحابه قد استحلّوا الشهرَ الحرامَ فسفكوا فيه الدماءَ، وأخذوا الأموالَ، وأسروا الرجالَ... وقد أدلى اليهودُ أيضاً دَلْوَهُمْ في هذه الواقعةِ، وفرحوا وتفاءلوا بأَنَّ الحربَ واقعةٌ لا محالةَ بينَ المسلمين وقريشٍ، وبالتالي يَظهرون على العرب جميعاً وشرعوا يقولون:

«عمرُو بنُ الحضرمي» قتله «واقدُ بن عبد الله التميمي»، عمرو عمرتِ الحربُ، والحضرميُّ حضرتِ الحربُ، وواقدٌ وقدتِ الحربُ! قال ابن واقد:

قد تفاءلوا بذلك فكان ذلك من الله على يهود[2].

* لم تطُلْ حيرةُ «عبدِ الله بن جحش» وأفرادِ سَرِيَّتِه، بل نزلَ الوحيُ حاسماً تلك الضَّجَةَ التي افتعلَها المشركون لإثارةِ الرِّيبة، وقد أَيَّدَ الله سبحانه وتعالى مَسْلكَ «عبدِ الله بنِ جحش» وإخوانِه تجاه المشركون يقول الله تعالى:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن

= فيها ولما هاجر إلى المدينة آخى الرسول بينه وبين بشر بن البراء بن معرور. شهد واقد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وتوفي في أول خلافة سيدنا عمر بن الخطاب وليس له عقب.

(١) انظر الدرر لابن عبد البر ص ٩٨ والبداية والنهاية (٣/ ٢٤٩).

(٢) انظر المغازي (١/ ١٦) وتفسير القرطبي (٣/ ٤٢).

﴿... دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[1].

* نزلَ القرآنُ الكريمُ مزكّياً ومؤيّداً عملَ عبدِ الله وصحبهِ، وقد صوّرت الآيةُ الكريمةُ الموقفَ أجملَ تصوير، وفرّجتِ الكربَ عن «عبد الله بنِ جحش» وأصحابِه، وأقالتْ عثرتَهم، ووضعتْهم على أعظم الرّجاء، وكشفت القناعَ المزيَّفَ عن وجهِ قريش، وما ألحقته بالمسلمين مِنَ الأذى والفتنة بإخراجِهم مِنْ ديارِهم ظلماً وعدواناً، وصدِّهم عَنِ المسجدِ الحرامِ وهم أهلُه وأولياؤه وأحقُّ به منهم، ولا زالَتْ تسعى إلى القَضاء عليهم وردِّهم إلى الكفرِ بَعْدَ الإيمان، لذلك كان عملُ المشركين هذا أكبرَ مِنَ القتالِ في الشهرِ الحرام؛ ولما حَسَمَ القرآنُ الكريمُ هذا الأمرَ، استقَرّتِ القلوبُ المتحرِّجة، وشُفيتِ النّفوسُ مما خالطها مِنَ الخوفِ، واطمأنتْ إلى أنّ الله أرادَ، وهو فعّالٌ لما يريد؛ ولما انكشف عن «عبدِ الله بنِ جحش» وأصحابه ما كانوا فيه حين نزلَ القرآنُ، ظنّوا أنَّه إنّما نُفيَ عنهمُ الإثمُ فقط ولا أجرَ لهم، فطمِعوا في الأجر فقالوا:

يا رسولَ الله، أنطمعُ أَنْ تكونَ لنا غزاةٌ نُعطىَ فيها أَجْرَ المجاهدين؟.

فأَنزلَ اللهُ فيهم:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[2].

يقولُ الإمامُ القرطبيُّ في تفسيره: «لما قَتل «واقدُ بنُ عبدِ الله التميميّ» «عمرَو بنَ الحضرميّ» في الشَّهرِ الحرام، توقّفَ رسولُ الله ﷺ عن أخْذِ خُمُسِه الذي وُفِّقَ في فرضِه له «عبدُ الله بنُ جحش» وفي الأسيرَيْنِ، فعنّفَ المسلمون «عبدَ الله بنَ جحش» وأصحابَه حتى شقَّ ذلك عليهم، فتلافاهم اللهُ عزَّ وجلَّ

---

(١) سورة البقرة آية (٢١٧).

(٢) سورة البقرة آية (٢١٨) وانظر تفسير الماوردي (١/ ٢٢٧) وتفسير القرطبي (٣/ ٥٠).

بهذه الآية في الشَّهر الحرام وفرّج عنهم، وأخبر أنَّ لهم ثواب مَنْ هاجَرَ وغزا»[1].

* وهكذا فقد كانت هذه الحادثةُ مفتاحاً مِنْ مفاتيحِ الخير، وسبباً مِنْ أسبابِ النّصرِ والتأييدِ الذي غمرَ اللهُ به المسلمينَ في واقعةِ بدر.

* * *

عُكَّاشَةُ وغزواتُ الرَّسول ﷺ:

* ترامتِ الأنباءُ إلى رسولِ اللهِ ﷺ بأَنَّ عِيراً لقريش قد فَصلَتْ مِنَ الشام عائدةً إلى مكةَ، فندبَ لها أصحابَه قائلاً:

«هذه عِيرُ قريشٍ فيها أموالُهم فاخرجوا إليها لعل الله يُغْنِمْكموها».

وخرج رسولُ الله ﷺ في رمضانَ ومعه ثلاثمئة وبضعةَ عشرَ رجلاً مِنَ المهاجرينَ والأنصار، لكنّ أبا سفيانَ استطاع أنْ يُفلتَ بالعير، أمّا قريشٌ فقد أرادتْ بزعمِها تأديبَ المسلمين الذين تطاولوا عليهم وتجرّؤوا على التّصدي لِعِيرهم، وهمُ الأعزّةُ الذين لم يَذِلُّوا، و﴿ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ﴾[2] فخرجوا معتزّين بقوتِهم ومكانتِهم بين العرب، مُعتقدِين أنهم سيوجِّهون الضربةَ القاضيةَ للمسلمين، وكان عددُهم يقاربُ الألف؛ وجمعَ الله الفريقَيْنِ بوادي بدر، المسلمون بالعُدوة الدنيا مما يلي المدينةَ، والمشركون بالعُدوة القُصوى مما يلي مكة.

* تقابلَ الجمعانِ، وقام رسولُ الله ﷺ يسوّي الصفوفَ ويتفقدُ الرجالَ، وكان سيدُنا «عُكّاشة بنُ مِحْصَنَ» رضي الله عنه في عِداد مَنْ خرج مع رسولِ اللهِ ﷺ يحملُ سيفَه ويستعدُّ لاستقبالِ أوامر رسولِ اللهِ ﷺ، ولما

---

(١) انظر تفسير القرطبي (٣/ ٤٩).
(٢) سورة الأنفال آية (٤٨).

أوشك الصفّان أن يتلاحما؛ أمرَ الرسولُ أصحابَه أنْ يحملوا على المشركين، ونادى قائلاً:

«والذي نفسُ محمدٍ بيدِه لا يقاتلهم اليومَ رجلٌ فيُقتل صابراً محتسباً مقبلاً غيرَ مدبرٍ إلا أدخلَه الله الجنةَ».

وما إنْ صافحتْ كلماتُ رسولِ الله ﷺ سمعَ عكّاشة وصحبِه، حتى انطلقوا يجالدونَ المشركين بقلوبٍ ملؤُها الإيمان، ونفوسٍ طامعةٍ في ثوابِ الله تعالى، وراح «عكّاشةُ بنُ محصن» يضربُ في صفوفِ الأعداءِ يميناً وشمالاً حتى انكسرَ سيفُه»[1]، ولكن هل يتوقفُ سيدُنا عكّاشة عَنِ المعركةِ؟.

لا، فقد سمعَ بالجنَّة وهو يتمنّاها، وأسرعَ منطلقاً إلى رسولِ الله ﷺ يشرحُ له حالَه، وأنّه بقي أعزلَ لا سلاحَ معه، فأعطاهُ الرسولُ جذلاً[2] مِنْ حطب فقال: «قاتل بهذا يا عُكّاشة».

فلما أخذه مِنْ رسولِ الله ﷺ، هزَّهُ فعادَ سيفاً في يده طويلَ القامةِ شديدَ المتْنِ أبيضَ الحديدة، فقاتلَ به حتى فتحَ اللهُ على المسلمين، وكان ذلك السيفُ يُسَمَّى «العَوْن»[3]، ولندعْ سيدَنا «عكّاشة بنَ مِحْصَنَ» يقصُّ علينا خبرَ هذهِ المعجزة قال:

«انْقَطَعَ سيفي في يومِ بَدْر، فأَعْطاني رسولُ الله ﷺ عوداً، فإذا هو سيفٌ أبيضُ طويلٌ، فقاتلتُ به حتى هَزَمَ الله المشركينَ»[4].

ثمَّ لم يزلْ ذلك السيفُ عندَ عكّاشة وشهدَ به المشاهدَ كلَّها مع رسولِ الله ﷺ، ثم لم يزلْ متوارَثاً عندَ آلِ عكّاشة»[5]. وهذه إحدى المعجزاتِ التي حَدَثَتْ يومَ بدرٍ لرسولِ الله ﷺ.

---

(١) انظر الاستيعاب (٣/ ١٥٥).

(٢) جذلاً: عوداً.

(٣) انظر البداية والنهاية (٣/ ٢٩٠) والسيرة الحلبية (٢/ ٤٢٩).

(٤) المغازي (١/ ٩٣) وانظر البداية والنهاية (٣/ ٢٩١).

(٥) انظر السيرة الحلبية (٢/ ٤٢٩).

* عاد سيِّدُنا «عكّاشةُ بنُ مِحْصَنَ» رضي الله عنه إلى ميدانِ المعركةِ ثانية، بعد أَنْ أعطاهُ الرسولُ ﷺ العودَ الذي استحالَ إلى سيفٍ طويل، وظلَّ يقاتلُ المشركين حتى استطاعَ أَنْ يُجندلَ أحدَ فرسانِهم وهو «معاويةُ بنُ عبد قيس»[1]، وظلَّ يجالدُ المشركين حتى كتبَ اللهُ الغلبةَ لعباده المؤمنين وفرحوا بنصرِ الله، وقد حَظِي سَيِّدنا «عكاشة بنُ محصن» بأرفعِ الأوسمةِ مِنْ رسولِ الله ﷺ، وشهد له بالفروسية فقال:

«منّا خيرُ فارسٍ في العرب».

قالوا: ومن هو يا رسول الله؟.

قال: «عُكَّاشة بن مِحْصَن».

فقال: «ضرار بن الأزور»: ذاك رجلٌ منّا يا رسولَ الله، قال: «ليس منكم ولكنه منّا للحِلْف»[2].

إِنَّ رجلاً يقول عنه الرسول ﷺ «مِنَّا» إِنَّه لَذو حظٍّ عظيم؛ ولم تزدْ شهادةُ رسول الله ﷺ سيدنَا عكّاشة إلا إقداماً وصفاءً، وإيماناً وتسليماً.

* استدارَ العامُ، وجاءتْ غزوةُ أحد، وكان سيدنا عكّاشة في هذه الغزوةِ مِنَ الأبطالِ الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ، وكان قريباً منه إذْ تناولَ قوسَ رسولِ الله ﷺ وأَصْلَحَهُ، فقد رُويَ أَنَّ رسولَ الله ﷺ قد باشرَ القتالَ بنفسِه وما زال ﷺ يرمي عن قوسِه حتى تقطّع وترُه، وبقيتْ في يدِه منه قطعةٌ تكونُ شبراً في سِيَةِ[3] القوس، فأخذَ القوسَ عكاشةُ بنُ محصن ليوترَه، فقال: يا رسول الله، لا يبلغُ الوتر؛ فقال رسول الله ﷺ: «مُدّه يَبْلغْ» قال عكاشة رضي الله عنه: فوالذي بعثه بالحق لمددتُه حتى بَلَغَ وطويتُ منه لَفَّتَيْن أو ثلاثاً على سِية القوس....»[4].

---

(١) انظر المغازي للواقدي (١/ ١٥٢).
(٢) البداية والنهاية (٣/ ٢٩٠ ـ ٢٩١). لأن عكاشة كان حليفاً لقريش.
(٣) سية القوس: ما انعطف من طرفي القوس اللذين هما محل الوتر.
(٤) انظر السيرة الحلبية (٢/ ٥٠٦)، والمغازي (١/ ٢٤٢).

وهـذه المرة الثـانية التي حدثت فيهـا معجـزةٌ لرسـولِ اللهِ ﷺ مـع سيدنـا «عكّاشة بن محصن» رضي الله عنه.

* وتابع عكّاشة غزواته معَ رسولِ الله ﷺ لا يتخلَّفُ عن واحدة، وفي غزوة بني قُريظةَ كان مِنَ الفرسانِ الذين استجابوا لنداءِ رسولِ الله ﷺ، فامتطى صهوةَ جوادِه وأسرعَ مع مَنْ أسرعَ لقتالِ يهودِ بني قريظة إلى أَنْ نصرَ اللهُ عبادَه المؤمنين.

شَجَاعَــةٌ نَــادرَةٌ:

* كان النّبيُّ ﷺ يحثُّ أصحابَه أَنْ يتدرَّبوا على الفروسيةِ بجميع ألوانِها وأشكالِها، فَبرعَ عددٌ مِنَ الصحابة في فنونِ القتال، واشتهر بعضُهم بالرِّمايةِ، وبعضُهم بضربِ السيف، أمّا سيِّدنا عكّاشة رضوانُ الله عليه فقد راحَ يتدَرَّبُ على الطعنِ بالرمحِ حتى أَجادَهُ، وأصبحَ نافذَ الطعنةِ، خفيفَ الحركةِ، فقد استطاعَ أَنْ يقتلَ رجلَيْن بطعنةِ رمحٍ واحدةٍ.

* ففي السَّنة السَّادسة مِنْ هجرةِ المصطفى ﷺ، خرج رسولُ الله ﷺ في نحو خمسِمئة مِنْ أصحابِه إلى «ذي قَرَد»[1] لِيَرُدَّ غارةً لعُيينةَ بنِ حصنٍ على سَرْحِ[2] المدينة بناحيةِ الغابة، وكان بها عشرون مِنَ اللِّقاح[3] لرسولِ الله ﷺ، وفيها رجلٌ مِنْ بني غفارٍ وامرأةٌ له، فقتلوا الرجل واحتملوا المرأةَ في اللِّقاح، وذهبوا بالمرأةِ وبالإبلِ إلى ديارهم، فعلم بأمرِهم «سَلَمَةُ بنُ الأكوع»[4] فصعِدَ

---

(١) ماء على نحو يوم من المدينة بينها وبين خيبر. ويقال لهذه الغزوة: غزوة الغابة.

(٢) السرح: الماشية التي تسرح في المرعى.

(٣) اللقاح: الإبل الحوامل ذوات الألبان.

(٤) هو سيدنا سلمة بن الأكوع الأسلمي؛ أحد أصحاب رسول الله ﷺ شهد بيعة الرضوان وبايع رسول الله يومئذ ثلاث مرات؛ في أول الناس ووسطهم وآخرهم؛ كان سلمة شجاعاً رامياً محسناً خيراً فاضلاً، غزا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات، وروي له عن النبي سبعة وسبعون حديثاً، وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «خير رجالتنا سلمة بن الأكوع» قاله في غزوة ذي قرد هذه، توفي في المدينة سنة أربع وسبعين هجرية.

حتى إذا علا ثنيةَ الوداع قربَ جبلِ سَلْعٍ جعلَ يصرُخ «واصباحاه» حتى بلغَ صراخُه رسولَ الله ﷺ، فنُودي في المسلمين: يا خَيْلَ اللهِ اركبي.

فتقاطرَتِ الخيولُ إلى رسول الله ﷺ، وسارعَ الفرسانُ يتسابقون إلى تلبيةِ النِّداء، فكان أولَ مَنْ انتهى إلى رسول الله ﷺ «المقدادُ بنُ عمرو» رضي الله عنه، ثم كان سيدُنا «عكّاشة بنُ محصن» مِنَ السَّابقين لتلبيةِ النداء، واستطاعَ «سلمةُ بن الأكوع» أَنْ يشغلَ الأعداءَ ويضربَهم بالنَّبل، حتى جدَّ فرسان المسلمين في أثرِ القومِ، وأدركوا أخرياتِهم فقتلوا منهم ثلاثةَ رجالٍ واستنقذوا عشرَ لقاحٍ وأُفلتَ القومُ بعشر، وقد أبدى «عكّاشةُ بنُ محصن» مِنْ ضروبِ الشجاعةِ والإقدام في هذه الغزوةِ ما جعلَ شجاعتَه مضربَ الأمثال، فقد أدركَ «أوثار» وابنه «عمرو بن أوثار» وكانا رديفَيْن على فرسٍ فانتظمهما بالرمح فقتلَهما جميعاً[1].

وقد أثنى المسلمون على شجاعتِه وقوتِه؛ وغدا رسولُ الله ﷺ في نحو خمسِمئة فلحق أصحابَه، وتلاحقَ به النَّاسُ حتى اجتمعوا بذي قَرَد، ولكن القومَ فاتُوهم ولحقوا بمنازلِ غَطَفانَ فلمْ يَرَ ﷺ أَنْ يتابعهم؛ وعاد الرَّسولُ والمسلمون إلى المدينةِ المنورة.

* * *

عُـكَّـاشَـــة أَمـيرُ سَـريَّـــة:

* أبلى سيِّدُنا «عُكّاشةُ بنُ مِحْصَن» في غزوة «ذي قَرَد» بلاءً حسناً، واستجابَ لِداعي رسولِ الله ﷺ سريعاً، فكان في السَّوابق، لذلك فقد وقع عليه اختيارُ الرسولِ الكريمِ ﷺ ليكون أميراً على سَرِيّةٍ إلى جَمْعٍ مِنْ بني أَسَد في مكان يُسَمى «الغمر»[2] لتأديبِهم؛ وذلك بعد غزوة ذي قَرَد.

---

(١) انظر سيرة ابن هشام (٢/ ٢٨٤ ـ ٢٨٥) والمغازي (٢/٥٤٣) وعيون الأثر (٢/١٠٦).

(٢) الغَمْر: ماء لبني أسد على طريق نجد غمر مرزوق؛ وكان بنو أسد يعيثون الفساد ويقطعون الطريق على المسافرين.

ففي ربيع الأول سنة ست مِنَ الهجرة «وجَّهَ رسول الله ﷺ «عكّاشةَ بنَ محصن الأسدي» رضي الله عنه في أربعين رجلاً منهم «ثابتُ بنُ أرقم» رضي الله تعالى عنه، فخرج يُسرعُ في السَّيرِ إلى أَنْ وصلَ إلى الماءِ المذكور، فوجدَ القومَ علموا بهم فهربوا ولمْ يجدوا في دارِهم أحداً، فبعث «شجاعَ بنِ وهب» طليعةً يطلبُ خبراً ويرى أثراً، فأخبرَ أنه رأى أَثَرَ نعم قريباً، فخرجوا فوجدوا رجلاً نائماً، فسألوه عن خبر الناس.

فقال: وأين الناس! . . . . لقد لحقوا بعليات بلادهم.

قالوا: فالنَّعَم؟.

قالَ: معهم.

فضربَه أَحدُهم بِسَوطٍ في يَدِه.

فقال: تؤمِّنوني على دمي وأُطلعُكم على نعَمٍ لبني عَمٍّ له لمْ يعلموا بمَسِيرِكم إليهم؟.

قالوا: نعم.

فأمّنوه؛ فانطلقوا معه، فأَمْعَنَ[1] حتى خافوا أَنْ يكونَ ذلك غدراً منه لهم.

فقالوا: والله لَتصدقُنا أو لَنضربَنَّ عنقَك.

فقال: تطلعون عليهم من هذا المحل.

فلما طلعوا منه وجدوا نعماً روائح، فأغاروا عليها فاستاقوها، فإذا هي مئةُ بعيرٍ، وشردت الأعراب في كل وجه، ولم يطلبوهم، وانحدروا إلى المدينة بتلك الإبلِ، وأطلقوا الرجل الذي أَمّنوهُ» وهكذا وُفِّقَ سيدُنا «عكّاشةُ بن محصن» في هذه السَّرية، وقدم على رسول الله ﷺ غانماً لم يلقَ كيداً.

* لم تكن هذه هي المرةُ الوحيدةُ التي يكون فيها سيدُنا عكاشة أميرَ سرية

---

(١) أمعن: أي بالغ في الطلب.

فحسب، بل وقع عليه اختيارُ رسول الله ﷺ مرّةً أُخرى ليُخْضِعَ بعض القبائل في الجزيرة العربية.

ففي ربيعِ الآخرِ مِنَ السَّنة التاسعة للهجرة، بعثه رسولُ الله ﷺ مع جماعة مِنَ المسلمينَ إلى أرض عذرة وبليّ[1] فأخضعهم وعاد إلى رسولِ الله فائزاً منصوراً»[2].

هذا وقد استطاع سيدنا «عكّاشة بن محصن» رضي الله عنه، أَنْ يفوزَ برضاء الله ورضاء رسوله، وأَنْ يحظى بتقديرِ الصَّحابة الكرامِ حيث إنَّه نجح فارساً كما نجح أميراً.

* حضرَ «عكّاشةُ بنُ محصن» المشاهِدَ كلَّها مع رسولِ الله ﷺ لم يتخلَّفْ عن واحدةٍ منها، وكانت له ولأهلِه مواقفُ مضيئةٌ عظيمةٌ، حيثُ إنَّهم كانوا مِنَ الأوائلِ في التسابق إلى الخيرات وإلى مَرْضَاةِ الله ورسولِه.

ففي السّنة السّادسة مِنَ الهجرة فُرِضَ الحجِ والعمرة، ورأى رسول الله ﷺ في مَنامه ذاتَ ليلة أَنَّه دخلَ المسجدَ الحرام في أصحابه آمنينَ مُحلِّقينَ رؤوسَهم ومقصِّرين لا يخافون أحداً يصدُّهم.

فاستبشر بذلك ﷺ واستبشرَ أصحابه أيضاً، فسار بألفٍ وخمسِمئةٍ من أصحابه، لا يحملونَ مِنَ السلاحِ غيرَ السيوف، واتَّجه نحو مكة، ثم أَحْرمَ رسولُ الله وأحرم معه أصحابه للعمرة، غيرَ أَنَّ قريشاً لما علمتْ بالأمر حاولت مَنْع الرسول عليه الصلاة والسّلام، فأرسل لهم «عثمانَ بنَ عفّان» رضوان الله عليه، ليخبرَهم عن نيّةِ الرسولِ وصحبِه في العمرة، فحبسوه ثلاثةَ أيام، وهنا أُشِيعَ نبأُ مقتلِ عثمانَ بين المسلمين. . . .

عندها. . . قال رسول الله ﷺ: «لا نبرحُ حتى نناجزَ القوم»؛ ودعا المسلمين إلى مبايعتِه على القتال، فأسرع الناسُ يبايعونه وفي مقدمتهم

---

(١) قبيلتان من قضاعة.

(٢) انظر طبقات ابن سعد (٢/ ١٦٤).

«سنانُ بن أبي سنان الأسدي»[١]، وجاء في كتاب «الأوائل» «أَنَّ أول من بايع رسول الله ﷺ سِنانُ بنُ أَبي سنان الأسدي» وكان سيدنا عكّاشة أيضاً في أَوَائِلِ المبايعين للرسول الكريم ﷺ، فرضيَ الله عنهم، وتقبَّلَ البيعة منهم وباركَها لهم فكانت فتحاً مبيناً، فَتَحَ الله لهم به أبوابَ النَّصرِ والخيرِ والبركة.

* * *

استشهاد سيدنا عكاشة:

* لما تُوفي رسولُ الله ﷺ ارتدّتْ أحياءٌ كثيرةٌ من الأعراب، ونَجَم[٢] النفاقُ بالمدينة، وجعلتِ الوفودُ تَقْدُمُ فيُقرّونَ بالصّلاة ويمتنعون مِنْ أداءِ الزَّكاةِ، ومنهم مَنْ امتنع عن دفعِها إلى خليفةِ رسولِ الله «أبي بكر الصّديق» رضي الله عنه وأرضاه، وقد احتجّوا بقوله تعالى:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾[٣].

وقالوا: فلسنا ندفعُ زكاتَنا إلاّ إلى مَنْ صلاتُه سكَنٌ لنا! لكنَّ سيدَنا أبا بكر الصدّيق رضوان الله عليه، وقف ذلك الموقف الرجولي العظيم قائلاً:

«والله لو منعُوني عَناقاً كانوا يؤدُّونها إلى الرَّسولِ ﷺ، لأقاتلنَّهم على منعها، إنَّ الزكاةَ حقُّ المال، واللهِ لأُقاتلنَّ مَنْ فرّقَ بين الصّلاةِ والزكاة».

* وعزم الصّدِّيقُ ـ رضي الله عنه ـ على قتالهم، وكان مِن بين هؤلاء المرتدّين «طُلَيْحة بن خُويْلد الأَسَدي»[٤].

---

(١) هو سنان بن أبي سنان بن محصن بن أخي سيدنا عكاشة بن محصن رضي الله عنهم أجمعين، شهد بدراً وأحداً والخندق والحديبية، وهو أول من بايع النبي ﷺ بيعة الرضوان، توفي سنان بن أبي سنان سنة اثنين وثلاثين من الهجرة.

(٢) نجم: أي ظهر.

(٣) سورة التوبة آية (١٠٣).

(٤) هو طليحة بن خويلد الأسدي، ارتد عن الإسلام وقام بمؤازرته عيينة بن حصن الفزاري وقال لقومه: والله لنبي من بني أسد أحب إليّ من نبيّ من بنيّ هاشم وقد=

وكان طُليحة قد تَنبّأ في قومه بني أَسَد وفي غطفانَ، وانضمَّ إليهم بعضُ المرتدّين أيضاً من بني عَبْس وذبيان.

عَجَمَ[1] سيدُنا أبو بكر الصديق عِيدانَه، فوجد أن «خالدَ بن الوليد» رضي الله عنه مِنْ أصلبِها عوداً وأَمرِّها مذاقاً، فرمى به طُليحة، فطليحةُ ليس فارساً عادياً فقد كان شجاعاً مقداماً، وكان يُعَدُّ بألف فارس[2]، ولكنْ لا يفلّ الحديدَ إلا الحديدُ، فقد روى الإمامُ أحمدُ رضي الله عنه، أنَّ أبا بكر الصّديق رضوان الله عليه لما عَقَدَ لخالد بن الوليد على قتال أهل الرِّدة قال:

«سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: نِعْمَ عبدُ الله وأخو العَشيرة خالدُ بنُ الوليد سيفٌ مِنْ سيوفِ الله سَلَّه الله على الكفّار والمنافقين»[3].

* خرج سيدنا «عكّاشةُ بن محصن» رضي الله عنه لقتال «طُليحة بنِ خُويلد» ومَنْ معه منَ المرتدين الذين مَرَدوا على النفاق، خَرجَ وفي يده السيفُ المباركُ الذي أَخَذَه مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ يومَ بَدْرٍ، فكان يتبركُ به في حِلِّه وترحَالِه، وفي سَلْمِه وحَربهِ، وانطلقَ عكّاشةُ مع ثلَّةٍ مِنَ الصحابة وهو يتشوّقُ للشهادة.

* سار «خالد بن الوليد» بجيشه حتى التقى مع طُليحة الأَسَدي بمكانٍ يُقال له «بزاخَة» وهنالك عبّأَ جيشَه، ونظّم أمورَه، ونظرَ سيفُ الله «خالدُ بنُ الوليد» في جيشِه نظرةَ القائدِ الخبير، كان يرغبُ في رجُلين مَنْ رجالِهِ الأشداء يستطلعان له خبرَ القوم، وهنالك تصدى لهذه المهمة العظيمةِ «ثابتُ بنُ أقرم»[4] و«عُكّاشةُ بنُ محصَن» رضي الله عنهما.

= مات محمد، وهذا طليحة فاتبعوه، فوافقه بنو فزارة على ذلك، ثم تاب طليحة وحسن إسلامه.

(١) عجم فلان عودَه: امتحنه واختبر صلابته.

(٢) انظر تهذيب الأسماء واللغات للنووي (١/ ٢٥٤).

(٣) البداية والنهاية (٦/ ٣١٦ ـ ٣١٧).

(٤) هو سيدنا ثابت بن أقرم الأنصاري، أحد فضلاء الصحابة وفرسانهم الأقوياء، قتله =

* انطلق ثابتٌ وعُكّاشةُ بين يديْ خالدِ بنِ الوليد على فرسَيهما يستطلعانِ «بزاخة» فتلقّاهما «طُليحةُ» وأخوه «مسلمةُ» فيمن معهما مِنَ الرجال، فلما وجدا ثابتاً وعكاشةَ وحيدَينِ فصل «حِبال بن مسلمة بن خويلد» عن جماعته وطلب المبارزة، فتلقّاه سيدُنا «عكّاشةُ بن محصن»، وانقضّ عليه وضربَه بالسَّيفِ فأرداه قتيلاً، فطار صوابُ والدِهِ «مسلمة بنِ خويلد» فاعتنق عكّاشة وتصارعا، وفي هذه الأثناءِ اهتبلَ طليحةُ الفرصةَ فضرب عكّاشةَ بالسيفِ فقتلَه، ثم مالَ مع أخيه مسلمةَ على «ثابتِ بنِ أقرم» وقتلاه أيضاً وانبعثَ طليحةُ يقول:

فما ظنُّكم بالقوم إذْ تقتلونَهم ... أليسوا وإنْ لم يُسْلموا برجالِ
فإنْ تكُ أذوادٌ أُصبنَ ونسوةٌ ... فلن تذهبوا فَرْغاً بقتلِ حِبالِ[1]
نصبتُ لهم صَدْرَ الحِمالة[2] إنَّها ... معاودةٌ قِيلَ الكماة نَزَالِ
عشيةَ غادرتُ ابنَ أَقْرمَ ثاوياً ... وعُكَّاشةَ الغنميَّ عندَ حجالِ[3]...

* ولما تأخر خبرُ «عكّاشة بنِ محصن» و«ثابتِ بنِ أقرم» رضي الله عنهما عن «خالدِ بن الوليد» ومَنْ معه مِنْ فرسانِ المسلمين، تقدموا فوجدوهما صريعين، وقد وُجدَ بعكاشةَ جراحاتٍ وطعناتٍ كثيرةً، فشقَّ ذلك عليهم وتأثروا على هذين الشهيدين البطلَين، ولندعْ شاهدَ[4] عيانٍ يحدثنا عن استشهادِ عكاشةَ وثابت، قال:

= طليحة بن خويلد الأسدي مع عكاشة بن محصن عندما كانا يقومان بالاستطلاع لخالد بن الوليد وهو زاحف بجيش الخلافة لقمع المرتدين الذين جمعهم طليحة بن خويلد. وقد روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ وذلك بعد أن تاب طليحة وعاد إلى الإسلام ـ كيف أحبك وقد قتلت الصالحَين: عكاشة بن محصن وثابت بن أقرم؟ فقال طليحة: أكرمها الله بيدي ولم يهنّي بأيديهما.

(١) أي: حِبال بن مسلمة بن خويلد ابن أخي طليحة.
(٢) اسم فرس طليحة.
(٣) انظر سيرة ابن هشام (١/ ٦٣٧) والبداية والنهاية (٦/ ٣١٧) بتصرف يسير.
(٤) هو أبو واقد الليثي رضي الله عنه.

«كنّا نحن المقدمة مئتي فارس، وعلينا زيدُ بن الخطاب رضي الله عنه، وكان ثابتُ بن أقرم وعكّاشةُ بن محصن رضي الله عنهما أَمامَنا، فلمّا مَرَرْنا بهما سِيءَ بنا، وخالدُ والمسلمون وراءَنا بعدُ، فوقَفْنَا عليهما حتى طلعَ خالدُ بنُ الوليد رضي الله عنه يسير فأَمَرَنَا فَحَفَرْنَا لهما ودفنّاهما بدمائِهما وثيابِهما، ولقد وجَدْنَا بعكاشة جراحاتٍ منكرةً»[1].

* وهكذا صعدت روحهما إلى بارئها راضية مرضية، ونالا الشهادة، وكانَ عُمْرُ سيدِنا عكّاشةَ يومَ استُشهد أربعاً وأربعين سنةً، وذلك سنةَ اثنتي عشرةَ مِنَ الهجرةِ النبويةِ الشريفة[2].

* * *

بشارةُ عُكَّاشة بالجنَّةِ:

* قال تعالى:

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[3].

قال عنه الإمام الذهبي في كتابه النفيس سِير أعلام النُّبلاء: «عُكّاشة بن مِحْصن، السّعيدُ الشّهيدُ، أبو محصن الأسدي حليفُ قريش مِنَ السابقينَ الأوّلين البدريين أَهْلِ الجنة»[4].

* كان سيدُنا «عكاشةُ بن محصَن» رضي الله عنه واحداً من سادات الصحابةِ الكرامِ وفُضَلائِهم، فقد صَحِبَ رسولَ الله ﷺ، وأبلى في المشاهد كلِّها بلاءً حسناً، وقد أحبَّ عكاشةُ رسولَ الله حباً عظيماً، ظهر أثرُ هذا الحب

---

(١) انظر طبقات ابن سعد (٣/ ٩٣ ـ ٤٦٧) أيضاً.
(٢) انظر البداية والنهاية (٦/ ٣٢٩) والاستيعاب (٣/ ١٥٦).
(٣) سورة التوبة آية (١٠٠).
(٤) انظر سير أعلام النبلاء (١/ ٣٠٧).

في تصرّفاتِه، مما جعله يسألُ الرسولَ عليه الصلاة والسّلام أنْ يدعوَ له بأَنْ يكونَ مِنْ أهلِ الجنة، والرَّسولُ الكريم أعْرفُ الخلق بالرِّجال، فقد أَطْلع الله نبيَّهُ على هيئَةِ أصحابه، فوجدَ عند عُكَّاشةَ نفساً تُؤَهِّلُه لدخولِ الجنَّة، وعلِم رسولُ الله ﷺ حقيقَتَهُ، فنال الجنَّة ببركةِ دعاء الرّسول الكريم له.

* والآن، لنستمعْ إلى «عبدِ الله بن عَبّاس» رضيَ الله عنْهما يزفُّ إلينا بشارةَ عُكَّاشةَ بالجنَّة، فقد روى الشَّيخان عن ابنِ عبَّاس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«عُرِضَتْ عليَّ الأمم، فرأيتُ النبيَّ ومعه الرُّهَيْط، والنبيُّ معه الرجلُ والرجلان، والنبيُّ ليسَ معه أَحَدٌ، إذ رُفعَ لي سوادٌ عظيمٌ، فظَنَنْتُ أنَّهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى وقومه، ولكن انظر إلى الأفقِ فنظرتُ فإذا سوادٌ عظيم، فقيل لي: انظر إلى الأفق الآخر، فإذا سواد عظيم فقيل لي: هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلونَ الجنّةَ بغيرِ حساب ولا عذاب». ثم نهضَ ﷺ فدخلَ منزلَه، فخاضَ النَّاسُ في أولئِكَ الذينَ يدخلونَ الجنَّةَ بلا حِسَاب ولا عَذَاب، فقالَ بعضُهُم: فلعلَّهُم الذينَ صَحِبوا رسولَ الله ﷺ؛ وقال بعضهم: فلعلَّهُم الذينَ ولدوا في الإسلام فلمْ يُشركوا بالله، وذكَروا أشْياءَ؛ فخرجَ عليهم رسولُ الله ﷺ فقال: «ما الذي تخوضون فيه»؟ فأخبروه فقال: «هم الذين لا يَرْقُون ولا يسترقون[1] ولا يتطيرون[2] وعلى ربهم يتوكلون» فقام عُكّاشةُ بنُ محصَن فقال: ادعُ الله أَنْ يجعلَني منهم فقال: «أَنْتَ مِنْهُم» ثم قام رجل آخر فقال: ادع الله أَنْ يجعلَني منهم فقال: «سبقَكَ بها عُكَّاشةُ»[3].

* وهكذا فقد نالَ سيدُنا عكّاشةُ الجنَّةَ بدعاءِ رسولِ الله ﷺ، وكانَ عكّاشةُ رضي الله عنه لقوةِ يقينِه بالله عزَّ وجلَّ، وحبِّه لرسولِ الله ﷺ، وشدةِ حرصِه على الخيرِ ورغبته فيما عند الله تعالى سبَقَ الصحابة كلَّهم، فطلبَ الدعاءَ مِنَ

---

(١) لا يسترقون: لا يتعاطون الرقية.

(٢) لا يتطيرون: لا يتشاءمون.

(٣) انظر شرح النووي لصحيح مسلم (٣/ ٩٣)، وانظر مجمع الزوائد (٩/ ٣٠٤).

الرّسولِ الكريم عليه الصلاة والسلام؛ وقد عَرفَ رسولُ الله ﷺ صِدْقَ طلب عكاشة والرسولُ خبيرٌ بعكاشةَ وإخلاصِهِ وصفاتِه الجميلةِ التي وَصَفَ بها سبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة، فحاز السبقَ ونالَ الفلاحَ بدعوةِ الرسولِ الكريمِ عليه الصَّلاة والسَّلام ولما كان عنده مِنَ الأحوال الشريفة النقية ظاهراً وباطناً.

* شملتْ بركةُ الدّعاءِ مِنْ رسول الله ﷺ عكَّاشةَ وآلَ عكَّاشة، فقد روي أنَّ «أمَّ قيس بنت محصن»[١] أختَ سيدِنا عكاشةَ قد فازتْ أيضاً بدعاءٍ طيب مبارك مِنَ الرسولِ الكريم عليه الصلاة والسلام، يقول الإمام النووي رحمه الله:

«ودعا[٢] لأمِّ قيس بنت محصَن أختِ عكَّاشةَ بطولِ العمرِ فلا نعلمُ امرأةً عمرتْ ما عُمرتْ»[٣].

والحقيقةُ، فقد كانت أسرةُ عكاشةَ أسرة خير كلِّها، فأخوه «أبو سنان ابن محصن»، وابنُه «سنان بن أبي سنان بن محصن» وأخوه «عمرو بن محصن» وأختُه «أم قيس بنت محصن» كانوا جميعاً مِنْ أوائلِ المسلمينَ الذين آمنوا باللهِ ورسولِه، وتحمّلوا الأذى في سبيلِ الدّعوةِ وفي سبيلِ الله، وكذلك كانت أمُّ عكّاشة مِنَ المسلماتِ العظيماتِ في تاريخِ الإسلام المضيء.

* فاز سيدُنا «عكّاشةُ بن محصَن» بعددٍ مِنَ الأوسمة الرفيعةِ مِنْ رسولِ الله ﷺ، فقد وصفَهُ بقوله:

---

(١) هي أم قيس بنت محصَن بن حُرثان الأسدية رضيَ الله عنها، أخوها عكّاشة بن مِحصَن الأسدي رضوان الله عليه، أسلمت قديماً بمكة، وبايعتْ النّبي ﷺ وهاجرت إلى المدينة. روى عنها جماعة من الصحابة منهم: وابصة بن معبد وعبيد الله ابن عبد الله وغيرهم.

(٢) أي: الرسول الله ﷺ.

(٣) انظر تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٣٦) والحديث رواه النسائي في أبواب غسل الميت.

«منّا خيرُ فارسٍ في العرب»، فأَعْظِمْ بها مِنَ شهادة، ناهيكَ بقوله عليه الصَّلاة والسَّلامُ مخاطباً «ضرارَ بن الأزور»: «ليس منكم ولكنه منّا للحلف» وكانَ النبيُّ ﷺ يكرمُ عكّاشةَ لأنَّه مِنْ أهلِ بدرٍ، ويكرم كلَّ البدريينَ ويقدمُهم على غيرهم؛ فقد رُوي أنَّ جماعة مِنْ أهل بَدْر جاءتِ النبيَّ ﷺ وهو جالسٌ في صُفَّة ضيقة ومعه جماعة مِن أصحابه، فوقفوا بعد أَنْ سلَّموا ليفسحَ لهمُ القومُ فلم يفعلوا فشقَّ قيامُهم على النبيِّ ﷺ فقال لمَنْ لمْ يكُنْ مِنْ أَهْلِ بدر مِنَ الجالسينَ: قم يا فلان، قم يا فلان بعددِ الواقفين، فعرف رسولُ الله ﷺ الكراهةَ في وجهِ مَنْ أقامَه فقال:

«رحم الله رجلاً يفسح لأخيه» فنزل قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ ﴾[١].

فجعلوا يقومون لهم بعد ذلك يُجلسونهم مكانهم[٢].

* نعم فهذه مكانة أهلِ بدر، وهذا هو سيدنا «عكّاشة بن محصن» وهو مِنَ الذين وصفهم النبيُّ ﷺ بأنَّهم يدخلونَ الجنَّةَ مِن غيرِ حساب، لأنَّه استقرَّ في نفوسهم معنى التوكّل، فعملوا بِهِ وحَسُنَ ظنُّهم بالله، وعملوا أيضاً للجنَّةِ التي عرَّفَها لهم ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[٣] فنالوها بفضل الله تعالى لأنهم يعلمون أيضاً أنَّ الرسولَ ﷺ قال: «حُسْنُ الظَّنِ باللهِ مِنْ حُسْنِ العِبادَةِ».

* * *

وبعد؛ فهذا هو سيدنا «عكّاشة بن محصن» الشّهيد السّعيد، فقد وصفه

(١) سورة المجادلة آية (١١).
(٢) انظر السيرة الحلبية (٢/ ٤٧٠).
(٣) سورة السجدة آية (١٧).

الصَّحابةُ بأَنَّـهُ «كانَ منْ أَجْمل الرِّجال»[1] وقد اتَّحدَ جمالُ شكلِه مع جمالِ نفسِه، فكان مِنْ خيْرِ الرِّجال، واستحقَّ بنقائِهِ البشارةَ العظيمةَ بالجنَّةِ.

والآن ماذا بقي لدى سيدنا «عكّاشة بن محصَن» بعد ذلك كله؟.

* لم يكن سيدُنا عكّاشةُ فارساً مِنَ الصّنفِ الممتازِ فحسب، بل كان راوياً لأحاديثِ حبيبِه المصطفى ﷺ، وروى عنه أبو هريرة وابن عباس وغيرهما[2].

* وفي سجل الشُّهداء يسطع اسمُ سيدِنا «عكّاشةَ بنِ محصن» مع الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، وباع نفسه ابتغاء مرضاة الله فسَعِدَ بلقاءِ الله وكان خيرَ لقاء، وانضوى تحت قوله تعالى: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾.

صدق الله العظيم

* * *

(١) انظر سير أعلام النبلاء (١/ ٣٠٧) والبداية والنهاية (٦/ ٣٣٩).
(٢) انظر تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٣٣٨) وسير أعلام النبلاء (١/ ٣٠٨).



سيدنا

أبو سفيان بن الحارث ابن عبد المطلب

رضي الله عنه

* شبيه رسول الله ﷺ وتربُـه .
* أسد الله وأسد الرسول .
* «أبو سفيان خير من أهلي ، أو من خير أهلي» .
* «أرجو أن يكون خلفاً من حمزة» .
* «أبو سفيان بن الحارث سيِّد فتيان أهل الجنة» .

مقدمـــة:

* كانَ مِن عادةِ الأشرافِ والموسرِينَ مِن أهلِ مكةَ، أَنْ يرسلوا أطفالَهم إلى البادية، يقضونَ فيها مدّةَ الرَّضاعِ في حضانةِ المراضعِ مِن نساءِ البدو، بعيدينَ عن جوِّ المدينةِ الصاخبِ وهوائِها الثقيل، إذ كانوا يعتقدونَ أن جوَّ الباديةِ وهواءَها أصحُّ وأنقى وأحسنُ أثراً في نموِّ الأطفال، وأنجبُ وأفصحُ لهم، وكان بعضُهم يرى أنَّه عارٌ على المرأةِ أَنْ ترضعَ ولدَها.

* وكانتِ المراضعُ اللواتي يأتينَ مِنَ الباديةِ إلى مكةِ مِنْ حين إلى حين، يلْتَمِسْنَ الرُّضَّعَ مِن أولادِ السَّادة، وكانتِ الأمهاتُ مِن نساءِ الأشراف يدفعنَ أولادَهنَّ إلى المراضعِ من نساءِ البدو، مقابلَ أجْرٍ يأخذونَه منْ أُمَّهاتِ الأطفال.

* ولما وُلِدَ للحارثَ بنِ عبدِ المطلبِ بنِ هاشم ابنُه «المغيرةُ» والذي عُرف فيما بعدُ باسم «أبو سفيانَ بنُ الحارثِ بنِ عبد المطلب» من زوجِه «غُزَيَّةَ بنتِ قيسِ بنِ طريف» دفع به إلى «حليمةَ بنتِ الحارث» التي جاءتْ مِنْ باديةِ بني سعد تبحثُ عنْ طفلٍ رضيعٍ تأخذُ على رضَاعِتهِ أجراً، فأخذتْه وانطلقتْ به إلى البادية، حيث بقيَ عندها حيناً مِنَ الدَّهر، ثم عادتْ به إلى أحضانِ أبويه، وراحتْ تبحثُ عن رضيعٍ آخر، فلم تحصلْ إلاّ على طفلٍ يتيمِ الأب، ولم يكنْ هذا الطفلُ سوى «محمد بن عبد الله بن عبد المطلب» ﷺ وكان ابنَ عمِّ رضيعِها السابق «أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب» فكانَ أبو سفيانَ أخاً لابنِ عمِّه محمد بن عبد الله مِنَ الرَّضاعةِ، إذ أرضعَتْهما حليمةُ بنتُ الحارثِ السعدية[1].

* نشأ أبو سفيانَ بنُ الحارث في مكة، ونشأ كذلك ابنُ عمِّه محمد بن

(١) طبقات ابن سعد (٤/ ٥٠)، وانظر سير أعلام النبلاء (١/ ٢٠٣) وانظر أيضاً تاريخ الإسلام للذهبي ص ٢١٨.

عبد الله، وكانَ أبو سفيان يتألّفُ محمداً ويحبُّه وكان تِرْباً مِنْ أترابِه، فقد وُلِدَا في زمنٍ متقارب، ونشأ كِلاهُما في بيئةٍ متشابهة.

* ولما شبَّ أبو سفيانَ بنُ الحارثِ عَنِ الطَّوْقِ غدا صديقاً حميماً لابنِ عمِّه محمدِ بنِ عبد الله، وتوثّقتْ بينهما عُرى الأُلفة والمحبة، فقد كان أبو سفيانَ مِن أشدِّ الناسِ شبهاً بالرسولِ عليه الصلاة والسلام؛ وكان خمسةُ رجالٍ يشبهونَ النبيَّ الكريم ﷺ وكلُّهم مِن قريش، وعلى وجهِ التحديدِ مِن بني عبدِ مَناف، أحدِ أجدادِ الرسولِ ﷺ، ولندعْ صاحبَ كتابِ الاستيعابِ يتحفُنا بأسماءِ أولاءِ الرجالِ، يقولُ:

«إن الذينَ كانوا يُشَبَّهون برسولِ الله ﷺ:
- جعفرُ بنُ أبي طالب،
- والحسنُ بنُ عليّ بن أبي طالب،
- وقُثَم بنُ العباسِ بن عبد المطلب،
- وأبو سفيانَ بنُ الحارثِ بن عبدِ المطلب،
- والسائبُ بنُ عبيد بنِ عبد يزيدَ بنِ هاشمِ بنِ عبدِ المطلبِ بن عبدِ مناف»[1].

وقد جمعَ الشاعرُ الذينَ يُشبِهونَ النّبيَّ ﷺ بقوله:

بخَمْسةٍ شُبِّهَ المختارُ مَنْ مُضَرٍ ... يا حُسْنَ ما خولوا منْ شبههِ الحَسَنِ
بجعفرٍ وابنِ عمِّ المصطفى قُثَمٍ ... وسائبٍ وأبي سفيانَ[2] والحَسَنِ[3]

* والآن، آنَ لنا أَنْ نتعرفَ حياةَ أبي سفيانَ بن الحارث، فتعال نتصفحْ معاً سِيرتَه التي تعطينا العبرةَ والقدوةَ معاً.

* * *

مواقفُ ومفاجآت:

* عرفتْ سهولُ مكةَ ووديانُها، أنَّ أبا سفيانَ بن الحارثِ فتىً مِنْ أجملِ

---

(١) الاستيعاب (٤/ ٨٣ - ٨٤) وانظر عيون الأثر لابن سيد الناس (٢/ ٣٧٦ - ٣٧٧).
(٢) أي: أبو سفيان بن الحارث.
(٣) انظر فتح الباري لابن حجر (٧/ ٩٧).

فتيانِها، وفارساً مِنْ أقوى أبطالها، وزِدْ على ذلك أنّه حازَ الفصاحةَ فكانَ شاعراً مِنْ فطاحِلِ الشّعراء[1] الذين عُرفوا بالبلاغةِ وبِشدَّةِ المراسِ والبأسِ، وقد شهدَ له ابنُ سلاّم الجمحيّ في كتابه «طبقات فحول الشعراء»[2] بأنَّه شاعرٌ عندما تحدّثَ عن شعراءِ القُرى العربيةِ فقال:

«وأبو سفيانَ بنُ الحارثِ شاعرٌ».

وقال عنه ابن سيِّد النّاس في «عيون الأثر»: «كان أبو سفيانَ بنُ الحارثِ فارساً مشهوراً وشاعراً مطبوعاً»[3] ومن شعره قوله في الفخر:

لقد علمتْ قريشٌ غيرَ فَخْرٍ ... بأنّا نحنُ أَجْوَدُهم حصانا
وأكثرُهم دُروعاً سابغاتٍ ... وأَمْضاهم إذا طعنوا سِنانا
وأدفعُهم لدى الضّراء عنهم ... وأَبْيَنُهم إذا نطقوا لِسَانا

* أمّا «محمّدُ بنُ عبدِ اللهِ» فقد كانَ مثلاً عالياً بين أهلِ مكةَ، ترنو إليه عيونُهم، وتهفو إليه قلوبُهم، فاستقرّتْ محبتُه بنفوسِهم، وقد عُرِفَ بينَ شبابِ مكةَ بالرّزانةِ والجدِّ والاستقامة، وعُرِفَ بينَ الرّجالِ بالحزمِ، وعُلوِّ الهمَّة، وسدادِ الرأيِ، واشتهرَ بالأمانةِ، وقد وقعَ منهم جميعاً موقعَ الإكبار والإعجاب، وكان أبو سفيانَ بنُ الحارثِ مِنْ بين المعجبين بابنِ عمِّه محمد ﷺ.

* * *

* وبُعِثَ رسولُ الله ﷺ ثم أُوحي إليه أَنْ يُنْذِرَ عشيرتَه الأقربين، وأُنزِلَ عليه في ذلك قولُه سبحانه:

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[4].

---

(١) انظر الاستيعاب (٤/ ٨٤ ـ ٨٥) فقد أورد له ابن عبد البر بعض أشعاره.
(٢) طبقات فحول الشعراء ص ٩٢.
(٣) عيون الأثر (٢/ ٣٧٦).
(٤) سورة الشعراء آية (٢١٤ ـ ٢١٥ ـ ٢١٦).

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: لما نزلت الآية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ صَعِدَ النّبيُّ ﷺ على الصَّفا فجعلَ ينادي:

«يا بني فهرْ، يا بني عديّ، . . .» حتى اجتمعوا فجعلَ الذي لم يستطعْ أَنْ يخرجَ يرسلُ رسولاً لينظرَ ما هو، فجاءَ أبو لهبٍ وقريش، فقال النّبيُّ ﷺ:

«أرأيتُم لو أخبرتُكم أنَّ خيلاً بالوادي تريدُ أَنْ تغيرَ عليكم أكنتم مُصدِّقيَّ»؟.

قالوا: ما جرّبْنا عليكَ كذباً.

قال: «فإنّي نذيرٌ لكم بين يديْ عذابٍ شديد».

فقالَ أبو لهب: تبّاً لكَ سائرَ اليوم، ألهذا جمعتنا؟!.

فنزلَ قولُه تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ..﴾[1].

* وما كادَ رسولُ الله ﷺ يُظهِرُ دعوتَه وينذرُ أقرباءَه وعشيرتَه، حتى وقع مِنْ أبي سفيانَ بنِ الحارثِ ما لم يكن في الحسبان، فلقد حسبَ الجميعُ أَنَّ أبا سفيانَ سيكونُ أسبقَ الناسِ والأقرباء إلى الإيمان بالله وتلبيةِ دعوةِ الرسولِ عليه الصلاة والسلامُ، ولكنْ «تجري الرياحُ بما لا تشتهي السفنُ»، ووقفَ أبو سفيانَ معانداً لدعوةِ الإسلام، وانضمَّ إلى صفوفِ قريشٍ يحاربُ رسولَ الله ويناوِئُه، واندفعَ في عداوتِه اندفاعاً شديداً، فتلاشتِ الصّداقةُ، واستحالتْ إلى عداوةٍ وكراهية، واستحالتِ القرابةُ إلى قطيعةٍ وإعْراض، واستخدمَ لسانَه وسِنانَه للصّدِّ عن سبيلِ الله، ولكنَّ الله مُتِمُّ نورِه ولو كرِهَ المشركون.

* انتشرَ الإسلامُ في مكةَ، ودخل النّاسُ فيه أرسالاً[2] مِنَ الرّجالِ والنساء، واستمرّتِ الدّعوةُ إلى الإسلام إلى أَنْ بايعَ الأنصارُ الرسولَ ﷺ، وهاجرَ إلى المدينةِ المنوّرة، واستقرّ المسلمونَ فيها، حدثَ هذا كلُّه،

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم. وانظر تفسير ابن كثير للآية (٢١٤) من سورة الشعراء.

(٢) أرسال: جمع رَسَل وتعني جماعات.

وأبو سفيانَ بنُ الحارثَ ما يزالُ يسخِّرُ طاقاتِه جميعِها لحربِ الإسلامِ والمسلمين، ولما خاضتْ قريشٌ معركةَ بَدْر كان أبو سفيانَ بنُ الحارث في الصفوف الأولى مُشْهِراً سيفَه ولم يكتفِ بهذا فحسب، بل راحَ يرسلُ أشعاراً في هجاءِ الرسولِ ﷺ وأصحابه[١]، ومكثَ في عداوتِه زمناً طويلاً يعاندُ رسولَ الله، وقد رُوي أنّه لم يتخلفْ عن موضعٍ تسيرُ فيه قريشٌ لِقتالِ رسولِ الله ﷺ فما من قتال إلا وكانَ في المقدمةِ يحاربُ بسلاحَيْنِ سيفِه ولسانِه، بل لم يتركْ نوعاً منْ أنواعِ الأذى للمسلمين إلا أَدلى فيه دَلْوَهُ ونالَ منهم، وقد تعرّضَ أبو سفيان بنُ الحارث لحسّانِ بنِ ثابتٍ شاعرِ الرسولِ وهجاه فقال:

أَبوكَ أبو سَوءٍ وخالُك مثلُه ... فلستَ بخيرٍ منْ أَبيكَ وخالِكا
وإِنَّ أَحقَّ النّاسِ أَلاَّ تلومَه ... على اللؤمِ منْ ألفى أباهُ كذلِكا[٢]

فقال المسلمون لحسّان: اهْجُه.

قال: لا أفعلُ حتى أستأذنَ رسولَ الله ﷺ، فسأل رسولَ الله فقال:

«كيف آذَنُ لكَ في ابن عمي أخي أبي»؟.

قال: أسلُّكَ منه كما تُسَلُّ الشَّعرةُ مِنَ العجين.

فقال حسان شعراً وأمرَه رسولُ الله ﷺ أنْ يُذاكرَ أبا بكر الصِّديق بعضَ ذلك فذاكرَهُ، ومكثَ أبو سفيانَ بنُ الحارثِ عشرين سنةً عدواً لرسولِ الله ﷺ يهجو المسلمين ويهجونه[٣].

وقد روي أَنَّ حسانَ بنَ ثابتٍ قد ردَّ عليه وكان له بالمرصادِ دائماً، ومما قال فيه:

ألا أبلْغ أبا سفيانَ عني ... مغلغلةً فقد برحَ الخفَاءُ

---

(١) انظر السيرة الحلبية (١/ ١٣٩). ومما هو جدير بالذكر أن إخوته الثلاثة قد سبقوه إلى الإسلام وهم: نوفل، وربيعة، والحارث.

(٢) انظر طبقات فحول الشعراء (١/ ٢٥٠) تحقيق محمود محمد شاكر.

(٣) انظر مغازي الواقدي (٢/ ٨٠٦ ـ ٨٠٧).

هجوتَ محمداً فأجبتُ عنه وعند الله في ذاك الجزاءُ
أتهجوهُ ولستَ له بِكُفْءٍ فشرُّكما لخيرِكما الفداءُ. . .[1]

وذُكِرَ أنَّ مشركي قريش لمّا سمعوا هجاءَ حسّانَ بنِ ثابتٍ رضي الله عنه قالوا:

«إنَّ هذا الشِّعرَ ما غابَ عنه ابنُ أبي قُحافة»[2].

* ولما وقعتْ غزوةُ بدرٍ كانَ أبو سفيانَ بنُ الحارثِ في طليعةِ جيشِ قريشٍ ليحاربَ المسلمينَ، ورأى بأمِّ عَيْنِه ما حيَّرَهُ في تلك المعركةِ، فقد نصرَ الله المؤمنينَ فيها نصراً حاسماً، وقد شُدِهُ العربُ قاطبةً لهذا النّصرِ العظيم، حتى إن أهلَ مكةَ أنفسَهم استنكروا خبرَ هزيمةِ قريشٍ باديءَ الأمر، ولما استبانَ صدقُه وظهرتْ حقيقةُ الأمرِ جليةً، صُعِقَ نفرٌ منهم فهلَكَ لِتَوِّه، وماجَ بعضُهم في بعضٍ مِن هولِ المصاب لا يَدري ما يفعلُ، وضاقتْ عليه الأرضُ بما رَحُبَتْ، وبعضُهم الآخرُ استبعدَ الهزيمةَ إلى أنْ رأَوْا أَسْرَاهم مقرنينَ في الأصفاد، وجاءهم مَنْ يخبرُهم أَنْ أسرعوا بالفداء، فقد أُسِرَتْ رجالاتُ قريش، وكاد المسلمونَ أنْ يقتلوهم.

* كان «أبو لهب» مِمّن استبعدَ هزيمةَ قريشٍ في بدر، ففي تلك الغزوةِ تخلّفَ أبو لهبٍ وبعثَ مكانَه «العاص بنَ هشامِ بنَ المغيرة»[3] مقابل أربعة آلافِ درهم، ولكن «العاص بنَ هشام» لم يَعُدْ مِنْ تلكَ الغزوةِ فقد لقيَ حتفَه فيها بيَدِ المسلمين، وانتظر أبو لهبٍ أخبارَ المعركة، وتتواردُ الأنباءُ بما لا يسرُّهُ، ويستبعدُ كلَّ خبرٍ عنِ الهزيمةِ يَرِدُه مِنَ الناس، وبينما هو جالسٌ إذ قالَ النَّاسُ:

---

(١) انظر البداية والنهاية (٧/ ١٠٣). والاستيعاب (٤/ ٨٤) وسير أعلام النبلاء (١/ ٢٠٣).

(٢) ابن أبي قحافة: أي سيدنا أبو بكر الصديق، وانظر السيرة الحلبية (٢/ ٦٢٠)، وانظر كذلك ديوان حسان بن ثابت طبعة دار المعارف في مواطن متفرقة.

(٣) انظر سيرة ابن هشام (١/ ٦١٠).

«هذا أبو سفيانَ بنُ الحارثِ بنِ عبد المطلب قَدِمَ، وكان معَ قريشٍ في بدر، فقال أبو لهب: هلمَّ إليَّ فعندكَ لَعمري الخبرُ، فجلسَ إليه والنَّاسُ قيامٌ عليه، فقالَ: يابن أخي، أخبرْني كيف كان أَمْرُ الناس؟ قال أبو سفيانَ ابنُ الحارث:

والله ما هو إلا أنْ لَقِينا القومَ فمنحناهم أكتافَنا يقودوننا كيف شاؤوا، ويأسِروننا كيف شاؤوا، وايمُ الله معَ ذلكَ ما لُمْتُ النّاسَ، لَقِينا رجالاً بِيْضاً على خيلٍ بُـلْقٍ بينَ السَّماءِ والأرضِ والله ما تُليقُ[1] شيئاً، ولا يقومُ لها شيءٌ»[2].

* كان أبو سفيانَ بنُ الحارث يتحدّثُ عن سطوةِ المسلمين في المعركةِ وأنَّ الله قد أَمدَّهم بالملائكةِ مِن عندِه، يُقاتلون معهم ويَضربونَ في وجوهِ المشركين، ولما سمعَ أبو لهبٍ هذا الخبرَ كَبَتَه[3] الله وأخزاه، ولم تمضِ بضعةُ أيامٍ حتى هلكَ وماتَ غمّاً.

* وتمضي الأيام، وأبو سفيانَ بنُ الحارث يسيرُ في طريق العِنادِ والخلافِ، وإذا فاتَتْه معركةٌ ضِدَّ المسلمينَ لمْ يشارِكْ فيها بسيفِه كانَ لسانُه بالمرصاد، ففي غزوة بني النّضير لما أَجْلاهم رسولُ الله ﷺ عنِ المدينة، يرسلُ أبو سفيانَ بنُ الحارثِ أشعارَه في هجاءِ المسلمينَ، ويردُّ على شاعرِ الرسولِ ﷺ حسّانِ بنِ ثابتٍ الذي وبّخ كفارَ قريشٍ عندما خذلوا أصحابَهم من بني النّضير، وذلك أَنَّ قريشاً كانوا يُظاهرونَ كلَّ مَنْ عادَى النبيَّ ﷺ ويَعِدونهم النَّصرَ والمساعدةَ مهما بَعُدَتِ المسافةُ ومهما كان الثَّمن[4]، ولكنَّ بذورَ الحقيقةِ بدأتْ تنبتُ في قلبِه وتشعُّ في نفسِه، بَيْدَ أَنَّ بعضَ الغيومَ ما زالتْ

---

(١) تليق: تبقي.

(٢) انظر البداية والنهاية (٣/ ٣٠٩) وعيون الأثر (١/ ٣٢٠) والسيرة الحلبية (٢/ ٤٤٤).

(٣) كبته: أذلّه.

(٤) انظر فتح الباري (٧/ ٣٣٠) وما بعدها. والبداية والنهاية (٤/ ٧٧). وانظر الهجاء المتبادل بين حسان بن ثابت وأبي سفيان بن الحارث في ديوان حسان بن ثابت طبعة دارالمعارف في مواضع كثيرة.

تسيطرُ عليه، على الرغم مِنْ أنَّ الذي يراه يقول عنه: إنّه يشبه محمداً ﷺ، وقد وَرَدَ ذلك في شِعرِه إذ يقول:

أَفِـرُّ وأنـأى جـاهـداً عَـنْ محمـدٍ وأُدْعـى وإنْ لـم أنتسـبْ بمحمـدِ

بدأتْ تلك الغيومُ تنقشعُ عَنْ نفسِ أبي سفيانَ شيئاً فشيئاً، وبدأتِ الصُّورة الباهتةُ تظهرُ جَليّةً أمامَه، فهذا موقفٌ قد حرَّكَ في نفسِه الخيرَ، فقد رُوي أنَّه هربَ وقدم على قيصر ملكِ الروم، فقال: ممّن أنت؟.

فانتسب له: أبو سفيانَ بنُ الحارث بنِ عبد المطلب.

قال قيصر: أنت ابنُ عمِّ محمدٍ إنْ كنت صادقاً، «محمدُ بنُ عبدِ الله ابنِ عبدِ المطلب»؟ قال: نعم، أنا ابنُ عَمِّه.

استفاقَتْ نفسُ أبي سفيانَ بنِ الحارث مِنْ سُباتِها الطويل، وبدأتْ أنوارُ الحقيقةِ تتراءى أمامه.

يقولُ أبو سفيان متحدثاً عن نفسه:

«لا أراني عند ملكِ الرُّومِ وقد هربتُ مِنَ الإسلامِ لا أُعْرفُ إلا بمحمد، فدخلني الإسلامُ وعرفتُ أنَّ ما كنتُ فيه باطلٌ مِنَ الشركِ»[1].

* وهكذا ظلَّ أبو سفيانَ بنُ الحارثِ أسيرَ نفسِه وأسيرَ الشيطان، تتقاذفُه الأهواءُ ذاتَ اليمين وذاتَ الشمال، إلى قُبيلِ فتحِ مكةَ بقليل، حيث ألقى الله في قلبه الإسلامَ، وتخلّصَ مِنْ قيودِ الجاهلية، ومِنْ همزاتِ الشّياطين، وآنَ له أَنْ يخشعَ قلبُه لذكرِ الله وما نزلَ مِنَ الحقِّ....

* * *

إسـلامـه ومشـاهـده:

* قضى أبو سفيانَ بنُ الحارثِ عشرين عاماً مِن حياتِه وهو في صراعٍ دائمٍ معَ الإسلامِ والمسلمين، عشرينَ عاماً ظلَّ الناطق باسم قريش ضدَّ المسلمين، إنْ كَلَّ سيفُه لا يكلُّ لسانُـه.

---

(١) انظر المغازي (٢/ ٨١٢).

ولكنْ . . . . ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾[١].

تعالَ إذن نتعرف إسلامَ أبي سفيانَ بنِ الحارث، فإنَّ لذلك قصةً شائقةً تهذِّبُ النُّفوس.

ولندعْ أبا سفيانَ نفسَه يحدثُنا عن إسلامه، فما أحلى وما أجملَ أنْ يتحدثَ المرءُ عَنْ نفسِهِ ويترجمَ عن خواطِره وعواطِفه، ويزيحَ السّتار عن باطنه لتظهرَ الحقيقةُ وضّاءةً واضحةً.

يحدثنا أبو سفيانَ بنُ الحارثِ بعد أنْ شاعتِ الأخبارُ بتَوَجُّهِ الرَّسول ﷺ إلى مكة لِيفتحَها، وكانتِ الأرضُ قد ضاقت عليه بما رَحُبَتْ لِما أصابه قال:

«مَنْ أصحبُ ومع من أكون، قد ضرب الإسلام بِجِرانه[٢]، فجئتُ زوجتي وولدي فقلتُ: تهيَّؤوا للخروجِ فقد أظلَّ قدومُ محمّدٍ عليكم. قالوا: قد آنَ لكَ أن تُبصرَ أنَّ العربَ والعجمَ قد تبعتْ محمداً وأنتَ مُوضِعٌ في عداوتِه، وكنتَ أَوْلَى النَّاس بنصرهِ.

فقلتُ لغلامي مذكور: عَجِّلْ بأَبعرةٍ وفرسٍ».

ويتابعُ أبو سفيانَ بنُ الحارث حديثَه فيقولُ:

«ثم سِرْنا حتى نزلْنا الأبواء[٣]، وقد نزلتْ مقدمتُه[٤] الأبواءَ، فتنكَّرْتُ وخفتُ أَنْ أُقْتَل، وكان قد هدَرَ دمي، فخرجتُ وأجدُ ابني جعفر على قدمي نحواً مِنْ ميل في الغداة التي صبَّح رسولُ الله ﷺ فيها الأبواء، فأقبل النَّاسُ رَسَلاً رَسَلاً[٥]، فتنحَّيْتُ فَرَقاً[٦] مِنْ أصحابِه، فلمّا طلعَ مركبُه تصدَّيت له تِلقاءَ وجهِه، فلمّا ملأ عينيه مني أعرضَ عني بوجهِه إلى النّاحيةِ الأخرى،

(١) سورة الأنعام آية (١٢٥).

(٢) أي: قرّ قراره واستقام.

(٣) الأبواء: مكان بين مكة والمدينة.

(٤) أي: مقدمة وطلائع جيش الرسول ﷺ.

(٥) أي: فِرقاً فِرقاً.

(٦) فرقاً: خوفاً.

فتحوّلْتُ إلى ناحيةِ وجهه الأخرى، وأعرضَ عني مراراً، فأخذني ما قَرُبَ وما بَعُد وقلتُ:

أنا مقتولٌ قبل أَنْ أصِلَ إليه، وأتذكّرُ بِرَّه ورحمتَه وقرابتي فيمسكُ ذلك مني، وقد كنتُ لا أشكُ أنَّ رسول الله ﷺ وأصحابَه سيفرحون بإسلامي فرحاً شديداً لقرابتي مِنْ رسول الله ﷺ فلما رأى المسلمون إعراضَ رسول الله ﷺ عني أعرضوا عني جميعاً، فلقيني ابن أبي قحافة[1] معرضاً ونظرتُ إلى عمر[2] يغري بي رجلاً من الأنصار، فألَزَّ[3] بي رجلٌ يقول: يا عدوَّ الله، أنتَ الذي كنتَ تؤذي رسولَ الله ﷺ وتؤذي أصحابَه، قد بلغتَ مشارقَ الأرض ومغاربهَا في عداوِته! فرددتُ بعض الرّدِ عن نفسي، فاستطالَ عليَّ، ورفعَ صوتَه حتى جعلني في مثل الحَرَجةَ[4] مِنَ النّاسِ، يُسَرّون بما يُفعلُ بي.

قال: فدخلتُ على عمي العبَّاس فقلتُ:

يا عباسُ؛ قد كنتُ أرجو أَنْ سيفرحَ رسولُ الله بإسلامي لقرابتي وشرفي، وقد كان منه ما كانَ رأيتَ، فكلِّمهُ ليرضى عني.

قال العباس: لا والله لا أكلِّمُه كلمةً فيك أبداً بعد الذي رأيتُ منه إلا أَنْ أرى وجهاً، إني أُجِلُّ رسولَ الله ﷺ وأهابُه.

فقلتُ: يا عمِّي إلى مَنْ تكلُني؟.

قال: هو ذاك.

قال أبو سفيانَ بنُ الحارث: فلقيتُ علياً رحمة الله عليه فكلَّمته فقالَ لي مثلَ ذلك.

فرجعتُ إلى العّباسِ فقلتُ: يا عم، فكُفَّ عني الرَّجلَ الذي يشتُمُني.

---

(١) أي: سيدنا أبو بكرالصديق رضي الله عنه وأرضاه.

(٢) أي: سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٣) ألَزَّ به: أي لصق به.

(٤) الحرجة: الشجر الملتف ويريد أنه اضطرب كثيراً.

قال: صِفْه لي.

فقلت: هو رجلٌ آدمُ[1] شديدُ الأَدمة، قصيرٌ دحداح[2] بين عينيه شجّة.

قال العباس: ذاك «نعمان بن الحارث النّجاري».

فأرسل إليه فقال: يا نعمان إنَّ أبا سفيان ابنُ عمّ رسول الله ﷺ وابنُ أخي، وإن يكن رسولُ الله ﷺ ساخطاً فسيرضى، فكُفَّ عنه. فبعد لأْي[3] ما كَفَّ وقال: لا أعرضُ له.

قال أبو سفيانَ بنُ الحارث: فخرجتُ فجلستُ على بابِ منزلِ رسول الله ﷺ، حتى خرج إلى الجحفة وهو لا يكلمني ولا أحد من المسلمين، وجعلتُ لا ينزلُ منزلاً إلا أنا على بابه ومعي ابني جعفر قائمٌ فلا يراني إلا أعرض عني، فخرجتْ على هذه الحال حتى شهدتُ معه فتح مكة، وأنا على حيلةٍ تلازمُه حتى هبط مِن أذاخر[4] حتى نزلَ الأبطح[5] فدنوتُ مِنَ باب قُبَّتِه، فنظر إليَّ نظراً هو أَلْيَنُ من ذلك النظرِ الأول قد رجوت أنْ يبتسمَ، ودخل عليه نساءُ بني عبد المطلب، ودخلتْ معهن زوجتي[6] فرقَّقَتْهُ عليَّ. وخرجَ إلى المسجدِ وأنا بين يَدَيْهِ لا أفارقُه على حالٍ حتى خرج إلى هوازنَ، خرجتُ معه، وقد جمعتِ العربُ جمعاً لم يُجْمَعْ مثلُه قط، وخرجوا بالنِّساء والذّرية والماشية، فلمّا لقيتُهم قلتُ: اليومَ يُرى أَثري إنْ شاء الله.

ولما لقيتُهم حملوا الحملةَ التي ذكرَ الله ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾[7] وثبَتَ

---

(١) آدم: أي أسمر.

(٢) دحداح: قصير.

(٣) لأي: جهد.

(٤) ثنية بين مكة والمدينة.

(٥) الأبطح: وادي مكة.

(٦) زوجة أبي سفيان بن الحارث هي: جمانة بنت أبي طالب بن عبد المطلب ولدها جعفر بن أبي سفيان بن الحارث. وكانت جمانة ابنة عم رسول الله ﷺ.

(٧) سورة التوبة آية (٢٥).

رسولُ الله ﷺ على بغلتِه الشهباء وجرّد سيفه، فأَقْتَحِمُ عن فرسي وبيدي السيفُ صلتاً قد كسرتُ جَفْنَه والله أعلم أنّي أريدُ الموتَ دونهَ وهو ينظرُ إليَّ، فأخذ العبّاسُ بنَّ عبد المطلب بلجام البغلة، فأخذتُ بالجانبِ الآخر، فقال: «مَنْ هذا»؟.

فذهبتُ أكشفُ المِغْفَر، فقال العبَّاس: يا رسول الله، أخوك وابنُ عَمِّك أبو سفيانَ بنُ الحارث، فارْضَ عنه أي رسولَ الله.

قال: «قد فعلتُ، فغفَرَ الله كلَّ عداوةٍ عادانِيْها».

فأُقبِّلُ رِجْلَه في الركاب، ثم التفتَ إليَّ فقال: «أخي لعمري».

ثم أَمَرَ العباسَ فقال: نادِ يا أصحاب البقرة[1]، يا أصحاب السَّمُرة[2] يومَ الحديبية، يا للَمهاجرين يا للأنصار يا للخزرج.

فأجابوا: لبّيك داعيَ الله، وكرُّوا كَرَّةَ رجلٍ واحد، قد حطموا الجفونَ، وشرعوا الرماحَ، وخفضوا عوالي الأَسِنّة، وأرقلوا إرقالَ الفحول، فرأيتني وإنّي لأَخافُ على رسول الله ﷺ سروعَ رماحِهم حتى أحدقوا برسولِ الله ﷺ.

وقال لي رسولُ الله ﷺ: «تَقدمْ فضاربِ القوم».

فحملتُ حملةً أَزلَتْهم عن موضِعهم، وتبعني رسولُ الله ﷺ قدماً في نحورِ القومِ ما نالوا ما تقدم، فما قامتْ لهم قائمةٌ حتى طردتُهم قَدْر فرسخ وتفرّقوا في كلِّ وجه[3].

* كانت سعادةُ أبي سفيانَ بنِ الحارثِ عظيمةً حينما سمعَ الرسول الكريم ﷺ يقول له: «أخي لعمري» وازدادَ سرورُه عندما أَمَرهُ ﷺ أَنْ يتقدمَ ويقاتلَ، فاندفعَ نحوَ الأعداءِ اندفاعَ مَنْ لا يهابُ الموتَ، فقد كان همُّه أَنْ يفوزَ برضاءِ

---

(١) أي سورة البقرة.

(٢) السمُرة: هي الشجرة التي كانت عندها بيعة الرضوان عام الحديبية.

(٣) انظر المغازي (٢/ ٨٠٧ ـ ٨١٠) وطبقات ابن سعد (٤/ ٥٠

رسولِ الله عنه، وقد حصل على ما تصبو إليه نفسُه، وانطلقتْ أساريرُه فرحاً، وتحركتْ شاعرِيَّتُه فقال:

لقد علمتْ أفناءُ كعْبٍ وعامرٍ ... غداةَ حُنينٍ حين عمّ التضعضعُ
بأني أخو الهيجاء أركبُ حدَّها ... أمامَ رسول الله لا أتتعتعُ
رجاءَ ثواب الله والله واسعٌ ... إليه تعالى كلُّ أمرٍ سيرجعُ[1]

* شعر أبو سفيانَ بن الحارث أنَّ إيمانه بدأ يُثْمر منذ اللحظات الأولى، إذ أنَّه أزالَ عن نفسِه ركامَ الجاهليةِ وعفنَها، وكان لزاماً عليه أن يتفانى في خدمةِ رسولِ الله ﷺ بعد أنْ أنقذَه الله مِنْ شَرَكِ الجاهلية والكفرِ، وفتحَ بصيرتَه ودخلَ في دينِ الله.

ومضى أبو سفيانَ بنُ الحارث بعزيمة الرجال الذين صدقوا الله ورسولَه يريد أَنْ يطويَ تلك الصّفحةَ السّوداءَ مَنْ حياته ليكتبَ صفحةً جديدة من نور تغسِلُ تلكَ القائمةَ عن ماضيه في الصّدِّ عن سبيل الله، ها هي نفسُه تتوقُ إلى مثلِ هذه اللحظاتِ الحاسمةِ التي شهرَ فيها سيفَه في سبيلِ الله، ثم ما لبث أنْ شهرَ لسانَه أيضاً، وراحَ يدافعُ عن الإسلام، وله شعرٌ كثيرٌ في الإسلامِ هجاءً بالمشركين[2].

* احتل أبو سفيانَ بنُ الحارث مكانة بين الصحابة بعد أنْ حصلَ على رضاءِ رسولِ الله ﷺ، ولزمَ مجالسَ الرّسولِ ينهلُ مِنْ ينابيعِ الخير، ويسعدُ بصحبتِه، ظل ملازماً للرسول وقد حَسُن إسلامُ أبي سفيانَ بنِ الحارث وأحبَّه رسولُ الله ﷺ وكان يقول:

«أرجو أَنْ تكونَ خَلَفاً مِنْ حمزة»[3].

فكان يُقَال لأبي سفيان بعد ذلك:

---

(١) انظر طبقات ابن سعد (٤/ ٥٢).
(٢) الأعلام (٨/ ١٩٨).
(٣) انظر الاستيعاب (٤/ ٨٥).

«أسدُ الله وأسدُ الرَّسول»[1].

سعِدَ أبو سفيان بن الحارث كثيراً بهذهِ المنزلة، وسُرَّ بشهادةِ رسولِ الله ﷺ له بالشّجاعة والصّلاح، فازدادَ حبّاً للإسلام، وازدادَ حياءً مِنْ رسولِ الله لِمَا بَدَرَ منه في الماضي. ويُقال: إنه لم يرفع رأسَه إلى رسولِ الله ﷺ حياءً منه[2].

ـ روي أنَّ أبا سفيانَ بنَ الحارث أنشدَ رسول الله ﷺ قولَه في إسلامه أبياتاً جاء فيها:

لعمرُك إني يومَ أحملُ رايةً ... لتغلبَ خيلُ اللاتِ خيلَ محمدِ
لكَالمُدلجِ الحيران أظلمَ ليلهُ ... فهذا أوانُ حينَ أُهْدى فأهتدي
هداني هادٍ غيرُ نفسي ودلّني ... على الله مَنْ طرّدته كلَّ مطرّد

فضربَ رسولُ الله ﷺ على صدره وهو يقول له: «أنتَ طرّدتني كلَّ مطرَّد»[3].

* وهكذا أسلم أبو سفيانَ بنُ الحارث إسلاماً مَلَكَ عليه لُبَّهُ، وآمَنَ إيماناً خالطَ لحمَه ودمَه، وجعل يكبّ على قراءةِ القرآن الكريمِ وينهلُ من علومه وينير قلبَه من إشراقاتِه ويتأسّفَ على الأيامِ التي قضاها بعيداً عن هذا النور، ويعجبُ مِن نفسِه كيف حُرِمَتْ هذه الخيرات، وأقبلَ على المسجدِ يصلّي فيه ولا يكادُ يفارقُه، ورآه رسول الله ﷺ مرةً يدخلُ المسجدَ، فقال لأمِّ المؤمنين عائشةَ بنتِ سيدِنا أبي بكر الصديق رضي الله عنهما:

«أتدرينَ مَنْ هذا يا عائشة؟.

قالت: لا يا رسول الله.

---

(١) انظر طبقات ابن سعد (٤/ ٥٢).
(٢) انظر الإصابة (٤/ ٩١)، والسيرة الحلبية (٣/ ١٤).
(٣) أخرجه الحاكم من حديث ابن عباس. وانظر الكامل في التاريخ (٢/ ٢٤٣ ـ ٢٤٤) والبداية والنهاية (٤/ ٢٨٧ ـ ٢٧٩) وانظر أيضاً طبقات فحول الشعراء (١/ ٢٤٧) تحقيق محمود محمد شاكر.

قال: «إنَّه ابنُ عمي أبو سفيانَ بنُ الحارث، انظري إليه إنَّه أولُ مَنْ يدخلُ المسجدَ وآخرُ مَنْ يخرجُ منه، ولا يفارقُ بصرُهُ شراكَ نعلِهِ».

يا لروعة هذا المنظر؟ أبو سفيانَ بنُ الحارث يفوز بشهادةِ الصلاحِ مِنَ الرسولِ ﷺ، وقد كان بالأمسِ القريبِ ينقضّ على المسلمين بسيفه ولسانِهِ؛ ولكنَّ الوسامَ الذي منحَه رسولُ الله أبا سفيانَ نقله مرةً واحدةً إلى قلعة الإيمان بعد أَنْ أمضى عشرين عاماً في قلعةِ الشّرك، وبرزَ معدنُه النّفيسُ مِصداقاً لقول النّبيِّ عليه الصلاة والسلام:

«النّاسُ معادن خيارُهم في الجاهلية خيارُهم في الإسلام إذا فقهوا».

* * *

شهـــادات مضيئـــة:

* لم يكن سيدنا أبو سفيانَ بنُ الحارث يخطرُ له على بال أنَّه سيغدو أحدَ فضلاءِ الصّحابة، فقد أمضى قرابةَ عشرين سنةً في حرب لا هوادةَ فيها، يحاربُ الإسلامَ والمسلمين، بل كان يقفُ للمسلمين في كل مرصدٍ ويحصي عليهم حركاتهم؛ ولكنَّه لما قَذَفَ الله النّورَ في قلبه وتذوّق حلاوةَ الإيمان، شعرَ بلذةِ العبادةِ وطعمها، فتأسّفَ أسفاً شديداً على ما فرط منه، وأخذَ يغذُّ السَّير في طريقِ العبادةِ والصّلاحِ ليلحقَ بركبِ الصَّحابة الكرامِ الذين سبقوه بالإيمان.

وقد لاحظ رسولُ الله ﷺ منه هذا الاندفاعَ والحبَّ للإسلام فقال له:

«أنت يا أبا سفيان كما قيل: كلُّ الصّيدِ في جوفِ الفرا»[1].

* ولسيدنا أبي سفيانَ بنِ الحارث شهادةٌ عظيمة من عمِّه العباسِ بن

---

(١) مثل يضرب لمن يفضل على أقرانه، ويضرب أيضاً في الواحد الذي يقوم مقام الكثير لعظمه، وهذا يدل على مكانة أبي سفيان بن الحارث عند الرسول. انظر مجمع الأمثال للميداني.

عبد المطلب، وهذه الشَّهادة تدلُّ على شجاعتِهِ وتفانيه أمامَ رسولِ الله ﷺ في غزوة حُنَين، يقول العَبَّاسُ:

«شهدتُ مع رسولِ الله ﷺ يوم حُنَين، فلزمتُ أنا وأبو سفيانَ بنُ الحارث ابنِ عبد المطلب رسولَ الله ﷺ فلم نفارقْه»[1].

ويتابع العباس الحديث فيقول:

«فلما التقى الناسُ وَلّى المسلمون مدبرين، فطفقَ رسولُ الله ﷺ يُرْكِضُ بغلتَه قِبلَ الكفار، قال العبّاس: وأنا آخذٌ بلجامِها أكفُّها إرادةَ ألاَّ تسرع، وأبو سفيان آخذٌ بركاب رسول الله ﷺ»[2].

فهذه الشَّهادة تضيفُ رصيداً رائعاً إلى رصيدِ أبي سفيانَ بنِ الحارث رضي الله عنه.

وجاء في «تفسير القرطبي» أيضاً ما يضيفُ مكرمةً أخرى إلى صحيفةِ سيدِنا أبي سفيانَ بنِ الحارثِ، فقد وَرَدَ أنَّه أَحَدُ عشرةٍ ثبتوا مع رسول الله ﷺ يوم حُنَين؛ يقول القرطبي:

«وثبتَ رسولُ اللهِ ﷺ، وثبت معه أبو بكر وعمرُ، ومن أهل بيته: عليٌّ والعبّاسُ، وأبو سفيانَ بنُ الحارث بن عبد المطلب وابنه جعفر، وأسامةُ بن زيد، وأيمنُ بن عبيد ـ وهو أيمن ابن أم أيمن قُتل يومئذ بحنين ـ وربيعةُ بن الحارث والفضلُ بن العباس، ـ وقيل في موضع جعفر بن أبي سفيان: «قُثَم بن العبّاس» ـ فهؤلاء عشرة رجال ولهذا قال العباس:

نصَرْنا رسولَ الله في الحرب تسعةً ... وقد فَرَّ مَنْ قد فَرَّ عنه وأَقْشَعوا

وعاشِرُنا[3] لاقى الحمام بنفسه ... بما مسّه في الله لا يتوجّع[4]

---

(١) انظر مختصر صحيح مسلم للمنذري ص ٣٢٣ وانظر أيضاً طبقات ابن سعد (١٨/٤).

(٢) انظر البداية والنهاية (٤/ ٣٣١) وانظر تفسير القرطبي (٨/ ٩٨).

(٣) أي أيمن ابن أم أيمن.

(٤) انظر تفسير القرطبي (٨/ ٩٧ ـ ٩٨) وانظر فتح الباري (٨/ ٣٠).

ومما هو جدير بالذكر أنَّ أبا سفيانَ بنَ الحارثِ قد لمس عظمة رسول الله ﷺ، وتأييدَ الله له وللمسلمين في موضعين، ومن العجيب أيضاً أنَّه في الموضع الأولِ كان مشركاً، وذلك في غزوة بدر عندما شعر أنَّ اللهَ أيَّدَ المؤمنين بالملائكة مُردفين، وكانت تلك الغزوة بين المسلمين وقريش، والموضع الثاني لمسَ أيضاً إمدادَ اللهِ المسلمين بالملائكة في غزوة حُنَين، وهي أولُ معركةٍ يقاتُل فيها وهو مسلم.

* وبعد، فهل هناك شهادات أُخَر لأبي سفيان بن الحارث؟ لا شك أنَّ شهادةَ الأعداء ذاتُ فضل، فهذه إحدى الشهادات لواحدٍ مِنْ فرسانِ بني ثقيف تخصُّ أبا سفيانَ وتشهدُ له بالثّباتِ والشّجاعة، يقولُ الثَّقفي:

«انهزمَ المسلمون يوم حُنين فلم يبقَ مع رسولِ الله ﷺ إلاّ عبّاسٌ وأبو سفيانَ بنُ الحارث رضي الله عنهما، فقبضَ رسول الله ﷺ قبضةً مِنَ الحصباءِ فرمى بها في وجوههم، قال: فانهزمنا فما خُيِّلَ إلينا إلا أنَّ كلَّ حَجَرٍ أو شَجرٍ فارسٌ يطلبُنا، قال الثقفي: فأعجزتُ على فرسي حتى دخلتُ الطائفَ»(١).

* وهذه شهادةٌ أخرى لصالح سيدنا أبي سفيانَ بنِ الحارث يدلي بها أحدُ فرسان الأعداء أيضاً، ويشيدُ بثباتِه وشجاعته يوم حنين، وتشيدُ أيضاً بعظمةِ النَّبيِّ ﷺ، ففي غزوةِ حُنَين، وفي تلك اللحظاتِ مِنْ ساعاتِ المصير التي شرعَ بعضُ المسلمين فيها بالتَّراجع، تعرّض الرّسولُ ﷺ لمحاولة اغتيالٍ مِنْ أحَدِ الموتورين مِنْ قريش انتقاماً لمقتل أبيهِ وعمِّه يومَ أُحُد على أَيدي المسلمين، وهذا الرجل الذي أضمرَ اغتيال النَّبيِّ ﷺ هو «شيبةُ بنُ عثمانَ بن أبي طلحة العبدري» ولندعْ شيبةَ نفسَه يحدثُنا ـ بعد أَنْ حَسُن إسلامُه ـ عن شجاعةِ سيدِنا أبي سفيانَ بنِ الحارث، يقول:

---

(١) البداية والنهاية (٤/ ٣٣٢) وانظر طبقات ابن سعد (٢/ ١٥١).

لما رأيتُ رسولَ الله ﷺ يومَ حنين قد عَرَى، ذكرتُ أبي وعمّي، وقتْلَ عليّ وحمزة إياهما فقلتُ: اليومَ أُدركُ ثأري مِنْ رسولِ الله ﷺ، قال: فذهبتُ لأجيئه عن يمينه فإذا أنا بالعباس بن عبد المطلب قائماً عليه درعٌ بيضاءُ كأنَّها فضةٌ يُكشفُ عنها العجاج، فقلتُ: عمُّه ولن يخذلَه، قال: فجئتهُ عن يسارِه فإذا أنا بأبي سفيانَ بنِ الحارثِ بن عبد المطلب فقلتُ: ابنُ عمِّه ولن يخذلَه؛ قالَ: فجئتُه مِنْ خلفِه فلم يبق إلا أنْ أُسَوِّرَهُ سورةً بالسَّيف، إذ رُفِعَ شواظٌ مِنْ نارٍ بيني وبينه وكأنَّه برقٌ، فخفتُ أَنْ يَمْحَشَني[١] فوضعت يدي على بصري ومشيت القهقرى، فالتفتَ رسول الله ﷺ وقال:

«يا شيبة، يا شيبة أُدْنُ مني، اللهم أذهِبْ عنه الشيطان» قال: فرفعت إليه بصري ولهو أحب إليَّ مِنْ سمعي وبصري[٢]».

* أمّا عليُّ بنُ أبي طالب فقد كانت شهادتُه لصالحِ ابن عمِّه أبي سفيان بن الحارث مع أعظم الشهادات، شهادةً جعلت أبا سفيان في صفوف المؤمنين الأولى، وقد كانت شهادةَ حقّ، وشهادةَ ثقة دفعتْ بسيدنا عليّ رضي الله عنه أَنْ يزوِّجَ إحدى بناتِه أبا سفيان بنَ الحارث[٣].

* وبعد ألا تكفي هذه الشَّهادة المضيئةُ العادلةُ لتضع أبا سفيانَ ابنَ الحارث مع صَفوة الصَّفوةِ مِنَ الصَّحابة الكرام رضوان الله عليهم؟.

بلى فالإسلام يجبُّ ما قبله ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾[٤].

* * *

(١) محشته النار: أحرقت جلده حتى يبدو العظم.
(٢) انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٣٤٥) وانظر إمتاع الأسماع (١/ ٤١١).
(٣) انظر طبقات ابن سعد (٤/ ٥٣).
(٤) سورة الأحقاف آية (١٦).

فــراقُ الحـبـيـب:

* لم يكن أبو سفيانَ بنُ الحارثِ ليفارقَ مجالسَ الرَّسولِ ﷺ أبداً، بل ظلَّ يلازمه ملازمةَ الرَّضيع لأمِّه، ولم يتخلفْ عن غزوةٍ مع الرَّسولِ عليه الصلاة والسلام منذ أنْ أعلنَ إسلامَه، ولما قفلَ رسولُ الله ﷺ مِنْ حَجَّة الوداع، مكثَ في المدينةِ بضعةَ أشهر وأحسّ بدنوِّ الأجلِ، ثم مرضَ عليه الصَّلاة والسَّلام، فَوَجَعَتْ قلوبُ المؤمنين، واشتدَّ به الوجع، فأسرعَ الجميعُ إلى بيتِهِ ومسجدِه يستطلعون الخَبَر.

ولمّا انتشَر خبرُ وفاتِه ﷺ ماجَ المسجدَ بمَنْ فيه، فلم يكنْ يدورُ في خَلَدِ المسلمين أنْ يفتحوا أعينَهم ذاتَ صباحٍ فلا يجدوا رسولَ اللهِ ﷺ بينهم، إنّه حقاً لأَمْرٌ جللٌ أصيبَ المسلمون به جميعاً، ومنْ أجلِ هذا وقفَ سيدُنا «عمرُ بنُ الخطاب» رضي الله عنه مهدِّداً بقطعِ عنق كلِّ مَنْ تسوِّلُ نفسُه أنْ تتحدثَ عَنْ موتِ رسولِ الله ﷺ، غير أَنَّ سيِّدَنا أبا بكرٍ الصّديقَ رضوانُ الله عليه جاءَ إلى رسولِ الله ﷺ ورأى أنّه قد ماتَ حقّاً، فخرجَ يواجِهُ النَّاسَ بالحقيقةِ دونَ تردُّدٍ أو تلجلجٍ ثم قال:

«مَنْ كانَ يعبدُ محمداً فإنَّ محمداً قد مات، ومَنْ كان يعبدُ الله فإنَّ الله حيٌّ لا يموت».

* وهنا أحسَّ المسلمون بعظمِ المصيبةِ، وسمعَ سيِّدُنا أبو سفيانَ ابنُ الحارث بالنبأ العظيم، فمادتِ الأرضُ فيه، وأحسَّ بفراغٍ كبير، لقد ماتَ رسولُ الله وانقطعَ الوحيُ وأَفَلَتْ شمسُ النُّبوةِ، إنَّها مصيبةٌ تستكُّ منها المسامعُ، ودمعتْ عيناه، وشعر بالحزنِ يستقرُّ في قلبه لِفراقِ حبيبِه وابن عمِّه محمّد ﷺ، فرثاهُ بقصيدةٍ تفيضُ باللوعةِ والأسى فقال:

أرقــتُ فبــاتَ ليلــي لا يــزولُ ... وليــلُ أخــي المُصيبــةِ فيــهِ طــولُ
وأَسْعَــدنــي البكــاءُ وذاكَ فيمــا ... أُصيــبَ المسلمــونَ بــه قليــلُ
فقــد عظُمــت مُصيبتُنــا وجلّــتْ ... عشيــةَ قِيْــلَ قــدْ قُبِــضَ الــرسـولُ
فَقَــدْنــا الــوحــيَ والتنــزيــلَ فينــا ... يــروحُ بــهِ ويَغْــدو جبَــرئيــلُ

وذاك أَحقُّ ما سَالتْ عليه نفوسُ الخلقِ أو كادتْ تَسيلُ
نبيٌّ كانَ يجلو الشَّكَّ عنا بما يُوحَى إليهِ وما يقولُ
ويهدينا فلا نخشى ضلالاً علينا والرَّسولُ له دليلُ
فلم نَرَ مثلَه في النَّاس حيّاً وليس له مِنَ الموتى عديلُ[1]

* وتابع أبو سفيانَ بنُ الحارث حياتَه عابداً قانتاً زاهداً في كلِّ شيء، فقد أعرضَ عِنَ الدنيا وزينتِها، وأقبلَ على رَبِّه بجوارحِه كلِّها، يقطعُ نهارَه بالعبادةِ والاعتكافِ ويلازمُ المسجدَ يكثرُ مِنَ الصَّلاةِ حتى عُرفَ بتلك الصّفةِ، فعن «سعيدِ بنِ المسيب» أنَّ أبا سفيانَ بنَ الحارث كان يصلي في الصَّيف نصفَ النَّهار حتى تكرهَ الصَّلاة، ثم يصلي مِنَ الظهر إلى العصر»[2].

كما كان ليلُ أبي سفيانَ بنِ الحارثِ ليلَ دعاءٍ وقنوت، وظلَّ على ذلكَ حتى آخر لحظة مِنْ حياته.

* * *

بشارته بالجنة:

قال تعالى: ﴿ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾[3].

* سيِّدُنا أبو سفيانَ بنُ الحارث واحدٌ مِنْ أولئك الصَّحابةِ الذين عرفوا الحقَّ حقَّ المعرفة، فارتبطوا بالرَّسولِ الكريم ﷺ أقوى ارتباطٍ وأعمقَه؛ وانطلق أبو سفيانَ إلى تقويمِ نفسِه وإطلاح شأنِه مع ربِّه ومع الرسولِ عليه الصلاة والسلام، فعاشَ رسولُ الله في ضميرِه وبصيرتِه، إذ كان السَّببَ في

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء (١/ ٢٠٤)، وعيون الأثر (٢/ ٤٢٤)، والاستيعاب (٤/ ٨٤ ـ ٨٥)، وانظر أيضاً تاريخ الإسلام للذهبي ص ٢١٩ حيث توجد بقية القصيدة.
(٢) انظر سير أعلام النبلاء (١/ ٢٠٥).
(٣) سورة هود آية (١٠٨).

إخراجه مِنْ ظلماتِ الجاهليةِ إلى نورِ الإسلام، فوهبَ نفسَه مع ابنه جعفرَ ليكون فدائياً أمامَ الرسول ﷺ في غزوة حُنَين وما بعدها من المشاهد؛ ولما رأى رسولُ الله ﷺ ذلك منه أكْبَرَ إخلاصَه فكان ﷺ يقول: «أبو سفيانَ خيرُ أهلي أو مِن خيرِ أهلي»[1].

* وظل أبو سفيانَ بنُ الحارث رضي الله عنه يقدِّمُ كلَّ ما يستطيعُ لخدمةِ الرسولِ والإسلام والمسلمين، لذا فقد كان رسولُ الله ﷺ يحبُّه ويشهدُ له بالجنةِ ويقول:

«أرجو أنْ يكونَ خلفاً من حمزة»[2].

والحقيقةُ أنَّ أبا سفيانَ بنَ الحارثِ قد اكتسبَ فضلاً مِنْ عَراقة أصلِه، وظهرتْ حقيقةُ معدنِه عندما أسلم وتفقّهَ في الدين، ولذلك لما سُئِلَ النبيُّ ﷺ:

أيُّ الناسِ أكرمُ؟.

قال: «. . . فعن معادنِ العرب تسألوني»؟.

قالوا: نعم.

قال: «فخيارهُم في الجاهليةِ خيارُهم في الإسلام إذا فقهُوا»[3].

* نعم، فأبو سفيانَ بنُ الحارث لما أعلنَ إسلامَه، وطرحَ جاهليتَه، وتغلغلَ الإيمانُ في أعماقِه، وتمكَّنَ منْ شغافِ قلبِه، صارَ المستحيلُ عنده ممكناً، وأصبح إيمانُه يزنُ الجبال، وأضحتِ السَّعادة عنده أَنْ يكسبَ مرضاةَ اللهِ ورسولِه، لهذا زَكَتْ نفسُه بصحبةِ رسولِ الله ﷺ، وشفَّتْ طباعُه، وعَلَتْ همَّتُه، وقد سبَرَ الرسولُ الكريم ﷺ أغوارَه، فألفاه نقياً طاهراً، صادقاً في الظاهر والباطن، فحظي باهتمام النبيِّ عليه الصلاة والسلام، كما حظي ببشارةِ

---

(١) انظر عيون الأثر (٢/ ٣٧٦) ومجمع الزوائد (٩/ ٢٧٤).

(٢) المصدر السابق (٢/ ٢١٨) وانظر السيرة الحلبية (٣/ ١٤).

(٣) أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة.

رسولِ الله ﷺ، فقد روي أنَّ رسول الله ﷺ قال:

«أبو سفيانَ بنُ الحارثِ سيِّدُ فتيانِ أهلِ الجنّة»[1].

وظهرتْ بسماتُ السُّرور على شفتيْ سيِّدنا أبي سفيانَ بنِ الحارث حينما علمَ ببشارةِ الرَّسولِ له بالجنَّة؛ وازداد سروراً لمّا علم بأنَّ الله قد تكفَّل بأرزاقِ الذين صبروا مع الرَّسولِ ﷺ يوم حُنَين بالجنَّةِ، فعن عائشة رضي الله عنها أنَّ جبريل قال:

«إنَّ الله تكفّل لهم[2] بأرزاقهم وأرزاقِ عيالهم في الجنَّةِ».

وكان العبّاس رضيَ الله عنه يقولُ:

«وكان أبو سفيان بن الحارث من الذين تكفَّلَ الله بأرزاقهم وأرزاقِ عيالهم في الجنَّةِ»[3].

* استمرَ أبو سفيانَ بنُ الحارث رضي الله عنه في عطائِه الخير للإسلام والمسلمينَ، فكان الفارسَ المجاهدَ وكان الأوّابَ الزَّاهد؛ وفي سنةِ عشرينَ[4] من هجرة المصطفى ﷺ، وإبّان خلافةِ الفاروقِ أحسَّ أبو سفيانَ بنُ الحارثِ بلحظةِ اللقاءِ معَ الله سبحانه، وكان قد أدى فريضةَ الحج، فحلقَهُ الحلاّق فقطعَ ثُؤْلُولاً في رأسِه فمرضَ منه[5]، ولما قَدِمَ المدينةَ المنوّرة، انطلقَ إلى البقيعِ وتولّى حَفْرَ قَبْرِه بنفسِه قبلَ أنْ يموتَ بثلاثةِ أيام، ثم قال عند ذلك: «اللهم لا أَبْقى بعْدَ رسولِ الله ﷺ ولا بعْدَ أخي وأتْبِعْني إياهما».

---

(١) انظر طبقات ابن سعد (٤/ ٥٣)، وسير أعلام النبلاء (١/ ٢٠٥)، والسيرة الحلبية (٣/ ٦٧).

(٢) أي من صبروا يوم حنين مع الرسول.

(٣) انظر مغازي الواقدي (٣/ ٩٠٢).

(٤) انظر الكامل في التاريخ (٢/ ٥٦٩)، ومجمع الزوائد (٩/ ٢٧٤).

(٥) طبقات ابن سعد (٤/ ٥٣)، وانظر سير أعلام النبلاء (١/ ٢٠٤) وانظر تاريخ الإسلام للذهبي ص ٢٢٠.

فلم تغبِ الشمسُ مِن يومِه ذلك حتى تُوفي، وصلّى عليه عمرُ بن الخَطاب رضي الله عنه.

وقد روي أنَّه لما حضَرَ أبا سفيان الوفاةُ قال لأهله: «لا تبكوا عليَّ فإني لم أتنطف بخطيئة منذ أسلمت»[1].

* وصعدت روحُه إلى بارئها راضيةً مرضية، فكان أبو سفيانَ بنُ الحارث مِن عِدادِ الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، وكان أحدَ الذين سعدوا وفازوا بمرضاةِ الله تعالى وساروا على طريق الهدى، وكان مِنَ الذين قال الله فيهم: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ﴾.

صدق الله العظيم

* * *

(1) انظر تاريخ الإسلام للذهبي ص ٢١٧، وأتنطف يعني: أتلطخ.



سيدنا

حاطب بن أبي بلتعة

رضي الله عنه

* سفير رسول الله ﷺ إلى المقوقس.
* «رضي الله عنك، رضي الله عنك».
* «بارك الله فيك يا حاطب».
* «لعلّ الله اطلعَ على أهل بدر فقال لهم اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم».

مقدمـــة:

* تلقّى النبيُّ الكريمُ محمدٌ ﷺ الأوامرَ مِنَ الله سبحانه وتعالى بإبلاغِ الرسالةِ، وذلك في مواطنَ عديدةٍ مِنَ القرآن الكريم عند بدايةِ نزولِ الوحي، وكان مِنَ الطبيعيّ أن يعرضَ الرسولُ ﷺ الإسلامَ أولاً على ألصق الناسِ به مِن أهلِه وأقربائِه ثم أصدقائه، فدعاهم إلى الإسلام ودعا كلَّ مَن توسّم فيه الخيرَ ممّن يعرفُهم ويعرفونه، فآمن به عددٌ مِنَ الناس وفي مقدمتهم سيدُنا أبو بكرٍ الصديقُ، وزيدُ بنُ حارثةَ، وعليُّ بنُ أبي طالب، وعثمانُ بنُ عفّان، والزبيرُ بنُ العوّام، وغيرهم، أسلم هؤلاء سرّاً، وكان رسول الله ﷺ يجتمع بهم ويرشدُهم إلى محاسن هذا الدين وخصاله، ومرّتْ ثلاثُ سنين والدعوةُ لم تزلْ في طورِها الجنينيِ، وتكونتْ خلالَ هذه الفترةِ جماعةٌ مِنَ المؤمنين تقوم على المحبةِ والتعاونِ وتبليغِ الرسالة.

* في إحدى مراحلِ الدعوةِ لامستْ نسماتُ الإسلامِ أسماعَ حاطبِ بن عمرِو بنِ عُمير اللخميّ المكيّ، وكان حاطبٌ الذي اشتُهر باسم حاطِب بنِ أبي بلتعةَ ـ حليفاً للزبير بنِ العوّام رضي الله عنه أحدِ السابقينَ إلى الإسلام، وكان أصلُه مِن «لخم» وطابَ له المقامُ في مكةَ فاستقرَّ فيها وحالفَ الزبيرَ بنَ العوّام، ثم عملَ بتجارةِ الطعامِ فكانَ مِنَ البارعينِ فيها، ولم تمضِ فترةٌ طويلةٌ على الدعوة إلى الإسلام حتى تقبّلَ حاطبٌ الإسلامَ قبولاً حسناً، وأعلن إسلامَه مع سعدِ بنِ خولي مولاه، وانخرطا في صفوفِ المؤمنين.

* ولما نزلَ قولُه تعالى على رسولِه محمدٍ ﷺ: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤] بلّغ ﷺ الدعوةَ إلى الإسلام جهراً وعلانيةً، وانفجرتْ مكةُ بمشاعر الغضبِ وماجتْ بالغرابةِ والاستنكارِ لمّا سمعتْ بدعوةِ الحقِّ التي ذكرتْ حقائقَ الأصنامِ وخرافاتِ الشركِ، وأزاحتِ الستارَ عِنَ الأوثانِ فظهرتِ الحقيقة، وقامت قريشٌ وقعدتْ وخشيتْ على تقاليدِها وموروثاتِها وحاولتْ مجابهةَ الدعوةِ بشتّى أنواعِ الأساليبِ من سخريةٍ وتحقيرٍ وتشويهٍ للإسلام والمسلمين، ثم لجأ المشركون إلى المفاوضاتِ

والمساوماتِ معَ الرسولِ الكريمِ ﷺ، غيرَ أَنَّ محاولاتِهم كلَّها تلاشَتْ وتُوِّجَتْ بالفشلِ وقُوبلتْ بالصدِّ والإعراضِ منِ رسولِ الله ﷺ.

ولما رأتْ قريشٌ أنّ تلكَ الجهودَ والأساليبَ لم تثمرْ وتُؤتي أُكُلَها ولم يستجبْ لها الرسولُ الكريمُ ﷺ أو أيُّ واحدٍ مِن أصحابِه الكرام، تجاوزوا طريقتَهم غيرَ المثلى تلك، ولجؤوا إلى طريقِ التعذيبِ والاضطهادِ، بعد أن عقدوا جلسةً بلغَ عددُ أعضائِها خمسةً وعشرينَ رجلاً برئاسةِ أبي لهب عمِّ رسولِ الله ﷺ، وما أدراكَ ما أبو لهب هذا؟! راحَ المشركون مع زعيمهم يُذيقون مَنْ أسلمَ أصنافاً مِنَ الأذى والعذابِ، وتفاقَم خطرُهم وازدادوا عتوّاً وظلماً.

وكلّما تقدمتِ الأيامُ اشتدّتْ قريشٌ في أذاها للمسلمين، فهاجَر نفرٌ مِن أصحابِ رسولِ الله عليه الصلاة والسلام إلى الحبشةِ، ثم هيّأَ الله أنْ يجدَ الإسلامُ سبيلاً إلى قلوبِ أهلِ المدينةِ الذين وعدوه في بيعتِهم أن يحموه كما يحمونَ نساءَهم وأولادَهم، وانتشرَ الإسلامُ بالمدينة، فأشارَ الرسولُ الكريمُ على أصحابه بالهجرةِ إليها.

وبدأ المسلمونَ يهاجرونَ، وتجهزَ حاطبُ بنُ أبي بلتعةَ وانطلقَ تاركاً كلَّ شيءٍ في مكةَ مِن مالٍ وأهلٍ وأقاربَ وهاجرَ مع الزبير واصطحبَ معه مولاه سعدَ بنَ خولي، وقد روى ابنُ سعد في الطبقات هجرة حاطب فقال:

«لما هاجر حاطبُ بنُ أبي بلتعة وسعدٌ مولى حاطب من مكةَ إلى المدينةِ نزلا على «المنذرِ بنِ محمد بن عقبة بن أحيحة بن الجُلاح» وظلّ المسلمونَ في المدينة ينتظرونَ قدومَ النبيِّ ﷺ مهاجراً إلى أن وصلَ المدينةَ فكان دخولُه إليها يوماً مشهوداً، لم تشهدِ المدينةُ مثلَه في تاريخها، ولما استقرّ رسولُ الله ﷺ بالمدينة كانت أولَ خطوةٍ خطاها إقامةُ المسجد النبوي، ثم كانت المؤاخاةُ بين المهاجرين والأنصار، يقول ابن القيّم في كتابه النفيس «زاد المعاد»: «ثم آخى رسولُ الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دار أنس بن مالك، وكانوا تسعين رجلاً، نصفهم من المهاجرين ونصفُهَم مِنَ الأنصار؛ آخى بينهم على المواساة ويتوارثون بعدَ الموتِ دون ذوي الأرحام إلى حين وقعةِ بدر، فلما

أنزل الله عزَّ وجل: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾[1] ردَّ التوارثَ دونَ عقدِ الأُخوّة».

فمن كان نصيبُ حاطبِ بنِ أبي بلتعة في المؤاخاة؟.

روى ابن سعد في الطبقات[2] أنّ رسولَ الله ﷺ قد آخى بينَ حاطبٍ وعويمِ ابنِ ساعدةَ الأنصاريّ[3]، وقد أظهرَ الأنصارُ الحفاوةَ والكرمَ لإخوانهم المهاجرينَ، وكانت عواطفُ الإيثار والمواساةِ تاجَ هذهِ الأخوّةِ التي كوّنتْ مجتمعاً جديداً ذابتْ فيه كلُّ الفوارقِ والعصبياتِ، فلا فضلَ لأحدٍ على آخرَ إلاّ بالتقوى والعملِ الصالح.

* * *

مشاهد حاطب رضي الله عنه:

* تابعَ حاطبٌ حياةَ العملِ والجهادِ في المدينةِ المنورة، واستفاد مِن نشاطِه في التجارة، ودرّت عليه خبرتُه في أمورِ التجارةِ مالاً وفيراً، وكان سيدُنا حاطبٌ صاحبَ فكرٍ خارقٍ وذهنٍ صافٍ وذكاءٍ حادّ، فلم تتوقفْ خبرتُه عندَ التجارةِ والمالِ والكتابةِ فحسب، بل كان ذا خبرةٍ بالفروسيةِ، وكانَ مِن أمهرِ الرماةِ وأشدِّهم في المعارك، وقد وُصفتْ رميتُه بالسداد وعُرف بإصابةِ الهدفِ، وأصبحَ مِن الرماةِ المهرةِ الذين يعتمد عليهم رسولُ الله ﷺ في

---

(١) سورة الأنفال (٧٥).

(٢) طبقات ابن سعد (٣/ ٤٥٩) وانظر كذلك سيرة ابن هشام (١/ ٥٠٦).

(٣) هو سيدنا عويم بن ساعدة بن عايش الأنصاري الأوسي الصحابي رضي الله عنه، أسلم قديماً، وشهد العقبتين وبدراً وأحداً والخندق وسائر المشاهد مع رسول الله ﷺ. توفي في خلافة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو ابن خمس وستين سنة، ووقف سيدنا عمر على قبره وقال: لا يستطيع أحد أن يقول أنا خير من صاحب هذا القبر، ما نصبت لرسول الله ﷺ راية إلا وعويم تحت ظلها رضي الله عنه.

غزواتِه[1]. فهذا الواقديُّ يذكُر في المغازي نفراً من الصحابةِ ممّن برعوا بقوةِ الرميِ فيقولُ: «وكان الرماةُ مِن أصحابِ النبيِّ ﷺ المذكور منهم: سعدُ بن أبي وقاص، والسائبُ بنُ عثمان بنِ مظعون، والمقدادُ بنُ عمرو، وزيدُ بنُ حارثة، وحاطبُ بن أبي بلتعة....»[2].

* وفي السنةِ الثانيةِ مِنَ الهجرةِ النبويةِ الشريفةِ، كان سيدُنا حاطبٌ في عِداد الجيشِ الإسلاميِّ المنطلِق إلى بدر وفي صحبتِه مولاه سعدُ بن خولي، وكان حاطبٌ بقربِ رسولِ الله ﷺ يحملُ سيفَه وقوسَه وهو يتشوّق إلى قتالِ المشركين الذي أَخرجوا المسلمين مِن ديارِهم بغير حقٍّ ظلماً وبغياً، ولما تراءى الجمعان أخذَ الرسولُ ﷺ يعدِّلُ صفوفَ أصحابِه، وأصدرَ أوامرَه لهم بألاَّ يبدؤوا القتال حتى يتلقَّوا منهُ الإذنَ بذلك، ثم أدلى بتوجيهٍ خاصّ إلى الرّماةِ وفيهم سيدُنا حاطبُ بنُ أبي بلتعة وقال لهم:

«إذا أكثبوكم[3] فارموهم واستبقوا نبلَكم ولا تسلُّوا السيوف حتى يغشَوكم»[4].

* ولما قُتل ثلاثةٌ مِنَ المشركين في المبارزةِ استشاطوا غضباً وحملوا على المسلمين، حينئذ أصدرَ الرسولُ الكريم الأوامرَ إلى أصحابِه قائلاً: «شُدّوا» ثم حرّضهم على القتال وقال:

«والذي نفسُ محمدٍ بيده لا يقاتلُهم اليومَ رجلٌ فيقتلَ صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبرٍ إلا أدخلَه الله الجنةَ».

وقال ﷺ وهو يحضُّهم على القتال:

«قوموا إلى جنةٍ عرضُها السموات والأرض».

وما إن صافحت كلماتُ رسولِ الله ﷺ سمعَ حاطبٍ حتى أسرعَ نحوَ

---

(١) الأعلام للزركلي (٢/ ١٦٣).
(٢) انظر المغازي (١/ ٢٤٣) وانظر كذلك أنساب الأشراف (١/ ٣٢٣).
(٣) أكثبوكم: يعني دنوا منكم.
(٤) انظر سنن أبي داود، باب سل السيوف عند اللقاء.

المشركين يجالدُهم بسيفِه، والتقى فارساً مِن فرسان المشركين، وهو الحارثُ بنُ عائذ بنِ أسد، واقتاده أسيراً إلى معسكرِ المسلمين، وقُرن في الأصفاد ليكون في عداد الأسرى السبعين الذي وقعوا بأيدي المسلمين، وكان سرورُ النبيّ ﷺ واضحاً مِن فِعل حاطبٍ وإخلاصِه في هذه المعركة، كما أبدع أيضاً سائرُ المسلمين، ولما بعثت قريشٌ في فداءِ أَسراها فاز حاطبٌ بالمال، كما فازَ مِن قبلُ بمرضاةِ الله ورسولِه.

* * *

شجاعةٌ نادرة:

* لما كانت غزوةُ أُحُدٍ خرجَ سيدُنا حاطبُ بن أبي بلتعة ومولاه سعدٌ لقتالِ المشركين، وكلٌّ واحدٍ منهما يتشوّقُ إلى الشهادةِ، وعندما اشتدَّ القتالُ كان حاطبٌ بقرب النبيِّ ﷺ ولا يكادُ يغيبُ عن أنظارِه، وكان مع النّفرِ الذين ثبتوا مع رسولِ الله حينما خالفِ بعضُ الرماةِ أمرَ رسولِ الله ونزلوا مِن أماكنهم، أما مولاه سعدُ بن خولي[1]، فقد جالدَ المشركين بكلِّ ما أُوتيه مِن قوةٍ إلى أنْ سقطَ بضربةٍ مِن أحدِ فرسانِ المشركين ففاز بالشهادةِ ولحقَ بركبِ الشهداء. . . .

* المعركة لا تزال مستمرّةً، ومرتْ لحظاتٌ خطيرةٌ على المسلمين إذ تفرّقوا مِن حولِ رسولِ الله لهولِ ما أصابَهم في هذه الغزوةِ حيثُ أُشيعَ مقتلُه، لكنهم ما إنْ سمعوا صوتَ رسولِ الله ﷺ حتى أسرعوا إليه لئلاّ يصلَ إليه شيءٌ يكرهونه، وخلالَ هذه اللحظاتِ الحرجة الرهيبةِ كانَ حولَ النبيِّ ﷺ ثلّةٌ مِن أبطالِ الصحابة منهم: سيدُنا أبو بكر الصديق، وأبو دجانةَ الأنصاريّ،

---

(١) هو سعد بن خولي يرجع أصله إلى كلب من قضاعة، أصابه سبي فصار إلى حاطب ابن أبي بلتعة اللخمي، فأنعم عليه وشهد معه بدراً وأحداً، وقتل شهيداً يوم أحد على رأس اثنين وثلاثين شهراً من مهاجر رسول الله ﷺ. وكان له ولد اسمه عبد الله. وقد فرض سيدنا عمر بن الخطاب لعبد الله بن سعد بن خولي مع الأنصار.

وعليّ بنُ أبي طالب، ومالكُ بنُ سنان[1] والدُ أبي سعيدٍ الخدريّ، وقتادةُ بنُ النعمان، وحاطبُ بنُ أبي بلتعةَ، وعمرُ بنُ الخطّاب، وسهلُ بنُ حُنيف، وأبو طلحة، وأمّ عمارة نسيبة بنت كعب المازنية الأنصارية.

وقد أظهرَ سيدُنا حاطبٌ الشجاعةَ والإقدامَ وقاتلَ بضراوةٍ بالغةٍ وتبعَ عتبةَ بنَ أبي وقاص ـ الذي كسرَ رباعية الرسولِ الشريفةَ ـ فضربَه بسيفِه فأرداه قتيلاً، وكان سيدُنا سعدُ بنُ أبي وقاص شديدَ الحرصَ على قتلِ أخيه عتبة هذا، إلا أنه لم يظفرْ به وظفرَ به حاطبٌ، وقد روى سيدُنا حاطبٌ رضيَ الله عنه هذا الخبرَ السارَّ فقال:

«لما رأيتُ ما فعلَ عتبةُ برسولِ الله ﷺ، قلتُ لرسولِ اللهِ ﷺ: أينَ توجَّه عتبةُ؟ فأشارَ النبيُّ ﷺ إلى حيثُ توجَّه فمضيتُ حتى ظفرتُ به، فضربتُه بالسيفِ فطرحتُ رأسه، فنزلتُ وأخذتُ فرسَه وسيفَه وجئتُ به إلى رسولِ الله ﷺ فقال لي: «رضي الله عنك، رضي الله عنك» مرتين[2] وفي هذا يقول شاعر الرسول حسانُ بن ثابت رضي الله عنه يهجو عتبةَ بنَ أبي وقاص عندما بلغه ما فعلَ بالنبيِّ ﷺ:

إذا الله أعطى معشراً بفِعالهم ... ونصرُهُمُ الرحمنَ ربَّ المشارقِ

فأخزاك ربي يا عتيبَ بنَ مالك[3] ... ولقّاك قبل الموتِ إحدى الصواعقِ

بسطتَ يميناً للنبيِّ تعمُّداً ... فأدميتَ فاه قُطِّعتْ بالبوارقِ[4]

* وبعد غزوةِ أُحُد تابعَ سيدُنا حاطبُ بنُ أبي بلتعة رحلتَه مع الجهادِ في كلِّ غزواتِ رسولِ الله ﷺ لم يتخلَّفْ عن واحدةٍ مطلقاً، شهدَ بدراً وأُحُداً والخندقَ والحديبيةَ والمشاهدَ كلَّها مع رسولِ الله ﷺ، وكان واحداً مِن رسل النبيِّ ﷺ إلى الملوكِ يدعوهم إلى الإسلام، وقام حاطبٌ بسفارته خيرَ قيام،

---

(١) انظر سيدنا مالك بن سنان في هذه السلسلة.

(٢) انظر السيرة الحلبية (٢/ ٥١٣).

(٣) مالك هو أبو وقاص.

(٤) انظر ديوان حسان بن ثابت (١٥٨) طبعة دار المعارف.

وبهرَ المقوقسَ وبهرَ رجالَه أيضاً برجاحةِ عقلِه وجمالِ حجتِه وسدادِ كلماتِه، فإلى السطورِ التاليةِ نتعرَّف مِن خلالها سِماتِ السفيرِ الحكيمِ.

* * *

السفيـر الحـكيـم:

* في أواخرِ السنةِ السادسةِ مِنَ الهجرةِ النبويةِ الشريفةِ، حين رجعَ رسول الله ﷺ من صلح الحديبية، فكَّر عليه الصلاةُ والسلام في خطوةٍ إيجابيةٍ يتخذُها لِنشر الدعوةِ في الآفاقِ عن طريقِ الملوكِ والأمراءِ المجاورينَ للجزيرةِ العربيةِ، فهو ﷺ رسولُ الله إلى الناسِ جميعاً ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وحرصَ رسولُ الله ﷺ على دعوةِ الرؤساءِ والملوكِ والقادةِ فكتب إليهم يدعوهم إلى الإسلامِ ليخرجَهم مِنَ الظلماتِ إلى النور، فاختارَ عليه الصلاة والسلام عدداً مِن أصحابِه ليكونوا له رسُلاً إلى الملوك، وكان هؤلاء الصحابةُ ممّن لهم خبرةٌ ودرايةٌ بالنَّاس، ويروي البلاذريّ في كتابه «أنساب الأشراف» أسماءَ الرسُلِ إلى الملوكِ فيقول:

«وبعث رسولُ الله ﷺ حاطبَ بنَ أبي بلتعة إلى المقوقسِ، وشجاعَ بنَ وهب الأسديّ إلى الحارثِ بن أبي شَمِر، ودحيةَ بنَ خليفةَ الكلبيّ إلى قيصر، وسليطَ بنَ عمرٍو العامريّ إلى هوذة بن عليّ الحنفيّ، وعبدَ الله بنَ حذافة السهميّ إلى كسرى، وعمرَو بنَ أميةَ الضمريّ إلى النجاشيّ»[1].

* إذاً فسيدُنا حاطبُ بنُ أبي بلتعةَ واحدٌ مِمّن حظيَ بتشريفِ وتكليفِ الرسولِ ﷺ له بأداءِ رسالتِه إلى مصرَ. وكان لحاطب رضيَ الله عنه دوراً مهمَّاً في أداءِ مهمّتِه، فقد كتبَ النبيُّ ﷺ إلى جريجِ بنِ مينا[2] الملقّب بالمقوقس ملكِ مصرَ والإسكندريةِ كتاباً جاء فيه:

---

(١) أنساب الأشراف (١/ ٥٣١) وانظر كذلك سيرة ابن هشام (٢/ ٦٠٧) وفيها أسماء بعض رسل آخرين.

(٢) انظر البداية والنهاية (٤/ ٢٧٢) والسيرة الحلبية (٣/ ٢٩٥).

بسم الله الرحمن الرحيم. من محمدِ عبدِ اللهِ ورسولِه إلى المقوقسِ عظيمِ القُبط، سلامٌ على من اتبع الهدى أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلمْ تسلمْ يؤتِكَ الله أجرَكَ مرتينِ، فإن تولَّيْتَ فإنما عليكَ إثمُ القبط.

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤].

ثم ختمَ رسولُ الله ﷺ الكتابَ وقال:

«أيُّها الناسُ، أيّكم ينطلِقُ بكتابي هذا إلى صاحبِ مصرَ وأجرُه على الله»؟.

فوثب إليه حاطبٌ رضي الله عنه وقال: أنا يا رسولَ الله.

قال: «بارك الله فيك يا حاطبُ».

قال حاطبٌ رضي الله عنه: فأخذتُ الكتابَ وودّعْتُه ﷺ وسرتُ إلى منزلي وشددتُ على راحلتي وودّعتُ أهلي وسِرْتُ[1].

* انطلقَ سيدُنا حاطبٌ رضي الله عنه بكتاب رسولِ الله ﷺ إلى مصرَ، حتى دخلَ على المقوقِس، ونتركُ الحديثَ الآنَ لسيدِنا حاطبٍ نفسِه ليحكي لنا عن مهمّتِه فيقول: بعثني رسولُ الله ﷺ إلى المقوقسِ ملكِ الإسكندرية فجئتُه بكتابِ رسولِ الله ﷺ فلما دخلتُ عليه قلتُ له:

إنه كان قبلَكَ رجلٌ يزعمُ أنه الربُّ الأعلى، فأخذه الله نكالَ الآخرةِ والأُولى فانتقمَ به ثم انتقمَ منه، فاعتبرْ بغيرِك ولا يعتبرْ غيرُك بكَ.. فلم يَثُرْ ولم يغضبْ بل أجابني إجابةَ الرجلِ الحكيمِ الذي عرك الدنيا وعركَتْه وفهمَ الحياةَ فَهْمَ خبيرٍ ثم قال:

إنّ لنا دِيناً لنْ ندعَه إلا لما هو خيرٌ منه.

---

(١) عن السيرة الحلبية (٣/ ٢٩٥).

فقلتُ: ندعوكَ إلى دين الله ـ وهو الإسلامُ ـ الكافي به الله فَقْدَ ما سِواه، إن هذا النبيَّ دعا الناسَ فكان أشدَّهم عليه قريشٌ وأعداهم له اليهودُ، وأقربَهم منه النصارى ولعمري ما بشارةُ موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهلَ التوراة إلى الإنجيل، وكلُّ نبي أدركَ قوماً فهُم أُمَّتُه فالحق عليهم أن يطيعوه وأنت ممن أدركه هذا النبيُّ ولسنا ننهاك عن دينِ المسيحِ ولكنا نأمرُك به»[1].

* وأُعجب المقوقسُ بهذا السفيرِ البليغِ الذي يتكلّم في هدوءٍ واتّزان، ويأتي بالحجة اللطيفةِ والكلام الموزون، وليسَ هذا بغريبٍ عن سيدِنا حاطبٍ فهو مِن أئمةِ البيان وفرسانِ الشعرِ، فقد قال عنه المرزبانيّ: «كان أحدَ فرسان قريش في الجاهليةِ وشعرائِها» وهكذا فقد استطاع سيدُنا حاطبٌ أن يبهرَ المقوقِسَ ببيانِه ورجاحةِ عقلِه وفصلِ خطابه وقال له: إننا سننظرُ فيما تقول. ثم أكرمَه وأحسنَ نُزُلَه. ونتابعُ الحديثَ الشائقَ مع سيدِنا حاطبٍ ليحكيَ لنا لقاءَه مع المقوقسِ فيقولُ:

«فأنزلني المقوقسُ في منزلِه وأقمتُ عنده لياليَ ثم بعثَ إليّ وقد جمعَ بطارقتَه فقال:

إني سأكلِّمُك بكلامٍ أحبُّ أن تفهمَه مني.

قلت: هلمّ.

قال: أخبرني عن صاحبك أليسَ هو نبيٌّ؟.

قلتُ: بلى هو رسولُ الله ﷺ.

قالَ: فما لَه حيثُ كان هكذا لم يَدْعُ على قومِه حيثُ أخرجوه من بلدتِه إلى غيرِها؟.

فقلتُ له: فعيسى ابنُ مريمَ أتشهدُ أنّه رسولُ الله؟ فمالَه حيثُ أخذَه قومُه

---

(١) انظر زاد المعاد لابن القيم (٣/ ٦١).

فأرادوا صلبَه ألاَّ يكون دعا عليهم بأن يهلكَهمُ الله حتى رفعَه الله إليه في سماءَ الله؟.

قال: أحسنتَ. أنتَ حكيمٌ جاءَ مِن عندِ حكيم. هذه هدايا أبعثُ بها معك إلى محمدٍ وأرسلُ معكَ من يبلِّغُكَ إلى مأمنكَ[1].

* مرة أخرى يقفُ سيدُنا حاطبٌ رضي الله عنه وينتزعُ إعجابَ المقوقسِ والبطارقةِ مِن حولِه، وذلك لمّا حباه الله مِن حصافةٍ وذكاءٍ ناهيك في التفقُّه في أمورِ الإسلام، نعم فسيدُنا حاطبٌ رضي الله عنه كان رامياً مِن رماةِ الدرجةِ الأولى لا يخطىءُ الهدفَ الذي يسدِّد نحوه، كما كان رامياً للكلمة المناسبةِ أيضاً، يصوغُ الكلام المناسبَ للمقامِ المناسب، ومن ثم يسدِّد رميتَه في الكلمةِ فتقع في القلوبِ، من هنا وقعت كلماتُه في الهدف الذي وضعَه نصبَ عينيه، فأصاب قلبَ المقوقس فقاربَ أن يسلمَ، والتفتَ إلى بطارقِته، ودارَ بينهم حوارٌ طويلٌ ثم خاطبَ سيدَنا حاطباً وقال له: «إني نظرتُ في أمرِ هذا النبيِّ فوجدتُه لا يأمرُ بمزهودٍ فيه ولا ينهى عن مرغوبٍ فيه، ولم أجدْه بالساحرِ الضالّ ولا الكاهنِ الكاذبِ، ووجدتُ معه آيةَ النبوةِ بإخراجِ الخَبِء والإخبارِ بالنجوى وسأنظر»[2].

وأخذَ المقوقسُ كتابَ النبيِّ الكريم ﷺ وجعلَه في حُقِّ عاجٍ، وختم عليه ودفعَه إلى جاريةٍ له، ثم دعا كاتباً له يكتب بالعربية، فكتب إلى النبي ﷺ:

«بسم الله الرحمن الرحيم، لمحمدِ بنِ عبد الله مِنَ المقوقسِ عظيمِ القبط، سلامٌ عليك أما بعد: فقد قرأتُ كتابَك وفهمتُ ما ذكرتَ فيه وما تدعو إليه، وقد علمتُ أن نبياً بقيَ وكنتُ أظنُّ أنه يخرجُ مِنَ الشام، وقد أكرمتُ رسولَك

---

(١) انظر الاستيعاب (١/ ٣٥٠). وتاريخ الإسلام للذهبي (٢/ ٥١٢) وانظر كذلك البداية والنهاية (٤/ ٢٧٢).
(٢) انظر السيرة الحلبية (٣/ ٢٩٦).

وبعثتُ لكَ بجاريتَين لهما مكانٌ في القبط عظيم، وبثيابٍ وأَهديتُ إليك بغلةً لتركَبها والسلامُ عليك»[1].

* وعادَ السفيرُ الناجحُ مِن مصرَ يحملُ رسالةَ المقوقسِ، وهداياه إلى رسولِ الله ﷺ، وكانَ مِن بين الهدايا جاريتان هما: ماريةُ وأختُها سيرين ابنتا شمعون.

واستطاعَ سيدُنا حاطبٌ رضي الله عنه بما آتاه الله مِن فصاحة وبيان وحسنِ منطقٍ، أن يرغِّبَ ماريةَ وأختهَا في الإسلام، وقد ذكر ذلكَ ابنُ سعد في «الطبقات» فقال:

«فعرضَ حاطبُ بنُ أبي بلتعة على ماريةَ الإسلامُ ورغَّبَها فيه فأسلمتْ وأسلمتْ أختُها...»[2].

وهذه مكرمةٌ عظيمةٌ لسيدِنا حاطب رضوانُ الله عليه، وقد اتّخذ رسولُ الله ﷺ ماريةَ[3] سريةً له، وهي التي ولدتْ له إبراهيمَ، ولما قدم بها سيدُنا حاطبُ بنُ أبي بلتعةَ رضي الله عنه أنزلها رسولُ الله ﷺ في بيتٍ لحارثةَ بنِ النعمان[4] الأنصاريّ النجاريّ رضي الله عنه. أما سيرينَ أختُها فقد أهداها عليه الصلاة والسلام لشاعره حسانِ بنِ ثابتٍ الأنصاريّ فولدت له ابنه عبدَ الرحمن بنَ حسان[5].

وقد أهدى المقوقسُ كذلك إلى رسولِ الله ﷺ بغلةً بيضاءَ وهي «دُلْدُل»، ولم يكن يومئذٍ في العرب بغلةٌ غيرُها، وكذلك حمارَه «يعفور» وقد روى السهيلي في كتابه «الروض الأنف»، وفي شرح الزرقاني على «المواهب

---

(١) انظر السيرة الحلبية (٣/ ٢٩٦ ـ ٢٩٧). وانظر طبقات ابن سعد (١/ ٢٦٠).
(٢) طبقات ابن سعد (٨/ ٢١٢) وانظر أيضاً أنساب الأشراف (١/ ٤٤٩).
(٣) توفيت مارية في السنة السادسة عشرة من الهجرة في خلافة سيدنا عمر بن الخطاب وصلى عليها عمر ودفنت بالبقيع.
(٤) انظر سيدنا حارثة بن النعمان من هذه السلسلة.
(٥) انظر البداية والنهاية (٤/ ٢٧٢)، والاستيعاب (٤/ ٣٩٧).

اللدنية» أن التحف التي أرسلَها المقوقسُ كانت عشرينَ ثوباً ليِّناً من قباطي مصر، وألف مثقالٍ ذهباً وعسلاً مِن بِنْها ومكحلة عيدان شاميةٍ ومرآة ومشطاً وقدح قوارير كانَ رسولُ الله ﷺ يشربُ فيه[١].

وقد أكرم المقوقسُ وفادةَ حاطبَ وقال له خيراً، وعن احتفاءِ المقوقسِ بسيدِنا حاطبٍ يحدِّثنا قائلاً:

«كان لي مكرماً في الضيافةِ وقلةِ اللبثِ ببابِه، ما أقمتُ عنده إلا خمسةَ أَيام»[٢] وفي فترةِ وجودِ سيدِنا حاطبٍ بضيافةِ المقوقسِ كان يستوضحُ عن بعضِ أحوالِ رسولِ الله ﷺ، روى برهانُ الدين الحلبيّ في سيرتِه أنّ المقوقسَ سألَ سيدَنا حاطباً عن النبيِّ ﷺ: هل يكتحلُ؟ فقال له حاطب: نعم، وينظرُ في المرآة ويرجِّلُ شعرَه ولا يفارقَ خمساً في سفر كان أو في حضر وهي: المرآةُ، والمكحلةُ، والمشط، والمدرى، والمسواك[٣].

ولما انتهت مهمّةُ حاطبٍ مِن مصرَ ورجعَ أرسلَ معه المقوقسُ مجموعةً مِنَ الرجال يحرسونه ويوصلونه إلى مأمنِه ونجحَ سيدُنا حاطبٌ رضي الله عنه في سفارتِه أحسنَ نجاحٍ، وأدّى مهمتَه كأفضل ما يكونَ الأداء، وعادَ إلى رسولِ الله ﷺ وقدمَ له شرحاً عن مهمتِه السعيدةِ، وقدم له رسالةَ المقوقس وهداياه، فقبلَ رسولُ الله ﷺ الهديةَ تقديراً للعاطفةِ، وفازَ سيدُنا حاطبٌ بمرضاةِ الله سبحانه ورسولِه الكريمِ عليه الصلاة والسلام، ولم يكن سيدُنا حاطبٌ رضي الله عنه سفيراً للمرةِ الأولى هذه فحسب، بل كان السفيرَ الناجحَ بينَ النبيِّ ﷺ وبين أمِّ سلَمة رضي الله عنها وقد تكلَّلت سفارتُه تلك بالنجاح أيضاً[٤].....

* * *

---

(١) انظر مثلاً شرح العلامة الزرقاني على المواهب اللدنية للقسطلاني (٣/ ٣٥٠).
(٢) طبقات ابن سعد (١/ ٢٦١).
(٣) السيرة الحلبية (٣/ ٢٩٨).
(٤) انظر أنساب الأشراف (١/ ٤٣١).

درسٌ في العفو:

* نحنُ الآنَ في بدايةِ شهرِ رمضانَ مِنَ السنةِ الثامنةِ للهجرةِ النبويةِ، ورسولُ الله ﷺ يتجهّزُ لفتحِ مكةَ بعدَ أنْ نقضَتْ قريشٌ العهدَ والميثاقَ المتفقَ عليه معَ الرسولِ الكريمِ والمسلمين، وأرسلَ ﷺ إلى أهلَ الباديةِ ومَنْ حولَه مِنَ الأعرابِ أن يحضُروا رمضانَ بالمدينةِ قائلاً لهم:

«مَنْ كانَ يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخر فليحضرْ رمضانَ بالمدينة». فأخذتِ القبائلِ تتوافدُ على المدينة وتعسكرُ بأرضِها، وقدمتْ قبيلةُ أسلمَ وغفارٍ ومزينةَ وجهينةَ... وكان رسولُ الله ﷺ حريصاً كلَّ الحرصِ على ألا يريقَ دماً بمكةَ، ولذلك أخفى مقصدَه على الناسِ ووضعَ على الطرقِ والمداخلِ حراساً يراقبونها، فلا يَدعون أحداً يمرُّ بهم إلاَّ ردُّوه، فلما اجتمع الناسُ واحتشدوا أخبرَهم ﷺ أنه سائرٌ إلى مكَّةَ، وأمرهم بالجدّ والتهيُّؤ، ودعا الله أن يصرفَ الأنباءَ عن قريشٍ حتى يفاجِئَهم بأرضِهم فقال:

«اللهم خذِ العيونَ والأخبارَ عن قريشٍ حتى نبغتَها في بلادِها».

وطرقَ رسولُ الله ﷺ أسلوباً آخر في الإخفاء والتعميةِ، فبعثَ سريةً قوامُها ثمانيةُ رجالٍ تحت قيادةِ أبي قتادةَ بنِ ربعيّ إلى بطنِ أضم - فيما بين ذي خشب وذي المروة على ثلاثة بُرُد من المدينة - في أولِ شهرِ رمضانَ مِنَ السنةِ الثامنةِ للهجرة، ليظنّ الظانُّ أنّ الرسولَ ﷺ سيتوجَّه إلى هاتيك البقاعِ، ولتذهبَ بذلك الأخبارُ والعيونُ إلى مكةَ وغيرِها، وواصلَتِ السريةُ سَيْرَها حيث أمرَها رسولُ الله، ثم لحقتْ بالرسولِ في مكةَ حينما بلغَها خبرُ خروجِه ﷺ إليها، وكان رسولُ الله ﷺ يقومُ في يقظةٍ دائمةٍ وإلهامٍ بصيرٍ بالتقاطِ الأحداثِ والوقائعِ والمناسباتِ في كلِّ فرصة، واستخدامِها بحكمة بالغة في بناءِ هذه النفوسِ، والوحيُ والإلهامُ يؤيِّدانِه ويسدِّدانه ﷺ حتى تُصنعَ تلكَ الجماعةُ المختارةُ على عينِ الله بتوفيقِ الله على يديْ رسولِ الله.

* وكان بعضُ المهاجرين الذين تركوا ديارَهم وأموالَهم وأهلِيهم في سبيل

عقيدتهم، ما تزالُ نفوسُهم مشدودةً إلى بعضٍ ما خلَّفوا هنالك مِن ذُرِّية وأزواجٍ وذي قربى. وعلى الرغم من كلٍّ ما ذاقوا مِنَ العنتِ والأذى في قريش، فقد ظلَّتْ بعضُ النفوسِ تودُّ لو وقعتْ بينهم وبينَ أهلِ مكةَ المحاسَنةُ والمودّةُ. وفي تلك الظروفِ الدقيقةِ وقعَ ما لم يكن في الحِسبان، فقد لجأ سيدُنا حاطبُ بنُ أبي بلتعةَ في إحدى لحظاتِ الضعفِ البشريِّ إلى إرسالِ كتابٍ لقريشٍ يخبرُهم فيه بما عزم عليه رسولُ الله ﷺ من المسيرِ إليهم، وأرسلَ لهم كتابَه مع امرأةٍ مقابلَ أجرٍ لتبلِّغه قريشاً، وإليك حوادثُ هذه القصةِ التي نستنتجُ من خلالِها إحدى معجزاتِ رسولِ الله ﷺ الظاهرةِ حينما أخبرَ عما صنعه حاطبٌ، كما نتلمّس درسَ العفوِ الذي حبا به ﷺ حاطباً، تقول القصة كما جاءت في عدد من المصادر:

«إن سارةَ مولاةً لبني عبد المطلب، أتتْ رسولَ الله ﷺ مِن مكةَ إلى المدينةِ المنورة ورسولُ الله ﷺ يتجهَّزُ لفتحِ مكةَ، فقال لها: أمسلمةٌ جئت؟.

قالت: لا.

قال: فما جاءَ بكِ؟.

قالت: أنتمُ الأهلُ والعشيرةُ والموالي، وقد احتجت حاجةً شديدة فقدمت عليكم لتعطوني وتكسوني.

قال لها: فأينَ أنتِ مِن شبابِ أهلِ مكة؟ ـ وكانت مغنية ـ.

قالت: ما طُلبَ مني شيءٌ بعدَ وقعةِ بدر....

فحثَّ رسولُ الله ﷺ بني عبدِ المطّلب فكسَوْها وحملوها وأعطوها. فأتاها حاطبُ بنُ أبي بلتعة وكتب معها إلى أهل مكة وأعطاها عشرةَ دنانير على أن توصِلَه إلى أهلِ مكةَ وكتبَ في الكتاب:

مِن حاطب إلى أهلِ مكةَ، إنّ رسولَ الله ﷺ يريدُكم فخذوا حِذْرَكم.

فخرجت سارةُ، ونزلَ جبريلُ عليه السلام فأخبرَ النبيَّ ﷺ بما فعلَ حاطبٌ، فبعثَ رسولُ الله ﷺ عليّاً وعماراً والزبيرَ وطلحةَ والمقدادَ بنَ الأسود وأبا مرثد، وكانوا كلُّهم فرساناً وقال لهم:

«انطلقوا حتى تأتوا «روضة خاخ»[1] فإن بها ظعينةً[2] ومعها كتابٌ مِن حاطب إلى المشركين فخذوه منها وخلُّوا سبيلَها فإنْ لم تدفعْه إليكم فاضربوا عنقَها».

فخرجوا حتى أدركوها في ذلك المكان فقالوا لها: أينَ الكتابُ؟ فحلفتْ باللهِ ما معها كتابٌ. ففتّشوا متاعها فلم يجدوا معها كتاباً فهمُّوا بالرجوع فقال عليٌّ: والله ما كذبنا وما كُذِبنا وسلّ سيفَه وقال لها: أَخرجي الكتابَ وإلا والله لأجزرنَّك[3] ولأضربنَّ عنقَك. فلما رأتِ الجدَّ أخرجَتْه من ذوائِبها قد خبّأَتْه في شعرِها فخلُّوا سبيلَها، ورجَعوا بالكتاب إلى رسولِ الله ﷺ، فأرسلَ رسولُ الله ﷺ إلى حاطبٍ فأتاه وقال له:

هل تعرفُ هذا الكتابَ؟.

قال: نعم.

قال: فما حملَك على ما صنعتَ؟.

فقال: يا رسولَ اللهِ، واللهِ ما كفرتُ منذ أسلمتُ، ولا غَشَشْتُك منذ نصحتُـك، ولا أحببتُـهم منذ فارقتُـهم، ولكنْ لم يكن أحدٌ مِنَ المهاجرين إلا وله بمكة من يمنعُ عشيرتَه وكنتُ غريباً فيهم، وكان أهلي بين ظهرانيهم فخشيتُ على أهلي فأردتْ أن أتخذَ عندَهم يداً، وعلمتُ أنّ الله ينزلُ بهم بأسَه وكتابي لا يُغني عنهم شيئاً.

فصدّقه رسول الله ﷺ وعذره.

فنزلت هذه السورة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ

---

(١) روضة خاخ ـ موضع بين مكة والمدينة على اثني عشر ميلاً من المدينة.

(٢) ظعينة: هي المرأة في الهودج، والمرأة عامة وهو المراد هنا.

(٣) أجزرنك ـ أي أذبحنك ـ الجزر: الذبح.

أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١ إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ ۝٢ لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾ [الممتحنة: ١ ـ ٣]. فقام عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه فقال: دعْني أضرب عنقَ هذا المنافق.

فقال رسولُ الله ﷺ: «وما يُدريك يا عمرُ لعلّ الله اطلعَ على أهلِ بدرٍ فقال لهم: اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم»(١).

* إن سيدَنا حاطباً قد خرج بهذا العمل عن جادةِ الصواب وكان اجتهادُه بذلك في غيرِ محلِّه، وقد استكشفَ النبيُّ ﷺ خبيئةَ حاطب والرسولُ عليه الصلاة والسلام أعرفُ الناسِ بالرجالِ، فعرف ﷺ أن حاطباً صادقٌ فيما يقول، وأنه لم يكذبْ في اعتذارِه، فالصدقُ الذي فُطرَ عليه والاستقامةُ التي غذّي منها قد ظهرتْ في هذا الموقفِ دون مواربةٍ، ناهيك أن حاطباً قد شفعَ له ماضيه الناصعُ الكريم، فهو مِنَ المهاجرين الأوائل، ومن أهلِ بدر ومِن شجعانِ أُحُد والمشاهد كلها، لذا فقد أصدر النبيُّ الكريم ﷺ إلى أصحابه أن يذكروا حسناتِ حاطبٍ ويتجاوزوا عن عثرته هذهِ في كتابتِه إلى قريش، حتى إن كلماتِ الكتاب بالذات قد شفعتْ له، ودلّتْ على صدقِه وعميقِ إيمانِه، وهاكم نص الرسالة:

«إنّ رسولَ اللهِ ﷺ قد توجّه إليكم بجيشٍ كالليل، يسير كالسَّيل، وأقسمَ باللهِ لو سارَ إليكم وحدَه لينصرنّه الله تعالى عليكم، فإنه منجزٌ له ما وعده فيكم فإن الله تعالى ناصرُه ووليُّه»(٢).

* إذاً فعاطفةُ حبِّه لأهلِه قد تغلّبتْ عليه في ساعةِ ضعفٍ بشريّ، ولما كان المجتمعُ الإسلاميّ المدنيُّ مجتمعاً بشرياً، يعيشُ في واقعِ الحياةِ وبين

---

(١) انظر أسباب النزول للواحدي (٣٤٦ ـ ٣٤٧) طبعة دار ابن كثير. وانظر كذلك تفسير ابن كثير (٤/ ٣٦٩). وكذلك سيرة ابن هشام والسيرة الحلبية ومجمع الزوائد (٩/ ٣٠٣ ـ ٣٠٤).

(٢) عن السيرة الحلبية (٣/ ١١).

المشاعرِ الإنسانية وخواطرِ النفسِ ورغباتِها، كان الأفرادُ في هذا المجتمع يصيبونَ ويُخطئون، وقد يكونوا مؤوِّلين في تصرفاتِهم وأحكامِهم، وقد يجانبُهم الصوابُ في هذا التأويلِ وذلك من خصائص المجتمعات البشرية التي تتمتع بالحرية والثقة، وكان رسولُ الله ﷺ لا يقرُّهم على هذا الخطأ أو الهفوةِ يلتمسُ لهمُ العذرَ ويتسامحُ معهم، وكان معرفةً بفضلِهم وحسنِ بلائهم في الجهادِ وسوابِقهم الناصعةِ في الإسلام.

* من ناحيةٍ أخرى فقد كانَ الله سبحانه يريدُ استصفاء هذه النفوسِ واستخلاصَها مِن كلِّ الوشائجِ التي لا تمتُّ إلى الحقِّ بِصلة، كما يريد سبحانه تجريدَها لدِينه ونهجِه الذي ارتضى. وكانَ العربُ أشدَّ الناسِ احتفالاً بعصبية القبيلةِ فكانَ الله سبحانه يأخذُهم يوماً بعدَ يومٍ ودرساً بعد درس بعلاجِه الناجح، لذلك رأينا أنّ الآياتِ التي أُنزلت في قصةِ سيدِنا حاطبٍ قد شملت تحذيراً واضحاً مِن موالاة المشركين والسيرِ معهم في طريق واحد، لأنهم أعداءٌ لله ولدِين الله ولأولياءِ الله مِنَ المسلمين أيضاً، وقد أخرجَ المشركون - هؤلاء - الرسولَ والمؤمنين مِن بلدِ الله لا لشيءٍ أو ذنبٍ اقترفوه، بل لإيمانهم المطلق بالله سبحانه وتعالى وكفرهم بالأصنام، وقد عنَّفَ الله سبحانه وتعالى من يتّخذ مِنَ المشركين أولياءَ يفضي إليهم بالمودّةِ، لأنّ هؤلاء المشركين لو ظفروا بالمؤمنين فلا يتورّعون ساعتئذ عن إيذائهم بصنوف الأذى مِن قتلٍ وضرب، وحرص على رِدَّةِ مَن آمَن، وأوضحَ سبحانَه وتعالى أن القرابةَ والأولادَ هم الذين كانوا الحافزَ على إنشاءِ سرِّ الرسولِ ومكاشفةِ المشركين بما اعتزمَه على قتالِهم، ولكنّ الله عزَّ وجلَّ حسم الموقفَ بأنّ الذي ينفعُ يومَ القيامةِ هو العملُ الصالحُ وليسَ الأولادُ والأرحامُ.

* وهكذا فقد عُمِّم هذا القرارُ الإلهيُّ على جيش المسلمين كلِّه كيلا ينحرفوا عن جادةِ الصوابِ، ولتكونَ الأسرارُ بين المسلمين كالسلاحِ لا يفارقُ مقابضَ أيديهم، فلم يجرؤْ أحدٌ في قلبِه إيمانٌ باللهِ ورسولِه أن تحدِّثَه نفسُه بأهله أو ولدِه ممّن يقيمُ بين المشركين. ونجح جيشُ المسلمين في تطبيقِ القرارِ وفي المحافظة على السِّرِّيَّةِ التامةِ، وسارَ رسولُ الله ﷺ فدخلَ مكةَ مِن

أعلاها، وأمرَ قادةَ جيشِه ألاّ يقاتِلوا إلا مَنْ يقاتلُهم، فدخلتْ سائرُ فرقِ جيشِ المسلمين مِن أنحاءِ مكةَ الأخرى. ولما استقرّ الأمرُ شرعَ ﷺ يبايعُ الناسَ على الإسلام، فجاءَ الكبارُ والصغارُ والرجالُ والنساءُ وتمَّتِ البيعةُ على السمع والطاعةِ للهِ ولرسولِه، ودخلَ أهلُ مكةَ في الإسلام، وكان فتحاً ونصراً عظيماً. ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [سورة النصر].

* وتابع سيدُنا حاطب بنُ أبي بلتعة حياتَه بعد فتحِ مكةَ، ولم يتخلَّفْ عن مشهدٍ مِنَ المشاهدِ معَ الرسولِ الكريمِ ﷺ إلى أن تُوفي رسولُ الله وهو راضٍ عنه.

* * *

سفـارة ثـانيـة:

* تولّى سيدُنا أبو بكر الصدّيق رضوان الله عليه الخلافة، وعاش سيدُنا حاطبُ بنُ أبي بلتعةَ في ظلِّ خلافتِه يتابعُ رحلةَ جهادِه، ولم يتوقفْ عنِ العطاءِ من أجلِ الإسلامِ وأهلِه، فنالَ احترامَ الصِّديق رضي الله عنه، وقد وقع اختيارُه على سيدِنا حاطبٍ مرةً أخرى ليكونَ سفيرَه إلى المقوقسِ ثانيةً، روى ابن عبد البرّ في «الاستيعاب» قال:

بعثَ أبو بكر الصّديق رضي الله عنه حاطبَ بنَ أبي بلتعة إلى المقوقسِ بمصرَ فصالحهم، فلم يزالوا كذلك حتى دخلَها عمروُ بنَ العاص فنقضوا الصلحَ وقاتلَهم وافتتحَ مصرَ وذلك سنةَ عشرين في خلافةِ عمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه. . . .»[1].

مرة أخرة تُوِّجَتْ سفارةُ سيدِنا حاطبٍ بالنجاحِ والبركة، وحالفه التوفيقُ بدعوتِه القبطَ إلى الصلحِ والمسالمةِ، وعاد إلى المدينةِ المنورةِ يحملُ بشائرَ

---

(١) الاستيعاب (١/ ٣٤٩).

نجاحِه إلى سيدِنا أبي بكر الصّديق رضوان الله عليه، كما حملَ بشائرَ النجاحِ مِن قبلُ إلى رسولِ الله ﷺ.

* وظلّ سيدُنا حاطبُ بنُ أبي بلتعةَ يتابعُ جهادُه ونجاحَه في جميع المهمّات إلى أن لقيَ الله، وقد تركَ يومَ ماتَ أربعةَ آلافِ دينار ودراهمَ وداراً وغيرَ ذلك[1] مِن خلال تجارتِه الناجحةِ التي عملَ بها طيلةَ حياتِه.

* * *

بشارة حاطب بالجنة:

* قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧].

وقال تعالى:

﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح: ١٨].

* سيدُنا حاطبُ بنُ أبي بلتعةَ واحدٌ مِن أبناءِ مدرسةِ الرسولِ الكريم ﷺ، وواحدٌ مِنَ الصحابة النجباءِ وأحدُ السابقين الأوّلين إلى الإسلام، تخرّجَ في مدرسةِ النبوةِ برتبةٍ عاليةٍ وشهادةٍ كريمةٍ، وإليكَ الشهادة الأولى، فقد شهد الله سبحانَه وتعالى لسيدِنا حاطبِ بن أبي بلتعةَ بالإيمان في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ . . ﴾ [الممتحنة: ١]، وكفى بهذِه الشهادةِ رفعةً ومكانةً. وهذهِ شهادةٌ عظيمةٌ أخرى مِن رسولِ الله ﷺ، شهادةٌ تشدُّ مِن أَزْرِه بقولِه ﷺ يوم بدر: «اللهمّ إن تهلكْ هذه العصابة فلن تعبدَ في الأرض» وكان سيدُنا حاطبٌ مِن بينهم. وعند فتحِ مكةَ نالَ شهادةً أخرى في الصدق مِن رسولِ اللهِ أيضاً على الرغم مِن عثرتِه فقد توجّه النبيُّ الكريمُ إلى أصحابِه يخبرُهم عن سابقةِ حاطبِ إلى الإسلام وعن حسنِ بلائِه الطويلِ خلالَ حياتِه

---

(١) انظر طبقات ابن سعد (٣/ ١١٤ ـ ١١٥).

ثمّ قال لهم: «. . . . صدقَ ولا تقولوا له إلا خيراً. . . .»[1].

* وقد نالَ سيدُنا حاطبٌ رضوانُ الله عليه بحسنِ طَويَّتِهِ ونقاءِ نفسِه وصفائِها بشارةَ رسولِ الله ﷺ بالجنةِ، فعن جابرِ بنِ عبد الله رضي الله عنهما قال:

«جاء عبدٌ لحاطبِ بنِ أبي بلتعة رضي الله عنه أحدُ بني أسد يشتكي سيِّدَه فقال:

يا رسولَ الله، ليدخلَنَّ حاطبٌ النارَ.

فقال له رسول الله ﷺ:

كذبت لا يدخلُها إنه قد شهدَ بدراً والحديبية»[2].

ويستفاد من هذا الحديث الشريف أن سيدَنا حاطباً مِن أهلِ الجنة. . . ونرى في الحوارِ الذي دارَ بينَ رسولِ الله ﷺ وبين سيدِنا عمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه أنّ أهلَ بدرٍ كلُّهم قد بُشِّروا بالجنةِ، إذ قال النبيُّ ﷺ مخاطباً عمرَ في قصةِ حاطب:

«صدقَ لا تقولوا له إلا خيراً. . . .

قال عمر: إنه قد خانَ الله ورسولَه والمؤمنين فدعْني فلأضربْ عنقَه.

فقال: أليسَ مِن أهلِ بدر؟ فقال: لعلَّ الله اطَّلع على أهلِ بدرٍ فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبتْ لكم الجنةُ أو فقد غفرتُ لكم.

فدمعتْ عينا عمرَ وقال: الله ورسوله أعلم»[3].

فقوله ﷺ: «لعلّ الله اطَّلعَ على أهلِ بدر. . .» فيه بشارةٌ بالجنةِ لأهلِ بدرٍ

---

(١) الحديث في صحيح البخاري برقم (٣٧٦٢).

(٢) رواه مسلم في باب فضائل أهل بدر برقم (٢٤٩٤) وانظر تهذيب الأسماء واللغات للنووي (١/ ١٥٢). وانظر كذلك مجمع الزوائد (٩/ ٣٠٤).

(٣) الحديث في صحيح الإمام البخاري برقم (٣٧٦٢) وانظر أنساب الأشراف (١/ ٣٥٤). وانظر كذلك تفسير ابن كثير والقرطبي لبداية سورة الممتحنة.

جميعاً، وهذهِ البشارةُ ـ كما قال العلماء ـ لم تقع لغيرِهم رضي الله عنهم، لأنّ رسولَ الله ﷺ قد زكّاهم لحسنِ بلائِهم في غزوةِ بدر، فارتقوا إلى مقامٍ يقتضي الإنعامَ عليهم بالمغفرة مِنَ اللهِ سبحانَه وتعالى وذلك لِصدقِ نيّاتهم في الجهادِ وبذلِ نفوسِهم في سبيلِ مرضاةِ اللهِ ونصرةِ دينِه، أضفْ إلى ذلك كلِّه أن أهلَ بدرٍ كانوا هم خيار أهلِ الأرضِ آنذاك، وقد روى البخاريُّ في صحيحه فقال:

«سألَ جبريلُ النبيَّ ﷺ: كيفَ أهلُ بدرٍ فيكم؟.

قال: خيارُنا.

قال: وكذلك مَن شهدَ بدراً مِنَ الملائكة هم خيارُ الملائكة»[1].

* وبعد فماذا بقي عند سيدِنا حاطب؟ وماذا عن شخصيته؟ قال واصفوه: كانَ حاطبُ بنُ أبي بلتعةَ حسنَ الجسم، خفيفَ اللحيةِ وقّادَ الذهنِ صافي السريرةِ، وقد قيل في معنى البَلْتَع: الحاذقُ بكلِّ شيء[2]، والمتظرِّف المتكيِّس وكذلك اللسن الفصيح. ويقال: تبلتع الرجلُ في كلامِه إذا تظرّفَ فيه.

* ورُزق سيدُنا حاطبٌ بولدَين وهما: عبدُ الرحمن بنُ حاطب الذي وُلد في حياةِ النبيِّ ﷺ وله رؤية، وله ولدٌ آخرُ اسمُه يحيى بنُ حاطب، وكانت كنيةُ سيدِنا حاطبٍ «أبو عبد الله».

* وسيدُنا حاطبٌ رضي الله عنه ممّن روى بضعةَ أحاديث عن رسولِ الله ﷺ، فممّا روي عنه قولُه ﷺ: «منْ رآني بعدَ موتي فكأنما رآني في حياتي. ومن مات في أحد الحرمين بُعث في الآمنين يومَ القيامة»[3].

* ذلكم هو الصحابيُّ المجاهدُ سيدُنا حاطبُ بنُ أبي بلتعة الذي حظيَ

---

(١) صحيح البخاري ـ كتاب المغازي ـ باب فضل من شهد بدراً.
(٢) انظر القاموس المحيط مادة «البلتع».
(٣) الاستيعاب (١/ ٣٤٩).

ببشارةِ رسولِ الله ﷺ بالجنة، وتلك نفحاتٌ مِن حياتِه الطيبةِ الزكيةِ والغنيةِ بالعطاءِ في سبيل الله.

* ولما كانتِ السنةُ الثلاثون مِن هجرةِ المصطفى وإبّان خلافةِ سيدِنا عثمانَ بن عفّان رضوان الله عليه شعر سيدُنا حاطبٌ بقرب اللقاء معَ الله ومع الحبيبِ محمدٍ ﷺ، ولم تمضِ بضعةُ أيامٍ حتى صعدتْ روحُه إلى بارئها راضيةً مرضيةً، ودُفن بالمدينةِ المنوّرةِ وصلّى عليه الخليفةُ عثمانُ بنُ عفّان رضي الله عنه، وكان عمرُ سيدِنا حاطبٍ إذ ذاك خمساً وستين سنة[1].

* وفي صفحاتِ المجاهِدين الصادقين نقرأُ اسمَ سيدِنا حاطب بنِ أبي بلتعةَ معَ الذين رضيَ الله عنهم ورضوا عنه، واستحقّ حاطبٌ بصدقِ إيمانهِ الذي ينبعُ مِن قلبِه أن يكونَ في عِداد الذين قال الله سبحانه فيهم:

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

صدق الله العظيم

* * *

(١) انظر الإصابة (١/ ٣٠٠) وانظر كذلك تهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٥٢).

سيدنا

عبد الله بن سلام

رضي الله عنه

* الإمام الحبر المشهود له بالجنة.
* «أنت على الإسلام حتى تموت».
* «هو عاشر عشرة في الجنة».
* «يدخل من هذا الفج رجل من أهل الجنة يأكل هذه الفضلة» فجاء عبد الله بن سلام فأكلها.

مقــدمــة:

* كان يهودُ المدينة قد هيَّؤوا الناسَ لفكرةِ الدِّيانة السَّماوية، فقد كانوا أهلَ علمٍ وكتابٍ سماويّ، بينما كانَ الأوسُ والخزرجُ وثنيِّين، وكثيراً ما كان اليهودُ يُفاخرونَ الأَوس والخزرج بِدينهم وكتابِهم، ويعيِّرونَهم بوثنيتِهم ويهدِّدونَهم بقُربِ ظهورِ نبيٍّ يحطِّمُ الأصنام، واعتقد يهودُ المدينة أنَّه منهم، فكانوا يتوعّدون به عَرَبَ المدينة لما كانَ بينهم منْ ضغائن ومنافسات؛ فعن ابن عبّاس رضي الله عنهما، أنَّ يهودَ كانوا يستفتحون[1] على الأَوس والخزرج برسولِ الله ﷺ قبل مَبْعثِه، فلمّا بعثَهُ اللهُ منَ العربَ كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه، فقال لهم «معاذ بن جبل» و«بشر بن البراء»[2] رضي الله عنهما:

يا معشر يهود، اتّقوا الله وأسلِمُوا فقد كنتم تستفتحونَ علينا بمحمدٍ ونحن أهلُ شِرْكٍ، وتخبرونَنا أنَّه مبعوثٌ وتصفونَه لنا بصفِتِه.

فقال سلاَّمُ بنُ مِشْكم أَحَدُ بني النَّضير: ما جاءَنا بشيءٍ نعرفُه، ما هو بالذي كنَّا نذكره لكم[3] فأنزلَ الله في ذلك مِنْ قولهم: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[4].

---

(١) أي: يستنصرون عليهم به.

(٢) هو بشر بن البراء بن معرور الأنصاري الخزرجي السلمي، شهد العقبة وبدراً وأحداً وتوفي بخيبر حين فتحت سنة سبع من الهجرة من الأكلة التي أكلها مع رسول الله ﷺ من الشاة التي سمّتها اليهودية؛ كان بشر بن البراء أحد فضلاء الصحابة وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ لبني سلمة: مَنْ سيدكم يا بني سلمة؟ قالوا: الجدّ بن قيس على بخل فيه، فقال: وأي داء أدوى من البخل بل سيدكم الأبيض الجعد بشر بن البراء. رضي الله عنه.

(٣) انظر عيون الأثر (١/ ٢٥٦) والسيرة الحلبية (٢/ ٣٢٠).

(٤) سورة البقرة آية (٨٩) وانظر تفسير الماوردي «النُكَتُ والعيون» (١/ ١٣٦).

* وممّا هو جديرٌ بالذِّكر أنَّه لمْ يكنِ العلمُ بمبعثِ النبيِّ ﷺ مقصوراً على الأَحْبار أو الرهبان فحسب، بل كان الكهّان مِنَ العرب يعرفون كذلك شيئاً منه، وكانتْ هناك دلائلُ كثيرةٌ تدلُّ على أنَّ هذا الرسولَ الكريم هو: محمّدُ بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن قُصي... الذي ينتهي نسبُهُ إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وقد وَرَدَ أَنَّ بعضَ العرب سمّى ولده محمداً طمعاً في أنْ يكونَ هو النبيُّ المنتظر....

* ولمَّا أَرسلَ الله محمداً مِنَ العرب لا مِنَ اليهودِ، وامتلأتْ نفوسُهم بالحَسد والغيرة، وأكلَ الحقدُ والغيظُ قلوبَهم، وجعلوا يشكِّكون في نُبوّته وفي دِينهِ ويقولون:

ليسَ محمدٌ هو الرسولُ الذي كنَّا ننتظرُ، وليسَ دينُه هو الدّين الذي كنَّا نبتغي!.

وحرَّفوا ما جاء في كتابِهم عنه، وغيَّروا كل ما يدلُّ عليه مِنْ اسم أَو صفةٍ أو إِشَارةٍ، علماً بأَنَّ النبيَّ ﷺ جاء مصدِّقاً لِمَا بين أَيديهم منَ الكتاب، موافقاً لكلِّ ما يعرفون منْ صِفةِ هذا النبيِّ الأُميِّ الذي يجدونُه مكتوباً عندهم في التوراة، ولكنّ طبيعةَ الأَثَرة غلبتْ على نفوسِهم، إذْ يعتقدونَ أَنَّهم أبناءُ الله وأَحِبّاؤُه وشعبُه المختار في الأرض، وأَنَّ الرسلَ والأنبياءَ لا يكونون إلا منهم؛ وعزَّ عليهم أيضاً أَنْ يكونَ هذا النبيُّ مِنَ العرب، لذلك أضمروا له العداوةَ والبغْضَاء، وظلَّتِ العداوةُ كامنةً في صدورِهم لرسولِ الله ﷺ ولدعوتِه منذ بعثته.

ولما هاجَرَ ﷺ إلى المدينة كانوا أَوّلَ كافرٍ به، بل إنَّهم منذ اليومِ الأولِ الذي حلَّ فيه رسولُ الله ﷺ مدينته الطيِّبة، واجَهَهُ اليهودُ بالعداوة والكفر والمكرِ، وشجّعُوا بعضَ العرب على النِّفاق وإِلقاء أسئلة التَّعنتِ، وتواصَوا بينهم بالكيد الدائم للرسول والإسلام.

غير أَنَّ رجلاً منهم يُدعى «الحُصَين بن سلام» كان خيرَ أحبار اليهود وأَتْقاهم لله عزَّ وجلَّ، وأكثرهم عِلْماً، وكان يعلم أنَّ نبيّاً سيبعثُ، فلما سمع الحصينُ برسولِ الله ﷺ، رجع إلى التوراة وإلى سائرِ كُتبِ اليهود، فتأكّد من

صفةِ النّبيِّ واسمِه وزمانه وعلاماتِ نبوَّتِه، فأَسرَّ ذلك في نفسِه ولم يتكلمْ به لأحدٍ مِن قومِه، وراح يَسْتَقْصي جميعَ الأَخبارِ عن النَّبيِّ ﷺ، لأنَّه كانَ يعرفُ كما كانَ اليهودُ يعرفون أَنَّ الرسول عليه الصلاة والسلام ستكونُ دارُ هجرتِه المدينة[1]. وذلك بعد أَنْ يهجُرَ البلدَ الذي يُبعَثُ فيه.

وكان «الحصينُ» يرجو الله أَنْ يظلَّ على قيدِ الحياةِ ليكونَ إلى جانب هذا النبيِّ، وأولَ المؤمنين به والمصدِّقين له، وقد عبَّر عن رغبتِهِ هذه بقولِه لقومه:

«سيكون بينكم وبينَ قريشٍ قتالٌ، فإنْ أَدركني القتالُ وليس فيَّ قوة فاحملوني على سريرٍ حتى تضعوني بينِ الصَّفَين»[2] وقد أراد الله به الخيرَ، فبقيَ حتى أرسلَ الله رسولَه بالهدى ودينِ الحقّ، وكُتِبَ للحُصينِ بنِ سلام أَنْ يكونَ أحدَ الذين سعِدوا بالإسلام، فتعال نتعرّفَ على بطاقة «الحصينِ بنِ سَلاَم»، وعلى قصةِ إسلامِه.

* * *

إســلامُــه:

* يرتفع نسب «الحُصَيْنِ بنِ سَلاَم بنِ الحارث» إلى نبيِّ الله يوسفَ بنِ يعقوبَ عليهما السلام؛ كان الحصينُ حليفاً لبني الخزرج من الأنصار، كنيته «أبو يُوسف» وهو من بني قينقاع الذين كانوا يسكنون المدينةَ[3]؛ ولما قدِمَ رسولُ الله ﷺ إلى المدينةِ مهاجراً إليها، أسرعَ «الحصينُ بنُ سلام» يستطلعُ أخبارَ المصطفى عليه الصلاة والسلام، ونظرَ إلى رسولِ الله نظرةً فاحصةً ليستكشفَ حقيقتَه، فاطمأَنَّ إليهِ بعد التأكُّدِ والتّثبُّتِ مِن أحوالِه أَنَّ هذا النبيَّ ليس بكاذبٍ، بل هو النبيُّ الذي وَجَدَ صفتَه وملامحَه في التوراة، ولندعْ ابنَ

(١) انظر السيرة الحلبية (٢/ ٦٦٢).
(٢) انظر الاستيعاب (٢/ ٣٧٥).
(٣) انظر تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٧٠) والإصابة (٢/ ٢١٢).

سلام يروي لنا كيفيةَ قدومِ النبيُ ﷺ المدينةَ، ويصفُ لنا مشاعره نحوه فيقول:

«لما قدم النبيُ ﷺ انْجَفَلَ[1] الناسُ عليه وكنت فيمن انجفل، فلما رأيتُه عرفتُ أَنَّ وجهَه ليس بوجهِ كذّاب»[2].

* والآن، لنستمع إلى ابنِ سلام يقصُّ علينا نبأَ إسلامه، فإن لذلك قصةً شائقةً فيها العبرةُ والعظة، وفيها المتعةُ والمنفعة قال:

«لمّا سمعتُ برسولِ الله ﷺ، عرفتُ صفتَه واسمَه وزمانَه الذي كنَّا نتوكّفُ[3] له، فكنتُ مُسرّاً لذلك، صامتاً عليه، حتى قدمَ رسولُ الله ﷺ المدينة؛ فلما نزل بقُباء في بني عمرِو بنِ عوف، أقبلَ رجلٌ حتى أخبرَ بقدومِه وأنا في رأسِ نخلةٍ لي أعملُ فيها، وعمتي خالدة ابنةُ الحارثِ تحتي جالسةٌ، فلما سمعتُ الخبرَ بقدومِ رسول الله ﷺ كبّرتُ، فقالت لي عمتي حين سمعتْ تكبيري: خيَّبكَ الله، والله لو كنت سمعتَ بموسى بنِ عمرانَ قادماً ما زدتَ.

قال: فقلتُ لها: أيّ عمّة، هو والله أخو «موسى بنِ عمران» وعلى دِينهِ بُعِثَ بما بُعِثَ به.

فقالت: أي ابن أخي، أَهوَ النبيُّ الذي كنَّا نُخبر أَنَّه يُبعَثُ مع نَفْس الساعة؟.

فقلت لها: نعم.

فقالت: فذاك إذاً.

قال: ثم خرجتُ إلى رسولِ الله ﷺ فأسلمتُ»[4].

---

(١) انجفل الناس عليه: أي ذهبوا مسرعين إليه.
(٢) انظر سير أعلام النبلاء (٢/ ٤١٤) والاستيعاب (٢/ ٣٧٤) والسيرة الحلبية (٢/ ٣٢٤).
(٣) نتوكف: أي نترقب ونتوقع.
(٤) انظر السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٥١٦ ـ ٥١٧) وانظر البداية والنهاية (٣/ ٢١١).

* ولمّا أَعلنَ «الحصينُ بنُ سلام» إِسْلامه، سمع كلماتٍ مِنَ الرسول ﷺ كانَ لها عظيم الأثرِ في نفسِه، يقول ابن سلام: وكان أَولُ شيءٍ سمعتُه مِنَ الرسول ﷺ: «أيُّها النَّاس أَفْشُوا السَّلام، وأطعِمُوا الطَّعام، وصِلُوا الأرحام، وصَلُّوا بالليل والناس نيام، تدخُلوا الجنَّة بِسَلام»[1].

* هذه هي بدايةُ اللقاءِ السعيد بين رسول الله ﷺ وبين «الحصين بنِ سلام»، وكان لقاءً مباركاً بدأ يُؤتي أُكُلَه منذ اللحظةِ الأولَى لإعلانِ الحصينِ إسلامَه، يقول صاحب كتاب «الاستيعاب»: «فلما أَسْلَم سمَّاه رسولُ الله ﷺ عبدَ الله»[2].

* استبشر «عبدُ الله بنُ سلام» بهذه البداية المباركةِ مع النبيِّ ﷺ، ثمَّ استأْذنَ مِنْ رسول الله وعاد إلى أهلِهِ وقال لهم: قد تبيَّنَ الحقُّ منَ الباطل، فأدعوكُم إلى الله وإلى نبيِّه، ثم عرضَ عليهمُ الإسْلاَم ودعاهم عليهم فاستجابوا وأسلموا؛ فاستطار فؤاده فرحاً بإِسْلامِهم وهدايتهم إلى الإسلام.

لم يكنْ إسلامُ «عبد الله بن سلام» ليمرَّ مروراً عابراً دون أثر، فقد كان مِنْ كبار أحْبارِ اليهود الذين يُعْتَمد عليهم ويُؤخذُ برأيهم؛ ولكن ما رأيُ قومِه في إسلامِه غيرِ المتوقع عندهم؟.

لندع «عبدَ الله بنَ سلام» يروي لنا بقيةَ قصةِ إسلامِه ويعطينا صورةً جليّةً عِنِ اليهود الذين ينكرون الضياءَ في وضح النَّهار يقول:

«وكتمتُ إسلامي مِنْ يهود، ثم جئتُ رسولَ الله ﷺ فقلت له: يا رسول الله؛ إنَّ يهودَ قومٌ بُهُت[3] وإني أحبُ أَنْ تُدخلني في بعض بيوتِك وتُغَيِّبني عنهم ثم تسألهُم عني حتى يخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا بإسلامي، فإنَّهم إنْ علموا به بهتوني وعابوني. قال: فأدخلني رسولُ الله ﷺ في بعض

(١) انظر الاستيعاب (٢/ ٣٧٤) والحديث أخرجه الترمذي وأحمد.
(٢) انظر الاستيعاب (٢/ ٣٧٤) وانظر كذلك تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٧١) وعيون الأثر (١/ ٢٤٩).
(٣) قوم بُهُت: أي هم أهل باطل يفترون الكذب.

بيوته ودخلوا عليه فكلّموه وسألوه. ثم قال لهم:

«أيّ رجلٍ الحصينُ بنُ سلام فيكم»؟.

قالوا: سيّدنا وابنُ سيّدِنا وحَبْرُنا وعالِمُنَا.

قال عبدُ الله بنُ سلام: فلمّا فرغوا مِن قولهم خرجتُ عليهم فقلتُ لهم: يا معشرَ يهود اتقوا الله واقْبَلوا ما جاءَكم به، فوالله إنكم لَتعلمون إنَّه لَرسولُ الله تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة باسْمِه وصفتِهِ، فإني أشهدُ أنَّه رسولُ الله ﷺ وأُومنُ به وأصدِّقُه وأعرفُه فقالوا: كذبتَ ثم وقعوا بي.

قال: فقلتُ لرسولِ الله ﷺ: ألمْ أُخبرْكَ يا رسولَ الله أَنَّهم قوم بهتٌ أهلُ غدرٍ وكذبٍ وفجورٍ.

قال: فأظهرتُ إسلامي وإسلامَ أهلِ بيتي، وأسلمتْ عمتي خالدة بنتُ الحارث فحسُن إسلامُها»[1].

* لم ينجُ «عبدُ الله بنُ سلام» من ألسنةِ اليهودِ أو مِنْ إيذائهم فقد ألصقوا به كلَّ عيب، ولم يخطرْ ببالهم أنَّ رجلاً مِن مثلِ ابن سلام يُشْهِرُ إسلامَه! ويتخلى عن دينِ اليهود ببساطةٍ وسهولة!﴿ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾[2] وظلَّتِ العداوةُ كامنةً في صدورِهم للدعوةِ الإسلامية وللرسولِ ﷺ، فقد حَدَّتَ دعوةُ الإسلام مِن مبادئهم الواهيةِ التي تعتمدُ على المنفعةِ والمادّة؛ وبرزتْ أحقادُهم مِنْ قلوبِهم الخربةِ ونفوسِهم المعوَجَّةِ؛ فقد روى ابنُ إسحاقَ مِن حديثِ أمِّ المؤمنين «صفية بنت حيي بن أخطب» زوجِ رسولِ الله ﷺ أَنَّها قالتْ:

كنتُ أحبَّ وَلَدِ أبي إليه وإلى عمّي أبي ياسر، لم أَلْقَهُما قطّ مع ولدِهما إلا أخذاني دونه؛ قالت: فلما قدم رسول الله ﷺ المدينةَ، ونزل بقُباء في بني عمرو بن عوف، غدا عليه أبي وعمي مُغَلِّسَيْن، فلم يرجعا حتى كان مع غروبِ الشمس، فأتيا فاترَيْن كسلانَيْن ساقِطين، يمشيان الهوينى، قالت:

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٥١٧). وانظر البداية والنهاية (٣/ ٢١٠) بمعنى قريب.

(٢) الآية الخامسة من سورة ص.

فهشْشتُ إليهما كما كنت أصنعُ، فوالله ما التفتَ إليَّ واحدٌ منهما مما بهما مِنَ الغمِّ، وسمعتُ عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي حُيَيّ بنِ أخطبَ: أهو هو؟ قال: نعم والله، قال: أتعرفُه وتُثبتُه؟ قالَ: نعم، قال: فما في نفسِك منه؟ قال: عداوتُه ـ والله ـ ما بقيتُ».

* أمّا رسولُ الله ﷺ فقد جاءَ إلى المدينةِ ومدَّ يدَه إلى اليهود مصافحاً؛ وتحمَّل الأذيةَ منهم، وكان شعاره عليه الصلاة والسلام العفو والتسامح؛ وكان من المتوقّع أنْ يرحِّبَ اليهودُ بالإسلام، فمحمد ﷺ يدعو إلى توحيدِ الله عزَّ وجلَّ وإصلاحِ العملِ والنفوس، ومنْ ثمَّ الاستعدادِ للآخرة، أضِفْ إلى ذلك كلِّهِ أَنَّ الإسلامَ قد نوّه بالتوراة، ووقَّر موسى عليه السَّلام، وطلبَ مِنَ اليهود التزامَ الحدود، لكنَّهم قابلُوا الإحسانَ بالإساءَة، وعرفوا الحق فسلكوا طريق الغوايةِ والضّلالِ حسداً منهم وبغياً، وتنكَّروا لأعْظم أَحْبَارهم «عبد الله بن سلام» لمجردِ إسلامه، وتواصَوا فيما بينهم أَنْ يشتدّوا في تكذيبهم لرسولِ الله ﷺ وصدِّ الناس عن دينه، علماً بأنَّ عدداً من أحبارهم ورؤسائهم قد اعترف أمامهم بنبوة محمدٍ في مواقفَ متعددةٍ، ومناسباتٍ متنوعة.

فهذا «سَلاَّمُ بنُ مِشْكَم» اليهوديّ وكان صاحب مكانة في قومه، يقول لهم ناصحاً ومحذِّراً من مخالفة الرسولِ ﷺ: «يا قوم، أطيعوني هذه المرة وخالفوني الدّهر».

وهذا أَحدُ أَعلامهم «كنانة بنْ صوريا» يشعرُ بغدرِ قومِه اليهود مراراً ويعترفُ بأنَّ محمداً رسول الله، ويطلبُ مِن قومِه أنْ يكفّوا عن عداءِ رسولِ الله ﷺ، والإيمانَ به وبما جاء فيقول:

«واللهِ إنَّه لرسولُ الله، فآمِنوا به واقبلوا منه».

لكنَّ رأيَه قوبلِ بالازدراء والنقص والجبن؛ كما قُوبلَ رأيُ «كَعب بن أَسَد» أَحدِ أسيادِهم بالإعراضِ في أشدِّ الأوقاتِ حَرجاً وضيْقاً عليهم»[1].

---

(١) انظرالدرر (٢٠٣). وللمزيد من هذه الأخبار انظر السيرة النبوية لابن هشام في مواطن متفرقة وكذلك انظر عيون الأثر.

مَنَاقِبُ عَبدِ اللهِ بنِ سَلاَمٍ ومَكَانَتُهُ:

* كُتِبَ لعبدِ الله بنِ سلام أنْ يكونَ مِنَ السُّعداء، فقد سلكَ طريق الحقِّ والهدى، منذ أنْ قدمَ رسولُ الله ﷺ المدينةَ، وها هو يستقبلُ أولَ يوم منْ أيام الإسلام بصدرٍ مُنْشَرِح، ويودعُ آخِرَ يوم مِنْ أيامِ اليهودية غير مأسُوفٍ عليه، فلقد رأى ببصيرتِه وعقلِه ما جعل قلبَه يشعرُ بالاطمئنان ونفسَه تشعُّ بالنّور، فأَصْلحَ نفسَه وأنابَ لربِّهِ وخشعتْ جوارحه لخالقِه، فكان مِنَ الأوائلِ ومِنَ الفضلاءِ والصالحينَ.

* حظي سيدُنا «عبدُ الله بنُ سلام» بمكانةٍ ساميةٍ بين الصحابةِ الكرامِ رضوانُ الله عليهم، وقد أكرمَ رسول الله ﷺ مثواهُ؛ وأقبل «عبد الله بنُ سلام» على القرآنِ الكريم يتلوه آناءَ الليلِ وأطرافَ النهارِ، وتوجَّه إلى رسول الله بسمعِه وبصرِه ينهلُ مِنَ المعينِ النبويّ، ولم يلتفتْ إلى أقوالِ اليهود ونَعْتِهم له ولِمَنْ أَسْلمَ معه بالشَّرِّ، روى ابن إسحاق قال:

ولما أَسلَم «عبدُ الله بنُ سلام» و«ثعلبةُ بنُ سعية» و«أُسيدُ بن سعية» و«أسدُ بن عبيد» ومَنْ أَسَلَمَ مِنَ اليهود معهم[1] فآمَنوا وصدّقوا ورغبوا في الإسلام ورسَخوا فيه، قالتْ أحْبارُ يهود أهلُ الكفر منهم: ما آمنَ بمحمدٍ ولا اتّبعه إلا شرارنا، ولو كانوا مِن خيارِنا ما تركوا دينَ آبائِهم وذهبوا إلى غيره، فأنزلَ الله تعالى في ذلك مِن قولهم:

﴿ ۞ لَيْسُوا سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾[2].

* وقد روي أيضاً أنه نزل في «عبد الله بنِ سلام» قولُه تعالى:

---

(١) مما هو جدير بالذكر أنه بلغ عدد مَنْ أسلم من اليهود وكان له شرف الصحبة (٣٩) تسعة وثلاثون رجلاً جاءت أسماؤهم وتراجمهم في كتب طبقات الصحابة.

(٢) سورة آل عمران آية (١١٣) وانظر سيرة ابن هشام (١/ ٥٥٧) وانظر كذلك تفسير الماوردي (١/ ٣٣٩).

﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾(١).

وكذلك نزل فيه قولُه تعالى أيضاً:

﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ﴾(٢).

* سجَّل «عبدُ الله بنُ سلام» آثاراً رائعةً على صفحات التاريخ، وظلّتْ منزلتُه عظيمةً، وأخذ مكانَه بين الصحابة الكرامِ رضوان الله عليهم، وأضحى مِنَ الرجالِ العظماءِ الذين ربّاهم سيدُنا محمدٌ ﷺ على معرفةِ الحقِّ والخيرِ، فصدقوا الله في عملِهم ونهضوا بالأمانةِ التي أُوكلتْ إليهم بأحسنِ صورها.

وقد أضاف سيدُنا «عبدُ الله بنُ سلام» كثيراً مِنَ المكرمات إلى سِجلِّه، فمنذ اللحظةِ الأُولى لدخولِه في دين الله، تغيّرت عندَه موازينُ الحياةِ، فلم يكنْ إسلامُه إسلاماً نظرياً فحسب، بل قَرَنَ الإيمانَ بالعملِ، فانطلقَ إلى أهلِه وعرضَ عليهمُ الإسلامَ جميعاً، ولم تتوقفْ دعوتُه رضي الله عنه إلى الإسلام عندَ أهلِ بيتِه فحسب، بل تعدّت إلى أقربائِه جميعاً.

فقد روي أنّ عبدَ الله بنَ سلام دعا ابنيْ أَخيه «سلمَةَ ومُهَاجراً» إلى الإسلام قائلاً لهما: لقد علمتما أنَّ الله تعالى قال في التوراة: «إني باعث من ولد إسماعيل نبياً اسمه أَحْمد مَنْ آمن به فقد اهتدى ومن لم يؤمن به فهو ملعون».

فأسلَمَ سلمةُ وأبي مهاجر، فنزلت الآية:

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [البقرة: ١٣٠].

وظلَّ يعملُ ويسلكُ الطريقَ الموصلةَ للخيرَ والإسلام مهما كان في هذه الطريق مِن صعوباتٍ أو مشاق، ويقفُ في وجوه اليهود في شجاعةٍ وإيمانٍ راسخَيْن، ويقاومُ ما يصنعُه اليهودُ وما يزيّفونَهُ مِن حقائقَ، وقد وقفَ مراراً

(١) سورة الرعد آية (٤٣) انظر تفسير الماوردي (٢/ ٣٣٦).
(٢) سورة الأحقاف آية (١٠) انظر تفسير الماوردي (٤/ ٢٧ ـ ٢٨).

بوجهِ اليهود يكشفُ فضائحهم وكذبَهم وتحريفهم التوراة[١].

* وأخذ سيدُنا «عبدُ الله بنُ سلام» يلازُم مجالسَ الرسولِ ﷺ، ويسألُه عن بعضِ الأمورِ النّافعةِ التي تزيدُ مِنْ إيمانه، وكانتِ الإجابةُ مِنْ رسولِ الله تفتحُ قلبَه على الهدى، وتجعلُ نفسَه تهرعُ إلى اللهِ متجرِّدةً تنفرُ مِنْ شوائبِ الشِّرك، وعَبَثِ اليهودية، فعن «أنس بنِ مالك» رضي الله عنه أَنَّ «عبد الله بن سلام» بلَغَهُ مقدمُ النبيِّ ﷺ المدينةَ، فأتاهُ يسألُه عن أشياء فقال:

إنِّي سائلك عنْ ثلاثٍ لا يعلمُهنَّ إلاَّ نبيّ:

ما أَوّل أشْراطِ السّاعة؟.

وما أول ما يأكلُ أهلُ الجنّة؟.

وما بالُ الولدِ ينزعُ إلى أبيه أو إلى أمه؟.

قال: «أخبرَني به جبريلُ آنفاً».

قال: ذاكَ عدوُّ اليهود مِنَ الملائكة.

قال: «أمّا أوّلُ أشراطِ الساعةِ فنارٌ تحشرُهم مِنَ المشرقِ إلى المغْربِ.

وأمّا أولُ طعامٍ يأكلهُ أَهلُ الجنّة فزيادة كَبِدِ الحوت[٢].

وأمّا الولدُ فإذا سبقَ ماءُ الرجلِ ماءَ المرأة نزع الولدَ، وإذا سبق ماءُ المرأة ماءَ الرجل نزعتِ الولدَ».

قال: أشهدُ أَنْ لا إله إلا الله وأنّك رسولُ الله...»[٣].

* نعم إِنَّ سيدَنا محمداً ﷺ وَصَلَ الناس بربِّهم بهذا الأسلوب العظيم، ولم يكن سؤالُ «عبدِ الله بنِ سَلاَم» لرسول الله سؤالَ تشكيكٍ أو عناد، بل زادَ مِنْ يقينه بالله سبحانه وتصديقاً للرسول عليه الصلاة والسلام، فامتلأَ قلبُه

---

(١) انظر على سبيل المثال قصة الرجم في السيرة الحلبية (٢/ ٣٣٤ ـ ٣٣٥).

(٢) وهي القطعة المنفردة المعلقة بالكبد وهي في الطعم في غاية اللذة.

(٣) فتح الباري (٧/ ٢٧٢) وانظر سير أعلام النبلاء (٢/ ٤١٤ ـ ٤١٥) والبداية والنهاية (٣/ ٢١١).

بالهدى فلم يعدْ يَسَعُ شيئاً بعده؛ وقد شهد القرآن الكريمَ لسيدِنا عبدِ الله ابنِ سلام بالإيمان ـ وأيُّ شهادةٍ تعدلُ شهادةَ القرآن ـ فقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ. . .﴾ [آل عمران: ١٩٩].

يقول الماوردي في تفسيرِه القيِّم «النُكَتُ والعُيون»: إنَّ هذهِ الآية نزلتْ في «عبدِ الله بنِ سلام»[١] رضي الله عنه.

* وشهدَ رسولُ الله لعبدِ الله بن سلام شهادةً بالإسلام فنالَ عبدُ الله شهادتَين كبيرتين، شهادةَ القرآنِ الكريم وشهادةً مِنْ رسولِ الله ﷺ إذْ قالَ له:

«أنْتَ على الإسلام حتى تموت»[٢].

استبشرَ سيدُنا «عبدُ الله بنُ سلام» الخيرَ بهذه البشارةِ العظيمةِ وامتلأتْ نفسُه بالأنوار، وصدقَ الله ما عاهَده عليه، فنالَ بذلك ثقةَ رسولِ الله ﷺ، وأَوْكلَ إليهِ بعضَ المهَام العظيمةِ التي تدلُّ على حُسْنِ الظَّنِ به، فقامَ بمَهَامِّهِ خيرَ قيام.

* كان اليهودُ والمنافقون هُمُ العدوّ القريب للمسلمين في المدينة، وكانتْ مظاهرُ العداوة تتأَجّجُ في نفوسِهم جميعاً، وتنطقُ بها ألسنتُهم. وقد بَدَتْ بعضُ مظاهر الغدرِ مِنَ اليهودِ في كثير مِنَ الحالاتِ وبخاصةٍ يهود بني النَّضير الذينَ ساءَهم إجلاءُ إخوانِهم بني قينقاع عنِ المدينة منذُ وقتٍ غير بعيد، وحزَّ في نفوسِهم انتشارُ الإسلام، وظلُّوا يتربصون بالرسول والمسلمين، وهمّوا باغتيالِ النبيِّ ﷺ في مَسَاكنهم إذ حاول «عمرو بن

---

(١) تفسير الماوردي (١/ ٣٥٧) وانظر المغازي (١/ ٣٢٩).

(٢) وهذه العبارة المخاطَب بها عبد الله بن سلام هي إحدى معجزات الرسول ﷺ لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، حيث ظل عبد الله بن سلام على الإسلام ونال بشارة الرسول الكريم بالجنة. انظر تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٣٥).

جحّاش بن كعب»[1] ـ أحدُ الحاقدين منهم ـ أَنْ يلقي على الرسولِ صخرةً مِن على ظهرِ أحدِ بيوتهم، ولكنَّ الله سبحانه ردَّ كيدهم وحقدهم إلى نحورهم، ونصرَ رسولَه عليهم، فأجلاهم عن المدينة إلى خيبرَ والشَّامِ، وخرّبوا بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين، وكان عبدُ الله بن سلام رضي الله عنه مع رسولِ الله ﷺ في هذه الغزوة، وقد أَوْكَل إليه عليه الصلاة والسلام قَطْعَ نخلِ بني النضير؛ فقد روي أنَّ النبي ﷺ أمر بالنخلِ فقُطعتْ وحرّقت واستعملَ على قطعها رجلَين مِن أصحابِه لهما خبرةٌ بالنّخل وهما «أبو ليلى المازني»، و«عبدُ الله بن سلام»، فكان أبو ليلى يقطعُ العجوةَ، وكان «عبدُ الله بنُ سلام» يقطعُ اللَّوْنَ[2] فقيل لهما في ذلك فقال أبو ليلى:

كانتِ العجوةُ أَحْرَقَ لهم.

وقالَ «عبدُ الله بنُ سلام»:

قد عرفتُ أَنَّ الله سيغنمُه أمْوالَهم، وكانت العجوةُ خيرَ أَموالهم، فنزل في ذلك رضاءً بما صنعْنَا جميعاً: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ ألوانَ النّخيل للذي فعل ابن سلام ﴿أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾ يعني العجوة ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وقطع أبو ليلى العجوة ﴿وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[3] يعني بني النّضير[4].

* ولما كانت غزوةُ بني قُريظة، كان لعبدِ اللهِ بنِ سلام دورٌ مهمّ فيها، حيثُ أوكلَ إليهِ الرسولُ ﷺ عملاً له أهميةٌ تدلُّ على مدى ثقتِه عليه الصلاة والسلام به، وذلك لما نزل بنو قريظة على حكم النبيِّ ﷺ، فأمرَ بهم رسولُ الله ﷺ «محمدَ بنَ مسلمة» فكُتِّفوا ونُحُّوا ناحية، وأُخرج النساء والذرية

---

(١) انظر القصة في فتح الباري (٧/ ٣٣١) وعيون الأثر (٢/ ٦٧) وكذلك في مواضع متفرقة من سيرة ابن هشام.

(٢) اللون: نوع من النخل.

(٣) سورة الحشر آية (٥).

(٤) انظر المغازي للواقدي (١/ ٣٧٢) والسيرة الحلبية (٢/ ٥٦٣).

فكانوا ناحية، واستعمل عليهم «عبدَ الله بنَ سلام»[1]؛ وقد قام «عبدُ الله ابن سلام» رضي الله عنه بأَداءِ مهمتِه أحسنَ قيام، فنال رضاءَ اللهِ ورضاءَ رسولِه ﷺ.... واستمرّ يقدِّم كلَّ ما يستطيعُ، ويعملُ كلَّ ما يرضي الله ورسوله إلى أَنْ لقي الله تعالى.

* أقبل «عبدُ الله بنَ سلام» رضي الله عنه على العبادة بنشاطٍ وهمّة، وترك عَرَض الدنيا وزخرفها وراء ظهرِه وزهدَ في الحياة، وراح يطبِّق تعاليمَ الدِّين الإسلاميِّ قولاً وعملاً، وأصبحَ رسولُ الله ﷺ مَثَلَه الأعلى، وتشرَّبَ الأخلاقَ النَّبوية، فَسَرَتْ في نفسِه أضواءُ الحقيقة، فلم يعدْ يهمُّه رأيُ الآخرين ما دام الأمرُ سمعَه مِنْ رسولِ الله ﷺ أو شاهدَه منه.

فقد روي أَنَّ «عبدَ الله بنَ سلام» رضي الله عنه مَرَّ في السوق وعليه حزمة مِنْ حَطَب فقيلَ له: أليسَ أَغناكَ الله؟!.

قال: بلى، ولكن أردتُ أَنْ أقمعَ الكِبْرَ، سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول:

«لا يدخلُ الجنة مَنْ كان في قلبِه مثْقالُ حبةِ خردلٍ مِنْ كِبْر»[2].

* كان سيدُنا «عبدُ الله بنُ سلام» يقتدي بالنبيِّ ﷺ في أعمالِه كلِّها؛ وكان يحتفظُ بقدحٍ قدْ شربَ منهُ النَّبيُّ الكريم ﷺ، ويصلِّي في مكان سجودِ النبيِّ ﷺ أيضاً؛ فعن أبي بُردَة قال:

«قدمتُ المدينةَ، فلقيتُ «عبدَ الله بنَ سلام» فقال:

ألا تجيء فأطعمكَ سَويقاً وتمراً، وتدخل في بيت - وفي رواية انطلقْ إلى المنزل فأسقيكَ في قدحٍ شربَ فيه رسول الله ﷺ، وتصلِّي في مسجدٍ صلى فيه النبيُّ ﷺ - فانطلقتُ معه فسقاني سَويقاً وأطعمني تمراً، وصليتُ في مسجدِه»[3].

---

(١) انظر طبقات ابن سعد (٢/ ٧٥).
(٢) سير أعلام النبلاء (٢/ ٤١٩) وانظر حياة الصحابة للكاندهلوي (٢/ ٥٦٩).
(٣) انظر جامع الأصول لابن الأثير (٩/ ٨٥).

* استطاع سيدُنا «عبد الله بن سلام» أَنْ يحظى مرةً أخرى بمرضاةِ اللهِ ورسولِه فقد روي أَنَّ «عبدَ الله بنَ سلام» أقبلَ ومعه نفرٌ مِنْ قومه قد آمنوا فقالوا: يا رسولَ الله، إنَّ منازلَنا بعيدةٌ وليس لنا مجلسٌ ولا متحدَّث، وإنَّ قومَنا لمَّا رأَوْنا آمنّا باللهِ ورسولِه وصدّقناه، رفضوا وآلوا على أَنفسِهم أَلاَّ يجالسونا ولا يناكحونا ولا يكلِّمونا، ولا نستطيعُ مجالسةَ أصحابِك لبُعْدِ المنازلِ، وشكا ما يلقى مَنِ اليهود فنزلتْ هذه الآيـة فقرأها عليه رسول الله ﷺ ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ . . .﴾[1] فقال: رضينا بالله وبرسوله وبالمؤمنين أولياء[2].

* * *

عَبـد الله بـنُ سَــلام والصَّحـابــة:

* ارتقى صحابةُ رسولِ اللهِ رضوان الله عليهم مكاناً علياً في مقامِ العبادةِ والعملِ، وسرُّ الارتقاءِ الروحيِّ والجماعيِّ الذي أدركه هؤلاءِ الأعلامُ، هو أَنَّهم كانوا موصولينَ بالله تعالى على أَسَاسٍ صحيحٍ وبناءٍ متينٍ، خَالٍ من التصدُّعِ والشَّوائب، فلم يعانوا من الشرودِ أو الحيرةِ، لأَنَّهم اقتربوا مِنْ منابعِ الصَّفاءِ، والتفُّوا حولَ النبيِّ ﷺ فكانوا له تلامذةً مخلصينَ فزكتْ نفوسُهم بصحبتِه، وأضحى تاريخُهم نَاصعاً مُشرقاً، ينضَحُ بالطيب وينطقُ بالحكمةِ وفصلِ الخطاب؛ وسيدُنا «عبدُ الله بنُ سلام» رضي الله عنه واحدٌ مِنْ أولئكَ الصَّحابةِ الذين حظوا بصحبتِه ﷺ، ونالوا المرتبة العالية، فاكتسبَ ثقة الصَّحابة فأخذوا يسألونه عمّا سمعَ مِنْ رسولِ الله، ويتدارسون ما سمعوه مِنَ الرَّسولِ الكريم عليه الصلاة والسلام، «فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لقد لقيتُ «عبدَ الله بنَ سَلاَم» فقلتُ له: أخبرني عَنْ ساعةِ الإجابة يوم الجمعة.

فقال: في آخرِ ساعةٍ في يومِ الجمعة.

---

(١) سورة المائدة آية (٥٥).
(٢) انظر تفسير الماوردي (١/ ٤٧٣).

قلت: وكيفَ وقد قال رسولُ الله ﷺ: «لا يُصَادفُها عبدٌ مسلمٌ وهو يصلِّي» وتلك السَّاعةُ لا صلاةَ فيها؟.

فقال: ألمْ يَقُلْ رسول الله ﷺ: «مَنْ جلسَ مجلساً ينتظر الصلاة فهو في صلاةٍ حتى يصلي»[1].

روي أنَّ «عبدَ الله بنَ سلام» قد تلقّى جوابَ أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ، فعن «عبدِ الله بنِ سلام» رضي الله تعالى عنه قال: «قلتُ ورسولُ الله ﷺ جالسٌ: إنَّا لنجد في كتابنا ـ يعني التوراة ـ في الجمعةِ ساعةً لا يوافقِها عبدٌ مؤمنٌ يسألُ الله عزَّ وجل فيها شيئاً إلا قضى حاجته. قال عبد الله بن سلام: فأشار إليّ رسولُ الله ﷺ «أو بعضَ ساعة» فقلت: صدقتَ يا رسول الله، أو بعضَ ساعة، فقلتُ: أيُّ ساعةٍ هي؟ قال: «آخرُ ساعةٍ مِن ساعاتِ النهار»، قلتُ: إنها ليست ساعة صلاة! قال: «بلى إنَّ العبد المؤمن إذا صلّى ثم جلس لا يحبسُه إلا الصلاةُ فهو في الصلاة»[2].

* نال سيدُنا «عبدُ الله بنُ سلام» الاحترامَ والتقديرَ في ظلِّ الخلفاء الراشدين، فكان مِن أصحاب المشورةِ ناصحاً لهم وللمسلمين؛ وقد كانت «لأبي بكر الصّديق» رضوان الله عليه منزلةٌ كبيرةٌ في نفس «عبدِ الله بنِ سلام»، كما كانت «لعمرَ بنِ الخطاب» منزلةٌ ساميةٌ في نفسِه أيضاً، وكان يجلُّه ويحترمُه كلَّ الاحترام، ولما توفي «عمرُ بنُ الخطاب» رضي الله عنه تأثّرَ تأثُّراً عظيماً لوفاتِهِ، وعدَّ موتَه رزءاً للمسلمين؛ روى ابنُ سعد في طبقاته قال:

«جاء «عبدُ الله بنُ سلام» وقد صُلِّي على عمرَ فقال:

والله لئن كنتم سبقتموني بالصلاةِ عليه لا تسبقوني بالثناء عليه، فقام عند سريره فال: نِعْمَ أخو الإسلامِ كنتَ يا عمر، جواداً بالحق بخيلاً بالباطل،

---

(١) انظر السيرة الحلبية (٢/ ٣٢٦).

(٢) انظر السيرة الحلبية (٢/ ٣٢٦)، وقد ورد في الصحيحين ما يوافق ذلك: «إن في يوم الجمعة ساعة لا يوافقها مسلم وهو قائم يصلي فسأل الله عز وجل شيئاً إلا أعطاه إياه».

ترضى حين الرضى، وتغضبُ حين الغضب، عفيفَ الطّرف، طيّب الظّرفِ، لم تكن مدّاحاً ولا مغتاباً»[1].

حقاً إنّها كلماتُ حقٍّ قيلتْ في رجلٍ عُرفَ بالحقِّ والعدلِ مِنْ رجل عُرِفَ بالإنصافِ والعلم.

* كان «عبدُ الله بنُ سلامٍ» عند حُسْن ظنِّ سيدِنا «عثمانَ بنِ عفان» رضي الله عنه، فعندما كان عثمانُ محاصراً، في تلك اللحظاتِ العصيبةِ وكان يستشيرُ «عبدَ الله بنَ سلام»، فقد رُوي عن أبي ليلى الكندي قال: شهدتُ عثمانَ رضي الله عنه وهو محصورٌ فاطّلع مِنْ كوّة[2] وهو يقول: «يا أيها النّاس لا تقتلوني واستتيبوني، فوالله لئنْ قتلتموني لا تصلّونَ جميعاً أبداً، ولا تجاهدونَ عدوّاً جميعاً أبداً، ولتختَلِفُنَّ حتى تصيروا هكذا ـ وشبكَ بين أصابعه ـ ثم قال: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾[3]. وأَرْسَلَ إلى «عبدِ الله ابنِ سلام» رضي الله عنه فقال: ما ترى؟.

فقال: الكفَّ الكفَّ، فإنّه أَبلغُ لك في الحجة»[4].

وكان سيدُنا «عليُّ بنُ أبي طالب» يكنُّ الاحترامَ والحبَّ لسيدِنا «عبدِ الله ابن سلام»، وكثيراً ما قالَ عنه:

«نِعْمَ الرجلُ من أصحاب رسولِ الله ﷺ»[5].

* كان سيدُنا «عبدُ الله بنُ سلام» رضي الله عنه يبدي نصائحَه وكلَّ ما يهمّ أَمْر المسلمين جميعاً على ضوءِ ما اقتبسه مِنَ النبيِّ ﷺ، وينظر إلى الأمورِ نظرةَ الفاحص الخبير، وقد شهدَ له سيدُنا «عليُّ بنُ أبي طالب» بالصّدق

---

(١) انظر طبقات ابن سعد (٣/ ٣٦٩).
(٢) أي: أشرف من خرق في الحائط.
(٣) سورة هود آية (٨٩).
(٤) انظر طبقات ابن سعد (٣/ ٧١).
(٥) انظر السيرة الحلبية (٢/ ٣٢٦).

وحُسْنِ وَعْيِهِ للأحاديثِ النبويةِ الشريفة، فعن عليٍّ رضي الله عنه قال:

«أتاني عبدُ الله بنُ سلام رضي الله عنه وقد أدخلتُ رجلي في الغَرْزِ[1] فقال لي: أَينَ تُريد؟.

فقلتُ: العراق.

فقال: أما إِنَّكَ إِنْ جئتَها ليصيبُكَ بها ذباب السيف[2].

قال عليّ: وايم الله، لقد سمعتُ النبيّ ﷺ قبلَه يقولُه»[3] وكفى بهذه الشهادة من سيدِنا عليٍّ لعبد الله بنِ سلام لتضعَه في أعلى المراتبِ وأعظمِها.

* كان العلمُ مِنْ أعظمِ مناقبِ سيدِنا «عبدِ اللهِ بنِ سلام» وأبرزِها في حياتِه، وبالعلمِ اشتهرَ رضي الله عنه، وهذا جعلَه يتبوَّأُ مكانةً رفيعةً عندَ الصحابةِ رضوان الله عليهم، فكانوا يجلّونه ويحترمونَه ويتواصَون فيما بينهم بأخذ العلم عنه[4]، فهو منْ نجباء مدرسةِ النُّبوةِ، ولقد كان سيدُنا محمد ﷺ خبيراً بأصحابِه وبنفوسِهم ومعادنهم، وكان «عبدُ الله بنُ سلام» أحدَ الصحابةِ الأصفياء الذين أَنْضَجَ الرسولُ عليه الصلاة والسلام نفوسهم بالإيمان، وعلَّمهم قولَ الحقِّ والصدق؛ من هذا المنطلق اكتسبَ سيدُنا «عبدُ الله ابنُ سلام» ثقةَ الصحابةِ وأبنائهم، وشهدوا له بالصَّدَارةِ في العِلمِ، فقد حفظَ عدداً مِنْ الأحاديثِ والآثارِ النَّبوية، وعاشَ بعدَ الرسولِ ﷺ ينشرُ العلمَ ويأمرُ بالمعروفِ ويدعو إلى الخير، فهذا أَحد أكابر أصحابِ رسولِ الله ﷺ وأعلمُهم بالحلالِ والحرامِ سيدُنا «معاذُ بنُ جبل»[5] يذكر عند موتِهِ «عبدَ الله بنَ سلام»،

---

(١) الغرز: الركاب.

(٢) أي: طرف السيف.

(٣) انظر حياة الصحابة (٣/ ٦٥) وانظر السيرة الحلبية (٢/ ٣٢٦) في رواية بالمعنى ذاته.

(٤) انظر مثلاً الاستيعاب (٢/ ٣٧٥) وكيفية إرسال الصحابة أولادهم إلى المدينة ليسألوا عبد الله بن سلام عن العلم.

(٥) هو سيدنا معاذ بن جبل الأنصاري الخزرجي، أحد فضلاء الصحابة، شهد العقبة الكبرى مع السبعين من الأنصار، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، استعمله =

ويوصي بأَخْذِ العلمِ عنه فتعال لنحضرَ وصيةَ سيدنا «معاذ بن جبل»، ونستمع منه ما يقوله عن الصحابةِ وعن «عبدِ الله بنِ سلام» رضي الله عنه، فقد رُوي أنّـه:

«لما حضرَ معاذاً الوفاةُ بكى مَنْ حوله. فقال: ما يُبكيكُم؟.

قالوا: نبكي على العلمِ الذي ينقطعُ عنّا عند موتك.

قال: إنَّ العلمَ والإيمانَ مكانُهما إلى يوم القيامة، ومن ابتغاهما وجَدَهما: الكتابُ والسُّنة، فاعْرِضُوا على الكتاب كلَّ الكلام، ولا تعرضوه على شيءٍ مِنَ الكلام، وابتغوا العلمَ عند عمرَ وعثمانَ وعليٍّ، فإن فقدتموهم فابتغوه عند أربعة: عويمر[1]، وابنَ مسعود، وسلمانَ، وابنَ سلام، الذي كان يهودياً فأسلم، فإني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «هو عاشرُ عشرةٍ في الجنة» واتّقوا زلَّة العَالِم، خذوا الحقَّ مِمَنْ جاءَ به، ورُدّوا الباطل على مَنْ جاء به كائناً مَنْ كان»[2].

* وتمضي السنونُ، و«عبدُ الله بنُ سلام» ما تزال مكانتُه ناصعةً وسيرتُه سيرةً شذيةً عبقةً تفوحُ بالأريج، وتزداد جمالاً كلما تقدمتِ الأيام، وصورتُه تزداد تألُّقاً ونقاءً عند الصّحابة رضوان الله عليهم، فهذه صورة أخرى لا تقلُّ روعةً عن سابقاتها تسجِّلُ فضلاً لعبدِ الله بنِ سلام، فقد أُثِرَ أنَّ «سلمانَ الفارسيَّ» رضي الله عنه و«عبدَ الله بنَ سلام» كانا متحابّيْنِ في الله حبّاً خالصاً رَقَّتْ مِنْ خلاله نَفْسُ كلِّ واحدٍ منهما، وشفَّت طباعُه حتى أَشرقَ عليها مِنْ أنوارِ الإلهام ما جعلها تنطقُ بألوانِ الحكمةِ وفصلِ الخطاب؛ فقد رُوي أنَّ

= النبي عليه الصلاة والسلام قاضياً على اليمن وقال عنه: «أعلم أمتي بالحلال والحرام معاذ بن جبل» مات في طاعون عمواس سنة ١٨ من الهجرة وعمره حوالي أربعاً وثلاثين سنة رضي الله عنه.

(١) هو أبو الدرداء رضي الله عنه وكان من فضلاء الصحابة.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند. وانظر سير أعلام النبلاء (١/ ٤٥٩) (٢/ ٤١٨) وانظر أيضاً حياة الصحابة (٣/ ١٧٤).

سلمان رضي الله عنه، قال «لعبد الله بنِ سلام»:

«أي أخي، أيُّنا مات قبل صاحبه فَلْيَتَراءَ[1] له.

قال عبد الله بن سلام: أوَ يكونُ ذلك؟.

قال: نعم؛ إنَّ نَسَمَةَ[2] المؤمنِ مخلاّة، تذهبُ في الأَرض حيثُ شاءتْ، ونَسَمَةُ الكافرِ في سجْن؛ فماتَ سلمانُ، فقال عبد اللهِ: فبينما أَنا ذات يوم قائِلٌ بنصفِ النَّهار على سريرٍ لي فأَغفيت إغفاءةً إذْ جاءُ سَلْمانُ فقال:

السلامُ عليك ورحمة الله.

فقلت: السلامُ عليكَ ورحمةُ الله أبا عبدِ الله، كيف وجدتَ منزلَك؟.

قال: خيراً، وعليك بالتوكُّلِ فنعمَ الشيءُ التوكُّلُ، وعليك بالتوكُّلِ فنعم الشيءُ التوكُّلُ، وعليك بالتوكُّلُ فنعمَ الشيءُ التوكُّلُ»[3].

* وبعد؛ ماذا تبقّى لنا مِنْ لقاءاتٍ مع «عبدِ الله بنِ سلام»؟ وهل كانت حياتُه متوقفةً على العلم فقط؟ لا، فقد جمعَ بين فضيلتين: «العلمِ والجهاد»، وشهدَ أحداثَ الإسلام الكُبرى مع النَّبيِّ ﷺ، ثم تابعَ الأَحداثَ والجهادَ في عهدِ الخلفاءِ الراشدين، ففي سجلِّ الفتوحاتِ الإسلامية العظيمةِ يسطعُ اسمُ «عبدِ الله بنِ سلام» مع الفاتحين، فقد شهدَ مع سيدِنا «عمرَ بنِ الخطاب» فتحَ بيتِ المقدسِ والجابية[4]، كما شهد فتح نهاوند[5]؛ ولما كانتِ الفتنةُ بين «عليّ» و«معاوية» اتَّخذَ سيفاً مِنْ خشبٍ واعتزلها، وأَقَامَ في المدينةِ إلى أَنْ مات[6].

* يُعتبرُ سيدُنا «عبدُ الله بنُ سلام» رضي الله عنه أحدَ فُضلاء الصّحابة،

---

(١) أي: يجتهد أن يراه في المنام.

(٢) النسمة: الروح.

(٣) انظر طبقات ابن سعد (٤/ ٩٣).

(٤) انظر تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٧١) والأعلام (٤/ ٢٢٣).

(٥) انظر سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٢٢).

(٦) انظر الأعلام للزركلي (٤/ ٢٢٣).

فكان مِمّنْ وعى الحديثَ النّبويَّ الشريفَ وحفظَه، وقد رُويَ له عنْ رسولِ الله ﷺ خمسةٌ وعشرون حديثاً[1]، اتفقَ البُخاريُّ ومسلمٌ على حديث، وانفردَ البخاريُّ بآخر. وقد حَدَّثَ عنه: «أبو هريرة»، و«أَنَسُ بنُ مالك»، و«عبد الله ابن مَعقِل» وابناه «يوسف[2] ومحمد»، وجماعاتٌ مِنَ التابعين مثلُ: «عطاءِ بنِ يسار» وغيرُهم[3].

بشـــارة عبـــد الله بـــن ســـلام بـالجـنـة:

قال تعالى: ﴿ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ۝٧٥ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾[4].

* أقبلَ سيِّدُنا «عبدُ الله بنُ سلام» على الإسلام ينهلُ مِنْ عذب موردِه، وأحبَّ القرآنَ الكريمَ حباً جَمّاً؛ فكانَ لسانُه وقلبُه لا يفتران عن ذكْرِ اللهِ وتلاوةِ آياتِ القرآنِ في الليلِ والنّهار، فقد مَلَكَ لُبَّه، وأَسَرَ جوارحَه بحلاوةِ معانيه، وكانَ ينشدُ رضاءَ الله ورضاءَ رسولِه، ويسارعُ إلى تحقيقِ ذلك ما استطاعَ إليه سبيلاً؛ فعن «أبي سَلَمة» عن «عبدِ الله بنِ سلام» قال: «قعدنا نَفَرٌ مِن أصحابِ رسولِ الله ﷺ، فتذاكرْنَا فقلنا:

لو نعلمُ أَيَّ الأعمال أَحبَّ إلى اللهِ لعملْنا؛ فأنزلَ الله:

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾[5] حتى ختمها.

---

(١) انظر تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٧١) والأعلام (٤/ ٢٢٣).

(٢) هو يوسف بن عبد الله بن سلام المدني حليف الأنصار، روى عن النبي ﷺ، وعن أبيه وعثمان وعلي وأبي الدرداء وخويلة بن ثعلبة، وأم معقل وجماعة. قال ابن أبي حاتم: رأى النبي ﷺ. وقال البخاري: إن له صحبة. توفي في خلافة عمر بن عبد العزيز. عن تهذيب التهذيب (١١/ ٤١٦).

(٣) انظر سير أعلام النبلاء (٢/ ٤١٣) وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٧١).

(٤) سورة طه آية (٧٥ ـ ٧٦).

(٥) سورة الصف آية (١ ـ ٢).

قال: فقرأها علينا رسولُ الله ﷺ حتى ختمَها»[1].

* تَعلَّق سيدُنا «عبدُ الله بنُ سلام» رضيَ الله عنه بالنّبيِّ ﷺ تَعلُّقَ الطفل بأمِّه، ولزمَ مجالسَه فلا يكاد يفوتُه منها مجلسٌ، ووضعَ نصبَ عينه «الجنّة» وعملِ لها فنالَ بِشارةَ النّبيِّ الكريم ﷺ بالجنة، وقد أذاعَ هذه البشارةَ سيدُنا «سعدُ بنُ أبي وقّاص» رضي الله عنه وأرضاه، فعن «عامر بن سعد بن أبي وقاص» عن أبيه قال:

«ما سمعتُ النّبيَّ ﷺ يقولُ لأحدٍ يمشي على الأرض إِنَّه مِنْ أَهْلِ الجنَّة إلاّ لعبدِ الله بنِ سَلاَم»[2].

* وقد بشَّرَ رسولُ الله ﷺ «عبدَ الله بنَ سلام» بالجنَّةِ على مَلأ مِنْ أَصحابِهِ وفيهم «سعد بنُ أبي وقاص» وذلك «أنَّ النّبيَّ ﷺ أُتيَ بقصعةٍ مِنْ ثَريدٍ فأكلَ، ففَضَلَ منه فَضْلةٌ فقال:

«يدخلُ مِنْ هذا الفجّ[3] رجلٌ مِنْ أهلِ الجنَّة يأكلُ هذه الفضلة» قال سعد: وقد كنتُ تركتُ أخي «عُميرَ بنَ أبي وقاص، يتهيَّأ لأَنْ يأتيَ النّبيَّ ﷺ، فطمعتُ أَنْ يكونَ هو، فجاء «عبدُ الله بنُ سلام فأَكَلَها»[4].

* شاعَ نبأُ بشارةِ الرسولِ الكريم ﷺ لسيدِنا «عبدِ الله بنِ سلام» بالجنّة بين الصَّحابةِ رضوانُ الله عليهم. وروى ذلك غيرُ واحدٍ مِنَ المسلمين، فتعالَ نستمعْ نبأَ هذه البشارةِ يرويها لنا «قيسُ بن عباد» قال:

«كنتُ جالساً في مسجدِ المدينةِ، فدخل رجلٌ على وجهه أثرُ الخشوعِ،

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢٤).
(٢) فتح الباري (٧/ ١٢٨) وانظر الاستيعاب (٢/ ٣٧٤ ـ ٣٧٥) وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٧١).
(٣) الفج: الطريق.
(٤) انظر فتح الباري (٧/ ١٣٠) وانظر سير أعلام النبلاء (٢/ ٤١٧) وانظر كذلك مجمع الزوائد (٩/ ٣٢٦).

فقالوا: هذا رجلٌ مِن أهل الجنةِ، فصلّى ركعتين تجوَّزَ[1] فيهما، ثم خرج وتبعتُه فقلتُ:

«إنك حين دخلتَ المسجد قالوا: هذا رجلٌ مِن أهلِ الجنة.

قال: والله ما ينبغي لأحدٍ أَنْ يقولَ ما لا يعلمُ؛ وسأُحدِّثك لِمَ ذلك: رأيتُ رؤيا على عهدِ النبيِّ ﷺ فقصَصْتُها عليه، ورأيتُ كأنّي في روضة ـ ذَكَرَ مِنْ سَعَتِها وخُضْرتها ـ وسْطها عمودٌ مِنْ حديد أسفلُه في الأرض وأعلاه في السَّماء، في أعلاه عروةٌ، فقيل لي: ارقَهْ.

قلتُ: لا أستطيع.

فأتاني [مِنْصَفٌ][2] فرفعَ ثيابي مِنْ خلقي، فرقيْتُ حتى كنتُ في أعلاها فأخذتُ في العروةِ، فقيلَ له: استمسِكْ. فاستيقظتُ وإنَّها لفي يدي، فقصصتُها على النَّبيِّ ﷺ فقال:

«تلك الرَّوضةُ الإسلام؛ وذلكَ العمودُ عمودُ الإسلام، وتلك العروةُ العروةُ الوثقى، فأنتَ على الإسلامِ حتى تموتَ» وذلك الرجلُ عبد الله بنُ سلام»[3].

* سعِدَ سيدُنا «عبدُ الله بنُ سلام» رضي الله عنه ببشارةِ رسولِ الله ﷺ، فقد كان النّبيُّ الكريم يعتني بتعبيرِ رؤيا السالكين، حتى روي أنّه كان يجلسُ بعد صلاةِ الصبح ويقول: «مَنْ رأى منكم رؤيا»؟ فإن قصّها أحدٌ عبَّر ما شاء الله؛ ولما قصّ «عبدُ الله بن سلام» رؤياه على رسول الله بشّره بالجنّة، فازداد سروراً وازداد تواضعاً لله عز وجل، وكثيراً ما كان يُشَار إليه ببشارة الرسول عليه الصلاة والسلام «الجنة» فهذا «خَرَشَة بن الحُرِّ» يقول:

«كنتُ جالساً في حلقةٍ فيهم ابنُ سلام يحدّثُهم فلما قام قالوا: مَنْ سرَّه أَنْ

---

(١) أي: أوجز فيهما.

(٢) منصف: أي خادم. وفي رواية «وصيف: أي خادم».

(٣) انظر فتح الباري (٧/ ١٢٩). وانظر صحيح مسلم فضائل عبد الله بن سلام، وانظر كذلك سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٢١ ـ ٤٢٢) في رواية قريبة.

ينظرَ إلى رجلٍ من أهل الجنة فلينظر إلى هذا...»[1] وعن «يزيد بن عميرة» أنَّه سمعَ «معاذَ بنَ جبل» يقول: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول لعبدِ الله بنِ سلام إنَّه عاشرُ عشرةٍ في الجنة.

* وبعد، فهذا هو سيدُنا «عبدُ الله بنُ سلام» رضي الله عنه، وهو كما وصفَهُ الإمامُ الذَّهبيُّ في كتابِه النّفيسِ الموسومِ بـ «سِيَرِ أعلامِ النبلاء» بقوله: «الإمامُ الحبْرُ، المشهودُ له بالجنة، أبو الحارث الإسرائيليُّ حليفُ الأنصارِ مِن خواصِّ أصحاب النّبيِّ ﷺ»[2] أما ابن كثير فقد قالَ عنه:

«عبدُ الله بنُ سلام رضي الله عنه أَحدُ أَحْبار اليهود، وهو ممَّنْ شهدَ له رسولُ الله بالجنةِ، وهو مِمَّنْ يُقطعُ له بدخولِها»[3].

ويقول ابنُ عبدِ البرّ في «الاستيعاب»:

«وشهد رسولُ الله لعبدِ الله بنِ سلام بالجنّة»[4].

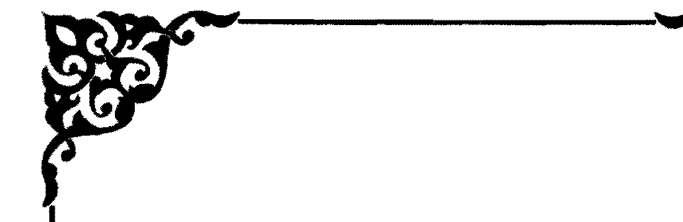
* وجاءت بدايةُ النهاية، ففي سنة ثلاثٍ وأربعين من هجرة المصطفى ﷺ، تُوفي «عبدُ الله بنُ سلام» في المدينة المنورة؛ وصعدت روحُه إلى بارئها راضيةً مرضية بعد أَنْ شَهِدَ مَجْدَ الإسلام وعظمتَه، وأدّى ما عليه من واجباتٍ فكانَ مِنَ الذين رضي الله عنهم ورضُوا عنه، وفي سجلِّ الخالدين مِنْ الصحابة يظلُّ اسمُ سيدِنا «عبدِ الله بنِ سلام» يسطعُ بالنورِ، ويخطُّ بكلماتٍ مضيئاتٍ أنَّه مِنَ الرِّجالِ الذينَ نذروا أنفسَهُم لله فكانَ مِنَ الذين ينضوون تحت قوله تعالى:

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾.

صدق الله العظيم

* * *

(١) انظر سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٢٢).
(٢) المصدر السابق (٢/ ٤١٣).
(٣) انظر البداية والنهاية (٧/ ٢٧).
(٤) الاستيعاب (٢/ ٣٧٤).



سيدنا

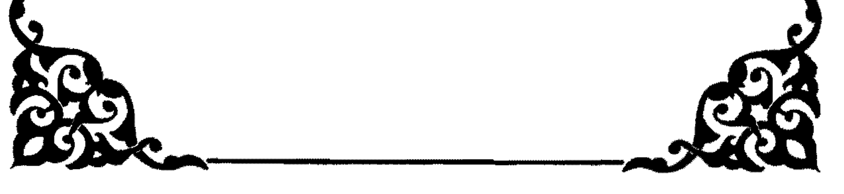
حارثة بن النّعمان

رضي الله عنه

* «إن الله تكفل لهم ـ الذين صبروا مع الرسول يوم حنين ـ بأرزاقهم وأرزاق عيالهم في الجنة».

* «لقد استحييتُ من حارثة بن النعمان مما يتحوّل لنا عن منازله».

* «دخلتُ الجنة فسمعت قراءة، فقلت: من هذا؟ فقيل: حارثة بن النعمان، فقال: كذلك البر» وكان برّاً بأمه رضي الله عنه.



مقـــدمـــة:

* في موسمٍ مِن مواسمِ الحج، لقي رسولُ الله ﷺ نفراً من الخزرج اليثربيين، وعرضَ عليهمُ الإسلامَ وقد تعرَّف على هُويَّتِهم، وتأكد أنَّهم مِنْ موالي اليهود، ولم يستغربْ هؤلاء النَّفر الحديثَ عنِ اللهِ وعن الرسلِ والكتبِ المنزلةِ، فهذا الحديثُ قد طرقَ مسامعَهم مِن قبل، إذ سمعوه مِنَ اليهودِ جيرانِهم أكثر مِن مرةٍ؛ ولما دعاهم رسولُ الله ﷺ إلى الإسلام، وإلى الإيمان باللهِ سبحانه وتلا عليهمُ القرآنَ الكريمَ، وجدَ الإيمانُ إلى قلوبِهم سبيلاً، فأعلنوا إسلامهم، ووعدوا الرسولَ الكريم ﷺ أنْ يَدْعوا إلى الله وإلى الإسلامِ في بلدِهم يثرب.

* * *

* انطلقَ الخزرجيون السّتةُ نحو بلدهم، ووفَّوا بِوَعْدِهم لرسولِ الله عليه الصلاة والسلام، ونشروا الإسلامَ بين صفوفِ الأوسِ والخزرجِ، حتى فشا الإسلامُ في المدينةِ، ولما كان العامُ المقبلُ، جاء اثنا عشرَ رجلاً منهم وبايعوا رسولَ الله ﷺ عندَ العقبةِ، ولما انصرفَ القومُ بعثَ رسولُ الله ﷺ معهم أحدَ أصحابه النجباء وهو «مصعب بن عمير» رضي الله عنه، وأَمَرَهُ أنْ يُقْرِئهم القرآن ويُعلِّمَهُمُ الإسلامَ ويفقِّهَهم في الدّين؛ فقام «مصعب بن عمير» رضوان الله عليه بمهمته خيرَ قيام، واستطاعَ بفطنتِه وما آتاه الله مِن حكمةٍ وأناةٍ أَنْ يستميلَ قلوبَ أهلِ المدينةِ من أوس وخزرج، وقد وصلتْ أنباءُ الدعوةِ إلى الإسلام إلى سمعِ «حارثةَ بنِ النعمانِ بن نفع النّجّاري» فانطلق إلى الداعية المكي، وأعلن إسلامَه، واستطار قلبُه فرحاً حينما أسلمت أمّه «جعدةُ بنتُ عبيد»، لأنه كان بارّاً بها أشدّ البِرِّ، وأسلمتْ كذلك أسرتُه كلُّها.

* * *

* استمرَّ «مصعبُ بنُ عمير»، رضي الله عنه، يدعو إلى الإسلام بقلبٍ

مطمئنٌّ، حتى انتشر الإسلامُ في ربوعِ المدينةِ، وقدمَ في موسمِ الحجِّ في العامِ التَّالي ببضعةٍ وسبعين رجلاً وامرأتين، وبايعوا رسولَ الله ﷺ بيعةَ العقبةِ الثانيةَ، ثم ألَّفَ الله بين قلوبِ الأوسِ والخزرجِ، وانتهتِ الخلافاتُ بينهم إلى غيرِ رجعةٍ؛ وأخذوا وعداً مِنَ الرسولِ ﷺ بالهجرةِ إلى بلدِهم، ووعدوه بالنَّصر والحماية.

استقبال الأنصار للرسول ﷺ:

* أخذ «حارثةُ بنُ النعمان» يتهيّأ لاستقبالِ رسولِ الله ﷺ، الذي أحبَّه قبل أَنْ يراه، فقد بدأَتْ وفودُ المهاجرين مِنْ مكةَ تتواردُ إلى المدينةِ زرافاتٍ ووحداناً، وسمعَ المسلمونَ في المدينةِ بخروجِ رسولِ الله من مكةَ، فكانوا يخرجون في صبح كلِّ يومٍ يترقّبونه في بعضِ الطريقِ حتى يُؤذيهم الحرُّ فيعودونَ إلى المدينة، إلى أنْ وصلَ رسولُ الله ﷺ مشارفَ المدينةِ ومعه أبو بكرٍ الصّديقُ رضي الله عنه، فاستقبلَهما زهاءُ خمسمئة مِنَ الأنصار وتلقَّوْهما بالترحاب، وبَسمات الفرحةِ ترتسمُ على وجوهِهم، وكان «حارثةُ بنُ النعمان» من بين الأنصارِ الذين استقبلوا رسولَ الله ﷺ.

* * *

* توجّه الرسولُ الكريم عليه الصَّلاة والسَّلام نحوَ المدينة فجعلَ لا يمرُّ بدارٍ منْ دور الأنصار إلا اعترضوا طريقَه وقالوا: هَلُمَّ يا رسولَ الله إلى القوةِ والمنعةِ والثروةِ؛ فيبتسمُ ﷺ شاكراً ويدعو لهم بخير، ثم يقول وهو يشير إلى ناقتِه القصواء:

«خلّوا سبيلها فإنها مأمورة».

وما زالتْ تسيرُ وقد أرخى ﷺ لها زِمامَها حتى بركتْ به في مكانِ مسجدِه[1] عندَ دارِ أبي أيوب الأنصاريّ النّجاريّ[2] رضي الله عنه، فنزل

---

(١) أي: الذي أصبح مسجده (ﷺ) فيما بعد.

(٢) أبو أيوب الأنصاري: هو سيدنا خالد بن زيد بن كليب، النجاري الأنصاري =

رسولُ الله ﷺ عن راحلتِه وأوى إلى الظلِّ، فأتاه أبو أيوب فقال:

يا رسولَ اللهِ، إنَّ منزلي أقربُ المنازل إليكَ فانقلْ رَحْلَكَ إليّ؛ قال رسول الله ﷺ: «نعم».

* * *

* ونزلَ الرسولُ الكريمُ ﷺ في دارِ أبي أيوب رضي الله عنه، واستطارَ قلبُ «حارثةَ بنِ النعمان» فرحاً بمنزلِ رسولِ الله في دار بني النجار؛ حيث كان بنو النجار قوم «حارثةَ بنِ النّعمان» يسكنون جميعاً في محلّة واحدة، فأكرمهم الله بنزولِ الرسولِ ﷺ عندهم، وتلك منقبة عظيمة لهم.

يقول ابن كثير رحمه الله:

(وقد كانَ في المدينةِ دورٌ كثيرةٌ تبلغ تسعاً، كل دار محلّة مستقلّة بمساكنِها ونخيلِها وزروعِها وأهلِها، وكلُّ قبيلةٍ منِ قبائِلهم قد اجتمعوا في محلّتِهم، وهي كالقرى المتلاصقة، فاختار الله لرسولِهِ ﷺ دار بني مالك بن النجار)[1].

وقد أظهرَ بنو النجار[2] فرحَهم بجوارِ رسولِ الله ﷺ؛ فقد روى أنسُ بنُ مالك رضي الله عنه قال: مرَّ النبيُّ ﷺ بحيٍّ مِنْ بني النَّجار، وإذا جَوَارٍ يضربْنَ بالدفوف يقلْن:

نحنُ جَوارٍ مِنْ بني النَّجار ... يا حبذا محمدٌ مِنْ جارِ

= الخزرجي المدني، الصحابي الجليل شهد العقبة وبدراً وأحداً والخندق وبيعة الرضوان وجميع المشاهد مع رسول الله ﷺ؛ ونزل عليه رسول عليه الصلاة والسلام حين قدم المدينة مهاجراً وأقام عنده حتى بنيت مساكنه ومسجده. روي له عن رسول الله ﷺ مئة وخمسون حديثاً، اتفق البخاري ومسلم على سبعة منها، توفي بأرض الروم غازياً في خلافة معاوية بن أبي سفيان سنة ثنتين وخمسين هجرية وقبره بالقسطنطينية رضي الله عنه.

(١) انظر البداية والنهاية (٣/ ٢٠٢).

(٢) بنو النجار هم أخوال الرسول ﷺ، أي أخوال أبيه عبد الله.

فقال رسول الله ﷺ:

«يعلمُ الله أنَّ قلبي يحبُّكم»[1].

نال الأنصار جميعاً محبة رسول الله ﷺ لما قدّموه، واختصَّ في مقدمتهم بنو النجار بالفضل والخير، فعن أَنَس بن مالك رضيَ الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«خيرُ دورِ الأَنْصارِ بنو النجار، ثم بنو عبد الأشْهل، ثم بنو الحارث بن الخزرج، ثم بنو سَاعدة، وفي كل دُورِ الأنصار خير»[2].

* * *

* أقامَ رسولُ الله ﷺ في دار أبي أيوب سبعةَ أشهر، وكان «حارثةُ بنُ النُّعمان» يتردّدُ على النَّبي ﷺ، وكم كان يتمنى لو ينزل عنده رسول الله ﷺ، فقد أحبَّ الرسولَ حبّاً خالط لحمَه ودمَه، ونَظرَ رسولُ الله ﷺ إلى «حارثةَ بنِ النعمان» فألْفاهُ صافيَ السّريرةِ، نقيَّ القلبِ، صادقَ الحبِّ، ترتسمُ على وجهِه أمارةُ الشهامةِ والمروءة، فخصَّه بِمَنْقَبَةٍ عظيمةٍ رفعَتْه مكاناً عَلِيّاً، وَلْنستمعْ إلى «محمّد بن سعد» يحدثنا عَنْ هذه المكرُمَةِ النَّفيسةِ التي نالها «حارثةُ بنُ النّعمان» قال:

«وبعثَ رسولُ الله ﷺ مِنْ منزلِ أبي أيوبَ زيدُ بنَ حارثةَ وأبا رافع، وأعطاهما بَعيرَيْنِ وخمسمئة دِرهمٍ إلى مكّةَ، فَقَدِما عليه بفاطمةَ وأمِّ كلثوم ابنتَيْ رسول الله ﷺ وسَوْدةَ بنتِ زَمْعة وأسامةَ بنِ زيد، وكانت رُقَيَّة بنتُ رسول الله ﷺ قد هاجر بها زوجُها عثمانُ بنُ عفان رضي الله عنه قبل ذلك، وحبس أبو العَاص بنُ الرَّبيع امرأتَه زينبَ بنتَ رسول الله ﷺ، وحمل زيدُ بنُ حارثةَ امرأَتَه أمَّ أيمنَ مع ابنها أسامةَ بنِ زيد، وخرج عبدُ الله بن

---

(١) انظر البداية والنهاية (٣/ ٢٠٠).
(٢) المصدر السابق (٣/ ٢٠٣).

أبي بكر معهم بعيال أبي بكر فيهم عائشةُ، فقدموا المدينةَ، فأنزلهم في بيت حارثةَ بنِ النّعمان رضي الله عنه»[1].

* * *

* وهكذا تحقّق ما يصبو إليه سيدُنا حارثةُ بنُ النعمان، فقام على خدمةِ النبيِّ وأهلِه أحسنَ قيامٍ، فنالَ ثقةَ الرسولِ الكريمِ ومَحبَّتَه.

مشـاهـدُ حَـارثـة بـن النّعـمـان:

* توجّستْ قريشٌ خِيفةً مِنْ هجرة الرَّسول ﷺ إلى المدينة، وبدأتْ تنظرُ إليه نظرةَ الخائف الوَجِل، وحسبتْ ألفَ حساب لهذه الهجرةِ غير المتوقعة والتي أقضَّتْ مضجعَها وأَرَّقَتْها، وقد بات هذا الخوفُ ينمو يوماً بعد يوم، فكان لا بُدّ لها مِنْ عملٍ تقضي به على الرَّسول وأتباعِهِ لتحتفظَ بمكانتها بين العرب جميعاً، إذ لاحظتْ أَنَّ هيبتَها بدأتْ تتضاءلُ شيئاً فشيئاً.

* أمّا المسلمون في المدينة، فقد كانوا جميعاً جنوداً للهِ ورسولِه، يتسابقون إلى رضاءِ اللهِ ورسولِه بجميع الأشكالِ والصُّور، ويسارعون إلى الخيرات بكل ما أُوتوا مِن قوة؛ وكانوا قد وعدوا رسولَ الله ﷺ أنْ يحمُوه مما يحمون منه أزُرَهم[2] وأولادَهم، فصدقوا ما عاهدوا الله عليه، فلم يكونوا ينامون إلا والسّلاح بأيديهم، وكان الأنصارُ جميعاً، ومِنْ بينِهم «حارثةُ بنُ النعمان»، ينتظرون أيّ إشارةٍ منْ رسولِ الله ﷺ ليسرعوا في أدائها وتنفيذها مهما كانتِ النَّتائج، ولسان حالِهم قولُ شاعرهم:

نعادي الذي عادى مِنَ النّاسِ كلِّهم   جميعاً وإنْ كانَ الحبيبَ المصافيا

وأثبتَ الأنصارُ صدقَهم بالعملِ والقول.

ففي بداية الخريفِ مِنَ السّنةِ الثّانيةِ مِنَ الهجرة خرج أبو سفيانٍ في تجارةٍ لقريش يقصد بلاد الشّام، فوصل إلى النبي عليه الصلاة والسلام نبأُ خروجِ عِيرِ

---

(١) انظر طبقات ابن سعد (١/ ٢٣٧ ـ ٢٣٨).

(٢) يكنى بالإزار عن النساء، وقد يكنى عن النفس بالإزار. النهاية (١/ ٤٥).

قريش، فخرج الرسول ﷺ إلى موضع يُسمى «العُشَيْرة» لمصادرتها، غير أنَّ أبا سفيان فاته، فَعزَمَ رسولُ الله ﷺ على انتظارها في عودتها.

ولما انصرفتْ عِيرُ قريش مِنَ الشَّام أرسل النَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام عُيونَه يقتصون خبرَها، ثم نَـدَبَ المسلمين للخروجِ، وخرج على رأسِهم مِنَ المدينة لثمانٍ خَلَوْنَ مِنْ شهر رمضان من السَّنة الثَّانية للهجرة، وخرج بصحبتِه ثلاثُمئةٍ وبضعةَ عشرَ رجلاً من المهاجرين والأنصار، وانطلقوا مسرعين خوف أنْ يُـفلتَ منهم أبو سفيان.

أمّا أبو سفيان فقد ترامى إليه خبرُ خروجِ المسلمين لاعتراضِ العِير وتجارةِ قريش، فاستأْجَرَ رجلاً مِنْ قبيلة غِفار، وطَلب منه أَنْ يسرعَ نحو مكة ليستنفرَ قريشاً لنجدة أموالها التي تُقوَّمُ بخمسينَ ألفَ دينار، واستطاع أبو سفيان أَنْ ينجوَ بالعير، ووصل الخبر إلى قريش عندها خرجتْ على بكرة أبيها في مظهر يدلُّ على القوة والخيلاء، وهي تزعمُ أنها ستقضي على محمدٍ وصحبِه، هؤلاء الذين تطاولوا عليهم وتصدَّوا لِعيرهم وأموالِهم وهم الأعزّة الذين لم يَذِلّوا ولم يعرفوا الهوان، وكانوا موقنين بأنَّ النَّصر للكثرة، ولا يريدون إلا أنْ يسمعَ النَّاس بهم ويتحدثوا عنهم، وزَيَّنَ لهم الشيطانُ أعمالَهم وصدَّهم عن سبيل الحقّ، وقد صوّرَ الله سبحانه حالهم تلك فقال:

﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾[1].

* وركبتْ قريشٌ رأْسَها ويمَّمَتْ وجهَها تِلقاءَ بَدْرٍ، عندها استشار النَّبيُّ ﷺ أصحابه فأجمعوا على مناجزتهم، وسار إليهم المسلمون، وكان معهم سبعون بعيراً، وكانوا يتعاقبون عليها؛ الاثنين، والثّلاثة، والأربعة، فكان رسولُ الله ﷺ وعليُّ بن أبي طالب ومرثدُ بن أبي مرثد يتعاقبون بعيراً

(١) سورة الأنفال آية (٤٨).

واحداً، وكان أُبيُّ بن كعب وعمارةُ بن حزم وحارثةُ بن النّعمان[1] على بعير... حتى وصلوا ماء بدر، وأقبلتْ قريشٌ تنصبُّ إلى وادي بدر وكان عددُهم قرابةَ ألفِ رجل، فلما رأى رسول الله ﷺ كَثْرَتَهم وقِلَّةَ أصحابِه توجَّهَ إلى اللهِ يستعينُه عليهم فقالَ:

«اللهمّ هذه قريشٌ قد أقبلتْ بخُيلائها وفخرِها تكذِّبُ رسولَكَ، اللهمّ فنصرُكَ الذي وَعَدْتني، اللهمّ أَحِنْهُمُ الغداةَ»[2].

* كان حارثة بن النعمان بين صفوف المسلمين يستمع إلى نصائح ودعاء الرسول الكريم ﷺ، وهو ينظِّم أصحابَه ويحثُّهم على الثباتِ والصبرِ.

وبدأتِ المعركةُ وخاضَها المسلمونَ بقلوبٍ مِلْؤُها الطمعُ في مرضاةِ الله، وتضاءلتْ في أَعْيُنِهم كثرةُ المشركين، الذين امتلأتْ قلوبُهم بالرعب، كما امتلأتْ قلوبُ المؤمنينَ بالقوةِ والثباتِ، وأخذ رسولُ الله ﷺ يشدُّ عزائمَهم ويبشِّرهُم بنصرِ اللهِ سبحانه ويقول لهم:

«شدّوا، سَيُهْزَمُ الجمع ويولون الدُّبُر، مَنْ قَتَلَ قتيلاً فَلَهُ سَلَبُه ومَنْ أَسَرَ أسيراً فهوَ له».

وحمل «حارثةُ بنُ النّعمان» حملةً صادقةً مع أصحابه ففرَّقَ جمعاً مِنْ جموعِ المشركينَ، وما إنْ صافحتْ كلماتُ الرَّسولِ سَمْعَه «مَنْ أَسَرَ أسيراً فهو له» حتى انقضَّ على أحدِ فرسانِ المشركين وهو «عثمان بن عبد شمس»[3] ابن أخي «عتبة بن غزوان»، ولم يلبثْ لحظاتٍ حتى قادَهُ أسيراً إلى صفوف المسلمين لِيَقْرِنَه في الأصفادِ مع مَنْ أُسِر مِنَ المشركين.

* وقد سُرَّ رسولُ الله ﷺ مِنْ صنيع حارثةَ بن النعمان وأثنى عليه؛ ولما بعثتْ قريشٌ في فداء أَسراها أرسلَ «جُبَير بن مُطْعِم»[4] في فداءِ «عثمانَ بنِ

---

(١) انظر مغازي الواقدي (١/ ٢٤).
(٢) يسأل الله أن يهلكهم في هذا الصباح.
(٣) انظر المغازي (١/ ١٣٩) والسيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٤).
(٤) هو جبير بن مطعم بن عدي القرشي النوفلي، أسلم عام خيبر وقيل أسلم يوم فتح =

عبدِ شمس»، وفاز حارثةُ بالأجر والفداء.

* * *

* شهد سيدُنا «حارثةُ بنُ النُّعمان» رضي الله عنه المشاهدَ كلَّها معَ رسولِ الله ﷺ، وكانت له مواقفُ مشرقةٌ في هذه المشاهد، وحدثتْ له بعض الكرامات العظيمة التي سَجَّلَتْها صفحاتُ التاريخ له.

* ففي غزوة بني قُرَيْظةَ خرج رسول الله ﷺ إلى حصارِهم لمّا خانوا العهد مع الله ورسولِه، وحفّ الصحابةُ الكرامُ رضوان الله عليهم برسول الله وتلبَّسوا السّلاح وركبوا الخيلَ، وسار الرسولُ الكريم عليه الصّلاة والسّلام في أصحابه والخيلُ والرَّجّالةُ حَوْلَه، ولما عَلِمَ «حارثةُ بنِ النعمان» همَّ رسولِ الله ﷺ، أسرعَ مع بعضِ الرّجالِ إلى الطريقِ الموصلةِ إلى بني قُرَيْظة، وقد تجهز ولبسَ السّلاح استعداداً للحربِ، وفي تلك اللحظات رأى «حارثةُ بنُ النّعمان» رضوان الله عليه «جبريلَ» عليه السّلام، لنستمع إلى هذه المَكْرُمة يرويها لنا الواقديُّ مِنْ مغازيه قال:

مرَّ رسولُ الله ﷺ بنفر منْ بني النجار بالصّورين[(١)] فيهم حارثة بن النّعمان قد صفّوا عليهم السّلاح فقال:

«هل مرّ بكم أحدٌ»؟.

قالوا: نعم، «دِحْيَةُ الكلبيّ»[(٢)] مرَّ على بغلة عليها رِحالة عليها قطيفة من

= مكة، روي له عن رسول الله ﷺ ستون حديثاً اتفق البخاري ومسلم على ستة. كان جبير بن مطعم من علماء قريش وساداتهم وكرمائهم توفي جبير بن مطعم بالمدينة سنة أربع وخمسين.

(١) موضع بأقصى البقيع في المدينة المنورة مما يلي طريق بني قريظة.

(٢) هو سيدنا دِحْية بن خليفة بن فضالة الكلبي، أسلم قديماً وشهد مع رسول الله ﷺ مشاهده كلها بعد بدر، وأرسله عليه الصلاة والسلام بكتاب إلى عظيم بصرى ليدفعه إلى هرقل، وكان جبريل عليه السلام يأتي النبي الكريم في صورته، وكان دحية من أجمل الناس، روى عن النبي ﷺ ثلاثة أحاديث. سكن سيدنا دحية قرية المِزَّة قرب=

إستبرق، فأمرنا بلبس السّلاح فأخذنا سلاحَنا وصفَفْنا وقال لنا: هذا رسولُ الله يطلعُ عليكم الآن. قال حارثةُ بن النُّعمان رضيَ الله عنه: فكنا صفَّيْن، فقال لنا رسول الله ﷺ:

«ذلك جبريل»[1]. . . .

* * *

* وفي غزوة حُنين كان سيِّدُنا «حارثةُ بنُ النُّعمان» في عِداد الجيشِ المنطلقِ إلى قتالِ المشركين مِنْ «هوازن» وكانت ترتسمُ على وجهه سماتُ العزم والإقدام فقد ظلَّ بقربِ رسول الله ﷺ، ووصل جيشُ المسلمين إلى وادي حُنَين قبل أَنْ يتبيَّنَ الخيطُ الأبيضُ مِنَ الخيطِ الأسودِ مِنَ الفجر، عندها فاجأتْهُم كتائبُ هوازنَ وخرجَتْ كمائِنُها واستقبلتِ المسلمينَ، فانتشرَ الفزعُ بينهم وارتبكتِ الصُّفوفُ وتعقَّدتِ الأمورُ، فانهزمَ جيشُ المسلمين ما عدا رسول الله ﷺ وثُلَّةٌ مِنْ أصحابِه لا يزيدون على المئة، وكان مِن بينِ هؤلاء الصحابةِ سيدُنا «حارثةُ بنُ النُّعمان» رضيَ الله عنه؛ وقد عالج الرَّسول الكريم ﷺ وَضْعَ الجيشِ المتدهورِ بأَنْ أوعزَ إلى عمّه العبَّاس أَنْ يناديَ باسم الأنصار، وباسم أصحاب «السَّمُرة»[2]، ولم يَكَدِ المسلمون المنهزمون يسمعون صوتَ «العبّاسِ بن عبدِ المطّلب» حتى ثابوا إلى ساحةِ المعركة، والتفّوا حولَ النَّبيِّ ﷺ بسرعةٍ هائلة، حتى إنَّ أحدهم كان يقفزُ عن بَعيرِهِ ويركضُ على الأقدامِ نحو النَّبي ﷺ حتى هزم الله المشركين؛ ولندعْ سيدَنا «أنسَ بنَ مالك» يصفُ لنا ثباتَ الرَّسول ﷺ وأصحابَه في غزوةِ حُنَين قال:

«. . . فسمعتُ رسولَ الله ﷺ والتفتَ عن يمينه ويساره، والنَّاس منهزمون وهو يقول:

= دمشق، وتوفي في خلافة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما.

(١) انظر المغازي (٢/ ٩٤٨).

(٢) السَّمُرة: هي الشجرة التي بايع المسلمون النبي عليه الصلاة والسلام تحتها يوم الحديبية قبل فتح مكة، وكان سيدنا حارثة بن النعمان من المبايعين رسول الله ﷺ.

«يا أنصارَ الله وأنصارَ رسولِه، أنا عبدُ الله ورسولُه صابر».

قال: ثم تقدَّم بحربتِه أمام النَّاس، فوالذي بعثَهُ بالحقِ، ما ضربْنا بسيفٍ ولا طعَنّا برمحٍ حتى هزمهم الله...».

* وقد حفظتْ لنا كتبُ المغازي والسِّير بعضَ أسماءِ رجالٍ مِنَ المهاجرين والأنصارِ، مِمَّن ثبتوا مع رسول الله ﷺ ساعةَ العُسْرةِ في يوم حُنَين، مِنْ بين هؤلاء الرِّجال؛ أبو بكر، وعمرُ، والعبّاسُ بن عبد المطلب، وابنُه الفضلُ، وعليُّ بن أبي طالب، وأبو سفيان بن الحارث[1] بن عبد المطلب، وربيعةُ بن الحارث، وأسامةُ بن زيد، وحارثةُ بن النّعمان، وأيمنُ بنُ عبيد الخزرجي[2].

إذاً، فقد كان سيِّدُنا «حارثةُ بن النُّعمان» بقربِ النَّبيِّ ﷺ لا يغيبُ عنه طرفةَ عَيْن، وكان أحدَ المئةِ الصابرةِ يومَ انكشفَ النَّاسُ وانهزموا عندما باغتَتْهم جموعُ هوازن، ولندع سيِّدَنا «حارثةَ بنَ النَّعمان» يحدثنا عن تلك اللحظاتِ العصيبةِ منْ تلك الغزوة، غزوة حنين، عندما التفتَ ﷺ وقال له سائلاً:

«كم ترى الذين ثبتوا؟.

قال حارثة: فما التفتُّ ورائي تحرّجاً[3]، فنظرتُ عن يميني وشمالي فحزرتُهم مئة، فقلتُ: يا رسول الله هم مئة»[4].

ويقال: إنَّ المئة الصَّابرة يومئذ ثلاثةٌ وثلاثون من المهاجرين وسبعةٌ منَ

(١) انظر كتابنا عن أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب في هذه السلسلة.
(٢) هو سيدنا أيمن بن عبد بن عمرو الخزرجي، وهو أيمن بن أم أيمن حاضنة النبي ﷺ وأخو أسامة بن زيد لأمه. وأيمن بن عبيد صحابي جليل مشهور استشهد يوم حنين. قال ابن إسحاق: كان أيمن بن أم أيمن الخزرجي على مطهرة النبي ﷺ وله ابن يقال له الحجاج بن أيمن.
(٣) تحرج فلان: إذا فعل فعلاً يخرج به من الحرج ـ الإثم والضيق.
(٤) انظر المغازي للواقدي (٣/ ٩٠٠).

الأنصار[١]. وهؤلاء منَ الأَنصار الذين عناهُم العباس بن مرداس السلَمي ووصف طاعَتهم رسولَ الله ﷺ قائلاً:

وجند منَ الأَنصار لا يخذلونَه أطاعوه ما يعصونَه ما تكلّما

وفي هذه الغزوة رأى سيِّدنا «حارثة بن النّعمان» جبريل عليه السّلام مرةً أخرى، وفاز بهذهِ المكرمة، فعن عائشة أمِّ المؤمنين رضيَ الله عنها قالت:

«إنَّ حارثةَ بن النّعمان مرَّ بالنّبي ﷺ وهو يناجي جبريل وهما قائمان فسلَّم عليهما حارثةُ، فلمَّا كانَ بعد ذلك قال رسولُ الله ﷺ:

«هل رأيتَ الرّجلَ»؟.

قال حارثة: نعم، ولا أدري مَنْ هو؟!.

قال رسول الله ﷺ: «هو جبريلُ عليه السلام وقد ردَّ عليكَ السَّلام»[٢].

والحقيقة؛ إن رجلاً ـ يردُّ عليه جبريل السلام ويحظى برضاء الرسول الكريم ـ لذو حظٍّ عظيم.

ورويَ أنَّ «حارثةَ بنَ النّعمان» رضي الله عنه قد رأى جبريل عليه السلام مرتين في حياته، وتعال نستمع إلى سيِّدنا حارثةَ نفسِه يحدِّثنا عن ذلك يقول:

«رأيتُ جبريلَ منَ الدّهر مرتين؛ يوم الصُّورين حين خرج رسول الله ﷺ إلى بني قريظة، مرَّ بنا في صورة دِحْيَة، فأمرَنا بلبسِ السلاحِ؛ ويومَ موضعِ الجنائز حينَ رجعنا مِن حُنَين، مررتُ به وهو يكلِّم النبيَّ ﷺ فلم أُسلِّم، فقالَ جبريل:

مَنْ هذا يا محمد؟.

قال: حارثة بن النّعمان»[٣].

* * *

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) انظر المغازي (٣/ ٩٠١)، وانظر كذلك مجمع الزوائد للهيثمي (٩/ ٣١٣).

(٣) انظر سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٧٨ ـ ٣٧٩) والمغازي (٢/ ٤٩٩).

واستمرَّ سيِّدُنا «حارثةُ بنُ النُّعمان» رضيَ الله عنه يتابع رحلةَ جهاده، فشهدَ المشاهدَ جميعها مع رسول الله ﷺ، ولمَّا انتقلَ الرَّسول إلى الرفيق الأعلى ظل سيِّدُنا «حارثة بن النُّعمان» مثال الجنديّ الأمينِ المخلصِ في حياةِ الخلفاء الرَّاشدين، ولم يتوقفْ جهاده وعطاؤه أبداً، وسجلتْ له كتبُ التَّاريخ والسِّير مواقفَ رائعةً، وقد روي أنَّه وقفَ موقفاً طيباً مِنْ سيدنا «عثمان بن عفان» رضوان الله عليه حيثُ قال له حينما حُوصر:

«إنْ شئتَ قاتلنا دونك»[1].

وشكرَ له الخليفةُ عثمانُ موقفَه الكريمَ هذا؛ وامتدَّتْ رحلةُ حياةِ الجهادِ والعطاءِ بسيدنا حارثةَ بنِ النُّعمان إلى خلافةِ معاويةِ بنِ أبي سفيان رضي الله عنه.

أسرة حارثة ومكانته وكرمه:

* يُعتبرُ سيِّدُنا «حارثةُ بنُ النّعمان» الخزرجيُّ النّجاريُّ أحدَ فضلاء الصحابة مِنَ الأنصار، ومنَ الموثوقين لدى رسول الله ﷺ.

* نشأَ حارثةَ نشأةً صافيةً خالصةً، حيث إنَّ جميع أفرادِ أُسرتِه اعتنقوا الإسلام، فأمُّه «جَعْدةُ بنتُ عبيد بن ثعلبة النّجارية» هي إحدى النِّساء الفاضلات، فقد أسلمتْ وبايعتْ[2] رسولَ الله ﷺ مع أُختَيْها «عفراء وخَوْلة»، وتعتبر جعدة أمُّ «حارثة بن النُّعمان» واحدةً مِنَ النِّساء ممَنْ عُرِفْنَ بَرجاحةِ العقل ونقاءِ السَّريرة، فقد اعتنتْ بتربية حارثةَ ولدِها، وغَذتْه بلبانِ الأخلاقِ الحميدةِ، ولمّا بلغَ حارثةُ بنُ النُّعمان أَشُدَّهُ، حفظَ لوالدتِه حق تربيتها، فكان مِنْ أَبرِّ الناس بها، وقد كان يُضربُ المثلُ به لبرِّهِ بها، فكان يحوطها برعايته ويلتمسُ رضاها أنّى اتّجه، ولا يخرجُ عن أَمْرِها، والحقيقة أنَّ «جعدةَ بنت عبيد» هذه استطاعتْ أَنْ تكونَ أمّاً عظيمة فاضلة لأنّها جعلتْ مِنْ حارثة رجلاً

---

(١) انظر الإصابة (١/ ٢٩٨).

(٢) انظر طبقات ابن سعد (٨/ ٤٤٣).

مقداماً كريماً، وكانت لأمِّ حارثةَ مكانةٌ عظيمةٌ عندَ رسول الله ﷺ، وقد رُوي أنَّ الرَّسولَ الكريمَ كان يأتي إلى منزلها ويأكلُ عندها[1].

* * *

* أمّا زوجُ حارثة بن النّعمان فهي «أمّ خالد بنت خالد بن يعيش النّجارية» وهي من النِّساء الفاضلات أيضاً، وقد بايعتْ رسولَ الله ﷺ[2].

* * *

* وكان لسيِّدنا «حارثة بن النّعمان» مِنَ الولدِ منها: عبد الله وبه يكنى، وعبد الرحمن؛ وكان كلاهما برعماً ندياً منْ براعم الإسلام، ويُعتبر «عبد الله ابن حارثة بن النّعمان» ممن له صحبة ورواية مع رسول الله ﷺ[3].

وكان لسيِّدنا حارثةَ ثلاثُ بناتٍ أيضاً وهنّ: «سَوْدَةُ» و«عَمْرَةُ» و«أمُّ هشام» وكلُّهن أسلمْنَ وبايَعْنَ رسولَ الله ﷺ، وقد رُوي أنَّ أمَّ هشام بنتَ حارثةَ بن النعمان قد بايعتْ بيعةَ الرضوان[4]. كما كان لحارثة بن النُّعمان بنتان أُخريان منْ زوجة أخرى غير زوجته أم خالد وهما «أم كلثوم» و«أَمَةُ الله» وجميعُ أولادِهِ أسلموا وكان لهم شأنٌ في الإسلام.

* * *

* هذه هي أسرةُ سيدنا حارثةَ بن النعمان رضي الله عنه وهذه بيئته النّقية الفواحة بالشذا التي ترعرع فيها؛ وكان لحارثةَ مكانةٌ رفيعةٌ عند رسولِ الله ﷺ لما يتمتعُ به مِنْ صفاتٍ جعلتْه أحدَ أصحابِ الرَّسول النجباء الكرماء.

* * *

وقد أحب حارثةُ رسولَ الله ﷺ حبّاً خالطَ لحمَه وعظمَه، ولم يتوقفْ يوماً واحداً عن أداءِ أيِّ مهمةٍ تُوكَلُ إليه مِنَ الرَّسول عليه الصلاة والسلام.

---

(١) الإصابة (٤/ ٢٥٢).
(٢) انظر طبقات ابن سعد (٨/ ٤٥٤).
(٣) الاستيعاب (٤/ ٢٨١).
(٤) الإصابة (٤/ ٤٨٠).

* صحبَ سيدُنا حارثةُ بنُ النُّعمان رضي الله عنه رسولَ الله ﷺ كثيراً في حياته الشَّريفة المباركة، وحظيَ بِمَعيّةِ الرّسول الكريم في كلِّ غزوة غزاها، وكان حارثةُ يحبُّ القربَ مِنْ رسولِ الله ﷺ، وكانتِ السَّعادةُ تملأُ جوانبَ نفسِه لقُرْبِ منازلِه مِنْ مسجد النَّبي ﷺ، وكانتْ سعادتُه تزدادُ مساحتها من أعماقه عندما كان يتحول عَنْ منازله للرَّسولِ كلما أحدثَ الرَّسول أهلاً أو أشار أي إشارة؛ فيسرع سيدُنا حارثةُ إلى مرضاةِ اللهِ ورسولِه ويبذلُ ما يستطيعُ أنْ يبذلَ عن طيب نفسٍ ورضا قلب، وقد روي أنَّه كانت لحارثة بن النُّعمان رضي الله عنه منازلُ قربَ مسجدِ رسولِ الله ﷺ وحولَه، وكلّما أحدثَ رسولُ الله أهلاً تحوّلَ له حارثةُ بنُ النّعمان عَنْ منزلِهِ حتى صارتْ منازلُه كلُّها لرسولِ اللهِ ﷺ وأزواجِه»[1].

* * *

* ذلكم «حارثةُ بنُ النُّعمان» الذي كان شعارُه قولَ الله سبحانه: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[2].

نعم فقد كان حبُّ الله ورسولِه يملأ قلبَ سيِّدِنا حارثةَ الذي صدقَ في حبِه مع اللهِ ورسولِه، فوهبَ كلَّ ما يملكُ ابتغاءَ مرضاةِ اللهِ ورسولِه؛ لذا فقد كانَ النَّبيُّ الكريمُ ﷺ يخصُّه بعنايتِه ومحبَّتِه وثقتِه، فقد أنزل رسولُ الله أهلَ بيتِه بعدَ الهجرةِ إلى المدينةِ في بيت «حارثةَ بنِ النُّعمان»، ولم تكن هذه هي المرةُ الوحيدةُ التي يُنْزِلُ فيها رسولُ الله ﷺ أهلَه عندَ حارثةَ، فقد كانت فاطمة بنتُ رسول الله ﷺ ممَّنْ نزل في بيتِ «حارثةَ بنِ النُّعمان» مع زوجها «عليِّ بنِ أبي طالب» رضي الله عنه، وذلك بناءً على رغبةِ حارثةَ نفسِه، ونال حارثةُ شرفَ نزولِهم عنده، يحدثنا «ابن سعد» في «طبقاته» عن ذلك فيقول:

(١) طبقات ابن سعد (٢/١٦٦).
(٢) سورة التوبة آية (٢٤).

«لما قَدِمَ رسولُ الله ﷺ المدينة وتزوجَ عليٌّ فاطمةَ، وأراد أنْ يبنيَ بها، قال له رسول الله ﷺ: «اطلبْ منزلاً»؛ فطلب عليٌّ منزلاً فأصابه مستأخراً عن النَّبيِّ قليلاً، فبنى بها فيه، فجاء النبيُّ ﷺ إليها فقال: «إنّي أريدُ أنْ أحوِّلَكِ إليّ» فقال لرسول الله: فكلِّم حارثةَ بنَ النُّعمان أنْ يتحوَّلَ عني، ـ تريد أَنْ يتحوّلَ لي عن منزله ـ فقال رسولُ الله: «قد تحوّل حارثةُ عنّا حتى قدِ استحييتُ»؛ فبلغَ حارثةَ فتحوَّلَ وجاء إلى النَّبي ﷺ فقال: «يا رسول الله إنه بلغني أنك تحوِّلَ فاطمةَ إليك وهذه منازلي وهي أسقب[1] بيوت بني النجار بك، وإنَّما أَنا ومالي لله ولرسولِه، والله يا رسول الله لِلَّذي تأخذُ مني أحبُّ إليَّ مِنَ الذي تَدَعُ، فقال رسول الله: «صدَقْتَ وبارك الله عليك»؛ فحوَّلها إلى بيتِ حارثةَ»[2]. أرأيتَ شبه هذا الكرم؟!.

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جريرُ المجامع

* * *

وبعدُ، هل توقَّفُ كرمُ سيِّدِنا «حارثةَ بنِ النُّعمان» عند هذا الحدّ؟!.

تعالَ أُحَدثْكَ المزيدَ عن سجاياه في العطاء، فكلما تقدمتْ به الأيامُ ازداد كرماً وطيباً وقرباً مِنْ رسولِ الله ﷺ؛ ففي غزوةِ خيبرَ كان حارثةُ في عدادِ الجيشِ المنطلِقِ لقتال يهودِ خيبرَ، وكان قريباً مِنْ رسولِ الله، ولما فتَحَ الله على المسلمين عادَ النَّبيُّ مِنْ خيبرَ، وتزوَّجَ «صَفِيَّةَ بنتَ حُيَيٍّ» ولما قدم المدينة مِن خيبرَ ومعه صفيةُ أنزلها في بيتٍ من بيوتِ حارثةَ بنِ النعمان[3]، وانتقلَ حارثةُ عنها. وكذلك أنزل رسول الله ﷺ «ماريَةَ» في بيت «حارثة بن النُّعمان» أولَ ما قدمَ بها[4]. هكذا كانت ثقةُ النبيِّ ﷺ في سيِّدنا حارثة رضي الله عنه؛ ويتابعُ حارثةُ العطاءَ ويقتدي في كَرَمِهِ بسيِّد الكرماء رسول الله ﷺ،

---

(١) أسقب: أقرب وألصق.
(٢) انظر طبقات ابن سعد (٨/ ١٦٦).
(٣) المصدر السابق (٨/ ٢١٢) وانظر المغازي (٢/ ٧٠٨).
(٤) انظر طبقات ابن سعد (٨/ ٢١٢).

ويَهَبُ دُورَه كلَّها للنبيِّ الكريم ويتحوَّلُ عنها وذلك ابتغاءَ مرضاةِ الله ومرضاةِ رسوله حتى قال عنه الرسول ﷺ:

«لقد استحييتُ مِن حارثةَ بنِ النُّعمان مما يتحوَّلُ لنا عن منازله»[1] وقد أقطعَ النَّبي الكريم من دور حارثة بن النُّعمان عدداً مِنَ الصَّحابة منهم خالدُ بن الوليد بعد أَنْ أسلمَ وقَدِمَ على رسول الله ﷺ[2].

* * *

* ظلَّ سيِّدُنا «حارثةُ بنُ النُّعمان» يحظى بحبِّ رسول الله ﷺ حتى توفي رسول الله ﷺ وهو راضٍ عنه، وقد حظي باحترام الصحابةِ رضوانُ الله عليهم لمكانتِه من رسولِ الله ﷺ؛ وعاشَ في ظلِّ الخلفاءِ الراشدين يقدِّمُ الكثيرَ للإسلام والمسلمين.

* * *

وامتدت الحياة بسيدنا «حارثة بن النُّعمان» رضي الله عنه حتى فَقَدَ بصَرَهُ، لكنَّه ظلَّ قويَّ الهِمَّةِ، رَضِيَّ النَّفْس، ولم ينقطعْ كرمُه عنِ المساكين، فقد كان دَيِّناً خَيِّراً كريماً، ولم يُقعدْه فقدانُ بصرِه عن قضاءِ حوائِجه، بل كان يعتمد على نفسِه في جميع أمورِه وبخاصةِ العطف على المساكين، فقد روي «أنَّ حارثةَ كُفَّ، فجعلَ خيطاً مِن مُصَلاَّهُ إلى حجرته ووضع عنده مكتلاً فيه تَمْر وغيره، فكان إذا سلَّم مسكين أعطاه منه، ثم أخذ على الخيط حتى يأتي إلى باب الحجرة فيناول المسكين؛ فيقول أهله: نحن نكفيك؛ فيقول: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

«مُناولة المسكين تَقي مِيتَةَ السُّوء»[3].

هذه هي رحلةُ حياةٍ واحدٍ مِن فُضَلاءِ الصحابةِ، رحلةٌ معطاءٌ استمرَّ

---

(١) المصدر السابق (٣/ ٤٨٨) وانظر سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٨٠).

(٢) انظر طبقات ابن سعد (٤/ ٢٥٣).

(٣) انظر سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٧٩) والاستيعاب (١/ ٢٨٣ ـ ٢٨٤)، وانظر كذلك البداية والنهاية (٨/ ٥٦ ـ ٥٧).

عطاؤها إلى آخرِ نفسٍ مِن حياتِه؛ فكان حارثةُ مثلاً رائعاً يُحتذى به على مرِّ الأيام.

* * *

بشـــارةُ حـارثـــةَ بـالجنّــة:

قال تعالى: بعد ذكر جهنّم وعذابِها:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴾[١].

* سيِّدُنا «حارثة بن النُّعمان» واحد من فضلاء الصحابة الكرام الذين كانوا موصولين بالله على أساس صحيح، وقد صدقَ الله في سرِّه وعلانيته فصدقه الله؛ واحتلّ مكانةً عاليةً في نفس رسول الله ﷺ، حيث إنّه جمع كثيراً من الصِّفات التي تؤهِّلُه لأَنْ يكونَ مِنَ الأوائل في مضمار الفضائل، فنال بصدقه ونقائه بشارةَ رسول الله ﷺ بالجنة، ولنستمع إلى بشارة سيدنا حارثة بن النّعمان بالجنّة مِنْ أمِّ المؤمنين عائشةَ رضي الله عنها؛ فقد روى الإمام أحمد في المسند عن عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها عن النَّبي ﷺ قال:

«دخلتُ الجنَّةَ فسمعتُ قراءةً فقلتُ: مَنْ هذا؟ فقيل: حارثة بن النُّعمان؛ فقال النَّبيُّ ﷺ: «كذلكم البِرُّ». وكان بَرّاً بأمِّه رضي الله عنه»[٢].

ويقول عنه أبو نعيم الأصبهاني في الحلية: «وكان أبرَّالنَّاسِ بأُمِّه»[٣].

* سَعدِ سيِّدُنا «حارثةُ بن النُّعمان» ببشارةِ الرَّسول ﷺ، وكان قد نال شهادةً أخرى من قبلُ مكتوباً عليها: إنّه منْ أهل الجنَّة، وذلك عن طريق جبريل عليه السّلام، فتعال نقرأ نصَّ هذه الشَّهادة العظيمة؛ فعن عروة عن عائشة رضي الله عنها أنّ جبريل قال:

---

(١) سورة الأنبياء آية (١٠١ ـ ١٠٢).

(٢) أخرجه الإمام أحمد، وانظر الإصابة (١/ ٢٩٨) وانظر سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٨٠)، وانظر كذلك مجمع الزوائد (٩/ ٣١٣).

(٣) حلية الأولياء (١/ ٣٥٦).

«إنَّ الله تكفَّل لهم ـ أي الذين صبروا مع الرسول يوم حُنَين ـ بأرزاقهم وأرزاقِ عِيالهم في الجنة». وكان سيّدنا حارثة بن النَّعمان من المئة الصَّابرة يوم حُنَين؛ وقد سألَ جبريلُ عليه السَّلام سيدَنا محمداً ﷺ يوم حُنين عن حارثةَ فقال:

«مَنْ هذا يا محمد؟

قال: حارثةُ بن النُّعمان.

فقال: أَمَا إنَّه مِنَ المئةِ الصَّابرة يومَ حُنين الذي تكفَّلَ الله بأَرزاقهم في الجنّة ولو سَلَّم لَرَدَدْنا عليه»[1].

* وقد شهد الرسولُ الكريمُ لحارثةَ بالصّدقِ في قولِه وفعله، ونالتْه البركة في أعماله وأولادِه وعمرِه، حيث قال له رسول الله ﷺ:

«صدقتَ باركَ الله عليكَ»[2].

وبعدُ، فحارثة بن النُّعمان أحدُ الأنصار الذين أخلصوا النّيةَ في القولِ والعملِ لله والرسولِ، وأحبّوا المهاجرين وآثروهم على أنفسهم فنالوا الفلاحَ في الدَّارَين وقال الله فيهم:

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[الحشر: ٩].

* وقد جعلَ رسولُ الله ﷺ حبَّ الأنصار مِنَ الإيمان؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه عنِ النّبي ﷺ قال:

«آيةُ الإيمانِ حبُّ الأنصار وآيةُ النِّفاقِ بُغْضُ الأنصار»[3].

* * *

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٧٩)، وانظر مجمع الزوائد (٩/ ٣١٤).

(٢) انظر طبقات ابن سعد (٨/ ١٦٦).

(٣) أخرجه البخاري.

* عاشَ سيِّدُنا «حارثةُ بن النُّعمان» حميداً في ظلّ الخلفاء الراشدين وقد أُصيبَ ببصره في آخر عمره، ولما حلَّ العامُ الحادي والخمسون[1] مِنَ الهجرة النّبوية الشريفة، شعر سيدنا حارثة بدنوِّ أَجَلِهِ فاستبشر بلقاءِ الأَحِبَّةِ، ولم يلبث إلا أياماً حتى صعدتْ روحُه إلى بارئها راضيةً مرضيةً، فكان مع الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، وأنعم عليهم بفضله فسَعِدوا بالنَّعيم.

* وفي سجل الخالدين نجدُ سيِّدنا «حارثةَ بنَ النّعمان» في المقدمةِ وقد حازَ السَّبقَ في الكرم والشَّجاعة والطاعة فكان من الذين قال الله فيهم:

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾.

صدق الله العظيم

* * *

(١) انظر البداية والنهاية (٨/ ٥٦).



سيدنا

زيد بن أرقم

رضي الله عنــه

* ذو الأذن الواعية.
* «هذا الذي أوفى الله بإذنه».
* «وفّت أذنك يا غلام، وصدّق الله حديثك».

مـقـدمــة:

* سكنَ العربُ القدماءُ يثربَ، وزرعوا النخلَ فيها، وبنوا الآطامَ، واتخذوا الضياعَ، ثم وفدَ اليهودُ إليها، وسكنوا فيها بجوارِ أهلِها الأصليين من العرب، وذلك قبل وفودِ الأوسِ والخزرجِ إليها مرتحلين من اليمن. ولم يستطع اليهودُ منع هذه القبائل العربية من مجاورتهم، فاكتفوا ببسطِ النفوذِ الاقتصاديِّ والاجتماعيِّ عليهم، وقبلَ المهاجرونَ ذلك على مضضٍ لضعفِهم، وعملوا عندهم أُجراءَ في زراعةِ الأرض، واستمرَّ الحالُ كذلك إلى أنِ اشتدتْ شوكتُهم ونازعوا اليهودَ سُلطانهم وسيادتَهم.

ولما أَنْ رأى اليهودُ أَنَّ هؤلاء العربَ قد زاحموهم في ديارهم ونازعوهم ملكهم وسيادتهم، وأنهم على مرور الأيام تشتدُّ شوكتُهم ويزدادُ نفوذُهم وسلطانُهم، عندها لجأ اليهودَ إلى الحرب النفسية وإلى الحيلةِ والفتنةِ للتفريقِ والوقيعةِ فيما بين الحيَّيْنِ العربيَّيْنِ، وجعلوا يدسُّون الحقدَ والكراهيةَ بينهم، ويستثيرون فيما بينهم أسبابَ العداوةِ والبغضاءِ، ويُغذُّون الأحقادَ بكلِّ وسائِلهم المشروعةِ وغير المشروعةِ حتى تمَّ لهم ما أرادوا، فحلَّتِ البغضاءُ محلَّ المودَّةِ، والعداوةُ محلَّ الأُلفةِ، فقامت بينهما حروبٌ طاحنةٌ مريرةٌ كان لها في حياتِهم تاريخٌ طويل، وكانت لهم في ذلك أيامٌ مشهورةٌ سجَّلتها كتبُ الأدبِ والتاريخِ، ويُعتبرُ يومُ «بُعاث»[1] آخر هذه الأيامِ الهوجاء، وكان قبلَ

(١) يوم بعاث: آخر أيام الحرب المشهورة بين الأوس والخزرج.
وبعاث: موضع في نواحي المدينة، وكانت هذه الحروب من إيعاز اليهود في المدينة، ومكث كلا الفريقين أربعين يوماً يتجهز للحرب ثم التقوا في بعاث، واقتتلوا قتالاً شديداً وصبروا جميعاً وانهزمت الأوس بادىء الأمر، ثم كانت الدائرة على الخزرج ووضعت الأوس فيهم السلاح وأحرقوا دورهم وأكثروا من قول الأشعار في يوم بعاث حيث كان يوماً عسيراً على الحيين، ومن الجدير بالذكر أن أول هذه الحروب بين الأوس والخزرج هو «حرب سمير».

الهجرةِ النبويّةِ بنحو خمس سنين، وكان يوماً أليماً على كِلا الحيَّيْنِ وبخاصة الخزرج الذين كادوا يُقتلون حرقاً في ديارِهم بيدِ الأوس لولا أن منَّ الله عليهم ووقاهم شرَّ ذلك النزيفِ القديم، ووقف أحدُ عقلاءِ الأوسِ وأشارَ بوقْفِ الحربِ والانتباهِ لما يرميه جيرانُهم الثعالبُ[1] أصحابُ المكرِ السيِّء وأسبابه.

* واستفاقَ الأوسُ والخزرجُ مِن سُباتِ هذه الغفلةِ السحيقة، وشعروا بسُوءِ ما جنتْه حروبُهم بأيديهم في الأيامِ الخالية، وأحسُّوا بالخسارةِ الكبيرةِ التي حلَّتْ بهم حيث كثُر عددُ الأراملِ وعددُ الأيتام وفقدوا الشبابَ وأنفقوا الأموالَ في غيرِ طائلٍ، فحاولوا إصلاح ذاتِ بينِهم وتواصَوا بإنهاء الخلافاتِ وطمسِ معالمِ الأحقادِ والحروب.

* في ظلِّ هذه الأحداثِ نشأ بطلُ قصَّتِنا «زيدُ بنُ أرقم بن زيد بن قيس الخزرجي» ولم يعِشْ مرحلةَ طفولتِهِ في أحضانِ والدَيه، بل نشأ يتيماً في كَنَفِ أحدِ سادات بني الخزرج، وهو «عبدُ الله بنُ رواحة»[2] الذي كان يرعاه ويوجِّهُه.

* ولم تمضِ مدةٌ يسيرةٌ حتى سمعَ الناسُ بالإسلام إلى أن فشا ذكرُ رسولِ الله محمدٍ ﷺ في المدينة، وها هو عبدُ الله بنُ رواحة يستعدُّ لأداءِ الحجِّ مع قومه، وهناك عند «العقبة» في مكّة كان أحدَ النقباءِ الاثْنَي عشر، وعادَ عبدُ الله بنُ رواحة إلى المدينة وحبُّ رسولِ الله ﷺ يملأُ جوانبَ نفسِه الكبيرة، وراح يعطفُ على أهلِ بيتِه ويحدِبُ على الأيتام الذي يربِّيهم في حجرِه ويحبِّبُ إليهمُ الإسلامَ والإيمان واستطاع أن يزرعَ في قلوبهم بذورَه.

* وانتشرَ الإسلامُ في ربوعِ المدينةِ وفي دُورِ بني الحارثِ بن الخزرجِ قومِ

---

(١) كان العرب من الأوس والخزرج يلقبون اليهود بالثعالب وذلك عندما أدركوا مقاصد اليهود الخبيثة.

(٢) قيل: إن سيدنا عبد الله بن رواحة رضوان الله عليه كان زوج أم زيد بن أرقم رضي الله عنه. وانظر عبد الله بن رواحة في هذه السلسلة.

بطلِنا زيدِ بن أرقمَ، فأسلم عمُّه ثابتُ بنُ قيس خطيبُ الأنصار، والذي أضحى فيما بعد خطيبَ رسولِ الله ﷺ.

* * *

نشـــأة نـقـيّـة:

* في ظلالِ الأجواءِ العَبِقةِ، وفي رعاية الصحابيِّ العقبيّ النقيب سيدِنا «عبدِ الله بنِ رواحة»، وفي بيتِه المفعمِ بالإيمانِ والنقاء، نشأ بطلُنا «زيدُ بنُ أرقم» وتغذّى على موائدِ الإيمان وشبّ عليها.

* هو ذا الصبيُّ زيدُ بنُ أرقم يبدو مبتهجاً، لأنه يستعدُّ مع قومِه لاستقبالِ رسولِ الله ﷺ، الذي تواردتِ الأخبارُ بِقربه مِنَ المدينة، وكانَ يومُ دخولِ رسول الله المدينة يوماً مشرقاً حافلاً، فقد لبسَ الأنصارُ أجملَ ملابسهم كأنهم في يوم عِيد، ووقفتِ النساءُ على سطوحِ المنازلِ يستشرفْنَ رسولَ الله ﷺ، وجعل الصبيانُ يهلّلون ويصيحون في فرحٍ وابتهاج:

جاء رسول الله، جاء رسول الله.

* وكان الصبيُّ زيدُ بن أرقم مِن بين الغلمانِ الذين استقبلوا رسولَ الله ﷺ أكرمَ استقبالٍ وأحسنه، واستطارَ قلبُه الصغيرُ فرحاً بقدومِه ﷺ، وكان يسعى مع الغلمانِ ويتسابقون لرؤية رسولِ الله ﷺ وصاحبِه أبي بكرٍ الصدِّيق رضوانُ الله عليه.

* وقد وصفَ سيدُنا أبو بكر الصِّديقُ هذا الاستقبالَ البهيجَ، إذ جاء في الصحيحين بسندٍ عن أبي بكر رضي الله عنه قال:

«... وخرج الناس حين قَدِمْنا المدينةَ في الطرقِ وعلى البيوتِ، والغلمانُ والخدمُ يقولون: الله أكبر جاءَ رسولُ الله، الله أكبرُ جاء محمد، الله أكبر جاء محمد، الله أكبر جاء رسول الله».

ورُويَ عن أمِّ المؤمنينَ عائشةَ رضي الله عنها أنها قالت:

«لما قدم رسولُ الله ﷺ المدينةَ جعلَ النساءُ والصبيانُ والولائدُ يقلْنَ:

طلــــعَ البـــدرُ علَيْنَـــا مـــن ثَنِيّـــاتِ الـــوداعِ
وجـــبَ الشكـــرُ عَلَيْنـــا مـــا دعـــا لله داعِ
أَيُهـــا المبعـــوثُ فِينـــا جئـــتَ بـــالأمـــرِ المطـــاعِ»

* بهـذهِ الصـورةِ الـوضّـاءةِ المتـوَّجـةِ بـالحـبِّ استقبـلَ الأنصـارُ النبيَّ الكريم ﷺ، وحبُّه قد ملأَ قلوبَهم، وكلٌّ يودُّ لو ينزلُ عنده رسولُ الله وهم يقولون: هَلُمَّ يا رسولَ اللهِ ﷺ إلى القوةِ والمنعةِ والثروةِ، هَلُمَّ يا رسول الله إلى العددِ والعُدّةِ والسلاح والمنعةِ، ولم يتوقفْ حبُّهم عندَ هذا الحدِّ فحسب، بلْ بلغَ مِن حرصِهم على كرامتِه عليه الصلاة والسلام وتعظيمِه أن كانوا يتزاحمون على زمامِ ناقتِه حتى ينازعَ أحدُهم صاحبه في الوصولِ إليهِ والتبرُّكِ به ﷺ.

* * *

مشـاهـد زيـد بـن أرقـم:

* كان للحفاوةِ التي استُقبل بها رسولُ الله ﷺ أثر عظيم في نفسِ زيدِ بنِ أرقمَ، وشعر بالحبِّ والإكبار لهذا النبيِّ العظيم الذي محا كلَّ الخلافاتِ والعصبيات، وألّـفَ بيـن الأوس والخـزرجِ الـذيـن يحملـوا اسمـاً واحـداً ـ الأنصار ـ فقرر في نفسِه الصغيرة ذات الهِمّةِ الكبيرة أن يكون واحداً من جنودِ الإسلامِ المخلِصين.

ولما شرع الرسولُ ﷺ في بناءِ مسجدِه كان زيدٌ مِن بين الذين يعملون في البناء، وجعل يحضر مجالسَ رسولِ الله ﷺ لا تكادُ تفوتُه جلسةٌ مِنَ تلكَ الجلساتِ المباركة.

لم يكن يعكِّرُ صفوَ حياة زيدِ بنِ أرقمَ إلا أولئك الذين يُبطنون الكراهية والعداوةَ لرسولِ الله ﷺ وللمسلمين، وعلى رأسِ هؤلاء عبدُ الله بنُ أبيّ ابنُ سلَول، وكانتِ الأوسُ والخزرجُ قد اجتمعوا على سيادتِه ليتوِّجوه ـ وذلك بعد يوم بُعاث ـ لكنّ مجيءَ النبيِّ الكريمِ ﷺ إلى المدينة جعلَ قومه ينصرفون عنه ويُقبلون نحوَ الرسولِ الكريم، فكان يرى أنه استلبه مُلْكاً، فكان يبطنُ العداوةَ والبغضاءَ لرسولِ اللهِ، فأظهرَ الإسلامَ ولكنه بقي مستبطناً الكفرَ، وكان لا يجد

مجالاً للفتنةِ أو للمكيدةِ بالرسولِ وبالمسلمين إلا وأدلى دلْوَه فيها وغذّاها وأشعل نارها، ولم يؤمن هذا المنافق حينما قدمَ رسولُ الله المدينة، وظلّ على شِركِه حتى كانت غزوةُ بدرٍ في السنة الثانية للهجرة، ونصرَ الله المؤمنين على المشركين، عندها دخلَ في الإسلامِ ظاهراً.

* كانَ زيدُ بنُ أرقم على الرغم من صِغَر سِنّه واعياً، يعدُّ نفسَه إعداداً سليماً ليكون أحدَ رجالِ الإسلام وفرسانِهم، ولما كانت غزوةُ بدرٍ تمنّى لو أجازَه رسولُ الله ﷺ ليكونَ له شرفُ الجهادِ، غيرَ أنَّ رسولَ اللهِ ردّه مع ثُلّة مِن أترابه، روى الواقديُّ في مغازيه عن استعراض رسول الله المقاتلين يومَ بدر فقال:

«وعرضَ المقاتلةَ، فعرضَ عبدَ الله بنَ عمر وأسامةَ بنَ زيد ورافعَ بن خُديج والبراءَ بنَ عازب وأُسيدَ بنَ ظهير وزيدَ بنَ أرقم وزيدَ بن ثابت فردّهم ولم يُجِزهم»[1].

* ورجعَ زيدُ بنُ أرقم مع أترابه وأعينُهم تفيضُ مِنَ الدّمعِ حزناً على عدمِ مشاركتِهم الجهاد.

واستدارَ العامُ وجاءتْ غزوةُ أُحد، واستعدّ المسلمون لها، وتسابقَ الغلمانُ في التنافس إلى شرفِ الجهادِ والشهادةِ وفيهم زيدُ بنُ أرقم وأخوه أوسُ بنُ أرقمَ مع مجموعةٍ مِنَ الغلمان في عمرِ الورودِ، أجادوا صنعةَ الحرب، وحدا بهمُ الشوقُ إلى جنةٍ عرضُها السمواتُ والأرض، فاندسُّوا بين صفوفِ المجاهدين، لتكونَ كلمةُ اللهِ هي العليا، وكلمةُ الذين كفروا السفلى، أو يفوزوا بالشهادة، لكنّ الحظّ لم يحالفْ زيداً هذه المرةَ أيضاً، وذلكَ أنَّ رسولَ الله ﷺ، لما عسكرَ في مكانٍ يقال له «الشيخان» استعرض الجيشَ فردَّ مَنِ استصغره مِن جنودِه وكان ممّن ردَّه رسولُ الله ﷺ من هؤلاء الصغار كما روى ابن عبد البر:

---

(١) المغازي (١/ ٢١).

«وردّ رسولُ الله ﷺ يومئذ: عبدَ الله بن عمر، وزيدَ بن ثابت، وأسامةَ بن زيد، والبراءَ بن عازب، وأسيدَ بن ظهير، وعرابةَ بن أوس، وزيدَ بن أرقم، وأبا سعيد الخدريّ، ثم أجازهم كلّهم عليه السلام يوم الخندق»[١].

وأجاز رسولُ الله بعض الشباب يومئذ، فكان ممن أجازه سمرةُ بنُ جندب، ورافعُ بنُ خُديج، ولهما خمس عشرةَ سنة، أما زيدُ بن أرقم وأترابه فقد جعلهم حرساً للذرية[٢].

* مرةً أخرى ردَّ رسولُ الله ﷺ زيدَ بنَ أرقم، غير أنّ هذه المرة كان حزنُه ضئيلاً، فقد حاز أخوه أوسُ بنُ أرقم شرفَ الجهاد، وكان من عِداد جيش المسلمين، ومن فئة الشباب الذين ملأ الإيمان قلوبَهم، وازدادوا صلابةً وقوةً حينما تخاذلَ المنافقون برئاسة زعيمهم عبدِ الله بن أبيّ، وعادوا إلى المدينة والوهنُ والخزيُ يملأ نفوسَهم. ولم تُجدِ معهم نصائح الصحابيّ عبدِ الله ابنِ عمرو بنِ حرام[٣] بل أصروا على موقفهم واستكبروا استكباراً.

والتحم الفريقان، وكانت بدايةُ النصر للمسلمين، لولا أن خالف بعضُ الرماة أمرَ رسولِ الله ﷺ ونزلوا من على الجبل لجمعِ الغنائم، فتغيَّرت موازينُ المعركة، وسقط نحو سبعين شهيداً من المسلمين كان منهم ستةٌ وستون مِنَ الأنصار، وفيما بينهم أوسُ بنُ أرقم[٤] الذي فاز بالشهادة مع من فاز.

* وتوالتِ الأيامُ والشهور، وحطّت السنةُ السادسةُ مِنَ الهجرةِ رحالَها، وفي تلك السنةِ تألّقَ نجمُ بطلنا الشابّ زيدِ بنِ أرقمِ، وسجّل له القرآنُ الكريم حادثةً أضاءتْ جوانبَ نفسِه وجعلتْ ذِكراه عاطرةً إلى يومِ القيامةِ، وكسب شهادةً مِن رسولِ الله ﷺ عنوانها: «هذا الذي أوفى لله بأذنه». فتعالَ نتقربْ

---

(١) الدرر (١٥٩) وانظر كذلك الفصول في سيرة الرسول لابن كثير (١/ ١٤٦) وانظر معجم البلدان (٣/ ٣٨٠).

(٢) انظر سير أعلام النبلاء (٣/ ١٦٦).

(٣) انظر هذا الموضوع بتوسع في سيرة عبد الله بن عمرو بن حرام من هذه السلسلة.

(٤) انظر الدرر (١٦٩) وانظر أيضاً تاريخ الإسلام للذهبي (٢/ ٢٠٢).

أكثرَ مِن صاحبِ الأُذُنِ الوفيةِ الواعيةِ ونتعرفُ تلكَ الحادثةَ التي رفعتْ زيدَ بنَ أرقم مكاناً علياً في مقامِ الصدق والجهادِ والوفاء.

* * *

أذن واعيـــة ونـفس صـافيـــة:

* في السنة السادسة من الهجرة النبوية وفي شعبانَ منها، خرج رسولُ الله ﷺ إلى بني المصطلِق لما بلغه أنهم يجمعون لحربِه بقيادةِ ملكِهم الحارثِ بنِ أبي ضرار، فخرج إليهم، وخرج معه كثيرٌ مِنَ المنافقين طمعاً في الغنيمةِ وطمعاً في زرعِ الفتنةِ بين صفوفِ المسلمين، وحالهم كما وصفهُم الله تعالى في القرآن الكريمِ بقوله:

﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾[التوبة: ٤٧].

وسارَ رسولُ الله ﷺ حتى وصلَ إلى ماءٍ يقال لهُ «المُرَيْسيع» وهناك التقى الحارثَ بنَ أبي ضِرار ورجالُه، فأمرَ رسولُ الله ﷺ أصحابَه فحملوا حملةَ رجلٍ واحد، فكانت النصرة وانهزم بنو المصطلق، وقد كانت غزوة بني المصطلق هذه غزوةً موفقةً مباركةً في كلِّ خطواتِها ومراحِلها، وفرِحَ المسلمونَ بنصرِ الله، غير أنَّ المنافقين الذين أكلَ الحسدُ قلوبَهم وصهرَ الغيظ نفوسَهم، أبَوْا إلا أَنْ يكدِّروا صفوَ هذا السرور، ويُذهبوا بهاءَ النصرِ والفتح، وذلك بإثارة خلافٍ اشتجرَ بين رجلين على ماء المريسيع بعد الفراغ مِنَ الغزوة، وأوشكتِ الفتنةُ أن تقومُ وتستعرَ نارُها بين المهاجرين والأنصار لولا أن منَّ الله على المؤمنين، ووقاهم شرَّها وذلك بحسن تصرُّفِ رسولِ الله ﷺ، وكان لسيدِنا زيدِ بنِ أرقمَ دوراً نفيساً في هذه الغزوة، حيث أزاح الستارَ عن المنافقين فظهرت حقيقتهم المزيّفة، وتجلى موقفُه بالشجاعةِ والجرأة، لنستمعْ إلى تفاصيل قصةِ الشجار ترويها لنا كتب التفسير والمغازي، تقول القصة:

«فبينا رسولُ الله ﷺ مقيمٌ هناك اقتتل على الماء جهجاهُ بنُ سعيد الغفاري

وكان أجيراً لعمر بن الخطاب، وسنان بن يزيد، ازدحما على الماء فاقتتلا، فقال سنان: يا معشرَ الأنصار[1]. وقال الجهجاهُ: يا معشرَ المهاجرين وزيدُ بن أرقم ونفرٌ مِنَ الأنصار عندَ عبد الله بن أبيّ، فلما سمعها قال:

قد ثاورونا في بلادِنا واللهِ ما مثلُنا وجلابيبُ[2] قريش هذه إلا كما قال القائل: سمِّنْ كلبَكَ يَأْكُلْكَ[3]، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجَنَّ الأعزُّ منها الأذلّ، ثم أقبل على مَنْ عندهِ مِن قومه وقال: هذا ما صنعتم بأنفسِكم أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالَكم، أما والله لو كففتُم عنهم لتحوّلوا عنكم مِن بلادكم إلى غيرها.

فسمعها زيدُ بنُ أرقم رضي الله عنه، فذهب بها إلى رسولِ الله ﷺ وهو غُليم عنده عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه فأخبره الخبرَ، فقال عمر رضي الله عنه:

يا رسولَ الله، مُر عبّادَ بنَ بشر فليضربْ عنقَه.

فقال رسول الله ﷺ: «فكيف إذا تحدَّثَ الناسُ يا عمر أنّ محمداً يقتلُ أصحابَه؟ لا ولكن نادِ يا عمرُ الرحيل».

فلما بلغ عبدَ الله بنَ أبيّ أنّ ذلك قد بلغ رسولَ الله ﷺ أتاه فاعتذر إليه، وحلف بالله ما قال ماقالَ عليه زيدُ بنُ أرقم، وكان عندَ قومه بمكان. فقالوا: يا رسول الله، عسى أن يكونَ هذا الغلامُ أوهمَ ولم يثبت ما قال الرجل.

وراحَ رسولُ الله ﷺ مهجِّراً في ساعة كان لا يروح فيها، فلقيَه أُسيد بن

---

(١) لم يجب الأنصار صرخة حليفهم ولا المهاجرون صرخة أجيرهم أيضاً ولكن النفاق وأهله استغلوا هذه الحادثة لإثارة الشغب والفوضى والإرباك.

(٢) جلابيب قريش: لقب لمن كان أسلم من المهاجرين لقّبهم بذلك المشركون. والجلابيب: الأزر الغلاظ، واحدها جلباب، وكانوا يلتحفون بها فلقبوهم بذلك. والجلابيب: جمع جلبيب؛ ما يجلب من بلد إلى غيره، يعني أغراب.

(٣) مثل من أمثال العرب وعكسه «جوع كلبك يتبعك» وهذا المثل قاله حازم بن المنذر الحماني وله قصة بذلك، انظر مجمع الأمثال للميداني (١/ ٤٢٣).

الحضير رضي الله عنه، فسلّم عليه بتحية النبوة ثم قال: والله لقد رحتَ في ساعةٍ منكرة ما كنت تروح فيها! فقال رسول الله ﷺ:

«أما بلغك ما قال صاحبُك ابن أبيّ؛ زعم أنه إذا قدم المدينة سيخرجُ الأعزُّ منها الأذلَّ».

قال: فأنت يا رسول الله العزيز وهو الذليل، ثم قال:

ارفقْ به يا رسولَ الله، فواللهِ لقد جاء الله بك وإنا لننظمُ له الخرزَ لنتوِّجَه، فإنه لَيرى أن قد سلبتَه ملكاً.

فسار رسولُ الله ﷺ حتى أمسَوا، وليلتَه حتى أصبحوا وصَدْر يومِه حتى اشتدّ الضحى، ثم نزل بالناس ليشغلَهم عما كان من الحديث، فلم يأمنِ الناسُ أن وجدوا مسَّ الأرضِ فناموا»[1].

وهكذا ركَن الجيش جميعُه إلى سُبات عميق، ولكنّ سيِّدَنا زيدَ بنَ أرقم لم يجدِ النومُ إليه سبيلاً، بل هرب النوم من عينيه حيث سبق أَنْ ظنَّ بعضُ الناسِ فيه الكذبَ لتصديقِ النبيِّ ﷺ عبدَ الله بنَ أبيّ وأصحابَه ظاهراً حين غلظوا الإيمان منكرين ما نقل عنهم، فآلم ذلك زيداً رضي الله عنه ألماً شديداً أقضَّ مضجعَه، إلى أن أقشعت سحابة الشك والارتياب والقلق والارتباك وتبيَّن الرشد من الغيّ، عندها رُدَّتْ إليه رُوحُه وفرح بنصرِ اللهِ له، وبتصديق رسول الله ﷺ إيّاه، فكيف كان الفرج من الكرب؟ هذا ما سنقرؤه في السطور التالية....

* * *

الفــرج القـريـب:

* يروي سيِّدُنا زيدُ بنُ أرقم رضي الله عنه عما أصابه من الهمِّ والحزنِ وما ساوره مِنَ القلق إلى أَنْ جاءه الفرجُ فيقول:

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (٤/ ٣٩٥) وسيرة ابن هشام (٢/ ٢٩١ ـ ٢٩٢) وانظر كذلك تفسير القرطبي لسورة «المنافقون».

«. . . . فأصابني همٌّ لم يصبْني مثلُه قطّ، فجلستْ في بيتي فأنزلَ الله ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ إلى قوله: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ﴾ إلى ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ فأرسلَ إليَّ رسولُ الله ﷺ فقرأها عليَّ ثم قال: «إنّ الله قد صدقَك يا زيد»[1].

ونزلَ الذكرُ الحكيمُ ليفصلَ في هذه القضيةِ التي عكّرت صفوَ المسلمين، نزل القرآن ليصدِّق زيداً فيما نقله إلى رسول الله ﷺ، إذ أدى ما يتوجَّبُ عليه لرسوله ولدينِه.

وإلى هذا الغلام، يتسابقُ رجلان من كبارِ الصحابة يبشِّرانه بنزول القرآن وتصديق الله إياه، أتعرفُ من هذان الرجلان؟ الخبر اليقين في هذا الشأن نجدُه عند ابنِ عبدِ البرصاحب كتاب «الاستيعاب» حيث يتحفُنا باسم هذين الرجلَين فيقول:

«فأنزلَ الله تصديقَ زيدِ بنِ أرقم، فتبادرَ أبو بكرٍ وعمرُ رضي الله عنهما إلى زيدٍ ليبشِّراه، فسبقَ أبو بكرٍ فأقسم عمرُ ألاَّ يبادَره بعدَها إلى شيء. . . . »[2].

نعم فالصدِّيق سبّاق إلى المكارم كلِّها، وقد شهدَ عمرُ بن الخطاب له بذلك فقال: «والله ما سابقتُ أبا بكر إلى خيرٍ قطّ إلا سبقني إليه».

* حقاً إنّ زيدَ بنَ أرقم لذو حظ عظيم، الصّدِّيق والفاروقُ يتسابقان مِن أجلِ غلامٍ يتيمٍ حدثِ السن!.

أجل فزيدٌ عظيمُ الشأنِ راسخٌ في الصدقِ رسوخَ الجبالِ، فهنيئاً لزيدِ بنِ أرقمَ، وهنيئاً للصدِّيق والفاروق اللذَين أسرعا لتلبيةِ أمر رسولِ الله ﷺ، وأسرعَ زيدٌ ملبِّياً رسولَ الله ﷺ ليتسلَّمَ شهادةَ الصدقِ والوفاءِ والبشر منه ﷺ.

---

(١) الحديث في صحيح البخاري برقم (٤٦١٧) في تفسير سورة المنافقين. وانظر أيضاً صحيح مسلم: أول كتاب صفات المنافقين وأحكامهم. كما روى الحديث أحمد في مسنده.

(٢) الاستيعاب (١/ ٥٣٧).

ويخبرنا سيِّدُنا زيدٌ رضي الله عنه عن تسلُّمِه البشارةَ المختومةَ برحيقِ المسك فيقول:

«فَعَرك أُذني وضحكَ في وجهي، فما كان يسرُّني أَنَّ لي بهذا الخلدَ في الدنيا.

ثم إنَّ أبابكر لحقني وقال:

ما قالَ لكَ رسولُ الله ﷺ؟.

قلتُ: ما قالَ شيئاً.

ثم لحقني عمرُ فقلت له مثل قولي لأبي بكر.

فلما أصبحنا قرأ رسول الله ﷺ سورة المنافقين»[1].

* وهكذا استبانتِ الحقيقةُ، وظهرتْ صورةُ ابنِ أبيّ المزيفةُ على حقيقتِها، ونزلَ القرآنُ الكريمُ ليقولَ لهذا المنافقِ إنك كذاب، وكان لهذا المنافقِ ابنٌ هو «عبدُ اللهِ بن عبد الله بن أبيّ»[2] وكان رجلاً صالحاً مِنَ الصحابةِ الأخيار، فلما علم ما كان من صنيعِ والدِه ومقالتِه الفاسدِة جاء يسعى إلى رسول الله ﷺ وقال:

«يا رسولَ اللهِ، بلغني أنك تُريد قتلَ أبي، فإن كنتَ تريدُ ذلك فمرني بقتلِه لأقتلَنّه. وإني أخشى يا رسولَ الله إن قتلَه غيري ألاَّ أصبرَ عن طلب الثأرِ فأقتلَ

---

(١) انظر أسباب النزول للواحدي (٣٥٣) طبعة دار ابن كثير. وانظر كذلك تفسير ابن كثير (٤/ ٣٩٦).

(٢) هو سيدنا عبد الله بن عبد الله بن أبي بن مالك الأنصاري الخزرجي الصحابي، وأبوه هو عبد الله بن أبي ابن سلول المنافق. وكان عبد الله بن عبد الله هذا من فضلاء الصحابة وساداتهم وكان اسمه الحباب وبه كان أبوه يكنى، فلما أسلم سماه رسول الله ﷺ عبد الله. وشهد سيدنا عبد الله بدراً وأحداً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، واستأذن النبي عليه الصلاة والسلام في قتل أبيه على نفاقه فنهاه. واستشهد عبد الله بن عبد الله يوم اليمامة في خلافة أبي بكر رضوان الله عليه سنة ثنتي عشرة من الهجرة.

به مسلماً فأدخلَ النار، ولقد علمتِ الأنصارُ أني من أبرِّ أبنائها بأبيه.

فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له وقال له: «بِرَّ أباك ولا يرى منك إلا خيراً»[1].

* حقاً إنه لموقفٌ عظيم، موقفُ نبيِّ الرحمة وصَفْحِهِ عن عبدِ الله بن أبيّ ابن سلول، ومعاملتِه برفق كما أشار عليه الصلاة والسلام لولده بقوله أيضاً:

«بلْ نترفَّقُ به ونحسنُ صحبتَه ما بقيَ معنا»[2]. وموقفُ الابنِ البطلِ الصادقِ عبدِ الله بن عبد الله الذي صدق ما عاهد الله عليه، فكان رضاءُ اللهِ ورسولِه أحبَّ إليه من والدِه، فنال بذلك شرفَ الإيمانِ ووسامَ الفلاحِ والفوز بالرضوانِ من الله سبحانه، وتغلّبَ على أهواءِ نفسِه وتبرَّأ مِن عملِ والدِه ومَنَعَه من دخول المدينة إلا بإذنٍ مِن رسولِ الله ﷺ.

فقد روى ابن عبد البر في كتابه القيم «الدرر» قال:

«فلما وصلَ رسولُ الله ﷺ إلى المدينة مِن تلك الغزاة، وقفَ عبدُ اللهِ ابن عبد الله بن أبيّ لأبيه بالطريق وقال: والله لا تدخُل المدينةَ حتى يأذنَ لكَ رسولُ الله ﷺ بالدخول، فأذن رسول الله ﷺ بدخوله»[3].

* وقد صور سيِّدُنا عبدُ الله بنُ عبد الله بن أبيّ رضي الله عنه مدى طاعتِه لله ولرسولِه حتى لو أمره عليه الصلاة والسلام بقتلِ أبيه لفعل وما تردَّد، يقول:

فقلــتُ رســولَ الله إنْ كنــتَ فــاعــلاً
كفيتُــك عبــد الله[4] لَمْحَــكَ بــالبصــرِ
تســاعــدنــي كــفٌّ ونفــسٌ سخيّــة
وقلــبٌ علــى البلــوى أشــدُّ مــن الحجــرِ

---

(١) انظر الدرر (٢١٩).
(٢) انظر عيون الأثر لابن سيد الناس (٢/ ١٢٦).
(٣) الدرر (٢٢٠).
(٤) أي والده عبد الله بن أبي ابن سلول وذلك بالإسراع في قتله.

فقــال ألا لا يقتــلِ المــرءُ طــائعــاً

أبــاه وقــد كــادت تطيــر بهــا مُضَــر[١]

والآن، أليس موقف سيدِنا عبدِ الله بن عبد الله هو موقفٌ بطوليّ أيضاً فيه عظمةُ الإسلامِ ورجولةُ المسلمين؟.

أليس هو موقفٌ يتغلّب فيه الإيمانُ والصدقُ على أسمى عاطفةٍ أَنْبَتَها الله وغرسَها في نفوسِ البشرِ ألا وهي عاطفةُ الأُبوة؟.

نعم ففي قاموس سيدِنا عبد الله بن عبد الله الإيمانيّ لا يوجد مكان لعاطفةٍ كهذه، وبخاصة إذا تعارضت مع مرضاةِ اللهِ ومرضاة رسولِه ﷺ، إن موقف عبد الله بن عبد الله هذا حسنةٌ من حسناتِ الإسلام، وثمرةٌ يانعةٌ مِن ثمراتِه تؤتي أُكُلَها كلَّ حينٍ بإذنِ رَبِّها.

* كانت هذه الحادثةُ مفتاحَ خيرٍ لسيدِنا زيدِ بنِ أرقم رضي الله عنه، وقد عرف طعمَ الصدقِ والجهاد، فلم يتخلّفْ عن غزوةٍ من غزواتِ النبيّ الكريم عليه الصلاة والسلام بعد غزوة أُحد، وأضحى الجهادُ جزءاً مِن حياتِه لا يقعدُ عنه مهما بعُدتِ الشقةُ، ومهما كانتِ الأسبابُ، وها هو سيِّدُنا زيدٌ نفسُه يحدثُنَا عن مشاهدِه مع رسولِ الله ﷺ فيقول:

«غزا رسولُ الله ﷺ تسعَ عشرةَ غزوةً كنت معه في سبعَ عشرة»[٢].

«ولم يكن سيِّدُنا زيدُ بنُ أرقم رضي الله عنه جندياً مطيعاً في غزواتِ رسول الله فحسب، بل كان مطيعاً في السرايا أيضاً، وسنراه قريباً على مشارفِ الشام لقتالِ الروم في سرية مؤتة، إذ كان أحدَ أبطالِ المسلمين الذين ذهبوا لإعلاءِ كلمةِ الله بأمرٍ مِن رسولِ الله تحت قيادةِ حِبِّ رسولِ الله سيدِنا زيدِ بنِ حارثةَ عليه رضوان الله.

* * *

(١) انظر المغازي (٢/ ٤٢١ ـ ٤٢٢).

(٢) الحديث رواه الإمام البخاري في صحيحه في كتاب المغازي، باب كم غزا النبي ﷺ. وانظر كذلك الاستيعاب (١/ ٥٣٧) والإصابة (١/ ٥٤٢).

زيد بن أرقم في مؤتة:

* ثلاثةُ آلافٍ مِن فرسانِ المسلمين يعسكرونَ الآنَ بالجُرف قربَ المدينةِ المنورة، وهم يستعدُّون للانطلاقِ إلى الشامِ لقتالِ الروم، والرسولُ الكريم ﷺ والمسلمون يودِّعون الجيشَ الغازيَ بالدعاءِ والتوفيق. والجيشُ الإسلاميُّ منطلقٌ الآنَ نحوَ الشامِ بقيادةِ زيدِ بنِ حارثة ونائبَيْه جعفر بنِ أبي طالب[1]، وعبدِ اللهِ بنِ رواحة رضي الله عنهم، كلُّهم يسير تحت اللواءِ الأبيضِ الذي عقده رسولُ الله ﷺ، ويبدو سيدُنا زيدُ بنُ أرقم مِن بينِ تلك الجموعِ رديفاً لسيدِنا عبدِ الله بنِ رواحةَ القائدِ الثالث، ولما اقتربَ الجيشُ مِن مشارفِ الشامِ بلغَهم أنَّ الرومَ قد جمعوا لهم أعداداً كبيرة، بَيْدَ أنَّ المسلمين عقدوا مجلساً للشورى ليخرجوا بحلٍّ لهذه المفاجأة، وهنا قال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه يشجِّع القوم ويشحذ هممَهم:

«يا قوم والله إن الذي خرجتم تطلبون أمامكم ـ يعني الشهادة ـ وإنكم ما تقاتلون الناس بعدد ولا قوة، وما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به فانطلقوا فهي إحدى الحسنيين إما ظهور وإما شهادة» فوافقه القوم فنهضوا[2].

وسار القومُ وزيدُ بنُ أرقمٍ رديفٌ لعبدِ الله بنِ رواحة، وكلاهما يتشوّقُ للجهاد ونيلِ الشهادة، ويحدِّثُنا سيدُنا زيدٌ عن أحداثِ تلك السريةِ وعن عبد اللهِ بن رواحة وأمنيته وتطلُّعاتِه إلى لقاءِ الله ونيلِ الشهادةِ فيقول:

«كنت يتيماً لعبدِ الله بنِ رواحة في حِجره، فخرج بي في سفره ذلك مُردفي على حقيبةِ رَحْلِه، فواللهِ إنه ليسيرُ إذ سمعته ينشدُ أبياته هذه:

إذا أدنيتِنـــي وحملـــتِ رحْلـــي

مسيـــرةَ أربـــعٍ بعـــد الحِســـاءِ

---

(١) انظر جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه من هذه السلسلة.

(٢) انظر الفصول في سيرة الرسول لابن كثير (١/ ١٩٣ ـ ١٩٤).

فشأنكِ أنعمٌ وخلاكِ ذمٌّ
ولا أرجعُ إلى أهلي ورائي

وآبَ المسلمون وغادروني
بأرضِ الشام مشتهرَ الثواء[1]

وردَّكَ كلَّ ذي نسبٍ قريبٍ
إلى الرحمن منقطعَ الإخاءِ

هنالك لا أُبالي طلعُ بعلٍ[2]
ولا نخلٍ، أسافلها رُواءِ

فلما سمعتُهن بكيتُ فخفقني بالدّرَّة وقال:

«ما عليك أَنْ يرزقني الله الشهادةَ وترجعَ بين شُعْبَتَيْ الرَّحْل»[3] ثم التفت عبدُ الله بن رواحة إلى زيدِ بنِ أرقم وقال له:

يا زيد اليعملات الذّبل
تطاول الليل هُديتَ فانزل[4]

وكان سيدُنا عبدُ الله بنُ رواحة يعني: انزل فسُقْ بالقوم، ويتابع زيدُ بنُ أرقمَ حديثَهَ عما يجول في خَلَدِ عبدِ الله بنِ رواحة ويسجِّلُ لنا صوراً عن حياتِه وعبادتِه فيقول:

«ثم نزلَ نزلةً مِنَ الليل، فصلَّى ركعتين وعاقبهما دعاءً طويلاً ثم قال لي: يا غلام.

فقلت: لبيك.

---

(١) الثواء: يقال ثوى بالمكان ثواء: إذا أطال الإقامة به.
(٢) البعل: الشجر الذي يسقى من السماء.
(٣) انظر المغازي (٢/ ٧٥٩) وتاريخ الإسلام للذهبي (٢/ ٤٩١ ـ ٤٩٢).
(٤) اليعملات: جمع يعملة وهي الناقة السريعة. الذبل: الضامرة من طول السفر وانظر عيون الأثر لابن سيد الناس (٢/ ٢٠٤).

قال: هي إن شاء الله الشهادة»[1].

وتحقَّقَ ما كان يتمنَّاه عبدُ الله بنُ رواحة، فنالَ الشهادةَ ونالَ رضوان الله، وعادَ زيدُ بنُ أرقم إلى المدينة مع الجيش الذي صارت قيادتُه إلى خالدِ بن الوليد رضي الله عنه، وهناك في المدينة خلع عليهم الرسولُ الكريمُ ﷺ لقباً عظيماً هو «الكرَّارون».

وتابع زيدٌ حياتَه بقربِ رسول الله ﷺ إلى أَن انتقلَ المصطفى إلى الرفيق الأعلى، وهو راض عن سيدِنا زيدِ بنِ أرقمَ رضي الله عنه.

* * *

مناقب زيد ومكانته:

* سيِّدُنا زيدُ بنُ أرقم رضي الله عنه وأرضاه علمٌ مِن أعلام الصحابةِ الذين نشؤوا على حبِّ الله وحبِّ رسولِه الكريم ﷺ، ولم تكنِ المحبةُ تلكَ كلاماً يؤثر فحسب، بل كانت طاعةً واتباعاً وترجمةً عمليةً عما في نفسِه، فلم يُقْعِدْه يُتْمُه عن طالبِ المعالي بلْ رفعَه لأن يكونَ في الصفوفِ الأولى في المجالاتِ كلِّها، ففي مجالس رسولِ الله كان سبّاقاً، وفي ساحاتِ الجهاد كان مِن الأوائل، وفي الصدقِ كان مِنَ المشهودِ لهم به أيضاً، وفي التصدِّي بوجهِ الباطلِ كان مِنَ الأبطالِ الأوائلِ أيضاً.

* وقد سجَّلتْ كتبُ المغازي والسِّيَر مناقبَ كثيرةً لسيِّدنا زيدِ بنِ أرقمَ رضي الله عنه، كما سجَّلَتْ له مواقفَ وضاءةً تدلُّ على إيمانِه الراسخِ بالله سبحانه وتعالى، وحبِّه الشديدِ لرسولِ الله ﷺ، كما تدلُّ على شجاعتِه في قولِ الحقِّ والصدقِ مهما كانتِ الظروفُ. وزيدُ بنُ أرقمَ ذلك اليتيمُ الذي لا يوجدَ مَن يحميه إلا صدقُه لا يخاف في الله لومة لائم، ولا يلتفتُ إلى تعنيفِ قومِه له، لا بل إن شجاعتَه في الوقوف بوجه قومه، ووجه صاحبِ جريمةِ الكذب والنفاقِ ـ ابنِ سلول ـ تفوقُ كلَّ شجاعةٍ، فهذه صورةٌ مِن إحدى صورِ الجرأةِ

---

(١) انظر المغازي (٢/ ٧٥٩).

في حياتِه وفي أولى غزواته مع رسول الله ﷺ، وذلك عندما أخبره بجريمة رأسِ النفاقِ والمنافقين ابنِ سلول، فقد رُوي أن النبيَّ الكريم ﷺ كره هذا الخبرَ وتغيَّرَ وجهُه الشريفُ ثم قال لسيِّدِنا زيدٍ رضي الله عنه:

«يا غلامُ لعلّك غضبتَ عليه؟.

قال زيدٌ: لا واللهِ لقد سمعتُه منه.

قال ﷺ: لعلّه أخطأَ سَمْعُك؟.

قال زيد: لا يا نبيَّ الله.

قال: لعلَّه شُبِّه عليك؟.

قال: لا والله لقد سمعتُه منه يا رسولَ الله».

بهذه الصورةِ الواضحةِ الكاشفةِ كان زيدٌ رضوان الله عليه يجيبُ عن أسئلةِ رسولِ الله ﷺ، وكانت إجابتُه إجابةَ الصادقِ الواثقِ بالله.

وشاع في معسكرِ المسلمين ما قال عبدُ اللهِ بنُ أبيّ المنافق، وجعلَ نفرٌ مِنَ الأنصارَ يؤنِّبونَ زيداً ويلومونه ويقولون له:

عمدتَ إلى سيِّد قومِك تقول عليه ما لم يقلْ، وقد ظلمتَ وقطعتَ الرحم؟!.

* وفي هذه اللحظاتِ الحاسمة، جالتْ في رأسِ زيدٍ فِكَرٌ عِدّة كلُّها تستصرخُه، ويحتِّم عليه أو يقومَ بتصرُّفٍ يعبِّر عن شخصيتِه الصغيرةِ ونفسِه الكبيرةِ الصافية، وهنا يندفع فيجيب بنبرة مشحونة بالصدق والتحدي قائلاً: «والله لقد سمعتُ منه. والله لو سمعتُ هذه المقالةَ مِن أبي لنقلتُها إلى رسولِ الله ﷺ، وإني لأرجو أَنْ يُنزلَ اللهُ تعالى على نبيِّه حتى يعلموا أنا كاذبٌ أم غيري، أو يرى رسولُ الله ﷺ تصديقَ قولي، وجعلَ زيدٌ رضي الله عنه يقول:

اللهم أَنزلْ على نبيّك ما يصدق حديثي»[1].

* كان سيِّدُنا زيدُ بنُ أرقمَ ثابتاً على مواقفهِ كالطَّوْدِ أمامَ تلكَ الجموعِ التي شكّكَتْ في صدقِه وبعضُها كانَ يكذِّبه، ولكنّ زيداً نفسَه أصرّ على ما سمعَه مِن ابنِ سلول المنافقِ وجابهَه، فقد رُوي أنه رضي الله عنه قال لابن أبيّ لما قال: أما واللهِ لئن رجعْنا إلى المدينةِ ليخرجَنّ الأعزُّ منها الأذلّ.

«أنتَ واللهِ الذليلُ المنقصُ في قومِك، ومحمدٌ ﷺ في عزٍّ مِنَ الرحمن وقوة مِنَ المسلمين»[2].

* وصمد سيِّدُنا زيدٌ رضوان الله عليه ولم تزلزلْه تلكَ الجموعُ الضبابية مِنَ المنافقين، بل ظلَّتِ الثقةُ بالله تملأُ جوانبَ نفسِه، ولما تنزَّل القرآنُ الكريمُ مصدِّقاً لزيدٍ ومزكِّياً له، حرص رسول الله ﷺ على إكرامِ هذا الغلامِ ذي الأُذنِ الواعيةِ وقلَّده وسامَ الصدقِ مِنَ المرتبةِ الأُولى، وقال له:

«وفَتْ أذنك يا غلام وصدّق الله حديثك».

واستطاع النبيُّ الكريمُ ﷺ بهذا التصرُّفِ الحكيم، أَنْ يرفعَ معنوياتِ الغلامِ زيدِ بنِ أرقمَ أمامَ الناس، وأَنْ يدفنَ الفتنةَ في مهدِها إلى الأبد، وتلاشى غروره زعيمِ المنافقين ابنِ سلول وسقطَ مقامُه عندَ قومِه إلى الحضيض، وبات مكانَ الإذلالِ والصَّغارِ عندهم بعد أَنْ كان في مكانِ الصّدارة.

* أما سيِّدُنا زيدُ بنُ أرقمَ رضي الله عنه فكان مكان إكبارِ جميع الصحابةِ الكرامِ رضوانُ الله عليهم، وحتى عند ابنِ هذا المنافقِ ـ عبدِ الله بن عبدِ الله ـ رضي الله عنه، وكان يقال لزيد: ذو الأُذُن الواعية[3].

* * *

---

(١) انظر المغازي للواقدي (٢/ ٤١٧) والسيرة الحلبية (٢/ ٥٩٦ ـ ٥٩٧).

(٢) راجع السيرة الحلبية (٢/ ٥٩٧).

(٣) المصدر السابق (٢/ ٦٠٣).

الصُّحبة المباركة:

* كان سيدنا زيد بن أرقم رضي الله عنه على مقربة دائمة من رسول الله ﷺ، لا يتركه في سفر أو حضر، وقد احتلّ مكانةً ساميةً بين الصحابةِ الكرامِ رضوانُ الله عليهم، وانتزع احترامَ الجميع وهو ما يزال فتىً لم يشتدَّ عُودُه بعد، لكنه يمتلكُ عقلاً واعياً وتفكيراً ناضجاً، ولذلك أحبَّه رسولُ الله وحاطه برعايتِه وعطفِه؛ وكان رسول الله ﷺ يعودُه ويعودُ أصحابه جميعاً إذا أصابَهم مرضٌ، وسيدنا زيدٌ مِمّن حَظِيَ بشرفِ عيادةِ رسولِ اللهِ له، فقد أخرج أبو داود عن زيدِ بنِ أرقم رَضي الله عنه قال:

«عادني رسولُ الله ﷺ مِن وجعٍ كان بعيني»[1] نعم فلا غرابة في زيارةِ رسولِ الله لزيدٍ فهو القائل:

«من عادَ مريضاً أو زارَ أخاً له في الله، ناداه منادٍ أنْ طِبْتَ وطابَ ممشاكَ وتبوّأْتَ مِنَ الجنةِ منزلاً»[2].

* وازداد سيِّدُنا زيدٌ حبّاً لرسولِ الله ﷺ وحافظَ على حضور الصلواتِ كلِّها خلفَ رسولِ الله، وكان يقتدي به في كلِّ حركاتِه وسكَناتِه وفي كلِّ ما يقولُ وما يدعو به الله سبحانه وتعالى، وقد حفظ دعاءً كان عليه الصلاة والسلام يردِّدُه عَقِبَ كلِّ صلاة، لنستمعْ إلى هذا الدعاء المباركِ يرويه زيدُ بنُ أرقمَ يقول:

كان رسولُ الله ﷺ يقولُ دُبُر صلاتِه: «اللهم ربَّنا وربَّ كلِّ شيءٍ، أنا شهيدٌ أنّك الربُّ وحدَك لا شريكَ لك، اللهمّ ربَّنا وربَّ كلِّ شيءٍ أنا شهيد أن محمّداً عبدُك ورسولُك، اللهمّ ربَّنا وربَّ كلِّ شيءٍ أنا شهيد أنّ العبادَ كلَّهم إخوة. اللهمّ ربَّنا وربَّ كلِّ شيءٍ اجعلْني مخلِصاً لك وأهلي في كلِّ ساعةٍ في الدنيا والآخرة يا ذا الجلالِ والإكرام، اسمعْ واستجبْ الله أكبرُ الأكبر، اللهمّ نورُ

---

(١) عن حياة الصحابة (٢/ ٥٠٨).

(٢) الحديث رواه الإمام أحمد رضي الله عنه.

السمواتِ والأرضِ، الله أكبرُ الأكبرُ، حسبيَ الله ونعمَ الوكيلُ الله أكبرُ الأكبر»[1].

* وكان سيِّدُنا زيدٌ رضي الله عنه واعياً حافظاً لأحاديثِ رسول الله ﷺ، وكيف لا وهو صاحبُ الأُذنِ الواعيةِ التي وفَّتْ لله، وكان الصحابة رضوان الله عليهم يسألونه في أمورِ دِينهم ودنياهم، ويسألونه عما شاهده أو سمعَه مِن رسول الله ﷺ، وسئل سيدُنا زيدٌ ذات مرةٍ عما كان يتعوَّذ منه رسولُ الله فقال:

لا أقولُ لكم إلا كما كان رسول الله ﷺ يقول:

«اللهمّ إني أعوذُ بكَ مِنَ العجزِ والكسلِ والجبنِ والبخلِ والهمِّ وعذاب القبرِ، اللهمّ آتِ نفسي تقواها وزكِّها أنتَ خيرُ مَنْ زكّاها أنت وليُّها ومولاها، اللهم إني أعوذُ بك مِنْ علمٍ لا ينفعُ ومِن قلب لا يخشعُ ومِن نفسٍ لا تشبعُ ومِن دعوةٍ لا يُستجابُ لها»[2].

* * *

التـربيـة النبـويـة:

* في مدرسةِ النبوّةِ نشأ سيِّدُنا زيدُ بنُ أرقمَ فكان مِن نجبائها وعلمائها، ومِن معين الأدب النبويِّ استقى زيدٌ أدبَه، وقد بلغَ مِن أدبه معَ رسولِ الله ﷺ أنه كان لا يروي عنه شيئاً إلا بعد أَنْ يتأكّد مِن صحتِه، ولذلك نراه يتحرّجُ مِن رواية الحديثِ حينما تقدّمت به السنُّ ويعتذرُ برفقٍ مِن سائليه بكبرِ السِّنِّ وتقدُّمِ العمر، فالرسولُ الكريمُ لا ينطقُ عن الهوى، وسيدُنا زيدٌ دقيقٌ كلَّ الدقةِ في حديثِ الرسولِ مؤتَمنٌ عليه، فلا يمكن له أَنْ يفرِّطَ بهذا الكنزِ العظيمِ حتى يسيءَ إلى عظمةِ الحديث النبويّ الشريف، فعن ابن أبي أوفى قال:

«كنا إذا أتينا زيدَ بنَ أرقم رضي الله عنه نقول:

---

(١) سنن أبي داود (١/ ٢٣٦ ـ ٢٣٧) طبعة دار الكتاب العربي. وانظر كذلك حياة الصحابة (٣/ ٣٥١).

(٢) عن حياة الصحابة (٣/ ٣٦٧).

حدَّثْنا عن رسول الله ﷺ فيقول:

كَبِرنا ونَسِينا والحديثُ عن رسولِ الله ﷺ شديدٌ»[١].

* ولم يتوقف سيِّدْنا زيدٌ رضي الله عنه عند هذا المقدار من إكبارِ عظمةِ حديث رسولِ الله ﷺ، بل بلغ مِنَ التواضع مكاناً عليّاً، فكان يحترمُ صحابةَ رسولِ الله ويجلُّ علمَهم، وكثيراً ما كان يُحيل بعضَ الأسئلةِ التي تُوجَّه إليه إلى أحدِ الصحابةِ مشيراً إلى أنه أكثر علماً منه ناهيك أنَّ الصحابةَ جميعاً كانوا يجلُّون بعضَهم، وكلُّ واحد فيهم يُحيل المسألةَ إلى الآخر، فعن أبي المنهال قال:

«سألتُ زيدَ بنَ أرقمَ والبراءَ بنَ عازبٍ[٢] رضي الله عنهما عن الصرف[٣] فجعل كلّما سألتُ أحدهما قال: سلِ الآخرَ فإنه خيرٌ مني وأعلمُ مني»[٤].

* وسيدُنا زيدُ بنُ أرقمَ واحدٌ مِمّن طلّق الدنيا فلم يهتمَّ بها ولا بزخرفها، وقد كان زاهداً عابداً يأتسي برسولِ الله ﷺ في لباسِه ويلتزمُ بما كانَ عليه رسولُ الله ﷺ من اللباس، فكان رضي الله عنه يلبُس الإزارَ تجنُّباً للكبر وعدم الزهوِّ حتى أصبحَ التقصيرُ المعتدلُ صفةً بارزةً في لباسِه وقد عُرف عنه ذلك وعن بعضِ الصحابةِ أيضاً، فعن أبي أسحاق قال:

«رأيت عدةً مِن أصحابِ رسولِ الله ﷺ، أسامةَ بنَ زيد، وزيدَ بنَ أرقم،

---

(١) عن حياة الصحابة (٣/ ٢٤١).

(٢) هو سيدنا البراء بن عازب بن الحارث الأنصاري الأوسي، كنيته أبو عمارة، صحابي جليل روى عن رسول الله ﷺ ثلاثمئة وخمسة أحاديث، استصغره النبي الكريم يوم بدر، وأول مشاهده أحد، روى البخاري عن البراء قال: غزوت مع النبي ﷺ خمس عشرة غزوة. وفي البخاري أيضاً عن البراء بن عازب قال: ما جاء رسول الله ﷺ إلى المدينة مهاجراً حتى قرأت «سبح اسم ربك الأعلى» في سور مثلها من المفصل. وكان للبراء ابنان وهما يزيد وسويد، ونزل البراء الكوفة وتوفي بها زمن مصعب بن الزبير.

(٣) الصرف: مبادلة النقود.

(٤) انظر حياة الصحابة (٣/ ٢٥٣).

والبراءَ بنَ عازب، وابنَ عمر رضي الله عنهم يتّزرون إلى أنصافِ سُوقهم»[١].

* ذلكم زيدُ بنُ أرقمَ المتأسّي برسولِ الله ﷺ، في حياتِه وبعد وفاتِه عليه الصلاة والسلام، فكيف كانت حياةُ سيدِنا زيدٍ في ظلِّ الخلفاء؟.

هذا ما سنعرفه في الفقرات التالية.

* * *

زيد في ظل الخلفاء:

* في الصفحاتِ السابقةِ رأينا صوراً مِن حياةِ سيِّدِنا زيدِ بنِ أرقمَ، ورأينا علاقتَه الوطيدةَ بالإسلام، والتي بدأت وهو غلامٌ لم يبلغِ الحلمَ بعد، فزكت نفسُه بصحبةِ الرسولِ ﷺ، وأضاءَ الإسلامُ جوانبَ نفسِه البريئةِ النقية، فتمت فضائلُها واشتدَّتْ سُوقُها على حبالِ التقوى، وكرهتِ الخبثَ ولفظتِ الكذبَ ومَجَّتْه، فاستحقَّتِ البقاءَ، وكان له في صفحاتِ التاريخِ ذِكرٌ طيِّبٌ مع أولئك الأعلامِ الذين تركوا آثاراً عظيمةً في النفوس.

* وعرف الصحابةُ الكرامُ مقدارَ سيِّدِنا زيد، وأجلُّوه لمكانتِه مِن رسولِ الله ﷺ، ولم ينقطع زيدٌ عنِ الجهادِ في ظلِّ الخلفاء، واشتركَ في فتوحاتِ الإسلامِ الكبرى، وكان جندياً مخلصاً مِن جنودِ الإسلامِ في جيشِ الصّديقِ رضيَ الله عنه، وفي خلافةِ الفاروقِ عمرَ تابع مسيرةَ العلمِ والجهادِ وكان سيِّدُنا عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه يجلُّهَ ويحترمُه ويعتمدُ عليه في بعضِ أمورِه[٢]. وفي خلافةِ سيِّدِنا عثمان بنِ عفان ظلّ في المدينةِ سامعاً مطيعاً، ولمّا حدثتِ الفتنةُ اعتزلها ولزم بيتَه. وعندما ولي سيدُنا عليُّ بن أبي طالب الخلافة وانتقل إلى الكوفة، كان سيدنا زيدٌ ممّن ذهبَ إلى الكوفةِ وأقام بها وسكنها وابتنى داراً في كِنْدة، وشهدَ مع سيدِنا عليٍّ جميعَ الأحداثِ التي مرّتْ به، وكانَ مِن خُلَصاءِ الإمامِ عليٍّ المقرّبين وشهد معه صِفّينَ[٣].

---

(١) حياة الصحابة (٢/ ٧١١).
(٢) انظر على سبيل المثال حياة الصحابة (٢/ ١٢٩ ـ ١٣٠).
(٣) انظر الإصابة (١/ ٥٤٢).

* تابع سيدنا زيدُ بنُ أرقمَ حياتَه في الخيرات، وجاهد في سبيلِ اللهِ طويلاً، وشاركَ في الأحداث التي مرّت في حياته، وحفظَ له التاريخُ موقفاً عظيماً في تاريخِ الدولةِ الأُموية، وشهد له سيدُنا أنسُ بنُ مالك بالفضلِ والخير، وشهادةَ سيدِنا أنس تضيف إلى مناقب زيدٍ رصيداً عظيماً يرفعه إلى الجوزاء، فقد روى الإمام البخاريُّ رحمه الله تعالى عن عبد الله بن الفضل أنه سمع أنسَ بنَ مالكٍ رضي الله عنه يقول:

«حزنتُ على مَنْ أُصيب مِن أهلي بالحرّة[1]، فكتبَ إليَّ زيدُ بن أرقم ـ وبلغَه شدة حزني ـ يذكر أَنَّه سمعَ النبي ﷺ يقول: «اللهم اغفرْ للأنصار ولأبناءِ الأنصار ـ وشكَّ الفضل في أبناء أبناء الأنصار ـ فسأل أَنَساً بعضُ مَنْ كان عن زيد فقال:

هو الذي يقول له رسول الله ﷺ: هذا الذي أوفى الله له بأذنه»[2] ـ أي أظهر الله صدقه فيما سمعه وأخبر به ـ.

* وكان سيدُنا زيدٌ رضي الله عنه مرجعاً في كثير من الأحداثِ الإسلامية، وكان العلماءُ يقصدونه من كلِّ مكانٍ ليسألوه عما رآه أو سمعه مِنَ الرسولِ ﷺ لعلمِهم بمكانتِه وصحبتِه الطويلة للنبيِّ الكريم عليه الصلاة والسلام[3].

* وامتدتِ الحياةُ بسيدِنا زيدٍ إلى العامِ الثامنِ والستينَ من الهجرة، وخلال حياتِه هذه كلِّها كان الصدقُ عنوانَ حياتِه، والجرأةُ شعارَه أينما كان، ويسجِّلُ له التاريخُ قبيلَ وفاتِه موقفاً مضيئاً وحادثة عظيمة تصورُ جرأتَه

---

(١) الحرة: الوقعة التي وقعت بين جند يزيد بن معاوية وأهل المدينة.
والحرة أرض ذات حجارة سوداء خارج المدينة وهي حرة واقم إحدى حرتي المدينة المشهورة وهي الشرقية وكانت وقعة الحرة سنة ٦٣هـ، عن معجم البلدان (٢/ ٢٤٩).

(٢) انظر جامع الأصول (٩/ ١٦٣) والحديث أخرجه البخاري برقم (٤٦٢٣) ومسلم في باب فضائل الأنصار برقم (٢٥٠٦).

(٣) انظر مثلاً دلائل النبوة (٢/ ٤١٩) وجامع الأصول (٩/ ١٥٨) وحياة الصحابة (٢/ ٤٤٣).

وشجاعتَه، وذلك أنه دخل على المختار بن أبي عبيد الثقفي عندما ادّعى أَنَّ الوحيَ ينزلُ عليه فقال له زيد:

«خسِرْتَ وتعِسْتَ، أنتَ أهونُ على الله مِنَ ذلك، كذابٌ مفترٍ على الله ورسولِه»[1].

واستمرّ سيدُنا زيدُ بنُ أرقمَ على مواقِفه الوضّاءة هذه إلى أَن لقيَ الله سبحانه وتعالى.

* * *

بشارة زيد بن أرقم بالجنة:

قال تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

* هؤلاء هم الأنصارُ ـ من الأوس والخزرج ـ الذين امتدحهم اللهُ سبحانه وتعالى في كتابِه العزيز، وقد طبعَ الله سبحانه وتعالى قلوبَهم على الرقّة والأناةِ وعدمِ المغالاة في الكبرياء وجحودِ الحق، ويرجعُ ذلك إلى الخصائص الوراثيةِ التي حَبَاهم الله سبحانه بها، والتي أشار إليها رسولُ الله ﷺ حين وَفَدَ وَفْد من اليمن إذْ قال:

«أتاكم أهلُ اليمن هم أرقُّ أفئدةً وألينُ قلوباً» رواه البخاري والأوسُ والخزرجُ ـ كما أسلفنا في البداية ـ ترجعان في أصلِهما إلى اليمن، ومن الخزرج كان بطلُنا وسيدُنا زيدُ بنُ أرقمَ رضوان الله عليه.

* وسيدُنا زيدُ بنُ أرقمَ رضي الله عنه سيدٌ مِن ساداتِ الصحابةِ الكرام رضوانُ الله عليهم، عاشَ حميداً وكُتبت له السعادةُ وصاحبتْه الأمانةُ فكان مثالَ التقوى والصلاح، وكانت له منزلةٌ رفيعةٌ عندَ النبيِّ الكريم ﷺ، فهوَ

---

(١) انظر البداية والنهاية (٨/ ٢٩١) وما بعدها.

أحدُ السابقينَ إلى الإسلام مِن أهلِ المدينةِ ومِنَ الملازمين له عليه الصلاة والسلام، وقد حظيَ ببشارةِ رسولِ الله ﷺ بالجنة، وعاش زيدٌ يرجوها.

* أخرجَ الإمامُ البخاريُّ رحمه الله عن زيدِ بنِ أرقمِ رضي الله عنه قال:

«رمدتْ عيني فعادني النبيُّ ﷺ ثم قال: يا زيد لو أن عينَك لِمَا بها[1] كيف كنت تصنع؟.

قال: كنت أصبر وأحتسب.

قال: لو أن عينَك لِما بِها ثم صبرتَ واحتسبتَ كان ثوابُك الجنةَ»[2].

وأخرجَ الإمامُ أحمدُ في فضائلِ الصحابةِ والطبرانيُّ أنّ رسول الله ﷺ قال لزيدِ بنِ أرقمَ رضي الله عنه عندما رمدت عيناه:

«إذاً تلقى الله ولا ذنبَ لك»[3].

* وقد روي أن سيدَنا زيداً رضي الله عنه عميَ بعد مماتِ النبيِّ ﷺ، ثم ردَّ الله سبحانه إليه بصره، وبذلك تحققت نبوءةُ رسولِ الله ونالَ زيدٌ ببركتِها الجنةَ، كما أن الأنصارَ جميعاً نالوا بركةَ دعاءِ رسولِ الله بقوله:

«اللهم اغفرْ للأنصار ولأبناء الأنصار ولأبناء أبناء الأنصار»[4]. كما جعل عليه الصلاة والسلام حبَّ الأنصارِ مِنَ الإيمان، فقد أخرج الإمامُ مسلمٌ عن أبي هريرةَ رضي الله عنه، أنَّ رسول الله ﷺ قال:

«لا يبغضُ الأنصارَ رجلٌ يؤمن باللهِ واليومِ الآخر»[5]،

* وبعد، فقد كان سيدُنا زيدُ بنُ أرقمَ رضي الله عنه حافظاً واعياً لأحاديثِ

---

(١) أي: ذهبت.

(٢) عن حياة الصحابة (٢/ ٥٨٤).

(٣) الحديث رواه الإمام أحمد في فضائل الصحابة وانظر سير أعلام النبلاء (٣/ ١٦٧).

(٤) جامع الأصول (٩/ ١٦٣).

(٥) المصدر السابق (٩/ ١٦٢).

رسول الله ﷺ، وقد رُوي له عن الرسولِ الكريم سبعون حديثاً[1]. روى عنه الإمامُ أنسُ بنُ مالك وابنُ عباس وعددٌ من التابعين مثل عطاءِ بنِ أبي رباح وغيرِه.

وكانت كنيةُ سيدِنا زيدٍ رضي الله عنه «أبو عمرو»[2].

* وفي العامِ الثامنِ والستينَ مِنَ الهجرة النبوية، مرضَ سيدُنا زيدُ بنُ أرقمَ رضي الله عنه، ولم تمضِ بضعةُ أيامٍ مِن ذلك العام، حتى شهدتِ الكوفةُ موتَ أحد أصحابِ النبيِّ الكريم ﷺ وأحدِ أصفيائِه زيدِ بنِ أرقمَ ونادى مناد أَنْ ماتَ ذو الأُذنِ الواعية.

وهكذا صعدت روحُه إلى بارئها راضيةً مرضيّةً لتدخلَ في عبادِه سبحانه وتدخلَ جنَّتَه التي وَعَد، فكان زيدٌ رضي الله عنه مع الذين رضي الله عنهم ورضُوا عنه، ونحن الآن نودِّع سيدَنا زيدَ بنَ أرقم في سيرتِه العطرةِ نقرأ قوله تعالى:

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

صدق الله العظيم

* * *

---

(١) انظر تهذيب الأسماء واللغات للإمام النووي (١/ ١٩٩).

(٢) اختلف في كنيته فقيل: أبو عمرو وأبو عامر وأبو سعيد وأبو سعد وأبو حمزة وأبو أنيسة. المصدر السابق (١/ ١٩٩).



سيدنا

حمزة بن عبد المطلب

رضي الله عنه

* «جاءني جبريل فأخبرني أن حمزة بن عبد المطلب مكتوب في أهل السموات السبع: حمزة بن عبد المطلب أسدُ الله، وأسدُ رسوله».
* «رحمة الله عليك، فإنك كنت ما علمتك فعولاً للخيرات، وصولاً للرحم».

مقـدمــة :

* الهمسُ يدور على الشفاه، الإشارات تُوزَّع هنا وهناك، الهمس يتحول إلى كلام، والإشارات تتحولُ إلى اتهامات وشتائم، الحلقاتُ حول الكعبة تَـغَصُّ بالناس ويكثر فيها الجَدَل، اجتماعات تُعْقَد مِنْ أجلِ الحدث الجديد، اجتماعات غير عادية، بالأمسِ كانت للسمر والأحاديث وذكْرِ الأيام والوقائع، أمَّا اليوم فقد ساور المجتمع القرشيَّ قلقٌ أقضَّ مضجعه، ونغَّصَ معيشته؛ ماذا؟! إنه الدين الجديد، دينٌ لم يألفهُ القوم، ولم يعرفهُ الأجداد من ذي قبل، إنَّه الدين الذي يدعو إليه «محمد بن عبد الله».

* وينضمُّ بعض العقلاء من الشباب وبعض المستضعفين إلى الدينِ الحنيف، وتابعوا محمداً ﷺ لِمَا يدعو إليه، فهذا أبو بكر في مقدمةِ القوم، وهذا عثمان بن عفان، وسعد بن أبي وقاص، والزّبير بن العوام وغيرهم، وهذا بلال وبعض الضعفاء آمنوا وتبعوا محمداً، إنَّ عددَهم يكادُ يقتربُ مِنَ الأربعين.

* تطوراتٌ طرأتْ على المجتمع القرشي، فقد طَفِقَ بعض طواغيه يذيقُ الرسول وأصحابه ألواناً مِنَ الإهانة والعذاب، ويبذلونَ كل ما يمكنهم للصدِّ عن هذا الدينِ الجديد. . . كلُّ هذا يحدث، وحمزة بن عبد المطلب، لا يُلقي بالاً لهذه التطورات، فقد كانَ همُّه محصوراً في الصيد، والجلوس مُتصدراً في حلقاتِ القوم يَسْمر مع أصحابه.

* وتمضي الأيامُ والشهور، و«حمزة بن عبد المطلب» تصلُ إلى أذنيه أنباء الدّين الجديد، الدينُ الذي يدعو إليه ابن أخيه محمد، بدأتْ بعضُ الذكريات تتراءى أمامَ عينيه، وتجول في خاطره، وتصول في أعماق نفسه، تذكَّرَ أنَّ محمداً هو أخوه مِنَ الرضاعة، إنَّه يعرف منه كل مكرمة من مكارم الأخلاق، ورقة الشمائل، ويعرف أنَّه الصادق الأمين بين قومه، تذكر أنَّه كان

سفيرَهُ مع أبي طالب أخيه إلى خويلد بن أسد؛ ليخطبا له خديجة رضي الله عنها[1] . . عَرَفَ أنَّه الزوج الحاني والوالد المثالي، عَرفَ الكثيرَ الكثير.

* كانت التساؤلات تفرضُ نفسها عليه، هل يدعو محمد إلى حق؟ ويجيب نفسه: إنَّه يدعو إلى خير.

إســلام حمــزة:

* بضعُ سنين مضت، وحمزة مُنصرف إلى لهوه وقنْصه، يُشْغل أحياناً عن أحداث الدين الجديد، وأحياناً أخرى يسمعُ دون أنْ يلقي بالاً لِما يُقَال أو يَحْدُث، ولا يهتم إلاَّ بزوجهِ «سلمى بنت عميس» وابنته «عمارة» اللتين كان يفيض عليهما مِنْ حبِّه وحنانِهِ الشيءَ الكثير؛ . . وذاتَ يوم، مَرَّ أبو جهل برسول الله ﷺ عند الصفَا، فآذاه وشتمه، ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه والتضعيف لأمره، فلمْ يكلِّمْه الرسول ﷺ، ومولاةٌ لعبد الله بن جُدعان تسمعُ ذلك، . . في مساءِ ذلك اليوم عاد حمزة من صيده وقنْصه متوشِّحاً قوسَه وسيفه، فلما اقتربَ من الكعبة، وكان يطوفُ بها قبل أنْ يعودَ إلى أهله، استوقفته تلك المرأة قائلة له: «يا أبا عمارة، لو رأيتَ ما لقيَ ابن أخيك محمدٌ آنفاً من أبي الحكم بن هشام، وجدهُ ها هنا جالساً فآذاه وسبَّه، وبلغَ منه ما يكره، ثم انصرفَ عنه ولم يكلِّمْه محمدٌ ﷺ[2]».

* كان حمزةُ يسمعُ، والغضب يظهر على وجهه، وانطلَق كالسَّهم، حتى إذا ما دخَل المسجد، كانت عيناهُ تجوسان حلقات النَّاس، فأبصرَ ضَالَّتَه المنشودة أبا الحكم بن هشام «فأقبلَ نحوه حتى إذا قامَ على رأسه رفعَ القوس فضربه بها فشجه شجةً منكرة ثم قال: أتشتمه وأنا على دينه أقولُ ما يقول؟ فَرُدَّ ذلك عليَّ إنِ استطعتَ، فقامتْ رجال مِن بني مخزوم إلى حمزة لينصروا

---

(1) السيرة النبوية لابن هشام مجلد (1) ص160 وهناك رواية تقول أن أبا طالب وحمزة كلما عم خديجة عمرو بن أحمد، إذ أن أباها مات في حرب الفجار.

(2) سيرة ابن هشام مجلد (1) ص292.

أبَا جهل، فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة، فإنِّي والله قد سببتُ ابن أخيه سبّاً قبيحاً»[1].

* هدأت ثائرةُ حمزة، وشفى غليله مِنْ أبي جهل، عاد إلى بيته وجلسَ يستعيدُ ويستعرض ما حدث معه قبل وقت قليل، لحظات من الصراع تسيطر عليه، الأفكارُ تتناوشه، تروح به ذات اليمين وذات الشمال، حدّثَ نفسه قائلاً:

ـ ماذا فعلتُ؟

ـ كيف أعلنتُ إسلامي؟

ـ هل أتخلى عنِ الأصنام؟

وكيف أدخلُ في الدّين الجديد بهذه السهولة؟ إنني لا أعرفُ حقيقته، ولكنْ أعرفُ صِدْق محمد ونزاهته، أعرفُ إخلاصه وأمانته. وتعود به أفكارُهُ مرة ثانية إلى الوراءِ قليلاً، ويحدّثُ نفسه قائلاً: لقد كانَ حقاً ما فعلتُه؛ أبو الحكم بن هشام يستحقُّ مني كل غِلظة وشدة، أينالُ مِن ابن أخي محمد ويشتمه؟ وأنَا أعزُّ فتىً في قريش؟!.. لا.. لا...

* هو ذا حمزة، إنَّه يستقبلُ الكعبة ضَارعاً، رافعاً كفَّيه قائلاً: «اللهم إنْ كانَ ما صنعتُ رشداً فاجعلْ تصديقه في قلبي، وإلا فاجعل لي مما وقعتُ فيه مخرجاً» هكذا كان يدعو حمزة ويتضرع؛ ولنستمعْ إليه وهو يروي لنا كيف ثبّته الله على الحق، يقول: «فاستجابَ الله لي، وملأ قلبي يقيناً، وغدوتُ إلى رسول الله ﷺ فأخبرتُه بما كان مِنْ أمري، فدعا الله تعالى أَنْ يُثَبِّتَ قلبي على دينه..»

* وتَمَّ إسلامُ حمزة، وهداه الله إلى خيرِ الدنيا والآخرة، عندها أيقنتْ قريش أَنَّه سيحمي ابنَ أخيه، فخفَّ أذاها عن رسول الله ﷺ.

* المدرسةُ الأولى في الإسلام دارُ النبيِّ، فقد أسلمتْ زوجته خديجة بنت خويلد، وأسلمَ ابن عمه علي بن أبي طالب؛ وكانت دار «الأرقم بن

---

(١) حياة الصحابة مجلد (١) ص٢٧٢.

أبي الأرقم» مدرسةً أخرى تلقَّى فيها أَجِلاّء الصحابة تعاليم دينهم وأمور دنياهم، وها هو «حمزة بن عبد المطلب» يتلقَّى الإسلام في المدرسة ذاتِها مع الصحابة الكرام.. وذاتَ يوم طُرِقَ باب بيت الأرقم بعنف، طُرِقَ طرقاً شديداً متواصلاً، ونهضَ أحدُ الصحابة يتعرفُ على الطارق، فإذا هو «عمر بن الخطاب».. ويسيطر الخوف بعض الرجال عندما سمعوا صوته، وارتعدتْ فرائصهُم، دارَ الهمسُ بينهم، ماذا يريدُ ابن الخطاب، وهنا تقدمَ رجل فقال: يا رسول الله، هذا عمر بن الخطاب، متوشِّحاً السيف.. فقالَ حمزة بن عبد المطلب: «إنْ كان قد جاء يريدُ خيراً بذلناه له، وإن كان يريدُ شراً قتلناه بسيفه»[1].. وهكذا كان جواب حمزة.. فلم يخفْ ولم يُرَعْ..

الهجرة إلى المدينة:

* كفار قريش يذيقون المسلمين ألواناً منَ العذاب، ويكيدون لهم الكيدَ العظيم، فهاجر بعضهُم إلى الحبشة، وعلى رأسهم: جعفر بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وعثمان بن مظعون وغيرهم.. وبعد ذلك أَذِنَ الله للرسول ﷺ بالهجرة إلى يثرب، وها هي فصائل المؤمنين تتوجَّهُ إلى يثرب، ويبدو حمزة بن عبد المطلب في مقدمةِ المهاجرين، فقد تركَ مجالسه التي عاش فيها مرحلة الشباب، ترك كل شيء في سبيل الله، وهناك في يثربَ يستقبله أسعد بن زرارة في منزله، وآخى الرسول بينه وبين مولاه «زيد بن حارثة»، فلم يغضبْ، ورضي هذه المؤاخاة بنفس راضية فقد هذبتْ نفسَه تعاليمُ الإسلام.. وقد أظهرَ الأنصار كل عون، وقدموا كل خير للمهاجرين من كل ما يملكون، فقد جعلهُم الإيمان إخواناً، ووصفهم الله بالمؤمنين بقوله: ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٧٤].

* بعد أَن استقرَّ المسلمون في المدينة، بدأتِ الأعمال الجادة لزرعِ الرعب في قريش، وقلقلة تجارتها، وكسْر شوكتها، وبدأ العمل لهذه الغاية،

---

(١) السيرة النبوية ص٣٤٦ جزء / ١/.

فقد عَقد الرسول ﷺ أول لواء، لواء حمزة بن عبد المطلب حيثُ أرسله إلى سِيْفِ البحر من ناحية العِيص في ثلاثين راكباً مِنَ المهاجرين، ليس فيهم من الأنصار أحد، فلقي أبا جهل بن هشام بذلك الساحل في ثلاثمئة راكب من أهل مكة، فحجز بينهم «مَجْدي بن عمرو الجُهنيّ»، وكان موادعاً للفريقين جميعاً، فانصرف القوم عن بعض ولم يكن بينهم قتال، وجادَت قريحة حمزة مصوراً تلك الحادثة، فيذكر أَنَّ رايته هي الأولى عقدها له رسول الله ﷺ:

بــأمــرِ رســولِ الله أول خــافــقٍ عليه لواءٌ لم يكنْ لاحَ مِن قبلي
لواءٌ لديه النّصرُ مِنْ ذي كرامة إلــهٍ عَــزيــزٍ فعلُــه أفضــلُ الفعــلِ

* كتيبة قوامها ثلاثون رجلاً تلاقي قافلة تعدادها يقارب ثلاثمئة رجل، فلم تجبن ولم تتخاذل، إنَّها شجاعة نادرة المثال من صاحب أولِ لواء، حمزة بن عبد المطلب، عادوا وعنايةُ الله ترفرفُ فوقهم.

حمزة في بـدر:

* راحت قريش تُعِدُّ العُدَّةَ، وتجهِّز الفرسان والرجال، تريد القضاءَ على محمد ﷺ، وعلى المهاجرين معه، وراحت الأماني تعبثُ بأبي جهل، والأهواء تتقاذفُه ذات اليمين وذات الشمال؛ وتزحفُ قريش بقرابة ألف رجل، وأصرَّ أبو جهل على النزولِ في بَدْر قائلاً: «والله لا نرجع حتى نردَ بدراً. . فنقيمَ عليه ثلاثاً، فننحرَ الجُزُرَ ونُطعمَ الطعام ونُسقى الخمرَ وتعزفَ علينا القيان وتسمَعَ بنا العرب وبمسيرنا وجَمْعِنا فلا يزالونَ يهابوننا أبداً بعدها» أمَّا الرسول ﷺ فقد انطلقَ بأصحابه البالغ عددهم ثلاثمئة وأربعة عشر رجلاً، وعسكرَ بأصحابه قريباً من ماءِ بدر ، وأشار الحبابُ بن المنذر ببناءِ حوض يُملأ بالماء فيشرب منه المسلمون، ولا يمكِّنون كفار قريش من الماء. وفي صبيحة الجمعة في السابع عشر من رمضان كانت بداية المعركة، معركة بدر الكبرى؛ ولندعْ ابن هشام يحدثنا من سيرته عن بداية المعركة، وعن مصرع الأسود بن عبد الأسد المخزومي وتصدِّي حمزة بن عبد المطلب له فيقول: «خرجَ الأسود بن عبد الأسد المخزومي، وكانَ رجلاً شرساً، سيِّىءَ الخلق فقال:

أعاهدُ الله لأشربنَّ مِنْ حوضهم، أو لأهدمنّه، أو لأموتنَّ دونه؛ فلما خرجَ، خرجَ إليه حمزةُ بن عبد المطلب، فلما التقيا ضربَه حمزة فأطار قدمه بنصفِ ساقه، وهو دونَ الحوض، فوقعَ على ظهره تشخبُ رجله دماً، ثم حَبَا إلى الحوضِ حتى اقتحم فيه يريد أَنْ يَبَـرَّ بيمينه، فأتبعه حمزة فضربه حتى قتلَه في الحوض»[1]. ـ وهكذا لقي عدو الله مصرعَه، وخرَّ مذموماً مدحوراً.

وتسابق المشركون يطلبون المبارزة، فقال رسول الله ﷺ: «قم يا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزة، وقم يا عليّ»، ولم يمهلْ أسد الله حمزةُ خصمه شيبة بن ربيعة بل اقتطفَ رأسه قبل الجميع، وسارعَ علي بن أبي طالب فقتلَ خصمه الوليد، بينما اختلف عبيدةُ وخصمه عتبة بينهما بضربتين، كلاهما أثبت صاحبه، فكرّ حمزةُ وعليٌّ بأسيافهما لمساعدة صاحبهما وأجهزا على عتبة. ثم التحم الفريقان.

* واشتعلتْ نار الحرب، وعلا صياحُ الفرسان، وكان أسدُ الله يفرقُ الأبطال، ويقتطفُ رؤوس الكفار، ويذل الشجعان منهم، وكان يزينُ صدره بريشة نعام. وانجلتِ المعركة عن كسْر شوكة قريش، وقتْلِ صفوة رجالها، وأسْرِ بعضها الآخر، ونَصَرَ الله عباده المؤمنين؛ وعادتْ قريش تجرجرُ أذيال الهزيمة والخزي، وتتلفحُ بالعار، تتلفتُ خلفها خوفاً منْ سيف حمزة وصولاته، وهذا مُناديهم يرفعُ صوته قائلاً «لقد أذلَّ حمزة بن عبد المطلب شرفكم، ووضع مِنْ قدركم، وجعلكم الأذلةَ المستعبدينَ في الأرض، ماتَ بيديه صفوةُ رجالكم، فيالَثارات قريش، ويا لأحقادها الكامنة».

فلولُ قريش الآن في مكة تندبُ قتلاها في بَدْر، فقد فرُّوا من ساحة القتال لا يلوون على شيء مخلِّفينَ وراءهم ما يربو على سبعين قتيلاً ومثلهم أسرى، وهذا زعيم قريش «أبو سفيان» حائرٌ لا يهتدي إلى تفكير سليم، فقد خَلَّفَ على أرض المعركة كبار وكبراء قريش، خلَّفهم مضرَّجينَ بدماءِ الكفر، فقد خسرتْ قريش عدداً من أغنيائها وساداتها من أمثال أبي جهل، وعتبة وشيبة

---

(١) سيرة ابن هشام ص٦٢٤ ـ ٦٢٥ سجلد / ١/ . والسيرة الحلبية ٢/ ٤٠٢.

ابني ربيعة، والوليد بن عتبة، وعقبة بن أبي معيط، وطعيمة بن عدي، وأمية بن خلف، وغيرهم من سادات قريش مِمَنْ لاقَوْا مصيرَهُم على أرض بدر.

الاستعـــداد لأحـــد:

* لم تركَنْ قريش إلى الهدوءِ والسلام، ولم تهنأ بالعيش بعدما مُنيَتْ بالهزيمة في بدر، فبدأتْ تُعدُّ العُدة، وتحشد كل قواها لتثأر لكبريائها، وطفق رجال مِنْ قريش ممنْ أُصيبَ آباؤهم وإخوانهم وأبناؤهم يوم بدر، أمثال؛ عبد الله بن ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، بدأَ هؤلاء وأمثالهم يحرِّضون قريشاً على الثأرِ مِنْ محمد ﷺ وأصحابه، وبدؤوا ينفقون المال وكل مَا أُوتوه في سبيل الانتقام، فأنزلَ الله تعالى قوله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾[1] [الأنفال: ٣٦].

* مؤامرةٌ سوداءُ خطيرة تُحاك في مكة للقضاء على حمزة بن عبد المطلب، وغلامٌ حبشي يُدعى «وحشي»، سينفذُ مآرب الحاقدين، ووحشي هذا كان عبداً لجُبير بن مُطْعِم، وكان يُجيد القذف بالحربة، ودعاه سيده والحقد يملأ قلبه قائلاً له «اخرجْ مع الناس فإنْ أَنتَ قتلتَ حمزة عمّ محمد بعمِّي طُعيمة بن عدي فأنتَ عتيق» وبعد أَنْ أفرغَ جبير بن مطعم حقدَه في صدْرِ غلامه، دفعه إلى «هند بنت عتبة» زوج «أبي سفيان» التي لم تتركْ في صدره وقلبه مكاناً إلاَّ وزعتْ حقدها، وزيَّنَتْ له قَتْلَ حمزة وأغرَتْه بالجواهرِ والدرر، ثمّ الحرية التي ينشدُهُا.

كانت هند لا تطيقُ سماعَ اسم حمزة، فقد نُمي إليها أَنَّ حمزة قد قتلَ أخاها وأجهزَ على أبيها وعمها وابنها، فكانَ هَمُّها توجيه وحشي لقتلِ حمزة وإفراغِ ما تَمَلَّكها مِنْ حقد وقسْوة في صدره؛ أمّا زوجها أبو سفيان فقد أقسم

---

(١) البداية والنهاية جزء /٤/ ص١٠ وانظر سيرة ابن هشام ص٦٠ مجلد (٢) وانظر تفسير القرطبي للآية ٣٦ من سورة الأنفال.

ألا يمس رأسه ماء حتى يغزو محمداً، ويثأر لنفسه ولقريش.

* استنفرتْ قريش كلَّ قادر على حَمْلِ السلاح مِنْ أبنائها، واسْتُدعيتِ النساءُ إلى الخروج كي يُثِرْنَ الحميَّةَ في نفوس المقاتلين وحتى لا تحدِّثُهم أنفُسُهُم بالفرار، وتولى القيادة أبو سفيان، وسَار حتى نزل قريباً مِنْ جبل أُحُد شمالي المدينة، وكانت هند كلما مرَّتْ بوحشي أو مرَّ بها شحنتْهُ بشيءٍ مِنَ الحقد لتنفيذِ مأربها وذَلَّلَتْ له اغتيال حمزة، وحرَّضته على قتْله بقولها «ويها أَبا دسمْة اشفِ واستشْفِ».

وعندما سمعَ الرسول ﷺ بما دبّرته قريش شاورَ أصحابه، فقال مالك بن سنان والنعمان بن مالك مقولتين طيبتين، أمّا حمزة بن عبد المطلب فقال مخاطباً النبي ﷺ «والذي أنزل عليك الكتاب لا أطعم اليوم طعاماً حتى أجالدهم بسيفي هذا خارج المدينة[1]» وكان حمزة صائماً.

سيـــد الشهـــداء:

* عسكرَ الرسول ـ ﷺ ـ قريباً مِنْ أُحُد، وما إن التقى الجمعان، وعلا غبار المعركة، وحميَ الوطيس، حتى راحتْ هند بنت عتبة والنسوة يحرِّضنَ الرجال، ويضربنَ الدفوف، وينشدنَ الأراجيز الحماسية لتحريضِ الرجال على القتال وشَحْذِ الهمم على الأخْذِ بالثأر.

* وراح أبطالُ المسلمين يخترقون صفوفَ الكفار بشجاعةٍ نادرة، فهذا أبو دجانة ذو العصابة الحمراء يجالد المشركين بسيفه، أمَّا حمزة فقد راح يقتطف رؤوس القرشيين واحداً إثْر الآخر، وأحدثَ في صفوفهم خَللاً واضطراباً، فقد قاتَل قتالاً شديداً، فقَتلَ أرطأةَ بن شرحبيل[2] وقتل حامل لواء قريش، ثمّ مَرَّ به سِباع بن عبد العزى أحد كفار قريش، فلما التقيا ضربه حمزة فأرداهُ قتيلاً.

---

(١) تاريخ الطبري مجلد ٢، ص٥٠٣ وما بعدها وانظر السيرة الحلبية جزء / ٢/ ص٤٩١.

(٢) السيرة الحلبية جزء / ٢/ ص٤٩٨.

* المعركةُ تدور وتستمرُ بين الفريقين، عددٌ مِنْ قتلى المشركين يبدو في أرض المعركة، المسلمون ترتفعُ حناجرهم بالشعار الحماسي: أَمِتْ، أَمِتْ، وحمزةُ يصول وسط المعركة وهو ينْهدُّ على المشركين يميناً وشمالاً وصدره مزيّنٌ بريشة نعام، كان يضرب بسيفه كل مَنْ يقابله مِنَ المشركين، وقيل: إنه كان يحارب بسيفين. أمّا وحشيٌّ فكان يرقُبُه، ويتحينُ الفرصة ليوجه إليه حربته الغادرة، ولندعْ وحشياً نفسه ينقل لنا صورة صادقة من صور المعركة.

«قال وحشي:

وكنت رجلاً حبشياً، أقذفُ بالحربة قذْف الحبشة، قلّما أخطىء بها شيئاً، فلما التقى الناس، خرجتُ أنظرُ حمزة وأتبصَّرُهُ حتى رأيتُه في عُرْض الناس مثْل الجَمل الأَوْرَق، يهـدُّ الناس بسيفهِ هَـدّاً، ما يقومُ له شيء، فـوالله إنّـي لأتهيـأُ لـه، أريدهُ واستترُ منه بشجرة أو حجـر ليدنـو مني، إذْ تقـدمني إليـه سباع بن عبد العزى، فلما رآه حمزة قال له:

هلمّ إلي يابن مقطّعة البظور.

قال: فضربهُ ضربةً كأنَّ ما أخطأ رأسه.

قال: وهززتُ حربتي، حتى إذا رضيتُ منها، دفعتُها عليه فوقعتْ في ثُـنّته، حتى خرجتْ مِنْ بين رجليهِ، وذهبَ لينوءَ نحوي فَغُلِبَ، وتركتُه وإياها حتى ماتَ، ثمّ أتيتُه فأخذتُ حربتي، ثمّ رجعتُ إلى العسكر، فقعدتُ فيه، ولم يكنْ لي بغيرهِ حاجة، وإنّما قتلتُه لأُعْتَقَ...[1]».

ونادى مناد أَنْ قُتـلَ سيدُ الرجال حمزة!.

قُتِلَ سيدُ الشهداء، ولقي ربَّـه، ورجعتْ روحه إلى ربّها راضيةً مرضية، بعد أَنْ أَدّى مَا عليه مِن واجبات للإسلام.

لم يكن مقتلُ حمزة ليشفي الحقد منْ صدر هند بنت عتبة، بل راحتْ ونسوةٌ معها يُمَثِّلْنَ بالقتلى مِنْ أصحاب رسول الله ﷺ، وأقبلت على حمزة،

---

(١) سيرة ابن هشام مجلد / ٢/ ، ص٧٢، وانظر تاريخ ابن كثير مجلد، جزء / ٣/ ص١٨ وانظر السيرة الحلبية جزء / ٢/ ص ٥٠٢.

فبقرت عن كبدِه ولاكتها فلم تستطعْ أَنْ تسيغَها فلفظَتْهَا، ثمّ عَلَتْ صخرةً مرتفعة، وصرختْ بأعلى صوتها في شماتة قائلة:

نحـنُ جـزينـاكـم بيـوم بـدرِ والحـربُ بعْـدَ الحـرب ذات سُعـرِ
مـا كـانَ عـن عتبـةَ لـي مِـن صبرِ ولا أخـي وعمّـهِ وبِكـري
شفيـتُ نفسـي وقضيـتُ نـذْري شفيـتَ وحشـيّ غليـلَ صـدري[1]

أمّا زوجها أبو سفيان، فراحَ يضربُ برمحه شدقَ حمزة، ويقول له بحقدٍ وقسوة: «ذُق عَقَق».

* انتهتْ معركة أُحُد، ورجعَ المشركون نحو مكة، وسقطَ عدد مِنْ شهداء المسلمين في أرض المعركة، فقد استشهد حمزة بن عبد المطلب، ومصعب بن عمير حامل اللواء، وعبدُ الله بن جحش، وسعد بن الربيع وغيرهم، وخرجَ رسول الله ﷺ يبحثُ عن جسدِ عمه حمزة، فوجده ببطنِ الوادي، قد بُقِرَتْ بطنُهُ وجُدعت أذناه واصطُلم أنفه، فوقفَ الرسول ﷺ حزيناً متألماً وقال:

«لولا أَنْ تحزنَ صفية، ويكون سنَّة من بعدي، لتركتُه حتى يكون في بطونِ السباع وحواصل الطير، ولئنْ أظهرني الله على قريش في موطنٍ من المواطن لأُمَثِّلَنَّ بثلاثين رجلاً منهم».

ولما رأى المسلمون حزنَ الرسول ﷺ وغيظه من أعمال قريش الوحشية في التمثيل بجثمان الشهداء، وبخاصةٍ جثمان عمه حمزة قالوا:

«واللهِ لئن أظفرنَا الله بهم يوماً مِنَ الدّهر لَنُمَثِّلَنَّ بهم مُثلةً لم يُمَثِّلها أحدٌ مِنَ العرب».

* لكنَّ الله سبحانه وتعالى الذي أرسلَ محمداً ﷺ رحمة للعالمين، أنزلَ عليه القرآن يدعوه إلى الصبر مع أصحابه: قال تعالى ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ

(١) السيرة النبوية جزء (٢) ص٩١.

لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ۝١٢٦ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾[1] [النحل: ١٢٥ ـ ١٢٧].

فقال رسول الله ﷺ: «بَلْ نصبرُ يارب».

وقد أكرمَ الله سبحانه وتعالى رسوله بالصبر والعفو، وأكرمَ حمزة بن عبد المطلب بالشهادة، وقد نزلتْ الآيات السابقة تكريماً لحمزة عندما استشهد في غزوة أُحُد[2].

بشارة لحمزة:

وقف رسول الله ﷺ على عمّه حمزة، وقد جدعوا أنفَه وأذنه، وبقَروا بطنه، وأَخْبرَ بعضُ المسلمين الرسولَ أنَّ هند بنت عتبة، قد أخذتْ قطعةً مِن كبده فلاكتها ثمّ رمتها، ويقول الرسول ﷺ:

«أأكلتْ شيئاً»؟

قالوا: لا.

فقال: «أما إنَّها لو أكلتْها لمْ تدخلِ النّار أبداً، حمزةُ أكرمُ على الله مِنْ أَنْ يُدخِلَ شيئاً مِنْ جسده النَّار».

نعم فحمزةُ شهيدٌ، لكنه حيٌّ عند الله مكَرَّمٌ، فقد وهبَ نفسه لله، وأوقف حياته لنصرة نبيّه ونصرة الإسلام، فأكرمهُ الله بالشهادة، وماأدراك ما درجة الشهداء!

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۝١٦٩ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝١٧٠ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[3].

إنَّ الشهداء مكرمون عند الله، فرحينَ مستبشرين بما آتاهم الله مِن الفضل؛

---

(١) انظر تفسير القرطبي وابن كثير للآيات نفسها.

(٢) انظر السيرة الحلبية جزء / ٢/ ص٥٢٩.

(٣) سورة آل عمران آية [١٦٩ ـ ١٧١] وانظر تفسير القرطبي للآيات نفسها.

وفي حديث الرسول السابق بشارة لحمزة بالجنة، «حمزةُ أكرم على الله مِن أَنْ يُدخلَ شيئاً مِنْ جسده النّار».

* كان حزنُ الرسول ﷺ شديداً لِما أصابَ عمَّه حمزة، كان ينظر إلى جثمانِ الشهيد، ويتألم لما حدثَ له، ثمّ قال:

«لن أُصاب بمثلك أبداً، ما وقفت موقفاً قطّ أَغْيَظ إليَّ من هذا[1] ».

ويتابع الرسول عليه السلام حديثه معبراً عن حزنه على عمه ومبشراً للشهيد بمكانته ودرجته عند الله فقال ﷺ:

«جاءني جبريل فأخبرني أنَّ حمزةَ بن عبد المطلب مكتوبٌ في أهل السموات السبع: حمزة بن عبد المطلب أسدُ الله وأسدُ رسوله».

* وفي تلك اللحظات الحزينة، أقبلتْ «صفيَّةُ بنت عبد المطلب» عمَّة الرسول ﷺ لتنظرَ إلى حمزة، وكانَ أخاها الشقيق، فقال رسول الله ﷺ لابنها الزُّبير بن العوام:

«القَها فأرجعْها لاترى ما بأخيها...»

فقال لها: يا أُمَّه، إِنَّ رسولَ الله ﷺ يأمركِ أنْ ترجعي.

قالت: ولِمَ؟! وقد بلغني أَنْ قد مُثِّلَ بأخي وذلك في اللهِ، فما أرضانا بما كان مِنْ ذلك، لأحتسبنَّ ولأصبرنَّ إنْ شاء الله.

فلما جاءَ الزُّبير إلى رسول الله ﷺ، فأخبرَه بذلك، قال: «خَلِّ سبيلَها». فأتتهُ، فنظرتْ إليه، فصلّتْ عليه واستغفرتْ له.

* ثمّ أَمرَ الرسول ﷺ ببُردة، ثمّ صلّى عليه، ثمّ أتى بالشهداءِ الواحد تلوَ الآخر فصلّى عليهم وعلى حمزة معهم، حتى صلّى عليه ثنتين وسبعين صلاة[2] ثمّ أمرَ به رسول ﷺ فدُفِن.

* كانت شهادة رسول الله ﷺ في حمزة خيرَ شهادة، وأعظمها، شهادة تنمُّ

---

(١) سيرة ابن هشام مجلد (٢) ص٩٦ وانظر السيرة الحلبية جزء / ٢/ ص٥٣٣ ـ ٥٣٤.
(٢) سيرة ابن هشام مجلد (٢) ص٩٧ وانظر السيرة الحلبية جزء / ٢/ ص٥٣٦.

عن مكانة حمزة وإنسانيته، فقال فيه الرسول ﷺ قبل دفنه:

«رحمةُ الله عليك، فإنك كنتَ ما علمتُكَ، فعولاً للخيرات، وصولاً للرحم». ما أجمل هذه الشهادة، وممن؟ إنَّها من خيرِ البشر الرسول ﷺ.

* ولما انصرفَ رسول الله عن الشهداء يوم أُحُد قال مبشراً إياهم بخير بشرى:

«أَنا شهيدٌ على هؤلاء، إنَّه مَا مِنْ جريحٍ يُجرَحُ في سبيل الله إلاَّ والله يبعثهُ يوم القيامة يَدمى جرحُه، اللونُ لونُ دمٍ والريحُ ريحُ مِسْك»[1].

* وقفل الرسول ﷺ وأصحابه عائدينَ إلى المدينة، ومرَّ الرسول بدار من دور الأنصار من بني عبد الأشْهل وظفَر، فسمعَ البكاء والنوائح على قتلاهم، فذرفتْ عينا رسول الله ﷺ فبكى ثمّ قال:

«لكنَّ حمزةَ لا بواكي له».

ولما رجعَ «سعد بن معاذ» و«أُسيد بن حضير» إلى دار بني عبد الأشهل أمَرا نساءَهم أَنْ يذهبنَ ويبكينَ على عمِّ رسول الله ﷺ، ولما سمعَ الرسول بكاءَهن على حمزة، خرجَ عليهن وهنَّ على باب مسجده يبكين فقال:

«ارجعنَ يرحمكن اللهُ فقد آسيتُنّ بأنفسِكن».

ثمّ قال لهم الرسول ـ ﷺ:

«رحم الله الأنصار إنَّ المواساة منهم عتّمتُ لقديمة».

ثمّ قال لهن:

«ما هذا أردتُ وما أحبُّ البكاء».

ونُهيَ يومئذ عنِ النَّوحِ.

* ومرَّ رسول الله ـ ﷺ ـ بالسُّميراء بنت قيس من بني دِينار، وقد أُصيبَ

---

(١) البداية والنهاية جزء / ٤/ ص٤٢.

زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله عليه الصلاة والسلام بأُحُد، فلما نعوا لها قالتْ:

* فما فعلَ رسول الله ﷺ؟

قالوا: خيراً هو بحمدِ اللهِ كما تُحبين.

قالت: أَرونيْهِ حتى أنظرَ إليه.. فأشاروا لها إليه حتى إذا رأته قالت:

* كلُ مصيبة بعدك يا رسول الله جلَلَ[1].

ماأعظمَ هذا العزاء، وما أعظمها منْ امرأة، لقد فقدتْ الأب والأخ والابن، لكنَّها كانتْ ترجو سلامةَ الرسول، إنَّها قلوبٌ عامرة بالإيمان، راضية بقضاء الله عزَّ وجلَّ.

* وبقي حمزة بن عبد المطلب رمزَ البطولة والشهادة في سبيل الله، وقد رثاه كثيرون وخلَّدوا مآثره، فكان مِمَّنْ رثاه حسان بن ثابت وكعب بن مالك، وهذا عبد الله بن رواحة يبكيه وأصحابه يوم أُحُد:

بكتْ عيني وحقَّ لها بكاها ... وما يُغني البكاءُ ولا العويلُ
على أَسد الإله غداةَ قالوا ... أحمزةُ ذاكمُ الرجلُ القتيلُ
أُصيبَ المسلمون به جميعاً ... هناكَ وقد أُصيب به الرسولُ
عليكَ سلامُ ربكَ في جنان ... مخالطُها نعيم لا يزولُ

* وَرَثَتْه أخته صفية بنت عبد المطلب فقالت:

دعاهُ إله الحقِ ذو العرش دعوةً ... إلى جنةٍ يَحيا بها وسرورِ
فذلك ما كنَّا نرجِّي ونرتجي ... لحمزةَ يوم الحشر خيرُ مصير

وفي سفحِ جبل أُحُد قرب المدينة المنورة يرقدُ أسد الله وأسدُ رسوله وسيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب مع بعضِ الشهداء، لقد كان مِنَ الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه.

* نعم، ففي هذا الجبل الداكن الجاثم حولَ المدينة المنورة أوْدَعَ سيدنا

---

(١) جلل ـ تريد صغيرة.

محمدٌ أعزَّ الناس لديه، وأقربهم إلى قلبهِ، وكان عليه الصلاة والسلام يذكرُ سِير أولئك الأبطال ومصائرهم فيقول: «أُحُدٌ جبل يحبنا ونحبه[1]» ويحضُّ أصحابه على زيارتهم.

* ولما حانت وفاته عليه الصلاة والسلام، أحبَّ أَنْ يكون آخر عهده أنْ يزورَ شهداء أُحد وأَنْ يدعو الله لهم. هنيئاً لكم شهداء أُحد، بشراكم شهداء أُحُد، فهذا رسول الله ﷺ، يصلّي عليكم بعد ثماني سنين[2].

وها هو رسول الله أيضاً، يحدِّثُ أصحابه يوماً بعد استشهاد عمه حمزة يوم أُحُد عمّا أعدَّ الله للشهداء من خير قائلاً:

«لما أُصيب إخوانكم يوم أُحُد، جَعل الله أرواحهم في جوف طير خضْرٍ، تَرِدُ أنهار الجنة، وتأكلُ مِن ثمارها، وتأوي إلى قناديل مِنَ الذهب في ظلِّ العرش؛ فلما وجدوا طِيبَ مأكلهم ومشربهم وحسنَ مقيلهم قالوا:

يا ليتَ إخواننا يعلمونَ ما صنعَ الله بنا، لئلا يوهنوا في الجهاد ولا ينكلوا في الحرب.

فقال الله تعالى: أناأبلغهم عنكم، فأنزل هذه الآيات ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۢ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ . . ».

* * *

(١) رواه البخاري وانظر السيرة الحلبية جزء / ٢/ ص٤٨٧.
(٢) انظر السيرة الحلبية جزء / ٢/ ص٥٣٧.



سيدنا

عبد الله بن جحش

رضي الله عنه

* «ألا ترضى يا عبد الله أن يعطيك الله بها داراً خيراً منها في الجنـة»؟

قال: بلى. قال ﷺ: «فذلك لك».





مـقـدمـة:

* بدأت نسمات الإسلام تهبُّ في مكة، فتلامسُ أصحاب الأفئدة الكبيرة، وسرعان ما ترك هؤلاء جاهليتهم العمياء، وخفّوا إلى اعتناق الدِّين الجديد الذي يدعو إليه محمد ﷺ.

* أخذ الرسول ﷺ يعرضُ الإسلام على آلِ بيته، وعلى أصدقائه، وأقربائِه، وشملت الدعوة ابن عمته «عبد الله بن جحش».

* نشأ عبد الله بن جحش في مكة قريباً من الكعبة المشرفة، وعايش الأحداث التي مرت بمكة قبل مبعث الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، فشاهد تجديد بناء الكعبة المشرفة، كما شاهد مشاحنة القبائل وتنافسهم على وضع الحجر الأسود، ثم رضوا أن يحكّموا أولَ داخلٍ عليهم ليختار القبيلة التي يكون لها شرفُ وضع الحجر الأسود في مكانه. شاهد محمداً وهو يقرِّرُ أن تشترك القبائل كلُّها في وضعه، فقد طرح الرسول رداءه وأمر سيِّد كل قبيلة أن يأخذ بطرفٍ منه، وهكذا انتهتْ مشكلة كادت تؤدي إلى حرب.

* ومنذ ذلك اليوم و«عبد الله بن جحش» يُكنُّ للرسول كلَّ الحب والاحترام، وكيف لا يحبه وقد رضع من «ثويبة» جارية «أبي لهب»[1] التي أرضعت النبيَّ ﷺ، «وحمزة بن عبد المطلب».

* استمرت الدعوة إلى الإسلام سرّاً، ولمَّا أربى الذين دخلوا في الإسلام على الثلاثين ما بين رجل وامرأة، وكان «عبد الله بن جحش» من بينهم، عندها اختار لهم رسول الله ﷺ دار «الأرقم بن أبي الأرقم»، واستمرت الدعوةُ السِّريّة ثلاث سنين، ثم نزل الوحي بتكليف الرسول الكريم ﷺ أن يصدع بما جاءه من الحق، ويجابه باطل قريش وأصنامهم.

* استجاب الرسول عليه الصلاة والسلام لأمر ربه، وبدأ يدعو إلى

---

(١) انظر سيرة ابن هشام جزء (١) ص١٦١ وانظر أيضاً الروض الأنف للسهيلي جزء (١) ص١٨٦.

الإسلام جهراً، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

* لما نزلت الآية ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ صعد النبيُّ ﷺ على الصَّفا فجعل ينادي: يا بني فهر، يا بني عديّ، حتى اجتمعوا. فجعل الذي لم يستطع أن يخرج يرسل رسولاً لينظر ما هو؟ فقال النبي ﷺ:

«أرأيتم لو أخبرتكُم أنَّ خيلاً بالوادي تريدُ أن تغير عليكم، أكنتم مصدِّقيّ»؟ قالوا: ما جرَّبنا عليك كذباً؛ قال: «فإنّي نذيرٌ لكم بين يدي عذابٍ شديد». فقال «أبو لهب»: تبّاً لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟! فنزل قوله تعالى ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾»[1]

* انفضَّ الملأ من قريش من حول الرسول ﷺ بين مصدق ومكذب، وانطلق «عبد الله بن جحش»، وكلماتُ الرسول ﷺ تضيء قلبه ولبّه، فدعا أخويه وأختيه إلى الإسلام فاستجابوا له، ونطقوا بالشهادة.

* بدأت قريش تسيرُ في اللجاج، وبدأت تسكبُ غضبها وسخطها على المؤمنين الذين آمنوا بدعوة الرسول ﷺ، ولم ينجُ من إيذائها أحد، وكان «عبد الله بن جحش» من الذين أوذوا في سبيل الله، ورأى كثيراً من المستضعفين يعذَّبون أشدَّ العذاب، فهذا «عمّار بن ياسر» يلاقي مع أبويه أشدَّ أنواع البلاء، وتكون «سُميَّة» أمُّ عمّار أول شهيدة في الإسلام؛ وهذا «بلال بن رباح» يصمد أمام عذاب «أمية بن خلف»، وهذا «خباب بن الأرتّ» يذهب إلى رسول الله ﷺ يستنجدُ به لما اشتدت ضراوة قريش به وبالمستضعفين، يقول «خبّاب» رضي الله عنه:

«شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسِّدٌ بردة في ظل الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا؟».

فقال: «قد كان من قبلكم يؤخذُ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشَّط بأمشاط الحديد ما

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

دون لحمه وعظمه، ما يصدُّه ذلك عن دينه، والله ليُتمَّنَّ الله تعالى هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت فلا يخافُ إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون»[١].

* كان الرسول ﷺ يزرعُ الثقة والثبات في قلوب المؤمنين، ويبثُّ في نفوسهم أملاً رحيباً في انتظار الإسلام وانتشاره، ومضت سنتان على الجهر بالدعوة، ويستمرُّ أذى كفار قريش للمسلمين، ويحزن الرسول الكريم للمآسي التي تقعُ لأصحابه، وهو لا يستطيع دفع الأذى عنهم فأوعز بالهجرة إلى الحبشة قائلاً لهم:

«لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإنَّ بها ملكاً لا يظلمُ عنده أحد، وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه»[٢].

هجرة عبد الله بن جحش إلى الحبشة:

* خرج المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة، وفراراً إلى الله بدينهم فكانت أول هجرة في الإسلام، وكان من أوائل المهاجرين «عبد الله بن جحش بن رئاب» وأخوه «عبيد الله بن جحش» معه امرأته «أم حبيبة بنت أبي سفيان[٣]»، وبلغ عدد المهاجرين ثلاثة وثمانين مسلماً.

* أوجست قريشٌ خيفة من هذه الهجرة غير المتوقَّعة، لأنَّ الرحيل إلى الحبشة كان تسللاً في الخفاء، حتى لا تستيقظ قريش للأمر فتعمل على إحباطه بكل ما تستطيع، وحسبت لهذه الهجرة حساباً كبيراً، لأنَّ المهاجرين يلقون ترحيباً من ملك الحبشة النجاشي؛ لذلك سارعت قريش إلى إرسال بعثة للنجاشي تحمل الهدايا له ولرجال حاشيته، وتطلبُ إليه ردَّ هؤلاء المهاجرين. وكانت هذه البعثة مؤلفة من رجلين عرفا بالذَّكاء ولهما مكانة

---

(١) سيرة ابن هشام جزء (١) ص٣٢١ ـ ٣٢٢.
(٢) انظر حلية الأولياء مجلد / ١/.
(٣) سيرة ابن هشام جزء (١) ص٣٢٤.

مرموقة في قريش وهما: «عمرو بن العاص»، «وعبد الله بن ربيعة»، ـ وذلك قبل أن يسلما ـ فلمّا كلّما النجاشيَّ، وكانا قد كلّما حاشيته قبله، رفض النجاشيُّ أن يسلِّم أحداً من المسلمين حتى يتحقق من الأمر، ودعا المهاجرين إليه، ورسولا قريش عنده فقال لهم:

* ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا به في ديني ولا دين أحدٍ من الملل؟

فأجابه «جعفر بن أبي طالب» قائلاً:

* أيُّها الملك، كنّا قوماً أهل جاهلية، نعبدُ الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار... حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرفُ نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعا إلى الله لنوحِّدَه ونعبده، ونخلع عبادة الأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة، وصلة الرحم، ونهانا عن الفواحش... فصدَّقناه وآمنّا به واتبعناه على ما جاء به من الله، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان... فلما قهرونا وظلمونا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك ورجونا ألاَّ نُظلم عندك. وسأله النجاشي:

* هل عندك شيءٌ مما جاء به الرسول من عند الله؟

فقال: نعم. وقرأ عليه صدراً من سورة مريم، فبكى النجاشيُّ ورجاله حتى اخْضلّت لحاهم ثم قال لهم:

* إنَّ هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة.

وقال لرسولي قريش:

* انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا يُكادون[1].

وحاول رسولا قريش الكرَّة ثانية فقالا للنجاشيِّ:

* إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً.

---

(١) سيرة ابن هشام جزء (١) ص٣٣٦ ـ ٣٣٧ بتصرف يسير.

ودعاهم النجاشيُّ وسألهم عن ذلك، فقال «جعفر بن أبي طالب»:

نقول فيه الذي جاءنا به نبينا محمد ﷺ «هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول». فضرب النجاشيُّ بيده الأرض، فأخذ منها عوداً ثم قال: والله ما عدا عيسى بن مريم مما قلت هذا العود.

ثم صرف رسولي قريش وردَّ إليهما هداياهما.

* فشلت بعثة قريش في مهمتها فشلاً ذريعاً، وبقي المسلمون في الحبشة يتمتعون بالرعاية والإكرام، وقد لفتت البعثةُ أنظار النجاشي نحو المهاجرين فقدَّر تضحياتهم، وعطف عليهم وبذل لهم كل عون ورعاية.

* في مكة تمرُّ على المسلمين أيامٌ عسيرةٌ، يقاسون خلالها كيد المشركين، وفي هذه الأثناء، دخل في الإسلام عناصرُ قوية من القرشيين، جعلت قريشاً تفكر كثيراً قبل إقدامها على إيذاء أحد من المسلمين، فقد أسلم رجلان اشتهرا بالبأس والقوة هما، «حمزة بن عبد المطلب»، «وعمر بن الخطاب»، وكان كلاهما رجلاً قوياً مرهوب الجانب، جريئاً في إظهار رأيه والوقوف ببأس وصلابة أمام مخالفيه، ولم يتأخر كلا الرجلين عن تحدي قريش، فاشتدَّ بهما ساعد المسلمين، وقويت قلوبهم، واضطرت قريش إلى التريُّثِ لتدبُّر موقفها إزاء هذا الوضع الذي لم يكن في الحسبان.

* بلغت طلائع المهاجرين بعد شهرين من إقامتهم في الحبشة أنباءٌ تشيرُ إلى أنَّ أهل مكة قد اعتنقوا الإسلام، فقفل بضعة وثلاثون رجلاً منهم عائدين إلى بلادهم، لكنَّهم ما كادوا يقتربون من مكة حتى بلغهم أنَّ ما قد سمعوه من إسلام أهل مكة باطل، فتسلل بعضهم مستخفياً إلى مكة، ودخل بعضهم في جوار بعض رجال قريش، ورجعت فئةٌ ثالثةٌ من حيثُ أتت.

* عاد «عبد الله بن جحش» إلى مكة مع من عاد، وأقام بمكة يقاسي ضنك العيش، ويلقى مع إخوته المؤمنين ألواناً من التعذيب والتنكيل، فحضر مقاطعة قريش للنّبي وأصحابه؛ تلك المقاطعة التي استمرت قرابة ثلاث سنوات، وحضر أذى قريش الشديد للنَّبي عندما فجع بزوجهِ البارَّة «خديجة

بنت خويلد» وعمه «أبي طالب»، إلى أن أذن الرسول ﷺ بالهجرة إلى المدينة.

هجرة عبد الله إلى المدينة:

* اشتدت قريش في معاداتها لرسول الله ﷺ، وأمَّا أصحابه رضوان الله عليهم، فقد تجرّعَ كلٌّ واحد منهم ألواناً من العذاب، فمات بعضهم تحت وطأة العذاب، وعَمِيَ آخرون، وكان الجميع صابرين، وكان النبي الكريم ﷺ خلال هذه الفترة كلِّها يعرضُ نفسه في موسم الحج من كل سنة على القبائل، وفي السنة الحادية عشرة من البعثة لقي رهطاً من الخزرج، وعرض عليهم الإسلام فشرح الله صدورهم، ومن ثمَّ انتشر الإسلام تلك السنة في المدينة؛ واشتد أذى قريش على المسلمين لما علموا بإسلام الخزرجيين، وشكا ذلك أصحاب الرسول ﷺ، واستأذنوه في الهجرة فقال:

«قد أُخبرتُ بدار هجرتكم وهي يثرب، فمن أراد الخروج فليخرج إليها» فجعل المسلمون ينطلقون متخفِّين، وكان «عبد الله بن جحش بن رئاب» رضي الله عنه ثاني المهاجرين[1]، حيث احتمل بأهله وبأخيه «عبيد بن جحش» وهاجرت الأسرة كلها، فقد كانت مسلمة، وانطلق أبو أحمد «عبد الله بن جحش» يرفع صوته مترنماً بشعره ويذكر هجرة قومه إلى الله ورسوله حين دُعوا إلى الهجرة:

لما رأتني أمُّ أحمد غادياً ... بذمّة من أخشى بغيب وأرهب
تقولُ: فإمّا كنت لا بدَّ فاعلاً ... فيمِّم بنا البلدان ولتنأ[2] يثربُ
فقلتُ لها: بل يثرب اليوم وجهنا ... وما يشأ الرحمن فالعبدُ يركبُ
إلى الله وجهي والرسول ومن يُقِمْ ... إلى الله يوماً وجهه لا يُخيّب
دعوتُ بني غنم لحقن دمائهم ... وللحقّ لمّا لاح للنّاس ملحب[3]

(١) سيرة ابن هشام جزء (١) ص٤٧٠ ـ ٤٧٣.
(٢) تنأى: تبتعد.
(٣) ملحب: طريق واضح.

أجـابـوا بحمـد الله لمَّـا دعـاهـم   إلى الحق داع والنجاحُ فأوعبوا[١]
ورعنـا إلـى قـول النّبـيِّ محمـدٍ   فطـاب ولاةُ الحـقِّ منَّـا وطيبـوا[٢]

* وهكذا أضحت ديارُ «بني جحش» خلاء إلا من الرياح تعبثُ بطرقاتها وأبوابها؛ ومرَّ بها بعد هجرتهم «عتبة بن ربيعة» و«العباس بن عبد المطلب»، «وأبو جهل بن هشام»، وهم مصعدون إلى أعلى مكة، فنظر إليها «عتبة» تخفقُ أبوابها يباباً ليس بها ساكن، فلما رآها خاوية تنفَّس الصعداء وتمثَّل بقول الشاعر:

وكـلُّ دارٍ وإن طـالـت سـلامتهـا   يـومـاً ستُـدركهـا النكبـاءُ والحـوب

ثم قال «عتبة بن ربيعة»: أصبحت دار«بني جحش» خلاء من أهلها، فقال«أبو جهل»: وما تبكي عليه من فل بن فل[٣]، ثم قال للعبّاس: هذا من عمل ابن أخيك، فرَّق جماعتنا، وشتَّتَ أمرنا، وقطع بيننا؛ ولما رأى «أبو سفيان» دار «بني جحش» في مكة لا يسكنها أحدٌ عدا على الدُّور فباعها[٤].

* نزل «عبد الله بن جحش» وأخوه على «عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح»، وتفرّق بقية«بني جحش» بين بيوت الأنصار في المدينة، وهكذا تتابع المسلمون في الهجرة إلى المدينة، إلى أن وصل الرسول ﷺ إليها مهاجراً، وقد سُرَّ الرسول عليه الصلاة والسلام بهجرة «بني جحش» وقدر فضلهم وسبقهم إلى الإسلام، وبخاصةٍ«عبد الله» ابن عمته ﷺ.

جهـاد عبـد الله فـي المـديـنـة:

* لم يرتح القرشيون لهجرة النَّبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، ولم يقرّ لهم قرار، فتحرَّشوا بأهل المدينة، وقبضوا على سعد بن عبادة الخزرجي، وكادوا

---

(١) أوعبوا: اجتمعوا وكروا.
(٢) سيرة ابن هشام جزء (١) ص٤٧٣ ـ ٤٧٤ والبداية والنهاية جزء (٣) ص١٧١. وانظر حياة الصحابة جزء (١) ص٣٦٣.
(٣) فل: واحد.
(٤) سيرة ابن هشام جزء (١) ص٤٩٩.

يفتكون به، لولا أن منعه بعض سادة قريش لجوارٍ بينه وبينهم، وأدرك النَّبيُّ ﷺ خطورة الأمر، فبدأت سرايا المدينة تتوزع على الطرقات التجارية التي تمرُّ منها قريش بتجاراتها إلى الشام، وذلك بقصد إفهام قريش حقيقة موقفها من المسلمين، وكانت هذه السرايا تتقابل دون حدوث قتال بينها.

* وفي رجب من السنة الثانية للهجرة النبوية، بعث رسول الله ﷺ رهطاً من المهاجرين لا يتجاوز عددهم ثمانية وقال لهم: «لأبعثنَّ عليكم رجلاً أصبركم على الجوع والعطش» فكان «عبد الله بن جحش» هو أمير السرية، وأول أمير أقر في الإسلام، وكانت مهمته استطلاع حال قريش، والوقوف على أخبارها، وكتب له النبي ﷺ كتاباً وأمرهُ ألاَّ ينظر فيه إلاَّ بعد يومين من مسيره ثمّ ينظر فيه فيمضي لما أمره به، ولا يستكره من أصحابه أحداً.

* فلما سار يومين فتح الكتاب فإذا فيه: «أن امضِ حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف، وتعلم لنا من أخبارهم»،

فلما نظر في الكتاب قال: سمعاً وطاعة، وأخبر أصحابه بما فيه وقال: قد نهاني أن أستكره أحداً منكم، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب بها فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع، فأمّا أنا فماضٍ لأمر رسول الله ﷺ. فمضى ومضى أصحابه لم يتخلف منهم أحد، وسلك حتى وصل لمكان يقال له نجران، وضلَّ هناك بعير «لسعد بن أبي وقاص» و«عتبة بن غزوان» فتخلفا في طلبه، ومضى «عبد الله بن جحش» حتى نزل نخلة، فمرّت عيرٌ لقريش فيها «عمرو بن الحضرمي»، «والحكم بن كيسان»، و«عثمان ونوفل ابنا عبد الله بن المغيرة»، وبعد تشاورٍ لم يطل كثيراً، رمى «واقد بن عبد الله» عمرو بن الحضرميِّ بسهم فقتله، ثم أسرت السرية «الحكم بن كيسان» «وعثمان بن عبد الله»، وأفلت «نوفل بن عبد الله» فأعجزهم؛ وأقبل «عبد الله ابن جحش» وأصحابه بالعير والأسيرين حتى قدموا على رسول الله ﷺ فقال لهم:

«ما أمرتُكُم بقتالٍ في الشَّهر الحرام».

فوقف العِيرَ والأسيرين، وأبى أنْ يأخذَ من ذلك شيئاً[١].

* انتهزت قريش هذه الفرصة لاتِّهام المسلمين والتشهير بمحمد ﷺ وأصحابه، وإظهارِهم بمظهر المعتدي الذي لا يرعى الحُرمات، ووجد المشركون والمرجفون فيما حدثَ فرصة لاتهام المسلمين أيضاً، ذلك لأنهم أحلُّوا ما حرَّمَ الله، لأنَّ شهرَ رجب من الأشهر الحرم التي يُحرِّمُ العرب فيها القتال.

* قام المشركون والقرشيون بدعاية كبيرة لإثارة الفتنة، وكثر الجدل والنقاش بين المسلمين أنفسهم، وأنكروا على «عبد الله بن جحش» ورجال سريته محاربتهم في الشَّهر الحرام، وبدأ اللومُ ينصبُّ عليهم من كل جانب، حتى ضاقت على «عبد الله» وصحبه الأرض بما رحبت، وظنوا أنهم قد هلكوا فيما صنعوا، واشتد الموقف، ودخلتِ اليهود تريدُ إشعالَ الفتنة وقالت: تفاءَل بذلك على رسول الله ﷺ:

«عمرو بن الحضرمي»، قتله «واقد بن عبد الله».

عمرو عمرتِ الحرب،

والحضرمي حضرتِ الحرب،

وواقد وقدتِ الحرب[٢].

وهنا نزلَ القرآن الكريم يردُّ على دعاية المشركين، ويؤيِّدُ ما فعله «عبد الله بن جحش» تجاه المشركين: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ . . . ﴾[٣].

---

(١) البداية والنهاية جزء / ٣/ ص٢٤٩ بتصرف يسير.
(٢) البداية والنهاية جزء / ٣/ ص٢٥٠.
(٣) سورة البقرة آية / ٢١٧/ وانظر تفسير القرطبي للآية نفسها.

* إنَّ الضجة الكبيرةَ التي لاكتْها أفواهُ المشركين يجيب عنها القرآن الكريم بأَنَّ القتال في الشهر الحرام أمرٌ كبيرٌ، لكنَّ هناك ما هو أكبرُ منه وأعظمُ، فالصدُّ عن سبيل الله، والكفرُ به أكبرُ مِنَ القتال في الشهر الحرام والمسجد الحرام، الذي جعله الله مثابةً للناس وأمْناً، وإخراج أهلهِ منه أكبر مِنَ القتال في الشهر الحرام، وثمة ناحية أخرى وهي فتنة المرءِ عن دينه بالوعدِ والوعيد، والإغراء والتعذيب أكبرُ أيضاً مِنَ القتل في الشهر الحرام وغير الشَّهر الحرام، والمشركون أنفسهم لن يروعَهم عن فتن المسلمين وتعذيبهم شهر حرام أو بلد حرام.

* وهكذا سُرِّيَ عن المسلمين بنزولِ القرآن الكريم، وأقبل المسلمون يهنِّئون عبد الله وصحبه بعد أَنْ زكَّى القرآن الكريم عملهم، ومِنْ ثمَّ قبض رسول الله ﷺ العيرَ والأسيرين، وبعثت قريش في فداء أسيرَيْها فقال رسول الله ﷺ:

«لا نفديكمُوهما حتى يقدمَ صاحبَانا» يعني «سعد بن أبي وقاص» و«عتبة بن غزوان»، فإنا نخشاكم عليهما، فإن تقتلوهما نقتلْ صاحبَيْكم، فقدم «سعد وعتبة» فأفداهما رسول الله ﷺ، وهنا تقدم «الحكم بن كيسان» وجاء فأسلمَ وحسُنَ إسلامه، وأقامَ عند رسول الله ﷺ[١].

* بعد أَنْ عاد الحق إلى نصابه، وأضحى موقف «عبد الله بن جحش» وأصحابه جلياً، جاؤوا إلى رسول الله ﷺ وقالوا: يا رسول الله نطمعُ أن تكونَ لنا غَزاةٌ نُعطى فيها أجْرَ المجاهدين فأنزل الله فيهم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[٢].

* كانت سريةُ «عبد الله بن جحش» مباركةً على المسلمين، غنمَ المسلمون فيها أولَ غنيمةٍ في الإسلام، وقتيلُها أولُ مشركٍ أراقَ المسلمون دَمَه، كما أَنَّ أسيريها أولُ أسيرين وقعا في أيدي المسلمين، وأميرها

---

(١) البداية والنهاية جزء /٣/ ص٢٥٠.

(٢) سورة البقرة آية /٢١٨/ وانظر تفسير القرطبي للآية نفسها.

«عبد الله بن جحش» أول من دُعي «بأمير المؤمنين[1]»، وانطلق عبد الله ينشد شعرهُ مسروراً بتأييد الله له:

تعـدُّونَ قتـلاً فـي الحـرامِ عظيمـة ... وأعظمُ منه لو يَرى الرُّشدَ راشدُ
صَـدودُكـم عمّـا يقـولُ محمـدٌ ... وكفـرٌ بـهِ واللهُ رَاءٍ وشـاهـدُ
فـإنَّـا وإنْ عيَّـرتُمـونـا بقتْلـهِ ... وأَرجـفَ بـالإسـلامِ بـاغٍ وحـاسـدُ
سقينا مِنْ ابن الحضرميّ رماحَنا ... بنخْلَـة لمّـا أوقـدَ الحـربَ واقـدُ

الأمير الشهيد:

* جاءت غزوة بدر في رمضان من السنة الثانية للهجرة، فشهدَ «عبد الله بن جحش» مع الرسول ﷺ هذه الغزوة، وأبلى فيها بلاء حسناً، وقاتل قتال الأبطال، وأَسَرَ «الوليد بن الوليد بن المغيرة»، الذي أَسْلم بعد أَنْ رأى حُسْنَ معاملة المسلمين، وأيّد الله المؤمنين بنصره.. وخذل المشركين.

* بعد غزوة بدر، لم يقرَّ لقريش قرار، فأجمعت أمرها وأولَتْ قيادتها إلى «أبي سفيان» الذي جاءَ في جيش يربو على ثلاثة آلاف من كلِ ناقم وحليف، وسار الجيش الزاحف نحو المدينة حتى نزل قريباً من جبل أُحُد، واجتمعَ المسلمون يتدبرون أمورَهُم، فرأى فريقٌ منهم أَنْ يتحصَّنوا بالمدينة، ورأى فريق آخر أنْ يخرجوا إلى لقاءِ العدو حتى لا يُرمَوا بالجُبْن، ولبِسَ الرسول ﷺ لأمَته وخرجَ مع المسلمين إلى حيث عسكرت قريش عند سفحه، وفي الطريق عاد «عبد الله بن أبيّ ابن سلول» المنافق بثلث الجيش إلى المدينة مُحْتجاً بأنَّ الرسول خالف رأيه واتّبعَ رأيَ الغلمان مِمَنْ لمْ يحسنوا استعمال الرأي.

* استعدَّ الطرفان للمعركة، بعد أَنْ وضع الرسول ﷺ الرُّماة بأعلى الجبل، وأوصاهم ألاّ يفارقوه، وفي هذه الأثناء جاء «عبدُ الله بن جحش» إلى «سعد بن أبي وقاص» وطلبَ منه أَنْ يبتعد قليلاً عن النَّاس ليدعُوا الله، ولندعْ سعداً يحدثنا عن ذلك:

---

(١) انظر البداية والنهاية جزء /٣/ ص٢٥٠.

«أخرج الطبراني عن «سعد بن أبي وقاص» أنَّ «عبد الله بن جحش» قال له يوم أُحد:
ألا تدعو الله؟ فَخَلَوا في ناحية، فدعا سعد فقال:

* يارب إذا لقيتُ العدوّ فلقِّني رجلاً شديداً بأسُه، شديداً حَردُه، أقاتله ويقاتلني، ثمّ ارزقني الظفرَ عليه، حتى أقتلَه وآخذ سَلَبه، فأمَّنَ «عبد الله بن جحش»، ثمّ قال:

* اللّهم ارزقني رجلاً شديداً حَردُه، شديداً بأسُه، أقاتله فيك ويقاتلني، ثمّ يأخذني فيجدعَ أنفي وأذني، فإذا لقيتُك غداً قلتَ: فيم جُدِعَ أنفُك وأذنُك، فأقول: فيك وفي رسولك ﷺ فتقول: صدقتَ؛ قال سعد: يا بنيّ كانت دعوة «عبد الله بن جحش» خيراً من دعوتي: لقد رأيته آخر النهار وإنَّ أنفَه وأذنَه لمعلَّقتان في خيط[١]».

* انطلق «عبد الله» بعد حديثه مع «سعد» إلى الرسول ﷺ وقال:

* يا رسولَ الله، إنَّ هؤلاء «قريشاً» قد نزلوا حيث ترى، وقد سألت الله عزَّ وجلَّ ورسوله فقلت: اللهمَّ إنّي أقسمُ عليك أَنْ نلقى العدوَّ غداً فيقتلوني ويقبروني ويمثِّلوا بي، فألقاكَ مقتولاً قد صُنِعَ هذا بي فتقول: فيم صُنِعَ بكَ هذا؟ فأقول: فيك.
ويتابع «عبد الله» حديثه مع الرسول فيقول:

* وأنا أسألُكَ أخرى: أَنْ تليَ تَرِكَتي مِنْ بعدي.
فقال الرسول: «نعم».

* استعدَّ الجيشان كلٌّ في مواقِفِه، ونساءُ قريش يمشين خلال الصفوف يُحمِّسْنَ الرجال، هنالك صاح «حمزةُ بن عبد المطلب» صيحة الحرب يوم أُحُد: «أَمِتْ أَمِتْ» واندفعَ المسلمون إلى وسْط جيش قريش فزُلزلتْ صفوفُ الأعداء، وانطلقَ «أبو دُجانة الأنصاري» يختالُ بين الصفوف مُعلماً بعصابته

---

(١) حياة الصحابة ص٥٠٩ ـ ٥١٠، وانظر الروض الأنف للسهيلي جزء / ٣/ ص١٩٧.

الحمراء لا يلقى مشركاً إلاَّ قتله وهو ينشد:

أنـا الـذي عـاهـدَنـي خليلـي ... ونحـنُ بـالسَّفـح لِـدى النَّخيـلِ
ألاَّ أقـومَ الـدهـرَ فـي الكَيـولِ ... أَضـرب بسيـفِ الله والـرَّسـولِ

* ودارت رحى الحرب، وسارعَ «عبد الله بن جحش» إلى المعركةِ خلف خاله «حمزة بن عبد المطلب» يصولُ ويجول، ويقاتل الأعداء بشدة وبأس، وهو عازمٌ على الشهادة، وكادت قريش أَنْ تنهزمَ لولا أنْ غادرَ الرماة مواقعهم هابطين إلى الميدان ليجمعوا الأموال والأسلاب. وهناك تغيَّرَ وجهُ المعركة، فاستُشهد عدد كبير من المسلمين، وفي هذه الأثناء كان «عبد الله» يضرب بسيفه كل منْ يقابله مِنَ المشركين حتى لقيه «أبو الحكم بن الأَخْنَس بن شُريق»[1] فصوَّبَ إلى «عبد الله» ضربة قاضية خَرَّ شهيداً على إثْرها؛ وكان له من العمر حين استشهد «بضع وأربعون سنة»[2].

* انتهت المعركة، وجعلَ «سعد بن أبي وقاص» يبحثُ بين الشهداء عن «عبد الله بن جحش»، حتى وقف عليه، وقد جُدِعَ أنفُه وقُطِعت أذنه، فقال: كانت دعوةُ «عبد الله بن جحش» خيراً مِنْ دعوتي، فلقد رأيتُه آخر النهار وقد قتل ومُثِّل به وإنَّ أنفَه وأذنَه لمعلَّقانِ على شجرةٍ بخيط.

بشارةُ عبد الله:

* خرجَ المسلمون إلى ميدان المعركة لدفْنِ قتلاهم الذين بلغوا سبعين قتيلاً، وأقبلَ الرسول ﷺ حتى وقفَ على «الأمير الشهيد»، فحزنَ حزناً شديداً لما أصابه من التمثيل مع عمه «حمزة بن عبد المطلب» وبعض الشهداء؛ ثمّ صلى الرسول على الشهداء، وأمر أَنْ يُقدَّمَ في القبر أقرؤهم للقرآن، وفي قبر «حمزة» يثوي «عبد الله بن جحش» حيث أَمَرَ الرسول ﷺ بدفنهما معاً[3]، وأمر الرسول أيضاً بدفن «عبد الله بن عمرو بن حرام» و «عمرو بن الجموح»

---

(١) انظر السيرة الحلبية جزء / ٢/ ص٥٣٩ والروض الأنف جزء / ٣/ ص١٧٩.

(٢) صفة الصفوة (١/ ٣٨٦).

(٣) السيرة الحلبية جزء / ٢/ ص٥٣٩.

في قبر واحد، وكان المشركون قد مثَّلوا بهما أبشع تمثيل، ويقف الرسول ﷺ على قبرهما قائلاً:

«ادْفُنوا هَذينِ المُتحابَّينِ في الدُّنيا في قَبرٍ وَاحد»[1].

* وتُقبلُ «حَمْنَةُ بنت جحش»، أخت عبد الله فيقولُ لها الرسول ﷺ: يا «حَمْنُ احتَسبي».

فتقول: مَنْ يا رسول الله؟

قال: «خالُك حمزة».

فتقول: إنَّا للهِ وإنا إليه راجعون، غَفَرَ الله له ورَحِمَهُ، هنيئاً له الشهادة.

ويقول الرسول ثانية: «احتسبي».

قالت: مَنْ يا رسول الله؟

قال: «أخوك».

فتقول: إنَّا لله وإنا إليه راجعون، غَفَرَ الله له ورَحِمهُ، هنيئاً له الجنة.

ويقول الرسول ثالثة: «احتسبي».

فتقول: مَنْ يا رسول الله؟

قال: «مصعب بن عمير».

فصاحت وولْولَتْ، فقال الرسول ﷺ:

«إنَّ زوجَ المرأة منها لبمكان» وذلك لما رأى منْ تَثَبُّتِها عند أخيها وخالها، وصياحها على زوجها[2].

* وقد بشَّرَ النَّبي الكريم ﷺ «عبدَ الله بن جحش» بأنَّ له بيتاً في الجنة وذلك عندما استولى «أبو سفيان» على داره بمكة بعد هجرته إلى المدينة المنورة، ولما بلغَ «عبد الله» صنيع «أبو سفيان» بداره، ذكر ذلك لرسول الله

---

(١) المصدر السابق.

(٢) البداية والنهاية جزء / ٤/ ص٤٦. وانظر السيرة الحلبية جزء / ٢/ ص٥٤٥ بشيء من التصرف.

ﷺ فقال له رسول الله، «ألا ترضى يا عبد الله أَنْ يُعطيك اللهُ بها داراً خيراً منها في الجنة؟»

قال: بلى.

قال: «فذلك لك»[1].

فلما افتتحَ رسول الله ﷺ مكةَ كلَّمهُ «أبو أحمد» أخو «عبد الله بن جحش» في دارهم، فأبطأ عليه رسول الله ﷺ فقال الناس لأبي أحمد:

يا أبا أحمد إنَّ رسول الله ﷺ يكرهُ أنْ ترجِعوا في شيء منْ أموالكم أُصيبَ منكم في الله عزَّ وجلَّ. فأمسكَ عن كلامِ رسول الله ﷺ وقال لأبي سفيان:

أبلغْ أبا سفيانَ عنْ أمرٍ عواقبُهُ ندامه
دارُ ابن عمكَ بِعْتَها تقضي بها عنكَ الغَرامه
وحليفكُم باللهِ ربِّ النّاس مجتَهد القَسامه
اذهبْ بها اذهبْ بها طُوِّقتَها طوقَ الحمَامه

* لقد ترك «عبد الله» داره في سبيل الله، وأخذَ الثمن بيتاً في الجنة، فنعمَ عُقْبى الدَّار، وقد وَلي الرسول ﷺ تركةَ «عبد الله بن جحش» فاشترى لأمّهِ مالاً بخيبر.

* نال« عبد الله بن جحش» رضي الله عنه منزلةً رفيعة عند الرسول ﷺ، فهو ابن عمته «أميمة بنت عبد المطلب»، و«زينب بنت جحش» أخت«عبد الله» كانت زوجة النبي الكريم وإحدى أمهاتِ المؤمنين، وهو مِنَ السابقين إلى الإسلام والهجرة، وعندما استُشهد «عبد الله» وأصحابه في أُحُد، وقفَ الرسول عليه الصلاة والسلام يقول مخاطباً الشهداء:

«إنَّ رسولَ اللهِ يشهدُ أنكم الشهداء عندَ اللهِ يوم القيامة» ثم أقبل على النَّاس فقال:

«أيها النَّاس، زوروهم وائتوهم وسلِّموا عليهم، فوالذي نفسي بيدهِ لا

---

(١) سيرة ابن هشام جزء (١) ص٤٩٩.

يسلِّمُ عليهم مسلمٌ إلى يوم القيامةِ إلاَّ ردوا عليه السلام»[1].

* وعندما عاد الرسولُ قافلاً مِنْ أُحُدٍ، يَمرُّ على دورِ «بني الأشهل»، وتقبل أم «سعد بن معاذ»، و«سعد» آخذٌ بعنان جواد رسول الله، وتدنو من رسول الله وتتأمله وتقول: أما إذْ رأيتُك سالماً فقد أَشْوَتْ «هانت» المصيبةُ، فعزّاها الرسول «بعمرو بن معاذ» ابنها ثم قال:

«يا أم سعد، أَبشري وبشِّري أهليهم أَنَّ قتلاهُم ترافقوا في الجنَّة جميعاً، وقد شُفِّعوا في أهليهم».

فتقول الأم المؤمنة الصابرة:

* رضينا برسول الله، ومَنْ يبكي عليهم بعد هذا؟![2].

* نعم إنَّ هؤلاء الشهداء في الجنةِ فرحين بما آتاهم الله من فضله، وفي هؤلاء الأبطال الشهداء يقول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[3].

* وروى أبو داود بإسنادٍ صحيح عنِ ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ:

«لما أصيبَ إخوانكم بأُحُدٍ جَعَلَ الله أرواحَهم في جَوْفِ طيرٍ خضْرٍ تَرِدُ أنهارَ الجنة، تأكل مِنْ ثمارها، وتأوي إلى قناديلَ مِنْ ذهب معلقةٍ في ظلِّ العرش، فلما وجدوا طيبَ مأكلهم ومشربهم ومقيلهم[4] قالوا: مَنْ يبلِّغُ إخواننا عنَّا أنا أحياءٌ في الجنة نُرزَقُ لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا[5] عن الحرب؟ فقالَ الله سبحانه: «أنا أبلغهُم عنكم» فأنزلَ الله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ . . ﴾.

---

(١) طبقات ابن سعد جزء ٣ ص١٣١ والبداية والنهاية جزء ٤ ص٤٥.

(٢) انظر السيرة الحلبية جزء ٢/ ٥٤٦.

(٣) آل عمران آية ١٦٩ـ ١٧٠.

(٤) مقيلهم: راحتهم وسط النهار.

(٥) ينكلوا: يجبنوا. انظر السيرة الحلبية جزء / ٢/ ص٥٤١.

* وبقيَ «عبد الله بن جحش» رضي الله عنه حديثَ الناس، وشجاعته مضربَ الأمثال، ففي غزوة أُحُد التي استشهد فيها حصلت معجزة مِنْ معجزات الرسولِ ﷺ مع «عبد الله»، فقد انْقطع سيفه يومئذ فأعطاهُ رسول الله ﷺ عُرجُوناً فصَار في يد «عبد الله بن جحش» سيفاً يقاتل به ثم بِيعَ في تركة ولده بمئتي دينار[1] ـ وهذا «سعيد بن المسيب» مِنْ سادة التَّابعين يقفُ في مسجد الرسول ﷺ يحدِّثُ النّاس عن الشهداء وعنْ حياة الأمير الشهيد المُجدَّع: «عبد الله بن جحش» ثم قال: «فإنِّي أرجو الله أنْ يبرَّ آخرَ قسمه كما برَّ أولهُ».

أمّا الرسول الكريم ﷺ فقد بشَّرهُ بالجنة مع جميع الشهداء بأحُد قائلاً:

«أنا شهيدٌ على هؤلاء، إنَّه ما منْ جريحٍ يُجرَحُ في الله إلاَّ ويبعثهُ الله يوم القيامة، يَدمى جرحه، اللونُ لونُ دم، والريحُ ريح مسك[2] . . .».

نَعم فهؤلاء الذينَ رضي الله عنهم ورضوا عنه.

* وكان النبي ﷺ يزورُ شهداء أحُد كلَّ حَول، فإذا بلغَ نقْرةَ الشِّعب يقول:

«السلامُ عليكم بما صبرتُم فنعمَ عُقبى الدَّار. . .».

ثم كانَ أبو بكر يفعلُ ذلك، ثم عمر، ثم عثمان[3].

* وقد نالَ شهداء أُحُد منزلةً عظيمة، حتى إنَّ رسول الله ﷺ إذا ذُكرَ أصحاب أُحُد قال:

«أما والله لوددتُ أني غُودرتُ مع أصحابه بحضنِ الجَبل[4]» يعني سفح الجبل.

---

(١) البداية والنهاية جزء / ٤/ ص٤٢، وانظر السيرة الحلبية جزء / ٢/ ص٥٣٩، والروض الأنف جزء / ٣/ ص١٣٩.
(٢) انظر السيرة الحلبية جزء / ٢/ ص٥٤١.
(٣) البداية والنهاية جزء / ٤/ ص٤٥.
(٤) المصدر السابق جزء / ٤/ ص٤٤.

* وكانَ «سعدُ بن أبي وقاص» رضي الله عنه لا ينسى صديقَه في الدُّعاءِ والجهاد «عبد الله بن جحش»: «المجدع»[1] يذكره دائماً، ويتعهدُ زيارته وزيارة شهداء أُحُد دائماً، ويحضُّ أصحابه على زيارتهم ويقول:

* ألا تُسلمون على قومٍ يَردُّونَ عليكم؟!

* وفي سفْح أُحُد يرقد «عبد الله بن جحش» مثالاً للشجاعة والفداء ورمزاً للبطولة، وقد كان من الذين قال الله فيهم: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

صدق الله العظيم

* * *

(١) انظر الروض الأنف جزء /٣/ ص١٧٩.




سيدنا

سعد بن الربيع

رضي الله عنه

* قال ﷺ: «رحمه الله، نصح لله ولرسوله حياً و ميتاً».
* «يا أم سعد، أبشري، وبشِّري أهليهم أن قتلاهم ترافقوا في الجنة جميعاً».

مقـدمــــة:

* كانت يثرب قبل الهجرة النبوية مسرحاً للنزاعِ والتنافس المستمر بينَ العرب واليهود، وأحياناً بينَ العرب أنفسِهم، أو بينَ اليهود أنفسهم أيضاً، وغالباً ما كانتِ العداوة تلك، ذات بذور يهودية، فكان اليهود يزرعون الفتنةَ والعداوة بين العرب الذين يقيمونَ معهم في يثرب، لأنَّ اليهود رأوْا أنَّ هؤلاء العرب الذين وفدوا إليهم من اليمن، يزاحمونهم في ديارهم يثرب، وينازعونهم ملكَهُم وسيادتهم، وعلى مرورِ الأيام بدأتْ شوكتهم تشتدُّ وسلطانهم يزداد، فلجأ اليهود إلى الحيلة لتفريقِ العرب والوقيعة بينهم، وجعلوا يدسُّون بين الأوس والخزرج، ويبذرون أسبابَ العداوة حتى تمَّ لهم ما أرادوا، ونجحوا في إيقاعِ العرب في الفخِّ الذي نصبوه لهم، فَنَبَتَ الخصام، وترعرعتِ البغضاء، وقامتِ العداوة على سوقها بين الحيّين، فاسْتعرتْ بينهما حروبٌ طاحنة، كان لها أثرٌ عظيمٌ في تاريخ حياتهم، وكانت لهم في ذلك أيامٌ مشهورة، كان آخرُها يوم «بُعاث» الذي كان يوماً على الخزرج غَيرَ يسير، وكادَ الأوس يُهلكون الحرث والنسل للخزرج، لولا أنْ مَنَّ اللهُ عليهم ووقاهُم تلكَ الحروب والأحقاد، وبرزَ بعض زعماء الأوس مدافعاً عن الخزرج قائلاً لقومه:

«إنَّهم إخوانكُم على كلِّ حال، وإنَّ جوارهم خيرٌ من جوار الثَّعالب» وكان يقصد اليهود... وكانت تلك المقالة قد أشعرتِ الأوس والخزرج بسوءِ ما يصنع بعضهم ببعض، وأدركوا أنَّ فسادَ ذات بينهم يجعل اليهود في كسبٍ دائم، ومن ثَمَّ سعى العقلاء منهم لإصلاح الأمر ورأبِ الصَّدع، واختاروا أحدَ الخزرج لينصِّبوه ملكاً عليهم[1]، ولكنَّ الله سبحانه وتعالى أراد بهم خيراً فهداهم إلى الإيمان وزيَّنه في قلوبهم، وجعلهم أنصاراً لرسولهِ الكريم محمد ﷺ.

---

(١) هو عبد الله بن أبي ابن سلول.

* كان اليهود أهْل كتابٍ وعلمٍ، أمَّا الأوسُ والخزرج فأمِّيُّون لا يقرؤونَ ولا يكتبون، وكانوا وثنيين يعبدونَ الأصنام كما يعبدها معظمُ العرب، وكان اليهود يعيّرونهم دائماً بذلك، ويعيبون عليهم جهْلَهم، ويفخرون عليهم بعلمهم وكتابتهم ويسخرون منهم، ويهددونهم أحياناً ويتوعدونهم بقولهم:

«إنَّ نبياً سيُبعثُ الآن قد أطلَّ زمانُه، نتَّبعهُ فنقتلكم معهُ مثل عادٍ وإرم».

ومن أجْلِ هذا كله كانَ الأوسُ والخزرج يترقبونَ ظهور النبي الذي يتوعدهم به اليهود، ويتمنون لو سبقوهم إليه. وكان تعييرُ اليهود للعرب بأصنامهم قد حرَّك كثيراً مِنْ عقلائهم، وجعلهم يفكرونَ بهذه الحجارة التي يعبدونها، ومِنْ ثمَّ أخذوا يتبرمون بها ويحقرونها.

* في هذا الجو الداكنِ المتناقض نشأ «سعد بن الربيع بن عمرو الخزرجي» في أسرة شريفة، فأبوه «الربيع بن عمرو» من سادات بني الحارث الخزرجيين، وأمه «هُزيلة بنت عنبة» من القبيلة نفسها. وعندما رأى الربيع بن عمرو أنَّ اليهودَ يعيرون العرب بأُمِّيَّتهم أرسلَ ولده سعداً لِتَلَقِّي الكتابة والقراءة، حيثُ إنَّ هذه البضاعة كانت قليلة[1] يومذاك، ولما شبَّ سعد عن الطوق، وبلغَ أَشُدَّه، واستوى خَلَفَ والده في السيادة، فأطعمَ وكسا، وتخلَّقَ بالآداب التي ظلَّ بها رئيس القوم، وبذلك نال حُبَّ الخزرج واحترامهم، وكان إلى جانب ذلك كلِّه صاحبَ عقل سليم ناضج، وقلب كبير، وقد كَرِهَ تلك الخلافات والحروب التي أوْدَتْ بحياة كثير من الأوس والخزرج، كما عُرِفَ بالاستقامة في المعاملة، وكان من الخطباء المعدودين آنذاك؛ وممن مَلَكَ ناصية البلاغة والبيان.

* في العام العاشر للبعثة، خرج نَفَرٌ منَ الخزرج إلى موسم الحج في مكة، وسمعوا رسول الله ﷺ يعرضُ دعوته على القبائل، وما كادَ الرسول عليه الصلاة والسلام يعرض عليهم الإسلام حتى آمنوا به وصدَّقوه، لأنَّهم كانوا يتمنَّون لو يكون لهم دين وكتاب سماوي، أو رسول يرشدهم إلى الحق

---

(١) انظر طبقات ابن سعد مجلد ٣ ص٥٢٢ والاستيعاب مجلد ٢ ص٣١.

ويهديهم إلى سواءِ السبيل، وكانت نفوسُهم قد تهيأتْ لقَبول دعوة الإسلام لما كانوا يسمعونه منْ جيرانهم اليهود، وقال بعضهم لبعض: «والله إنَّهُ لَهو النبيُّ الذي توعَّدكُم بهِ يهود فلا يسبقنَّكُم إليهِ». ثم رَجَوْا أنْ يصلح اللهُ به ذاتَ بينهم، فقالوا للرسول ﷺ: «إنَّا تركنا قومنا ولاقوم بينهم مِنَ العداوة والشَّرِّ ما بينهم فعسى أنْ يجمعهم الله بك، وسنقدمُ عليهم فندعوهُم إلى أمرك، ونعرضُ عليهم الذي أجبناكَ إليه مِنْ هذا الدين، فإنْ يجمعهُم اللهُ عليك فلا رجل أعزّ منك».

وواعدوه الموسمَ مِنَ العامِ المقبل، ثم انصرفوا راجعين وقد آمنوا وصدقوا؛ ولما حان الموعدُ جاءَ مِنَ الأنصار اثنا عشر رجلاً واجتمعوا بالنبي عند العقبة وبايعوه بيعةَ العقبة الأولى، ولما انصرفَ عنه القوم أرسلَ معهم «مصعب بن عمير»، وأمرهُ أنْ يعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين ويقرئهم القرآن، فكان مُصعب يسمى «المقرىء» في المدينة.

* استطاع «مصعب بن عمير» رضي الله عنه أنْ يُحبِّبَ الإسلامِ إلى القلوب، وصادفَ في ذلك نفوساً نقيةً قد تهيأتْ لقبول الإسلام، ومن ثَمَّ لمْ تبقَ دارٌ من دُور الأنصار إلا وفيها ذكرُ الرسول ﷺ.

سعد بن الربيع النقيب في العقبة:

* مضتْ سنة كاملة لم يتوقفْ مصعب بن عمير عنِ الدعوة إلى الإسلام، ونشطَ يدعو إلى الإيمان حتى أَسلم «سعدُ بن معاذ» و«أُسيد بن حضير» سيدا الأوس، وصادفتْ دعوةُ الإسلام من «سعد بن الربيع» قلباً خالياً فتمكنتْ منه ونفساً صافيةً فاستقرّتْ في أعماقها، وسَرَتِ الطمأنينةُ في نفسه فراحَ يستمعُ إلى مقرىءِ المدينة «مصعب بن عمير»، فأدركَ بصفاءِ فطرته صدْقَ ما يدعو إليه مصعب، وشَعر بنداءاتٍ مِنْ قلبه تدعوه إلى الخروج من شَرَكِ الوثنية العمياء التي سدّتْ منافذَ الخير عليه وعلى قومه، فسارَع إلى الإسلام، وشهد أَنْ لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله.

* اقتربَ موسمُ الحج، وأصبح «سعدُ بن الربيع» في شوق عظيم إلى لقاء

النبي ﷺ ومبايعته، ولينهلَ مِنْ ذلك المَعين الصافي ما يثلجُ صدره ويبلُّ فؤاده؛ ولما حضر الموسم، استعدَّ الأنصار إلى اللقاءِ السعيد مع الرسول الكريم ﷺ، فخرجَ ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان، فلما وصلوا مكة، سُرَّ بهم النبي عليه الصلاة والسلام، واجتمعوا ليلاً في الشِّعبِ عند العقبة مُستَخفين عن أعْين النَّاس، وعن قريش بشكل خاص؛ وجاءهم الرسول ﷺ بصحبة عمّهِ العبَّاس بن عبد المطلب، الذي أحبَّ أنْ يحضر أمْرَ ابن أخيه ويستوثقَ له؛ وابتلَّتْ جوانحُ «سعد بن الربيع» وقرَّتْ عيناه برؤية المصطفى ﷺ، وجلسَ يستمعُ مع قومه إلى العباس وهو يتحدث إلى الأنصار بصوته المُميَّز قائلاً:

يا معشرَ الخزرج، إنَّ محمداً منَّا حيثُ قد علمتم، وقد منَعْنَاهُ من قومنا ممَّنْ هو على مثلِ رأينا فيه، فهو في عزِّ مِنْ قومه ومَنَعَةٍ في بلده، وإنَّه قد أبى إلا الانحيازَ إليكم واللحوقَ بكم، فإنْ كنتم ترَوْنَ أنكم وافونَ له بما دعوتموه إليه، ومانعوه مِمَّنْ خالفه فأنتم وما تحملتم، وإنْ كنتم ترون أنكم مُسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم؛ فَمِنَ الآن فدعوه، فإنَّه في عزٍّ ومنعةٍ من قومهِ وبلدِهِ».

فقال البراءُ بن معرور:

«إنَّا والله لو كان في أنفسِنا غير ما ننطقُ به لقلناهُ، ولكنَّا نريدُ الوفاءَ والصدقَ وبذلَ مُهَجنا دونَ رسول الله ـ ﷺ ـ فتكلمْ يا رسول الله فخذْ لنفسِك ولربكَ ما أحببتَ فنحنُ نُبايعُك».

* فتكلمَ رسول الله ـ ﷺ ـ فتلا القرآن، ودعا إلى اللهِ ورغَّبَ في الإسلام ثم قال:

«تبايعوني على السَّمْعِ والطاعة في النَّشاط والكسل، والنفقَةِ في العُسْرِ واليسرِ، وعلى الأمر بالمَعروف والنَّهي عن المنكر، وأنْ تقولوا في الله لا تخافوا في الله لومةَ لائم، وعلى أنْ تنصروني فتمنعوني مما تمنعون منه أنْفسَكم وأزواجكم وأبناءَكم ولكم الجنَّة».

فأخذ البراءُ بن معرور بيده ثم قال:

«نعم والذي بعثكَ بالحقِ لنمنعنّكَ مما نمنعُ منه أُزُرنَا[1]، فبايعْنا يا رسول الله، فنحنُ والله أبناء الحروب وأهل الحلَقةَ[2] ورِثْنَاها كابراً عن كابِر» فاعترضَ القول ـ والبراءُ يُكلِمُ الرسول ـ أبو الهيثم بن التيِّهان فقال:

«يا رسول الله إنَّ بيننا وبين الرجال حِبَالاً وإنَّا قاطِعُوها[3] فهلْ عسيتَ إنْ فعلنا ثم أظهركَ الله أنْ ترجعَ إلى قومك وتدعنا؟».

فتبسمَ رسول الله ﷺ ثم قال:

«بل الدّمَ الدّمَ، والهدمَ الهدمَ، أنَا منكم وأنتم مني، أحاربُ مَنْ حاربتم وأُسالم من سالمتُم».

ثم قال رسول الله ﷺ:

«أخْرجوا إليَّ منكم اثني عشَر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم كُفلاء». فأخْرَجُوا منهم اثني عشر نقيباً؛ تسعةً من الخزرج وثلاثة من الأوس، فقال رسول الله ﷺ:

«أنتمْ على قومكم بما فيهم كُفلاء ككفالةِ الحواريين لعيسى ابن مريم وأنا كفيلٌ على قومي».

قالوا: نعم[4].

فلما اجتمعَ القومُ لبيعة رسول الله ﷺ قال العباس بن عبادة: «يا معشر الخزرج؛ هل تدرونَ علامَ تبايعون هذا الرجل؟

قالوا: نعم؛

قال: إنكم تبايعونه على حربِ الأحمر والأسود من النَّاس فإنْ كنتم ترونَ أنَّه إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتْلاً أسلمتموه، فَمِنَ الآن فدعوه، فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة، وإنْ كنتم ترون أنكم وافونَ له بما

---

(١) يريد نساءنا.
(٢) السلاح.
(٣) يعني بذلك اليهود.
(٤) البداية والنهاية جزء ٣ ص١٩١ ـ ١٩٢. وسيرة ابن هشام: ١/ ٤٤١ ـ ٤٤٣.

دعوتموه إليه على نَهْكَةِ الأموال وقَتْل الأشراف فخذوه فهو والله خيرُ الدنيا والآخرة.

قالوا: فإنّا نأخذه على مصيبةِ الأموال وقتل الأشراف؛ فما لنا بذلك يا رسول الله إنْ نحنُ وفَّينا؟

قال: «الجنّة».

قالوا: ابسطْ يدَك، فبَسَطَ يده فبايعوه».

والتقتْ يمينُ «سعد بن الربيع» بيمين رسول الله ﷺ مبايعة، وكان سعد بن الربيع سيد بني الحارث أحدَ النقباء الاثني عشر، لكنه كان صامتاً يستمع إلى الحوار العظيم الذي غيَّر مجرى التاريخ، ذلك الحوار الذي دار بين الرسول ومعه عمّه العبّاس، وبين قومه، وقد كان رضي الله عنه يرغبُ في الجنة التي وعدهم الرسول ﷺ إياها. كما كان يحبُّ العمل أكثر من القول.

* بعد أنْ تمّت البيعة قال رسول الله ﷺ للأنصار:

«ارْفَضُّوا إلى رحالِكم».

فرجعوا إلى مضاجعهم وناموا حتى الصباح؛ ولما أصبحَ القوم، جاءَهم سادةٌ من قريش، وكان قد نميَ إليهم نَبأ البيعة فقالوا:

«يا معشر الخزرج، إنَّه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه مِنْ بين أظْهرنا، وتبايعونه على حربنا، وإنَّه والله ما منْ حيٍّ مِنَ العرب أبْغَض إلينا مِنْ أنْ تنشبَ الحرب بيننا وبينهم منكم» فانْبَعَثَ من هناك مِن مشركي الخزرج يحلفون ماكان مِنْ هذا شيءٍ وما علمناه[1]! وأكّدَ لهم عبد الله بن أبيّ ابن سلول ذلك قائلاً لهم:

* إنَّ هذا الأمر جسيمٌ، ما كان قومي ليتفوَّتُوا عليّ بمثلِ هذا وما علمتُه كان. وانصرفَ القرشيون ولم يستَبِينُوا الحقيقة إلا ضحى الغدِ بعد أَنْ نَفَرَ الناسُ، وفوجئوا بما لَمْ يكن في حسبانهم، وظنّوا أنهم استطاعوا أنْ يحبسُوا

---

(١) البداية والنهاية جزء ٣ ص١٦٤. وانظر الكامل في التاريخ مجلد ٢ ص١٠٠.

دعوة الرسول في مكة، وأنّهم حالوا بينه وبين وفود الحجاج، وأيقنوا أنَّ العرب جميعاً لَنْ يؤمنوا بدعوة الرسول، وظنّوا كذلك أنَّ مهابتَهم بين العرب ستمنعُ هؤلاء من الإيمان بالدعوة أو مناصرتها على الأقل، فلما علموا أنَّ الأوسَ والخزرج قد أسلموا وبايعوا الرسول ﷺ على أنْ ينصروهُ ويمنعوهُ، نُكِسُوا على رؤوسِهم، وزُلزلوا زلزالاً شديداً، فاضطربَ تفكيرهم وانقلبوا يلاحقون الأنصار، وخرجوا في طلبهم فلم يُدركوا إلا «سعد بن عبادة» الذي أجاره بعضُ سادتهم فانطلق حتى لحقَ قومه، ثم دخلوا جميعاً إلى المدينة، وعنايةُ الله تحيطُ بهم وتحفظهم ثم جهَروا بإسلامهم.

الهجـرة إلـى المـدينـة والمـؤاخـاة:

* بعد أنْ اشتدَّ أذى قريش للمسلمين، أذنَ الرسول ﷺ لأصحابه في الخروج إلى إخوانهم الأنصار بالمدينة وقال لهم:
«إنَّ الله قد جعلَ لكم إخواناً ودَاراً تأمنونَ بها».

فجعلوا يتسللون إلى إخوانهم الأنصار زرافاتٍ ووحداناً تاركينَ وراءهم زخارف الدنيا، فقد اعتبروها مِنْ سَقْطِ المتاع، ونَزَلَ المهاجرون مِنْ أهلِ مكة على إخوانهمْ مِنْ أهل المدينة، ثمّ ما لبث الرسول ﷺ أنْ لحقَ بأصحابه مهاجراً وبصحبتهِ الصدّيق رضي الله عنه، ولما وصل إلى المدينة كانتِ القبائلُ تطلب مِنَ الرسول أنْ ينزل عندها، وعندما كانت ناقته قريباً من دار بني الحارثِ وقفَ سعدُ بن الربيع وخارجةُ بن زيد وعبدُ الله بن رواحة في رجال من بني الحارث بن الخزرج ودعَوْهُ إلى النّزولِ عندهم فقالوا:
«يا رسول الله هلمَّ إلينا، إلى العددِ والعُدَّة والمنعةِ».

فقال عليه الصلاة والسلام:
«خَلّوا سبيلَها فإنَّها مأمُورةٌ[١]».

* ولما استقرَّ رسول الله ﷺ بالمدينة آخى بين المهاجرين والأنصار، وقد

---

(١) سيرة ابن هشام مجلد (١) ص٤٩٥.

أَظْهر الأنصار كل خَير وكرم تجاه المهاجرين، فآووهم وآسَوْهم وقاسموهم أموالَهم وديارَهُم، فآخى الرسول بين أبي بكر الصديق وخارجة بن زهير، وآخى بين مُصعب بن عمير وأبي أيوب الأنصاري، فَمَنْ كان نصيبُ سعد بن الربيع بالمؤاخاة؟

* إنَّه عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، وأحدُ العشرة المبشرين بالجنة، وأحدُ السابقين إلى الإسلام بمكةَ، وكان في أخوَّةِ سعد وعبد الرحمن قصة شائقة عظيمة، فتعالَ نستمعْ إليها!

* لما آخى الرسول ﷺ بين سعد بن الربيع وعبد الرحمن بن عوف، انطلقَ به سعدُ إلى منزله فدعا بطعام فأكلا وقال له:

لي امرأتان، وأنتَ أخي في الله لا امرأة لك، فأَنزِلُ عن إحداهما فَتَزوّجْها.

قال عبد الرحمن بن عوف: لا والله.

قال سعد بن الربيع: هلمَّ إلى حديقتي أشَاطِرْكَها.

فقال عبد الرحمن: لا، باركَ الله لك في أهلك ومالِكَ، دُلُّوني على السُّوق، فانطلقَ فاشترى سَمْناً وأقِطاً وباع، ولقيهُ النبيُّ ﷺ في سكةٍ مِنْ سككِ المدينة وعليه وضْرٌ من صفرةٍ فقال له: «مَهْيَمْ[1]».

قال: يا رسول الله تزوجت امرأةً مِنَ الأنصار على وَزْنِ نواة من ذهب، فقال عليه الصلاة والسلام:

«أَوْلِم ولو بشَاة[2]».

أرأيتَ مثل هذا الإيثار الفريد؟ إنَّ الأعناق لتشرئبُّ نحو عمل هذا الصحابي الكريم، الذي لم يكنْ الإيثار عنده عرَضاً وكلاماً مُجَرَّدَيْن!

فقد ملأ الإيمانُ قلبَ سعد بن الربيع رضي الله عنه، فبدأ يقولُ ويعمل بمقتضى الإيمان صادقاً بما عاهدَ الله عليه؛ ولا يذهبنَّ بك الظنُّ إلى أنَّ سعداً

---

(١) لهجة معناها ما حالك؟

(٢) طبقات ابن سعد جزء ٣ ص٥٢٣ وانظر البداية والنهاية جزء ٣ ص٢٢٨. وانظر فضائل الصحابة ص٦٥.

كان وحيداً بمؤاخاته هذه، بل كان هذا شأنُ الصحابة جميعاً الذين قال الله فيهم:

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٞ وَرِزْقٞ كَرِيمٞ ﴾(1).

فقد أثنى اللهُ عزّ وجلّ على أصحاب الرسول ﷺ، ووعدهم مغفرةً منه وفضلاً ورحمة، فقد كان هؤلاء الصحابة رضوان الله عليهم من معدن خيرٍ، تَعالت نفوسهُم عن حطام الدنيا الزائل، فحلَّقُوا عالياً عالياً، وأصبحوا أساتذةً في التضحية والإيثار والبذْلِ وسُمُوِّ الخلُق؛ وهناك سِمات اشتهر بها هؤلاء الأعلام، فإذا ذكر العدل ذُكِرَ سيدنا عمر بن الخطاب، وإذا ذكر الكرم ذُكِرَ سيدنا عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف، وإذا ذكر الإيثار ذُكِرَ سيدنا سعد بن الربيع، فكان الصحابة مَضْربَ الأمثال في الفضائل كلها في عصرهم وفي كل العصور؛ رضي الله عنهم أجمعين.

جهادُ سعد بن الربيع واستشهاده ومناقبه:

* منذ أنْ أعلنَ سعد بن الربيع إسلامَه لم يتوانَ عن تقديم خدماته للإسلام وأهله، وجاهد في سبيل الله بنفسه وماله، وكل ما يملك، وجاءتْ معركةُ بدر، فخرجتْ قريش من مكة عن بكرةِ أبيها معتقدةً أنَّها ستوجِّهُ الضربة القاصمةَ التي تقضي على الإسلام وأهله، لأنَّ المسلمين بزعْمِها قد تطاولوا عليها، وأقْدموا على التَّصدي لعِيْرِها وكَسْرِ هيبة قريش أمام العرب، وسمع الرسول ﷺ بخروج قريش، فخرجَ بأصحابه حتى نزلَ في بدر، وعبَّأ الرسول أصحابه أحسنَ تعبئة وحثَّهم على الصبر والثبات، وبدأ الزحف من قِبَلِ قريش، فالتقى الجمعان، وهجمَ المسلمون على المشركين بقلوبٍ مِلؤها الإيمان بالحق والرَّغبة في الشهادة والطمعِ في ثواب الله؛ وأمدَّ الله المؤمنين بروحٍ منْ عنده، فازدادتْ حماستهم وتضاعفت قوتهم، وتضاءَلت كثرة المشركين الذين بلغوا ألفاً في أَعْيُنِ المسلمين الذين لم يتجاوز عددهم ثلاثمئة

(1) سورة الأنفال آية / ٧٤/.

وبضعة عشر رجلاً، وراحَ المسلمون يكتسحونهم ويجْلونَهم عن أرض المعركة، وقذفَ الله في قلوب المشركين الرعب، فأخذوا يُوَلُّون الأدبار، وطفقَ المسلمون يقتلون فريقاً ويأسرون فريقاً، ويغنمون من المشركين؛ وكان سعد بن الربيع رضي الله عنه، يقاتل في هذه الغزوة قتالَ الأسود، وأبلى فيها بلاء حسناً، وتجاوزَ مقدار الشجاعة، حيث ظهر من شِدة بأسه ما أدهشَ الكفار، فلقد قتل أحد رؤوس المشركين وهو «رِفاعة بن أبي رِفاعة». ومع هذا كلِّه فقد كان سعد بن الربيع رضي الله عنه يؤثرُ الصمت والهدوء ويقاتلُ في سبيل الله، وكان رسول الله ﷺ يعرفُ عنه هذا ويكنُّ له كل الحب والتقدير.

* انتهت غزوة بدر بانتصار المسلمين، ولم يَغِبْ سعد بن الربيع عن أنْظار الرسول ﷺ، بل ظلَّ قريباً منه؛ شهد غدر يهود بني قينقاع ومجاهرتهم العداءَ للمسلمين، ثمّ شهد إجْلاءهم عن المدينة المنورة، وشهد المشاهد كلها حتى جاءتْ غزوة أحد، وزحفتْ قريش بثلاثة آلاف مقاتل يقودُها أبو سفيان، وخرج الرسول ﷺ بأصحابه الذين بلغ عددهم سبعمئة بعد أنْ انخذلَ عنهم «عبد الله بن أبي ابن سلول»، حتى وصل إلى جبل أُحُد، وهناك أخذ يَصُفُّ أصحابه ويعبئهم للقتال، فجعلَ ظهورهم إلى الجبل ليكونوا في حمايته، وجعل خمسين من الرماة على الجبل، وأمَّرَ عليهم «عبد الله بن جبير»، وأوصاهم أنْ يحمُوا ظهورَ المسلمين عند القتال، وأكَّدَ الوصية عليهم ألاَّ يغادروا مواضعهم مهما تكن النتيجة. ولما انتهى الرسول الكريم ﷺ من تعديل الصفوف وإعداد المواقع، خَطَبَ في الناس وأخذ يحثُّهم على الصبر ويحرِّضهم على القتال.

* بدأتِ المعركة، والتقى الجمعان، وانتصرَ المسلمون في بداية المعركة وسقط لواءُ المشركين على الأرض، وبدأ المشركون يولون الأدبار، في هذه الأثناء خُيِّلَ للرماة أنَّ المعركة انتهت، وأنَّ الهزيمة قد حاقتْ بالمشركين فقال بعضهم لبعض:

«ما بقاؤنـا هنـا وقـد هـزَمَ الله العـدو؟ هؤلاء إخوانـكُم يغنمون فادخـلوا فاغنموا مع إخوانكم».

ونزلَ بعضهم خلا أميرُهم «عبد الله بن جبير» وبضْعَة رجال معه، وجعلَ عبد الله يذكِّرهم وصيةَ رسول الله ﷺ، لكنَّهم اندفعوا إلى ساحةِ المعركة يجمعون الغنائم والأسلاب، فانكشفَ بذلك ظَهْرُ المسلمين مِمَّا جعلَ وجه المعركة يتَغيَّر، إذْ تسللَ المشركون بقيادة «خالد بن الوليد» إلى مكان الرُّماة واكتسحهم بمَنْ معه مِنَ الفرسان فتساقطوا جميعاً شهداء، ومزّقَ المغيرونَ أجسامهم ثمّ عَبَروهم إلى ظَهْرِ الجيش الذي شغلَتْهُ الغنائم والأسلاب، وأَعْملَ المشركون فيهم السيف، فاختلطتْ صفوفُ المسلمين، ثمّ تفرقوا في كل وجه وسقط بعضهم شهيداً في أرض المعركة، غير أنَّ فئةً من المسلمين التفُّوا حول الرسول ﷺ ووصلوا به إلى مكان آمنٍ في شِعْبٍ مِنْ جبل أُحُد، وقاتلوا المشركين بإيمان عميقٍ وفدائيةٍ عالية؛ إذْ جعلوا جبل أُحد وراءهم ليبقى ظَهْرهم مَحْمياً، واستطاعوا بهذه الخطة أنْ يخفّفُوا مِن وطأةِ الخطأ الذي وقعَ فيه الرُّماة عندما تركوا مواقعهم، ومِنْ ثمَّ تجمَّعَ المؤمنون حولَ الرسول ﷺ والرسول يناديهم:

«مَن رجلٌ يَـشْري نَـفْـسَـه[1]؟»

فيتواثبُ المؤمنون حول الرسول ويقاتلون دونَه وتبايعه فئةٌ منهم على الموت، وفي هذه اللحظات كان سعدُ بن الربيع رضي الله عنه يطاعنُ المشركين ويقاتلهم بكل ما أوتي من قوة وصبْرٍ، وهبتْ عليه رياح الجنة، فهانتْ عليه الحياة، ولذّتْ له الشهادة، واستعجل الموتَ في سبيلها، فاندفعَ في وسْط صفوف المشركين لا يبالي أوقعَ على الموت أم وقع الموتُ عليه، المهم أنّه باعَ نفسَه لله، لكنَّ رماحَ المشركين وسيوفهم لم تمهلْهُ، فنالتْ من

(١) أي: يبيع نفسه للموت في سبيل الله.

جسمه، ومن ثمّ خرَّ صريعاً على الأرض ولسان حاله قوله تعالى: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾[1].

* سقط سعد بن الربيع على الأرض، غير أنَّ نفسَه كانتْ تتوقُ لمعرفة أخبار الرسول ﷺ، إذْ أُشيعَ نبأً بأنَّ الرسول قد أصيب، ولم يكن سعد بن الربيع رضي الله عنه وهو في نَزْع الموت يبالي بجروحهِ ولا بطعنات الرماح القاتلة، بل كانت السعادة عنده أن يكون الرسول الكريم سليماً.

* انصرف المشركون عن أرض المعركة، وفرغَ الناس لقتْلاهم، ويسألُ الرسول ﷺ عن سعد بن الربيع ويقول:

«مَن رجلٌ ينظرُ لي ما فعلَ سعدُ بن الربيع؛ أفي الأحياء هو أم في الأموات؟» فقال رجلٌ من الأنصار:

أنا أنظرُ لك يا رسول الله ما فعل سعد، فنظر فوجده جريحاً في القتلى وبه رَمَق، قال: فقلتُ له: إنَّ رسول الله ﷺ أمرني أنْ أنظرَ أفي الأحياء أنتَ أمْ في الأموات؟

قال: أنا في الأموات، فأبْلغْ رسول الله ﷺ عني السلام وقل له: إنَّ سعدَ بن الربيع يقولُ لك: جزاكَ الله عنّا خيرَ ما جزى نبياً عن أمتهِ، وأبْلغْ قومَك عني السلام وقلْ لهم: إنَّ سعد بن الربيع يقول لكم: إنَّه لا عُذْرَ لكم عند الله إنْ خُلِصَ إلى نبيكم ﷺ ومنكم عين تطْرف[2]». ثمّ ما لبث سعدُ رضي الله عنه أنْ مات شهيداً متأثراً باثنتي عشرة طعنة نافذة، وصَعِدَتْ روحه إلى بارئها راضيةً مرضية بعد أنْ اطمأنَ على سلامة رسول الله ﷺ، فقد كان من ذوي النفوس العظيمة، نسي الألمَ والجراح والموت في وقْتٍ لا يستطيع أي إنسانٍ إلا أنْ يَنْشَغل بنفسه وألمه، ولكنَّ سعداً نسي نفسه وجراحه ولم ينسَ حبيبهُ المصطفى ﷺ، أعظِمْ به من موقف، وأعْظِمْ بها من نفسٍ صافية مضيئة:

---

(١) سورة طه آية / ٨٤/ .

(٢) الإصابة جزء / ٢/ ص٢٥، وانظر صفة الصفوة مجلد (١) ص٤٨١، والكامل في التاريخ مجلد / ٢/ ص١٦١.

وإذا كـانـتِ النفـوسُ كبـاراً   تَعبـتْ فـي مُـرادهـا الأجسـامُ

ولم يكنْ عبد الرحمن بن عوف ـ الذي آخى الرسول ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع ـ أقلَّ جهاداً مِن سعد، فقد جُرِحَ في هذه الغزوة إحدى وعشرين جراحة وجُرحَ في رجله وسقطت ثنيتاه، فكان كلاهما بطلاً في الجهاد والإنفاق ومضربَ المثل في المروءة والكرم.

* وأقبلَ المسلمون على موتاهم في ميدان أُحُد، وجيء بالشهداء وفي مقدمتهم «حمزة بن عبد المطلب» و«مصعب بن عمير» و«عبد الله بن جحش» و«سعد بن الربيع»، وصلّى الرسول عليه الصلاة والسلام عليهم، وأمرَ أنْ يُدْفَنَ القتلى حيث صُرعوا بعد أنْ ينزعَ عنهم الحديد والجلود وقال:

«نُـفُّوهم بدمائِهم وجراحِهم وانْظروا أكثَرهم جَمعاً للقرآنِ فاجْعلُوه أَمامَ أصحابهِ في القَبْر».

فكانوا يُدفنون بثيابهم ودمائهم دون أَنْ يغسلوا، وكانوا يُوضَعُون كل اثنين أو ثلاثة في القبْرِ الواحد لِمَا كانَ عليه الصحابة من الإعْياءِ والضَّعف يومئذ، وكان عدد الشهداء نحو سبعين، أربعة من المهاجرين وسائرهم من الأنصار، فدُفنَ سعد بن الربيع وخارجة بن زيد أخوه لأمه في قبر واحد[1]، وحمزة بن عبد المطلب وابن أخته عبد الله بن جحش في قبر واحد، وأَمَر الرسول ﷺ بدفْنِ اثنين كانا متصافيين في الدنيا بقبر واحد وهما: عبد الله بن عمرو بن حرام وعمرو بن الجموح[2] وقال:

«ادفُنوا هذين المُتَحابَّين في الدنيا في قَبْر واحد».

* ولما فرغَ رسول الله ﷺ مِنْ دفْنِ الشُّهداء، ركب فرسه، وتوجه نحو المدينة، ونظر إلى أصحابه مِنْ حوله وعامتهم جرحى، يتحاملون على أنفسهم مِما بهم مِنْ شدةِ التعبِ والجهد، ويتلاوَمون على ما كان منهم من خلاف لأَمْر رسول الله ﷺ، ويرجون أنْ يغفرَ الله لهم زلَّتهم هذه، فقد كان

---

(١) الاستيعاب مجلد / ٢/ ص٣٢، وانظر السيرة الحلبية جزء / ٢/ ص٥٤٠.
(٢) انظر الكامل في التاريخ مجلد / ٢/ ص١٦٣.

الحزنُ يُثْقِلُ نفوسَهم، والألم يملأ قلوبهم لِما أصابهم مِنْ هزيمة بعدَ نَصْر لانْبعاثهم وراءَ الدنيا وعَرَضِها الزائل، في الوقت الذي كانوا يقاتلون فيه لتكونَ كلمةُ الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى.

* وهناك في أُحُد، يثوي سعدُ بن الربيع شهيداً بعد أَنْ أدّى ما عليه من واجبات، ولم يكن له إلاَّ ابنتين[١]، ويروى أَنَّ امرأة سعد بن الربيع جاءت بابنتيها إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، هاتان ابنتا سعد بن الربيع، قُتِلَ أبوهما يوم أُحُد شهيداً وإنَّ عمَّهما أخذَ ما لهما فاستفاءَه فلم يدعْ لهما مالاً، والله لا تُنكحانِ إلاَّ ولهما مَالٌ... فقال رسول الله ﷺ:

«يقْضي الله في ذلك».

فأنزلَ الله عليه آيةَ الميراث فدعا عمَّهما فقال:

«أَعْطِ ابنتيّ سعد الثلثين وأعْطِ أُمَّهَما الثُّمن وما بقيَ فهوَ لك[٢]» وهذه مكرمةٌ لسعد بن الربيع فقد حُفِظَ حقُّ ابنتيه مِنْ بعده، وأُنزلتْ بذلك آيةٌ بسببهما.

ورُوي أيضاً أَنَّ ابنة سعد بن الربيع اعترضت النبي ﷺ فقال لها: «مَنْ أنتِ؟» فقالت: ابنةُ الخطيب النقيبِ الشهيد سعد بن الربيع[٣] ورَوى ابن هشام في السيرة أَنَّ رجلاً دخلَ على أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وبنتٌ لسعد بن الربيع جارية صغيرة على صدره يقبِّلها، فقال له الرجل: مَنْ هذه؟ قال: هذه بنتُ رجل خير مني، سعد بن الربيع كان من النُّقباء يوم العقبة وشهدَ بدراً واستُشهدَ يوم أُحُد[٤].

ويروي صاحب كتاب الإصابة: عن أمّ سعد بنت سعد بن الربيع أنَّها

---

(١) الاستيعاب مجلد / ٢/ ص٣٢، وانظر السيرة الحلبية جزء / ٢/ ص٥٣٢.
(٢) سير أعلام النبلاء مجلد (١) ص٣١٩ وانظر تهذيب الأسماء واللغات جزء (١) ص٢١١ والحديث رواه الترمذي.
(٣) البيان والتبيين ص١٩٠ / دار صعب/ .
(٤) سيرة ابن هشام مجلد / ٢/ ص٩٥.

دخلت على أبي بكر الصديق، فألقى لها ثوبه حتى جلستْ عليه، فدخل عمر فسأله فقال: هذه ابنة مَنْ هو خير مني ومنْك، قال: ومنْ هو يا خليفة رسول الله ﷺ؟ قال: رجلٌ قُبِضَ على عَهْدِ رسول الله ﷺ تبَوَّأَ مقعَدَهُ من الجنة وبقيتُ أنا وأنتَ[1]».

أرأيت شبْهَ هذه الشهادة العظيمة؟ وممَّنْ؟ إنَّها مِنْ رجل كالغيثِ أينما حلَّ نَفَعَ، إنَّه الصديقُ أبو بكر، شهادة عالية في سعد بن الربيع رضي الله عنه وأرضاه، فهنيئاً له بهذه الشهادة.

بشــارة سعــد بــن الربيــع وشهــداء أُحُــد:

* كانَ سعد بن الربيع عقبيٌّ بدريٌّ نقيب[2]، وقال رسول الله ﷺ يتحدثُ عن سعد بن الربيع رضي الله عنه:

«رأيتُ سعداً يومَ أُحُدٍ وقدْ شَرَعَ فيه اثنا عشرَ سنَاناً»[3].

وهذا دليلٌ على شجاعة سعدٍ رضي الله عنه، وقد شهدَ له رسول الله ﷺ بالجنة ودعا له بالرحمة وذلك عندما جاء الأنصاري الذي أرسله عليه الصلاة والسلام ليتفقد سعد بن الربيع وأخبرَ الرسول بمقَالةِ سعد، فقال الرسول ﷺ:

«رحمهُ الله، نصحَ لله ولِرسوله حياً وميّتَـاً»[4].

* كما شهد رسول الله ﷺ لشهداءِ أُحُدِ بالجنة فقال: «أنا شهيدٌ على هؤلاء، إنَّه مَا مِنْ جريحٍ يُجرَحُ في الله إلا ويبعثه الله يومَ القيامة يَدمى جرحُه، اللونُ لونُ دمٍ والريحُ ريحُ مِسْك».

وهذه شهادةٌ أخرى بالجنة لشهداءِ أُحُدِ: لمَّا عاد الرسول ﷺ مِنْ أُحد ووصلَ المدينة وجد النِّساء عند بابها يبكينَ قتلاهن، فلما رأينَه مقبلاً أكبرنهُ

---

(١) الإصابة مجلد / ٢/ ص٢٥، وانظر السيرة الحلبية جزء / ٢/ ص٥٣٣.
(٢) تهذيب الأسماء واللغات جزء ١ ص٢١٠ والاستيعاب مجلد ٢ ص٣١.
(٣) طبقات ابن سعد مجلد ٣ ص٥٢٣.
(٤) تهذيب الأسماء واللغات جزء ١ ص٢١١ وانظر السيرة الحلبية جزء ٢ ص٥٣٢.

ونسِينَ ما هنَّ فيه مِنَ الحزن، وأسرعن إليه ينظرن إلى سلامتهِ، فلما رأينهُ سالماً هانتْ عليهن المصيبة وقالت له أم عامر الأشهلية: «كلُ مصيبةٍ بعدك جَلَل[1]».

وهذه أمُّ سعد بن معاذ جاءت تسعى نحو الرسول وتتأمله، حتى إذا رأته واطمأنت على سلامته قالت: أَما إذْ رأيتك سالماً فقد أشوت[2] المصيبةُ؛ فعزَّاها رسول الله بابنها عمرو بن معاذ ثم قال: «يا أم سعد أبشري وبشّري أهليهم أنَّ قتلاهم ترافقوا في الجنة جميعاً».

قالت: رضيْنا برسول الله، ومَنْ يبكي عليهم بعد هذا!! ثم طلبت مِنَ الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام أنْ يدعو لآلِ الشهداء فقالت: «ادعُ يا رسول الله لِمَنْ خلّفوا» قال ﷺ:

«اللهم أذهبْ عنهم حزنَ قلوبهم واجبرْ مصيبتَهم وأَحْسِنِ الخلفَ على مَنْ خَلَّفوا».

* وهكذا نالَ شهداء أُحُد دعوة الرسول ﷺ بالمغفرة من الله، ونالوا بشارتَه بالجنة، وحسْبُ الشهداء ما أعدَّ الله لهم عنده من حُسْنِ الثواب والمغفرة ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[3].. ويأتي بعدَ هذا كلهِ جزاء الشهداء، الذين لم يموتوا كما أخبر الله بذلك، فهم أحياءٌ عند ربهم يرزقون ويتمنونَ لشدة ما وجدوا من طِيْبِ الحياة هناك، أنْ يعودوا إلى الدنيا ليُقْتلوا في سبيل الله مرة أخرى، فقد روى الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

قال رسول الله ﷺ:

«لما أُصيبَ إخوانكم يوم أُحُدِ جَعلَ الله أرْواحهم في أجواف طير خضر تَرِدُ أنهارِ الجنة وتأكل مِنْ ثمارها وتأوي إلى قناديلَ مِنْ الذَّهبِ في ظلِّ العرش،

---

(١) جلل: أي هينة سهلة.

(٢) أي: هانت.

(٣) سورة آل عمران آية ١٥٧.

فلمّا وجدوا طيبَ مأْكلهم ومشربهم وحُسن مَقِيلهم قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنعَ الله بنا لئلا يُوهنوا في الجهاد ولا ينكِلُوا عن الحرب، فقال الله تعالى: أنا أبلّغهم عنكم فأنزلَ الله هذه الآيات: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(١).

* ويقولُ الإمام القُرطبي: «أَخْبر الله فيها عنِ الشهداء أنَّهم أحياء في الجنة يُرزقونَ ولا محالة أنّهم ماتوا، وأنَّ أجسادَهُم في التراب وأرواحهم حيةً كأرواح سائر المؤمنين فُضّلوا بالرزقِ في الجنة مِنْ وقتِ القتل حتى كأن حياة الدنيا دائمة لهم»(٢).

ويحدثنا رسول الله ﷺ عن شهداء أُحُد والشهداء عامة في الجنة يقول:

«الشهداءُ على بَارِقِ نهرٍ بباب الجنة في قُبةٍ خضراء يخرج عليهم رزقُهم مِنَ الجنة بكرةً وعشياً»(٣).

* تركتْ غزوة أُحُد أثراً واضحاً في نفس النبي ﷺ فعند جَبَلِ أُحُد يثوي أعزُّ الناس على قلبه عليه الصلاة والسلام من مهاجرين وأنصار، وكانَ دائماً يذكر سِيَرَ أولئك الشهداء ومصيرهم يقول:

«أُحُدٌ جبلٌ يحبُّنا ونحبه» رواه البخاري.

وظلَّ ﷺ يتعهدُ شهداء أُحُد بالزيارة إلى آخر حياته ويدعو اللهَ لهم، وقد رُوي أنَّ الرسول ﷺ قد صلى عليهم قُبيل وفاته كما رَوى ذلك البخاري، عن عُقبةَ بن عامر قال:

«صلى رسول الله ﷺ على قتلى أُحُد بعْدَ ثماني سنين كالمُودِّع للأحياء والأموات ثم طلعَ المنبر فقال:

---

(١) سورة آل عمران آية / ١٦٩_ ١٧٠/ .

(٢) تفسير القرطبي جزء / ٤/ ص٢٦٨.

(٣) سيرة ابن هشام مجلد ٢ ص١١٩.

إني بين أيديكم فرط وأنا عليكم شهيدٌ، وإنَّ موعدَكم الحوضُ، وإنّي لأنظرُ إليه مِنْ مقامي هذا، وإنّي لستُ أخْشَى عليكم أنْ تشركوا، ولكنْ أخشى عليكم الدنيا أنْ تنافَسوها،

قال عقبةُ: فكانت آخر نظرة نظرتُها إلى رسول الله ﷺ»[1].

* كان أبو بكر الصّديق رضي الله عنه يزورُ شهداء أحد اقتداءً برسول الله ﷺ، وكذلك عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضي الله عنهما، وبقية الصحابة رضوان الله عليهم، لِما يعرفون مِنْ مكانة هؤلاء الشهداء عند الله وعند رسوله.

* رضي الله عن سعد بن الربيع فقد كانت كلماتهُ الأخيرة وهو يجودُ بنفسه مثلاً للمؤمن الصادق الذي رغبَ في الآخرة فها هو يقول لبعض الصحابة عندما قال له: «أمَا علمتَ أنَّ محمداً قد قُتِلَ؟» فأجابه سعد بن الربيع رضي الله عنه:

«أشهدُ أنَّ محمداً قَدْ بلّغَ رسالةَ ربِّهِ، فقاتِلْ عن دينِكَ فإنَّ اللهَ حيٌّ لا يموتُ».

* كانت نفسُ سعد بن الربيع رضي الله عنه كبيرةً، لم تَخْلُدْ إلى الصَّغائِر ودنايا الأمور، بل طمحتْ إلى عظائم الفضائل، فَنَالَ الحياة التي لا تفنى «الشهادة» وترك الصحابة رضوان الله عليهم آثاراً لن تزولَ، وستبقى تلك الآثار مضيئة على مرِّ الأيام، فهنيئاً لسعد بن الربيع فقد كان من الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه وانضوى تحت قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

* * *

---

(١) انظر البداية والنهاية جزء ٤ ص٤١.




سيدنا

سعد بن معاذ

رضي الله عنه

* قال ﷺ:
* «اللهم إن سعداً قد جاهد في سبيلك، وصدّق رسولك، وقضى الذي عليه، فتقبّل روحه بخير ما تقبّلت به روحاً».
* «جزاك الله خيراً من سيد قوم، فقد أنجزت الله ما وعَدته، ولينجزك الله ما وعدك».




مقدمة:

* بدأَ نورُ الإسلام يشرقُ في مكة، ويلامسُ بعض القلوب الكبيرة، التي سرى بداخلها، فسارت على طريقِ الهُدى، وتمسّكتْ بالفضائل، غير أنَّ غالبية قريش لم تؤمن بما يدعو إليه «محمد بن عبد الله»، ولم يحفلْ زعماؤُها بادىء الأمرِ بالدعوة، لكنَّ رسالةَ الإسلام مضت قُدُماً تشقُّ طريقها، وإنْ كانَ ذلك في بُطءٍ وصعوبة بالغة، وبدأ النبيُّ ﷺ يدعو إلى الإسلام بالتي هي أحسن، ثم أخذ يُبيِّنُ حقارةَ الأصنام، بَيْدَ أنَّ هذه الدعوة لم تُعجب قريشاً، وبدأت بدورها تذيق النبيَّ والمؤمنين الأذى، والتعذيب، والاضطهاد، وتواصت البطونُ القرشية فيما بينها بتعذيب من أَسْلَمَ منها؛ وألحّتْ بالتعذيب على العبيد والمستضعفين، وطفقت تُقيمُ دعايةً قويةً ضد دعوة الرسول وتتّهمه بالسحر والافتراء والجنون، وتصدُّ كلَّ قادم إلى مكة عن الرسول محمد الذي يملكُ مِنْ سحر البيانِ ما يفرِّقُ به بينَ المرءِ وزوجه، والأخ وأخيه، لكنَّ هذه الدعاية لم تكن لتستطيعَ أنْ تغطي على الحق، وأن تحجرَ على عقول الناس، ولا على قلوبهم، بالرغم من الممارسات التي لجأتْ إليها قريش، ويأبى الله إلا أنْ يتمَّ نوره ولو كرهَ المشركون.

* ولما وجدَ النبي ﷺ صعوبة الدعوة في مكة، أخذ يعرضُ الإسلام على رؤوسِ القبائل في موسم الحج؛ وقدمَ إلى مكة في موسم الحج نفرٌ من أهل «يثرب» من الخزرج عددهُمُ ستة رجال، فلقيَهُم النبي ﷺ وعرضَ عليهم الإسلام على حين غفلةٍ من قريش، فاستجابوا له، وقد كان عربُ يثرب هؤلاء يساكنونَ اليهودَ، واليهودُ أهل كتاب، وكانوا يعيِّرون العربَ وثنيتهُم، ويهددونهم بقربِ ظهور نبي قد أطلَّ زمانُه يتّبعونه فيقتلونهم معه قتْل عادٍ وإرَم. ولمّا دعا النبي هؤلاء النّفرَ مِنَ الخزرج قال بعضُهم لبعض: «يا قوم، تعلموا واللهِ إنَّه للنبي الذي توعدكم به يهود فلا تَسبِقَنّكُم إليه، فأجابوه فيما دعاهم إليه».

* أطلعَ الخزرجيون النبي على حالةِ بلدهم، ووعدوه بالدعوة إلى الإسلام

في يثرب، وبشروهُ بالفوزِ قائلين له: «إنَّا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشَّر مابينهم وعسى أنْ يجمعهم الله بك، فسنقومُ عليهم فندعوهُم إلى أمرك ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإنْ يجمعهم الله عليهِ فلا رجل أعزَّ منك».

* كانتِ الاستجابةُ سريعةً في يثرب، حتى لم تبقَ دارٌ من دورها إلاّ وفيها ذكرُ الرسول ﷺ، ولم يكدِ العامُ ينصرم حتى وافى موسمَ الحج اثنا عشر رجلاً، لم يكونوا كلُّهم مِنَ الخزرج، بل كان منهم ثلاثة من الأوس، فعقدَ لهم الرسول ﷺ بيعةً عُرفتْ ببيعةِ العقبة الأولى، وقد سُميتْ هذه البيعةُ فيما بعد «بيعة النساء» لأنَّ النبي بايعَ نساء قريش حين أسلمْنَ بعد فتح مكة على نفس شروطِ بيعة العقبة الأولى، وقد وردتْ صِيغةُ هذه الشروط في القرآن الكريم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

* لما عادَ اليثربيون إلى بلدهم أرسلَ النبيُّ أحدَ أصحابه مِنَ السابقين إلى الإسلام وهو «مصعب بن عمير» وأمرهُ أنْ يعلِّمهم الإسلامَ ويفقِّهَهم في الدين، ويُقرِئَهم القرآنَ، فكان يُسمى مصعبٌ بالمدينة «المقرىء»[2]، وأثبتَ مصعب رضي الله عنه أنه جديرٌ باختيار النبي ـ ﷺ ـ له لهذه المُهمة، فكان الداعي اللَّبِق الفَطِن، يدعو إلى سبيلِ الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ويأخذ الأمر بالصبرِ والرفق والحلم، وبمثلِ هذه الخصالِ الحميدة استطاعَ مصعب بن عمير أنْ ينشر الإسلام في يثرب، وأنْ يكسبَ إلى جانبه أكبر زعيمين في قبيلةِ الأوس وهما: «سعد بن معاذ»، بطل ترجمتنا هذه، «وأُسيد بن حُضير»، اللذان كانا بعد ذلك مِنْ أشدِّ أنصار النبي إخلاصاً وتفَانياً، فكيف أسلم سيد الأوسِ سعد بن معاذ؛ ومَنْ هو سعدٌ هذا؟

---

(١) سورة الممتحنة آية / ١٢/ .

(٢) البداية والنهاية جزء / ٣/ ص١٥١ .

مصعب بن عمير وإسلام سعد:

* عرفتْ دروب المدينة فتى الأوس، وفارسها الشجاع سعد بن معاذ المُكنى «أبو عمرو» فأبوهُ معاذ بن النعمان وأمهُ «كبشة بنت رافع»، وكانت من النساء اللائي بايعنَ رسول الله ﷺ، أمّا زوجةُ سعد فهي «هندُ بنت سماك» وكانت عمة أُسيد بن حضير.

* كان سعدٌ وأُسيد صديقين لا يفترقان، يبثُّ كل واحدٍ منهما للآخر ما يُفرحه وما يُحزنهُ، وكان كلاهما من الفرسان الشجعان، وكانت لهما جلساتٌ تحتَ ظلال نخيلِ المدينة، يتدبران شؤون قومهما الأوس.

* وفي إحدى الجلسات الجميلة هذه، جاءَهما «كَعب بن الحرث» بنبأٍ عن رجلٍ يُدعى «مصعب بن عمير» جاء من مكة، ونزل ضيفاً على أسْعد بن زرارة[1] وهو يدعو إلى الإسلام، وإلى الإيمانِ بنبوةِ محمد بن عبد الله، وتابع كعبُ بن الحرث حديثه قائلاً لهما: وقد تركت أسعد بن زرارة ومصعب بن عمير عند حائطٍ من حوائط بني ظَفَر بقرب «بئر مَرقَ» ومعهما بعضُ الرجال ممّنْ أسلموا، وهما قريبان من موضعكما هذا.

* ولما سمعا ما قالهُ كعب؛ قال سعدُ بن معاذ لأُسيد بن حضير: لا أبالك، انطلقْ إلى هذين الرجلين اللذين قد أتَيا دارَيْنا ليُسَفِّها ضعفاءنا فازجرهما وانههُما أنْ يأتيا دارَيْنا فإنَّه لولا أسعدُ بن زرارة مني حيث قد علمتَ كفيتُكَ ذلك، هو ابن خالتي ولا أجدُ عليه مقدماً؛ فأخذَ أسيد بن حضير حربته ثم أقبل إليهما، فلمّا رآه أسعدُ بن زرارة قال لمصعب:

هذا سيدُ قومه وقد جاءَك، فاصدقِ اللهَ فيه.

قال مصعب: إنْ يجلسْ أكلِّمْهُ.

فوقف عليهما متشمتاً فقال:

---

(١) نزل مصعب بن عمير على أسعد بن زرارة وكان أسعد ابن خالة سعد بن معاذ، رضي الله عنهما.

«ما جاء بكما إلينا تُسَفِّهان ضعفاءَنا؟ اعتزلانا إنْ كانت لكما بأنفسكما حاجة. .» فقال له مصعب:

«أوَ تجلس فتسمع فإنْ رضيتَ أمراً قبلته، وإن كرهته كفَّ عنك ما تكره» قال: أنصفتَ. ثم ركزَ حربته وجلس إليهما، فكلمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن، فقالا: «والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتَسهُّلِه، ثم قال: ما أحسن هذا وأجملهُ! كيف تصنعون إذا أردتم أنْ تدخلوا في هذا الدين؟ قالا له: تغتسل فتتطهرْ، وتطهر ثوبك ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلي؛ فقام فاغتسلَ وتشهد شهادة الحق، ثم قامَ فركع ركعتين، ثم قال لهما: إنَّ ورائي رجلاً إن اتبعكُما لمْ يتخلّفْ عنه أحدٌ من قومه، وسأرسله إليكما الآن وهو سعد بن معاذ؛ ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوسٌ في ناديهم، فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلاً قال: أحلفُ بالله لقد جاءكم أُسيدُ بغير الوجه الذي ذهبَ به من عندكم، فلما وقفَ على النّادي قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلمتُ الرجلين فوالله ما رأيتُ بهما بأساً، وقد نهيتُهما فقالا نفعلُ ما أحببتَ؛ وقد حُدِّثْتُ أنَّ بني حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه وذلك أنَّهم عرفوا أنَّه ابن خالتك ليحقروكَ، فقام سعد بن معاذ مغضباً مبادراً مُخوفاً للذي ذُكِرَ له مِنْ بني حارثة، وأخذَ الحربة في يده ثم قال: والله ما أراكَ أغنيتَ شيئاً؛ ثم خرج إليهما، فلما رآهما مطمئنَّين عرفَ أنَّ أسيداً إنَّما أرادَ أنْ يسمعَ منهما، فوقف متشتِّماً ثم لأسعد بن زرارة: يا أبا أمامة واللهِ لولا مابيني وبينك من القرابة ما رمتَ مني هذا، أتغشانا في دارنا بما نكره؟! وقد قال أسعد لمصعب: جاءك والله سيدٌ من ورائه قومُه، إنْ يتبعْك لا يتخلفُ عنك منهم اثنان، فقال له مصعب: أوَ تقعد فتسمع فإنْ رضيتَ أمراً رغبتَ فيه قبلتَه، وإنْ كرهتَه عزلنا عنك ما تكره! قال سعد: أنصفتَ؛ ثم ركزَ الحربةَ، وجلس فعرض عليه الإسلامَ وقرأ عليه القرآن من أولِ سورة الزُّخْرف، قالا: فعرفْنَا في وجهه الإسلام قبل أنْ يتكلم في إشراقه وتسهُّله ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتُم ودخلتم في هذا الدين؟ قالا: تغتسلْ وتتطهر وتشهد شهادة الحق، فقامَ فاغتسل وشهد شهادَة الحق،

ثم ركع ركعتين، ثم أخذ حربته فأقبل عائداً إلى نادي قومه ومعه أُسيد بن حضير، فلما رآه قومه مقبلاً قالوا: نحلفُ بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلمّا وقفَ عليهم قال: يا بني عبد الأشهل كيفَ تعلمونَ أمري فيكم؟ قالوا: سيِّدُنا وأفضلُنا رأياً وأَيمننا نقيبةً؛ قال: فإنَّ كلام رجالكم ونسائِكم عليَّ حرامٌ حتى تؤمنوا باللهِ ورسولهِ، فما أمسى في دارِ بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلمٌ ومسلمةٌ»[١].

* ورجع مصعبٌ وسعدٌ إلى منزل أسعد بن زرارة، فأقاما عنده يدعوان الناسِ إلى الإسلام، حتى لم تبقَ دارٌ من دور الأنصار إلاّ وفيها رجالٌ ونساء مسلمون؛ ثم ما لبثَ أنْ انتقل مصعبُ بن عمير إلى بيتِ سعد بن معاذ سيد الأوس حيث إنَّ أسرتَه أسلمتْ كلَّها؛ وكان عُمْرُ سعد يوم أسْلمَ ثلاثين عاماً، وكان إسلامه بركةً على قبيلته التي أسلمت بإسلامه، فقومهُ يعرفون أنَّ سعداً وافرَ العقل، سديدَ الرأي، وكان إسلامُه في السنةِ الحادية عشرة من البعثة. ثم ما لبث سعد بن معاذ وأسيد بن حضير أنْ ذهبا إلى أصنامِ قومهما بني عبد الأشهل فجعلاها جذَاذاً كأنْ لم تكنْ بالأمس[٢]، وحدث في الوقت نَفْسه أنَّ معاذ بن جبل وثعلبة بن عنمة وعبد الله بن أُنَيس قد حطَّموا أصنامَ الخزرجيين من بني سلمة أيضاً[٣]، حتى إنَّ معاذ بن عمرو بن الجموح عبثَ مراراً بصنمِ والده عمرو بن الجموح إلى أنْ هدى الله والده إلى الإسلام وهجَا صنمه الذي كان يعبده[٤].

* وفي موسم الحج التالي، عاد مصعب بن عمير إلى مكة، وخرجَ معه مَنْ خرج من الأنصار، وبايعوا رسولَ الله ﷺ بيعةَ العقبة الثانية، وكان عددهم «ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين» فاختارَ الرسول عليه الصلاة والسلام منهم اثني عشر نقيباً، ورجعَ الأنصار إلى المدينة، وكانت قريش قد بلغَها خبر البيعة،

---

(١) البداية والنهاية جزء /٣/ ص١٥٢ ـ ١٥٣.
(٢) طبقات ابن سعد جزء ٣ ص٤٢١.
(٣) المصدر السابق جزء ٣ ص٥٨٣.
(٤) البداية والنهاية جزء ٣ ص١٦٦.

فخرجت في طلبهم، فأدركوا سعد بن عبادة، فأخذوه وأقبلوا به حتى دخلوا مكة وهم يضربونه حتى قدِمَ «جُبير بن مُطْعِم» و«الحارث بن حرب» فخلَّصاهُ من الضرب، لأنه كان يجيرُ لهم تجارتهم في بلده؛ ثم ما لبث الأنصار أن أظهروا إسلامهم في المدينة، وترامى إلى سَمْعِ قريش إسلامُ هؤلاء اليثربيين، وخافوا أنْ يسلم أسيادهم مثل: سعد بن معاذ وأُسيد بن حضير وغيرهم؛ وذات يوم سمعت قريش قائلاً يقول في الليل على جبل أبي قُبَيس بمكة:

فإنْ يُسلمِ السَّعدانِ يُصبحْ محمدٌ بمكةَ لا يَخْشى خِلافَ المُخالفِ

فلما أصبحوا قال أبو سفيان: مَنِ السعدانِ؟ أسَعدُ بن بكر أم سعدُ بن هزيم؟ فلما كانت الليلة الثانية سمعوا قائلاً يقول:

أيا سعدُ سعدَ الأوسِ كُنْ أنتَ ناصراً
ويا سعدُ سعد الخزرجيين الغَطارِفِ

أجيبَا إلى داعي الهُدى وتمنَّيا
على اللهِ في الفردوس منيةَ عارفِ

فإنَّ ثوابَ اللهِ للطّالبِ الهُدى
جنانٌ من الفردوس ذاتُ رفارفِ

فلما أصبحوا قال أبو سفيان: هو والله سعدُ بن معاذ وسعدُ بن عبادة[1].

* ولما تحققتْ قريش من إسلام أهلِ يثرب زادتْ من اضطهادها للمسلمين وتعذيبهم، فلمّا اشتدَ الأمرُ على المسلمين في مكة، أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها واللحوق بإخوانهم الأنصار وقال: «إنَّ الله قد جعلَ لكم إخواناً وداراً تأمنون بها»[2] فخرجوا إليها أرْسالاً؛ وأقام رسول الله ﷺ في مكة ينتظرُ أنْ يأذنَ له ربُّه بالهجرة.

---

(١) البداية والنهاية جزء ٣ ص١٦٥. هذه الرواية إنما تدل على مكانة سعد بن معاذ وسعد بن عبادة في قومهما وعند العرب، وانظر أيضاً سير أعلام النبلاء ص٢٨١ مجلد ١.

(٢) البداية والنهاية جزء ٣ ص١٦٩.

سعـد بـن معــاذ بعـد الهجــرة:

* أَذِنَ الله لرسوله بالهجرة إلى المدينة، فسار الرسول عليه الصلاة والسلام مصطحباً أبا بكر الصديق معه في هجرته، واستقبله الأنصار استقبالاً جميلاً وهم ينشدون:

طلـــعَ البــــدرُ علينـــا مـــن ثنيّـــات الـــودَاعِ

وجـــبَ الشكـــرُ علينـــا مـــا دعــــا لله داعِ

وبعد أن استقرَّ الرسول ﷺ في المدينة، آخى بين المهاجرين والأنصار وقال «تآخَوا في الله أخوَين أخوَين» فكان مِمَن تآخوا: أبو بكر الصديق مع خَارجة بن زهير، ومصعبُ بن عمير مع أبي أيوب الأنصاري، وكان مِن نصيب سعد بن معاذ في المؤاخاة أمين الأمة «أبو عبيدة بن الجراح». وسُرَّ المسلمونَ بهذه المؤاخاة التي وحّدتْ قلوبَهم، وزرعتْ الألفةَ فيما بينهم. ثمّ وَادَعَ رسول الله ﷺ يهودَ المدينة، ليكونَ أهلُ المدينة جميعاً قوةً متماسكةً تستطيع الوقوفَ أمام قريش أو غيرها.

* بدأت سرايا الرسول تنطلق من المدينة، ولم يطلبِ الرسول ﷺ من الأنصار الِاشتراكَ في السّرايا الأولى قبل غزوة بَدْر وكان عددُها ثمانية، وذلك حسب الاتفاقِ بينه وبينهم، إلى أنْ جاءت الحوادث فأدَّتْ بطبيعتها إلى اشتراكِ الأنصار في الوقوف بوجه قريش، ذلك أنَّ قريشاً تحدَّتْ أهلَ المدينة ومنعتهم مِنْ زيارة الكعبة والدخولِ في مكةِ، وكانَ سعد بن معاذ رضي الله عنه صديقاً لأحدِ ساداتِ مكة وهو «أميّة بن خلف»، وكان أميةُ ينزل على سعد عند مرورهِ بالمدينـة كما كان سعـدٌ ينزل عليه إذا ذهب إلى مكـة؛ فلمّـا قـدم رسول الله ﷺ المدينة انطلق سعد بن معاذ معتمراً فنزلَ على أمية بن خلف بمكةَ، وقال سعد له: انظرْ لي ساعة خلوة لعلي أطوف بالبيت، فخرج به قريباً من نصف النهار، فلقيهما أبو جهل فقال لسعد: أما واللهِ لولا جوارُ أمية ما رجعْتَ إلى أهلِك سالماً. فقال له سعد ورفع صوتَه عليه: أمَا واللهِ لئن منعتني

هذا لأمنعنَّكَ ما هو أشدُّ عليك منه؛ طريقَك على المدينة[1]».

وهكذا فقد أدى تحدي قريش لأهل المدينة إلى أنْ يقفوا مع المهاجرين في منْعِ تجارة قريش إذا ما مَرَّتْ مِنْ حدود بلدهم.

سعد في غزوة بدر:

* سمع الرسول ﷺ أنَّ إحدى قوافل قريش بقيادة أبي سفيان بن حرب، قد خرجتْ في تجارة كبيرة لقريش إلى الشام، فسار الرسولُ مع مئتي راكب للتَّعرضِ لها، لكنَّه لم يدركْها فعاد إلى المدينة، وكان قد أبقى «سعيد بن زيد وطلحة بن عبيد الله» رضي الله عنهما يرصدانِ القافلة حتى تعودَ، ولمّا علما خبر عودتها، أخبَرا الرسول ﷺ، عندها دعا رسول الله المسلمين للخروج إلى القافلة وقال: «هذه عِيرُ قريش فيها أمْوالهُم فاخْرجُوا إليها لَعَلَّ الله يُنْفِلْكُمُوها[2]». ولم يكنْ نداء الرسولِ أمراً مُلزماً بل كان نَدْباً، ولم يكنْ أحد يتوقع أنْ سيكونُ هناك لقاءٌ حاسمٌ؛ فخرج بعض المسلمين بقيادة الرسول ﷺ لمهاجمةِ القافلةِ، وتخلّفَ بعضُهم الآخر، وكان عدد الذين خرجوا مع الرسول ثلاثمئة وأربعة عشر رجلاً، واعتقدَ المسلمون أنَّ الخروج للقافلة فقط، لذلكَ لم يأخذوا أهبتَهُم الكاملة من السِّلاح والتأهبِ؛ وسمع أبو سفيان بنبأ تحركِ المسلمين، فاستطاع أنْ يفلتَ مِنْ قبضتهم بإسراعهِ وتغييرهِ الطريقَ، ولما اطمأنَّ على سلامةِ قافلته، كانت قريش قد جاءتْ بقوتها وفرسانها للدفاع عن تجارتها، وتأديب المسلمين؛ وأتى الرسول ﷺ خبر مجيء قريش، وعلى رأسها عددٌ من قادة قريش فيهم: عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل بن هشام وأمية بن خلف وغيرهم، وأقبل الرسول على أصحابه وقال: «هذه مكةُ أَلْقَتْ إليكم أفْلاذَ كَبدهَا» وعند ذلك استشار الرسول أصحابَه وأخبرهم عمّا وَرَدَهُ مِنْ أنباء عن قدوم قريش، فقام أبو بكر الصديق فقالَ وأحسن، وقام عمر بن الخطاب فقال وأحسن، ثمّ قام المقداد بن عمرو

---

(١) البداية والنهاية جزء ٣ ص٢٥٨ ويقصد سعد بن معاذ منع تجارته إلى الشام.

(٢) تاريخ الطبري جزء ٢ ص٤٢١ وما بعدها. وانظر مغازي الواقدي جزء (١) ص٢٠.

فقال: «يا رسول الله امضِ لما أراكَ اللهُ فنحن معك، واللهِ لا نقولُ لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى «اذهبْ أنتَ وربكَ فقاتلا إنَّا هاهنا قاعدون» ولكنْ اذهبْ أنتَ وربُّك فقاتلا إنَّا معكما مقاتلون، فوالذي بعثَك بالحق لو سرتَ بنا إلى (بَرْك الغماد[1]) لجالَدْنا معك مِنْ دونه حتى تبلغَه». فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له.

* عَبّرَ المهاجرون عن رغبتهم في قتال قريش، بيْدَ أنَّ رسول الله ﷺ، لم يكْتفِ برأيِ المهاجرين، ورأى أنْ يأخذَ رأيَ الأنصار، لأنهم في بيعتهم له عند العقبةِ لم يلتزموا بقتالٍ خارج بلدهم؛ وظلَّ النبيُّ ﷺ ينظرُ إلى القوم ويقول لهم: «أشيروا عليَّ أيها الناس» وهنا برزَ سعدُ بن معاذ رضي الله عنه ليلقي مقالتهُ التي طَمْأَنتْ رسول الله ﷺ فقال له: والله لكأنكَ تريدُنَا يا رسولَ الله، قال: «أجلْ» فقال سعد: قد آمنّا بكَ وصدقْناك، وشهدْنا أنَّما جئتَ به هوَ الحق، وأعطيناكَ على ذلك عهودَنا ومواثيقنا على السَّمع والطاعةِ لكَ، فامْضِ يا رسول الله لما أردتَ فنحنُ معك، ما تخلَّفَ منَّا رجلٌ واحد، وما نكرهُ أنْ تلقى بنا عدونا غداً، إنَّا لَصُبرٌ في الحرب، صُدُقٌ عند اللقاء، لعلَّ الله يريكَ منَّا ما تَقَرُّ به عينُك، فَسِرْ على بركةِ الله» فَسُرَّ رسولُ الله ﷺ بقول سعد ونشَّطَهُ ثمّ قال: «سيرُوا وأبْشروا فإنَّ اللهَ قد وعدني إحدى الطائفتين، واللهِ لكأني الآنَ أنْظرُ إلى مصارعِ القَوْم[2]».

* ثمّ سارَ النبي ﷺ بأصحابه حتى جاء أدنى ماء بدر فاقْترحَ عليه «الحبابُ بن المنذر» أن يُغيّرَ مكانَ الجيش، ويبني المسلمون حوضاً، فيشربونَ منه ويمنعونَ منه المشركين، فأمرَ النبيُّ بتنفيذِ خطته.

* ومرةً ثانيةً، وقفَ سعدُ بن معاذ رضي الله عنه قبلَ المعركة مُظهراً طاعته للرسول وخوفه عليه أيضاً، وتقدمَ مِنَ الرسول ﷺ وقال: يا نبي الله، ألا نبني لك عريشاً تكون فيه، ونعدُّ عندك ركائبنا ثمّ نلقى عدوَّنا، فإن أعزَّنا الله

---

(١) موضع في بلاد اليمن.

(٢) البداية والنهاية جزء ٣ ص٢٦٢.

وأظهرنا على عدوِّنا كان ذلك ما أحببْنَا، وإنْ كانت الأُخرى، جلستَ على ركائبك فلحقتَ بِمَنْ وراءَنا مِنْ قومنا فقد تخلّفَ عنك أقوامٌ ما نحنُ بأشدَّ حباً لك منهم، ولو ظنوا أنَّك تلقى حرباً ما تخلّفوا عنك، يمنعُك الله بهم، يناصحونك ويجاهدون معك. فأثنى عليه رسولُ الله ﷺ ودعا له بخير[١].

* أخذَ الرسولُ عليه الصلاة والسلام يُطَمْئِنُ أصحابه بتأييد الله ونصره، حتى إنَّه كانَ يقول: «هذا مَصْرَعُ فلان ومَصْرعُ فلان ـ من المشركين ـ وهو يضَعُ يدهُ على الأرض هاهنا وهاهنا، فما تزحزحَ أحدُهُم في مقتلهِ عن موضع يدهِ[٢]». ثمّ بنى الصحابةُ الكرام عريشاً لرسولِ الله ﷺ بناء على اقتراحِ سعد بن معاذ، ثمّ نظَّمَ الرسول صفوفَ المجاهدين، وجلسَ في العريش ومعه أبو بكر الصديق رضي الله عنه؛ ثمّ ما لبثَ سعد بن معاذ أنْ أنشأ فرقةً من رجالِ الأنصار الأشداءِ لحرس رسولِ الله ﷺ، وتولى سعد قيادتها بنفسه لِيطمئنَّ على الرسولِ عليه الصلاة والسلام[٣].

* اتخذَ الجيشان مواقفَهُما للقتال، وبدأتِ المعركةُ حامية بين الفريقين، وأخذَ النبي ﷺ يُبشِّرُ المسلمينَ ويَعِدُهم بالنَّصرِ، وأنَّ الله قد أمدَّهُم بجنودٍ لم يَروْها، واستغرقَ الرسول في مناجاةِ ربِّه، حتى سقط رداؤه، وأبو بكر الصديق يردُّ الرداءَ إلى منكبي الرسول، ولكنَّه عليه الصلاة والسلام، ظَلَّ في مناجاتهِ حتى أراهُ الله نصرهُ، فانتبهَ نَشيطاً مُطمئناً وعادَ إلى رجالهِ يحرِّضهُم ويقولُ لهم «والذي نفسُ محمدٍ بيدهِ لا يُقاتلهم اليومَ رجلٌ فيُقْتل صَابراً مُحتَسباً مُقْبِلاً غيرَ مُدبِر إلاّ أدخلهُ اللهُ الجنَّةَ».

* واندفعَ المسلمون يقاتلونَ بشجاعة عندما سمِعوا قولَ الرسول الكريم ﷺ، وبنزولِ القرآن يبشِّرهُم أنَّ الملائكة تشدُّ أزْرَهم، ومالبثتْ قريشٌ أنْ ولَّتْ الأدبارَ لا تلوي على شيءٍ، وأخذَ المسلمون يقتلونَ فريقاً ويأسرونَ

---

(١) البداية والنهاية جزء ٣ ص٢٨٨.
(٢) رواه مسلم.
(٣) كان من الحرس: محمد بن مسلمة الأنصاري وعباد بن بشر، رضي الله عنهما.

فريقاً، ورسولُ الله ﷺ في العريشِ، وسعدُ بن معاذ وأصحابُه الأنصار يحرسونَ رسول الله، ورأى الرسول عليه الصلاة والسلام في وجهِ سعدِ الكراهية، لِما يصنعُ المسلمون من أَسْرِ الرجال، فقال رسول الله «واللهِ لكأنكَ يا سعدُ تكْرهُ أولَ وقعةٍ أوْقَعَها اللهُ بأهلِ الشِّركِ فكانَ الإثخانُ في القتلِ بأهلِ الشِّركِ أحبَّ إليَّ مِنْ استبقاءِ الرِّجالِ».

* لم يكنْ سعد بن معاذ رضي الله عنه فَظّاً غليظَ القلبِ حتى يحبَّ أنْ يُقتلَ المشركون، لكنَّه لم ينْسَ كيدهُم له بالأمسِ القريب وهو معتمرٌ، ورأى تعذيبَهُم لكثيرٍ من المسلمين، ولاحظَ أنَّ عداءهم سيبقى مستمراً.

* عادَ المسلمون إلى المدينة بعد المعركةِ تملؤهم الفرحةُ بنصر الله، وفي الطريق قسَّم الرسولُ الغنائمَ على المسلمين بعد أنْ أخرجَ خُمسَ الغنائم تنفيذاً لقوله تعالى: ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وعاد الرسول بالأسرى الذين يبلغُ عددهم السبعينَ إلى المدينة المنورة، واستشارَ الرسول أصحابَهُ في أمرهم؛ المنُّ أو الفِديةُ، فأشارَ أبو بكر الصديق رضي الله عنه وبعضُ الصحابة بالفدية، بينما أشار سعدُ بن معاذ وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما أنْ يُقتلَ الأسرى، وسكنتْ نفسُ الرسول ﷺ إلى رأيِ أبو بكر، فأدَّى الأسرى الفدية وانطلقوا إلى مكةَ، ثمّ ما لبثَ أنْ نزلَ القرآنُ الكريم مُؤيداً رأيَ سعد بن معاذ وعمر بن الخطاب في الأسرى بقولهِ تعالى ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1].

سعـــد بـن معــاذ وغـزوة أُحُـــد:

* تركتْ غزوةُ بدرٍ أثراً عميقاً بمكةَ والمدينة، فأمَّا في المدينة فقد شعرَ اليهودُ والمشركونَ والمنافقون بمزيدٍ من قوة المسلمين الذين امتلأتْ نفوسهم بالجرأة أكثرَ من ذي قبل، وأمّـا أثرها في مكة، فقد عادت قريشٌ تـجرِّر أذيالَ الهزيمة والخذلان، ولم يطِقْ أبو سفيان صَبْراً على عَارِ بَدْرٍ، ولم يُطقْ أيضاً أنْ

---

(١) سورة الأنفال آية / ٦٧/ وانظر تفسير الآية في الجامع لأحكام القرآن للقرطبي.

يبقى قَابعاً في مكة دون الأخذ بالثأر، وأقسمَ ألاَّ يَمَسَّ رأسَهُ ماءٌ من جنابةٍ حتى يغزوَ محمداً، وسار على رأَسِ جيشٍ حتى عسكر قريباً مِنْ جبل أُحُد.

* وصل خبرُ مَسير أبي سفيان بجيشهِ إلى الرسول ﷺ، فشاورَ أصحابه فكان غالبُهم يَودُّ الخروجَ إلى القتال، وخرج النبي وتقدمَ بالمسلمين مُتجهاً إلى أُحدٍ، ونظَّمَ الجيش ووضع خمسينَ من الرُّماةِ في موضع مرتفع يُقال له «عيْنيْن» وأمرهُم ألاَّ يَبْرحوا مكانهم، مهما كانت النتيجة، وبدأتِ المعركة حاميةً، وكانت بدايتُها لصالح المسلمين لولا أنْ خالفَ بعض الرماة أمْرَ الرسول ﷺ، فالتفَّ عليهم المشركون من خلفِ الجبل، فانكشفَ المسلمون، ونال منهم العدوُّ، وثبتَ سعدُ بن معاذ مع مَنْ ثبتَ مِنَ المسلمين، وكان قد استُشهدَ من المسلمين سبعونَ رجلاً منهم حمزةُ بن عبد المطلب عمّ النبي، ومصعبُ بن عمير، وعبدُ الله بن جحش، وعمرو بن معاذ «أخو سيدنا سعد بن معاذ»، وابن أخيه الحارث بن أوس، وغيرهم من المؤمنين الذين صدقُوا ما عاهدوا الله عليه.

* ويعودُ الرسول ﷺ إلى المدينة، ويمرُّ على دورِ بني عَبْد الأَشْهل، وتُقْبِل أمُّ سعد بن معاذ، وسعدٌ آخذٌ بعنانِ جوادِ رسول الله، فقال سعد: يا رسول الله، أمي؛ فقال النبي: «مَرْحباً بها» ووقفَ لها، وتدنو مِنْ رسول الله ﷺ وتتأملهُ وتقول: أمّا إذْ رأيتُك سالماً فقد أشْوَت[1] المصيبةُ، فعزَّاها الرسولُ بعمرو بن مُعاذ ابنها، ثمّ دعا عليه الصلاة والسلام لأهلِ مَنْ قُتِلَ بأُحُد وقال لها:

«يا أمَّ سعد؛ أَبْشري وبَشّري أهليهم أنَّ قتلاهُم ترافقُوا في الجنَّةِ جَميعاً[2] وقد شُفِّعُوا في أهليهِم» وتقول الأمُّ الصابرةُ الفاضلةُ: «رضينا يا رسول الله، ومَنْ يبكي عليهم بعدَ هذا؟»؛ أَعْظِمْ بها من أمّ، وأكْرِمْ بها من امرأة؛ ثمّ تَذْكُرُ قومَها من أمهاتٍ وأخواتٍ وزوجاتِ شُهداء فتقولُ للرسول: يا رسول الله! ادعُ

(١) أشوت: هانت وقلّت.

(٢) كانوا اثني عشر شهيداً.

لمنْ خلَّفوا منهم، فقال رسول الله ﷺ: «اللّهمَّ اذْهِبْ حزنَ قلوبهمْ، واجبرْ مصيبتهم، وأحسنْ على مَنْ خلّفوا[1]».

* ومرَّ الرسول ﷺ بدورِ الأنصار من بني عبد الأشهل وظَفَر، فسمعهم يبكونَ قتلاهم، فدمعتْ عينا رسول الله حزناً على عمِّهِ حمزة ثم قال: «لكنَّ حمزةَ لا بَوَاكي له» فلمَّا رجعَ سعد بن معاذ وأُسَيْد بن حضير أمَرا النساءِ أنْ يتحزَّمْنَ ثم يذهبن فيبكينَ على عمِّ رسول الله ﷺ، فلما سمع الرسول بكاءَهن على باب مسجده خرج عليهن وقال: «ارْجِعْنَ يرحمكنَّ الله آسَيتُن بأنفسِكن»[2]؛ ونهى رسول الله يومئذ عن النوح وقال: «ماهذا أردتُ وما أحبُّ البُكاء» ثم استغفرَ للأنصار ودعا لهم وقال: «رحم اللهُ الأنصارَ فإنَّ المواساة منهم ما عتَّمتُ[3] لقدَيمة، مُروهن فلْينصَرِفْن».

* كان سعد بن معاذ يظنَّ أنَّ بكاءَ النساء يُرضي الرسول ﷺ، فأحبَّ أنْ يكونَ رسولُ الله راضياً بالرغم من أنَّ قبيلته قد استُشهدَ منها اثنا عشر رجلاً؛ أيُّ رجلٍ هو سعد؟ وأي نفسٍ عظيمة كان يحمل؟

وإذا كانتِ النُّفوسُ كباراً تعِبتْ في مُرادِها الأَجْسامُ

تعالَ لننظر إلى هذه اللوحةِ المشرقةِ أيضاً في حياة سعد بن معاذ رضي الله عنه؛ بعد أُحُدٍ بيوم واحد، كانتْ غزوةُ حَمْراء الأسَد، ليلة واحدة قضاها المجاهدون في دُورهم يداوون جِراحهم، وفي البيوت مآتمُ ودموع وآلام، ولكنْ في النفوس إيماناً يرتفع فوقَ الألم ويرتقي بالمسلمين عالياً عالياً، وينادي منادي الرسول قائلاً: إنَّ رسولَ الله يأمرُكم بطلبِ عدوكم ولا يخرجْ معنا إلاَّ مَنْ شهدَ القتال بالأمس؛ ويخرجُ سعد بن معاذ إلى داره يأمره قومه بالمسير وكلهم جرحى قائلاً لهم: «إنَّ رسولَ الله يأمرُكم أنْ تطلبوا عدوَّكم»؛ فقال أُسَيْد بن حضير وبه سبعُ جراحات مؤثرة: «سَمْعاً وطاعةً للهِ ورسولِهِ» ثم

---

(١) انظر السيرة الحلبية جزء / ٢/ ص٥٤٦.
(٢) البداية والنهاية جزء ٤ ص٤.
(٣) عتمت: علمت.

يأخذ سلاحه ليلحقَ برسول الله ﷺ، ومعه قومه، ولما وافوا رسولَ الله ﷺ ورآهم طلبَ لهم الرحمةَ والمغفرةَ مِنَ الله.

* وبعد أُحُدٍ عاشَ سعدُ بن معاذ رضي الله عنه الأحداثَ التي مرت بالرسول والمسلمين، فكانتْ حادثةُ الرَّجيع، وبئْر مَعُونة؛ ثمَّ شاركَ في إخْراج يهود بني النَّضير لما حاولوا اغتيالَ النبي ﷺ، وقد أعطاهُ الرسول سيفاً كان لأحد سادات بني النَّضير، وكان السيفُ ذا قيمة عند العرب وقتذاك.

سعد في غزوة الخندق:

طفقَ يهودُ بني النضير الذين أَجْلاهم الرسول إلى خَيبَر، يُبَيِّتُونَ الحقد والغدر للرسول والمسلمين في المدينة، وخرج نفرٌ منهم مِنْ بينهم حييّ بن أخْطب وسلاَّم بن أبي الحقيق وأخوه كِنانة وبعض اليهود إلى قريش، واستطاعوا تأليبَ القرشيين على المسلمين، ثم تابعوا جولتهم الغادرة، فخرجوا إلى غطفانَ وبني مُرَّة وفزارة وأشجع وسُليم وبني سعد وبني أسَد يُحرضونَهم على المسلمين، ويَحْمدُون لهم وثنيَّتَهم، ويعِدونهم النّصر.

* وجاء الموعد المضروب، وخرجتِ الأحزاب لحرب المسلمين، فخرجتْ قريش يقودها أبو سفيان، وفزارة يقودها «عُيينة بن حصْن»، وجاءت بقية القبائل من أشجع وسُليم، فبلغتْ عِدّةُ الأحزاب عشرة آلاف رجل.

* بلغتْ أنباءُ هذا المسير الحاشد الرسول ﷺ، فأشار «سلمانُ الفارسي» رضي الله عنه بحفر خندقٍ حولَ المدينة، وسارعَ المسلمون إلى التنفيذ، فحُفِرَ الخندقُ، وعملَ الرسولُ فيه بيديه، وحُصِّنَتِ المدينةُ، ونُقِلَ النساءُ والأطفالُ إلى المنازلِ المُحصَّنة.

* وأقبلتِ الأحزابُ، فلم تَجدْ جيشَ المسلمين ينتظرها، وإنَّما فوجئتْ بالخندق، فعسكرتْ تجاهه، وخرجَ النبي ﷺ في ثلاثة آلافٍ من المسلمين، وتمركزَ عند جبل سَلْع حيث كان الخندقُ فاصلاً بينه وبين الأحزاب.

* في هذه الظروفِ استطاع «حيي بن أخطب» أنْ يقنع «كعب بن أسد» زعيم بني قُريظة بنقْضِ عهده مع المسلمين، واستجاب كعبٌ فنقضَ ما كان

بينه وبين رسول الله عليه الصلاة والسلام؛ وبلغَ الرسول أنَّ قريظةَ قد نقضتْ عهدها، وانضمتْ إلى الأحزاب؛ فبعثَ «سعد بن معاذ» سيدَ الأوس «وسعد بن عبادة» سيدَ الخزرج، ومعهما «عبدُ الله بن رواحة»، «وخواتَ بن جبير» ليقفوا على جَليَّةِ الخبرِ وقال لهم:

«انطلِقُوا حتى تَنظروا أحَقٌّ مابلغَنَا عنْ هؤلاء القوم أمْ لا؟ فإنْ كان حقاً فالحَنُوا لي لَحْناً[1] أعرِفه ولا تَفُتُّوا في أعْضادِ النَّاسِ، وإنْ كانوا على الوفاءِ فيما بينهم فاجْهروا بهِ للنَّاسِ». فلما وصلوا إلى اليهود وجدوهم على أخبثِ ما بلغهم عنهم، وقال «كعبُ بن أسد» زعيمهُم: مَنْ رسولُ الله؟! لا عهد بيننا وبين محمد ولا عَقْد؛ ونصحَ سعد بن معاذ رضي الله عنه بني قريظة ـ وكان حليفاً لهم في الجاهلية ـ وخوَّفَهُم عاقبةَ الموقفِ، وسوءَ المنقلب قائلاً لهم: «إنكم قد علمتُم الذي بيننا وبينكم يا بني قريظة، وإنّي أخافُ عليكم مثلَ يومِ بني النَّضير أو أشدَّ منه» لكنَّ اليهودَ أخذوا يسخرونَ منه حتى أسمعوه ما لايُرضى مِنَ القول، مِنْ جَارحِ الكلام وفَاحِشِهِ. فقال لهم سعد بن معاذ رضي الله عنه: «غيرُ هذا كانَ أجملَ بكم وأحسنَ يا بني قريظة» ولكنَّهم تمادوا في غيِّهم ونالوا مِنْ رسول الله ﷺ، ورجع سعد وأصحابه إلى رسول الله، فلما سألهم قالوا: عَضَل والقَارة[2] فقال رسول الله ﷺ: «اللهُ أكبر، أبْشروا يا معشر المسلمين».

* بلغ المسلمين خبرُ نقْض بني قريظة للعهد، وطفقَ المنافقون يفتّونَ في عضُد المسلمين، وراحوا يُرجفون في المدينة حتى إنَّ أحدهُم ليقول: ـ كانَ محمدٌ يعدُنا أنْ نأكلَ كنوزَ كسرى وقَيْصر، وأحُدنا اليوم لا يأمنُ على نفسه أنْ يذهبَ إلى الغَائطِ ـ.

* اشتدَّ خوفُ المسلمين وعَظُمَ البلاءُ، حتى إنَّ الرسول لم يكنْ ليسمح

---

(١) أي يقولون قولاً يفهمه هو ولا يفهمه غيره.

(٢) يقصدون كغدر قبيلتي عضل والقارة بأصحاب الرجيع زيد وخبيب وصحبهم رضوان الله عليهم.

لأحد من أصحابه بالذهاب إلى داخل المدينة إلا وهو يحملُ سلاحَهُ حذَراً من غَدْر بني قريظة، وقد تحدثَ القرآن الكريم عن المحنة تلك: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾[1].

* ولما وجدَ رسول الله ﷺ أنَّ البلاء قد اشتدَّ بالمسلمين، بعثَ إلى قائدَيْ غَطَفان وبني مُرة ليعطيَهُما ثُلْثَ ثمارِ المدينة شريطة أنْ يرجِعَا بِمَنْ معهما إلى موطنهم، وكتبوا كتاباً، ولم تقعْ شهادةٌ ولا عزيمةُ صُلْح، ثم إنَّ الرسول ﷺ بعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة رضي الله عنهما وعرض عليهما الأمر فقالا له: يا رسول الله، أمراً تُحبُّه فنصنعهُ، أمْ شيئاً أمركَ الله به لا بدَّ لنا مِنَ العمل به، أم شيئاً تصنعه لنا؟. قال: «بل شيءٌ أصنعُهُ لكُم واللهِ ما أصنعُ ذلك إلا لأنّني رأيتُ العربَ قَدْ رمتْكُم عَنْ قَوْسٍ واحدة، وكالَبُوكم مِنْ كلِّ جانب، فأردتُ أنْ أكسرَ عنكم مِنْ شوكتِهم إلى أمْر ما» فقال سعد بن معاذ: يا رسول الله قد كُنّا وهؤلاء على الشرك بالله وعبادةِ الأوثان، لا نعبدُ الله ولا نعرفُه، وهم لا يطمعُون أنْ يأكلوا منها ثمرة واحدة إلا قِرىً أو بَيْعاً، أَفَحينَ أكرمَنَا اللهُ بالإسلام وهدانا له وأعزَّنا بكَ وبهِ نعطيهم أموالَنا؟! مالنا بهذا من حاجةٍ، واللهِ لا نُعطيهُم إلا السيف حتى يحكمَ اللهُ بيننا وبينَهم. فقال النبي ﷺ: «أنْتَ وذاكَ»، فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فَمَحى ما فيها من الكتاب ثم قال: «ليَجْهَدوا علينا»[2] عندها تهللَ وجهُ رسول الله ﷺ واطمأنَ إلى رغبةِ أصحابه عامة، والأنصار خاصةً في قتال الأحزاب والصمود في وجههم.

* وحاصر الأحزاب المدينة، وأخذتْ بعض المناوشات تظهر بين الفريقين، إذ اقتحم «عمرو بن عبد ود» و«عكرمة بن أبي جهل» وبعض فرسان

---

(١) سورة الأحزاب /آية/ ١٠ ـ ١٢ وانظر تفسير القرطبي للآيات نفسها وكذلك تفسير ابن كثير.

(٢) البداية والنهاية جزء ٤ ص١٠٣ ـ ١٠٤، وانظر تاريخ الطبري جزء ٢ ص٥٧٢ ـ ٥٧٣.

المشركين الخندق، فتصدَّى «علي بن أبي طالب» لعمرو بن عبد ود وقتله، فولَّتْ الفرسان المتبقيةُ الأدبار؛ ولم يكنْ مِنْ قتال أو التحام بين الطرفين، وكان بعض رجال المسلمين يحمُونَ الحصون، ويدافعونَ عن النساء إذا ما تعرضنَ لمكيدةٍ مِنَ الخلف مِنْ يهود بني قريظة الذين بدؤوا يَنْزِلون أحياناً من حصونهم إلى المدينة لإرهابِ أهلها، حتى إنَّ «صفية بنت عبد المطلبْ»، قتلتْ يهودياً رأتْه يطيفُ حول الحصن الذي كانت تنزل فيه[1]، ولا عَجبَ في ذلك فهي أخت «حمزة بن عبد المطلب» وأمُّ «الزُّبير» فارسِ رسول الله.

* كانت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها في حصنِ بني حارثة يوم الخندق، وكان من أَحْرزِ حصون المدينة، وكانت أمُّ سعد بن معاذ معها في الحصن نفسه، فمرَّ سعد بن معاذ وعليه درعٌ مقلصة قد خرجت منها ذراعه كلها وفي يده حربته وهو يقول:

لبّثْ قَليلاً يَشْهد الهَيجا حَمَل[2] لابـأس بـالمـوتِ إذا حـانَ الأَجـل

فقالت له أمّه: الحقْ بنيّ فقدْ واللهِ أخّرت، فقالت عائشة: يا أم سعد والله لوددتُ أنَّ درعَ سعد كانت أسْبغ مما هي؛ وقالت: «وخفتُ عليه حيث أصاب السهم منه»[3] وما إنْ سار سعد قليلاً حتى رماه «حِبَّان بن قيس بن العَرَقة» بسهم قطع منه الأكحلَ[4]، فلما أصابه قال: خذها وأنا ابن العرقة، فقال له سعد: عرّقَ اللهُ وجهَك في النَّار، ثم رفعَ سعد يديه ودعا الله قائلاً: «اللهم إنْ كنتَ أبْقيتَ مِنْ حرب قريش شيئاً فأبقني لها فإنه لا قوم أحب إليَّ أنْ أجاهدَهُم مِنْ قوم آذَوْا رسولَك وكذبوه وأخرجُوه، اللهم وإنْ كنتَ وضعْتَ الحربَ بيننا وبينهم فاجعلْهَا ليْ شهادة، ولا تمتْني حتى تقرَّ عيني مِنْ بني قريظة»[5]. ثم

---

(١) البداية والنهاية جزء ٤ ص١٠٩.
(٢) أراد به حمل بن بدر انظر سير أعلام النبلاء ص٢٨١ مجلد (١) وانظر الروض الأنف جزء ٣ ص٢٨٠.
(٣) البداية والنهاية جزء ٤ ص١٠٩.
(٤) عِرق في اليد لونه أزرق.
(٥) البداية والنهاية جزء ٤ ص١٠٨.

أمرَ الرسولُ ﷺ أنْ يُمرَّضَ سعد في خيمة «رُفيدة الأسلمية»، ليَتسنّى له زيارته دائماً.

* وظلَّ أهل المدينة في فزعهم وهلعِ قلوبهم، فالأعداءُ أتَوْهم مِنْ فوقهم ومن أسفل منهم، إلى أنْ كفى الله المؤمنينَ القتال وذلكَ عن طريقين: الأول؛ أنَّ الله سبحانه وتعالى قد ساقَ إلى الرسول ﷺ «نُعَيم بن مسعود» الغطفاني، وكانَ قد أسْلمَ حديثاً وعرضَ خدماته على الرسول قائلاً: إنَّ قومي لمْ يعلموا بإسلامي فَمُرْني بما شئتَ. فقال الرسول ﷺ: «إنَّما أنتَ فينا رجلٌ واحدٌ فخذِّلْ عنَّا إنْ استطعتَ فإنَّ الحربَ خَدعةٌ»[1].

* كان نُعيم بن مسعود صديقاً لقريش، كما كان صديقاً لليهودِ، وكان ذكياً استطاع بالحيلة أنْ يصلَ إلى تفكيك وَحْدةِ الأحزاب، وتشتيت قلوبهم، حيث خرج وأتى بني قريظة وقال لهم:

* يا بني قريظة، قد عرفتُم وُدِّي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم، قالوا: صدقتَ لستَ عندنا بمتَّهَم؛ فقال لهم: إنَّ قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم، البلدُ بلدُكم، فيها أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، لا تقدرون على أنْ تحوَّلوا منه إلى غيره، وإنَّ قريشاً وغطفان قد جاؤوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهَرْتُموهم عليهم، وبلدهُم وأموالُهم ونساؤهم بغيره، فليسوا كأنتم، فإن رأوْا نهزةً أصابوها، وإنْ كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلّوا بينكم وبين الرَّجل ببلدكم ولا طاقة لكم به إنْ خلا بكم، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهائنَ مِنْ أشرافهم يكونون بأيديكم ثقةً لكم على أنْ تقاتلوا معهم محمداً حتى تناجِزوه. فقالوا له: لقد أشرتَ بالرأي.

* ثم خرج نُعيم حتى أتَى قريشاً فقال لأبي سفيان ومَنْ معه مِنْ زعماء مكة: قد عرفتم ودّي لكم وفراقي محمداً، وإنَّه قد بلغني أمْرٌ قد رأيتُ عليَّ حقاً أنْ أبلغَه لكم نُصْحاً لكم فاكتموا عني، فقالوا: نَفْعل؛ قال: تعلمون أنَّ معشر يهود قد ندموا على ماصنعوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه إنَّا

---

(١) البداية والنهاية جزء ٤ ص١١١.

قد ندمنا على مافعلناه، فهلْ يُرضيك أنْ نأخذَ إليك من القبيلتين من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم فنعطيكَهُم فتضربَ أعناقَهم ثم نكونُ معك على مَنْ بقيَ منهم حتى تستأصلَهُم؟ فأرسل إليهم أنْ نعم؛ فإنْ بَعَثَتْ إليكم يهودُ يلتمسون منكم رهائن مِنْ رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً؛ ثمَّ خرج حتى أتى غطفان فقال: يا معشر غطفان إنَّكم أصلي وعشيرتي، وأحبُّ الناس إليَّ، ولا أراكم تتهموني؛ قالوا: صدقتَ، ما أنتَ عندنا بمتهم! ثم قال لهم مثلَ ما قال لقريش وحذّرهم»[1] وهكذا وقعتِ الفرقةُ بين الأحزاب، وتشتَّتَتْ قلوبهُم وأهواؤُهم.

* وأمَّا الطريق الثاني، فقد بعثَ الله على الأحزاب ريحاً شديدةً في ليلة باردة، وهطلَ المطر غزيراً، وقصفَ الرعد، واشتدتِ العاصفة حتى امتلأت نفوسُ الأحزاب بالرعب، وخُيّلَ إليهم أنَّ جيش المسلمين سيهاجمُهم، ويوقعُ بهم، ويضربُ منهم الأعناق ويضرب منهم كلَ بَنَان؛ فقام «طليحة بن خويلد» الأسدي وصاح: إنَّ محمداً قد بدأكم بِشَرٍّ فالنّجاء النّجاء، وكان أبو سفيان أولَ مَنْ أجابَ داعي الفرار، وصاح بقريش: إني مرتحلٌ أيها الناس فارتحلوا فقد نقضتْ قريظة عهدها، وبدأكم محمد بِشرٍّ ما تكرهون.

* وهكذا اندحرتْ جموع الأحزاب، وكفى الله المؤمنين القتال، ورجعتِ الطمأنينة إلى النفوس وظهرت خيبة الأحزاب، عندها قال الرسول ﷺ بعد أنْ نصره الله «الآنَ نغزوهُم ولا يغزونَنا[2]» فاستبشرَ المسلمون بقولِ النبي عليه الصلاة والسلام، وفرحوا بهزيمة الأحزاب، وقد صور «كعب بن مالك» رضي الله عنه هزيمةَ الأحزاب وإصابة سعد بن معاذ رضي الله عنه فقال:

لِيعلمْ أهلُ مكةَ حين سَاروا ... وأَحْزابٌ أتَوا مُتحزِّبينا
بأنَّ اللهَ ليسَ له شريكٌ ... وأنَّ اللهَ مولى المُؤمنينا
فإمَّا تَقْتُلوا سَعداً سفَاهاً ... فإنَّ اللهَ خيرُ القَادِرينا

---

(١) البداية والنهاية جزء ٤ ص١١٢.

(٢) رواه البخاري.

سيــدخلُــه جنــانــاً طيّبــاتٍ تكــونُ مقــامَــة للصَّــالحينــا
كمــا قــد رَدَّكُــم فَــلاًّ[1] شَــريــداً بغيظِكــم خَــزَايــا خَــائبينــا
بِــريــحٍ عَــاصــفٍ هبَّــتْ عليكــم فكنتُــم تحتَهــا مُتكَمِّهينــا[2]

وقال حسان بن ثابت أيضاً يتحدثُ عن نصْرِ الله للمؤمنين وتفريق الأحزاب:

بهبــوبِ معصفَــةٍ تفــرّقَ جمعُهــم وجنــودُ ربِّــك سيــدِ الأربــابِ
فكفــى الإلــهُ المــؤمنيــنَ قتــالَهــم وأثــابَهــم فــي الأَجْــر خَيْــرَ ثــوابِ
وأقــرَّ عيــنَ محمــدٍ وصَحَــابِــهِ وأذلَّ كــلَّ مكــذِّبٍ مُــرتــابِ[3]

سعـد بـن معــاذ وغـزوة بنـي قريظــة:

* عاد النّبيُّ ﷺ إلى المدينة، ووضعَ المسلمون سلاحهم فلما كان الظهر، أتى جبريلُ عليه السلام رسول الله ﷺ فقال: «أوَ قَدْ وضعتَ السِّلاحَ يا رسول الله»؟ قال: «نعم». فقال جبريل عليه السلام: «ما وضعتِ الملائكةُ السلاحَ بعد، إنَّ اللهَ يأمُرك يا محمد بالمسيرِ إلى بني قريظة فإني عامدٌ إليهم فمُزلزلٌ بهم»؛ فأمرَ رسول الله ﷺ مؤذناً في الناس «مَنْ كان سامِعاً مطيعاً فلا يُصَلِّيَنَّ العصرَ إلاّ في بني قريظة[4]».

* وصَدَعَ الرسولُ بالأمر، وحمل «علي بن أبي طالب» رضي الله عنه راية المسلمين إلى حصون بني قريظة، وحاصرهم المسلمون ولم يجرؤْ بنو قريظة على الخروج لمواجهة المسلمين، فلما جهدوا وأدركوا أنَّ حصونَهم غيرُ مانعتهم ولن تغنيَ عنهم شيئاً، طلبوا مِنَ الرسول أن يرسلَ إليهم أبا لبابة من

---

(١) فلاًّ: أي القوم المنهزمون.
(٢) المتكمهين: العميان.
(٣) سيرة ابن هشام مجلد (٢) ص٢٥٨ ـ ٢٥٩.
(٤) البداية والنهاية جزء /٤/ ص١١٦ وانظر الروض الأنف للسهيلي جزء /٣/ ص٢٨١.

الأوس ليستشيروهُ في أمرهم، وكان أبو لبابة[1] من الأوس حلفائهم، فلما رأوْه قام إليه الرِّجال، وأجْهَش النِّساءُ والصبيان بالبكاء حتى رقَّ لهم، فلما سألوه: أيَنزِلون على حُكْمِ محمد؟ قال: نعم؛ وأشارَ بيده إلى حلْقِهِ، يعني أنَّه الذبحُ. . . واعتبرَ أبو لبابة إشارته هذه خيانة منه للرسول ﷺ، فجاءَ حتى أتى مسجد المدينة، فربط نفسه في سارية فيه، وحَلَفَ ألا يفُكَّ منها حتى يتوب الله عليه؛ وقد قبل الله توبته ونزل فيه قوله تعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[2].

* واستمرَّ حصارُ بني قريظة خمساً وعشرين ليلة إلى أن رضَوْا أنْ ينزلوا على حُكْمِ سعد بن معاذ لِعلمِهم أنَّ الأوس حلفاؤهم، وسوفَ يشفعون لهم عند النبي ﷺ، وفاتَهُم أن خيانتهم فوق كل خيانة، وأنَّه لا عقوبة على الخيانة العظمى إلاَّ القتْل، كما فاتهم أنَّهم لم يقبلوا نُصْحَ الأوس لهم منذ وقتٍ غيرِ بعيد، وأنَّهم أهانوا سيدهم سعد بن معاذ، وهكذا مشى اليهود إلى قدرهم، وإلى حُكْمِ الله في الخائنين. . فأرسلوا أنَّهم ينزلون على حكْمِ الرسول على أنْ يُحكّمَ فيهم سعد بن معاذ، فلمّا حَكَّمَه رسول الله ﷺ في بني قريظة أتاه قومه فحملوه على حمار وقد وضعوا له وسادة من أدَم، وكان رجلاً جسيماً جميلاً، ثم أقبلوا معه إلى رسول الله ﷺ وهم يقولون: يا أبا عمرو؛ أَحْسِنْ في مواليك، فإنَّ رسول الله ﷺ إنَّما ولاّكَ ذلك لتُحْسِن فيهم، فلما أكثروا عليه قال: قد آنَ لسعد ألاَّ تأخذَه في الله لومة لائم، فرجع بعضُ مَنْ كان معه مِنْ قومه إلى دار بني عبد الأشهل فنعى لهم رجالَ بني قريظة قبل أنْ يصلَ إليهم سعد؛ عن كلمته التي سمِع منه، فلما انتهى سعد إلى رسول الله ﷺ والمسلمين، قال رسول الله ﷺ: «قُوموا إلى سيِّدِكم» فقاموا إليه فقالوا: يا أبا عمرو، إنَّ رسول الله ﷺ قد ولاّكَ أمْر مواليك لتحكمَ فيهم، فقال سعد: عليكم بذلكَ عهد اللهِ وميثاقه أنَّ الحكمَ فيهم لما حكمت؟! قالوا: نعم؛ قال: وعلى مَنْ ها هنا ـ في الناحية التي فيها رسول الله ﷺ ـ وهو معرضٌ عن رسولِ

(١) أبو لبابة هو رفاعة بن عبد المنذر. وانظر الروض الأنف جزء / ٣/ ص٢٨٢.
(٢) سورة التوبة آية / ١٠٢/ وانظر تفسير القرطبي للآية نفسها.

الله إجلالاً له؟ فقال رسول الله «نعم» قال سعد: فإنّي أحكمُ فيهم أنْ يُقتل الرجالُ، وتقسمَ الأموال، وتُسْبى الذراري والنّساء؛ فقال رسول الله ﷺ لسعد: «لقد حكمتَ فيهم بحكمِ الله من فوقِ سبعة أرقعة[1]».

* وسِيْقَ اليهودُ أرسالاً إلى سوق المدينة حيث حُفرتْ لهم خنادق ضُربتْ أعناقهم ودفنوا فيها، وقُتلَ مع اليهود من بني قريظة «حيي بن أخطب»، فقد دخل حصن «كعب بن أسد» بَرّاً بوعده له أنْ يشاركه مصيره إنْ رحلتِ الأحزاب، وهكذا نصرَ الله المسلمين، وقد عبَّر شاعر الرسول حسان بن ثابت عن هذا النصر وتحكيم سعد بن معاذ فقال:

لقد لقِيتْ قريظة ما سَاها[2] وحلَّ بحصنها ذلٌّ ذليلُ
وسَعدٌ كانَ أنْذرَهُم بِنُصْحٍ بأنَّ إلهكم ربٌّ جليلُ
فما بَرِحوا بنقضِ العهد حتى فلاهم[3] في بلادهمُ الرسولُ
أحاطَ بحصنِهم مِنّا صُفوفٌ له مِنْ حرٍّ وقعتهم صَليلُ[4]

وفاة سعد بن معاذ رضي الله عنه:

* لما قضى سعد بن معاذ رضي الله عنه في بني قريظة، رجع إلى خيمته، ثم ما لبث أن انفجرَ جرحه، فبلغ ذلكَ النبيَّ ﷺ، فأتاهُ فأخذ رأسَهُ فوضعه في حجره، وسُجّي بثوبٍ أبيضَ، فقال رسول الله ﷺ: «اللّهم إنَّ سعداً قد جاهدَ في سبيلك وصدّقَ رسولكَ وقضى الذي عليه، فتقبَّلْ روحَه بخير ما تقبَّلتَ به رُوحاً»، فلما سمع سعد رضي الله عنه كلامَ رسول الله فتحَ عينيه ثمّ قال: السلامُ عليك يا رسول الله أما إنّي أشهدُ أنّك رسول الله[5].

---

(١) البداية والنهاية جزء / ٤/ ص١١٤ ـ ١٢٢ وانظر طبقات ابن سعد جزء / ٢/ ص٧٥ وانظر فضائل الصحابة ص٣٦. وانظر كذلك الروض الأنف جزء / ٣/ ص٢٨٣.
(٢) ما ساها: تعني ما ساءها قلبت الكلمة. والقلب معروف بلغة العرب.
(٣) فلاهم: قتلهم بالسيوف.
(٤) سيرة ابن هشام مجلد / ٢ / ص٢٧١ ـ ٢٧٢.
(٥) طبقات ابن سعد جزء / ٣/ ص٤٢٧.

فقال رسول الله ﷺ: «جزاك الله خيراً من سيد قوم، فقد أنجزتَ الله ماوعدته، ولينجزنَّك الله ما وعدك[1]».

* ثمّ إنَّ سعداً رضي الله عنه رفعَ يده، ودعا ربَّه قائلاً: اللّهم فإني أظنُّ قد وضعتَ الحرب بيننا وبينهم (ـ يعني قريشاً والمشركين ـ) فإن كنتَ قد وضعتَ الحِرب بيننا وبينهم فافجرها واجعلْ موتي فيها. فاستجابَ الله دعاءَه فانفجرَ جرحه تلك الليلة فمات منه شهيداً.

* وقد روي أنَّ جبريل عليه السلام، أتى رسول الله ﷺ حين قُبِضَ سعد بن معاذ من جوف الليل مُعتمراً بعمامة من إستبرق فقال: «يا محمد مَنْ هذا الميت الذي فُتِحت له أبوابُ السماء واهتزَّ له العرش؟» فقام رسول الله ﷺ سريعاً يجرُّ ثوبه إلى سعد فوجدهُ قد مات رضي الله عنه[2]. ثمّ إنَّ رسول الله ﷺ حضره وهو يُغَسَّلُ، ولما احتُمل سعد على نعشه كانت أمه تبكيه وتقول:

ويـلَ أم سَعـد سعـدا ... صَـرامـةً وحـدّا

وسـؤدداً ومَجْـدا ... وفَـارسـاً معـدّا

سـدَّ بـه مَسـدّا ... بقـدّهـا مـا قـدّا

فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: مهلاً يا أم سعد لا تذكُري سعداً، فقال النبي ﷺ «كلُ نائحةٍ تكذبُ إلاَّ أم سعد بن معاذ».

* ولما حملَ الناسُ جنازةَ سعد، وكان رجلاً جسيماً، جعلَ المنافقون يمشون خلفَ جنازته يقولون: لمْ نَرَ كاليوم رجلاً أخفَّ وقالوا: أتدرون لمَ ذاك؟ ذاك لحكمِهِ في بني قريظة، فذُكِرَ ذلك للنبي ﷺ فقال: «والذي نفسي

---

(١) حياة الصحابة جزء / ١/ ص٤٠٢.

(٢) طبقات ابن سعد جزء / ٣/ ص٤٢، وانظر البداية والنهاية جزء ٤ ص١٢٧.

بيده لقد كانت الملائكةُ تحملُ سريره[1]» وكان الرسول ﷺ يمشي أمامَ جنازتهِ.

* ولما وُضِعَ سعد في قبره تغيّر وجهُ رسول الله ﷺ، وسبّحَ ثلاثاً، فسبّحَ المسلمون ثلاثاً، ثمّ كبّر رسول الله ﷺ ثلاثاً، وكبّر أصحابه ثلاثاً حتى ارتجَّ البقيعُ بتكبيره، فسُئلَ رسول الله ﷺ عن التسبيح والتكبير فقال: «تضايق على صاحبكم قبرُه وضمّ ضمةً لو نجا منها أحدٌ لنجا سعد منها ثمّ فرّجَ الله عنه[2]»؛ وقد روي عن الرسول عليه الصلاة والسلام أنّه شهد جنازةَ سعد بن معاذ سبعون ألف ملك لم ينزلوا إلى الأرض إلاّ لموتهِ[3]، ورُوي أنَّ رائحةَ المسك كانت تفوحُ من تراب قبرِ سعد بن معاذ رضي الله عنه[4]، ولقيَ سعد ربه شهيداً وكان عمرُه سبعاً وثلاثين عاماً، ودُفن بالبقيعِ رضي الله عنه.

مكانة سعد بن معاذ رضي الله عنه وصفاته:

* في الحقيقة، لا يستطيعُ الباحث أنْ يكتبَ حياة مستقلة عن أي صحابي لأنَّ حياته لم تكنْ منفردةً، بل كانت حياته جزءاً من حياة الصحابة الكرامِ رضوان الله عليهمِ، فكانوا يعيشون جميعاً في حياة متداخلة، يأخذونَ ويعطون، ويعملونَ مجتمعين، لذا فنحن نأخذ بعض الجوانب المشرقة من حياتهم ونعرضها، وسنتعرّفُ على بعض الإشراقاتِ من حياة سعد بن معاذ ومكانته.

* حَظِي سعد بن معاذ رضي الله عنه بمكانة باسقةٍ عند رسول الله ﷺ، وكذلكَ عند المسلمين، على الرغم مِنْ أنَّ فترة حياته في الإسلام لم تتجاوزْ سبع سنوات؛ لكنَّها كانت حافلة بالكثير، وكانت تعادل عشرات السنين، فكيفَ نال سعد هذه المكانة؟

---

(١) طبقات ابن سعد ص٤٣٠ جزء /٣/.
(٢) طبقات ابن سعد جزء /٣/ ص٤٣٢. وانظر الروض الأنف جزء /٣/ ص٢٨٠.
(٣) انظر الروض الأنف للسهيلي جزء /٣/ ص٢٨٠.
(٤) طبقات ابن سعد جزء /٣/ ص٤٣١.

* كان سعد رضي الله عنه سيد الأوس منذ أنْ أيفعَ، وكانت سيادته عن جدارة، فلقد كان موصوفاً برجاحةِ العقل وحسنِ التفكير والتدبير، والشجاعة في الحرب وعند النَّوائب، وقد كان مقامُ سعد بن معاذ بينَ الأنصار، كمقامِ أبي بكرِ الصديق بين المهاجرين؛ وكان سعد رضي الله عنه مجابَ الدعوة فقد رُوي أنَّ رسول الله ﷺ ذكر الحمّى فقال: «منْ كانتْ به فهيَ حظُّه مِنَ النَّار»، فسألها سعد بن معاذ ربه فلزمته فلم تفارقه حتى فارق الدنيا[1].

* ونال سعد بن معاذ رضي الله عنه مكانةً عظيمة عند المسلمين جميعاً، فهذه عائشة بنتُ الصديق، رضي الله عنهما قالتْ: ما كانَ أحدٌ أشدَّ فَقْداً على المسلمين بعدَ رسول الله ﷺ وصاحبيه أو أحدهما مِنْ سعد بن معاذ[2]، وإنَّ شهادةً من عائشة أم المؤمنين لسعد بن معاذ وايْمُ اللهِ لعظيمة.

* وتطالعُنا كتب السيرة بوصفٍ عام لشخصية سعد بن معاذ رضي الله عنه فقد كانَ رجلاً أبيضَ، طويلاً، جميلاً، حسنَ الوجه، جميلَ العينين، حسن اللحية[3]، هادئاً، إذا تكلَّم وقع كلامه في نفوسِ سامعيه موقعاً حسناً لصدق لهجته، ولذلك أسْلم قومه جميعاً، ولم يُرَ فيهم منافق.

* ولما مات سعد شهيداً في قُبَّتهِ التي ضربها له رسول الله، بكاه أبو بكر وعمر، وكذلك المسلمون جميعاً، فقد احتل في نفوسهم مرتبة عليا، فقال حسان بن ثابت يبكيه، ويذكر حكمه في بني قريظة:

لقد سَجمتْ مِنْ دمع عيني عَبرةٌ ... وحُقَّ لعيني أنْ تفيضَ على سعدِ
فإنْ تكُ قَد ودَّعتنا وتركتَنَا ... وأمسيتَ في غبراءَ مظلمةِ اللَّحدِ
فأنتَ الذي يا سعدُ أبْتَ بمشهدٍ ... كريمٍ وأثواب المكارم والحمدِ
بحكمكِ في حَيِّ قريظة بالذي ... قضى الله فيهم ما قضيتَ على عمدِ
فوافقَ حكمَ اللهِ حكمُكَ فيهمُ ... ولمْ تعفُ إذْ ذُكِّرْتَ ما كانَ من عهدِ

---

(١) طبقات ابن سعد جزء / ٣/ ص٤٢١.
(٢) سير أعلام النبلاء ص٢٩٦ مجلد (١).
(٣) المصدر السابق.

فإنْ كان ريبُ الدهرِ أمضاكَ في الأُلى شروا هذه الدنيا بجناتِها الخلدِ
فنعْـم مَصيـرُ الصـادقيـنَ إذا دُعُـوا إلى اللهِ يوماً للوجاهةِ والقصدِ[1]

* وهل أتاكَ نبأُ «أُسَيْد بن حضير» ومكانة سعد عنده؟! فقد كانت عائشة بنت الصديق رضي الله عنهما قافلةً من مكة من حجٍّ أو عمرة ومعها «أُسيد بن حضير»، فنعوا له موت امرأةٍ له؛ فحزن عليها بعضَ الحزن، فقالت له عائشة: يغفرُ الله لك يا أبا يحيى[2]، أتحزنُ على المرأة وقد أصبْتَ بابن عمك وقد اهتزَّ له العرشُ؟ فقال: صدقت، لعمري ليحقَّنَّ ألاَّ أبكي على أحد بعد سعد بن معاذ بعد أنْ قال عنه رسول الله ﷺ «لقد اهتزَّ العرشُ لوفاةِ سعد بن معاذ[3]»؛ وفي اهتزاز العرش لموت سعد بن معاذ يقول أحدُ الأنصار:

وما اهتزَّ عرشُ اللهِ من موتِ هالِك سَمِعْنا بهِ إلاَّ لسعدِ أبي عمرو[4]

وكان لسعد بن معاذ رضي الله عنه عدةُ أولاد اشتهر منهم عمرو، وعبد الله؛ وقد بقي سيدنا سعد بن معاذ رضي الله عنه مثارَ إعجاب جميع المسلمين، ومحلَّ فخرهم في مجالسهم، فاستمعْ إلى هذا الفخر الجميل بين الأنصار، فعن أنس رضي الله عنه قال: «افتخرَ الحيَّان الأوس والخزرجُ، فقالت الأوس: منّا غسيلُ الملائكة، حنظلةُ بن الراهب، ومنا منْ اهتزَّ له العرش، سعدُ بن معاذ، ومنّا مَنْ حَمته[5] الدَّبْر[6] عاصمُ بن ثابت بن أبي الأفلح، ومنا مَنْ أجيزَت شهادته بشهادةِ رجلين، خزيمةُ بن ثابت رضوان الله عليهم أجمعين، وقال الخزرجيون: منا أربعةٌ جمعوا القرآن على عهد رسول الله ﷺ لم يجمعه غيرهم؛ زيدُ بن ثابت، وأبيُّ بن كعب، ومعاذُ بن

---

(١) سيرة ابن هشام مجلد / ٢/ ص٢٦٩/ ٢٧٠.
(٢) كنية أسيد رضي الله عنه.
(٣) انظر فضائل الصحابة ص٣٦.
(٤) البداية والنهاية جزء / ٤/ ص١٣٠ وانظر سير أعلام النبلاء ص٢٩٤ مجلد (١).
(٥) حفظته.
(٦) جماعة النحل والزنابير.

جبل، وأبو زيد، رضوان الله عليهم أجمعين[1]» أرأيتَ مثل هذا الفخر؟ حقاً إنَّه لإحدى المعجزات، ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ﴾[2].

أولئـكَ آبـائـي فجئنـي بمثلِهـم   إذا جمعَتْنـا يـا جـريـرُ المجـامـع

بشـارة سعـد بـن معـاذ رضـي الله عنـه:

* إنَّ المؤمنين الذين صحبوا النبي ﷺ، وشاهدوه، أُتيحَ لهم ما لم يُتَحْ لغيرهم، فنهلوا مِنْ ينابيع الصَّفاء، ووردوا مواردَ الخير، فكانوا رجالاً مخلصين صادقين، وكيف لا يكونون ذلك؟ وهم غَرْسُ النبي ﷺ ورعايته! وسيظلُّ هذا الغرس يُؤتي أُكُلَه مدى الدهر بإذنِ الله، وقد كان سعد بن معاذ رضي الله عنه إحدى هذه الغِراس العظيمة، فكان رجلاً موفورَ الحماس، فائرَ العاطفة، صادقاً، ظلَّ يعمل ويدأب حتى وصلَ في عمله ومثابرته إلى مكانة عظيمة؛ وعندما دخل الإسلام المدينة، أخذتْ أحزابُ الكفر تطارده من كل ناحية، عندها وقف سعد بن معاذ رضوان الله عليه شامخاً صامداً في وجوه المشركين ينافحُ عن الإسلام والمسلمين، ويجاهد في سبيل الله بكل ما أوتي من جلَدٍ وقوةٍ ومَالٍ، إلى أنْ لَقيَ الله شهيداً؛ وما كان الله ليضيعَ أجْرَ الشهداء، وأمَّا الرسول ﷺ فقد حفظ لسعد مكانته، وبشَّرَه بالجنةِ، فعندما ماتَ سعد شهيداً جاءَ بنو عبد الأشهل واحتملوا سعداً إلى ديارهم، كانَ رسول الله ﷺ يقول: هنيئاً لك أبا عمرو، هنيئاً لك أبا عمرو، وقال الرسول لأم سعد بن معاذ: «ألا يَرْقأ دمعك ويذهب حزنك بأنَّ ابنَكِ أولُ مَنْ ضحكَ الله إليه واهتزَّ له العرش[3]» إنَّ رجلاً يضحك له الله، ويفرح العرش لمقدمه، لذو حظٍّ عظيم، وفي مقام أمين.

* وتمضي الأيام والشهور، ويخوضُ المسلمون معارك عديدة، فكانت غزوة مؤتة، وفتح مكة، وغزوة حنين وغيرها، وفي العام التاسع من الهجرة

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمي جزء / ١٠/ ص٤١.
(٢) سورة المطففين / ٢٦/ .
(٣) طبقات ابن سعد جزء / ٢/ ص٤٣٤ . وانظر سير أعلام النبلاء مجلد (١) ص ٢٩١ .

الشريفة، يبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى «أكيدر دوْمَة» ويرسلُ سيدنا خالد قبَاءً من ديباج مخوّص بالذّهب إلى الرسول ﷺ، فجعل المسلمون يلمسونه بأيديهم ويتعجبون منه، فقال رسول الله ﷺ «أتعجبونَ مِنْ هذا؟ فوالذي نفسي بيده لَمناديلُ سعد بن معاذ في الجنة أحسنُ مِنْ هذا؟»[1] فالرسول الكريم ﷺ لم ينسَ سعد بن معاذ رضي الله عنه حتى بعد مضي بضع سنوات على استشهاده، وذكر لأصحابه أنَّ سعداً في الجنة يتبوأ منها حيث يشاء بإذنِ الله، وكان سعد من الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه؛ ومن الذين قال الله فيهم: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾.

صدق الله العظيم

* * *

---

(١) سيرة ابن هشام مجلد (٢) ص٥٢٦ وانظر البداية والنهاية جزء / ٥/ ص١٧.
وانظر سير أعلام النبلاء ص٢٩٢ مجلد (١) والحديث أخرجه الشيخان، البخاري ومسلم.

سيدنا

زيد بن حارثة

«حب رسول الله صلى الله عليه وسلم»

رضي الله عنه

* قال ﷺ:
* «لقد رُفعوا إليَّ في الجنة على سُرُرٍ من ذهب».
* «يا زيد، أنت مني وإليّ وأحب القوم إليّ».
* «أنت أخونا ومولانا».
* «أحبُّ الناس إليّ من أنعم الله عليه وأنعمت عليه».

مقدمـــة:

* هو ذا «حارثةُ بن شُراحيل» الكلبي، يُجهزُ بعضَ المتاع لزوجه سُعدى التي ستزورُ أهلها بُعيد أيام، أعدَّ حارثة الهودج والطعام ووفّرَ مِنْ سبلِ الراحة ما استطاع إليه سبيلاً؛ اقتربَ موعد الزيارة، فما هي إلاَّ ساعات حتى تتوجه القافلة إلى ديارِ بني مَعْنِ الطائيين؛ وتبدو «سُعدى بنت ثعلبة»[1] زوجة حارثة بن شُراحيل في وسْطِ القافلة، وبجانبها طفلها الصَّغير، يُصغي إليها وهي تُحدثه عن ربوعِ أهلها، وما سيجده من سرور عند أخوالهِ وأقاربهِ.

* اقترَب «حارثةُ بن شراحيل» مِنْ زوجه يودِّعها، كادتِ الدموع تنهمرُ من عينيه، وهو يرى ابنه الذي سيفارقه للمرة الأولى في زيارةِ أقربائه، فقد مضتْ بضعُ سنوات وولده تحتَ رعايته، فكان لا يطيقُ صبراً على فراقهِ، وأخذَ يوصي زوجه بطفله الذي ملكَ قلبَه ولبَّه.

* انطلقتِ القافلة، وشَيّعها حارثةُ بعينِ حزينة، وشعرَ بانقباض سَوَّرَ قلبه، وضيقٍ جثمَ على صدره لفراق ولدهِ وزوجه.

* اقتربتِ القافلة من بني مَعْنٍ، وبدا السرور على وجه سعدى، إنّها على مقربة منهم قابَ قوسين أو أدنى؛ وما كادتْ تحلُّ في ديار قومها، وتُسَرُّ في اجتماعها بأقاربها وأحبابها، حتى أغارتْ عليهم خيلٌ لبني القَيْن بن جِسْر، فأخذوا المالَ، واستاقوا الإبلِ والأنعام، وسَبوا الذراري، واحتملوا فيمَنْ احتملوه غلاماً يفَعة، يقتربُ عمره من الثَّامنة، ولم يكن هذا الغلام سوى «زيد ابن حارثة»، فقدموا به سوقَ عكاظ، فعرضوهُ للبيع، فاشتراه منهم «حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد» بأربعمئة درهم[2].

* عاد «حكيمُ بن حزام» إلى مكةَ، ومعه طائفة مِنَ الغلمان مِنْ بينهم زيد،

---

(١) انظر الروض الأنف جزء / ١/ ص٢٨٦.

(٢) طبقات ابن سعد جزء /٣/ ص٢٧ وانظر الروض الأنف جزء / ١/ ص٢٨٦.

وزارَتْه عمَّته «خديجة بنت خويلد»، مسلِّمةً عليه، فأُعجِبَتْ بغلمانه، ولاحظ حكيمٌ من عمته إعجابها فقال لها:

«اختاري يا عمة، أي هؤلاء الغلمان شئتِ فهو لك».

* أعادتِ السيدة خديجة النَّظرَ في وجوه الغلمان، واستوقفها طفلٌ قصير أسْمر، رأتْ في ملامحه سريرةً صافية، وقلباً وضّاء نقياً، وعينين تدلانِ على ذكاء، وكان الطفل الذي وقع اختيارها عليه «زيد بن حارثة».

* ولمْ تَمْضِ شهور قليلة حتى أضحتْ «خديجة بنت خويلد» زوجاً لسيد البشر محمَّد بن عبد الله ﷺ.. رأى الرسولُ عليه الصلاة والسلام زيداً، والرسول أعرفُ الناس بالرجالِ، فطلب منْ زوجه أنْ تهبَ له غلامها الأثير لديها، فأجابته إلى طلبه.. وفرحَ الرسول عليه الصلاة والسلام بزيد؛ وأحاطه بعنايتِه ورعايته، ثمّ ما لبث الرسول ﷺ أنْ أعتقَه.

زيـد عنـد النبـي ﷺ:

* أما زيد، فقد خُيّلَ إليه أنَّه حُرِمَ الحنان والرأفة إلى الأبد، فكان يتذكر غِلْظَةَ خاطفيه، وكيف حرمَهُ أولئك مِنْ عطفِ أبويه، وراح زيدٌ يستعرضُ في ذاكرته الصغيرة كيف سِيقَ إلى سوق عكاظ ، وبيعَ بَيْعَ الرقيق، وسرعان ما انقشعتْ هذه الأوهام مِنْ خياله، فقد استراحَ الطفلُ الصغير زيد من عناء هذه الرحلة الشاقة، ووجد عند الرسول ﷺ القلبِ الحنون، وعند زوجه خديجة عطف الأمِّ الرؤوم.

* بقيت أم زيد بعد اختطاف ولدها لا ترقأُ لها دمعة، كانت تُمسي وتصبح على البكاء، وعندما علمَ «حارثةُ بن شراحيل» باختطافِ ابنه كاد يُصعق، وتصدَّعَ قلبه، غاصتِ الابتسامة مِنْ على شفتيهِ، وراح يتساءل: أينَ زيد؟ في أي البلاد هو الآن؟ تُرى أحيٌّ فيُرجى؟ أمْ طالته يد المنون؟!. كان يسألُ عنه كل وارد؛ وكان يبكيه بدموع حارة، وينفثُ الأشعارَ الحزينة التي تنبثقُ مِنْ أعماقِهِ، وأصبحَ فؤاده فارغاً إلاَّ من زيد، فكان ينشد ويقول:

بكيتُ على زيدٍ ولمْ أدْرِ ما فَعل ... أحيٌّ فيُرجى أمْ أتى دونَه الأَجلْ

فــوالله مــا أدري وإنّــي لســائــل أغالكَ بعدي السَّهلُ أمْ غالكَ الجَبلْ
ويا ليتَ شِعري هل لكَ الدَّهرَ أوْبةٌ فحسبي منَ الدنيا رجوعُكَ لي بَجَلْ
تُـذكِّـرنيـه الشمـسُ عنـدَ طلـوعهـا وتعـرضُ ذِكـراه إذا غـربُهـا أفَـلْ
وإنْ هبـتِ الأرواحُ هَيجْـنَ ذِكْـرَهُ فيا طولَ ما حُزني عليهِ ومَا وَجَلْ
سأعملُ نصَّ العيش في الأرض جاهداً ولا أسأمُ التطوافَ أو تسأمُ الإبلْ(١)
سأوصي به قيساً وعمراً كليهما وأوصي يزيد ثمّ أوصي به جَبَلْ(٢)

* لكن زيداً بقيتْ في مخيلته ذكرى لم تستطع الأيام أنْ تمحوَهَا، إنّها ذكرى أمه ووالده، فكان يخرجُ في موسم الحجِّ لعلَه يصادفُ أحداً من قبيلةِ أبيه وأمه ليزفَّ إليهما البشارةَ بأنَّه يعيش في أحسنِ جوارٍ وبخير حالٍ، ويشاء الله أنْ يصادفَ في أحدِ المواسم بعض الحجاج من قبيلة بني كلاب قومه، فعرَّفَهم بنفسه، وعرفوه، وطلب إليهم إخبارَ والده بذلك، ولما حَمَلَ البشيرُ أخبارَ زيد إلى والده رُدَّتْ إليه روحه بعد أنْ كادَ ييأس منه، ولندعْ ابن سعد يحدثنا من كتابه الطبقات عن اللقاءِ السعيد هذا بين حارثة وابنه زيد:

* قال ابن سعد: «فحجَّ ناسٌ مِنْ كلب، قبيلة زيد، فرأوا زيداً فعرفَهم وعرفوه، فقال: بلِّغوا أهلي هذه الأبيات فإنّي أعلمُ أنَّهم قد جزعوا عليَّ وقال:

أحنُّ إلى قومي وإنْ كنتُ نائياً بـأنّـي قطيـنُ البيـتِ عنـدَ المشَـاعـرِ
فكفُّوا مِنَ الوجدِ الذي قد شَجاكمو ولا تعْملوا في الأرضِ نصّ الأَباعرِ
فـإنّـي بحمـدِ الله فـي خيـرِ أُسْـرة كــرامِ مَعّــدٍ كَــابــراً بعــدَ كــابــرِ

قال: فانطلقَ الكلبيون، وأعلموا أباهُ فقال: ابني وربِّ الكعبة، ووصفوا له موضعَه، وعند مَنْ هو، فخرجَ حارثة وكعب ابنا شُراحيل بفدائه، وقدما مكةَ فسألا عن النبيّ ﷺ، فقيل: هو في المسجدِ، فدخَلا عليه فقالا:

---

(١) سيرة ابن هشام مجلد (١) ص٢٤٨، وانظر طبقات ابن سعد مجلد (١) ص٢٧ و٢٨.
(٢) البيت الأخير زيادة من الروض الأنف جزء / ١/ ص٢٨٧.

يابن عبد الله، يابن عبد المطلب، يابن هاشم، يابن سيّد قومه، أنتم أهلُ الحرم وجيرانه، وسدنةُ بيتهِ، تفكُّون العَاني، وتطعمون الأسير، جئْناك في ابننا عندك، فامننْ علينا، وأحسنْ في فدائه، فإنا سنرفعُ لك في الفداء.

قال: «ما هو»؟

قالوا: زيدُ بن حارثة.

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «فهل لغيرِ ذلك؟».

قالوا: وما هو؟

قال: «دعوهُ فخيّروهُ فإن اختاركم فهو لكما بغيرِ فداء، وإنْ اختارني فوالله ما أنا بالذي أختارُ على مَنْ اختارني أحداً».

قالا: قد زِدتنا على النصف وأحسنتَ.

قال: فدعاه فقال:

«هل تعرفُ هؤلاء»؟

قال: نعم.

قال: «مَنْ هما»؟

قال: هذا أبي، وهذا عمي.

قال: «فأنا مَنْ قد علمتَ ورأيتَ صحبتي لك فاختارني أو اخترهما».

فقال زيد: ما أنا بالذي أختارُ عليك أحداً، أنتَ مني بمكان الأب والعمّ.

فقالا: ويحكَ يا زيد! أتختارُ العبودية على الحرية وعلى أبيك وعمك؟ وأهل بيتك؟.

قال: نعم؛ إني رأيتُ مِنْ هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي أختار عليه أحداً أبداً.

* فلما رأى ذلك رسول الله ـ ﷺ ـ أخرجه إلى الحجرِ [1] فقال:

«يا مَنْ حَضَر، اشهدوا أنَّ زيداً ابني أرِثهُ ويرثني».

فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابتْ أنفسهما وانصرفا؛ فدُعيَ زيد بن محمد حتى جاءَ الله بالإسلام [2].

* نعمْ، فهذا هو زيد، فقد اختار الرسولَ ـ ﷺ ـ على أهله، وفضَّله على أبيهِ وعمهِ، فهي ليستْ عبودية كما زعمَ أبوه وعمُّه، ولكنها الحريةُ الحقيقية، لقد رأى زيد من محمد بن عبد الله ما لم يَرَهُ من والده وعمه، ولَمَسَ عطفه وحنانه، وشاهد أخلاقه وصدقه، وعرفَ أنَّه الأمينُ كما كانت قريش تدعوه، فكيف يتركُ هذا النعيم؟!

* عاش زيد في بيتِ محمدٍ، واكتسب خلالَ ذلك الأخلاق الفاضلة، والخلال المحمودة، تعلمَ الأدب والتهذيبَ، أمّا الرسول ـ ﷺ ـ فقد أحبَّ زيداً حباً شديداً وأوْلاهُ كل رَعاية وتقدير.

* مضتْ بضع سنوات، ونزلَ الوحي على سيدنا محمد ﷺ، ودخل زيد في الإسلام، فكان أول مَنْ أسلم مِنَ الموالي، وأخذ يواصل الحياة الإسلامية الجديدة مع الرسول ﷺ، فقد كان جندياً صادقاً من جنودِ الإسلام، يلازمُ النبي دائماً، أميناً لسّره، وقائداً مراراً للسرايا، تحمَّل الاضطهاد والقَسْوة من كفار قريش، وكان مع ذلك كلِّه راضياً، لأنَّه عرفَ حقيقة الإيمان.

حِـبُّ رسـول الله ومنـزلتــه:

* كان زيد يلازم النبي ـ ﷺ ـ في رَوَاحِهِ وغُدوِّهِ، شديد اللصوق به، محباً صادقاً في حبه، أميناً مخلصاً، توّجَ حبه وإخلاصه بالطاعةِ لله وللرسول عليه الصلاة والسلام؛ فقد آثرَ زيدٌ النبيَّ على أبيهِ وأمهِ وقومهِ أجمعين، وكان كلَّ

---

(١) الحِجْر ـ موضع تجلس فيه قريش.

(٢) طبقات ابن سعد جزء / ٣/ ص٢٨.

يوم وفي كلِّ عملٍ يقوم به يتقربُ إلى قلب الرسول ﷺ بالخِصال العاليةِ والأخلاق المحمودة والقلب الصافي.

* أحبَّ الرسول ﷺ زيداً حباً عظيماً، حتى شاع أمْرُ إعجابه وحبهِ له بين المسلمين، فدعوه «زيدَ الحِبّ» ثمّ ما لبثوا أنْ أطلقوا عليه لقباً كان أحبّ إليه مِنْ نفسه «حِبُّ رسول الله» وكان زيد يَسْعدُ كثيراً بهذا اللقب، ثمّ خلعَ الصحابة ـ عليهم رضوان الله ـ على ابنه أسامة من بعده لقب «حِبُّ رسول الله وابن حِبّه».

* نال زيد ـ رضي الله عنه ـ منزلةً سامية ومكانة باسقة عند الرسول ﷺ، فقد رُوي أنَّه قال لزيد: «يا زيدُ أنتَ مني وإليَّ وأحب القوم إليّ[1]».

وقال له رسول الله ﷺ: «أنت أخونا ومولانا[2]» رواه البخاري.

* عُرِفَ زيد ـ رضي الله عنه ـ بعد ذلك باسم «زيد بن محمد» وكان فخوراً بهذا اللقب وهذا النَّسب، وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنَّه قال:

إن زيد بن حارثة رضي الله عنه مولى رسول الله ﷺ؛ ما كنا ندعوه إلاَّ زيد بن محمد حتى نَزَلَ القرآن ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [الأحزاب: ٥] أخرجه مسلم والترمذي والنسائي[3].

هكذا كانت منزلةُ زيد عند الرسول ﷺ، فالنبيّ قال لزيد:

* أنت أخوناـ أي في الدين ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ ـ ومولانا ـ أي تابِعُنا وناصِرُنا؛ إنها رحمةٌ وإكرام من الله اختصَّ بها زيداً ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٥٦].

* وبلغَ مِنْ محبة النبي ﷺ لزيد، أنْ زوَّجه «أم أيمن» بركة الحبشية حاضنته، وكان مِنْ نتاج هذا الزواج المبارك القائد «أسامة بن زيد» الحِبُّ بنُ

---

(١) طبقات ابن سعد جزء / ٣/ ص٣٠.
(٢) التاج الجامع للأصول جزء / ٣ / ص٣٦٢ وفتح الباري: ٧/ ٨٦.
(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ٤٧٥.

الحبِّ رضي الله عنهما؛ وقد تمَّ هذا الزواج في مكة، وأم أيمن هذه، هي واحدة مِنَ النساء العظيمات الفاضلات اللاتي كان لهن شأنٌ في الإسلام، وكان الرسول الكريم ـ ﷺ ـ يقول لها: «يا أمه» ويقول عنها «هذه بقيةُ أهل بيتي..».

هجـــرة زيـــد إلـى المدينـــة:

* اشتدَّ أذى كفار قريش على المسلمين في مكة المكرمة، فأذِنَ الرسول ﷺ لأصحابِه بالهجرة إلى المدينة؛ ومالبثَ زيد أنْ كان في طليعةِ المهاجرين؛ وفي المدينة المنورة عندما كان الرسول يؤاخي بين المسلمين، آخى بين «زيد بن حارثة» وبين عمّه «حمزة بن عبد المطلب» سيد الشهداء، وعندما استشهد حمزة رضي الله عنه، آخى النبي ﷺ بين زيد وبين أحد النقباء الاثني عشر ليلة العقبة «أُسيد بن حضير» رضي الله عنه، ذلك الرجل الذي قال عنه الرسول ﷺ: «نِعْم الرجلُ أُسَيْد بن حضير».

* بدأ زيد رضي الله عنه عملَهُ في المدينة بإخلاصٍ متزايد، واستمرَّ حِبُّ رسول الله ﷺ في خدمة النبي؛ أمَّا في الغزوات، فكانَ مثال الجندي المخلص، والمحارب الشجاع، وعندما انتصرَ المسلمون في غزوة بدر، أرسلَ النبي زيداً على ناقتهِ القصواء ليبشِّرَ أهل المدينة بنصرِ المسلمين وسلامتهم، وكان معه في زفِّ البشارة «عبد الله بن رواحة» رضي الله عنهما.

* بلغ زيد منزلةً عظيمة عند المسلمين، وكانت عظمة منزلته مُسْتَمدة من احترام الرسول له، وقد بلغ مِنْ تقدير النبي لزيد أن استخلفه عليه الصلاة والسلام مرتين على المدينة؛ وأرسله أميراً على عَدَدٍ من السرايا، كان أولها سريته التي خرج فيها إلى القَردة، وكان موفَّقاً فيها حيث استولى على عِير قريش وأموالهم.

* كان الرسول ـ ﷺ ـ يستقبلُ زيداً فرحاً، بخاصةٍ حينما يعودُ مِنْ سراياه؛ فعن أم المؤمنين عائشة بنت الصديق رضي الله عنهما قالت: «قدم زيد بن حارثة المدينة، ورسول الله ﷺ في بيتي، فأتاهُ فقرع الباب، فقام إليه رسول

الله ﷺ عُرياناً يجرُّ ثوبَه، والله ما رأيتُه عُرياناً قبله ولابعده، فاعتنقَه وقبَّله[1]».

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت أيضاً: «ما بعثَ رسولُ الله ﷺ زيداً في جيشٍ قطُّ إلاَّ أمَّرَهُ عليهم، ولو بقيَ بعده لاستخلفه[2]»..

أعْظِمْ بها مِنْ مكانة، وأكْرِمْ بهذا الشرف الذي حازَهُ زيدٌ حِبُّ رسول الله.

إلغَاء التبني:

* مكثَ زيد رضي الله عنه عند النَّبي الكريم ﷺ يُدعى زيد بن محمد حتى نزل قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾[3]، عندها دُعي زيد بن حارثة.

* روى البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عمر رضي الله عنهما، أنَّ زيدَ بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ما كنَّا ندعوهُ إلاَّ زيد بن محمد، حتى نَزَل القرآن ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ ﴾ فقال النبي ﷺ: «أنتَ زيدُ بن حارثة بن شُراحيل»..

* تألَمَ قلب زيد بن حارثة بعد أمْر الله بتحريمِ التَّبنيّ، كاد فؤادهُ يتفطر، فقد شَعَرَ بوحشة تغمره، وأحَسَّ بالغربة لأنَّه رجعَ إلى نسبه الأول، بعد أنْ كان منتسباً إلى سيدِ البشر، وأفْضلِ العرب نسباً وحسباً وشرفاً، ومحمد ﷺ ما كانَ أبا أحَدِ مِنَ الرجال، ولكنْ رسول الله وخاتم النبيين.

* علم الرسول ـ ﷺ ـ بحالةِ زيد النفسية، فزيدٌ مولاه، وحِبُّه، وهو الوفيُّ المخلص، فأعاره كل الاهتمام، وزوَّجه ابنةَ عمَّته الشريفة الحسيبة «زينب» وساواه بمن كانت أعلى النساء مكانة، وأسْمَاهُم قدراً، فَجَبَرَ بذلك خاطره، وأشعره بمكانته، وأنَّ ميزانَ الإسلام إنَّما هو التقوى والعمل الصالح، وهكذا تمَّ زواج زيدٍ منْ زينب، وإنَّما فعل الرسول ﷺ ذلك بأمرِ مِنَ الله؛ ووحيٍ مِنْ

---

(١) حياة الصحابة مجلد ٢ ص٤٩٦.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند وانظر فضائل الصحابة ص٢٤.

(٣) سورة الأحزاب آية /٥/ وانظر تفسير القرطبي للآية نفسها وانظر تفسير ابن كثير أيضاً.

ربِّ العالمين في شأن هذا الزواج كله؛ وتكرهُ زينب رضي الله عنها هذا الزواج، فهي سيدةٌ قرشية ذات حسب ونسَب، وزيد مولى مِنَ الموالي، لكنها سرعان ما أذعنتْ لأمرِ الله وامتثلتْ لتشريعه ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾(١) .

* وجدَ «زيدُ بن حارثة» رضي الله عنه بعضَ الصعوبات في هذا الزواج، ثمّ اشتدَّ عليه الأمرُ، فكان يشكو هُمومَه ومصاعبَه إلى رسول الله ﷺ، فكانَ يقول له: «أمْسِكْ عليكَ زوْجَكَ واتَّقِ الله». وقد أعلمَ الله سبحانه وتعالى رسوله بأمْرِ هذا الشقاق، وأنَّ زيداً سيطلِّقُ زينب، وأنَّه ﷺ سيتزوجها مِنْ بعده، لكنَّ الرسول عليه الصلاة والسلام خَجِلَ مِنْ هذا الأمر، فاحتفظَ به، وخشيَ مِنَ المرجفين ومنْ فئاتِ المنافقين واليهود، ومنْ إثارة الفتنة والشغب عليه وعلى المسلمين بقولهم: تزوَّجَ محمد زوجةَ ابنه بعد نهيهِ عن حلائل الأبناء كما كان؛ فأنزل الله تبارك وتعالى على نبيِّه قُرآناً يأمرهُ ألاَّ يلتفت إلى هؤلاء، وأنْ لا يخافهم فقال جل شأنه: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾(٢) .

فزواجُ الرسول ﷺ مِن زينب كان بأمْرٍ مِنَ الله، وتشريعاً للبشر فقوله تعالى: ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ أمْرٌ للرسول عليه الصلاة والسلام وتشريع حتى لا يجد أحدٌ مِنَ المؤمنين في نفسه أي حرج، أو حياءٍ مِنَ التزوجِ بنساءِ أدعيائهم بالتبنّي، وكان هذا الزواج زواجاً أنْزلَ فيه الله سبحانه وتعالى آيات بيّنات مِنْ عِنده، وأمر رَسوله بتنفيذِ الأمر؛ ونفّذَ الرسول ﷺ الأمر، وكان أمرُ الله مَفْعولاً، وهكذا قُضِي على عادةِ التبنّي في الإسلام، وقُضيَ على عادةِ عدم الزواج مِنْ زوجات الأدعياء.

---

(١) سورة الأحزاب آية / ٣٦/ .

(٢) سورة الأحزاب. آية / ٣٧/ وانظر تفسير القرطبي للآية نفسها.

* تَمَّ زواجُ الرسول الكريم ﷺ مِنْ زينب، قال ابن عباس رضي الله عنه: لما بلغَ زينبَ خبرُ زواجها برسول الله ﷺ سجدتْ للهِ شكراً؛ وروى البخاري أنَّ زينب رضي الله عنها كانت تَفخر على أزواجِ النبيّ ﷺ وتقول:

«زَوَّجَكُنَّ أهَاليكن وزوَّجَني الله تعالى مِن فوقِ سبعِ سموات».

* استقامتْ بعد ذلك حياةُ زيد بن حارثة رضي الله عنه، وظلَّ عند حسنِ ظنِّ الرسول ﷺ يقظاً ذكياً، وبقي كذلك الحِبَّ المُحبَّ، وكفاهُ فخراً أنَّ اسمه وَرَدَ في القرآن الكريم وروداً صريحاً؛ ونزلَ التشريع بسببه في تحريم التبنّي، ونزلَ أيضاً التشريع بسببهِ في زواج الرسول الكريم مِنَ السيدة زينب رضي الله عنها، فكان زيد رضي الله عنه مباركاً، وكان بركةً على المسلمين.

الأميـــرُ الشـهيـــد:

* ظلَّ زيد بن حارثة رضي الله عنه الأثير المفضل عند رسول الله ﷺ، وبقيَ حِبُّ رسول الله ينافحُ عن الإسلام بكلِّ ما أوتي من قوة، فانتدبَهُ الرسول لإمرةِ السرايا، وقد نجحَ في سراياه، وأظهر براعته كقائدٍ وأميرٍ حتى قال فيه الرسول عليه الصلاة والسلام:

«وايم الله إنْ كان لخليقاً للإمارة[1]» يعني زيداً، فكانَ غادياً ورائحاً في سبيلِ الله، قريباً مِنَ الرسول ﷺ، وقد بلغَ عددُ السرايا التي جعله الرسول أميراً عليها سَبْعاً، ويذكرُ ابن سعد في طبقاته السرايا التي اشترك فيها زيد بن حارثة أميراً يقول: «أولُ سرية خرج فيها زيد سريته إلى القَرَدة، وسريتهُ إلى الجَموم، ثم سريته إلى العَيْص، ثم سريته إلى الطَّرف، ثم سريته إلى سُمَى، ثمّ سريتُه إلى أم قرفَة، ثم عقدَ له رسول الله ﷺ على النَّاس في سرية مؤتة وقدَّمه على الأمراء[2]».

* وتأتي غزوةُ مؤتة في العام الثَّامن من الهجرة النبوية، وكانت أول معركة

---

(١) انظر فضائل الصحابة ص٢٤ والحديث أخرجه الشيخان.

(٢) طبقات ابن سعد جزء /٣/ ص٣١.

حربية بين المسلمين والروم، والتي كانَ سببُها مقتل «الحارث بن عُمير» الأزدي الذي بعثَه الرسول ﷺ بكتابٍ إلى صاحب بصرى، فقتله «شرحبيل بن عمرو» الغساني، فاشتدَّ ذلك على الرسول ﷺ، فجهّزَ جيشاً يبلغُ ثلاثة آلاف مقاتل وَلَّى قيادتَه «زيد بن حارثة» وقال ﷺ: «إنْ أصيبَ زيدٌ فجعفر بن أبي طالب على الناس، فإن أُصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على النَّاس. . »

* عقدَ الرسول ـ ﷺ ـ لواءً أبيض، ودفعه إلى زيد وأوصاه أنْ يُعسْكِرَ بجيشه حيثُ قتلَ الحارث، وألاّ يبدأ بقتالٍ قبل أنْ يدعو مَنْ هناك إلى الإسلام، فإنِ استجابوا حقنوا دماءهم وجزاؤهم على الله سبحانه وتعالى، وإلاَّ استعانَ عليهم بالله وقاتلهم.

* وانطلقَ الجيش، ووُدِّعَ توديعاً حَماسياً رائعاً، حيثُ خرج مسلمو المدينة يشيِّعونَه وهم يدعونَ الله أنْ ينصُرَهُم، وكان هتافهم ودعاؤهم «صَحِبكم الله ودفع عنكمِ وردَّكُم إلينا صالحين». وصحبَ النبيُّ ﷺ جيشَ الحق، وجند الله حتى بلغَ معه ثنية الوداع، وهناك وقفَ ليوصي جيشه فقال:

«أوصيكم بتقوى الله ومَنْ معكم مِنَ المسلمين خيراً، أقدموا باسم الله، فقاتلوا عدوَّ الله وعدوَّكم بالشَّام، وستجدونَ بها رجالاً في الصّوامع معتزلين فلا تتعرضوا لهم، ولا تقتلوا امرأةً ولا صغيراً ولا كبيراً فانياً، ولاتقطعوا شجرة ولا تهدموا بيتاً».

وهنا راح عبد الله بن رواحة ينشد بحماس:

لكنَّني أسألُ الرحمن مغفرةً ... وضربةً ذاتَ فرغٍ تقذفُ الزّبدا[1]
أو طعْنةً بيَدي حرّانَ مُجهزةً ... بحربةٍ تنفذُ الأحشاءَ والكبدا
حتى يُقال إذا مرُّوا على جَدثي ... أرشَدَهُ الله مِنْ غازٍ وقد رشَدَا

وعندما ودّعهم الرسولُ ﷺ وانصرفَ راجعاً اندفعَ عبد الله بن رواحة: ينشد:

---

(١) ضربة واسعة قوية تخرج رغوة الدم.

خَلَفَ السّلامُ على امرىءٍ ودَّعْتُهُ في النَّخلِ خيرَ مُشيِّعٍ وخَليل[1]

* مضى المسلمون في طريق الجلاد حتى بلغوا «مَعَان» جنوبي الأردن وعسكروا فيه، وبلغ الناس أنَّ هرقل نزل في مآب من أرض البلقاء بمئة ألف من الروم، ثمّ التحقت بهذا الجيش بعض القبائل العربية الموالية من لخم وجذام والقين وبهراء وبلي، ويقترب عددهم من مئة ألف أيضاً، يقودهم «شرحبيل بن عمرو» الغساني.

* ظلَّ المسلمون معسكرين في معان طيلة ليلتين يتدبرون أمرهم، وقال بعضهم: نكتبُ إلى رسول الله ﷺ فنخبرهُ بعدد عدوِّنا، فإما أنْ يمدَّنَا بالرجال وإمَّا أنْ يأمرنا بأمرهِ فنمضي له؛ إلاَّ أنَّ عبد الله بن رواحة، اندفعَ بحماسٍ إيماني رائع، وراحَ ينادي أصحابه:

«يا قوم، والله إنّ التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون؛ الشهادة، وما نقاتلُ الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلاَّ بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنّما هي إحدى الحسنيين، إمّا ظهورٌ وإما شهادة، فأجابه الناس بنفسِ الحماس: قد والله صدقَ ابن رواحة[2]».

* غادرَ المسلمون معسكرهم في معان، وانطلقوا شمالاً؛ حتى إذا بلغوا تخومَ البلقاء لقيتهم جموع الروم في مشارف، فانحازوا صوبَ قرية «مؤتة»، وهناك عبَّؤوا أنفسهم واستعدوا للمعركة.

* ونشبَ القتال، كان قتالاً رهيباً بين فئة مؤمنة قليلةٍ لا يتجاوز عددُ فرسانها ثلاثة آلاف، وفئةٍ كافرة كبيرة مِنْ روم وعرب يقتربُ عددهم من مئتي ألف مقاتل، وتقارعتِ السيوف، وتكسرت الرِماح، وكثر تراشق النبل، وها هو زيد بن حارثة يقاتل الأعداء مع جيشه في بطولةٍ نادرة، فكانَ يصول ويجول، يكرُّ ويفرُّ، وذِكْرُ الله لا يفارقُ فَمَه، وأصواتُ المسلمين تملأ الفضاء تردّدُ شعار المعركة؛ الله أكبرُ، الله أكبرُ، فتكادُ تنخلعُ قلوب الأعداء رعْباً.

---

(١) سيرة ابن هشام مجلد (٢) ص٣٧٤.

(٢) سيرة ابن هشام مجلد (٢) ص٣٧٥. وانظر السيرة الحلبية جزء / ٢/ ص٧٨٨.

* كان زيد رضي الله عنه ثابتاً ثباتَ الجبال الرواسي، رافعاً رايةَ الحقِّ، وصورة الرسول ﷺ لا تبْرحُ خياله، فيزداد إيماناً وتسليماً وصموداً وصبراً، ممَّا أثارَ غيظَ الروم وحنقهم عليه، فتكاثروا حوله ورماحهم موجهةٌ إلى صدره مِنْ كل جانب، حتى شَاط[1] في الرماحِ، وسقطَ زيدٌ وهو متشبِّثٌ باللواء، وعَلَتْ وجهه ابتسامة مشرقة عندما رأى صاحبه «جعفر بن أبي طالب» يتناولُ منه اللواء قبل سقوطه، ويأخذ مكانه في قيادة الجيش.

* وفاضتْ روح زيد إلى ربها مطمئنة، راضيةً مرضية، وفي تلكَ الأثناء كان الرسول ﷺ قد أطلعَه ربُّه عزَّ وجلَّ على استشهاد قوادهِ الثلاثة قبل أنْ تصلَ إليه أخبارُ الموقعة إذ كشِفتْ له الرقعة بكل أبعادها، فأراهُ الله ما دار فيها، وما أريق بها من دم[2]، ويحدثنا ابن هشام في سيرته عنْ ذلك فيقول:

«قال ابن إسحاق: ولما أصيبَ القوم قال رسول الله ﷺ فيما بلغني: أخذَ الراية زيدُ بن حارثة فقاتَل بها حتى قُتلَ شهيداً، ثمّ أخذها جعفر فقاتل بها حتى قُتِلَ شهيداً؛ ثمّ صمتَ رسول الله ﷺ حتى تغيَّرتْ وجوه الأنصار، وظنوا أنَّه قد كان في عبد الله بن رواحة بعض ما يكرهون، ثمّ قال: ثم أخذها عبد الله ابن رواحة فقاتل حتى قُتِلَ شهيداً[3]».

* كان النبي ﷺ قد نعى لأصحابه زيداً وجعفر وعبد الله بن رواحة، وعيناهُ تذرفان، وهذا ليس بغريب أنْ يبكي الرسول ﷺ على أصحابه، فهو الشفيقُ وهو رؤوفٌ رحيمٌ بالمؤمنين.

* ووقفَ المسلمون يبكونَ الشهداء، ويعدِّدونَ مآثرهم، وكانَ مما بُكي به أصحاب مؤتة مِنْ أصحاب رسول الله ﷺ قول حسان بن ثابت:

رأيتُ خيارَ المؤمنين تواردوا ... شَعُوبَ وخلْفاً بَعدهم يتأخرُ
فلا يُبعِدَنَّ اللهُ قتلى تتابعوا ... بمؤتةَ منهم ذُو الجناحين جعفرُ

---

(١) أي: سال دمه وهلك.

(٢) انظر السيرة الحلبية جزء / ٢/ ص٧٨٩.

(٣) سيرة ابن هشام مجلد (٢) ص٣٨٠ وانظر فضائل الصحابة ص٤٤.

وزيـدٌ وعبـدالله حيـن تتَـابعـوا | جميعـاً وأسبـابُ المنيـةُ تخطـرُ
غداةَ مضوا بالمؤمنينَ يقودُهم | إلى الموتِ ميمونُ النقيبةِ أزهرُ[١]

وقال كعب بن مالك يبكي شهداء مؤتة:

صلّـى الإلـهُ عليهـمُ مِـنْ فتيـةٍ | وسَقـى عظـامَهُـمُ الغمـامُ المُسْبِـلُ
صَبـروا بمـؤتـةَ لـلإلـهِ نفـوسَهُـم | حـذَرَ الـردى ومخـافـةً أنْ يَنكُلـوا
قـومٌ بهـم عصـم الإلـهُ عبـادَه | وعليهـم نَـزَلُ الكتـابُ المُنْـزَلُ[٢]

بشارة زيد:

* المؤمنونَ الذين صحبوا النَّبيَّ الكريم ﷺ، وكانوا بالقربِ منه، نَهلوا مِنْ منابع الصَّفاءِ الشيءَ الكثير، مما جعلهم يرتقون أعلى الدرجات، ويضحون في سبيل الله بكل شيءٍ حتى بأنفسهم، وقد كان الصحابةُ رضوان الله عليهم تلامذةً أتقياء في مدرسةِ النبوة، فزكتْ نفوسهُم بصحبة النَّبي الكريم ﷺ، حتى تفجرتْ ينابيعُ الإلهام والحكمة والصدقِ في قلوبهم، فَسَمَتْ أعمالُهم فما عادوا يبالون أنْ يموتوا أو يقتلوا، ولا تُصيبُ النَّبيَّ ﷺ شوكةٌ ولا أقلّ مِنْ ذلك.

* وكان «زيد بن حارثة» الأمير الشهيد مِنْ بين هؤلاء الذين عاشروا النبي ﷺ، وأحبُّوه إلى حَدِّ الهُيام، فضحّى بكل ما يستطيعُ حتى لَقِيَ الله شهيداً؛ وقد بشّره الرسول مع أصحابه الأمراء الشهداء بالجنةِ، فقد رَوى ابن إسحاق عن رسول الله ﷺ: «لقد رُفعوا إليَّ في الجنة ـ فيما يرى النائمُ ـ على سُرُرٍ مِنْ ذهب، فرأيتُ في سرير عبد الله بن رواحة ازْوراراً عن سريرَيْ صاحبيهِ، فقلتُ: مِمَّ هذا؟ فقِيلَ لي: مَضَيا، وترددَ عبد الله بعضَ التردُّدِ ثمّ مضى». إذاً، فقد بَشَّرَ الرسول ﷺ زيداً وجعفر وعبد الله بالجنة، وها هو الرسول الكريم يحدث أصحابه أيضاً عن الشهداء الثلاثة قائلاً:

---

(١) سيرة ابن هشام مجلد (٢) ص٣٨٥.
(٢) البداية والنهاية جزء (٤) ص٣٦١.

«ما يُسرُّهم أنهم عندنا[1]» نَعَمْ فهؤلاء الشهداء هُمْ في جوار ونعيم، أحبّ إليهم من الدنيا وزخرفها.

* لقد نال زيد بن حارثة رضي الله عنه منزلةً رفيعة عند الرسول ﷺ، فقد كان زيد شديدَ الحب للرسول ﷺ، قليل الصبر عنه، مطيعاً له، فكان هذا الحب المكين مبعث التضحية بنفسه وماله في سبيل الله، ولما نزلت هذه الآية الكريمة ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ جاء زيد بن حارثة رضي الله عنه بفرسٍ له يقال لها «شِبْلة» لمْ يكنْ له مالٌ أحبَّ إليه منها فقال: هي صدقة؛ فقبلها رسول الله ﷺ، وحملَ عليها ابنه أسامة رضي الله عنه، فرأى رسول الله ﷺ ذلك في وجه زيد فقال: «إنَّ الله قد قبِلها منكَ[2]».

* وينالُ زيد رضا النبي عليه الصلاة والسلام في جميع أطوارِ حياته، ويقدم نفسه فداءً لحبيبهِ ومصطفاه الرسول ﷺ، فعندما ذهبَ الرسول ﷺ إلى الطائفِ ليدعو أهلها إلى الإسلام، قابَلهُ أهل الطائف مقابلةً غير كريمة، وأغْرَوا به سفهاءَهم وعبيدَهم يسبُّونه ويصيحون به، وجعلوا يرمونَه بالحجارة، حتى إنَّ رجلَي رسول الله ﷺ لتدميان، وزيدُ بن حارثة يَقِيهِ بنفسه حتى شُجَّ في رأسه عدة شجاج[3]، ثمّ عاد رسول الله ﷺ ومعه زيد بن حارثة يريدُ دخول مكة فقال له زيد: كيف تدخل عليهم يا رسول الله وهم أخرجوك؟ فقال: «يا زيد إنَّ الله جاعلٌ لِمَا ترى فَرجاً ومخرجاً، وإنَّ الله ناصرٌ دينه ومظهرٌ نبيّــه».

* ويطمئنُّ زيد رضي الله عنه لما يسمعُ مِنْ رسول الله، وينسى جروحه، ويستعذبُ ذلك كله في سبيل الله؛ كانت مشاعره تمتلئُ غبطةً وسروراً عندما يخاطبهُ الرسول ﷺ «أنْتَ أخونَا ومَولانا» ويزدادُ سروراً عندما يسمعُ الصحابة رضوان الله عليهم يعلنون فيما بينهم «حِبُّ رسولِ الله» وأيّ شرف أفضل من

---

(١) رواه البخاري.
(٢) حياة الصحابة مجلد (٢) ص١٥٨.
(٣) طبقات ابن سعد مجلد (١) ص١٩٦.

هذا الشرف، فهو يدرك أينَ تكون نهاية هذا الحب، في الجنةِ ﴿ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾[1].

وقال رسول الله ﷺ: «المرءُ مع مَنْ أحبَّ».

* لقد كان زيـدُ بن حارثـة رضي الله عنه محظوظاً، وذلك الفضلُ من الله، فقد نالَ شهادة عظيمة مِنْ رسول الله «الإمارة» يقول الرسول عنه: «وايم الله إنْ كان لخليقاً بالإمارة».

* ولم تنقطع أخُوّةُ زيدٍ للرسول حتى بعد أن استشهد، فقد جاء في كتاب الاستيعاب «لمّا أتى رسول الله ﷺ نعيُ جعفر بن أبي طالب وزيد بن حارثة بكى وقال: «أخواي ومؤنساي» ودعا الرسول الكريم ﷺ لزيدٍ بالمغفرة، ففي رواية أنه: لما بلغ رسول الله ﷺ قتل زيد بن حارثة وجعفر وابن رواحة ـ رضي الله عنهم ـ قامَ نبي الله ﷺ فَذَكرَ شأْنهم فبدأ بزيدٍ فقال: «اللّهم اغفرْ لزيد، اللّهم اغفرْ لزيد، اللّهم اغفرْ لزيد، اللّهم اغفرْ لجعفر ولعبد الله بن رواحة[2]».

* نعم فقد ارتقى زيد بن حارثة رضي الله عنه مكانة عظيمة بين صفوفِ الصحابة، ونال درجةً عاليةً عند رسول الله ﷺ، فالدموعُ التي ذرفتْها عينَا رسول الله عندما أصيب زيد تدلان على ذلك، يقول ابن سعد في طبقاته: «لما أصيـب زيـد بـن حـارثـة أتـاهـم النبي ﷺ، فجهشَـتْ بنتُ زيـد فـي وجـهِ رسول الله ﷺ، فبكى رسول الله ﷺ حتى انتحب، فقال له «سعد بن عبادة»: يا رسول الله، ما هذا؟.

قال: «هذا شوقُ الحبيبِ إلى حبيبهِ[3]».

فهنيئاً لزيد حبِّ رسول الله، وأحبّ النّاسِ إلى قلب رسول الله، وعندما

---

(١) سورة النساء آية / ٦٩/ .

(٢) حياة الصحابة ص٣٤٤ مجلد (٣).

(٣) طبقات ابن سعد مجلد ٣ ص٣٢، وانظر حياة الصحابة مجلد (٢) ص٥٨٨ .

سُئِلَ الرسول ﷺ عن أحبِّ الناس إليه أجابَ: «أحبُّ النَّاسِ إليَّ مَنْ أنعمَ اللهُ عليه وأنعمتُ عليهِ».

يعني زيدَ بن حارثة رضي الله عنه أنعم اللهُ عليه بالإسلام، وأنعمَ عليه الرسولُ ﷺ بالحريةِ.

* ويبقى زيد بن حارثة رضي الله عنه، رمز الفداء والشجاعةِ. لقد كان من الذين قال فيهم ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وكان من الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه.

* * *

سيدنا

عبد الله بن رواحة

رضي الله عنه

* قال ﷺ:

* «لقد رفعوا إليّ في الجنة فيما يرى النائم على سرر من ذهب..».

* «رحم الله أخي عبد الله بن رواحة كان أينما أدركته الصلاة أناخ».

* «يرحم الله ابن رواحة إنه يحب المجالس التي تتباهى بها الملائكة».

* «زادك الله حرصاً على طواعية الله وطواعية رسوله».

مقـــدمـــة:

* في واحة خصيبةٍ ذات عيون ووديان وزروع، تقعُ مدينة «يثرب» والتي عُرِفتْ باسم «المدينة المنورة» بعد الهجرة؛ في هذا الموقع الجميل الذي تكسوهُ الخضرة، وتكثر فيه المياهُ والينابيعُ، وتنتشر على أرضهِ الأشجار، نشأ «عبد الله بن رواحة» يرسلُ أعذبَ الأشعار وأرقَّ الكلمات، واجتمعتْ فيه بعضُ السِّمات والخصال التي جعلته يتبوّأ مكانةً مرموقةً، فكانَ شاعراً فارساً زعيماً، وقائداً مجرباً يعرفُ خَبايَا زَوَايا الحروب، يعتمدُ عليه الخزرج قومه في حروبهم ضِد الأوس.

* ينتمي «عبد الله بن رواحة بن ثعلبة» إلى بني الحارث، أحد الأشراف الخزرجيين الذينَ تصدروا المجالسَ وحكموا بين الناس، وحازَوا قصبَ السيادة، أمّا أمُّه فهي «كبشة بنت واقد بن عمرو» الخزرجية[1] مِنْ أشراف وسادات بني الخزرج أيضاً، ويُكنى عبد الله أبا رواحة أو أبا محمد.

* في ذلك البيت المُنعم بالعزِّ والشرفِ، ترعرعَ ابن رواحة، وكان لوالدتهِ الأثر الكبير في تنشئتهِ إذْ كانت موصوفةً بالعقل والحكمة، فشجعتْ ابنها على تعلُّم القراءة والكتابة كشأن الأسرِ الكريمة ليُقالَ عنه «الكامل»، حيث إنَّ هذا اللقبَ يُطلَقُ على مَنْ يجيدُ الكتابة وقتذاكَ، لأنَّ الكتابة عند العرب قليلة ونادرة[2]، ولما بلغَ أشُدَّهُ وصَلُبَ عُودُه أخذَ يقرِضُ الشِّعر حتى أضحى شاعراً عظيماً يصاولُ شعراء عصره، ويناقضُ «قيس بن الخطيم» شاعر الأوس المعروف، وتغزّلَ بـ«ليلى» أخت قيس، كما أنْ قيساً تغزل بـ«عَمْرة» بنت رواحة أخت عبد الله.

إســـلام ابـن رواحـــة:

* لم يكنْ «عبد الله بن رواحة» راضياً عن الأحداثِ الأليمة التي كانت

---

(١) الإصابة مجلد / ٢/ ص٢٩٨.

(٢) طبقات ابن سعد جزء / ٣/ ص٥٢٦.

تغلّفُ مجتمعه قبلَ الإسلام، فكان يَمْقتُ تلك الحروب والخلافات الدائمة والتي أهلكتْ الحرثَ والنَّسل للأوسِ والخزرجِ، وقد عُرِفَ ابن رواحة أنَّه صاحب عقل واقر، فلم يكنْ راضياً عنِ الأصنام التي يعبُدها قومه.

* وفي موسمٍ مِنْ مواسم الحج، عادَ نَفَرٌ مِنْ قبيلته يحملون أنباءً وجدتْ إلى داخلهِ سبيلاً، فأرهفَ لها سمْعه، ثم تمكنتْ هذه الأنباء مِنْ قلبه، ووافقت هوىً في نفسه، إنّها أخبارُ الإسلام والرسول؛ وفي موسم الحج التالي رجعَ قومه وبصحبتهم شابٌّ مكي هو «مصعب بن عمير»، فاستمع إليه ابن رواحة وأعلنَ إسلامه، وأسلمتْ كذلك أخته عمرة بنت رواحة وتزوجتْ من أحدِ الأشراف وهو «بشير بن سعد»، وأنجبت الصحابي العظيم «النُّعمان بن البشير» رضي الله عنهما؛ وأسلمَ كذلك فيمَنْ أسلم «ليلى بنت الخطيم» أخت شاعر الأوس قيس، وكانت ليلى أولَ امرأة بايعها النبي ﷺ.

* بدأ «عبد الله بن رواحة» يشعرُ بارتياح يجتاح قلبه وجوانحه، وأحسَّ بالسرورِ والغبطة عندما أسلمَ قومه وأسلمَ الأوس كذلك، وتلاشت الحروبُ فيما بينهم، وراحَ ينتظرُ بفارغِ الصبر موسم الحجِّ ليلتقي برسول الله ﷺ.

* اقتربَ موعد الحج، وارتحلَ عبدُ الله مع مَنْ ارتحلَ إلى الموسم ليلتقي برسول الله ﷺ، وعند العقبة كان اللقاءُ السعيدُ بين ثلاثة وسبعين مِنَ الأنصار وامرأتين مِنْ نسائِهم وبين الرسول الكريم، وكانت البيعة التي تغيَّر بها مجرى التاريخ، والتقتْ يمينُ ابن رواحة بيمين رسول الله ﷺ مصافحةً مبايعةً على السَّمْعِ والطاعةِ في النشاط والكسلِ، والنَّفقَة في العُسْرِ واليُسْرِ وعلى الأمرِ بالمعروف والنّهي عنِ المنكر وقولِ الحق، والدفاع عن رسول الله ومبايعته على حربِ الأحمر والأسود مِنَ الناس مقابل الجنة، إنْ وفى بذلك مع قومه. ثم إنَّ رسول الله طلبَ من الأنصار أنْ يختاروا من بينهم اثني عشر نقيباً فقال:

«أخْرجوا إليَّ منكم اثني عَشَر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم كُفَلاء» فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً ثلاثةً مِنَ الأوس وتسعةً مِنَ الخزرج، ووقع اختيار بني الحارث الخزرجيينَ على اثنين مِنْ سادتهم وهما: «عبد الله بن رواحة» و«سعد بن الربيع» رضي الله عنهما.

* عاد الأنصار إلى المدينة وقد أحسُّوا بنور الإسلام يَسْري في نفوسهم ويملأُ قلوبهم، وجعلوا ينتظرون هجرة المسلمين من مكة، ولما أذِنَ اللهُ بالهجرة لرسوله، شرعَ المسلمون يتسابقون في الهجرة إلى المدينة، فارّينَ بدينهم، مضحِّين بكل ما يحرصُ عليه الناس من عرض الدنيا، ونبذوا كل زخارف الحياة وراء ظهورهم، وعندما استقرَّ المسلمون في المدينة جعلوا يتحرقون شوقاً إلى قدوم الرسول الكريم إليهم، فكانوا يخرجونَ في صبْحِ كل يوم يترقبونه في بعض الطريق حتى يؤذيهم الحرُّ، وتحرقهم الشمس فيعودوا إلى منازلهم؛ إلى أنْ وصَلَ رسول الله إلى المدينة، حيثُ كان يوم دخوله يوماً حافلاً جميلاً، لم تَـرَ المدينةُ يوماً أشدَّ فرحاً وابتهاجاً منه، فقد ازدانتِ المدينـةُ وأشرقتْ جوانبها وسهولها بالبهجةِ والسرور، جـاء في الصحيحين بسند عن أبي بكر قال:

«خرجَ الناسُ حين قدمنا المدينة في الطرق وعلى البيوت الغلمان والخدم يقولون: اللهُ أكبر جاء رسولُ الله! اللهُ أكبر جاء محمد! الله أكبر جاء محمد، الله أكبر جاء رسول الله، فلما أصبحَ انطلقَ وذهب حيث أُمرَ».

وانطلق الإماءُ والجواري ينشدنَ ويقلن:

طلـــعَ البـــدرُ علينـــا ... مِـــنْ ثنيّـــات الـــوداعِ
وجَـــبَ الشكـــرُ علينـــا ... مـــا دَعـــا للهِ داعِ
أيّهـــا المبعـــوثُ فينـــا ... جئـــتَ بـــالأمـــرِ المُطـــاعِ

وعمَّ الفرحُ والسرور المدينة كلَّها، وخرج الناسُ والغلمان لاستقبالِ رسول الله ﷺ، وقد عَلا وجوهَهم البشرُ والابتهاج بمقْدَمِ رسول الله ﷺ، روى الإمام أحمد بسنده عن «أنس بن مالك» رضي الله عنه قال:

«إنّي لأسعى في الغلمان يقولون: جـاءَ محمد، فأسعى ولاأرى شيئاً، ثم يقولون: جاء محمد، فأسعى ولا أرى شيئاً، حتى جاءَ رسولُ الله ﷺ وصاحبُه أبو بكر، فَكَمَنَا في بعض خِربِ المدينة، ثم بَعَثا رجلاً مِنْ أهلِ البادية يـؤْذِنُ بهما الأنصار فاستقبلهما زُهاء خمسمئة من الأنصار حتى انتهوا إليهما فقالتِ الأنصار: انطلِقَا آمِنَيْنِ مُطاعَـيْنِ، فأقبلَ رسول الله وصاحبـه بين أظهرهـم،

فخرجَ أهلُ المدينة حتى إنَّ العواتقَ لَفَوْق البيوت يتراءَيْنَه يقُلن: أيُّهم هو؟ أيُّهم هو؟ فما رأينا منظراً شبيهاً به»[1].

* وتوجهَ رسول الله ﷺ نحو المدينة راكباً ناقته القصْواء، ويروي ابن كثير أنَّه: «كان في المدينةِ دورٌ كثيرة تبلغَ تسعاً كل دار محلّةٌ مستقلة بمساكنها ونخيلها وزروعها وأهلها، كلُّ قبيلة مِنْ قبائلهم قد اجتمعوا في محلّتِهم وهي كالقُرى المتلاصقة»[2].

وجعلَ رسول الله ﷺ لا يمرُّ بدار مِنْ دور الأنصار إلا اعترضوا طريقه وقالوا: هلمَّ يا رسول الله إلى القوةِ والمنعةِ والثروة فيبتسمُ ﷺ شاكراً ويدعو لهم بخير ويقول:
«خَلّوا سَبيلها فإنّها مأْمُورةٌ».

فيخلوا سبيلَ النَّاقة، حتى إذا وَازَتْ دار بني الحارث بن الخزرج اعترضَه «سعد بن الربيع» و«خارجة بن زيد» و«عبد الله بن رواحة» في رجال من بني الحارث بن الخزرج فقالوا: يا رسول الله هلمَّ إلينا، إلى العددِ والعدة والمنعةِ»[3] قال:
«خلُّوا سَبيلها فإنَّها مأْمورة».

إلى أنْ نزلَ ﷺ على أبي أيوب الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ وشَكَرَ الرسولُ الكريم صَنيْعَ الأنصار وحفاوتهم به وإظهارهم الحبَّ والإيثار، فدعا لهم بالبركةِ والخير، وخَصَّ بني الحارث بن الخزرج بدعائه، فقد وردَ في الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«خيرُ دور الأنصار بنو النجار ثم بنو عبدِ الأشهل ثم بنو الحارث بن الخزرج ثم بنو ساعدة وفي كل دور الأنصار خير»[4].

---

(١) البداية والنهاية جزء / ٣/ ص١٩٧.
(٢) المصدر السابق جزء / ٣/ ص٢٠٣.
(٣) البداية والنهاية جزء / ٣/ ص١٩٨، وانظر عيون الأثر جزء / ١/ ص٢٣٥.
(٤) انظر البداية والنهاية جزء / ٣/ ص٢٠٣، والحديث أخرجه الشيخان، وانظر فضائل الصحابة ص٦٩.

* وبعد أن استقرَّ رسول الله ﷺ في المدينة، أخذ يرَتّبُ شؤونَه وشؤون أصحابه، ويعمل على إنْشاءِ المجتمع الفاضل، وذلك على أُسُس وقواعد من العدل والمساواة والتعاون والإخاء، وشرعَ ﷺ يُؤَاخي بين المسلمين، فآخى بين عبد الله بن رواحة والمقداد بن عمرو، وكلا الرجلين فارسٌ عظيم له صفحاتٌ مشرفة ومواقفُ رائعة في تاريخ حياتهما، وقد سُرَّ ابن رواحة بهذهِ المؤاخاة، وكذلك سائر الأنصار، إذ كان الأنصاري يشاطر أَخاه المهاجر دارَه ومالَه، فظهر منْ ألوانِ التضحية والإيثار والتعاون ما جعل مِنْ هذه الأخوة مضربَ المثل على مَرِّ العصور.

* ومنذ أنْ وطئتْ قدما رسول الله عليه الصلاة والسلام المدينة جعل «عبد الله بن رواحة» مجالسَ الرسول ربيعَ قلبه، فكان مِنَ المقربين إلى رسول الله، وغدا منْ كَتَبَةِ الوحي مع أخيه لأُمه «ثابت بن قيس» رضي الله عنهما، وجعل لسانَهُ وشعَرهُ في خدمة الرسول والإسلام، ناهيك بسيفه المُصْلت على أعداء الإسلام والمشركين والمنافقين.

جهـــاد ابـن رواحـة ومشـاهـده:

* وَصَفَ الصحابة الكرام عبد الله بن رواحة بقولهم:

«كان عبد الله بن رواحة أولَ خارجٍ إلى الغزواتِ وآخر قادم»[1].

وسنرى في الصفحات التالية صُوراً مشرقة عن مواقفِهِ ومشاهده رضي الله عنه وأرضاه.

ابـن رواحـة فـي غـزوة بـــدر:

* في السنة الثانية مِنَ الهجرة كانت غزوة بدر الكبرى، وفي هذه الغزوة كان لابن رواحة أثرٌ واضح في مواقفَ متعددة، فقد كانَ عميق الإيمان شديد الثقة بالله عزّ وجلّ، قريباً من الرسول، مندفعاً نحو الحق بشجاعة وحزم،

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات جزء / ١/ ص٢٦٥، والاستيعاب جزء / ٢/ ص٢٨٥.

يروي الواقدي في مغازيه أنَّ رسول الله ﷺ وقفَ وهو رافعٌ يديه يناشد ربه ما وعده مِنَ النَّصر ويقول: «اللهم إنْ تُظْهِر عليَّ هذه العصابة يَظهرِ الشرك ولا يَقُم لكَ دين» وأبو بكر يقول: واللهِ لينصُرنَّكَ الله وليُبيِّضَنَّ وجهك، وقال ابن رواحة: يا رسول الله إني أُشيرُ عليك ـ ورسول الله ﷺ أعظمُ وأعلمُ بالله مِن أنْ يُشار عليه ـ:
إنَّ الله أجلُّ وأعظمُ من أنْ تنشدَه وعده، فقال رسول الله ﷺ: «يابن رواحة، ألا أنْشُد الله وعده إنَّ الله لا يخلف الميعاد»[1].

* وتقابل الفريقان، ودنا بعضهُم مِنْ بعض، وخرج عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة حتى فَصَلوا من الصف، ثم دَعَوا إلى المبارزة فخرج إليهم «عبد الله بن رواحة» «وعوف» و«معوذ» ابنا الحارث فقالوا لهم: مَنْ أنتم؟

قالوا: رَهْطٌ مِنَ الأنصار.

فقالوا: ما لنا بكم منْ حاجة.

ونادى مناديهم: يا محمد أَخْرِجْ إلينا أكْفاءَنا مِنْ قومنا.

فقال النبي ﷺ: «قُمْ يا عُبيدة بن الحارث، وقُمْ يا حمزة، وقُمْ يا علي»[2].

فبارَزَ عبيدةُ عتبةَ، وبارز حمزةُ شيبةَ، وبارزَ عليٌّ الوليدَ، وما هي إلا لحظات حتى صُرِعَ شيبةُ والوليدُ، أمّا عبيدة وعتبة فقد اختلفا فيما بينهما ضربتين فوقعَ كلاهما على الأرض، فكرَّ عليٌّ وحمزةُ على عتبة وقتلاه، والتحمَ الجيشان وما هي إلا ساعات حتى مَنَّ اللهُ على المؤمنين بالنَّصر العظيم والفوزِ الكبير على المشركين؛ إذْ أَسَروا منهم سبعين وقتَلوا سبعين، وهُزِمَ المشركون وولّوا الدُّبُر، ورجعَ الرسول ﷺ مِنْ بدر إلى المدينة ومعه الأسارى والغنائم الكثيرة، وبعثَ عليه الصلاة والسلام بين يديه بشيرَيْنِ إلى المدينة يُخْبران أهلَها بالنّصر والظفرِ على مَنْ أشرك بالله، وكان البشيران؛ «عبد الله بن

(١) المغازي جزء / ١/ ص٦٧.
(٢) البداية والنهاية جزء / ٣/ ص٢٧٣.

رواحة» يُبشِّرُ أهل العالية[1]، «وزيد بن حارثة» يُبشِّرُ أهلَ السافلة، ويروي الواقدي في مغازيه قصة إرسال البشيرين إلى المدينة يقول:

«وقدَّمَ رسول الله ﷺ زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة من الأُثَيل فجاؤوا يوم الأحد شَدَّ[2] الضُّحى، وفارق عبد الله زيداً بالعَقيقِ، فجعل عبد الله ينادي على راحلته: يا معشرَ الأنصار أبْشِروا بسلامةِ رسول الله ﷺ وقَتْلِ المشركين وأسْرِهم[3]... ثم أتبعَ دور الأنصار بالعالية فبشرهم داراً داراً والصبيان ينشدون معه ويقولون:

قُتِلَ أبو جهل الفاسق. حتى انتهى مِنْ أهل العاليةِ.

وقدم زيد بن حارثة على ناقة النبي ﷺ القصْواء يبَشّرُ أهل السافلة بنصرِ الله ورسوله والمؤمنين على الكفار، ثم مضى رسول الله ﷺ إلى المدينة، فتلقّاهُ النَّاس يهنئونه بفتحِ الله ونصرهِ.

* كان لعبد الله بن رواحة رضي الله عنه شأنٌ يُذْكَرُ في قصة أسارى بَدْر حيث إنَّ الرسولَ الكريمَ قد عقد مجْلساً للشورى، وكان منْ أعضاءِ هذا المجلس «أبو بكر الصديق» و«عمر بن الخطاب» و«علي بن أبي طالب» و«عبد الله بن رواحة»، ثم استشار عليه الصلاة والسلام هؤلاء الصحابة في شأْنِ الأسَارى وقال:

«إنَّ اللهَ قدْ أمْكَنكُم منهم»[4].

فأشارَ بعضهم بأنْ يُقتلوا أو يُحرقوا لأنَّهم رؤوسُ الكفر وأئِمةُ الضلالة والفتنة، وأشار بعضهم بأنْ تُقْبَل منهم الفِدية ليكون المال الذي يُؤْخَذُ منهم فدية للمسلمين، ولعلَّ الله سبحانه أنْ يلهمَهُم التوبة فيتوبوا، فآثَرَ رسول الله

---

(١) طبقات ابن سعد جزء / ٣/ ص٥٢٦، وأهل العالية هم: بنو عمرو بن عوف وخطمة ووائل.

(٢) شد الضحى: ارتفاعه أي قبل الزوال.

(٣) المغازي جزء / ١/ ص١١٤.

(٤) انظر البداية والنهاية جزء / ٣/ ص٢٩٦.

ﷺ الفداء؛ ولنستمعْ إلى دَوْرِ ابن رواحة في هذا الموقفِ، فقد رَوى الإمام أحمد عن عبيدة عن عبد الله بن مسعود قال:

«لما كانَ يوم بدر قال رسول الله ﷺ:

«ما تقولونَ في هؤلاء الأسْرى؟»

فقال أبو بكر: يا رسول الله، قومُك وأهلُك اسْتَبْقِهِم وَاسْتَأْنِ بهم لعلَّ الله أنْ يتوبَ عليهم.

وقال عمرُ: يا رسول الله، أخرجُوك وكذبوك فاضرِبْ أعناقهم.

وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله، انْظُر وادياً كثير الحطب فأدخِلْهُم فيه ثم أضْرِمْهُ عليهم ناراً.

[قال] فدخل رسول الله ﷺولم يَرُدَّ عليهم شيئاً.

فقال ناسٌ: يأخذ بقول أبي بكر.

وقال ناسٌ: يأخذ بقول عمر.

وقال ناس: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة.

فخرج عليهم فقال:

«إنَّ الله لَيُلَيْنُ قلوبَ رجال فيه حتى تكون ألْين من اللَّبَنِ، وإنَّ الله ليشدُّ قلوب رجال فيه حتى تكون أشَدّ من الحجارة، وإنَّ مثَلَكَ يا أبا بكر كَمَثل إبراهيم عليه السلام قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1] ومثَلَكَ يا أبا بكر كمثلِ عيسى عليه السلام قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[2] وإنَّ مثلكَ يا عمرَ كمثلِ نُوحٍ عليه السلام قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[3] وإنَّ مثلك يا عمر كمثل موسى عليه السلام قال: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ

(١) سورة إبراهيم آية /٣٦/ .
(٢) سورة المائدة آية /١١٨/ .
(٣) سورة نوح آية /٢٦/ .

﴿ٱلۡأَلِيمَ﴾[1]. أنتمْ عَالةٌ[2]، فلا يبقينَ أحدٌ إلا بفداء أو ضَرْبة عُنُق[3]».

* ولقد عاتبَ اللهُ رسولَه على أنْ قَبِلَ الفداء وآثره على الإثْخانِ في قَتْلِ العدو فقال سبحانه وتعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٧ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾[4].

ابنُ رواحة وغزوةُ أُحُد:

* مرَّ عامٌ كامل على انتصار المسلمين في غزوة بدرٍ الكبرى، وجاءتْ غزوة أحد، فلم يَغِبْ عبد الله بن رواحة عن ساحتها، بل ثَبَتَ في وجه العدو وقاتلَ قتالاً شديداً، وأبلى بلاءً حسناً، وانتهتِ المعركة وفيها استُشهد نحو سبعين رجلاً من المسلمين، ونزلَ رسول الله إلى مكان المعركة لينظرَ إلى الشهداء من أصحابه، فلما رأى عمَّه صريعاً وقد مُثِّلَ به، حَزِنَ عليه حزناً شديداً وقال:

«ما وقفتُ موقفاً أغْيَظَ إليَّ مِنْ هذا الموقف».

* ورَجَعَ النبيُّ إلى المدينةِ قافلاً مِنْ أُحد، ولما وصل إلى المدينة وَجَدَ نساءَ الأنصار يبكين على قتلاهم فسمعَ ذلك رسول الله فقال: «لكنَّ حمزةَ لا بَواكي له».

وتصل هذه الكلمة إلى سمع «سعد بن معاذ» و«أسيد بن حضير» فأمَرا نساءهم أنْ يتحزمنَ ثم يذهبنَ فيبكين على عمِّ رسول الله ﷺ، وجاء كذلك «عبد الله بن رواحة» بنساء بني الحارث بن الخزرج[5]، ليشاركَ في الحزن على حمزةَ أسدِ الرحمن، ولما سمعَ رسول الله بكاءهن قال:

---

(١) سورة يونس آية /٨٨/ .

(٢) فقراء.

(٣) البداية والنهاية جزء /٣/ ص٢٩٧ وانظر تفسير ابن كثير جزء /٣/ ص٣٤٦.

(٤) سورة الأنفال آية ٦٧/ ٦٨.

(٥) المغازي جزء /١/ ص٣١٧.

«رحم الله الأنصار فإنَّ المواساة منهم ما عتّمتُ لقديمة، مُرُوهنَّ فلينصرفنَ» ثم قال رسول الله ﷺ: «ما هذا أردتُ». ونهاهُنَّ عنِ البكاءِ أو النَّوحِ.

* وبعد، فهل انتهى جهاد ابن رواحة في هذه الغزوة عند هذا الموقف؟ هل حارب بسيفه أو أمر نساءَ بني الحارث بالبكاء فحسب؟ إنَّ عبد الله بن رواحة يقدم كل يملك وما يستطيع في سبيل الله ورسوله، وقد شاركَ لسانُه وشعرُه في هذه الغزوة فقال يرثي حمزة بن عبد المطلب بقصيدة مؤثرة:

بكَتْ عيني وحقَّ لها بُكاها	وما يُغني البكاءُ ولا العويلُ
على أسَد الإله غداةَ قالوا	أحمزةُ ذاكمُ الرّجلُ القَتيلُ
أصِيبَ المسلمون بهِ جميعاً	هناكَ وقد أصيبَ به الرسولُ
أبا يعلى لكَ الأركانُ هُدَّتْ	وأنت الماجدُ البَرُّ الوصولُ
عليكَ سلامُ ربِّك في جنانٍ	مخالطُها نعيمٌ لا يزولُ
ألا يا هاشم الأخيارِ صَبراً	فكلُّ فعالكمْ حَسَنٌ جميلُ[1]

* بعد غزوة أحد تألبتْ بعضُ القبائل على المسلمين، وظنَّ البدو الذين كانوا يحيطون بالمدينة أنَّهم قادرون على أنْ يُغيروا على المدينة فينتهبُوها، ولكنَّ الرسولَ عليه الصلاة والسلام استطاعَ تأديبهم، ثمَّ غدرتْ قبيلتا عَضَل والقَارَة بسبعةٍ مِنْ أصحاب رسول الله ﷺ وعلى رأسهم «عاصم بن ثابت»، وكان ألَمُ الرسول عليه الصلاة والسلام عظيماً لمقتَلِهم، لأنَّهم كانوا من خيرة القُّراءِ مِنْ أصحابهِ، ولِمَا كانَ في قتْلِهم من ضروبِ الخيانة والغدرِ والمُثْلة.

* لم تَمْضِ فترة وجيزة حتى أصابَ الرسول والمسلمين حادثٌ أليم آخر، فقد غدرتْ بنو عامر وسُلَيم بأربعين مِنْ أصحاب رسول الله ﷺ عند بِئْر مَعُونة، وكان بين المسلمين «نَافع بن بُديل بن ورقاء» الخزاعي صديق عبد الله بن رواحة، فقال يرثيه:

رحمَ اللهُ نافعَ بن بديل	رحمةَ المُبتَغي ثوابَ الجهاد

(١) تفسير القرطبي جزء / ٤/ ص١٨٨ ـ ١٨٩، والبداية والنهاية جزء / ٤/ ص٥٩.

صابرٌ صادقٌ وفيٌّ إذا ما أكثر القومُ قالَ قولَ السَدادِ[1]

* ماذا بَقِيَ لابنِ رواحة مِنْ آثار غزوةِ أُحُد بَعْد؟ لا زَالَ في جعبتِه الكثير، إنَّه أميرُ عاصمة الإسلام الآن، وذلك لمَّا أرادَ أبو سفيان بن حرب ومنْ معه من المشركين أنْ ينسحب مِنْ ساحةِ أحُد نادى بأعلى صوته: موعدُ بيننا وبينكم بدر الصفراء رأس الحَوْل نلتقي فيه فنقتتل؛ فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه:

«قُلْ نعم إنْ شاءَ الله[2]».

ولما دنا الموعد لم يَنْشَط أبو سفيان للوفاءِ بالميعاد الذي حدَّده عند منصرَفهِ مِنْ أحد، وعزَم على ألاّ يخرج إلى بدر في ذلك العام، وأخذ يلجأ إلى الحيلة ليخذِّلَ المسلمين ويثنيهم عن الخروج، فاستأجرَ رجلاً يقال له: «نُعيم بن مسعود»، وأوعز إليه أنْ يأتي المدينة فيشيع في الناس أنَّ قريشاً قد جمعتْ للمسلمين جُموعاً لا قِبَلَ لهم بها، فقدمَ نُعيم وجعلَ يُرجفُ[3] في المدينة بكثرة جموعِ قريش، وراح يطوفُ بهذا القول في أصحاب رسول الله ﷺ حتى رعَّبَهم وَكَرَّهَ إليهم الخروج، وبلغَ ذلك الرسولَ عليه الصلاة والسلام حتى خافَ ألاّ يخرج معه أحَدٌ، فجاءَه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما وقد سمِعَا ما سمعا فقالا: يا رسول الله، إنَّ الله مظهرُ دينهِ ومُعزٌّ نبيّه وقد وعدنا القوم موعداً، ونحن لا نحبُّ أنْ نتخلَّفَ عن القوم فيَروْن أنَّ هذا جُبْنٌ مِنّا عنهم، فَسِرْ لموعدهم فوالله إنَّ في ذلك لخيرة، فَسُرَّ رسول الله ﷺ ثم قال:

«والذي نفسي بيده لأَخْرُجنَّ وإنْ لمْ يخرجْ معي أحدٌ[4]».

ولما تكلَّم رسول الله ﷺ سُرِّيَ عن المسلمين وخرجوا بتجاراتٍ لهم إلى بدر، وقد ربحتْ كثيراً حيثُ إنَّ بدرَ الصفراء كانت مجمعاً للعرب في سوق

---

(١) المغازي جزء / ١/ ص٣٥٣.
(٢) المغازي جزء / ١/ ص٣٨٤.
(٣) يُرجف: ينشر ويذيع الأخبار السيئة الكاذبة بين الناس بقصد إثارة الفتن.
(٤) المغازي جزء / ١/ ص٣٨٦ ـ ٣٨٧.

تُقَام كل سنة؛ وخرجَ رسول الله ﷺ في ألفٍ وخمسمئة مِنْ أصحابه في شعبان من السنة الرابعة من الهجرة الشريفة، واستخلف على المدينة سيدنا «عبد الله بن رواحة[1]» ولما أتَوْا بدراً لم يجدوا بها أحداً مِنْ قريش لأنَّ أبا سفيان قد خرجَ من مكة متثاقلاً يفكرُ في عقْبى القتال مع المسلمين، ولمّا اقتربَ من «الظَّهْران» بدا له أنَّ في الرّجوع السلامة، فرجع بقومه وهو يقول لهم: يا معشر قريش إنَّه لا يصلحكم إلا عام ترعَوْن فيه الشَّجر وتشربون فيه اللبن وإنَّ عامَكُم هذا عام جدب وإني راجعٌ فارجعوا. ثم رجعَ ورجعتْ قريش معه فسمَّاهَم أهلُ مكة جيش السّويق، يقولون: إنَّما خرجتم تشربون السّويق[2].

* أمَّا رسول الله ﷺ وأصحابه فقد ظلَّوا ببدرٍ ثمانيةَ أيام يرتقبونَ أهل مكة، وبذلك نَفَوا عنِ أنفسهم آثار الهزيمة في أُحُد، واستعادوا ما كان لهم في نفوسِ النَّاس مِنْ هيبةٍ ومكانة، وفي هذه الغزوة نزل قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[3].

ابن رواحة في غزوة الأحزاب:

* في السنة الخامسةِ مِنَ الهجرة النبوية الشريفة، أقبلتِ الأحزاب في جمع لاقِبَلَ للمسلمين بردِّه، وكان عددهم نحو عشرة آلاف مقاتل، بقيادة أبي سفيان بن حرب، ولمَّا علم رسول الله ﷺ بنبأ هذا الجيش جمع أصحابه وشاورهم فيما ينبغي أنْ يعملَ، فقال «سلمانُ الفارسي» رضي الله عنه:

---

(١) الكامل في التاريخ مجلد /٢/ ص١٧٦، وانظر طبقات ابن سعد جزء /٣/ ص٥٢٦.
(٢) الكامل في التاريخ مجلد /٢/ ص١٧٥، وانظر المغازي جزء /١/ ص٣٨٨.
(٣) سورة آل عمران آية /١٧٣ ـ ١٧٥/.

* «يا رسول الله إنَّا كُنا بأرضِ فارس إذا خِفْنا العدو خَنْدَقْنا علينا» فأعجبتِ الفكرةُ الرسول والمسلمين، وبدأ العمل بتنفيذِ الفكرة، وعمل رسول الله ﷺ مع أصحابه لينشطَهم، وكان المسلمون يعملون في حفْرِ الخندق وهم يرتجزونَ الأراجيز ويتناشدونها يخففون بها عن أنفسهم ويستثيرون بها نشاطهم وهمتهم، فكان رسول الله ﷺ يشاركهم في أراجيزهم ويرددُ معهم أناشيدهم، وكان عبد الله بن رواحة رضي الله عنه يعملُ في الحفرِ مع مَنْ يعمل ويرتجز وينشد مع المسلمين، فقد روى البخاري بسنده عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: «لمّا كان يوم الأحزاب وخندقِ رسول الله ﷺ رأيته ينقل مِنْ ترابِ الخندق حتى وَارَى عني التراب جلدةَ بطنه ـ وكان كثير الشعر ـ فسمعتهُ يرتجزُ بكلماتِ عبد الله بن رواحة وهو ينقل التراب ويقول:

والله لولا اللهُ ما اهتدينا ... ولا تصدقْنَا ولا صَلينا
فأنزلنْ سكينةً علينا ... وثبِّت الأقدامَ إنْ لاقينا
إن الألى[1] قد بَغَوا علينا ... إذا أرادوا فتنةً أبَيْنا

ورفع بها صوته أبَيْنا أبَيْنا[2]».

وكان المسلمون في الخندق يُرَوِّحون عن أنفسهم بترديدِ الكلمات الأخيرة من مقاطع الرَّجز، وكان رسول الله ﷺ يمدُّ صوته بها معهم فيقول: «لاقينا.. أبينا..».

* قضى المسلمون على هذه الحال نحو شهر في أيام شديدة البرد على قلةٍ من الطعام وشُحّ منَ القوت، ولاقى عبد الله بن رواحة والمسلمون الجهدَ والألَمَ في هذه الموقعة، وكانوا يأكلون مما يبعثُ به أهلوهم، حدثتْ ابنة «بشير بن سعد» رضي الله عنهما قالت:

«دعتْني أمي «عَمرة بنت رواحة» فأعطتْني حفنةً مِنْ تَمْرٍ في ثوبي ثم قالت: أي بنية اذهبي إلى أبيك وخالك عبد الله بن رواحة بغدائهما. قالت: فأخذتُها

---

(١) الألى: لا يستقيم بها وزن الرجز ـ والصواب الكافرون قد بغوا علينا.
(٢) انظر البداية والنهاية جزء / ٤/ ص٩٦.

وانطلقتُ بها فمرْرتُ برسول الله ﷺ وأنا ألتمسُ أبي وخالي فقال: «تعالَيْ يا بنية ما هذا معك»؟ قالت: قلتُ يا رسول الله هذا تَمْر بعثتني به أمّي إلى أبي بشير بن سعد وخالي عبد الله بن رواحة يتغديانه. فقال: «هاتيه» قالت: فصببتُهُ في كَفَّي رسول الله ﷺ فما ملأتهُما، ثم أمر بثوبٍ فَبُسِط له ثم دَحَا بالتَّمر عليه فتبددَ فوقَ الثوب ثم قال لإنسان عنده:

«اصرخْ في أهلِ الخندق أنْ هلمَّ إلى الغداء».

فاجتمع أهلُ الخندق عليه فجعلوا يأكلون منه، وجعلَ يزيدُ حتى صدرَ أهل الخندق عنه وإنَّه ليسقطُ مِنْ أطرافِ الثوب[1]».

* وهذه إحدى المعجزات التي كانتْ يوم حفر الخندق، ومكرُمةٌ لسيدنا عبد الله بن رواحة وبشير بن سعد رضي الله عنهما.

ابـن رواحـة أميـرُ سـريــة:

* عُرِفَ اليهود على مرِّ تاريخهم أنَّهم أصحابُ غدْرٍ وحقد، فقد بلغ رسول الله ﷺ أنَّ يهود خيبر، يُعِدون العدة لمهاجمة المدينة بقيادة ملكهم الجديد «أسَيْر بن رِزَام» الذي استعان بقبيلةِ غطفان في خطته، فأحبَّ النبي ﷺ أنْ يتحققَ مِنْ صحةِ هذا الخبر، فاختار عليه الصلاة والسلام «عبد الله بن رواحة» لهذه المهمة لشجاعته فبعثَه في ثلاثةِ نَفَرٍ ينظر إلى خيبر وحال أهلها، وما يريدون وما يتكلمون به، فأقبلَ عبد الله بن رواحة حتى أتى ناحية خيبر فجعل يدخل الحوائط، وفرَّقَ أصحابه في النَّطاةِ، والشّقَ، والكتيبة[2]، وَوَعَوا ما سمعوا من أُسَيْرٍ وغيره، ثم خرجوا بعد إقامةِ ثلاثة أيام، فرجع إلى النَّبي ﷺ للَيال بقينَ من رمضان، فخبَّر النبي ﷺ بكل ما رأى وسمع، ثم بعثه النبي بسريةٍ إلى أسَيْر بن رِزَام في شوال من السنة السادسة للهجرة، فكانت سريةً موفقة عظيمةَ البركةِ، ولندعِ الواقدي يحدثنا عن هذه السرية قال:

---

(١) البداية والنهاية جزء /٤/ ص٩٩، وانظر السيرة الحلبية جزء /٢/ ص٦٥٥ والمغازي جزء /٢/ ص٤٧٦.

(٢) من آطام خيبر، وهي مقسمة إلى ثلاث مناطق حربية؛ النطاة والشق والكتيبة.

«كان أسَيْرُ رجلاً شجاعاً فلما قُتِلَ أبو رافع[١] أمَّرتْ اليهود أسَيْر بن رِزَام فقام في اليهود فقال: إنَّه واللهِ ماسار محمدٌ إلى أحَدٍ مِنَ اليهود إلا بعثَ أحداً مِنْ أصحابه فأصابَ منهم ما أراد، ولكني أصنعُ ما لا يصنعُ أصحابي فقالوا: وما عسيتَ أنْ تصنعَ ما لم يصنعْ أصحابك قال: أسِيْرُ في غطفان فأجمعهم، فسارَ في غطفان فجمعها ثم قال: يا معشرَ اليهود، نَسيرُ إلى محمد في عُقْرِ داره فإنَّه لم يُغْزَ أحدٌ في داره إلاّ أدركَ منه عدوه بعضَ ما يريد، قالوا: نِعْمَ ما رأيت. فبلغَ ذلك النَّبيَّ ﷺ، فنَدَبَ له ثلاثين رجلاً. قال «عبد الله بن أُنَيْس»: فكنتُ فيهم فاستعمل علينا رسول الله ﷺ عبد الله بن رواحة، فخرجنا حتى قدِمْنا خيبر فأرسلْنا إلى أُسَيْر: إنَّا آمنون حتى نأتيكَ فنعرض عليك ما جئنا له! فقال: نعم ولي مثلُ ذلك منكم! قُلنا: نعم. فدخلْنَا عليه فقلنا: إنَّ رسول الله بعثَنَا إليك أنْ تخرجَ إليهِ فيستعملك على خيبر ويُحْسِن إليك، فطمعَ في ذلك، وشاوَرَ اليهود فخالفوه في الخروج وقالوا: ما كان محمد يستعمل رجلاً من بني إسرائيل فقال: بلى قد ملَلْنَا الحرب، فخرجَ معه ثلاثون رجلاً من اليهود مع كل رجل رديفٌ من المسلمين، فَسِرنا حتى إذا كنا «بقَرقَرة ثِبار[٢]» نَدمَ أُسَيْر حتى عرفْنا الندامةَ فيه. قال عبد الله بن أُنَيْس: وأهوى بيده إلى سيفي ففطنتُ له فدفعتُ بعيري فقلت: غَدراً أيْ عدو الله! ثم تناومتُ فدنوتُ منه لأنظر ما يصنع، فتناول سيفي فغمزت بعيري وقلت: هل مِنْ رجل ينزلُ فيسوقُ بنا؟ فلمْ ينزلْ أحَدٌ، فنزلتُ عن بعيري فسقتُ بالقوم حتى انفردَ أُسَيْرٌ فضربته بالسيف فقطعتُ مؤخرة الرَّجلِ وأندرتُ[٣] عامةَ فخذهِ وساقِهِ، وسقط عن بعيره وفي يده مخْرِش مِنْ شوْحَط[٤]، فضربني فشجَّني شجَّةً مأمومة[٥]، ومِلْنا على أصحابه فقتلناهم كلَّهم غيرَ رجل واحد أعجزنا شدّاً. ولم يُصبْ من

---

(١) ملك اليهود سلاّم بن أبي الحقيق.

(٢) موضع على بعد ستة أميال من خيبر.

(٣) أسقطت.

(٤) المِخْرش: عصا معوجة الرأس. الشوحط: نوع من شجر الجبال.

(٥) أي بلغت أم الرأس.

المسلمين أحد، ثم أقبلْنا إلى رسول الله ﷺ، فبينا رسول الله ﷺ يحدثُ أصحابه إذ قال لهم: تمشَّوا بنا إلى الثَّنية نتحسبُ من أصحابنا خبراً فخرجوا معه، فلمّا أشرفوا على الثنية فإذا هم بسَرعَان أصحابنا، فجلسَ رسول الله ﷺ في أصحابه وانتهينا إليه فحدثناه الحديثَ فقال: «نجّاكم اللهُ مِنَ القومِ الظالمين[1]».

* وهكذا نجحَ عبد الله بن رواحة أميراً وفارساً في سرية مِنْ أعظم السرايا الإسلامية، فنالَ بها التوفيق ورضاءَ رسول الله ﷺ. ولم يكن ابن رواحة رضي الله عنه ذلك الفارس الذي لا يعرفُ إلا الحرب أو الشاعر المبدع فحسب! بل كان له خبرة بالزراعة وشؤونها وتقدير الزَّرع والأثْمان وخبرة تامة بالتَّمر أيضاً، ففي العام السابع من الهجرة خرج رسول الله ﷺ إلى خيبر، ففتح الله خيبر له وشهد ابن رواحة هذا الفتح العظيم، وكان الرسول الكريم لمّا فتح خيبر سأَلهُ اليهود فقالوا: يا محمد نحنُ أرباب النَّخْلِ وأهل المعرفة بها؛ فَسَاقَاهم[2] رسول الله ﷺ خيبر على شَطْرٍ من التمر والزرع، وكان يزْرَع تحت النخل، فقال رسول الله ﷺ:

«أُقِرُّكُم على ما أقركم الله».

وكان ﷺ يبعثُ عبد الله بن رواحة يَخْرِص[3] عليهم النَّخْل، فكان يخرِصُها فإذا خَرَصَ قال:

* إن شئْتُم فلكم وتضمنون نصفَ ما خَرَصْتُ، وإن شئتم فَلَنا ونضمن لكم ما خرصت، وقد خَرص عليهم أربعين ألف وسق فجمعوا له حُليّاً من

---

(١) المغازي جزء / ٢/ ص٥٦٦/ ٥٦٧/ ٥٦٨. وانظر طبقات ابن سعد جزء / ٢/ ص٩٢ ـ ٩٣.

(٢) أي استعملهم على أن يعمروا النخل ويسقوه ويقوموا بمصلحته لقاء أسهم يتفق عليها.

(٣) أي: يقدر للشيء وزناً أو كيلاً أو عدداً على وجه التقريب.

حُليِّ نسائهم فقالوا: هذا لكَ وتجاوزْ في القَسم[1]، فقال:

* يا معشر اليهود: «واللهِ إنكم لَمِنْ أبغض خلقِ الله إليَّ وما ذاك يحملني أنْ أحيفَ عليكم» قالوا: «بهذا قامتِ السمواتُ والأرض[2]». وخَرصَ عبد الله بن رواحة نخيلَ خيبرَ سنتين[3].

ابـن رواحــة فـي الحديبيـة وعمـرة القضـــاء:

* خرجَ رسول الله ﷺ يُريدُ العمرة، وأحْرمَ ليعلم الناس أنَّه لا يريدُ حرباً وسَاقَ معه الهدي، وسار معه قرابة ألف وأربعمئة من أصحابه، وفيهم أبو بكر وعمر وعبد الله بن رواحة وغيرهم من الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، غير أنَّ قريشاً صَدَّتْهُم عن أداءِ العمرة، وعُقِدتْ بين الفريقين آنذاك هدنة عُرِفتْ بـ«الحُديبية» كان مِنْ شروطها أنْ يرجع النَّبي ﷺ هذا العام، وإذا كان العام القابل، خرجتْ قريش من مكة ودخل الرسول ﷺ بأصحابه فأقامَ فيها ثلاثاً معه سلاح الراكب فقط، وكان الصلح قد تمَّ في شهر ذي القعدة في السنة السادسة للهجرة.

* ولما أهلّ شهر ذي القعدة من السنة السابعة للهجرة، أعدَّ رسولُ الله عُدَّتَه، ووجَّه نداء إلى أصحابه أمرهم فيه بأنْ يستعدوا للتوجه إلى مكة المكرمة ليعتمروا عمرةَ القضاء وألاّ يتخلف أحدٌ عن عمرة القضاء ممن شَهِدَ الحديبية في السنَّةِ السادسة للهجرة، وانطلق رسول الله ﷺ بأصحابه حتى دخل مكةَ في موكب يبهرُ العيونَ ويسحرُ الألباب، ويدعو إلى التأمل والعجب معاً، فقد كان النبي ﷺ راكباً على ناقتهِ القصْواء والمسلمون يحدقون به من كل جانب مخافة أنْ يُصابَ بأذىً مِنَ المشركين، في تلك الأثناء اجتاح الحماسُ بمجامعِ نفْس عبد الله بن رواحة وهو آخذٌ بزمامِ ناقة رسول الله ﷺ

---

(١) يريدون الرشوة له ليخفف عنهم.
(٢) المغازي جزء /٢/ ص٦٩٠/ ٦٩١، وانظر سير أعلام النبلاء مجلد /١/ ص٢٣٧.
(٣) البداية والنهاية جزء /٤/ ص٢٠٢.

وقد أخذتْهُ النَّشوة والحميةُ بنصرِ الله، فانطلق يرتجز بين يدي رسول الله بشعْرِهِ وهو يطوفُ ويقول:

خَلوا بني الكفّار عن سبيلهِ ... خلّوا فكلُّ الخيرِ في رسُولهْ
يا ربِّ إنَّي مؤمنٌ بِقِيْله ... أعْرفُ حقَّ الله في قَبُولهِ
نحنُ قتلْناكم على تأويله ... كما قتلْناكم على تنزِيله
ضَرباً يزيلُ الهام عَنْ مقيْلِه ... ويذهلُ الخليلَ عَنْ خليلِه[1]

فقال عمر بن الخطاب: يابن رواحة، أفي حرم الله وبينَ يدي رسول الله ﷺ تقول هذا الشعر؟! فقال الرسول ﷺ: «خَلِّ عنه يا عمر فوالذي نفسي بيده لكلامه أشدُّ عليهم مِنْ وقْع النبل[2]». وسكتَ عمر بن الخطاب رضي الله عنه وظلَّ عبد الله بن رواحة يرتجزُ حتى إذا بلغَ رسول الله الحرم قال لعبد الله بن رواحة:

«إيْهاً يابن رواحة! قُلْ: لا إله إلا الله وحده، صدقَ وعده، ونصر عبده، وأعزَّ جندَهُ، وهزمَ الأحزاب وحدهُ».

فجعل ابن رواحة يقولُها والناس من ورائه يرددونها في حماسةٍ وقوة، ولم يزَلِ الرسول ﷺ يُلبّي حتى استلمَ الركن بمحجنه[3].. ثم أكمل بقية أركان العمرة مع أصحابه.

* مكثَ رسول الله ﷺ مع أصحابه ثلاثة أيام حسْب الشَّرْطِ، رأى خلالها أهلُ مكة عظمة الرسول والإسلام، ثم غادرها وقد ترك أثراً طيباً في نفوس أهلها، وكان ابن رواحة لا يفارقُ رسول الله ﷺ، بل يبقى بالقرب منه يرشفُ مِنَ المعين النبوي الصافي فتنتعشُ روحه وترتوي نفسه.

---

(١) الكامل في التاريخ مجلد / ٢/ ص٢٢٧.
(٢) سير أعلام النبلاء مجلد / ١/ ص٢٣٥، وانظر الإصابة مجلد / ٢/ ص٢٩٩، وتفسير القرطبي جزء / ١٣/ ص١٥١.
(٣) المحجن: عصا صغيرة.

ابـن رواحــة الأميـر الشـهيـد فـي مـؤتــة :

* كانت سرية مؤتة في جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة بعد عمرة القضاء بنحو خمسة أشهر، ومما هو جدير بالذكر أنَّ البخاري وابن إسحاق قد سمّياها «غزوة مؤتة» لكثرةِ جيش المسلمين وإنْ لم يخرجْ فيها النبي ﷺ.

* وسببُ هذه السرية أنَّ رسول الله ﷺ، بعث إلى الملوك وأمراء يدعوهم إلى الإسلام، فكلهم أكرمَ الرسل وأحسن وفادته غير «شرحبيل بن عمرو» الغسّاني، أحد عمال الروم على الشَّام، فقد قَتَلَ أحَدَ رُسلِ النَّبي ﷺ، روى الواقدي بسنده عن عمر بن الحكم قال:

«بعثَ رسول الله ﷺ «الحارثَ بن عُمير الأزدي» إلى ملكِ بصرى بكتاب، فلما نَزَل «مؤتة» عرضَ له شرحبيل بن عمرو الغساني فقال: أينَ تريد؟ قال: الشَّام. قال: لعلك من رُسلِ محمد؟ قال: نعم، أنا رسولُ رسول الله، فأمرَ به فأُوْثِق رباطاً ثم قدَّمه فضرب عنقه صبراً، ولم يُقْتَلْ لرسول الله ﷺ رسولٌ غيره[1]».

* ولما بلغَ رسول الله ﷺ مقْتَل «الحارث بن عُمير» اشتدَّ عليه، ونَدَبَ الناس وأخبرهم نبأ مقْتل الحارث، ومن ثم استنْفَر النَّبي أصحابه، فخرج منهم ثلاثة آلاف للحرب وعسكروا بالجرُف[2] ولم يُبيّنْ عليه الصلاة والسلام الغرضَ مِنْ هذا الأمر، ثم عيَّنَ رسول الله قادة الجيش فقال:

«زيد بن حارثة أميرُ الناس، فإنْ قُتلَ زيد بن حارثة فجعفر بن أبي طالب، فإن أصيبَ جعفر فعبد الله بن رواحة، فإنْ أصيب عبد الله بن رواحة فلْيرتضِ المسلمون بينهم رجلاً فليجعلوه عليهم[3]».

* ثمّ عقد رسول الله ﷺ لواءً أبيضَ ودفعه إلى زيد بن حارثة رضي الله

---

(١) المغازي جزء / ٢/ ص٧٥٥/ ٧٥٦.
(٢) الجُرف: موضع على بعد ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام.
(٣) المغازي جزء / ٢/ ص٧٥٦، وانظر البداية والنهاية جزء / ٤/ ص٢٤١.

عنه، وخرجَ المسلمون إلى مؤتة وعددهم ثلاثة آلاف، وقد وصَّاهم رسول الله وصيةً عظيمة تدلُّ على أنَّه الرحمة المهداة وقد شملتْ وصيتُه جيشَ المسلمين جميعاً، وخَصَّ قائدَ الجيش أيضاً بكلمات مضيئات، فأوصى عليه الصلاة والسلام ألاَّ يغدروا ولا يقتلوا وليداً أو امرأة أو كبيراً فانياً أو منعزلاً في صَوْمعة؛ بل تعدتْ وصيتهُ إلى الأمور الاقتصادية، فأوْصاهم ألاَّ يقربوا نخلاً ولا يقطعوا شَجَراً ولا يهدموا بناءً، ولنستمعْ إلى هذه الوصية التاريخية الكريمة، فعن زيد بن أرقم أنَّ رسول الله ﷺ قال:

«أوصيكم بتقوى الله وبمنْ معكم مِنَ المسلمين خيراً، أو قال: اغزوا باسمِ الله في سبيل الله، فقاتلوا مَن كَفَر بالله، لا تغدروا ولا تغلّوا ولا تقتُلوا وليداً» ثمّ قال يخاطب القائد:

«وإذا لقيتَ عدوك مِنَ المشركين، فادعهم إلى إحدى ثلاث فأيتهن ما أجابوك إليها فاقبلْ منهم واكففْ عنهم، ثمَّ ادعهم إلى الدخولِ في الإسلام فإنْ فعلوا فاقبل منهم واكففْ عنهم، ثمّ ادعُهمْ إلى التحوّل منْ دارهم إلى دارِ المهاجرين فإنْ فعلوا فأخبرهم أنَّ لهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، وإنْ دخلوا في الإسلام واختاروا دارهم فأخبرهم أنَّهم يكونون كأعرابِ المسلمين، يجري عليهم حُكْم الله ولا يكون لهم في الفيءِ ولا في القسمة شيء إلاَّ أنْ يجاهدوا مع المسلمين، فإنْ أبَوْا فادعُهم إلى إعطاء الجزية فإنْ فَعَلوا فاقبلْ منهم واكففْ عنهم، فإنْ أبوا فاستعنْ بالله وقاتلهم، وإنْ أنتَ حاصرت أهل حصن أو مدينة فأرادوك أنْ تستنزَلهم على حكمِ الله فلا تستنزلهم على حكم الله، ولكنْ أنزلهم على حكمك، فإنَّك لاتدري أنصيب حكم الله فيهم أم لا، وإنْ حاصرت أهل حصن أو مدينة فأرادوك على أنْ تجعل لهم ذمة الله وذمة رسوله فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة رسوله، ولكن اجعل لهم ذمتكَ وذمة أبيك وذمة أصحابك، فإنكم إنْ تخفروا ذمتكم وذمم آبائكم خير لكم مِنْ أنْ تخفروا ذمة الله وذمة رسولِهِ».

ثمّ تابعَ الرسول ﷺ خطابه للجيش كله فقال:

«اغزوا باسم الله، فقاتلوا عدوَّ الله وعدوكم بالشَّام، وستجدون فيها رجالاً

في الصَّوامعِ معتزلينَ للناس فلا تعرّضوا لهم، وستجدونَ آخرين للشيطان في رؤوسهم مَفَاحِص[1] فاقْلعوها بالسيوف، ولا تقتُلن امرأة ولا صغيراً مرضعاً ولا كبيراً فانياً، لا تعزقُن نَخْلاً ولا تقلعن شجراً ولا تهدموا بيتاً[2]».

* كان جنود المسلمين يستمعونَ إلى هذه النصائح العظيمة وعبد الله بن رواحة القائد الثالث يشنِّفُ سمعه بهذه الخطبة الرائعة، وقد أحب أنْ يستزيدَ، ولما وَدَّع رسول الله ﷺ ابن رواحة قال ابن رواحة: يا رسول الله، مُرني بشيء أحفظُه عنك، قال: «إنك قادمٌ غداً بلداً السجودُ به قليلٌ فأكثِرِ السجود».

قال ابن رواحة: زِدنْي يا رسول الله، قال:

«اذكرِ الله فإنّه عونٌ لك على ما تطلب».

فقام منْ عنده حتى إذا مضى ذاهباً رجَعَ إليه فقال: يا رسول الله إنَّ الله وتْرٌ يحبُ الوِتْرَ، قال:

«يابن رواحة ما عجزتَ فلا تعجزنْ إنْ أسأتَ عشراً أنْ تُحسن واحدة».

فقال ابن رواحة: لا أسألك عن شيء بعدها[3]..».

* ولما حضر خروج المسلمين إلى مؤْتة، ودَّع الناس أمراء رسول الله ﷺ وسلموا عليهم، فلما وُدِّع ابن رواحة مع مَنْ وُدّع بكى فقالوا: ما يبكيك يابن رواحة؟ فقال: أما والله ما بي حبُ الدنيا ولاصبابة بكم ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آيةً من كتاب الله يذكرُ فيها النار:

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾[4].

فلستُ أدري كيف لي بالصَّدرِ بعد الورود.

---

(١) المفحص: الموضع الذي تجثم فيه القطاة وتبيض وهذا القول كناية عن أنَّ الشيطان قد استوطن رؤوسهم.
(٢) المغازي جزء/ ٢/ ص٧٥٧/ ٧٥٨.
(٣) المغازي جزء / ٢/ ص٧٥٨.
(٤) سورة مريم آية / ٧١/ انظر حلية الأولياء جزء / ١/ ص١١٨.

فقال المسلمون: صحبكم الله ودفعَ عنكم وردّكم إلينا صالحين، فقال عبد الله بن رواحة:

لكنني أسأل الرحمنَ مغفرة ... وضربةً ذات فرغٍ تقذفُ الزبَدا
أوطعنةٍ بيدَيْ حرّانَ مجهزةٍ ... بحربةٍ تنفذُ الأحشاء والكبدا
حتى يُقال إذا مرّوا على جَدثي ... أرشدهُ الله مِنْ غازٍ وقد رشَدا[1]

وأتى عبد الله بن رواحة رسول الله ﷺ فودعه وقال:

فثبَّتَ الله ما آتاكَ من حَسنٍ ... تثبيتَ موسى ونصراً كالذي نصروا
إنّي تفرستُ فيكَ الخير نافلةً ... فراسةً خالفت فيكَ الذي نَظَروا
أنتَ الرسولُ فَمن يُحرَم نوافله ... والوجهُ منه قد أزرى به القَدر[2]

ثمّ خرجَ الجيشُ الإسلامي، وخرجَ رسول الله ﷺ يشيعهم، حتى إذا ودَّعهم وانصرف عنهم قال عبد الله بن رواحة:

خَلَفَ السلامُ على امرئٍ ودّعته ... في النَّخلِ خيرَ مشيِّعٍ وخليل

* وخرجَ الجيش مزوَّداً بوصايا الرسول ﷺ مشيَّعاً بدعوات المسلمين، وسار الجيش حتى نزل مَعَان من أرض الشام، وبلغ الناس أن هرقل قد نزل مؤاب من أرض البلقاء في مئة ألف من الروم، وانضم إليهم من قبائل العرب المتنصرة من لخم وجذام والقين وبهراء وبلي مئة ألف أيضاً، ولما علم المسلمون بما أعدَّ لهم الروم من العُدد والعتاد أقاموا ليلتين في مَعَان يتدبرون أمرهم، وقال بعضهم: نكتبُ إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا فإمَّا أنْ يمدَّنا بالرجال وإما أنْ يأمرنا بأمره فنمضي له. لكنَّ عبد الله بن رواحة رضي الله عنه اندفع بفورةِ حماس تنبعثُ عن إيمان عميقٍ بالله وشجَّعَ الناس وقال: يا قوم والله إنَّ التي تكرهون للتي خرجتُم تطلبون؛ الشهادة، وما نقاتلُ الناس بعددٍ ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلاَّ بهذا الدِّين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا

---

(١) الكامل في التاريخ مجلد / ٢/ ص٢٣٥، والبداية والنهاية جزء / ٤/ ص٢٤٢، وانظر الحلية جزء / ١/ ص١١٩.

(٢) سيرة ابن هشام مجلد / ٢/ ص٣٧٤.

فإنّما هي إحدى الحسنيين: إمّا ظهور وإما شهادة، فقال الناس: قدْ واللهِ صدق ابن رواحة فمضى الناس[1]» ثمّ غادرَ المسلمون معسكرهم في معان، وانطلقوا شمالاً؛ حتى إذا كانوا بتخومِ البَلقاء لقيتهم جموعُ الروم والعرب بقرية من قرى البلقاء تدعى «مشارف»، ثم دَنا العدو فانحازَ المسلمون إلى قرية «مُؤْتة» وهناك نظَّموا الجيش وعبؤوا أنفسهم، والتقى الجمعان واقتتلوا، وانطلقَ زيدُ بنِ حارثة براية رسول الله ﷺ، وظلَّ يقاتل حتى شَاطَ في رماح القوم، وسقطَ شهيداً ثمّ أخذ الراية جعفر بن أبي طالب وانطلق يقاتلُ قِتَالَ الأُسود، حتى إذا أحاط به العدو وأجهده القتال اقتحم عن فرسه الشقراء، ثمّ عقرَها، وقاتل القوم وهو يقول:

يا حبَّذا الجنة واقترابها ... طيبة وباردُ شرابها

والرومُ رَوْم قد دنا عذابها ... كافرةٌ بعيدة أنْسابها

عليَّ إنْ لاقيتُها ضرابها[2]

واندفع جعفر يقاتل القوم راجلاً واللواء الأبيض في يمينه، فضُربتْ يمينه فقُطعتْ، فتناول اللواء بيساره فضُربت يساره فقُطعت، فاحتضنَ اللواء بعضديه حتى قُتِلَ شهيداً، فانقضَّ عبد الله بن رواحة وحمل اللواء قبل أنْ يسقطَ وتقدم به على فرسه، وقد عرضَ له الشيطان كما عرضَ لزيد وجعفر، فجعل يستنزلُ نفسه لكنَّه تفوّقَ على وسوسةِ الشيطان وراح يقول:

أقسمتُ يانفسُ لتنزلنّه ... لتنزلنه أوْ لتكرهنّه

إنْ أجلبَ الناسُ وشدوا الرنّه ... ما لي أراك تكرهين الجنَّه

قدْ طالَ ما قد كنتِ مطمئنه ... هل أنتِ إلاَّ نطفة في شنّه

وقال أيضاً:

يا نفسُ إلاَّ تُقتلي تموتي ... هذا حِمامُ الموتِ قد صلِيتِ

---

(١) الحلية جزء / ١/ ص١١٩.

(٢) البداية والنهاية جزء / ٤/ ص٢٤٤.

ومـــا تمنيـــتِ فقـــد أُعْطيـــتِ إنْ تفعلـــي فِعْلهمـــا هُـــديـــت

وإن تأخرتِ فقد شَقِيت[1]

ثمّ نزلَ عن فرسه ليشتبكَ مع الأعداء، ويبدو أنْ القتال قد شَغَل المسلمين عن طعامهم وشرابهم، فقد روى ابن إسحاق أنَّ عبد الله بن رواحة لما نزلَ عن فرسه أتاه ابن عم له بعَرْق[2] من لحم فقال له: شدَّ بهذا صلبَك فإنكَ قد لقيتَ في أيامك هذه ما لقيت، فأخذه من يده فانْتَهسَ منه نَهْسة[3] ثمّ سمعَ الحَطمَة[4] في ناحية الناس فقال: وأنت في الدنيا ثمّ ألقاهُ من يده ثمّ أخذ سيفه ثمّ تقدم فقاتل حتى قُتِلَ... ثمّ أخذَ اللواء أحدُ فرسان الأنصار «ثابت بن أقْرم» وقال: يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجلٍ منكم، قالوا: أنتَ، قال: ما أنا بفاعل.. فاصطلحَ الناس على خالد بن الوليد[5]».

* استطاع خالد بن الوليد بخبرتهِ في القتال أن يخدعَ الأعداء، فجعل يداور بأصحابه ويتراجعُ حتى ظنَّ الروم أنَّه يريدُ أنْ يستدرجهم إلى الصحراء فلم يتبعوه، ومازال خالد يناوشُ جموع العدو حتى أفلتَ بجيشه وعاد به ولمْ يفقدْ منه سوى اثني عشر رجلاً، وفي هذه الغزوة سمّاه النبي «سيف الله».

* وهكذا نال عبد الله بن رواحة الشهادة مع زيد بن حارثة، وكانا مِنْ قبل قد بَشَّرا معاً أهلَ المدينة بانتصار المسلمين في بدر وهما الآن قد نالا الشهادة معاً في مؤتة، وقبل أنْ يبرحَ الجيش من أرض مؤتة نعى رسول الله ﷺ إلى أصحابه في المدينة الأمراء الثلاثة ودموعُه تفيض حزناً عليهم، فقد روى

---

(١) الكامل في التاريخ مجلد / ٢/ ص٢٣٧، والحلية جزء / ١/ ص١٢٠، وانظر سير أعلام النبلاء مجلد / ١/ ص٢٤٠، ويريد في الخطاب زيداً وجعفر.

(٢) عظم فيه بعض اللحم.

(٣) أي: أخذ منه قليلاً.

(٤) ازدحام الناس.

(٥) البداية والنهاية جزء / ٤/ ص٢٤٥، وانظر الكامل مجلد / ٢/ ص٢٣٨، والاستيعاب مجلد / ٢/ ص٢٨٦.

البخاريُّ عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ نعى زيداً وجعفراً وابن رواحة للناس قبل أنْ يأتيهم خبرُهم فقال:

«أخذَ الراية زيد فأُصيبَ، ثمّ أخذها جعفر فأُصيبَ، ثمّ أخذها ابن رواحة فأُصيبَ - وعيناه تذرفان - حتى أخذَ الراية سيفٌ من سيوف الله حتى فتح الله عليهم[1]».

وقد بكى المسلمون شهداءَهم في مؤتة فقال حسان بن ثابت يرثيهم ويرثي عبد الله بن رواحة:

عينُ جودي بدمعكِ المنْزور ... واذكري في الرَّخاء أهلَ القبور
ثمّ جُودي للخزرجيِّ بدمع ... سيداً كان ثمّ غير نزورِ
قد أتانا مِنْ قتْلهم ما كفانا ... فبِحُزن نبيتُ غير سُرورِ[2]

وقال شاعر من المسلمين ممَنْ رجع من مؤتة يرثي الأمراء الثلاثة:

كفى حزناً أنّي رجعتُ وجعفر ... وزيدُ وعبد الله في رمْسِ أقبُر
قضَوا نحبَهم لما مضَوا لسبيلِهم ... وخُلِّفتُ للبلوى مع المتغبِّرِ[3]

وقال كعب بن مالك صديق ابن رواحة يرثي الأمراء الثلاثة أيضاً:

صلّى الإلهُ عليهم من فتيةٍ ... وسقى عظامَهم الغمامُ المسبلُ
صَبروا بمؤتة للإلهِ نفوسهم ... حذرَ الردى ومخافةَ أنْ ينكلوا[4]

* نعم فقد استشهد عبدُ الله بن رواحة، وصعِدتْ روحه إلى بارئها، وتفتحت أبواب السماء لتستقبل روحَ شهيدٍ آخر باعَ نفسه ابتغاء مرضاة الله، فنعم عقبى الدار.

استشهد ابن رواحة رضي الله عنه ولم يعقبْ[5] ولكنَّه تركَ ذِكراً حميدا

---

(١) انظر البداية والنهاية جزء / ٤/ ص٢٤٥.
(٢) البداية والنهاية جزء / ٤/ ص٢٥.
(٣) المصدر السابق جزء / ٤/ ص٢٥٩ وابن هشام ٢/ ٣٨٨.
(٤) المصدر السابق جزء / ٤/ ص٢٦١.
(٥) أي: مات ولم يخلِّف عَقِباً أي ولداً.

وأثراً عاطراً ظلَّ أريجه الزكي ينْدَى على مرِّ الأيام.

حتى يُقال إذا مرّوا على جدثي ... أرشدهُ اللهُ من غازٍ وقد رشَدا

مناقب عبد الله بن رواحة رضي الله عنه:

عبد الله بن رواحة واحدٌ من الصحابة الكرام الذين خلَّفوا أثراً طيباً يُحتذى به، ومناقبه رضي الله عنه كثيرة، وحياته في ظلِّ الإسلام مِنْ أولها لآخرها حافلة بشتّى الصور الرائعة، فإذا كانتِ الغزوات خرج مع المسلمين مجاهداً في سبيلِ الله ونشْرِ الإسلام، وأخذ يضيف إلى روائعهِ في الحروب والنزال روائع وبدائع من بدائعه الشعرية إذْ يبتغي من وراء ذلك رضوان الله ومغفرته، فالسعادةُ في رأيه ليست في الدنيا وإنَّما هي في الآخرة ذات النعيم المقيم الذي لايُنَالُ إلا بالتقوى، لذلك فإنكَ تجده يتحدثُ عن التقوى والأبرار والعمل الصالح، وأنَّ الناس معروضون على الخالق يوم القيامة، وكلٌّ واردها، وأنَّ الله قد أحصى كل شيءٍ في كتاب مبين، وأنَّ الموتَ حقٌّ لا ريبَ فيه، وكل إنسان يجب أنْ يفكر في مصيره ونهايته، لذا فقد رأيناه يندفعُ وراء الشهادة وما زال يسعى حتى نالها.

وسيدُنا عبد الله بن رواحة واحدٌ مِنَ الذين أَثَّرَ القرآنُ في نفوسهم أثراً عميقاً، فقد استشعر ابن رواحة معاني القرآن ومواعظه فازدادَ خوفاً من الله سبحانه وتعالى، وإذا ما نظرنا إلى شعره وجدنا أن قراءته للقرآن الكريم قد أثرتْ بشعره وهذبتْ لفظه وأدخلت عليه الطلاوة والجمال، والحق إنَّ لشعره رونقاً، وفيه من معاني الإسلام أصداءٌ وظلالٌ؛ إذ تغشَّتْ الروح الإسلامية سائر أعماله وكلامه وشعره، وقد تغلغل الإسلام في ضميره فاتَّجَهَ مخلصاً إلى ربه منيباً إليه، لذا فإنك تراه دائمَ الحديث عن نعمة الله عليه وعلى الناس بالإسلام، وتحوُّلهم منْ ظلمات الوثنية وشرَكها إلى أضواء الدين الحنيف؛ ولو نظرنا إلى غالب أعماله بل كلها ألفيناها تنمُّ عن ولائه لمعاني الإسلام والقرآن وأنَّه أسْلَمَ وجهَه لله سبحانه وتعالى، وكل ماورد إلينا مِن أخباره تدلُ دلالة واضحة على عظم مكانته عند الرسول ﷺ وعند المسلمين، وفي تصرفاته وأعماله يقترب من زهّاد المسلمين إن لم يكنْ مِنْ أزهدهم في متاع

الدنيا الزائل، وتركه زخارف الحياة إذْ أنَّه يرنو إلى مرضاة الله، وفي الصفحات التالية نشاهدُ حياة ابن رواحة مع القرآن، والرسول، والشعر؛ ونستطلع مدى تأثير الإسلام في نفسه وشعره وأعماله رضي الله عنه.

ابـن رواحـــة والقـــرآن:

* لئنْ كان عبد الله بن رواحة فارساً لا يُشقُّ له غبار، سبّاقاً إلى المعارك، يخرجُ أولَ الناس ويعود آخرهم، فقد كان سبّاقاً إلى فهم معاني القرآن وتدبُّرِ أحكامه، بل هو مِمَّنْ فهموا القرآن الكريم وتأثروا فيه أثراً ظاهراً وباطناً، وكيف لا؟ وهو شاعرٌ رقيق الديباجة شديد التأثر بمعاني القرآن وجمال أسلوبه.

* وقد كان للقرآن الكريم أثرٌ عظيم من حيث البلاغة والتأثير في النفوس والقلوب على حدٍّ سواء، وكان رسول الله ﷺ، حينما يقرأُ القرآن يصغي إليه سامعوه فيأخذ بمجامع قلوبهم سواء أكانوا مِنْ أنصاره أم كانوا من أعدائه، وقد أثَّرَ القرآن في كثير من النفوس وغَيّرَ مِنْ طبائعها، وكلنا يعلم أنَّ سيدنا عمرَ بن الخطاب أعلنَ إسلامه حينما سمع صَدْراً من سورة «طه» فقد أثَّرتْ معاني السورة بنفسه الجبَّارة حينذاك وجعلتْه رقيقَ القلب، هادىءَ النفس.

وسندخل الآن في أعماق سيدنا عبد الله بن رواحة ونتجول معه في رياض القرآن الكريم؛ فقد نزلتْ في حقّهِ بعض آيات من القرآن فأشادتْ بمواقفهِ وأعماله؛ فقد أُثِرَ عن ابن رواحة أنَّه كان جريئاً، لا يخشى أحداً إلا الله رب العالمين، لا يأبه بالعادات إنْ خالفتْ شَرْع الله، فعندما نزل قوله تعالى: ﴿ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ﴾[1].

قال السدي: «نزلتْ هذهِ الآية في عبد الله بن رواحة؛ كانت له أَمَةٌ سوداء فلطَمها في غضبٍ ثم نَدِمَ، فأتى النبيَّ ﷺ فأخبره، فقال رسول الله ﷺ: «ما هي يا عبد الله»؟

---

(١) سورة البقرة آية / ٢٢١/ .

قال: تصومُ وتصلي وتحسنُ الوضوء وتشهدُ الشهادتين.

فقال رسول الله ﷺ: «هذهِ مؤمنة».

فقال ابن رواحة: لأعْتقنَّها ولأتزوجنَّها، ففعلَ. فطعنَ عليه ناسٌ من المسلمين، فأنزل الله تعالى هذا: ﴿ولو أعجبتْكُم﴾.

يعني جمال المشركة وحسبها ومالها»[1].

وهكذا فقد تزوج ابن رواحة من أمَتِهِ لمدْحِ الرسول عليه الصلاة والسلام إياها بقوله«هذه مؤمنة» فأحبَّ ابن رواحة أنْ يتزوجَ ممنْ شَهِد لها النبي بالإيمان، ناهيك بأنَّه خالفَ الذين يريدون الزواج رغبةً في الحسب والنَّسب.

* وتعال معي إلى مجلس رسول الله ﷺ، ولنستمعْ إلى هذه الشهادة العظيمة من رسول الله في ابن رواحة، شهادة توضح لنا عن إيمان عبد الله بن رواحة؛ يروي ابن كثير في تفسيره هذه المكرمة لابن رواحة يقول:

«لما تَلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾[2] أشار رسول الله ﷺ بيده إلى عبد الله بن رواحة فقال:

«لو أنَّ الله كتبَ ذلكَ لكان هذا مِنْ أولئك القليل» يعني ابن رواحة[3]».

* وماذا عن ابن رواحة أيضاً، دعْنا نتعرف على جانب آخر من جوانب حياته، فقد أُثِرَ عنه أنَّه كان كريماً مضيافاً، يعجل في إكرام ضيفه بكل ما يملك، وجاء الإسلام فصقل هذه المزية العظيمة، فأطعمَ الطعام وكسا الأيتام وعطفَ عليهم وأشرفَ على تربيتهم، فقد روي أنَّ عبد الله بن رواحة كان له أيتام وضيف فانقلبَ من شغلهِ بعد ساعة من الليل فقال: أعشيتمْ ضيفي؟

---

(١) تفسير الماوردي «النكت والعيون» مجلد / ١/ ص٢٣٥. وانظر تفسير ابن كثير مجلد / ١/ ص٢٥٩، والقرطبي جزء / ٣/ ص٧٩/ ٨٠.

(٢) سورة النساء آية / ٦٦/ .

(٣) انظر تفسير ابن كثير مجلد / ١/ ص٥٢٣.

فقالوا: انتظرناك؛ فقال: لا والله لا آكله الليلة؛ فقال ضيفُه: وما أنا بالذي يأكل؛ وقال أيتامُه: ونحن لا نأكل؛ فلما رأى ذلك أكلَ وأكلوا. ثم أتى النبي ﷺ فأخبره فقال له:

«أطعتَ الرَّحمن وعصيتَ الشيطانَ»[1].

فنزلت الآية الكريمة: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ ﴾.

* عُرِفَ عبد الله بن رواحة أنَّه كان شديد التأثر بالقرآن الكريم، مؤمناً عميق الإيمان، وكان إيمانُه مرتبطاً بعمله أيضاً، يروي ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ﴾[2] فقد سأله أحدهم عن لفظة «مقيت» فقال: مقيت لكل إنسانٍ بقدْرِ عمله؛ يعني أنَّ الله سبحانه وتعالى يرزق ويقيتُ كل إنسان بحسب جهده وعمله؛ والحقيقة إنَّ تفسيره لهذه الكلمة يدل على تعمُّقه وفهمه القرآن الكريم، وعلى عظيم ثقتِه بالله عزّ وجلّ.

ومن حياة ابن رواحة مع القرآن أنَّه لا يكاد يمرُّ يوم إلاّ ويذرفُ دموعه من خشية الله، فكان دائم التفكير في قدرة الله وفي آيات القرآن الكريم ومعانيه الرائقة، وكثيراً ما تستوقفه بعض الآيات فيقف باكياً خاشعاً، فعن قيس بن أبي حازم قال:

«كان عبدُ الله بن رواحة واضعاً رأسه في حجْر امرأته فبكى، فبكت امرأته قال: ما يبكيك؟ قالتْ: رأيتُك تبكي فبكيتُ؛ قال: إني ذكرتُ قول الله عزَّ وجلَّ ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾[3] فلا أدْري أأنجو منها أمْ لا»[4].

---

(١) تفسير القرطبي جزء / ٦/ ص٢٦٥، وانظر تفسير الماوردي مجلد / ١/ ص٤٨١ مع خلاف بسيط في سرد القصة.

(٢) سورة النساء آية / ٨٥/ .

(٣) سورة مريم آية / ٧١/ .

(٤) تفسير ابن كثير مجلد / ٣/ ص١٣٢، وانظر سير أعلام النبلاء جزء / ١/ ص٢٣٦/ ٢٣٧.

* وبعدْ: هل توقفَ بكاء ابن رواحة عند هذه الآية؟ لا زالَ في جعبته الكثير الكثير، فابن رواحة هو المُتبتل الأواب الذي لا تستوقفه آية واحدة ليبكي مِنْ خشية الله؛ بل كانت كل آيات القرآن تؤثر فيه ويقفُ أمامها متأملاً باكياً؛ وعبد الله بن رواحة واحدٌ من شعراء الرسول الذين نذروا سيفهم ولسانهم للذَّودِ عن حياض الإسلام، بَيْدَ أنَّ عبد الله بن رواحة توقَّفَ عن قول الشعر خوفاً مِنْ أنْ تشمله الآية الكريمة ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾[1]، فقد روي أنَّـه لما نزلت ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ﴾ جاءَ حسان بن ثابت وكعب بن مالك وابن رواحة يبكون إلى النَّبي ﷺ فقالوا:

يا نبيَّ الله؛ أنْزلَ اللهُ هذه الآية وهو تعالى يعلمُ أنَّا شعراء! فقال: «اقرؤوا ما بعدها» ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ الآية؛ أنتم، ﴿وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ ـ أنتم ـ أي بالردِّ على المشركين، قال النبي ﷺ:

«انتصروا ولا تقولُوا إلا حقاً ولا تذْكروا الآباء والأمهات»[2]، وقال النبي ﷺ أيضاً:

«إنَّ المؤمنَ يجاهدُ بنفسهِ وسيفهِ ولسانهِ، والذي نفسي بيده لكأنَّ ما ترمونهَم به نَضْح النَّبلِ».

* هذه هي حياة عبد الله بن رواحة مع القرآن الكريم، حياة رجل عرفَ الله حق المعرفة فباتَ يخافُ منه، ويرجو رحمته.

ابـن رواحــة مـع الرسـول والصحـابـة:

* لم يكنْ ابن رواحة ذلك الشاعر الذي عرفته المدينة، ولمْ يكن ذاك

---

(١) سورة الشعراء آية / ٢٢٤/ .

(٢) تفسير القرطبي جزء / ١٣/ ص١٥٣ .

الفارس الصّلب الذي شُغِفَ في الحرب والنزال فحسب، بل كان ذاك الرجل الذي كرِهَ الكفرَ قبل أنْ تُشرقَ شمس الإسلام في المدينة وسَخِرَ من الأصنام؛ وهذه الصفات تدلُّ على مكانة ابن رواحة وتعطينا صورة واضحة عن ملامحه.

* وعبد الله بن رواحة أحدُ الصحابة الأعلام الذين أقبلوا على مجالس الرسول ﷺ لينهلوا من فيض النبوة ما يرويهم، وقد ازدادَ ابن رواحة تعلقاً برسول الله إذ امتلأتْ نفسُه الكبيرة بحب النّبي، فكان لا يفارقه أبداً، وظلَّ قريباً منه يستمعُ إلى هديه الكريم، فقد كان حافظاً واعياً لأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام، يقول عنه صاحب كتاب تهذيب التهذيب: «روى عن النبي وعنْ بلال المؤذن، وروى عنه ابن أخته النُّعمان بن بشير، وأبو هريرة، وابن عباس، وأنس»[١].

* وكان ابن رواحة شديد الخشية لله عزّ وجلّ، عظيم الخوف منه، فذِكْر الله لا يفارق لسانه، وخشية الله لا تفارق قلبه، وصورةُ الآخرة لا تبرح مخيلته، ناهيك أنَّهُ كان شديد الطواعية للرسول الكريم، عظيم الحبّ له، حتى قال فيه عليه الصلاة والسلام: «نعمَ الرَّجل عبد الله بن رواحة. . .»[٢].

وبلغ من مكانة عبد الله بن رواحة أنَّ رسول الله ﷺ أطلق عليه لقبَ «أخي» فقال فيه:

* «رحم الله أخي عبد الله بن رواحة، كانَ أينما أدركته الصلاة أناخ[٣]».

* بلغ حبُّ ابن رواحة للصلاة مع النبي حدّاً كبيراً حتى في الأوقاتِ العصيبة، لينالَ مِنَ الخير ما ينال، فقد روى الإمام أحمد أنَّ تحرُّكَ الجيش إلى مؤتة كان يوم الجمعة قبل الصلاة، وأنَّ ابن رواحة تخلَّفَ في المدينة بعدَ مرابطة الجيش في ضواحي المدينة بالجُرف، فجمعَ مع النبي ﷺ فرآه فقال: «ما خلّفك؟»

---

(١) تهذيب التهذيب جزء / ٥/ ص٢١٢.

(٢) الإصابة: مجلد / ٢/ ص٢٩٨.

(٣) رواهُ الطبراني.

قال: أجْمعُ معك[1]؛

فقال رسول الله ﷺ:

«لغدوةٌ أو روحة في سبيل اللهِ خيرٌ من الدنيا ومافيها[2]».

* كان عبد الله بن رواحة شديد الحرص على تطبيق أوامر الله سبحانه، وأوامر رسوله الكريم، فقد حرصَ كل الحرص على الالتزام بحرفية ما يقوله الرسول وتطبيقه، وذلك ابتغاءَ مرضاة الله والرسول، فقد أخرج البيهقي بسنده عن أبي ليلى:

«كان النبي يخطبُ فدخل عبد الله بن رواحة فسمعه يقول: «اجْلسُوا» فجلس مكانه خارجاً من المسجد، فلما فَرَغَ قال له: «زادك الله حرصاً على طواعية الله وطواعية رسوله[3]».

* ولعبد الله بن رواحة منزلة عظيمة عند النبي الكريم، فكان لا ينقطعُ عن مجالسه إلاَّ لسبب قاهرٍ أو مَرَضٍ. فقد روى ابن سعد في الطبقات «أنَّ عبد الله بن رواحة أُغمي عليه فأتاه رسول الله ﷺ فقال:

«اللّهم إنْ كانَ قد حضر أجله فَيسّر عليه، وإنْ لم يكن حضرَ أجله فاشْفِه».

فوجد خفَّةً فقال: يا رسول الله أمي تقولُ: واجبلاه، واظهراه، ومَلَكٌ قد رفع مِرْزَبَة من حديد يقول: أنت كذا؟ فلو قلتُ نعم لقمعني بها[4]».

* وعن «عبادة بن الصامت» رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ عاد عبد الله بن رواحة فما تحوز[5] له عن فراشه فقال:

«أتدرون من شهداء أمتي»؟

---

(١) أصلي الجمعة.

(٢) البداية والنهاية جزء / ٤/ ص٢٤٢.

(٣) الإصابة جزء / ٢/ ص٢٩٨.

(٤) طبقات ابن سعد مجلد / ٣/ ص٥٢٩، وانظر الإصابة مجلد / ٢/ ص٢٩٨، ٢٩٩.

(٥) تجاوز.

قالوا: قَتْلُ المسلم شهادة.

قال: «إنَّ شهداء أمتي إذاً لقليل، قَتْل المسلم شهادة، والبطن شهادة، والغَرَقُ شهادة، والمرأة يقتُلُها ولدها جمعاً شهادة[1]».

* وقد بلغ سيدنا عبد الله بن رواحة مكاناً علياً في مقام الذكر والزهد في الدنيا، وبلغ مرتبة عالية في الإيمان بالله، فكان قلبه ولسانه يلْهَج بذكر الله دائماً، ويدعو كل مَنْ يلقاه إلى الذكر، فقد قال لصاحب له: تَعالَ حتى نؤمن ساعة، قال: أوَلَسْنا بمؤمنين؟ قال: بلى، ولكننا نذكرُ الله فنزداد إيماناً، وكان رضي الله عنه يأخذ بِيَدِ الرجل منْ أصحابه فيقول: قمْ بنا نؤمن ساعة فنجلس في مجلس ذِكْرٍ، وقد عُرِفَ بين الصحابة بهذه الخصلة الحميدة حتى إنَّ بعض الصحابة استغربَ وغضبَ منه حينما قال له: تعال نؤمن بربنا ساعة! فانطلق الرجل وشكاه إلى النبي ﷺ، لِنستمع إلى سيدنا أنس بن مالك يحدثنا عن ذلك، قال:

«كان عبد الله بن رواحة رضي الله عنه إذا لقيَ الرجل من أصحابه يقول له: تعال نؤمن بربنا ساعة، فقال ذاتَ يوم لرجل فغضب الرجل، فجاء إلى النَّبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ألا ترى إلى ابن رواحة يرغب عن إيمانك إلى إيمان ساعة؟! فقال النبي ﷺ:

«يرحم الله ابن رواحة إنَّه يحبُّ المجالس التي تتباهى بها الملائكة[2]».

وقد لفتَ مدْح النبي عليه الصلاة والسلام عبد الله بن رواحة أنظارَ الصحابة، وعلموا أنَّ له مكانةً عُليا عند الرسول، وأحبَّ بعضهم الاقتداء به والسير على طريقه لينال رضاء الله ورضاء رسوله، فكان يسألُ عن أعمالِ ابن رواحة وقد «تزوج رجلٌ امرأة عبد الله بن رواحة فسألها عن صنِيعهِ فقالت: كان إذا أراد أنْ يخرج من بيته صلّى ركعتين وإذا دخل بيته صلّى ركعتين لا يَدعُ ذلك[3]».

---

(١) طبقات ابن سعد مجلد / ٣/ ص٥٢٨/ ٥٢٩.
(٢) الفتح الرباني جزء / ٢٢/ ص٢٨٦، وانظر البداية والنهاية جزء / ٤/ ص٢٥٨.
(٣) الإصابة مجلد / ٢/ ص٢٩٩.

* ولابن رواحة رضي الله عنه موقفٌ مشهود مع رسول الله ﷺ، وفي هذا الموقفِ ضَرَبَ ابن رواحة المثل الأعلى في الشجاعة والجرأة، حيث إنَّه كان شديد الإخلاص للرسول والإسلام، كما أثِرَ عنه الوقوف بقوة وحزم وصراحة أمام اليهود والمنافقين وأتباعهم، وكان خصماً عنيداً لهم، يردُّ عليهم بالسيف في موضع السيف، وباللسان في موضع اللسان، أو بكليهما معاً إذا لزمَ الأمر، ويتخطى كل شيء في سبيل إرضاء الله وإرضاء رسوله، والموقف التالي يبين مصداق ماقلناه:

أخرج البخاري عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما، أنَّ النبي ﷺ ركبَ على حمار على إكاف[1] على قطيفة فدَكية[2] وأردف أسامة وراءه يعودُ «سعد بن عبادة» رضي الله عنه قبل وقعة بدر فسار حتى مَرَّ بمجلس فيه «عبد الله بن أبي ابن سلول» ـ وذلك قبل أنْ يسلم عبد الله ـ وفي المجلس أخْلاط من المسلمين والمشركين عَبدةِ الأوثان واليهود، وفي المجلس «عبد الله بن رواحة» رضي الله عنه، فلما غشِيَت المجلس عجاجةُ الدابة خمَّر[3] عبد الله بن أبي أنفه بردائه قال: لا تغبِّروا علينا. فسلَّم النبي ﷺ ووقف ونَزَل فدعاهم إلى الله فقرأ عليهم القرآن، فقال له عبد الله بن أبي: يا أيها المرءُ إنَّه لا أحسنُ مما تقول، إنْ كان حقاً فلا تؤذِنا في مجالسنا وارجعْ إلى رحلِكَ فمَنْ جاءك فاقصصْ عليه.

قال ابن رواحة: بلى ـ يا رسول الله ـ فاغشنا في مجالسنا فإنَّا نحبُّ ذلك. فاستبَّ المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتثاورون[4]، فلم يَزَل رسول الله ﷺ يخفِّضهم حتى سكتوا، فركبَ النبي ﷺ دابته حتى دخل على «سعد بن عبادة» فقال له:

---

(١) الإكاف للحمار: كالسرج للفرس.
(٢) كساء يصنع في فدك.
(٣) أي: غطى وجهه من الغبار.
(٤) يتخاصمون ويتواثبون.

«أي سعد، ألمْ تسمع ما قال أبو حُبَاب؟» يريد عبد الله بن أبي، قال سعد: يا رسول الله، اعفُ عنه واصفحْ، فلقد أعطاكَ الله ما أعطاك، ولقد اجتمع أهلُ هذه البحيرة[1] على أنْ يتوّجوه فيعصبوه[2]، فلما رُدَّ ذلك بالحق الذي أعطاك الله شَرِق[3] بذلك، فذلك الذي فَعَلَ به ما رأيت[4]».

* وقد كان ابن رواحة موضع ثقة الرسول عليه الصلاة والسلام، ففي غزوة الأحزاب، عندما نقضَ يهود بني قريظة عهدهم مع الله ورسوله، أرسلَ النبي عليه الصلاة والسلام «سعد بن معاذ»، و«سعد بن عبادة»، و«عبد الله بن رواحة»، و«خوّات بن جبير» إلى بني قريظة ليستَبينُوا حقيقة الأمر، فقام عبد الله بن رواحة مع أصحابه في مهمتهم خير قيام، وعادوا إلى رسول الله بخبر نقضِ يهود بني قريظة للعهد.

* والآن، ماذا بقي لابن رواحة؟ لا زال في حياته كثيرٌ من المواقف المضيئة، فلم يكن رضي الله عنه يدافع عن الإسلام بسيفه ولسانه فحسب، بل كان يدعو إلى الله ورسوله بكل ما أوتي من قوة في البيان والإقناع، فكان يدعو الناس إلى الدخول في الإسلام، ويُبيّنُ لهم فَضْل هذا الدين الحنيف ومحاسنه، وابن رواحة هو السبب في إسلام الصحابي العظيم أبي الدرداء رضي الله عنه، فكيف أسْلم أبو الدرداء؟ وما الذي فعله ابن رواحة معه حتى أعلنَ إسلامه؟ إذاً فلنستمع إلى قصته الشَّائقة:

* أخرج الحاكم في المستدرك عن الواقدي قال:

«كان أبو الدرداء رضي الله عنه فيما ذُكِرَ آخر أهله إسلاماً، لمْ يزلْ متعلقاً بصنمٍ له، وقد وضع عليه منديلاً، وكان عبد الله بن رواحة رضي الله عنه يدعوهُ إلى الإسلام فيأبى، فيجيئه عبد الله بن رواحة، وكان له أخاً في

---

(١) يريد البلدة.
(٢) يجعلونه ملكاً.
(٣) غصّ به.
(٤) حياة الصحابة مجلد / ٢/ ص٥٠٩/ ٥١٠.

الجاهلية قبل الإسلام، فلمّا رآه قد خرجَ من بيته خالفه فدخل بيته وأعْجل امرأته وإنها لتمشط رأسها، فقال: أينَ أبو الدرداء؟ فقالت: خرج أخوك آنفاً؟ فدخل بيته الذي كان فيه الصنم ومعه القدوم[1] فأنزله وجعل يقددهُ فلْذاً فلْذاً[2] وهو يرتجزُ سراً من أسماء الشياطين كلها ألا كل ما يدعى مع الله باطل؛ ثمّ خرجَ وسمعت المرأة صوت القدوم وهو يضربُ ذلك الصنم فقالت: أهلكتني يابن رواحة! فخرج على ذلك فلم يكن شيء حتى أقبل أبو الدرداء إلى منزلها فدخل فوجد المرأة قاعدةً تبكي شفقاً منه فقال: ما شأنك؟ قالت: أخوك عبد الله بن رواحة دخل عليَّ فصنع ما ترى. فغضب غضباً شديداً ثمّ فكَّر في نفسه فقال: لو كان عند هذا خير لدفعَ عن نفسه؛ فانطلق حتى أتى رسول الله ﷺ ومعه ابن رواحة فأسلم».

* وهكذا آتتْ ثِمار ابن رواحة أُكُلها وأسلم أبو الدرداء، وأضحى واحداً من سادات الصحابة، وأحَد الذين بلغوا الذروة في الزهد والعبادة، فنالَ رضاء الله ورضاء رسوله.

* واحتلَّ عبد الله بن رواحة مساحةً عظيمة في نفْسِ أبي الدرداء، إذْ أنَّه السبب في إسلامه وهدايته إلى طريق النور، وكان أبو الدرداء يعترفُ بهذا الفضل له وأُثرَ عنه قوله:

«أعوذُ بالله أنْ يأتي عليّ يوم لا أذكرُ فيه عبد الله بن رواحة[3]».

* وفي كل مجلسٍ يجلسه أبو الدرداء كانَ يحدثُ عن عبد الله بن رواحة، ويذكرُ فضائله ومناقبه، فلم تكنْ صورته تبرحُ مخيلة أبي الدرداء، بل لم يكنْ يعمل عملاً إلاّ وتخيَّلَ ابن رواحة أمامه، وكثيراً ما كان يقول:

«إنَّ أعمالكم تُعرَضُ على موتاكم فيُسَرُّون ويُساؤونَ».

وكان أبو الدرداء يحب أنْ تكون أعماله ناصعةً موافقة للشرع لكي

---

(١) آلة للنحت والنجر.

(٢) جعله قطعاً صغيرة.

(٣) تهذيب الأسماء واللغات جزء / ١/ ص٢٦٥.

لا يخجل ابن رواحة منها، فقد أخرج الحاكم عن أبي الدرداء أنَّه كان يقول: «اللّهم إنّي أعوذُ بك أنْ تَعْرِضَ على أخي عبد الله بن رواحة مِنْ عملي ما يستحي منه[1]».

* وما دُمنا نحيا هذه الإشراقات في ظلال حديث أبي الدرداء، تعال نستمعْ إليه يحكي لنا المزيد عن ابن رواحة، وعن ذكره الله ودعوته إلى الإيمان، يقول أبو الدرداء رضي الله عنه:

«كان عبد الله بن رواحة رضي الله عنه يأخذُ بيدي فيقول: تعالَ نؤمن ساعة».

وحدّثَ أبو الدرداء مرة فقال:

كان عبد الله بن رواحة إذا لقيني قال لي:

«يا عُويمر، اجلسْ نتذاكر ساعة» فنجلسُ فنتذاكر، ثمّ يقول: «هذا مجلسُ الإيمان، مَثَلُ الإيمان مثل قميصك، بينا أنَّك قد نزعته إذ لبسته، وبينا أنَّك قد لبسته، إذْ نزعته، القلبُ أسرعُ تقلباً مِنَ القِدْرِ إذا استجمعت غَلَيانها[2]».

* وبعد فهل مِنْ مزيد؟ نعم، فلا زالَ أبو الدرداء يتحفُنا بحديثه الشَّائق عن عبد الله بن رواحة وعن وَرعهِ وطاعته لله عزّ وجلّ، وتحرِّيه للخير بكل صوره وأشكاله، ففي حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال:

«لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسْفاره في اليوم الشَّديد الحرِّ حتى إنَّ الرجلَ ليضعُ مِن شدةِ الحرِّ يده على رأسه، وما في القوم صائمٌ إلاَّ رسول الله ﷺ وعبد الله بن رواحة[3]».

---

(١) حياة الصحابة جزء / ٣/ ص٣٨٤. في رواية أنَّ أبا الدرداء أخو عبد الله بن رواحة لأمه.

(٢) حياة الصحابة جزء / ٣/ ص١٣.

(٣) الاستيعاب جزء / ٢/ ص٢٨٨، والبداية والنهاية جزء / ٤/ ص٢٥٨، وانظر تهذيب الأسماء واللغات جزء / ١/ ص٢٦٥، والحديث أخرجه البخاري ومسلم في كتاب الصوم.

* وهذا زيد بن أرقم رضي الله عنه، يضيفُ إلى روائعِ ابن رواحة رائعةً أخرى، فكان إذا ذكِرَ ابن رواحة أمامه تَرحَّمَ عليه وقال: «كنت في حجر عبد الله بن رواحة، فلم أرَ والي يتيمٍ كان خيراً منه[1]».

رحمَ الله عبد الله بن رواحة المحدث الزاهد العابد، ورحم الله أبا الأيتام ومكرمَ النَّاس عبد الله بن رواحة.

ابـن رواحـــة والشـعـر:

قال الإمام محمد بن سِيرين: «كان شعراء رسول الله ﷺ؛ عبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت وكعب بن مالك»[2] وكانت مهمة عبد الله بن رواحة تعيير المشركين بكفرهم، فقد روى صاحب كتاب الأغاني قوله:

«وكان يهجو قريشاً ثلاثة نَفَرٍ من الأنصار يجيبونهم: حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة. وكان حسان وكعب يعارضانهم بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر، ويعيرانهم بالمثالب، وكان عبد الله بن رواحة يعيرُهم بالكُفر لأنَّه أقبح المخازي، وينسبهم إليه، ويعلم أنَّه ليس فيهم شَرّ من الكفر، فكان أشدّ شيء عليهم في ذلك الزمان قول حسان وكعب، لاعتزازهم بمفاخر الجاهلية وتعزيهم بعزائها، وكان أهون شيءٍ عليهم قول ابن رواحة لتنكُّبِهم عن طريق الإسلام، فلما أسلموا وفقهوا الإسلام كانَ أشدّ القول عليهم قول ابن رواحة».

وقد عُرِفَ ابن رواحة منذ نعومة أظفاره أنَّه قرض الشعر، فقد نشأ في المدينة يرسل أجمل الألحان وأعذب الأشعار، وكان يناقض قيس بن الخطيم شاعر الأوس، وذكرت بعضُ كتب الأدب[3] بعضاً من هذه المناقضات، ولما جاء الإسلام نَذرَ ابن رواحة نفسه وسيفه وشعره للدفاع عن الإسلام.

* وقد أباحَ الإسلام إنشاد بعض الشعر، وأقَرَّ الرسول عليه الصلاة

---

(١) المغازي جزء / ٢/ ص٧٥٩.

(٢) سير أعلام النبلاء مجلد / ١/ ص٢٣٣.

(٣) انظر مثلاً الكامل للمبرد، والجمهرة.

والسلام عبد الله بن رواحة على قول الشعر، وبخاصةٍ تعيير المشركين بكفرهم وعصيانهم.

* ويعتبرُ ابن رواحة واحداً من سادات الصحابة الكرام، فقد جَمَعَ المجدَ منْ أطرافه، فكان فارساً، شاعراً، كاتباً، عابداً، جَاهَدَ بسنانهِ ولسانهِ، فالمؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، ولم تكن المعارك بين المسلمين والمشركين تقتصر على السلاح فحسب، بل كان للشعر دوره أيضاً، وأحياناً يكون أثرهُ أنْفَذَ مِنَ السنان، وسنتصفح بعضاً من حياة سيدنا عبد الله بن رواحة في رحاب الشعر، وننهل منْ عذب كلامه وجودة شعره ما تُسرُّ به النفوس وتَقَرُّ به العيون، يقول الأصفهاني صاحب كتاب الأغاني: لما انهزم المشركون يوم الأحزاب، قال رسول الله ﷺ: «إنَّ المشركين لن يغزوكم بعد اليوم ولكنكم تغزونهم، وتسمعون منهم أذىً ويهجونكم، فمَنْ يحمي أعراضَ المسلمين؟»

فقام عبد الله بن رواحة فقال: أنا، فقال ﷺ: «إنكَ لحسن الشِّعر».

ثم قام كعب بن مالك فقال «أنا» فقال ﷺ: «وإنك لحسن الشِّعر».

ويذكر الأصفهاني أيضاً عن جويرية بن أسماء قال: بلغني أن رسول الله ﷺ قال: «أمرْتُ عبد الله بن رواحة فقال وأحسن وأمرتُ حسان فشفى واشتفى[1]».

* كان النبي ﷺ يحب أحياناً أنْ يستمعَ الشِّعر من ابن رواحة، وقد استدعاه مرةً وأمره أن يقول الشِّعر بين يديه، ولنترك الحديث لابن رواحة نفسه ليخبرنا هذا الخبر، «قال عبد الله بن رواحة: مررتُ في مسجدِ الرسول، ورسول الله ﷺ جالس وعنده أناسٌ من أصحابه في ناحية منه فلما رأوني أضَبُّوا[2] إليّ: يا عبد الله بن رواحة، ياعبد الله بن رواحة، فعلمتُ أنَّ رسول الله دعاني فانطلقتُ نحوه فقال: «اجلسْ ها هنا».

فجلستُ بين يديه فقال:

---

(١) الأغاني جزء / ١٧/ أخبار كعب بن مالك.

(٢) أي تكلموا كلاماً متتابعاً ونادوه.

«كيف تقول الشِّعر إذا أردت أنْ تقول؟!» كأنَّه يتعجبُ لذاك قال: أنظرُ في ذاك ثم أقول. قال: «فعليكَ بالمشركين[١]».

قال: ولم أكنْ أعددتُ شيئاً وأنشدتهُ:

فخبِّروني أثمانَ العباء متى ... كنتم بطاريقَ أو دانَتْ لكم مُضَرْ

قال: وكأني عرفتُ في وجه رسول الله ﷺ الكراهة أنْ جعلتُ قومه أثْمانَ العباء فقلت:

نجالدُ الناسَ عن عرْضٍ فنأسرهم ... فينا النّبيُّ وفينا تنزلُ السّورُ
وقد علمتُم بأنّا ليسَ يغلبُنَا ... حيٌّ من الناس إنْ عزّوا وإن كثروا
يا هاشم الخير إنَّ الله فضلكُم ... على البريةِ فضْلاً مالهُ غيَرُ
إنّي تفرستُ فيكَ الخير أعرفهُ ... فراسَةً خالفتهُم في الذي نَظروا
ولو سألت أو استنصرتَ بعضهم ... في جلِّ أمرِك ما آووا ولا نصروا
فثبَّتَ اللهُ ما آتاك من حَسن ... تثبيت موسى ونصراً كالذي نُصروا

فأقبلَ عليَّ بوجهه مبتسماً ثم قال: «وإياك فثّبتَ الله[٢]».

وامتلأتْ نفسُ ابن رواحة بالسرور لدعاء النبي له، واستطار قلبهُ فرحاً ببشارة الرسول عليه السلام له بالتثبيت؛ وقد روى هشام بن عروة عن أبيه[٣] قال: سمعتُ أبي يقول: ما سمعت أحداً أجرأ ولا أسرعَ شعراً من عبد الله بن رواحة، سمعت رسول الله ﷺ يقول له يوماً: قلْ شعراً تقتضيه الساعة وأنا أنظرُ إليك، فانبعثَ مكانه يقول:

إني تفرست فيك الخير أعرفهُ ... والله يعلمُ أنْ ما خانني البصرُ
أنتَ النّبيُّ ومنْ يُحرم شفاعته ... يوم الحساب لقد أزرى به القدرُ
فثبَّتَ اللهُ ما آتاك مِنْ حَسَنِ ... تثبيت موسى ونصراً كالذي نُصروا

---

(١) طبقات ابن سعد جزء / ٣/ ص٥٢٨.
(٢) طبقات فحول الشعراء ص٩٠، وانظر الإصابة جزء / ٢/ ص٢٩٩، وسير أعلام النبلاء مجلد / ١/ ص٢٣٤.
(٣) الزبير بن العوام.

فقال رسول الله ﷺ: «وأنت فثبّتك الله يابن رواحة» قال هشام بن عروة: فثبّـتهُ اللهُ عزّ وجلّ أحسنَ الثبات فقُتِلَ شهيداً وفُتِحَتْ له الجنة فدخلها[1]».

* واستمرَّ عبد الله بن رواحة يرسلُ أشعاره في كل مناسبة، وقد رأيناه يرثي حمزة بن عبد المطلب، وقتلى بئر معونة، ولما نزل قوله تعالى ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ قال ابن رواحة: قد علم الله أنّي منهم، وامتنع عن قول الشعر، وانْشغل قلبه وسمعه بذكر الله، ولسانه بالقرآن والحديث، ولكنَّ الرسول ﷺ والمسلمين اشتاقوا إلى سماع شعر ابن رواحة، وفي يوم من الأيام كان ابن رواحة في سفر مع رسول الله ﷺ، فقال لابن رواحة: «انزلْ فحرك بنا الركاب» قال: يا رسول الله إنّي قد تركت قولي ذلك، فقال له عمر: اسمعْ وأطعْ، فنزل وهو يقول:

يا رب لولا أنتَ ما اهتدينا ولاتصدَّقْنَا ولا صلّينا
فأنزلنْ سكينة علينا وثبِّتِ الأقدام إنْ لاقينا
الكافرون قد بغوا علينا وإنْ أرادوا فتنة أبينا

فقال النبي ﷺ: «اللهم ارحَمْه» فقال عمر: وجبت[2]، وملأ السرور والبشر وجه ابن رواحة حينما سمع دعاء الرسول له بالرحمة، وهدأتْ نفسه فرحاً بهذه البُشرى.

* كان عبد الله بن رواحة يميلُ إلى المرح والدعابة أحياناً، غير أنَّ دعابته لا تخلو من الذكاء والإيمان العميق بالله سبحانه وتعالى، وقد أضحك مرة رسول الله ﷺ حتى بدتْ نواجذه، وذلك أنّه كانت لابن رواحة جارية يستسرها عن أهله، فبصرت به امرأته يوماً قد خلا بها فقالت: لقد اخترت أَمَتَكَ على حُرّتِكَ، فجاحَدَها ذلك قالت: إنْ كنتَ صادقاً فاقرأ آيةً من القرآن، فالجُنُبُ لايقرأ القرآن، فقال:

---

(١) الاستيعاب جزء / ٢/ ص٢٨٧.
(٢) يعني: وجبت له الجنة أو الشهادة، انظر طبقات ابن سعد جزء / ٣/ ص٥٢٧، وانظر فضائل الصحابة ص٤٤/ ٤٥.

شهدتُ بأنَّ وعد الله حقٌّ — وأنَّ النَّار مثوى الكافرينا
وأنَّ العرش فوق الماء حقٌّ — وفوق العرش ربّ العالمينا
وتحملُهُ ملائكةٌ غِلاظٌ — ملائكةُ الإلهِ مُسومينا

فقالتْ امرأته: صدق الله وكذبت عيني، وكانت لا تحفظُ القرآن ولا تقرؤه[1]»، وأتى رسول الله ﷺ فحدَّثه فضحك ولمْ يُغير عليه[2].

* ولعبد الله بن رواحة رضي الله عنه مواقف في الشعر لا تُنسى، وقد سجلتْها لنا كتب الأدب والسير، إذْ كانت مواقفه هذه بمثابة وثيقة أو تصوير لمعركة أو لموقف حصل[3]، ففي غزوة بدر الآخرة سخر ابن رواحة من أبي سفيان وجيشه الذي رجع إلى مكة دون صِدام مع المسلمين يقول في ذلك:

وعدْنا أبا سفيان بدراً فلم نجدْ — لميعاده صدقاً وما كان وافيا
فأقسمُ لو لاقيتنا فلقيتنا — لأُبتَ ذَميماً وافتقدت المواليا
تركنا به أوصال عتبة وابنه — وعمراً أبا جهل تركناه ثاويا
عصيتُم رسول الله أفٍّ لدينكم — وأمركم السيىء الذي كان غاويا
فإنِّي وإنْ عنفتُموني لقائل — فداً لرسولِ الله أهلي وماليا
أطعناه لمْ نعدلْهُ فينا بغيره — شهاباً لنا في ظلمة الليلِ هاديا[4]

* هناك مواقف عظيمة ومضيئة لابن رواحة، سجَّلها لنا بشعره الجميل، وشهد له بها غير واحد مِنْ أجلاّء الصحابة، فقد كان ابن رواحة يتمنى أنْ يرزقه الله الشهادة دائماً، وتمنّاها بشكل خاص وهو في الطريق إلى مؤتة، حيث إنّه كان يُعدُّ نفسه لهذا اليوم لينالَ الشهادة بعد أنْ يقدم عملاً خيِّراً لدينه وللمسلمين، ولنسْتمع إلى زيد بن أرقم يحدثنا عن موقف مضيء يقول:

---

(١) الاستيعاب بتصرف يسير. جزء / ٢/ ص٢٨٧/ ٢٨٨.
(٢) سير أعلام النبلاء مجلد / ١/ ص٢٣٨.
(٣) انظر قصيدته في محبسهم بمؤتة البداية والنهاية جزء / ٤/ ص٢٤٣.
(٤) الفتح الرباني جزء / ٢١/ ص٩٤، وبعضهم ينسب هذه الأبيات لكعب بن مالك.

«كنتُ يتيماً لعبد الله بن رواحة في حجره، فخرج في سفره ذلك مُرْدفي على حقيبة رحلهِ، فوالله إنَّه ليسيرُ ليلتئذٍ سمعته وهو ينشد أبياته هذه:

إذا أدنيتني وحملت رحْلي ... مسيرة أربعٍ بعد الحساءِ
فشأنُك أنْعمُ وخلاكِ ذَمّ ... ولا أرجع إلى أهلي ورائي
وجاء المسلمون وغادروني ... بأرض الشَّام مستنهي الثّواءِ
وردّكَ كل ذي نسبٍ قريبٍ ... إلى الرحمن منقطع الإخاءِ
هنالك لاأبالي طلعَ بعلٍ ... ولا نخْلٍ أسافُلها رواءِ

قال: فلما سمعتهن منه بكيتُ، فخفقني بالدرة وقال:

«ما عليك يالُكَع أنْ يرزقني الله الشهادة وترجع بين شعبتي الرحل[1]».

* ولنختم حديثنا عن شعر ابن رواحة بشهادةٍ عظيمة لسيد من سادات الصحابة ألا وهو «أبو هريرة» رضي الله عنه، فقد كان يقول في قصصه التي كان يقصها، وعظاته التي كان يذكر بها أصحابه:

«إنَّ أخاً لكم كان لا يقولُ الرفث ـ يعني ابن رواحة ـ قال:

وفينا رسولُ الله يتلو كتابه ... إذا انشق معروفٌ من الليل ساطعُ
يبيتُ يجافي جنبه عن فراشهِ ... إذا استثقلتْ بالكافرين المضاجعُ
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا ... به مؤمنات أنَّ ما قال واقع[2]

* وهذا الزُّبير بن العوام رضي الله عنه يدلي بشهادته لابن رواحة فيقول: «ما رأيتُ أحداً أجرأ ولا أسرع شعراً من ابن رواحة[3]».

* وهذه شهادة أخرى لابن رواحة من الإمام النووي يقول:

---

(١) الكامل في التاريخ مجلد / ٢/ ص٢٣٥/ ٢٣٦، وانظر البداية والنهاية جزء / ٤/ ص٢٤٣، والإصابة جزء / ٢/ ص٢٩٩.
(٢) الفتح الرباني جزء / ٢٢/ ص٢٨٧، والحديث رواه البخاري.
(٣) تهذيب الأسماء واللغات جزء / ٢/ ص٢٦٥.

«كان عبد الله بن رواحة أحد الشعراء المحسنين الذين يردُّون الأذى عن رسول الله ﷺ والإسلام والمسلمين[1]».

أما محمد بن سلاّم الجمحي فقد أدلى بدلْوه أيضاً وشهد لابن رواحة بالسيادة والمقدرة الشعرية والمكانة يقول عنه عندما تحدث عن شعراء القرى العربية:

«وعبدُ الله بن رواحة عظيمُ القدر في قومه، سيّد في الجاهلية، ليس في طبقته التي ذكرنا أسْوَد منه، شهد بدراً، وكان في حروبهم في الجاهلية يناقضُ قيس بن الخطيم، وكان في الإسلام عظيم القدر والمكانة من رسول الله ﷺ[2]».

رضي الله عن عبد الله بن رواحة فقد نجح شاعراً كما نجح فارساً وعابداً وزاهداً، فقد أرادَ الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن، فنالَ السعادة والشهادة.

بشـــارة ابـن رواحـــة:

قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[3].

* احتلَّ عبد الله بن رواحة مكاناً مرموقاً بين الصحابة، وارتقى منزلةً عظيمة عند النبي ﷺ، إذْ كان أحد شعرائه الذين ينافحون عنه، وأحد الفرسان الذين قدّموا أنفسهم في سبيل الله.

---

(١) المصدر السابق جزء / ١/ ص٢٦٥.
(٢) طبقات فحول الشعراء ص٨٩/ ٩٠ لابن سلام الجمحي.
(٣) سورة التوبة آية / ١١١/.

* وسيدُنا عبد الله بن رواحة بالإضافة إلى أنه شاعرٌ من شعراء النبي وفارسٌ من فرسانه الأشداء، كان ذلك الرفيق الذي لايغيب عن مجالس النبي عليه الصلاة والسلام منذ أنْ صافحت نسماتُ الإسلام سمعه، ولامستْ شغاف قلبه؛ إلى أنْ لقي الله شهيداً في مؤتة مع زيد وجعفر رضي الله عنهم.

* وسيدنا عبد الله بن رواحة تركَ ذكراً خالداً في الدنيا، ففي جميع المشاهد مع رسول الله ﷺ لم يتخلف عن واحد منها إلى حين استشهاده، فاستحق قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «نعمَ الرجل عبد الله بن رواحة».

«وقد شهدَ له رسول الله ﷺ بالشهادة فهو مِمَّنْ يُقْطع له بدخول الجنة[1]».

* وقد بَشَّـرَ رسول الله ﷺ بالجنة كلَّ منْ شهد غزوة بدر والحديبية، وابن رواحـة مِمَّنْ شهـد هاتين الغزوتين، «فقـد روت حفصـة رضي الله عنها، أنَّ رسول الله ﷺ قال:

«لايدخلُ النار أَحَدٌ منْ أهلِ بدر والحديبية».

قالت: فقلت: يا رسول الله، وأينَ قول الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾[2] فقال رسول الله ﷺ: «فَمَه» ﴿ثُمَّ نُنَجِّى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾[3].

* ومرة أخرى شهد رسول الله ﷺ لشهداء مؤتة بالجنة إذْ أطلعَ الله رسوله ﷺ على شهداء مؤتة، وأخبر أصحابه بالمدينة قبل وُرود الخبر بأيام وذلك: «لما التقى الناس بمؤتة جلسَ رسول الله ﷺ على المنبر وكُشفَ له مابينه وبين الشام فهو ينظرُ إلى معركتهم، فقال رسول الله ﷺ:

«أخذَ الراية زيدُ بن حارثة فجاءه الشيطان فحبب إليه الحياة وكرَّهَ إليه الموت وحبب إليه الدنيا فقال: الآن حين استحكم الإيمانُ في قلوب المؤمنين

---

(١) البداية والنهاية جزء / ٤/ ص٢٥٧.
(٢) سورة مريم آية / ٧١/ .
(٣) تفسير القرطبي جزء / ١١/ ص١٣٧.

تحببُ إليّ الدنيا، فمضى قُدُماً حتى استشهد، فصلّى رسول الله ﷺ وقال: استغفروا له فقد دخل الجنة وهو يسعى، ثمّ أخَذَ الراية جعفر بن أبي طالب فجاءه الشيطان فمناه الحياة وكرّه إليه الموت ومناه الدنيا فقال: الآن حين استحكم الإيمان في قلوب المؤمنين تُمنيني الدنيا، ثمّ مضى قُدُماً حتى استشهد، فصلّى عليه رسول الله ﷺ ودعا له، ثمّ قال: استغفروا لأخيكم فإنَّه شهيدٌ، ودخل الجنة فهو يطيرُ في الجنة بجناحين منْ ياقوت حيث يشاء منَ الجنة، ثمّ أخذ الراية بعده عبد الله بن رواحة فاستشهد ودخل الجنة معترضاً فشقَّ ذلك على الأنصار، فقال رسول الله ﷺ: أصابه الجراح، قيل يا رسول الله، مااعتراضُه؟ قال: لما أصابتهُ الجراح نكلَ فعاتب نفسه فشجع فاستشهد فدخل الجنة معترضاً فسُرِّي عن قومِه[1]».

* وفد صوّر الرسول ﷺ حالة الشهداء في الجنة وما هم عليه من الإكرام جالسين على سرر من ذهب فقال:

«لقد رُفعوا إليَّ في الجنة فيما يرى النائم على سُرُر من ذهب فرأيتُ في سرير عبد الله بن رواحة ازوراراً عن سريري صاحبيه فقلتُ: عم هذا؟ فقيل: مضيا وتردد عبد الله بعض التردد ثمّ مضى[2]».

* وتحدثَ النبي عليه الصلاة والسلام إلى أصحابه عن قادة الجيش الذين استشهدوا في مؤتة، وعن الجنة التي يُلَقَّوْن فيها تحية وسلاماً وعن النعيم الذين يعيشون فيه فقال:

«وما يَسُرُّهم أنَّهم عندنا[3]».

أجلْ، فقد صدق رسول الله ﷺ، فالجوار والنعيم الذي صاروا إليه والفضل الذي حَبَاهم الله إياه أحبّ لنفوسهم وأقرّ لعيونهم من الدنيا

(١) المغازي جزء / ٢/ ص٧٦١/ ٧٦٢.
(٢) سيرة ابن هشام مجلد / ٢/ ص٣٨٠، وانظر عيون الأثر جزء / ٢/ ص٢٠١/ ٢٠٢.
(٣) أخرجه البخاري.

وزخرفها، وكيف لا؟! وهم في رحمة الله هم فيها خالدون، فرحين بما آتاهم الله من فضله.

* هنيئاً لعبد الله بن رواحة، هنيئاً لابن رواحة الذي آمن بعقله وقلبه وعاطفته وعرفَ الله معرفة اليقين، فباعَ نفسه ابتغاء مرضاة الله، فكان من الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه.

* وهكذا سجَّل سيدنا عبد الله بن رواحة صفحات ناصعة، وخلَّف أثراً محموداً، فكان من الذين قال الله فيهم:

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾.

* * *




سيدنا

ثابت بن قيس

رضي الله عنه

* قال ﷺ لثابت:
«إنك لست من أهل النار، ولكنك من أهل الجنة».
* «يا ثابت أما ترضى أن تعيش حميداً وتُقتل شهيداً وتدخل الجنة».
* «إن من أمتي لرجالاً الإيمان أثبت في قلوبهم من الجبال الرواسي».
* «نعم الرجل ثابت بن قيس».




مـقـــدمـــة:

ـ* تقعُ «يثرب» في وادٍ منبسطٍ فسيح، تحوطهُ الحدائقُ والبساتينُ وتملؤهُ الأشجارُ والظّلالُ، وتكثرُ فيهِ العيونُ والينابيعُ، كما أنّها معتدلةُ الجو، جميلةُ الأرجاء.

* في هذا الجوّ الجميلِ نشأ ثابتُ بنُ قيس بن شمّاس، فَعَرفتْهُ الأنديةُ بالبلاغةِ وفَصلِ الخطابِ، فقد كانَ للخطابةِ شأنٌ عظيمٌ عند القبائلِ العربيةِ آنذاك.

* كان ثابتُ بن قيس يستخدمُ مَقدرتهُ الخطابيةَ إلى جانبِ سيفِهِ في المعارك التي كانت تَسْتَعِرُ في يثرب، وبخاصةٍ ضد الأوسِ، فقد كانت هنالك حروبٌ طاحنةٌ بين الخزرجِ قومِ ثابت، وبين الأوس، وكان لهذه المعارك تاريخٌ طويلٌ في حياة كلا الحيَّيْن، وجَعَل اليهودُ الذين يساكنون العربَ في يثرب يدسُّونَ بين الأوسِ والخزرجِ، ويستثيرونَ فيما بينهم أسباب العداوة والبغضاء، إلى أنْ كادتِ الحروبُ تهلِكُ الحرثَ والنّسلَ، وكان آخرُهَا حربَ «بُعَاث» وذلك قبلَ الهجرة بنحو خمس سنين، ويومَ حرب بعاثٍ دارتِ الدائرةُ فيهِ على الخزرجِ، وأرادَ الأوسُ أنْ يُبيدوهم عنْ آخرهم، وأنْ يقتلوهم حَرْقاً في ديارهم لولا أنَّ بعضَ زعماءِ الأوس حالَ بينهم وبينَ ما يريدون، ووقعَ ثابتُ بن قيس يومها أسيراً في يد الزَّبير بن باطا القرظي حليفِ الأوسِ، فجزَّ ناصيته وخلّى سبيله[1]؛ وقد حَزَّ في نفسِ ثابت بن قيس سوءُ ما يصنعُ قومُه مع الأوس، وأدرك أنَّ كلا الطرفينِ المتحاربين خاسرٌ وأنَّ الكاسب وحدَه همُ اليهود.

* في موسم الحجِّ خرجَ ستةُ نَفرٍ منَ الخزرج، وقدموا مكةَ، ولَقِيهُم النبيُّ ﷺ فَعرضَ عليهمُ الإسلام فاستجابوا، وكانَ لإسلام هؤلاء النَّفرِ بعض الدوافع، فقد كانَ اليهودُ يعيِّرونهم وثنيتهم، ويهددونهم بقربِ ظهورِ نبيٍّ قد

(١) البداية والنهاية جزء ٣ ص١٢٥.

أطلَّ زمانُه يتبعونَهُ، فيقتلونهم معه قَتْلَ عادٍ وإرَم. كما أنَّ الخزرج كانوا حَديثي عَهْدٍ بهزيمةٍ ساحقةٍ حَلّتْ بهم أمامَ الأوس وحلفائهم منْ قبائل اليهود في يوم «بُعاث»، وخشي الخزرجُ أنْ يسبقهم الأوسُ إلى الإسلام فيتحقق تهديدُ اليهودِ، فلمّا دعا النَّبيُّ ﷺ هؤلاء النَّفرَ الستة قال بعضُهم لبعضٍ:

«يا قوم، تعلمون واللهِ أنَّهُ للنبي الذي توعَّدكم به يهود فلا تَسبَقْنكُم إليهِ» فأجابوهُ فيما دعاهُم إليه.

وقد أطلعَ هؤلاءِ الخزرجيون النّبيَّ ﷺ على الحالةِ في بلدهم، ووعدوهُ بالدعوة إلى الإسلام في يثربَ، وَرَجَوا أنْ يصلح اللهُ بهِ ذاتَ بينهم وقالوا له:

«إنَّا تركْنا قومنَا ولا قوم بينهم منَ العداوة والشَّرّ ما بينهم، فعسى أنْ يجمعهم اللهُ بك، وسنقدمُ عليهم فندعوهُم إلى أمركَ ونعرضُ عليهم الذي أجبناكَ إليهِ منْ هذا الدِّين، فإنْ يجمعهُم اللهُ عليكَ، فلا رجل أعزَّ منْكَ[1]».

* كانت الاستجابةُ سريعةً في يثربَ حتى لم تبقَ دارٌ منْ دورِها إلاَّ وفيها ذكرٌ منْ رسول الله ﷺ، ولم يَكَدِ العامُ يَنْصرم حتى وافى موسمَ الحجِ اثنا عشر رجلاً، عشرةٌ منَ الخزرجِ واثنان من الأوس، ولقيَ هؤلاء النَّفر النَّبي ﷺ عندَ العقبةِ[2] الكُبرى، وعقدَ لَهم بيعةً سُميتْ ببيعةِ العقبة الأولى؛ بايعوهُ على ألاّ يُشركوا باللهِ شيئاً ولايسرقوا ولا يزنوا ولا يقْتلوا أولادهُم ولايأتوا ببهتانٍ يفترونه بينَ أيديهم وأرجلهم ولا يعصُوه في معروفٍ، فإنْ وَفَّوْا فَلَهُم الجنة، ولمّا عادَ هؤلاءِ الرجالُ إلى بلدهمِ أرسل معهم النبيُّ ﷺ أحَدَ أصحابِه من السابقين إلى الإسلام «مصعب بن عمير» الذي اشتهر بشدةِ الإخلاصِ للإسلام وأهلهِ، ولَقيَ منْ خلاف أهلهِ أذىً كبيراً، وأَمَرهُ أنْ يقرئهم القرآن الكريمَ ويعلمهم الإسلامَ ويفقِّهَهُم في الدينِ، فكانَ يُسمى مصعبٌ بالمدينة

---

(١) سيرة ابن هشام مجلد (١).

(٢) العقبة: هي المكان الذي ترمى فيه الجمار أيام الحج، وتقع العقبة بين منى ومكة على بعد ميلين من مكة.

«المقرىء» وأخذَ يصلّي بهم، وذلك أنَّ الأوس والخزرج كَرِهَ بعضهُم أنْ يؤمَّهُ البعضُ الآخر.

إســلام ثـابـت بـن قيـس:

* نزلَ مصعبُ بن عمير بالمدينةِ على أسعدِ بن زرارة من بني النجار فأقام عندهُ، وكانَ أسعدُ منَ النَّفرِ الخزرجيين الذين أسلموا يومَ عرضَ عليهمِ رسول الله ﷺ دعوته، ومنَ الذين حضروا بيعة العقبة الأولى والثانية؛ وكانَ مصعبُ بن عمير مثال الداعيةِ اللبقِ الفَطنِ، يدعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظةِ الحسنةِ، فأثْبتَ أنَّـه جديـرٌ باختيارِ النبيِّ له، فقـامَ بمهمـةِ الدعوةِ أحسنَ قيامٍ، وقد حَبَاهُ اللهُ الحلمَ والصبرَ والأناةَ وكل الخصالِ الحميدة، فاستطاع أنْ ينشرَ الإسلام في يثرب.

* وذاتَ يومٍ سمعَ ثابتُ بن قيس بالداعيةِ المكيِّ الذي ينزلُ بدارِ أسعدِ بن زرارة الخزرجي، وما كادَ يستمعُ إلى القرآن الكريمِ يُرتِّلُه مصعبُ بن عمير حتى أصاخ إليهِ بسمعهِ وقلبهِ، فأسَرتْ معاني القرآن وروعته لبَّهُ، ومالبث أنْ شرح اللهُ صدرهُ للإيمان، فانطلق ينطقُ بالشهادةِ وانضوى تحت لواءِ الإسلام، وأسلمتْ كذلكَ أمُّه[1] «كبشة بنت واقد» وبايعتْ رسول الله ﷺ، وكانت أمُّهُ ذاتَ عقلٍ وافرٍ وحكمةٍ ورَويّة، فقد كانَ لها بالغُ الأثر في تَنْشئةِ ابنها ثابت بن قيس وحضِّهِ على تعلّمِ القراءة والكتابة، ليكون منْ الذين يُسَمَّوْنَ «الكامل» لأنَّ القراءة والكتابة كانت قليلة في ذلك العهد، فأتقنَ ثابتٌ ذلكَ وأصبحَ فيما بعد منْ كتَّابِ الوحي، كما كانَ لها الأثر العظيم في تربيةِ ابنها عبد الله بن رواحة[2] فكانَ كاتباً شاعراً فارساً.

---

(١) طبقات ابن سعد جزء ٨ ص٣٦١.

(٢) جاء في كتاب سير أعلام النبلاء مجلد (١) ص٣٠٩، أنَّ عبد الله بن رواحة أخو ثابت بن قيس لأمه وكذلك عمرة بنت رواحة. وانظر أيضاً الإصابة مجلد (٤) ص٣٨٣.

* وأسلمتْ كذلكَ حبيبةُ بنت سهل فتزوجها ثابتُ بن قيس[1].

وبقي ثابتُ بن قيسٍ في المدينةِ ينتظرُ قدومَ النبي ﷺ مُهاجراً من مكة، فقدْ استقبلتِ المدينةُ دعوةَ الإسلام بقلوبٍ متفتحةٍ للإيمان ونفوسٍ راغبةٍ في التضحية، وقد استعدَّ الأوس والخزرج لنصرة الرسول وأصحابه، وهذا ثابتُ بن قيس مستعدٌّ للدفاع عنْ رسولِ الله بسيفهِ وبما آتاهُ اللهُ منْ ملكَةِ الخطابةِ وقوة البيان.

* ها هُمُ الأنصارُ يستقبلونَ النبيَّ الكريمَ ﷺ استقبالاً كريماً، وعَلا وجوههم الزهوُ والبشرُ بمقدمهِ، وجعلَ الرسولُ ﷺ لا يمرُّ بدارٍ منْ دورِ الأنصار إلاّ اعترضوا طريقه وقالوا:

«هلمَّ يا رسول الله إلى القوة والمنعة والثّروة». فيبتسمُ الرسولُ ويدعو لهم بخيرٍ، وكانَ ثابتُ بن قيس قد استقبل الرسول استقبالاً كريماً مع أخيه عبد الله بن رواحة وقومهما، وقد تقدم عبد الله بن رواحة وأخذَ بزمامِ ناقةِ الرسولِ ﷺ وقال له:

«إلينا يا رسول الله حيثُ العزّ والمنعة». ولكنَّ الرسول عليه الصلاة والسلام شكرهُم وقال: «خلّوا سبيلَها فإنَّها مأمورةٌ». ثمَّ ألقى ثابتُ بن قيس خطبةً عبّرَ فيها عنْ سروره بمقدم الرسول المدينة فقال:

«نمنعُكَ مما نمنعُ منه أنفسنا وأولادنا فما لنا»؟

قال: «الجنَّة». قالوا: رضينا[2].

* وأشرقَ وجهُ ثابتٍ وقومهِ بالبشرِ والفرحةِ حينما وعَدهُم الرسول ﷺ بالجنة، ومنذُ ذلك اليوم أصبح ثابتُ بن قيس خطيبَ الرسول، كما شاركَ بسيفه إلى جانب لسانهِ في الدِّفاعِ عن الرسولِ وعنِ الإسلامِ.

* منذُ أنْ وطئتْ قَدَمَا رسول الله ﷺ أرضَ المدينة عملَ على إقامةِ

---

(١) طبقات ابن سعد جزء ٨ ص٤٤٥.

(٢) سير أعلام النبلاء مجلد (١) ص٣٠٩ وانظر فضائل الصحابة للنسائي ص٣٧.

الاستقرار بينَ اليثربيين أنفسهم، فأصلحَ بين الأوس والخزرج، وحَرَصَ عليه الصلاةُ والسلام على إزالة كلِّ ما منْ شأنهِ أنْ يُذكِّرَ بالعداءِ القديم بينهما، فجمعهما في اسم واحدٍ هو «الأنصار» وهذا الاسمُ أبْعدَ الروحَ العصبية، ومحا كل آثار براثنِ الحقدِ والجاهلية منْ قلوبهم، ناهيك أنَّ هذا الاسم يُذَكِّرُ كلا الحيين بالتآلفِ ونصرة الإسلام، ثمّ عَمدَ إلى تأليفِ القلوب بين المهاجرين والأنصار، وجعل يؤاخي بين كل رجلين من المهاجرين والأنصار، فكان نصيبُ «ثابت بن قيس» في المؤاخاة عامر بن أبي البكير(١). وبعد ذلك حرصَ ثابتُ بن قيس على حضور مجالس الرّسول ﷺ، والاستماع إلى القرآن وإلى الهدي النبوي، والتَّفَقُّهِ في الدِّين، فقد أحبَّ ثابتٌ الرسول حباً خالطَ قلبَهُ وروحَهُ، ولمّا رُزِقَ بابنهِ الأولِ حَمَلَهُ وانطلقَ بهِ إلى رسولِ الله ﷺ فحنّكه بتمرةِ عجوةٍ وسمَّاهُ محمداً، فسُرَّ بذلكَ سروراً عظيماً، وأحبَّ أنْ يكنى أبا محمد.

* وفي بعضِ الأيام، أُصيبَ ثابتُ بن قيس بمرضٍ ألزمهُ بيته، ولمْ يَعُدْ يستطيع حضورَ مجالسِ الرسول ﷺ، ولما سمعَ بذلك النبيُّ عليه الصلاة والسلام، دَخَلَ عليه وهو عليلٌ ودعا له بالشِّفاء فقال: «أذْهبِ الباسَ رَبَّ النَّاسِ عن ثابت بن قيس بن شمَّاس(٢)».

جهــاد ثــابــت بــن قــيس:

* كان ثابتُ بن قيس يمتلكُ ناصية الكلام، وكان جهيرَ الصوت، حاضر البديهة، قدْ ذُلِّلتْ له قطوفُ البيانِ تذليلاً، وإلى جانب ذلك كلِّهِ يحملُ بين جوانحهِ قلباً ثابتاً وسيفاً مُصلتاً على أعداءِ الإسلام، وهو منْ فرسان المسلمين الأقوياء، أوْقفَ لسانه وسيفه للذوْد عنْ حياضِ الإسلام والمسلمين، وشهد

---

(١) طبقات ابن سعد جزء ٣ ص٣٩٠، عامر بن أبي البكير شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وقد أسلم مع إخوته عاقل وإياس وخالد، بني أبي البكير في دار الأرقم وهم أول من بايع رسول الله ﷺ فيها.
وقال الذهبي: ما شهد بدراً إخوة أربعة سواهم. انظر سير أعلام النبلاء مجلد (١) ص١٨٧.

(٢) تهذيب التهذيب مجلد (٢) ص١٢.

المشاهد كلّها معَ رسول الله ﷺ خلا غزوة بدر.

* وجاءتْ غزوةُ أُحُد فخاضَ غِمارها وشرى وباع، وبذلَ سيفَهُ وروحَهُ في سبيل الله، وبعد غزوة أُحُد ظلّ قريباً منْ رسول الله ﷺ لايكادُ يفوته مجلسٌ أو حادثةٌ، فشاهد إجلاء يهود بني النَّضير عن المدينة، حيثُ إنَّ النبيَّ ﷺ لم يكن يأمَنُ غَدر اليهودِ والمنافقين بالمدينة، بل لم يكنْ ليطمئنَّ إلى وفائهم وإخلاصهم، ولم تمض فترةٌ، حتى كاشف يهودُ بني النّضير الرسول ﷺ بالعداوة والبغضاء، وسعوا إلى الغدر به وبيّتوا النّيةَ لذلك، وحاولوا أنْ يلقُوا عليه صخرةً منْ على ظهرِ أحدِ بيوتهم، فردَّ الله كيدهم إلى نحورهم، فسار الرسولُ مع أصحابه في شهر ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة، وحاصرهم ثمّ أجلاهُم عنِ المدينة، فخرجوا إلى خيبر وسارَ بعضهُم إلى الشّام، وخلّفُوا الأموال لرسول الله ﷺ، فكانت له خاصة يضعُها حيثُ أراهُ الله تعالى[1] فقسمها الرسولُ على المهاجرين دون الأنصار.

* وفي هذه اللحظات كان ثابتُ بن قيس قريباً منْ رسول الله ﷺ؛ يقولُ صاحبُ كتاب «الإمتاع»: «فلمّا غنمَ رسول الله ﷺ بني النَّضير، بعث ثابت بن قيس فدعا الأنصار كلّها، فحمدَ الله وأثنى عليه، وذكر الأنصار وما صنعوا بالمهاجرين، وإنزالَهُم في منازِلهم وأثَرَتَهُم على أنفسهم ثمّ قال:

«إنْ أحببتُم قسمتُ بينكم وبينَ المهاجرين ماأفاء اللهُ عليَّ منْ بني النَّضير، وكانَ المهاجرون على ما هم عليه منَ السُّكنى في مساكنكم وأموالكم، وإنْ أحببتُم أعطيتُهم وخرجوا منْ دوركم».

فقال سعدُ بن عبادة وسعدُ بن معاذ رضي الله عنهما: بل تقسمُه للمهاجرين ويكونون في دورِنا كما كانوا، ونادتِ الأنصارُ: رضينا وسلّمنا يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ:

«اللهمَّ ارحمِ الأنصار وأبناء الأنصار[2]».

---

(١) البداية والنهاية جزء ٤ ص٧٩.

(٢) انظر مغازي الواقدي أيضاً ص٣٧٩ وتفسير القرطبي جزء ١٨ ص٢٣.

وهكذا جعلَ رسول الله ﷺ ما أفاء الله عليه. . .

﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾[1].

أمَّا الأنصارُ فلم يجدوا في صدورهم حاجةً ممّا أوتوا وآثروا المهاجرين على أنفسهم، فقد أغنى الله المهاجرين بذلك فاستغنوا منْ فضل اللهِ، وذلك بما أفاء الله منْ أرضِ بني النَّضير على المسلمين.

* في غزوة بني النَّضير هذه، كان ثابتُ بن قيس رضي الله عنه مضرب المثلِ في الإيثار، فقد رُويَ أنَّ رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أصابني الجهدُ، فأرسلَ إلى نسائهِ فلمْ يجدْ عندهُن شيئاً فقال:

«ألا رجلٌ يُضيفُه هذهِ الليلة يُرحْهُ الله؟».

فقامَ ثابتُ بن قيس فقال: أنا يا رسول الله، فذهبَ إلى أهلهِ فقال لامرأتهِ: ضيفُ رسول الله ﷺ لا تدَّخِرينَهُ شيئاً، قالت: والله ما عنْدي إلاّ قُوت الصبية!

قال: إذا أراد الصبيةُ العشاءَ فنَوّميهم وتعالي فأطْفئي السِّراج ونطويْ بطوننا الليلة، ففعلتْ، ثمّ غدا الرجلُ على رسول الله ﷺ فقال ﷺ:

«لقد عَجِبَ اللهُ، أو ضحكَ الله منْ فلانٍ وفُلانة[2]».

فأنزل الله تعالى: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[3].

وهكذا ضَرَبَ ثابتُ بن قيس وامرأتهُ أروع الأمثلة وأصدقها في الإيثار الذي مَدَحَهُ اللهُ في القرآن الكريم، وقد ثَبَتَ في الصحيح عنْ رسول الله ﷺ أنَّهُ قال:

«أفضلُ الصدقةِ جهدُ المُقلِّ».

---

(١) سورة الحشر آية /٨/ .

(٢) تفسير القرطبي جزء ١٨ ص٢٤ وانظر أسباب النزول للسيوطي سورة الحشر.

(٣) سورة الحشر آية /٩/ .

ولقد كان مقامُ ثابت بن قيس مقاماً عالياً كريماً، إذْ أنَّـه آثـرَ على نفسه مع خَصاصَتِـهِ إلى ماأنفَقَ.

مـواقـفُ لا تُـنسـى:

* لثابتِ بن قيس مواقفُ عظيمةٌ، تركت آثاراً نيّرةً في تاريخِ حياتِهِ المُشرقِ، ففي غزوة بني المُصطلقِ من السنة الخامسة للهجرة تواردتِ الأنباءُ إلى رسول الله ﷺ أنَّ قبيلة بني المُصطلق تجْمعُ له وتستعدُّ لقتاله، وأنَّ سيدها «الحارثَ بن أبي ضرار» قد استكمل عُدَّتَهُ لهذا المسيرِ، فسارع الرسول عليه الصلاة والسلام ليطفىء هذه الفتنة قبل اندلاعها، واجتمع بنو المصطلقِ لدى ماءٍ يسمى «المُريْسيع» وأمر النبيُّ ﷺ المسلمين فحملوا عليهم حَمْلة رجل واحدٍ، فقتلوا منْهم عشرةً، وأسروا بقيَّتَهُم، وكان ملكُهم «الحارث بن أبي ضرار» في مقدمتهم، وأبلى ثابت بن قيس في هذه الغزوة بلاءً حسناً؛ وكانت «جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار من السبايا التي غنمها المسلمون، ووقعت جويرية في السهمِ لثابت بن قيس، ولكن؛ أتقبل جويرية هذه أنْ تكون أسيرةً أو تُؤخذَ سَبيّةً وهي ابنةُ ملك بني المصطلق؟! ورأتْ أنَّ هذا الأمر مستحيـلٌ، فتقـدمتْ إلـى ثابت وكاتَـبَـتْـهُ على نفسها، ثمّ أتتْ رسول الله ﷺ لتستعينه في كتابتها، ولندعِ الحديث لعائشة أمِّ المؤمنين رضي الله عنها لتحدثنا عنْ ذلك قالت:

«دخلتْ جويريةُ على رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، أنا جويرية بنتُ الحارث بن أبي ضرار سيّد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك فوقعْتُ في السَّهم لثابت بن قيس بن شماس، فكاتَبْتُهُ على نفسي، فجئتُكَ أستعينكَ على كتابي. قال:

«فهلْ لكِ في خيرٍ منْ ذلك»؟

قالت: وما هو يا رسول الله؟

قال: «أقْضي عَنْكِ كتابتك وأتزوَّجُكِ».

قالت: نعمْ يا رسول الله.

قال: «قدْ فَعلْتُ».

* وخرجَ الخبرُ إلى النَّاسِ أنَّ رسول الله ﷺ قدْ تزوجَ جويريةَ بنت الحارث، فقال الناسُ: أصْهارُ رسول الله ﷺ، وأرْسلوا ما بأيديهم، فقالت عائشة رضي الله عنها: فلقد أعتقَ بتزويجهِ إيّاها مئة أهل بيتٍ منْ بني المُصطلق، فما أعلمُ امرأةً كانت أعظم بركةً على قومِها مِنْها[1]».

* وعندما رأى المسلمون أنَّ النبيَّ الكريم قد تزوج إحدى السَّبايا، أطلقُوا ما بأيديهم منْ أموالٍ ومتاعٍ وسَبْيٍ؛ ولما عاين بنو المُصطلق هذا التصرف الكريم من الرسولِ والمسلمين، سَرَتْ في قلوبهم ومضاتُ الإيمانِ وأشرقتْ في نفوسهم عظمةُ هذا الدِّين الحنيفِ، فأعلنوا إسلامهم، وتطهروا منْ أدْران الوثنيةِ العمياء.

* ولنتابعْ رحلتَنَا مع مواقف ثابت بن قيس؛ فبعد فترةٍ قصيرةٍ جاءَتْ غزوةُ الأحزاب، وتجمَّعَ المشركون حول المدينةِ المنورة يريدون القضاء على المسلمين، ولكن كفى الله المؤمنين القتال، وانْفضَّتْ حشودُ الأحزاب منْ حول المدينة وعادوا خائبينَ، وفي هذه الغزوة نقَضَ يهود بني قريظة عهْدهُم مع المسلمين، وزيَّنَ لهُم حييُّ بن أخطب زعيمُ بني النَّضير الغدر بالمسلمين؛ عندها دَعَا رسول الله ﷺ للخروجِ إلى بني قريظة الذين خانوا الله وعهد رسولهِ، وتحالفُوا مع الأحزابِ وألَّبُوا الناس على حَرْبِ الرسول عليه الصلاة والسلام، وانطلق ثابتُ بن قيس رضي الله عنه في مقدمة المجاهدين، وكان له دورٌ بارزٌ في هذه الغزوةِ إذْ وَقَعَ الزَّبيرُ بن باطا القرظي أسيراً في يده، وتفرَّسَ ثابتٌ في أسيره، وسرعان ما نقلَتْهُ ذاكرته إلى الوراء، إلى عشر سنواتٍ خلتْ، تذكرَ يوم «بُعاث» ذلك اليومِ المشؤوم العبوسِ، الذي كانتْ الدائرة فيه على الخزرج قومه، ورأى أحد زعماء الأوسِ أنْ يرفقُوا بالخزرج قائلاً لقومه:

---

(١) البداية والنهاية جزء /٤/ ص١٥٩ وسيرة ابن هشام مجلد (٢) ص٢٩٥ بتصرف يسير. وانظر أيضاً طبقات ابن سعد مجلد /٨/ ص١١٦ ـ ١١٧.

«إنَّهم إخوانُكم على كل حال وإنَّ جوارهم خيرٌ منْ جوار الثَّعالبِ» وكان يعني اليهود بقولهِ.

* تَذكَّرَ ثابتُ كلَّ هذا، وشَعَرَ بصدقِ تلك الكلمةِ وذلك الوصْفِ.

ولكنْ ما واجبُه الآنَ نحو أسيره اليهودي الطاعن في السِّن؟ تذكَّر مرةً أخرى أنَّه وقعَ بيدِهِ أسيراً يومَ «بُعاث» وأنَّ هذا الأسير الآنَ كان كريماً معه على غيرِ عادةِ قومهِ اليهودِ فلمْ يأخذْ منهُ مالاً أو فديةً، بل جَزَّ ناصيته ثمَّ خلَّى سبيلَهُ، وأحبَّ ثابتُ أنْ يردَّ لهُ ذلك الجميل، ولندعْ ابن هشام في السيرة يحدثنا عن ذلك يقول:

«فجاءهُ ثابتُ بن قيس وهو شيخٌ كبيرٌ، فقال: يا أبا عبد الرحمن هلْ تعرفُني؟

قال الزَّبيرُ بن باطا: وهل يجهلُ مثلي مثلَكْ!

قال ثابتُ: إنّي قدْ أردتُ أنْ أجزيكَ بيدٍ لكَ عندي.

قال: إنَّ الكريم يجزيْ الكريم..

ثمَّ أتى ثابتُ بن قيس رضي الله عنه رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنَّه قد كانت للزُّبير بن باطا القرظي عليَّ مِنّةٌ، وقد أحببتُ أنْ أجْزيَهُ بها فَهَبْ لي دَمَهُ.

فقال رسول الله ﷺ: «هو لك».

فأتاهُ فقال: إنَّ رسول الله ﷺ قد وَهَبَ لي دمَكَ فهو لك.

قال الزَّبيرُ بن باطا: شيخٌ كبيرٌ لاأهلَ لهُ ولا وَلد! فما يَصْنَعُ بالحياة؟! فأتى ثابتٌ رسول الله ﷺ فقال:

بأبي أنت وأمي يا رسول الله، هَبْ لي امرأتهُ وَوَلَدَهُ.

قال عليه الصلاة والسلام: «هُمْ لك».

فأتاهُ ثابتُ بن قيس فقال له: قَدْ وَهَبَ ليْ رسول الله ﷺ أهلَكَ وولَدَك فهُمْ لك.

قال الزَّبيرُ بن باطا: أهْل بيتٍ بالحجاز لا مالَ لَهُم، فما بقاؤُهُم على ذلك؟

فأتى ثابتُ رسول الله ﷺ فقال:

يا رسول اللهِ، مَالهُ.

فقال عليه الصلاة والسلام: «هو لك».

فأتاهُ ثابتٌ فقال: قد أعْطاني رسول الله ﷺ مالك فهو لك.

فقال الزَّبيرُ لثابتٍ: أيْ ثابت، ما فعل الذي كان وجهه مِرآةً صينيةً يتراءى فيها عذارى الحيِّ «كعبُ بن أسد»؟

قال ثابتٌ: قُتِلَ.

قال الزَّبير: فما فعلَ سيدُ الحاضر والبادي حييُّ بنُ أخْطب؟

قال ثابتٌ: قُتِلَ.

قال: فما فعلَ مقدمتُنا إذا شدَدْنا، وحاميتُنا إذا فررنا «عَزَّالُ بن سموأل»؟

قال ثابت: قُتِلَ.

قال الزَّبير: فما فعلَ المجْلِسانِ؟ يعني بني كعب بن قريظة وبني عمرو بن قريظة؟

قال ثابت: ذَهبوا قُتِلُوا.

قال الزَّبير بن باطا: فإنّي أسألُكَ يا ثابت بيدي عنْدكَ إلاّ ألحقْتني بالقوم فوالله ما في العيشِ بعد هؤلاء منْ خَيْرٍ، فما أنا بصابِرٍ لله فَتْلةَ دَلْو ناضح حتّى ألقى الأحبة[١].

فقدّمهُ ثابتٌ فضرب عنقَهُ.

فلما بلغَ أبا بكرٍ الصديقَ رضي الله عنه قوله «ألقى الأحبة» قال: يلقاهُم

---

(١) أي: مقدار ما يأخذ الرجل الدلو إذا أخرجت من البئر فيصبّها في الحوض، انظر الروض الأنف جزء / ٣/ ص٢٨٤.

والله في نار جهنم خالداً فيها مُخَلداً[1]».

وقد رُوي أنَّ ثابتَ بن قيس رضي الله عنه قال للزَّبير بن باطا: ما كنتُ لأقْـتُـلَكَ!

فقال الزَّبير بن باطا: لا أبالي منْ قَتَلَني.

فقتلَهُ الزُّبيرُ بن العوَّام رضي الله عنه[2].

وتدلُّنا هذه القصة على مدى سماحةِ الإسلام، وعلى مدى التزام ثابت بن قيس بردِّ الجميل ووفاءِ العهد، كما تدلُّ على طبيعةِ اليهود وعلى خبثهم المتأصِّلِ في نفوسهم.

* وهناك مواقفُ لاتُنسى منْ حياة سيدنا ثابت بن قيس رضي الله عنه، فقد كان يعرفُ الفَضْل وينسبُه لأهلِهِ، ولنستمع إلى هذا الموقف الجميل مع النبي ﷺ وسعد بن عُبادة رضي الله عنه، ففي حجةِ الوداع كانَ ثابتُ بن قيس بقرب النبيِّ ﷺ، وصادف أن ضلت زاملة[3] لرسول الله، فجاء سعد بن عبادة وابنه قيسُ بن سعد بزاملةٍ تحملُ زاداً يؤمّانِ رسول الله ﷺ حتى يجدا رسول الله ﷺ واقفاً عند باب منزلهِ، قد أتى الله بزاملتِهِ؛ فقال سعد: يا رسول الله قد بَلَغَنا أنَّ زاملتَك أضلتْ مع الغلام وهذه زاملةٌ مكانها.

فقال رسول الله ﷺ: «قد جاء الله بزاملتنا فارجعا بزاملتكما بارك الله عليكما، أما يكفيك يا أبا ثابت ما تصنع بنا في ضيافتك منذ نزلنا المدينة؟».

قال سعد: يا رسول الله، المِنّةُ لله ولرسوله، والله يا رسول الله للذي تأخذُ من أموالنا أحب إلينا من الذي تدع.

قال عليه الصلاة والسلام: صدقتُم يا أبا ثابت، أبْشر فقد أفلحت! إنَّ

---

(١) سيرة ابن هشام مجلد (٢) ص٢٤٢ ـ ٢٤٣ بتصرف يسير ـ وانظر الكامل في التاريخ مجلد (٢) ص٢١٧ ـ ٢١٨ والبداية والنهاية جزء ٤ ص١٢٥.

(٢) السيرة الحلبية مجلد ٢ ص٦٧٠.

(٣) الزاملة: بعير يستظهر به الرجل يحمل متاعه وطعامه عليه.

الأخلاق بيد الله عزَّ وجلَّ، ومنْ أراد الله أنْ يمنحه منها خُلقاً صالحاً مَنَحَهُ، ولقد منحك الله خُلقاً صالحاً».

قال سعد: الحمدُ لله الذي هو فعل ذلك!

قال ثابت بن قيس: يا رسول الله، إنَّ أهل بيت سعد في الجاهلية سادتنا والمطعمون في المَحْل[1] مِنّا.

قال رسول الله ﷺ: «الناسُ معادنُ خيارُهم في الجاهلية خيارُهُم في الإسلام إذا فقهوا له ما أسلموا عليه. . .[2]».

أرأيت إلى هذا الاعتراف بالفضل؟! وإلى هذه الأخلاقِ العظيمةِ التي نَشأ عليها أصحابُ رسول الله ﷺ، أكرِمْ بها منْ تربيةٍ، وأعْظِمْ بها منْ أخلاقٍ.

ثـابـتُ بـن قـيس خطيـبُ الرسـول ﷺ:

* كان ثابت بن قيس خطيب الأنصار وخطيب رسول الله ﷺ[3]؛ ولثابت ابن قيس دورٌ كبير في المعاركِ والحروب التي خاضها مع الرسول ﷺ، فكان وسيفهُ سبَّاقاً إلى ساحة المعركة، يتواجد دائماً في مقدمة الصفوف، ويندفع اندفاعَ منْ يطلبُ الشهادة وإعلاء كلمة الله، وفي حال السِّلْم له دورٌ آخر لا يقلُّ روعةً ومكانةً عن دورهِ في المعركة؛ فقد كان خطيباً مُفوَّهاً، كما عُرِفَ أبوه «قيسُ بن شماس» بالخطابة من قبل، وورث ثابتٌ عن أبيه بلاغة الخطابة، وفصاحة اللسان، وروعة البيان، ومنذ أنْ أعلن ثابتُ بن قيس إسلامه، نَذَرَ سيفَهُ ولسانَهُ لخدمة الإسلام والمسلمين، والحقيقة: إنَّ لسانه لا يقلُّ روعةً عن السيف في الحروب، فقد كان لسانه من وسائل الإعلام الناجحة وقتذاك ناهيك بما كان للخطابةِ والشعرِ منْ مكانةٍ عظيمةٍ في تاريخ الإسلام والأدبِ، وقد كان العربُ يجتمعون في المواسم والأسواق يتحدثون عن أمجادِ القبيلةِ،

---

(١) المحل: الجدب وانقطاع المطر.

(٢) المغازي للواقدي جزء ٣ ص١٠٩٥.

(٣) تهذيب الأسماء واللغات جزء (١) ص١٣٩. وانظر البداية والنهاية جزء / ٥/ ص٣٤١.

ويَتَـباری الخطباءُ والشعراءُ في تعداد المفاخر؛ ولمّا جاء الإسلام بقي للخطابة دورٌ عظيمٌ، إذ اتخذها الرسول ﷺ أداةً للدعوة إلى الدين الإسلامي الحنيف في مكة، وكذلك في الأسواق الشَّهيرة، فكان عليه الصلاة والسلام يخطبُ في النَّـاسَ داعياً إلى سبيل ربهِ بالحكمة والموعظة الحسنة، وعندما هاجر إلى المدينة بقيتْ خطابتهُ أداة الدَّعوة ومن ثمَّ أضحت ذات دورٍ أساسي في صلاةِ الجُمَعِ والأعياد ومواسم الحجِّ وبعض المناسبات؛ وكان للشعر دورٌ بارزٌ أيضاً يؤتي ثماره كالخطابة، يقول ابن سيرين: «كان شعراءُ المسلمين: حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك، فكان كعبٌ يخوِّفهم الحربَ، وعبـد الله بـن رواحـة يعيِّرُهُـم بالكفـر، وكان حسـان يُـقبلُ على الأنساب[1]».

ولم يكنْ دورُ الخطابة يقلُّ شأناً عن الشعر أيضاً إنْ لمْ يكن يتعداهُ أحياناً، لأنَّ الخطيب يجب أنْ يكون رابطَ الجأشِ، ساكن الجوارحِ، يتخيرُ الألفاظ المناسبة لمقام الخطبة، جهيرَ الصوت، حاضر البديهة، وفي سيدنا ثابت بن قيس تجتمع كل تلك الصفاتِ، ناهيك بصدقِ إسلامه، لذا جعله الرسولُ ﷺ خطيبه كما كان حسان بن ثابت شاعره.

* في السنة التاسعة من الهجرة الشريفة، والتي كانت تسمى سنة الوفود، بدأ الناسُ يدخلون في دين الله أفواجاً، وبدأتِ الوفود تَرِدُ المدينة لتعلن خضوعها للإسلام وانضواءها تحت لوائه، وكان رسول الله ﷺ يستقبلُ الوفودَ مسروراً بمقْدمها، فيكرِمها وينزلها على الرَّحبِ والسَّعة في دُور الضيافة بالمدينة المنورة، ويبسطُ لها كلَّ ما تريدُ أنْ تقف عليه مِنْ أمورِ الإسلام.

* كان رسول الله ﷺ يتلطفُ مع الوفود، فيُجاريها في بعض عاداتها التي لا تَمسُّ مبادىء الإسلام بسوء، ويتجاوزُ عما يبدرُ منْ بعض هفواتها التي يدفعُ إليها جَفَاء البداوة وخشونة الجاهلية، فقد جاءهُ وفد تميم في وقت

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١/ ٢٣٣.

الظهيرة[1] وكان رسول الله ﷺ قائلاً[2] في بيتٍ منْ بيوته، فوقفوا في المسجد ينادونه منْ وراء الحُجرات: يا محمد، اخرجْ إلينا، فإنَّ مَدْحنا زَينٌ، وإنَّ ذمَّنا شَيْنٌ، فقال رسول الله ﷺ: «ذاك الله عزَّ وجلَّ»[3]. وظلّوا يصيحون به حتى آذاه صياحُهم، ولكنَّ تصرفَهُم الخشن هذا لم يمنعْهُ أنْ يخرج إليهم، وأنْ يُسايرَهُم فيما طلبوا إليه من المُفاخرة وتعداد المآثرِ إذ إنَّ الإسلام قد نهى عن التكاثرِ بالآباءِ والأنساب والأحساب؛ وخرج إليهم ﷺ فقالوا:

يا محمد جئناكَ نفاخرك فائْذَنْ لشاعرنا وخطيبنا، قال:

«قد أذنتُ لخطيبكم فليقلْ[4]».

فقام عطاردُ بن حاجب[5] فقال:

«الحمدُ لله الذي له علينا الفضل والمنّ وهو أهلهُ، الذي جعلنَا ملوكاً، ووهب لنا أموالاً عظاماً نفعلُ فيها المعروف، وجعلنا أعزةَ أهل المشرق وأكثرَهُ عدداً وأيسرهُ عدةً، فمَنْ مثلُنا في النّاسِ؟ ألسْنا برؤوسِ النَّاس وأولي فضلهم؟ فمَنْ فاخرنا فليعدّدْ مثل ما عدّدنا، وإنَّا لو نشاء لأكثرنا الكلام، ولكنْ نخشى من الإكثار فيما أعطانا وإنا نُعْرَفُ بذلك، أقولُ هذا لأنْ تأتوا بمثل قولنا، وأمرِ أفْضَل منْ أمرِنا».

ثمّ جلسَ، فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس بن شماس أخي بني الحارث بن الخزرج:

«قُمْ فأجبِ الرجلَ في خطبته».

---

(١) انظر تفسير القرطبي جزء ١٦ ص٣١٠.

(٢) القائل: المستكن من الحر في وقت القيلولة منتصف النهار.

(٣) البداية والنهاية جزء / ٥/ ص٤٦ وانظر تفسير القرطبي جزء ١٦/ ص٣٠٩.

(٤) سيرة ابن هشام مجلد (٢) ص٥٦٢.

(٥) عطارد بن حاجب بن زرارة من أشراف بني تميم، كان خطيب بني تميم عند النبي ﷺ وهو الذي قال فيه الفرزدق:

ومنّا خطيب لا يُعاب وحاملٌ ... أغرُّ إذا التفّتْ عليه المجامع

فقام ثابتُ بن قيس رضي الله عنه فقال:

«الحمدُ لله الذي السمواتُ والأرضُ خلقُه، قضى فيهن أمرهُ، ووسع كُرْسيُّهُ عِلْمه ولم يكُ شيءٌ قطُّ إلاّ منْ فضله، ثمّ كان من قدرته أنْ جعلنا ملوكاً واصطفى منْ خيرتِهِ رسولاً أكرمه نسباً وأصدقه حديثاً وأفضله حسباً، فأنزلَ عليه كتاباً وائتمنه على خلْقِه فكان خيرة الله منَ العالمين، ثمَّ دعا الناس إلى الإيمان به فآمنَ برسول الله المهاجرون من قومه وذوي رحمه؛ أكْرَمُ النَّاس أحساباً وأحسنُ الناس وجوهاً وخيرُ النَّاس فعالاً؛ ثمّ كان أول الخلقِ إجابة واستجاب لله حين دعاهُ رسول الله ﷺ نحنُ؛ فنحنُ أنصارُ اللهِ ووزراءُ رسولهِ نقاتلُ النَّاس حتى يؤمنوا، فمَنْ آمن بالله ورسوله مَنَعَ ماله ودمه، ومَنْ كفر جاهدناهُ في اللهِ أبداً وكان قتْلُه علينا يسيراً، أقولُ قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم وللمؤمنين والمؤمنات والسلامُ عليكم[1]».

فقال «الزبرقان بن بدر» لشاعر تميم:

«قمْ فقلْ أبياتاً تذكر فيها فضلكَ وفضلَ قومك» فقال:

نحنُ الكرامَ فلا حيٌّ يعادلُنا ... منّا الملوك وفينا تُنصبُ البيعُ
وكم قَسَرْنا من الأحياء كلِّهم ... عند النهاب وفضل العزِّ يُتّبعُ
فلا تَرانا إلى حيٍّ نفاخرُهُم ... إلاّ استفادوا فكانوا الرأس يُقتطعُ
فمنْ يفاخرنا في ذاك نعرفُه ... فيرجعُ القومُ والأخبارُ تُستمعُ
إنَّا أبينا ولايأبى لنا أحدٌ ... إنَّا كذلك عند الفَخْرِ نرتفعُ

ولما فرغ شاعر تميم من إنشاده قال رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت:

«قُمْ يا حسان فأجبِ الرجلَ فيما قال».

فقال حسان:

إنَّ الذوائبَ من فِهْرٍ وإخوتِهم ... قد بيّنوا سنّةً للناسِ تُتبعُ
قومٌ إذا حاربوا ضروا عَدُوَّهمُ ... أوْ حاولوا النَّفعَ في أشياعهم نفَعُوا

(١) البداية والنهاية جزء ٥ ص٤٢ وانظر السيرة الحلبية جزء / ٣/ ص٢١٧.

فإنَّ في حربهم فاترك عداوتهم ... شَرّاً يُخاضُ عليه السُّمُّ والسَّلعُ[1]
أكْـرمْ بقـومٍ رسـول الله شيعتهـم ... إذا تفـاوتـتِ الأهـواءُ والشّيـعُ
فـإنهـمْ أفضـلُ الأحيـاءِ كلهـمُ ... إنْ جدَّ بالنَّاسِ جدُّ القولِ أو شمعوا[2]

فلمّا فرغَ حسان بن ثابت منْ قوله، قال الأقرعُ بن حابس:

وأبي، إنَّ هذا الرجل لمُؤتى له[3]، لخطيبهُ أخطبُ من خطيبنا، ولشاعره أشعر منْ شاعرنا، ولأصواتُهم أعلى منْ أصواتنا.

فلما فرغ القوم أسلموا وجوَّزهم[4] رسول الله ﷺ فأحسن جوائزَهُم[5].

«وسُرَّ رسول الله ﷺ يومئذٍ والمسلمون بمقام ثابت بن قيس وشعر حسان بن ثابت رضي الله عنهما[6]».

وهكذا انتصر المسلمون في معركة الخطابة والشعر، كما انتصروا في معاركِ السيف والجلاد، ونجح ثابتُ بن قيس رضي الله عنه خطيباً كما نجح فارساً ونجح كاتباً، وذلك أنَّه لما قدم عبدُ الله بن عَلَس الثّمالي ومسلمةُ بن هاران الحَدّاني على رسول الله ﷺ في رهط من قومهما بعد فتح مكة، فأسلموا وبايعوا على قومهم، وكتب لهم كتاباً بما فرض عليهم من الصدقة في أموالهم، وكان الذي كتب الكتاب ثابت بن قيس[7] بن شماس رضي الله عنه.

ولما قدم وَفْدُ أسْلم وعلى رأسهم عُمير بن أفْصى قالوا لرسول الله ﷺ:

قد آمنا بالله ورسوله واتَّبعنا منْهاجكَ، فاجعل لنا عندك منزلة تَعرفُ العربُ

---

(١) السلع: نبات مسموم.
(٢) شمعوا: ضحكوا وهزلوا.
(٣) أي: لموفق له.
(٤) أعطاهم الجوائز.
(٥) البداية والنهاية جزء /٥/ ص٤٤ وانظر الكامل في التاريخ مجلد /٢/ ص٢٨٧/ ٢٨٨/ ٢٨٩.
(٦) مغازي الواقدي ص٩٧٩.
(٧) طبقات ابن سعد مجلد /١/ ص٣٥٣/ ٣٥٤. والبداية والنهاية جزء /٥/ ص٣٤١.

فضيلتها، فإنَّا إخوة الأنصار ولك علينا الوفاء والنصر في الشدّة والرخاء، فقال رسول الله ﷺ:

«أسْلَمُ سالمها الله، وغِفار غَفَرَ اللهُ لها».

وكتب رسول الله ﷺ لأسْلمَ، ومَنْ أسْلَمَ من قبائلِ العرب مِمَنْ يسْكن السِيفَ والسَهل كتاباً فيه ذِكْرُ الصَّدقةِ والفرائضِ في المواشي. وكتب الصحيفة ثابتُ بن قيس بن شماس[1] رضي الله عنه. لقد كان ثابت بن قيس قريباً من الرسول ﷺ في كل الأوقاتِ والمناسباتِ، ينتظرُ إشارة من النبي لينفذها إنْ كانتْ في السيف أو اللسان أو القلمِ، فاستحقَّ قولَ الرسول عليه الصلاة والسلام «نِعْمَ الرَّجلُ ثابتُ بن قيس[2]»، ولم يتوقفْ ثابت بن قيس عن العطاء إلى أنْ لقي الله شهيداً في معركة اليمامة مع ثلةٍ منْ خيار الصحابة رضوان الله عليهم.

ثـابـت بـن قـيس والقـرآن:

* لَئِنْ كان ثابتُ بن قيس قد تَفوَّقَ في معركة اللسان والسّنانِ، فقد تفوق أيضاً في القرآن الكريم، فقد ملك بيانُ القرآنِ قلبَهُ، وأسَرَ سمْعَه بحلاوةِ سحْرِه وتشريعهِ، وكان يعملُ كلَّ مايرضي الله، ويخشى ممّا يُغضبُ الله عزَّ وجلَّ أيضاً، ولذا فقد اختارَهُ الرسول الكريم ﷺ ليكونَ منْ كُتّابِه[3].

* وكان يحرصُ على مجلسِ الرسول ﷺ والاستماعِ لهديهِ والتَّفقُّهِ في دينه، ولا يقطعُ جزءاً من وقتهِ إلاّ في صُحبةِ الرسول، حتى عُرِفَ ذلك عنهُ، فكان إنْ تأخرَ عن مجلسٍ منْ مجالسِ النبي أوسع له الصحابةُ ليَستقرَّ قربَ النبي عليه الصلاة والسلام حتى تلتقط أذناه كلَّ ما يقوله الرسول؛ ولندع القرطبيَّ يحدثنا عن بعض مجالسِ النبي ﷺ وما حدثَ لثابت بن قيس في إحْداها؛ «فعنِ ابن عبّاس رضي الله عنه قال:

---

(١) طبقات ابن سعد مجلد / ١/ ص٣٥٤.

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب، وانظر السيرة الحلبية جزء / ٣/ ص٢١٨.

(٣) تهذيب الأسماء واللغات جزء / ١/ ص٢٩.

* كان ثابت بن قيس بن شماس في أذنهِ وَقْر، فإذا سبقوهُ إلى مجلس النبي ﷺ أوسعوا له إذا أتى حتى يجلس إلى جنبهِ ليسمعَ ما يقول، فأقبل ذات يومٍ وقد فاتَتْهُ من صلاة الفجر ركعةٌ مع النبي ﷺ، فلمّا انصرف النبيُّ ﷺ أخذ أصحابُه مجالسهُم منه، فربض كلُّ رجلٍ منهم بمجلسهِ، وعَضُّوا[1] فيه فلا يكادُ يوسعُ أحدٌ لأحد حتى يظلَّ الرجلُ لا يجدُ مجلساً فيظلّ قائماً، فلمّا انصرف ثابتٌ من الصَّلاة تخطّى رقابَ النَّاسِ وقال: تفسَّحوا تفسَّحوا، ففسحوا له حتى انتهى إلى النّبي ﷺ وبينه وبينه رجلٌ فقال له: تَفَسّحْ، فقال له الرجل:

قد وجدْتَ مجلساً فاجلسْ.

فجلسَ ثابت من خلفِهِ مغضباً ثمّ قال:

مَنْ هذا؟

قالوا: فُلان.

فقال ثابت: ابنُ فلانة! يعيِّرُهُ بها، يعني أُمّاً لهُ في الجاهلية فاستحيا الرَّجل[2].

فنزلَ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[3] بَيْدَ أَنَّ رسول الله ﷺ لم يَرْضَ عن هذا التَّصرفِ وسأل: «من الذّاكر فلانة؟».

قال ثابت: أنا يا رسول الله؛

فقال النبي ﷺ: «انظرْ في وجوه القوم» فَنظَر، فقال: «ما رأيت».

قال: رأيتُ أبيض وأسود وأحْمر.

---

(١) أي: لزموه واستمسكوا به.

(٢) تفسير القرطبي جزء / ١٦/ ص٣٢٤ و٣٢٥.

(٣) سورة الحجرات آية / ١١/.

فقال النبي ﷺ: «فإنَّكَ لا تَفْضلهُم إلاَّ بالتقوى[1]».

ونزل قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾[2] وما أنْ سمعَ ثابتُ بن قيس قول الله تعالى حتى انطلق يعتذرَ منْ أخيهِ عمّا بدرَ منه.

* وهذه وقْفَةٌ أخرى لثابت مع القرآن، فقد كانت امرأته تكرهُ فيه بعض الصِّفات، فجاءتْ إلى الرسول ﷺ تشتكيه، وتطلبُ منه أنْ ينظر في أمرها مع زوجها، إذْ تعذرتْ متابعةُ الحياة الزّوجية بينهما، «فعن ابن عباس رضي الله عنه أنَّ امرأة ثابت بن قيس أتتِ النبيَّ ﷺ فقالت:

يا رسول الله، ثابتُ بن قيس ما أعْتبُ عليه في خُلُقٍ ولا ديْن ولكنْ لا أطيقهُ؛ فقال رسول الله ﷺ:

«أتردِّينَ عليه حديقته؟»

قالت: نعم.

فأمرهُ رسول الله ﷺ أنْ يأخذ منها حديقته ولا يزداد[3]».

ونزل قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦ﴾[4].

وسرعان ما أذعن ثابتُ بن قيس لأمرِ الله ورسوله ﷺ واخْتلعتْ منه زوجته[5]».

* ولثابت بن قيس وقْفاتٌ كثيرةٌ مع القرآن، إذْ كان مؤمناً عميق الإيمان، تقياً شديد الخشية من الله عزَّ وجلَّ، شديد التأثر بآي القرآن الكريم، يحملُ بينَ جنبيهِ نَفْساً أوابةً، وقلباً خاشعاً، وإحساساً مرهفاً، وكان منْ أكثر

---

(١) تفسير القرطبي جزء /١٦/ ص٣٤١.
(٢) سورة الحجرات آية /١٣/ .
(٣) تفسير القرطبي جزء /٣/ ص١٣٩، وانظر تفسير ابن كثير مجلد /١/ ص٢٧٤.
(٤) سورة البقرة آية /٢٢٩/ .
(٥) سير أعلام النبلاء مجلد /١/ ص٣١٢.

المسلمين خوفاً من الله وحياءً منه، ولما نزل قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾[1] كان لقيس خبر طريف.

ففي الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ افْتقدَ ثابت بن قيس فقال رجلٌ:

يا رسول الله، أنا أعلم لكَ عِلْمَهُ.

فأتاه فوجدهُ جالساً في بيتهِ مُنسكاً رأسَهُ فقال له:

ما شأنك؟

فقال: شرٌ، كان[2] يرفعُ صوته فوق صوت النَّبي ﷺ فقدْ حبطَ عمله وهو منْ أهلِ النَّار.

فأتى الرجلُ النبيَّ ﷺ فأخبره أنَّهُ قال كذا وكذا، فقال موسى بن أنس[3]: فرجع إليهِ المرة الآخرة ببشارةٍ عظيمةٍ فقال: «اذهْب إليهِ فقلْ له: إنّكَ لستَ منْ أهلِ النَّار ولكنك منْ أهلِ الجنةِ[4]».

وانطلقتْ أساريرُ ثابت بن قيس حينما علم ببشرى رسول الله ﷺ، تلك البشارة التي أعادتْ إليه دفقَ الحياةِ منْ جديد، وقال: «رضيتُ ببشرى الله تعالى ورسولهِ ﷺ ولا أرفعُ صوتي أبداً على صوت رسول الله ﷺ[5]» وأنزل الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾[6].

---

(١) سورة الحجرات آية /٣/.

(٢) يريد: كنت أرفع صوتي، والحديث بصيغة نقل الحاضر إلى الغائب.

(٣) أحد رجال سند الحديث وهو ابن سيدنا أنس بن مالك.

(٤) تفسير القرطبي جزء /١٦/ ص٣٠٤، وانظر سير أعلام النبلاء مجلد /١/ ص٣١١، وانظر فضائل الصحابة ص٣٧.

(٥) تفسير ابن كثير مجلد ٤ ص٢٠٧.

(٦) سورة الحجرات آية /٣/.

ولكنَّ سيدنا ثابت بن قيس مع هذه البشارة العظيمة، كانَ يزدادُ خوفاً من الله عزّ وجلّ، وذات مرةٍ أتى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله؛ إني أخشى أنْ أكون قد هلكتُ، ينهانا اللهُ أنْ نحبَّ أن نُحْمدَ بما لا نفعلُ وأجدني أحبُّ الحمد، وينهانا الله عن الخُيلاءِ، وإني امرؤٌ أحبُّ الجمال، وينهانا أنْ نرفع أصواتنا فوق صوتك وأنا رجلٌ رفيعُ الصوتِ فقال:

«يا ثابت! أما ترضى أنْ تعيشَ حميداً وتُقتل شهيداً، وتدخل الجنة[1]»! وأيّ خير يعدلُ هذا؟!.

* ولثابت بن قيس صلاتٍ أخرى بالقرآن، فقد كان يتلوهُ آناءَ الليل وأطراف النَّهار يتأثرُ بمعانيهِ الرائعة، ويُعْتبرُ ثابتُ في الذروة من الفصاحة والبلاغة، إذْ سرى في نَفْسِهِ بيانُ القرآن الكريم بترغيبه وترهيبهِ، ناهيك في بيان رسول الله ﷺ بمواعظهِ وتشريعاته، وقد تَسرَّبَ هذا البيانُ الرائعُ إلى خبايا زوايا نفسِهِ، وأخذ بمجامعِ قلبهِ، فقد رُوي أنَّه لمَّا سمعَ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[2] دخل بيته فأغلق بابَه وطَفِقَ يبكي، ففقدهُ النبيُّ ﷺ فأرسل إليهِ فأخبرهُ فقال: يا رسول الله؛ إني أحبُّ الجمال، وأحب أنْ أسودَ قومي فقال عليه الصلاة والسلام:

«لستَ منهم، بل تعيش حميداً وتُقتل شهيداً وتدخل الجنة[3]».

* واستمرَّ ثابت بن قيس رضي الله عنه يعيشُ مع القرآنِ بقلبهِ وإحساسهِ ووجدانهِ، يتحرى الخير، ويطلبُ رضاء الله سبحانه وتعالى، يتدبَّرُ معاني آياته دائماً، يردُّ كيدَ الخائنين ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ويكونُ لهم بالمرصاد، فلا يكادُ يفلتُ أحد منْ لسانه إلاَّ ويردُّ عليه بما أوتيَ من قوةٍ في البيانِ وشدةِ الصّوتِ؛ فعن السُّدِّيّ قال:

---

(١) سير أعلام النبلاء مجلد / ١/ ص٣١٠.
(٢) سورة لقمان آية / ١٨/ .
(٣) تفسير القرطبي جزء / ١٦/ ص٣٠٥، وانظر البداية والنهاية جزء / ٦/ ص٣٢٥.

عندما نزل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾[1].

افتخر ثابتُ بن قيس بن شماس، ورجلٌ منَ اليهود.

فقال اليهودي: والله لقد كتب الله علينا أنِ اقتلوا أنفسكُم فقتلنا أنفسنا.

فقال ثابت: والله لو كتب علينا أن اقتلوا أنفسَكم لقتلْنَا أنفسنا.

فأنزل الله في هذا:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾[2].

وبلغ ذلك النبي ﷺ فقال:

«إنَّ منْ أمتي لرجالاً الإيمانُ أثْبتُ في قلوبهم منَ الجِبَال الروَّاسي[3]».

* هل بقي شيءٌ في جعبةِ ثابت بن قيس رضي الله عنه مع القرآن؟.. بقي قصةٌ شائقةٌ تدلُّ على مدى جوده، فقد اشتهر ثابتٌ رضي الله عنه بالكرم الشديد وحُبِّ إطعامِ الطعام، حتى وصلَ به كرمُهُ إلى حدٍّ باتَ فيه علي الطوى أملاً في رحمة الله سبحانه وتعالى، فنزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[4].

يقولُ الماورديُّ في تفسيره «النكت والعُيون» أنَّ هذهِ الآية نزلتْ في ثابت بن قيس بن شماس وقد تصدقَ بجميع ثمره حتى لم يبق فيه ما يأكله؛ وروى ابن عباس أنَّ ثابتاً بن قيس عمد إلى خمسمئة نخلةٍ فجذَّهَا ثمّ قسمها في

---

(١) سورة النساء آية /٦٦/.
(٢) سورة النساء آية /٦٦/.
(٣) تفسير الطبري مجلد /٨/ ص٥٢٦، وانظر تفسير ابن كثير مجلد /١/ ص٥٢٢ وانظر أيضاً أسباب النزول للسيوطي آية ٦٦ من سورة النساء.
(٤) سورة الأنعام آية /١٤١/.

يوم واحد ولم يتركْ لأهلهِ شيئاً، فنزلتْ: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[1].

استشهاد ثابت بن قيس ووصيَّتُه:

* لم يَكَدْ يمضي وقتٌ قليلٌ على وفاة رسول الله ﷺ حتى ظهرتْ حركةُ الردةِ التي قامتْ بها بعضُ القبائلِ، وكانت هذه الردة تتطلبُ إعداد الجيوش وتعبئة قوة «المدينة المنورة» القوة الحربية والمعنوية، وكان على المسلمين أن يجابهوا أمرَهُم بحزمٍ وقوةٍ وبخاصةٍ بعد أنْ ظهر بين المرتدين الكذَبَة وأدْعياء النُّبوة؛ وفي أثناء هذه الأزمة ظهرتْ بطولةُ أبي بكر الصدِّيق ورجولتُـهُ، حتى قال بعضُ النَّاس: إنَّه لم ير أحداً بعدَ رسول الله ﷺ أمْلأ للحرب منْ أبي بكر.

* أخذ أبو بكر رضي الله عنه وأرضاه يُسيِّرُ الجيوشَ للقضاء على هؤلاء المرتدين عن دينهم ومحاربة الأدعياء والتنكيل بهم، وكان من أشدِّ المرتدينَ ـ مسيلمة الكذاب ـ الذي ادّعى النّبوة، فانحاز إليهِ بنو حنيفة، والتفتْ حوله مجموعةٌ كبيرةٌ من النَّاسِ، ومنَ الذين مَرَدوا على الإسلام وأهلهِ، ففي السنة الثانية عشرة من الهجرة النبوية الشريفة، انتدبَ الصدّيقُ سيف الله خالد بن الوليد لمحاربة مسيلمة الكذاب وقومه بني حنيفة، وخرج ثابتُ بن قيس رضي الله عنه فيمن خرج مع جيش خالد بن الوليد؛ الذي اتجه إلى اليمامة مقرِّ مسيلمة الكذاب، وكانت رايةُ المهاجرين مع سالم مولى أبي حذيفة، وراية الأنصار مع ثابت بن قيس بن شماس[2].

* التقى الجيشان في معركةٍ ضاريةٍ، واصطدم أهلُ الإيمانِ مع أهل الشِّركِ، وكانت جَوْلة، فانكشفَ المسلمون في الجولة الأولى حتى دخلتْ بنو حنيفة خيمة خالد بن الوليد وهمُّوا بقتلِ أمِّ تميم زوجتِهِ، وقد ساء سيدنا

---

(١) تفسير الماوردي مجلد / ١/ ص٥٧٠، وانظر تفسير ابن كثير مجلد / ٢/ ص١٨٢ والقرطبي جزء / ٧/ ص١١٠.

(٢) البداية والنهاية جزء / ٦/ ص٣٢٤.

ثابت بن قيس ما رأى من تقهقر المسلمين وقال: «ما هكذا كُنّا نقاتلُ مع رسول الله ﷺ[1]»، ثمّ قال:

بئس ما عوّدتُم أقرانكُم، اللّهم إني أبرأ إليك ممّا جاء به هؤلاء ـ يريد المرتدين ـ ومما صنعَ هؤلاء[2] ـ يريدُ المسلمين ـ.

* وانطلق أبطالُ المسلمين يتصايحون منْ كل جانبٍ واستعادوا نشاطهم، وجعل الصحابةُ يتواصون بينهم ويقولون:

يا أصحاب سورة البقرة، بَطلَ السِّحرُ اليومَ.

وأخذ زيدُ بن الخطاب رضي الله عنه يصيحُ بأعلى صوته قائلاً:

«أيُّها النَّاس، عَضُّوا على أضراسِكم، واضربوا في عدوكم وامْضُوا قُدُماً» ثمّ قال: «والله لا أتكلمُ حتى يهزمهم الله أو ألقى الله فأكلِّمه بحُجتي»[3]، بينما أخذ عبَّاد بن بشر وأبو دجانة يحصدان المشركين حَصْداً، أمّا ثابتُ بن قيس وسالمُ مولى أبي حذيفة فقد جَعَلا لأنفسهما حفرةً في الأرض، وكان ثابتُ قد تحنَّط ولبسَ ثوبين أبيضين[4] وقاتل مع أصحابه حتى استشهدوا رضوانُ الله عليهم جميعاً.

* استشهد سيدنا ثابت بن قيس رضي الله عنه وعليه يومذاكَ درعٌ نفيسةٌ، فمرَّ به رجلٌ من المسلمين فأخذها واستبقاها لنفسه؛ ولكنْ هلْ ستذهبُ هذهِ الدرع سُدى؟ وهل يترك ثابت بن قيس درعه الثمين حتى ولو مات؟ ما مصيرُ درع ثابت إذاً؟! لنستمع عمّا جاء في كتاب الاستيعاب في شأنِ هذهِ الدّرعِ؛ يقول:

«لما كانَ يومُ اليمامة خرج ثابت بنِ قيس رضي الله عنه مع خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى مسيلمة، فلما التقَوْا انكشفوا، فقال ثابتُ وسالمُ مولى

---

(١) سير أعلام النبلاء مجلد / ١/ ص٣١١.

(٢) الكامل في التاريخ مجلد / ٢/ ص٣٦٣، وانظر صفة الصفوة مجلد / ١/ ص٦٢٧.

(٣) البداية والنهاية جزء / ٦/ ص٣٢٤.

(٤) صفة الصفوة مجلد / ١/ ص٦٢٧.

أبي حذيفة: ما هكذا كُنَّا نقاتلُ مع رسول الله ﷺ، ثمّ حفرَ كلٌّ واحدٍ منهما له حفرةً فثبتا وقاتلا حتى قُتلا، وعلى ثابت يومئذٍ درعٌ له نفيسةٌ، فمرَّ به رجل من المسلمين فأخذها، فبينا رجلٌ من المسلمين نائمٌ إذْ أتاهُ ثابتٌ في منامه فقال له:

إنّي أوصيك بوصيةٍ فإياك أنْ تقول هذا حلمٌ فتضيِّعَهُ؛ إنّي لما قُتِلتُ أمْس، مرَّ بي رجلٌ من المسلمين فأخذ درعي ومنزلهُ في أقصى النَّاس، وعند خبائهِ فرسٌ يستنُّ في طوله[1]، وقد كفأ على الدّرع برْمة، وفوق البُرْمة رَحْلٌ، فائتِ خالداً فَمُرْهُ أنْ يبعث إلى درعي فيأخذه، وإذا قدمت المدينة على خليفة رسول الله ﷺ وآله وسلم - يعني أبا بكر الصديق - رضي الله عنه فقلْ له: إنَّ عليَّ من الدَّينِ كذا وكذا، وفلانٌ من رقيقي عتيقٌ، وفلان.

فأتى الرجلُ خالداً فأخبرهُ فبعثَ إلى الدّرع فأتى بها، وحدَّثَ أبا بكر برؤياهُ فأجازَ وصيته[2]».

قالوا: «ولا نعلم أحداً أوصى بعدَ موتِهِ فأجيزتْ وَصيَّتُهُ غير ثابت بن قيس رضي الله عنه[3]» وهذه كرامةٌ لثابت بن قيس رضي الله عنه.

* وهكذا نال ثابت بن قيس الشهادة في سبيل الله مع ثُلَّةٍ من الصَّحابةِ الكرام رضوان الله عليهمِ؛ وكأنَّ دماءهم التي سالتْ على أرض المعركة، وخُطبَهُم العظيمة التي ألقَوْها في غمارِ المعركة كانت بداية النَّصر الكبير من الله سبحانه وتعالى لمنْ خرجوا منْ ديارهم، لا يرجون إلاّ أنْ تكون كلمةُ اللهِ

---

(١) استن الفرس: قمص وعدا إقبالاً وإدباراً. الطول: الحبل الطويل يشد أحد طرفيه في وتد والآخر في يد الفرس.
قال طرفة بن العبد:
لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى لكالطِّوَل المرخى وثنياه باليد
(٢) الاستيعاب مجلد (١) ص١٩٦ - ١٩٧. وانظر البداية والنهاية جزء ٦ ص٣٣٥ والسيرة الحلبية جزء / ٣/ ص٢١٨.
(٣) تهذيب الأسماء واللغات جزء/ ١/ ص ١٤٠.

هي العليا، وكلمةُ الذين كفروا السُّفلى.

* نال ثابت بن قيس الشهادة في سبيل الله، بعد أنْ ترك أثراً حميداً لمنْ بعده، وفتح ثغرةً في صفوفِ العدو، استطاع فرسانُ المسلمين من خلالها أنْ ينفذوا إلى قلب الأعداء وينتصروا عليهم.

وبعد: فهل توقف عطاءُ ثابت بن قيس بعد أنْ سقط شهيداً في ساحة الإيمان؟

لا؛ بلْ إنَّ غراسه ما تزالُ تُؤتي أُكُلَها، فقد كان له من البنين ثلاثةٌ: محمدٌ، يحيى، وعبدُ الله، ربَّاهُمْ على حبِّ الإسلام فقُتِلوا جميعاً في سبيل الإسلام[1]، فنالوا بذلك شرفَ الشهادة، وحازوا المقامَ الأمين، وسالتْ دماؤُهم الطاهرة فوارةً لتروي الثَّرى الطيب لتكون من علاماتِ النصر والشهادة في سبيل الله لمنْ يأتي بعدَهُم.

بشارةُ ثابت بن قيس بالجنة:

* المسلمون الأولونَ منَ الصّحابةِ الكرامِ الذين رضي الله عنهم وأرضاهم، أولئك الذين خالطَ الإيمانُ بشاشة قلوبهم فنوَّرَها وأضاءها، كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون، وبالأسحارِ هُم يستغفرون، وكانوا إذا تُلِيتْ عليهم آياتُ الرحمنِ زادتهم إيماناً مع إيمانهم وعلى ربِّهم يتوكلون وإليه يُنيبون.

* كان هؤلاء الصحابةُ لا يكتفون بإقامة الفرائض وحدها فحسبْ، بل كانوا في الليل ساجدينَ خاشعينَ، وفي النَّهارِ فُرساناً فاتحين، يرجون رحمة الله سبحانه وتعالى، فعمِلُوا ما يُقَرِّبُهُم إلى الجنةِ، ويباعدُ بينهم وبين النَّارِ، فكانوا من أهل الجنة، وسَعِدوا في الدنيا والآخرة، وبنُوا لنا المجد الشامخ العظيم.

* وقد استطاع الإسلامُ الحنيف أنْ يصهر نفسية المسلم في فترةٍ قصيرةٍ،

---

(١) سير أعلام النبلاء مجلد/ ١/ ص ٣١٣ وانظر أيضاً تفسير القرطبي جزء / ١٦/ ص ٣٠٤.

وينْفي عنها الخبث والشوائب، فتحول المسلمُ إلى إنسانٍ غير الذي كان من ذي قبل، أصبح لايسرقُ، لا يكذبُ، لا يغشُّ، تسامتْ نفسُه عنْ رغباتها، وترفعت عن شهواتها، وكان سيدُنا ثابت بن قيس رضي الله عنه من الرِّجالِ النُّجباءِ الذين صهرهُم الإسلام ونقَّاهم، وهو أحدُ الذين تخرّجوا من مدرسةِ الإسلام، وتشربتْ قلوبُهم مبادئهُ، فكانوا من صفةِ الصَّفوة المُختارة التي مدحها رسول الله ﷺ، وأثنى عليها القرآن؛ وقد نال ثابتٌ رضي الله عنه رضاءَ الرسول ﷺ طوال حياته، فقال فيه ﷺ:

«نِعْمَ الرجلُ ثابتُ بن قيس[1]».

* وقد ثبتَ في صحيح الإمام مسلم أنَّ رسول الله ﷺ بشّرَ ثابتَ بن قيس بالجنةِ وأخبرهُ أنَّهُ منْ أهلها، يقولُ سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه:

«فكنَّا نراهُ يمشي بينَ أظهرنا ونحنُ نعلمُ أنَّه منْ أهلِ الجنّةِ[2]».

وقد ثبت أيضاً أنَّ رسول الله ﷺ قال له:

«يا ثابت: أما ترضى أنْ تعيش حميداً، وتقتل شهيداً، وتدخل الجنة[3]».

* وهذه البشارةُ بالجنةِ مكرمةٌ لثابت بن قيس رضي الله عنه، فقد كان لرسول الله ﷺ معجزاتٌ كثيرةٌ قد تحققت، وقد ظهرتْ معجزةُ الرسول هذه واضحةً جليةً في ثابت حيثُ عاش حميداً عزيز الجانب، ونال الشهادة يوم اليمامة في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ليدخل بها الجنة كما بشَّرهُ بذلك رسول الله ﷺ.

* يُعتبرُ ثابت بن قيس مِمَّنْ سمعَ عن رسول الله ﷺ وَوَعى الحديث النبويَّ الشريف، فقد روى عن النَّبي ﷺ[4] وروي عنه.

---

(١) صفة الصفوة مجلد/ ١/ ص ٦٢٦. والحديث أخرجه الترمذي في المناقب. وانظر تهذيب الأسماء واللغات جزء / ١/ ص ١٣٩.

(٢) تفسير ابن كثير مجلد/ ٤/ ص ٢٠٦. والحديث أخرجه الشيخان.

(٣) سير أعلام النبلاء مجلد/ ١/ ص ٣١٠.

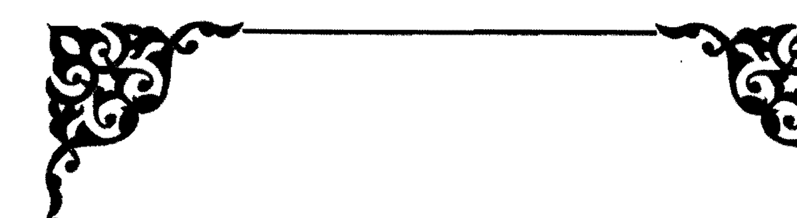
(٤) تهذيب التهذيب جزء/ ٢/ ص ١٢.

* وكان ثابت بن قيس من الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه.

وفي سجِل الشَّهداء يسطعُ اسمه ليُظهر مسيرة حياته في ظلِّ الإسلام، فكان مِمَّن قال الله فيهم:

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾.

* * *



سيدنا

بلال بن رباح

رضي الله عنه

* قال ﷺ لبلال:

«يا بلال. . . إني سمعتُ خشف نعليك بين يديَّ في الجنة».

مـقـدمــة:

* كلما نادى المُنادي هاتفاً: الله أكبر، الله أكبر، تمرُّ بخيالنا ذكرى صاحب الصّوت الندي «بلال بن رباح»، مؤذن الرسول ﷺ، وكلما سمعنا قول المؤذن في أذان الفجر «الصلاة خيرٌ من النوم» نتذكر بلالاً صاحب العبارة هذه، والتي أقرَّها رسول الله ﷺ؛ وكلما قرأنا عن الأوائل من الذين سارعوا إلى الدخول في الأرِقَّاء، وكلما قرأنا غزوات النبي ﷺ نتذكر أنَّ شعار المعركة الأولى أحدٌ أحدٌ، فتعالوا نتعرف على بلال.

* إنَّه بلال بن رباح الحبشي، مولى الصدّيق رضي الله عنه. تطالعنا كتب السيرة بوصفٍ موجز لسيدنا بلال، فقد كان شديد السُّمرة، نحيفاً، مديد القامة، خفيف العارضين، له شعر كثيف، متواضعاً، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول كلما رأى أبا بكر وبلالاً: «أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا» فكيف نال بلال هذه المرتبة؟

* كان بلالٌ عبداً لبعض بني جُمَح مع أمه «حمامة» التي كانت إحدى الإماء أيضاً، وكانتْ حياةُ بلال كغيرهِ من الرقيق؛ ليس له شأنٌ سوى الخدمة وأداء أعمال العبيد، ثمّ أصبح عبداً لأمية بن خلف الجمحي.

إســلام بـلال:

* أخذتْ دعوة الإسلام تنتشر في مكة، وبدأ الناس يتحدثون عن الإسلام، وعن الدين الجديد، الذي جاء به «محمد بن عبد الله»، كان بلال يسمعُ ما يدور منْ أحاديث عن محمد عليه الصلاة والسلام، وعن الدينِ الذي يدعو إليه، فشعرَ بارتياحٍ يجتاحُ نفسه، واطمئنان يستقرُّ في أعماقه، وهفتْ نفسه نحو الإسلام، إذْ أحسَّ بالنُّور يغلِّفُ قلبه.. وبينما كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه ينشطُ في الدعوة إلى الإسلام، ويدعو إليه أهلَ ثقته ومودَّته من الرجال الأحرار، مثل «عثمان بن عفان» و«طلحة بن عبيد الله» و«سعد بن أبي وقاص»، كانت دعوته إلى الإسلام أيضاً تشملُ الأرقاء، فدعا بلال بن رباح الذي توطدت بينهما أواصر الصداقة منذ فترة وهما في تجارة إلى الشام،

وسرعان ما استجاب بلال ونطق بالشهادة، وفي ذلك اليوم قابل بلال سيدنا محمداً ﷺ وبايعه، فكان من الأوائل في الإسلام، فعن عمَّار رضي الله عنه قال:

«رأيتُ رسول الله ﷺ وما معه إلاَّ خمسة أعْبد وامرأتان وأبو بكر[1]»، وكان منْ بين هؤلاء الأعبد بلالٌ رضي الله عنه.

* بدأت الدعوة الإسلامية تنتشر في مكة، وطفق المتعصبون للأصنام والمشركون يُذيقون المسلمين ألواناً من العذاب؛ وقرر المشركون ألاّ يتركوا المسلمين بسلامٍ، فانفجرتْ قلوبُهم بمشاعر الغضب والسُّخط، وتعرَّضوا للمسلمين بألوانٍ من النكالِ والعذابَ، ولم تخْلُ أعمالهم الغاشمة منْ سخريةوتحقير ولوم حتى يُخذّلوا المسلمين، ويوهنوا قواهم، ليرجعوا عن الإسلام، وينْضَووا تحتَ اللات والعُزى وهُبَل، ولكنْ أنّى لهم ذلك؟! ثمّ ما لبثت تلك السخريات والشتائم أن انقلبت إلى عذابٍ، وقتْل؛ كما سُفكت دماء بعض المستضعفين مثل «سُمية» أم «عمار بن ياسر» وصُلبَ آخرون، في حَرِّ الشمس الملتهبة، لكنْ هل تراجع أحد من المسلمين وارتدَّ عن دينه؟ هذا ما سنراه عند بلال بن رباح البطل الصامد!

* ترامى إلى سمعِ «أمية بن خلف» الجمحي أنَّ عبدهُ بلالاً قد أسلمَ وتبع محمداً ﷺ وصار يُسفِّهُ الأصنام وبخاصةِ هُبْل، فاشتدَّ غضبُ أمية، وغلى قلبه بنار الحقد والكراهية، وأسرع يسأل بلالاً عن ذلك، فأجابه دون ترددٍ أو خوفٍ: نعم، أشهدُ أنْ لاإله إلاّ الله، وأنَّ محمداً رسول الله.

* كاد أمية بن خلف يتميزُ منَ الغيط، لكنَّه تمالك نفسه قليلاً ولجأ إلى الحوار واللين مع بلال لعلَّه يرجعُ عن إسلامهِ، ولكنه أصرَّ على موقفه، وعلى التَّمسُّك بإسلامه.

* بدأت رحلة العذاب مع بلال، وراح سيده أمية يذيقه من العذاب ألواناً «فكان يخرجه إذا حميتْ الظهيرة، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة، ثمّ يأمُر

---

(١) التاج الجامع للأصول جزء ٣ ص ٣٠٩.

بالصخرة العظيمة فتُوضع على صدره، ثمّ يقول له: لا تزالُ هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد، وتعْبدَ اللات والعُزى، فيقول وهو في ذلك البلاء: «أحَدٌ، أحَدٌ»[1].

وتنزلُ كلمة «أحَد أحَد» على سمْع أمية كالصاعقة، فيجنُّ جنونه، وتسيطرُ عليه سورةُ الغضب، فينهالُ عليه ضرباً وشتماً فما يزيد على قوله: «أحدٌ أحدٌ».

* ويتكررُ عذاب بلال مع شروق كل يوم، وبلال لايتراجع عن موقفه؛ أو يفكر مجرد تفكير بذلك، فقد كان صلْبَ اليقين، صابراً، لم يَثْنِهِ عن إسلامه تعذيب، ولم تنفعْ معه الإغراءات، وبقي يردد: «أحدٌ، أحدٌ» حتى إنَّ أمية طلب منه أنْ يذكر أصنامهم بخير فيجيب: «أحدٌ، أحدٌ» ويعاودُ أمية وبعض الكفار تعذيبه منْ جديد، ويطلبون منه ذكر اللات والعزى بخير فيقول: «أحدٌ، أحدٌ».

* لم يتغيرْ موقف بلال حتى سئمَ أمية منه، فشكا ذلك إلى أبي جهل الذي أخذ يذيقه من ألوان العذاب ما لاطاقة لإنسان به، فيضع في عنقه حبلاً ثمّ يأمرُ الصِّبيان والسفهاء أنْ يطوفوا به بين أخْشَبي[2] مكة، وبلال ينشدُ بصوته الرخيم: أحدٌ، أحدٌ، فتقشعرُّ جلود الكفارُ، ويُسْقَطُ في أيديهم، وينالهم التعب، ويذهلون؛ وفي الحقيقة فقد انتزع بلال بموقفه الصامد هذا إعجابَ القرشيين. ولندعْ صاحب كتاب «حلية الأولياء» يحدثنا عن تحمُّل بلال الشدائد يقول:

«أولُ من أظهر الإسلام سبعةٌ: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمار، وأمه سمية، وصُهيب، وبلال، والمقداد رضي الله عنهم، فأمّا رسول الله فمنعه الله بقومه، وأمّا سائرهم فأخذهم المشركون، فألبسوهم أدْرع الحديد،

---

(١) سيرة ابن هشام جزء (١) ص ٣١٨.
(٢) الأخشبان: جبلان يحيطان بمكة وهما: أبو قبيس، والأحمر.

وصهروهم في الشمس، فما منهم منْ أحد إلاَّ واتاهم[1] على ما أرادوا إلاَّ بلالاً، فإنَّه هانتْ عليه نفسه في الله وهانَ على قومه، فأخذوه فأعطوهُ الولدان، فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة وهو يقول: أحدٌ، أحدٌ»[2].

* وكان ورقة بن نوفل يمرُّ ببلال وهو يعذب يقول: أحد، أحد، فيقول: أحد، أحد، الله يا بلال!. ثمّ يقبلُ ورقة بن نوفل على أمية بن خلف وهو يصنعُ ذلك ببلال فيقول: أحلفُ بالله عز وجل لئن قتلتموه على هذا لأتخذنَّهُ حناناً[3]، حتى مرَّ به أبو بكر الصديق يوماً وهم يصنعون به ذلك فقال لأمية: ألا تتقي الله في هذا المسكين؟ حتى متى؟ قال: أنت أفسدته، فأنقذْهُ مما ترى[4].

اشتراه أبو بكر رضي الله عنه بخمس أواقٍ وأعتقه لله تعالى، وكان أبو بكر قد أعتق ستَّ رقاب قبل بلال، وكان بلال سابعهم...

* وها هو عمار بن ياسر رضي الله عنه يذكر بلالاً وأصحابه، وما كانوا فيه من البلاء، ويتحدث عن صبر بلال وصموده، وإعتاق أبي بكر إياه، وكان اسم أبي بكر عتيقاً:

جزى الله خيراً عن بلال وصحبهِ ... عتيقاً وأخزى فاكهاً[5] وأبا جهْلِ
عشيـة همَّـا فـي بـلالٍ بسـوأة ... ولم يَحذرا ما يحذرُ المرءُ ذو العقلِ
بتـوحيـده ربّ الأنـام وقـولـهِ ... شهـدتُ بـأنَّ الله ربـي علـى مهـلِ
فإنْ يقتلوني يقتلوني فلم أكنْ ... لأشرك بالرحمن من خيفةِ القتلِ[6]

تخلَّصَ بلال من العذاب، ونال أبو بكر أجرهُ من الله، واصطحب أبو بكر بلالاً، وتوجَّها إلى رسول الله ﷺ، واستوقفه أمية بن خلف قائلاً له:

---

(١) واتاهم: أي وافقهم.
(٢) حلية الأولياء جزء / ١/ ص ١٤٩.
(٣) أي لأجعلن من قبره موضع حنان ورحمة مظنة من رحمة الله فأتمسح به تبركاً.
(٤) حياة الصحابة مجلد(١) ص ٢٩٠.
(٥) الفاكه بن المغيرة المخزومي عم أبي جهل.
(٦) حلية الأولياء جزء (١) ص١٤٨.

خُذْهُ، فواللاتِ والعزى، لو أبيت إلاَّ أنْ تشتريه بأوقية واحدة لبعتكه بها، فيجيبه أبو بكر رضي الله عنه:

والله لو أبيتم إلاَّ مئة أوقية لدفعتُها.

* سُرَّ النبي ﷺ بتحرير بلال، واستبشر المسلمون أيضاً بحريةِ البطل الصَّامد «بلال بن رباح» الحبشي القرشي التيمي، الذي أصبح فيما بعد مؤذن رسول الله ﷺ في السفر والحضر، وأولَ من أذَّنَ له في الإسلام.

هجــرة بــلال إلــى المــدينــة:

* عندما اشتدَّ أذى المشركين في مكة على المسلمين، أوعزَ الرسول الكريم ﷺ إلى أصحابه بالهجرة إلى المدينة، فهبَّ أصحابه يهاجرون خفافاً، تاركين وراء ظهورهم كل ما تملكه أيديهم من حطام الدنيا، وأضحتْ بيوت المؤمنين في مكة مغلقةً ليس بها أحدٌ، وبدأتْ طرقات مكة وأزقتها ونواديها تشهدُ يوماً بعد يوم غياباً مستمراًلأصحاب الرسول ﷺ؛ ويمرُّ أبو جهل ببعضِ هذه الدور المغلقة فلا يجد أحداً فيقول للعبَّاس بن عبد المطلب:

هذا منْ عمل ابن أخيك، فرَّقَ جَمَاعتَنا، وشتَّتَ أمرنا، وقطع بيننا.

وهكذا انطلق المسلمون يهاجرون من سربهم خفيةً، واحداً إثرَ الآخر، وأحياناً جماعات أو أسَر، واستعدَّ بلال للهجرة، وتقابل مع «عمَّار بن ياسر» و«سعد بن أبي وقاص» رضي الله عنهم، واتفقوا جميعاً على الهجرة، وفي الليل انطلق الجميع نحو المدينة، وكان بلال من أوائل الذين هاجروا، وكان رضي الله عنه مِنَ الأوائل في جميع المكْرُمات، سبَّاقاً في الخيرات، يحدثنا «البراء بن عازب» رضي الله عنهما عن قدوم بلال إلى المدينة فيقول:

«أولُ منْ قدم علينا من أصحاب رسول الله ﷺ «مصعب بن عمير» «وابن أم مكتوم» رضي الله عنهما، فجعلا يُقرئاننا القرآن، ثمّ جاء عمَّار وبلال وسعد رضي الله عنهم، ثمّ جاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه في عشرين، ثم جاء

رسول الله ﷺ. فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحَهُم به. . . »[1].

* وخطا الرسول ﷺ خطوته العظيمة، وهي المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار وقال: «تآخوا في الله أخوين أخوين» فكان من ثمرات هذا الإخاء أنْ سقطت فوارقُ النَّسب واللون والوطن، وسمتْ تعاليم الإسلام بالصحابة الذين جُبِلوا على الشمائل النقية، فصارت أخوَّتُهم مضرب الأمثال، فآخى الرسول ﷺ بين بلال وأبي رويحة «عبد الله بن عبد الرحمن الخثعمي» وآتتْ هذه الأخوة أكُلها، وبقي بلال رضي الله عنه وفياً لهذا الإخاء حتى نهاية حياته، يحدثنا ابن هشام عن بقاء هذه الأخوة فيقول:

«فلما دوَّنَ عمر بن الخطاب الدواوين بالشّام، وكان بلال قد خرج إلى الشام، فأقام بها مجاهداً، قال عمر لبلال: إلى من تجعل ديوانك يا بلال؟ قال: مع أبي رويحة، لا أفارقهُ أبداً للأخوة التي كان رسول الله ﷺ عقد بيني وبينه، فضُمَّ إليه. . . »[2]

* تكامل وصول المهاجرين إلى المدينة، ولم يطبْ للصحابة جوُّ المدينة، وبدأ بعضهُم يشعر بالحنين إلى مكة البلد الأمين، وشعر النبي ﷺ بحالِ الصحابة رضوان الله عليهم، فكان يدعوهم إلى الصَّبر وتحمُّل الغربة في سبيل الله ونصرة الإسلام، وقال يرغِّبُهم في الصبر: «لا يصبرُ على لأواءِ المدينة وشدَّتها أحدٌ من أمتي إلا كنتُ له شفيعاً وشهيداً يوم القيامة، ولا يدعها أحدٌ رغبةً عنها إلاَّ أبدل الله فيها منْ هو خيرٌ منه»[3].

* وقد أصيب أبو بكر وبلالٌ رضي الله عنهما بالحمّى، في بداية قدومهما المدينة، فلم يألفا جوَّها، وشعرا بالحنين إلى مكة؛ فعن عائشة بنت الصديق رضي الله عنهما أنَّها قالت:

«لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، وُعِكَ أبو بكر وبلالٌ رضي الله عنهما

---

(١) حياة الصحابة جزء (١) ص ٣٤٤.
(٢) سيرة ابن هشام جزء (١) ص ٥٠٧.
(٣) رواه مسلم.

قالت: فدخلتُ عليهما فقلتُ: يا أبت كيف تجدك؟ ويا بلال كيف تجدك؟
قالت: وكان أبو بكر إذا أخذتْه الحمّى يقول:

كلُّ امرىءٍ مُصبّح في أهله   والموتُ أدنى من شراك نَعله

وكان بلال إذا أقْلعتْ عنه يقول:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلةً   بوادٍ وحولي إذخرٌ وجليلُ
وهل أرِدنْ يوماً مياه مَجنَّةٍ   وهل يبْدوَنْ لي شامةٌ وطفيلُ[1]

قالت عائشة: فجئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرتُه فقال: «اللّهم حَبِّبْ إلينا المدينة كحبِّنَا مكة أو أشد، اللّهم وصَحِّحْها وباركْ لنا في مُدِّها وصاعها، وانقُلْ حُمَّاها فاجعلها بالجحفة[2]».

وروى البخاري أنَّ رسول الله ﷺ قال:

«اللهم اجعلْ بالمدينة ضِعْفَيْ ما جعلتَ بمكة من البركة».

* وراحت ذكريات الماضي في مكة تتلاشى من نفوس الصحابة شيئاً فشيئاً، وطابت لهم المدينة ببركةِ دعاء الرسول ﷺ.

مؤذِّن الرسول:

* لما اطمأنَّ رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة، واستحكم أمْرُ الإسلام، وقامت الصلاة، وفُرِضَتِ الزّكاة، والصيام، وقامت الحدود، وفُرِضَ الحلالُ والحرام، فكان الرسول ﷺ حين قدم المدينة إنَّما يجتمعُ الناس إليه للصلاة حين مواقيتها بغير أذان أو دعوة، وكانت هناك صعوباتٌ تعترضُ المسلمين في هذا الأمر، واهتمَّ النبي ﷺ للصلاة، كيف يجمعُ الناس لها؟ فقيل له: انصبْ رايةً عند حضور الصلاة، فإذا رأوها آذن بعضهُم بعضاً فلمْ يعجبه ذلك، وذُكرَ له «الشبُّور[3]» فقال: «هو من أمر اليهود» ولمْ يعجبه ذلك، ثمّ ذُكِرَ له

---

(١) شامة وطفيل: جبلان قرب مكة.
(٢) حياة الصحابة مجلد(٢) ص ٥١٠/ ٥١١ وانظر البداية والنهاية جزء ٣ ص ٢٢١.
(٣) الشبّور: بوق اليهود.

الناقوسُ فقال: «هو من أمر النصارى».

* اهتمَّ الصحابة رضوان الله عليهم جميعاً بهذا الأمر، وانصرف من بينهم «عبد الله بن زيد» رضي الله عنه وهو مهتمٌّ لهمِّ رسول الله ﷺ، فأريَ الأذان في منامه، ولنترك عبد الله بن زيد نفسه يحدثنا عن ذلك قال:

«اهتمَّ رسول الله ﷺ بالأذان بالصلاة، وكان إذا جاء وقت الصلاة صُعِدَ برجلٍ فيشير بيده، فمنْ رآه جاء ومنْ لم يرهُ لم يعلم بالصلاة، فاهتمَّ لذلك هماً شديداً، فقال له بعض القوم: يا رسول الله، لو أمرتَ بالناقوس، فقال رسول الله ﷺ: «فعل النَّصارى، لا» فقالوا: لوأمرت بالبوق فنفخ فيه فقال: «فعل اليهود، لا» فرجعتُ إلى أهلي وأنا مغتمٌّ[1] لما رأيت من اهتمام رسول الله ﷺ في حاله، حتى إذا كان الليل قبل الفجر غشيني النعاس، فرأيتُ رجلاً عليه ثوبان أخضران وأنا بين النائم واليقظان، يحملُ ناقوساً في يده، فقلت له: يا عبد الله، أتبيع هذا الناقوس؟ قال: وما تصنعُ به؟ قلت: ندعو به إلى الصلاة، قال: أفلا أدلك على خير من ذلك؟ قلت: وما هو؟ قال: تقول:

اللهُ أكبر، اللهُ أكبر، الله أكبر الله أكبر
أشهد أنْ لاإله إلاَّ الله، أشهدُ أنَّ لا إله إلاَّ الله
أشهدُ أنَّ محمداً رسول الله، أشهدُ أنَّ محمداً رسول الله
حيَّ على الصَّلاة، حيَّ على الصَّلاة
حيَّ على الفلاح، حيَّ على الفلاح
الله أكبر، الله أكبر، لاإله إلا الله

وانطلق عبد الله بن زيد رضي الله عنه، وأخبر رسول الله ﷺ بما رآه، فقال عليه الصلاة والسلام «إنَّها لرؤيا حق إنْ شاء الله، فقُمْ مع بلال فألقها عليه، فليؤذِّنْ بها فإنَّه أنْدى صوتاً منك» فلما أذَنَ بها بلال سمعها عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو في بيته، فخرج إلى رسول الله ﷺ، وهو يجرُّ رداءه وهو يقول: يا نبيَّ الله، والذي بعثك بالحق لقد رأيتُ مثل الذي رأى فقال

---

(١) مُغتم: مهموم، حزين.

رسول الله ﷺ: «فللهِ الحمدُ على ذلك».

* وينطلقُ صوتُ الحق معلناً: الله أكبر، الله أكبر، فقد حبا الله سيدنا بلالاً صوتاً جميلاً مؤثراً في النفوس، فكان يؤذنُ لرسول الله ﷺ في حياته سفراً وحضراً، وكان بلال رضي الله عنه مشهوراً من قبلُ عند أهل مكة بصوته العذبِ الجميل، فكان عندما يؤذنُ يعمُّ المدينة السكون، وحينما يسمعُ المسلمون صوته الندي يهبُّونَ مسرعين للصلاة مع الرسول ﷺ.

* وكان بلال رضي الله عنه قد زاد في أذان الفجر «الصلاة خيرٌ من النَّوم» فأقرَّها الرسول ﷺ؛ واستمرَّ بلال يُعطِّرُ الأسماع بصوته النَّدي مراتٍ خمس في اليوم والليلة، وكان يدعو الله قبل أذان الفجر دائماً، فهذه امرأةٌ من بني النجَّار تشهد لبلال شهادة عطرةً فتقول:

«كان بيتي من أطول بيت حول المسجد، فكان بلال يؤذن عليه للفجر كل غداة، فيأتي بِسَحَرٍ فيجلسُ على البيت ينتظر الفجر، فإذا رآه تمطّى ثمّ قال: اللّهم إني أحمدُك وأستعينك على قريش أنْ يقيموا على دينك، قالت: والله ما علمته كان يتركها ليلة واحدة[1]».

وهكذا نال بلال رضي الله عنه رضا رسول الله، ومحبة المسلمين، واشتهر بالأمانة والإخلاص والتَّيقُّظ، فجعله رسول الله ﷺ خازناً على ماله.

بـلال البطـل المجـاهــد:

لم يكنْ سيدنا بلالٌ رضي الله عنه يمتلك صوتاً عذباً نديّاً فحسب، بل كان يمتلك شجاعة نادرة لا يمتلكها إلاَّ الأشداء من الرِّجال، فقد شهد المشاهد كلَّها مع رسول الله ﷺ، وكان له أثرٌ فعّال في هذه الغزوات.

* وتأتي أولى غزواتِ الرسول، غزوة بدر، «حيث كان شعار أصحاب رسول الله ﷺ يوم بدر: أحدٌ، أحدٌ»[2] وكان بلال رضي الله عنه في صفوف

---

(١) سيرة ابن هشام جزء (١) ص ٥٠٩ وانظر حياة الصحابة مجلد ٣ ص ٣٨٣.
(٢) سيرة ابن هشام مجلد (١) ص ٦٣٤.

المسلمين يستعدُّ للقتال، ولما تزاحف الناس، ودنا بعضُهم من بعض، وحمي الوطيسُ، تعالتْ أصوات المسلمين تنادي: أحدٌ، أحدٌ، وسرعان ما سرت النفحات الإيمانية ودبّتْ روح الشجاعة في قلوب المؤمنين، وهنا ثارتْ شجون بلال، فهذا الشِّعار كان نشيدهُ المقدس في مكة عندما كان أمية بن خلف يعذبه ليترك الإسلام وبلال يقول: أحدٌ، أحدٌ؛ وأفاق بلال من ذكراه الأليمة، فالمعركة تدور من كل جانب على أرض بدر، والمسلمون ما يزالون يُرددون بحماس: أحدٌ أحدٌ، وفي هذه اللحظات لمح بلال «أمية بن خلف» وابنه أسيرين في يد «عبد الرحمن بن عوف»، وتهيجُ في نفسه ذكرى ما كانت لتموت، ذكرى كلها مرارة وقسوة وعذاب في الرمْضاء، واندفع يقول: رأسُ الكفر «أمية بن خلف» لا نجوتُ إن نجا. ولنستمع إلى شاهد رأى بعينيه مقتل أمية وابنه؛ حينما بَصُرَ بهما بلال عن جنُبٍ:

قال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: «كان أمية صديقاً لي بمكة، وكان اسمي عبد عمرو، فتسمَّيتُ حين أسلمتُ عبد الرحمن، فكان يلقاني ونحن بمكة فيقول:

يا عبد عمرو أرغِبْتَ عن اسم سمّاكهُ أبوك؟

فأقول: نعم.

قال: فإنّي لاأعرفُ الرحمن، فاجعل بيني وبينك شيئاً أدعوك به، أمّا أنت فلا تجيبني باسمك الأول، وأمّا أنا فلا أدعوك بما لاأعرفُ. وكان إذا دعاني يا عبد عمرو لم أجبْه فقلت له: يا أبا علي اجعل ما شئت.

فقال: فأنت عبدُالإله.

قلت: نعم.

فكنت إذا مررتُ به قال: يا عبد الله.. فأجيبه، فأتحدث معه حتى إذا كان يوم بدر مررتُ به وهو واقف مع ابنه علي وهو آخذ بيده، ومعي أدْراع قد استلبتها، فأنا أحْملها، فلما رآني قال: يا عبد عمرو، فلم أجِبهُ.

فقال: يا عبد الإله.

فقلت: نعم.

قال: هل لك فيَّ؟ فأنا خيرٌ لك من هذه الأدْرع التي معك.

قلت: نعم ها الله[1]. . . ، فطرحتُ الأدْرع من يدي، وأخذت بيده، وبيد ابنه، وهو يقول: ما رأيت كاليوم قطّ! أما لكم حاجة في اللبن؟ ثمّ خرجت أمشي بهما، فقال لي وأنا بينه وبين ابنه آخذ بأيديهما: يا عبد الله من الرّجل منكم المعلم بريشة نعامة في صدره؟ قلت: «حمزة[2]» قال: ذاك الذي فعلَ بنا الأفاعيل وما إنْ انتهى من كلامه، إذ رآه بلال معي، ـ وكان هو الذي يُعذِّبُ بلالاً بمكة على الإسلام ـ فلما رآه قال: رأسُ الكفر أمية بن خلف! لانجوتُ إن نجا؛ قال:

قلت: أي بلال أسيري!

قال: لا نجوتُ إنْ نجا، قال: صرخَ بأعلى صوته، يا أنصار الله، رأسُ الكفر أمية بن خلف لانجوتُ إنْ نجا، فأحاطوا بنا حتى جعلونا في مثل المُسْكة[3]، فأنا أذبُّ عنه، قال: فأخلف رجل السيف فضرب رجل ابنه فوقع، وصاح أمية صيحةً ما سمعت بمثلها قطّ، قال:

قلت: انجُ بنفسك ولا نجاء، فوالله ما أغني عنك شيئاً، قال: فهبروهما بأسيافهم حتى فرغوا منهما، قال: فكان عبد الرحمن يقول: يرحمُ الله بلالاً فجعني بأدْراعي وبأسيريَّ[4]».

* وسقط رأس الكفر أمية بن خلف، وجندلتْهُ السيوفُ المؤمنة ونزل مع أبي جهل وعصبةِ الشرك ضيوفاً في جهنّم، ورجعتْ فلول الكفر إلى مكة هاربةً مذعورةً، وقد خلّفتْ جُثثَ قتلاها وأسلابهم، وفرحَ المؤمنون بنصر الله . .

---

(١) في سيرة ابن هشام: ها الله ذا، وتعني القسم.

(٢) عم رسول الله حمزة بن عبد المطلب أسد الله.

(٣) المسكة: السوار، أي أحاطوا بنا كالسوار يحيط باليد.

(٤) البداية والنهاية جزء ٣ ص ٢٨٦. وابن هشام مجلد (١) ص ٦٣١ـ٦٣٢.

* ولما بلغ سيدنا أبا بكر الصديق رضي الله عنه نبأ هلاك أمية بن خلف على يدِ بلال بن رباح تهلل وجهه فرحاً وأنْشدَ يهنىءُ بلالاً قائلاً:

هنيئـاً زادك الـرحمـنُ خيـراً فقـد أدْركـتَ ثـأركَ يـا بـلال[1]

* وانتهت غزوة بدر بنصر المؤمنين، وبعد هذه الغزوة، نزلت الآية الكريمة ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾[2] فأخرج الخمس للنبي وحمله بلال، ووُزِّعَ الباقي على المحاربين؛ ومنذُ ذلك الحين أصبح بلال رضي الله عنه خازناً للرسول ﷺ.

* وفي السنة السابعة من الهجرة كانت غزوة خيبر، ونصر الله رسوله على اليهود، وعند عودة الرسول وأصحابه من خيبر ليلاً، شعر الرسول ﷺ بتعب أصحابه وما لاقوهُ منْ مشقة القتالِ ومشقة الطريق، فأمرهم الرسول ﷺ أنْ ينزلوا ليناموا، ويتطوعُ بلال رضي الله عنه لحراسة الرسول وأصحابه، ولنستمع إلى ابن هشام يحدثنا عن تطوع بلال للحراسة قال:

«لما انصرف رسول الله ﷺ من خيبر، فكان ببعض الطريق، قال: «من رجلٌ يحفظ علينا الفجر لعلنا ننام»؟

قال بلال: أنا يا رسول الله أحفظهُ عليك.

فنزل رسول الله ﷺ، ونزل الناسُ فناموا، وقام بلال يصلي، فصلى ما شاء الله عزَّ وجلَّ أنْ يصلي، ثمّ استند إلى بعيره واستقبل الفجر يرمقُه، فغلبتْه عينُه، فنام، فلمْ يوقظهُم إلاَّ مَسُّ الشمس، وكان رسول الله ﷺ أول أصحابه هَبَّ، فقال: «ماذا صنعْتَ بنا يا بلال»؟

قال: يا رسول الله، أخذ بنفسي الذي أخذَ بنفسك.

قال: «صدقت».

---

(١) انظر السيرة النبوية والآثار المحمدية لأحمد زيني دحلان.

(٢) سورة الأنفال/ ٤١.

ثمّ اقتاد رسول الله ﷺ بعيرهُ غير كثير ثمّ أناخ فتوضأ، وتوضأ الناس، ثمّ أمر بلالاً فأقام الصلاة، فصلى رسول الله ﷺ بالناس، فلما سلّم أقبل على الناس فقال: «إذا نسيتُم الصلاة فصلُّوها إذا ذكرتموها، فإنَّ الله تبارك وتعالى يقول: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴾»(1).

* وهكذا كان بلال يسارعُ إلى كل مكرُمة في السفر والحضر، يؤثِرُ الرسول والمسلمين على نفسه وراحته، وقد عاش حياته كلها مع رسول الله ﷺ يقضي ما عليه منْ واجبات، ففي السلم والحضر كان يقضي أوقاته في طاعة الله وعبادته، ويكثر من الصلاة والدُّعاء والتضرع لله عزّ وجلّ؛ وفي الحرب لا يتأخر فكان يجاهد ويحرسُ ويسهر على راحة الرسول والمسلمين.

* وتمضي سنة أخرى، ففي رمضان من السنةِ الثامنة للهجرة، أكرم الله نبيَّهُ محمداً ﷺ بفتح مكة، حيث دخل الرسول مكة شاكراً مُكبِّراً، ومعه عشرةُ آلاف من المسلمين، وتوجَّهَ الرسول إلى الكعبة، فوجد الباب مغلقاً، فأمر بلالاً أنْ ينطلق إلى «عثمان بن طلحة» ليحضر المفتاح، ووقف على باب الكعبة، وقال: «لا إله إلاَّ الله وحده، لا شريك له، صدق وعدهُ، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده» وعاد بلالٌ وعثمانُ فقال النبي ﷺ لعثمان: «هات مفاتيحك يا عثمان، اليوم يومُ برٍّ ووفاء». وفتح الباب ودخل النبي ﷺ وبلال، وصلى النبي ركعتين، ثمّ اتجه إلى الأصنام فرأى صورة الملائكة، ورأى سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام مُصوَّراً في يده الأزلام يستقسمُ بها فقال:

«قاتلهُم الله، جعلوا شيخنا يستقسمُ بالأزلام، ما شأنُ إبراهيم والأزلام، ثمّ رتَّلَ: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾»(2).

وجعل يطعنُ الأصنام بعُودٍ في يده ويقول: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ

---

(1) سيرة ابن هشام مجلد (٢) ص ٣٤٠ والآية من سورة طه: ١٤.

(2) آل عمران آية / ٦٧/.

ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ . وبعد أنْ خرج الرسول ﷺ من داخل الكعبة المشرّفة أمرَ بلالاً أنْ يعلو ظهرَ الكعبة ويؤذن الظهر، فصَعِدَ بلال رضي الله عنه على الكعبة ينادي بأعلى صوته بنبرةٍ نديةٍ مؤثرة:

الله أكبـــــر، الله أكبـــــر، الله أكبـــــر، الله أكبـــــرَ
أشهـــد أنْ لا إلـــه إلاَّ الله، أشهـــد أنْ لا إلـــه إلاَّ الله. . .

ووقفَ ألوفُ المسلمين في هدوء يرددون في خشوع وهيبة كلمات الأذان وراء بلال، ودخل أهلُ مكة في دين الله أفواجاً . .

* الله أكبر، الله أكبر، أذانٌ منْ على ظهر الكعبة يشدو به بلال بصوت يملأُ الدنيا، يقول الدكتور البوطي عن بلال رضي الله عنه:

«ذلك الصوت الذي كان يهمِسُ يوماً ما تحت أسواط العذاب أحدٌ، أحدٌ، أحدٌ، ها هو اليوم يُجلجل فوق كعبة الله تعالى قائلاً: لا إله إلاَّ الله محمدٌ رسول الله، والكلُّ خاشعٌ مُنصتٌ خاضعٌ[1]» .

* ويكادُ بعضُ المشركين يتفطرُ قلبه غيظاً وألماً من ارتقاء بلال رضي الله عنه ظهر الكعبة، وهتافه بكلمة التوحيد، لأنَّه بنظرهم ما يزال عبداً خفيض المنزلة، لا مكانة له بين الرجال، فقال «عكرمة بن أبي جهل» والأسى بادٍ على وجهه:

* لقد أكرم الله أبا الحكم[2] حيثُ لم يسمع هذا العبد[3] يقول ما يقول. وتكلم «خالد بن أسَيد» بكلام مملوءٍ بالحقد وعدم الرضا، وهذا «سهيل بن عمرو العامري» ورجال معه، فحين رأوا وسمعوا بلالاً يؤذن من على ظهر الكعبة، غطوا وجوههم تألُّماً.

* لكنَّ الرسول ﷺ وأصحابه الكرام فرحوا لما سمعوا نداء الحق من على ظهر الكعبة المشرفة، وجموع المسلمين تقفُ بخشوع وهدوء.

---

(١) فقه السيرة للدكتور ـ محمد سعيد البوطي ص ٣٦٥ طبعة ثامنة.
(٢) يعني بذلك أباه: أبا جهل.
(٣) يعني بذلك بلالاً.

* وظلَّ بلال رضي الله عنه يحظى بحبِّ الرسول له، ويحظى باحترام الصحابة أيضاً، ورغم هذه المكانة، وهذا الاحترام، كان رضي الله عنه، شديد التواضع، كثير الحياء، لا يرى نفسه إلاَّ أنَّه الحبشيّ الذي كان بالأمس عبداً.

مكـانتـه وأخـلاقـــه:

* ظلَّ بلال رضي الله عنه ملازماً للرسول ﷺ، تقرُّ عينهُ برؤية الرسول كل يوم في أوقات الصلاة وفي غيرها، سامعاً مطيعاً، وكان رضي الله عنه مِمَّنْ حفظ عن رسول الله ﷺ وأدّى ما وعى، فقد روى عن الرسول عليه الصلاة والسلام «أربعة وأربعين حديثاً[1]» توزعتْ بين صحيحي الإمامين، البُخاري ومسلم.

* وكان النبي ﷺ يُكرمُ بلالاً إكراماً عظيماً، ويُسَرُّ بوجودهِ، ويجدُ الراحة عندما يؤذنُ له، وكان عليه الصلاة والسلام يفضّل بلالاً وفقراء المسلمين على غيرهم من سادة الناس، ويجلس معهم وقتاً طويلاً، يحدثهُم ويكرمهم؛ فعن «خبّاب بن الأرت» رضي الله عنه قال:

«جاء الأقرعُ بن حابس التميمي، وعيينة بن حصن الفزاري، فوجدا النبي ﷺ قاعداً مع عمّار وصُهيب وبلال وخبّاب بن الأرتّ ـ رضي الله عنهم ـ في أناس من ضُعفاء المؤمنين، فلما رأوهم حقَّروهم، فخلوا به فقالوا: إنَّ وفود العرب تأتيك فنستحي أنْ يرانا العرب قعوداً مع هذه الأعْبد، فإذا جئْناك فأقِمْهُم عنّا، قال: «نعم» قالوا: فاكتبْ لنا عليك كتاباً، فدعا بالصحيفة، ودعا علياً ليكتب ـ ونحن قعود في ناحية ـ إذْ نزل جبريل عليه السلام فقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَـٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ

---

(١) سير أعلام النبلاء ص ٣٦٠ مجلد (١).

بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا . . . ﴾[1] الآية فرمى رسول الله ﷺ بالصحيفة ودعانا فأتيناهُ وهو يقول:

«سلامٌ عليكم» فدنونا منه حتى وضعنا رُكبنا على ركبته، فكان رسول الله ﷺ يجلسُ معنا، فإذا أراد أنْ يقوم قام وتركنا فأنزل الله تعالَى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ﴾[2] قال: فكنا بعد ذلك نقعدُ مع النبي ﷺ فإذا بلغنا الساعة التي كان يقومُ فيها قمنا وتركناه، وإلاَّ صبرَ أبداً حتى نقوم[3]».

* وهكذا ينالُ فقراء المسلمين رضا الله ورسوله، فكانت لهم تلك المكانة العظيمة، ولم يرض الرسول ﷺ إغضاب أحد منهم، وكان الصحابة الكرام رضوان الله عليهم يكرمونهم إرضاءً لله ورسولهً؛ فعن «عائذ بن عمرو» رضي الله عنه «أنَّ أبا سفيان مرَّ على سلمان وصهيب وبلال في نفر، فقالوا: ماأخذت سيوفُ الله من عنق عدو الله مأخذها. فقال أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم؟ وأتى النبي ﷺ فأخبره فقال: «يا أبا بكر لعلك أغضبتهم؟ إن كنت أغضَبْتَهُم لقد أغضبت ربَّك» فأتاهم أبو بكر فقال: يا إخوتاه، أغضَبْتُكُم؟ قالوا: ما غضبنا يغفرُ الله لك يا أخي[4] . .».

* نعم فقد كانت مكانة بلال وصحبه عظيمة عند الله سبحانه وتعالى وعند الرسول ﷺ لأنهم من الضعفاء، والله تعالى معهم؛ ولذا أشار النبي إلى أبي بكر أن يستعطفهم؛ وكان عليه الصلاة والسلام يحوط بلالاً برعايته، ويوجهه إلى الفضائل كلها وإلى الإنفاق، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال:

---

(١) سورة الأنعام / ٥٢ـ٥٤/ .

(٢) سورة الكهف / ٢٨/ .

(٣) حياة الصحابة ص ٤٧٥ وانظر الحلية جزء /١/ ص ١٤٦ وفضائل الصحابة ص ٤٠.

(٤) رواه مسلم، انظر التاج الجامع للأصول جزء ٣ ص٤٠٥، وانظر فضائل الصحابة ص ٥١ .

دخل النبي ﷺ على بلال رضي الله عنه وعنده صبر[١] من تمر فقال: «ماهذا يا بلال»؟ قال: أعدّ ذلك لأضيافك، قال: «أما تخشى أن يكون لك دخان في نار جهنم، أنفق يا بلال ولا تخشَ من ذي العرش إقلالاً[٢]».

* وعلى الرغم منْ المكانة الرفيعة التي نالها بلال رضي الله عنه، لم يكن ليزداد إلاَّ تواضعاً، ومراقبة لنفسه، فكان بذلك ينال احترام الصحابة أجمعين حتى إنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يأذن لبلال وعمَّار وصُهيب بالدخول عليه قبل شيوخ قريش وذلك لِسبقهم في الإسلام ومكانتهم عند رسول الله ﷺ، وبقي بلال في غاية التواضع والحياء، فعن الشَّعبي قال:

«خطب بلال رضي الله عنه وأخوه إلى أهل بيتٍ منَ اليمن، فقال، أنا بلال، وهذا أخي، عبْدان من الحبشة، كُنَّا ضالَّيْن فهدانا الله، وكنا عَبْدين فأعتقنا الله، إن تُنْكِحونا فالحمد لله وإنْ تمنعونا فالله أكبر[٣]».

* وهؤلاء قومٌ منَ العرب زوَّجوا ابنتهم من أجلِ بلال، فقد روي أنَّ أخاً لبلال كان ينتمي إلى العرب، ويزعمُ أنَّه منهم، فخطب امرأةً من العرب فقالوا: إنْ حضرَ بلال زوجناك، قال: فحضر بلال فتشهد وقال: «أنا بلال بن رباح وهذا أخي، وهو امرؤ سوء في الخُلُق والدِّين فإنْ شئتم أنْ تزوجوه، وإنْ شئتم أنْ تدعوا فدعوا فقالوا: منْ تكونُ أخاه نزوجه، فزوجوه[٤]».

حياة بلال بعد الرسول ﷺ:

* ظلَّ بلال رضي الله عنه قريباً منْ رسول الله ﷺ، يقرُّ عينه برؤية الرسول طيلة حياته إلى أنْ توفي الرسول عليه الصلاة والسلام والتحقَ بالرفيق الأعلى؛ ودخل بلال على رسول الله ﷺ وهو مُسجّى على فراشه، فانحدر

---

(١) ما جمع بلا كيل ولا وزن.

(٢) حياة الصحابة مجلد/ ٢/ ص ١٤٦.

(٣) طبقات ابن سعد مجلد /٣/ ص ٢٣٧ وانظر سير أعلام النبلاء مجلد/ ١/ ص ٣٥٨.

(٤) حياة الصحابة مجلد/ ٢/ ص ٦٧٦

الدمعُ غزيراً من عينيه، وشعر بالحزن العميق يستقرُّ في أعماقهِ، وأحسَّ بفراغ كبير؛ وتساءل: لِمنْ يؤذِّنُ؟.. ثمّ صلّى عليه وخرج إلى بيته حزيناً تتساقطُ الدموع على وجنتيه.

* لم يستطع بلال رضي الله عنه أنْ ينام تلك الليلة، لشدة حزنه على فراق حبيبهِ رسول الله ﷺ، وحين اقترب موعدُ الفجر خرج بلال إلى المسجد ليؤذن لصلاة الفجر كعادته كل يوم، ويقفُ كالعادة، يدعو ربه قبل الفجر، إلى أنْ جاء وقتُ الأذان، فارتفع صوت بلال ندياً جميلاً رائعاً:

الله أكبـــــــــــــرُ الله أكبـــــــــــــر

الله أكبـــــــــــــرُ الله أكبـــــــــــــرُ

أشهـــــد أنْ لا إلـــــه إلاَّ الله، أشهـــــد أن لا إلـــــه إلاَّ الله؛

* وعندما وصل إلى ـ أشهد أنَّ محمداً رسول الله ـ احتبست الكلماتُ في فمهِ، ولمْ يعدْ يتمالك نفسه، فأخذتِ الدموع تنهمر من عينيه انهماراً، وتُبَلِّلُ خدَّيه، وسمع الناس انقطاع الأذان وبكاء بلال فبكوا في المسجد، حتى سُمِعَ صوتُ بكائهم، وبعد جهدٍ وبصعوبةٍ استطاع بلال أنْ يتغلب على عبراته المتدفقة فأكمل الأذان في صوت هادىءٍ منخفضٍ.

* ولما دُفنَ رسول الله ﷺ، خرج بلال إلى المسجد، وجلس في ناحيةٍ من المسجد معتزلاً النَّاس، حزيناً باكياً، شاردَ الفكر، وحان وقتُ الأذان، وانتظر المسلمون بلالاً ليعطر أسماعهم بصوته الندي، ولكنه لم يؤذِّنْ، فقيل له: الأذان يا بلال، فقال والدموع في عينيه: لنْ أؤذنَ بعد اليوم فليؤذن غيري.

* وعندما تولى الخلافة سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه، قال لبلال: أذّنْ، فأبى بلال وقال له: «إنْ كنت إنّما اشتريتني لنفسك فأمسكْني، وإنْ كنت إنَّما اشتريتني لله فدعْني وعملي لله[1]». فقال أبو بكر: ما أعتقتك إلاَّ لله، وأجابهُ بلال والحزنُ مرتسمٌ على وجهه: فإنّي لا أؤذنُ لأحدٍ بعد وفاة رسول الله.

---

(١) رواه البخاري.

* وأراد بلال رضي الله عنه بعد موتِ النبي ﷺ أنْ يخرج إلى الجهاد، فمنعه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وأنشده بالله أنْ يقيم معه، فأقام معه حتى توفي الصديق رضي الله عنه.

* ولما تولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه الخلافة قال له مثل مقالة أبي بكر، فأبى عليه بلال، فقال عمر: فمنْ يا بلال[1]؟ قال إلى سعد[2]، فإنَّه أذّنَ بقباء على عهد رسول الله ﷺ، فجعل عمر الأذانَ إلى سعدٍ وعقبهِ منْ بعده[3]».

* وقرر بلالُ رضي الله عنه أنْ يخرج إلى الجهاد في سبيل الله، فذهب إلى الفاروق عمر بن الخطاب يستأذنه بالخروج، فقال له عمر:

ألا تبقى يا بلال بجواري كما كنت بجوار النبي عليه الصلاة والسلام، وبجوار أبي بكر الصديق؟

فقال بلال رضي الله عنه:

أحنُّ إلى الجهاد يا أمير المؤمنين، وأرى أنَّ الجهاد للمؤمن من أفضل الأعمال، لأنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ أفضل عمل المؤمنين جهادٌ في سبيل الله». وقد أردتُ أنْ أرابط في سبيل الله حتى أموت.

فقال له عمر:

لكَ ما تريدُ يا بلال.

وأذنَ له، فخرج إلى الشام، ولحق بجيش «أبي عبيدة بن الجرّاح»، رضي الله عنه، وظلَّ مجاهداً في سبيل الله.

* ويزور سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه الشَّام أيام خلافته، ويلتقي مع بلال، ويتوسلُ المسلمون إلى عمر أنْ يطلب من بلال ليؤذنَ لهم ولو

---

(١) أراد: لمن تترك الأذان؟.

(٢) سعد القرظ: انظر حياة الصحابة جزء ٣ ص ١١٦.

(٣) حياة الصحابة جزء (١) ص ٤٥٦.

لصلاةٍ واحدة، ولمّا حان وقتُ الصلاة، رجاهُ عمر أنْ يؤذن لها، واستجاب بلال لطلبه، وصعد بلال، فأرهفَ النَّاسُ سمعهم، وانطلق صوته النَّدي يسري كالنَّسيم، ويسمعُ المسلمون صوته للمرة الأولى بعد وفاة النبي ﷺ، فعادت الذكرياتُ الحلوة إلى الصحابة، وإلى بلال نفسه، فبكى وأبكى السامعين، وكان سيدنا عمر بن الخطاب أشدَّهُم بكاءً.

* اشتاق بلال رضي الله عنه إلى زيارة المدينة المنورة، وإلى زيارة حبيبه ومصطفاه محمد ﷺ، فقد رأى في منامه النبي الكريم مقبلاً نحوه وعليه ثياب بيض، فهُرع إليه وسلّم عليه، ووقف معه والغبطة تشيعُ في نفسه والفرحة تعمُّ قلبه، وقال له النبيُّ معاتباً له: ماهذه الجفوةُ يا بلال؟ أما آنَ لك أنْ تزورنا؟!.

* هبَّ بلال منْ نومه وصورةُ النبي الكريم في مخيلته، وصدى كلماته في أذنيه، ويمم وجهه شطر المدينة المنورة، ولمّا دخل المسجد وقف أمام القبر الشريفِ قائلاً: السلامُ عليك يا رسول الله.. وترقرق الدمعُ في عينيه، وسال على خديه، وراحت الذكريات به بعيداً بعيداً، تذكّرَ كل لحظة قضاها مع حبيبه محمد ﷺ.

* كان الليلُ قد أرخى سدوله، ولم يعلمْ أحدٌ بمجيء بلال إلى المدينة إلاَّ بعض الصحابة، وعند الفجر، طلب منه الحسن والحسين[1] ابنا عليٍّ رضي الله عنهما أنْ يؤذن لصلاة الصبح، وانطلق بلال بصوته الندي، لكنه لم يستطع أنْ يُتمَّ الأذان هذه المرة وغصّتْ عيناه بالدموع.

* ويعودُ بلال إلى الشَّام، وتمضي الأيامُ، ويمرضُ مرضاً شديداً، حتى غارتْ عيناه، وتغير لونه، وتقول له زوجه مواسية: كيف حالك يا أبا عبد الله[2]؟ فقال لها: دنا الفراق، فقالت له: واحزناه.. واحزناه.. عندها فتح بلال عينيه وهو يصارع المرض، ويجود بأنفاسه الأخيرة:

بل وافرحتاه، غداً نلقى الأحبَّـةَ، محمداً وصحبه.

---

(١) سير أعلام النبلاء ص ٣٥٨ مجلد(١) بتصرف يسير.

(٢) كانت كنية بلال «أبو عبد الله».

بشـــارة بـــلال:

* كان بلال بن رباح رضي الله عنه منْ فُضلاء الصحابة، لمْ يتأخر يوماً واحداً عن أداءِ مكرمةٍ أو مسارعة إلى عمل صالح، فكان رضي الله عنه لا يؤخرهُ عن الأذان أو يقعده عنه حرٌ ولا بردٌ، فقد أذّنَ رضي الله عنه في ليلةٍ باردةٍ، فلم يأت أحد من المسلمين للصلاة، وسأله النبي ﷺ «ما شأنهم يا بلال؟» قال: كبَدَهم[1] البرد بأبي أنت وأمي، فدعا الرسول ﷺ فقال «اللّهم اكسِرْ عنهم البرد[2]» وأقبلَ الصحابةُ على المسجد يؤدون صلاة الصبح مع النبي الكريم عليه الصلاة والسلام.

* وكان بلال رضي الله عنه يزداد في كل يوم قرباً من قلبِ الرسول، وكان عليه الصلاة والسلام يصفه بأنّه «رجلٌ منْ أهْلِ الجنَّةِ». وقد بشّرهُ الرسول بالجنة.. فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال لبلال بعد صلاة غداة:

«يا بلال حَدِّثْني بأرجى عملٍ عملتَهُ في الإسلام منفعةً فإنّي سمعتُ خَشْفَ[3] نعليك بين يدي في الجنة؟ قال بلال: ما عملت عملاً في الإسلام أرْجى عندي منفعةً من أنّي لا أتطهرُ طهوراً تاماً في ساعة من ليلٍ أو نهارٍ إلاَّ صلَّيْتُ بذلك الطهُور ما كتب الله لي أن أصلي[4]».

فهذه بشارة بالجنّةِ لبلال لأنّه يتوضأ ويصلي عند كل حدث، وهذا من مزيدِ الفضلِ لبلال رضي الله عنه إذ رآه النبي ﷺ في الجنة يمشي أمامه، وتلك مكانة عظمى ومنزلة عليا نالها بفضل طاعته لله ورسوله.

* وهذا الفاروق عمر بن الخطاب، وماأدراك ما عمر؟! فهو من العباقرة،

---

(١) شق وصعب عليهم.

(٢) حياة الصحابة جزء ٣ص ٦٥٤.

(٣) أي: صوت مشيك وخفق نعليك.

(٤) رواه البخاري ومسلم/ وانظر فضائل الصحابة للنسائي ص ٤٠.

وهو من الملهمين وأصحاب الفراسة يقول عن بلال «سيدنا» فعن جابر رضي الله عنه قال: كان عمر يقول: أبو بكر سَيِّدُنا وأعتق سيِّدنا يعني بلالاً؛ فقَوْلُ الفاروق هذا في حقِّ بلال له شأن وأي شأن، وشهادة لا تعدلها شهادة.

* هذه هي رحلةُ صحابي عظيم، كان من السُّعداء، باع نفسه لله وللرسول وللإسلام، فربح بيعه، وتأتي السنة العشرون بعد الهجرة النبوية الشريفة، ويجتاح الشام طاعون قضى على حياة كثير من الناس، وكان ممن توفي بسبب هذا الطاعون سيدنا بلال بن رباح رضي الله عنه، وكان عمره إذ ذاك يقترب من ثلاث وستين سنة، ويضمُّ ثرى دمشق أجمل صوتٍ طالما نادى «أحدٌ أحدٌ»، وطالما هتف منادياً الله أكبر، وإلى جانب بلال يرقدُ عدد من الصحابة مثل: أبي الدرداء، وفضالة بن عبيد وغيرهم من فضلاء الصحابة رضي الله عنهم ورضوا عنه، وكان بلال ممن قال الله فيهم:

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

* * *

سيدنا

صهيب بن سنان

رضي الله عنه

* قال تعالى بحق صهيب :

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ . .﴾ .

* وقال ﷺ :

«يا أبا يحيى ربح البيع ، يا أبا يحيى ربح البيع ، يا أبا يحيى ربح البيع» .

* «صهيب سابق الروم إلى الجنة» .

مـقـــدمـــة:

* الهدوء يلفُّ كل شيء، والظلام يبسط رداءهُ الأسود على مكة، أصواتٌ وأضواء تنبعثُ مِنْ بعض البيوت، طربٌ وغناء، عبثٌ ولهو، لا شيء يثير اهتمام الناس، فالدنيا بالنسبة إليهم هي الحياة، لا يعرفونَ حلالاً ولا حراماً، ولا آخرة ولا أُوْلى، وتمضي أيامهم ولياليهم على هذه الشاكلة.

* في هجعةِ الليل، والنَّاس نِيَام، كانَ هناكَ رجلٌ هَرَبَ النومُ من عينيه وبدا غارقاً في تفكيره، راحَ يستعرضُ شريطَ حياته الماضية، إلى أَنِ استقرَّ في مكة البلد الأمين.

* إنه يتذكر «الأُبُلَّة» تماماً، إِنَّها البلد التي نشأَ فيها قرب المَوصْل، وكان أبوه «سنان بن مالك» النميري عاملاً عليها مِنْ قِبَلِ كسرى ملك الفرس، ما زال يذكر أمه «سلمى بنت قعيد» التميمية، وعندما كان غلاماً يَفعَةً، أغارتِ الروم على قبيلته، فاستاقتِ الأموال وأسرتِ الرجال والأولاد، وكان ابن سنان «صهيب» من جملةِ الأسرى وسِيقَ إلى بلاد الروم، وبِيْعَ هنالك بيعَ الرقيق، ونشأ عندهم، فثقُلَ لسانه، وكادَ ينسى لغته العربية؛ وعندما شبَّ عن الطَّوقِ، وعرفَ الحياة، رأى ما رأى مِنْ زِيفِ حياة الرومان، وانحلال أخلاقهم وانغماسهم في الملذات، رأى الرهبان وتابعيهم كيف يكنزون الذهبَ والفِضَّة، ويسارعون إلى الموبقات، ويتهافتون على المنكرات تهافتَ الفراش على النَّار، فضاقَ صدره بالمقامِ بينهم، والصَّبرِ على ما يأتونه من فواحشَ ومخازٍ.

* حُلُمٌ بالعودة إلى بلاده أَخَذَ يراوده، صورٌ تمرُّ بخياله أبوه، أمّه، قومه، بلادُه، لكنْ سرعان ما ينقشعُ هذا الحلمُ ويتبدد، ما زالتْ تلك البلاد تحتَ نفوذ الفرس، وهم ليسوا بأحسن منَ الروم؛ إذاً أين المفرُّ؟ ويأتيه الجواب فوراً: إلى مكة. . فقد ترامى إلى سمعه مِنْ بعض الرهبان أَنَّ نبياً سيخرجُ من هناك، وباتَ يرسم لنفسه طريقَ الخلاص من قبضة الروم.

* وجاء اليوم الموعود، إذْ قررَ صهيبُ الهروب، انطلقَ في ليلٍ ذلك اليوم، ونَبَذَ الرومَ وبلادهم وراء ظهره، وتوجه تلقاء مكة أم القرى، ولما استقرَّ فيها أطلَق الناس عليه اسم «صهيب الرومي» لِلُكْنَةِ لسانه وشكله؛ وسرعان ما ذهبَ إلى «عبد الله بن جدعان» فتحالفَ معه، وأقام عنده يعمل بالتجارة إلى أَنْ هلك عبد الله بن جدعان.

* كادَ الليل أَنْ ينصرمَ، وصهيب ما يزال أسِيرَ ذكرياته هذه، ثم ما لبث أَنِ استسلم إلى النوْمِ، ولمْ يستيقظْ إلا على حَر الشمس يُلامسُ جسمه، فهبَّ مِنْ نومه يتابعُ مسيرة حياته اليومية منْ جديد.

* عرفتْ دروب مكة ووديانُها الفتى الروميَّ، فقد كان دائب الحركة، نشيطاً، مخلصاً، يُتقنُ بعض الأعمال المختلفة، واشتهر بالرَّمي وإصابةِ الهدف، وركوب الخيل والكرِّ والفرِّ، فأضحى فارساً لا يُشَقُّ له غبار، ورامياً مِنْ أمهرِ الرُّماة.

إسلام صهيب:

* وُلدَ يومٌ جديد، فدبَّتِ الحياة في مكة، وانتشرَ الناس كعادتهم يبيعون ويشترون، يغْتَرفون مِنَ اللذات ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، فلا آخرةَ عندهم ولا أولى، ولا بَعْث ولا نشور، فقد أشركوا بالله ما لم يُنزِّلْ به سلطاناً، وعبدوا الأصنام والأوثان، والأنصاب، وبالغوا في عبادة الأصنام حتى وضعوا حول الكعبة ثلاثمئة وستين صنماً، وقرَّبوا لها القَرابين، وما كان يدورُ بخلدهم ما تخفيه عنهم الأيام مِنْ أحداث، مِنْ صراع بينَ الحق والباطل؛ وانطلقَ صهيب مع الناس يُدلي دلوه في البيع والشراء، وكرَّتِ الأيام، وصهيب دؤوب على التجارة، حتى حَصَل على شيء من الذَّهب والفضة.

* وذاتَ يوم، سرى همسٌ في مكة أَنَّ محمَّد بن عبد الله يدعو إلى دين جديد، دين يدعو إلى عبادة إله واحد، ونَبْذِ جميع الأصنام حتى اللات والعُزّى وهُبَل؛ ومضتْ أيام أُخَر، فإذا بالهمس يتعالى أكثر، وتتضحُ الرؤيا

وتظهر معالم الدعوة إلى الإسلام جَلِيَّة، وأخذ الحقُّ طريقه إلى نفسِ صهيب، فراحَ يتساءل: إلامَ يدعو محمد؟ ويأتيه الجواب من الواقع: إنَّه يدعو إلى التحرر مِنْ عبودية الأصنام، يدعو إلى التراحم والمساواةِ، إلى العدل، إلى الخروج مِنَ الظلمات إلى النور.

* وذات صباح، قبل أَنْ تدبَّ الحياة في مكة، وقبل أَنْ يخرجَ الناس من دورهم، كان صهيب قد يَمَّمَ وجهه إلى دارِ «الأرقم بن أبي الأرقم» عند الصَّفَا، وعند الباب فُوجِىء بوجودِ رجل يعرفه مِنْ قبلُ، ولكن.. ما الذي جاء به إلى دار الأرقم؟ واقترب منه، ولم يكن ذاك الرجل إلا «عمار بن ياسر»، ولنتركِ الحديث لعمار، ليخبرنا عن هذا اللقاءِ غيرِ المتوقع، قال: «لقيتُ «صهيبَ بن سنان» على باب الأرقم، ورسولُ الله ﷺ فيها، فقلتُ: له ما تريد؟ قال لي: ما تريدُ أنتَ؟ فقلت: أردتُ أَنْ أدخلَ على محمد فأسمع كلامه؛ قال: وأنا أريد ذلك؛ فدخلنا عليه فعرضَ علينا الإسلام فأسلمنا، ثم مكثنا يومنا على ذلك حتى أمسينا، ثم خرجنا ونحن مستخفون»[1].

وأشرق قلب كل واحد منهما بنور الإسلام، وكان إسلام صهيب وعمار بعد بضعة وثلاثين رجلاً.

* بدأتِ الحياة عند صهيب مِنْ جديد، فقد شعر أَنَّه وُلدَ يوم دخل بيت الأرقم، وشهد أَنْ لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله، أحسَّ أنَّه وصل إلى هدفه المنشود، وسرعان ما تلاشت صور حياته الماضية وتفاهتها من ذاكرته، فقد أضحتْ حياته ذات عمق ومغزى، وأخذ نور الإيمان يسطعُ من وجهه، وكلمة التوحيد تنيرُ له الدرب. وعندما أخذ صوت الإسلام يعلو ويرتفع، قرَّر المشركون محاربةَ الإسلام، وإيذاء جميع الداخلين فيه، واشتدَّ غضبُ قريش حينما رأتْ هؤلاء المستضعفين يدخلون في دين الله أفواجاً، فلم يجدوا مُتنفَّساً لغيظهم إلا أَنْ يثوروا بالضعفاء الذين أسلموا واتَّبعوا محمداً، وهؤلاء لا سَنَدَ لهم يمنعهُم، ولا ظهر يحميهم، فانْقضُّوا عليهم يُلهبون ظهورهم

---

(١) طبقات ابن سعد جزء ٣ ص٢٤٧.

بالسياط وحرِّ الشمس، وزادَ منْ حنقهم أَنَّ هؤلاء المستضعفين يزدادون تمسُّكاً بالإسلام كلما زادوا تعذيبهم، فكان منهم صهيب وبلالٌ وعمار وخبَّاب وعامرُ بن فهيرة وأبو فكيْهة وغيرهم ممن شرحَ الله صدره للإسلام، ولم تَنْجُ النّساء مِنْ عذابهم أيضاً، فهذه لُبيْنَةُ والنَّهدية وأم عنيس؛ ذُقْنَ مِنَ العذاب ما تنوءُ بحمله الجبال وكانتْ سُمَيَّةُ زوجة ياسر أولَ شهيدة في الإسلام، ولم تَنْج «زِنّيرة» أيضاً من عذابِ المشركين وبخاصةِ «أبو جهل» الذي كان يتهكَّم بالمسلمين وضعفائهم ويقول: أَلا تعجبونَ إلى هؤلاء وأتْباعهم الضعفاء، لو كان ما أتى محمد خيراً وحقاً ما سبقونا إليه، أفتسبقُنا زنّيرة إلى رشْد؟.. ولكن الله يأبى إلا أنْ يُتِمَّ نوره ولو كرهَ المشركون.

* كان رسول الله ﷺ يتألمُ لأصحابه أشدَّ الألم، وكان يدعوهم إلى الصبرِ واحتمال ما يلقَوْن مِنَ العذاب والأذى في سبيلِ الله، حتى يأتي اللهُ بالفتح أو أَمْرٍ من عنده، ويؤكدُ لهم أنَّ نصرَ الله قريب، وأنَّ رحمةَ الله قريبٌ مِنَ المحسنين، وكان هؤلاء يهوِّن عليهم شدة العذاب والأذى بما يحدثهم عن سِيَرِ المؤمنين قَبْلهم وعن صبرهم ورسوخ إيمانهم فيقول:

* «حقد كان مَنْ قبلكم يُؤخذ الرجل فيُحْفَرُ له في الأرضِ فيُجعل فيها، ثم يُؤتى بالمنشار، فيوضَعُ على رأسه فيُجْعَل نصفين، ويُمَشَّطُ بأمشاط الحديد ما دون لحمهِ وعظمهِ ما يصدُّه ذلك عن دينه، واللهِ لَيُتمنَّ الله تعالى هذا الأمر حتى يسيرَ الراكب من صنعاءَ إلى حضرموتَ فلا يخاف إلا الله والذئب على غنمهِ ولكنكم تستعجلون».

* كان صهيب رضي الله عنه، مِنَ الرجالِ الأشداء وكان مِنَ الأوائل الذين جاهروا بإسلامهم، وتحدَّوا بطْشَ قريش وبأسها، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «أول مَنْ أظهر الإسلام سبعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمّار، وأمّه سمية، وصُهيب، وبلال، والمقداد رضي الله عنهم»[1] ـ وتحمّلَ صهيب نصيبه مِنْ أذى قريش مع عشرات من المؤمنين، لكن ذلك لم يَزِدْهُ إلا إيماناً

---

(١) حياة الصحابة جزء ١ ص٢٨٨.

وتسليماً، وكان رضي الله عنه يُعذّب حتى لا يدري ما يقول[1]. وحاول المشركون أيضاً محاربته اقتصادياً وإرهاق تجارته، لكنَّ هذه الحرب زادته صلابة، فلم يقفْ في وجهه «أبو جهل» ولم يُلْقِ بالاً لتهديدهِ ووعيدِهِ، حيث إنَّ أبا جهل كان إذا سمعَ بالرجل قد أسْلمَ وتابع محمداً على دينه تتبَّعه وتعقَّبه، فإن كان له شرف ومَنْعَة أنَّبهُ وأخزاهُ وقال له: تركتَ دين أبيك وهو خير منكَ، لنُسفِّهنَّ حلمك، ولنبطلنَّ كيدك، ولنضعنَّ شرفكَ، وإنْ كان تاجراً قال: والله لنكسدنَّ تجارتكَ، ولنهلكنَّ مالكَ حتى لا يبقى لك مال. وإن كان ضعيفاً ضربَه وأغرى به.

هجرة صهيب إلى المدينة:

* شاع في مكة خبر وفود الأوس والخزرج وإسلامهم، ومبايعتهم الرسول ﷺ على حرب الأحمرِ والأسودِ منَ الناسِ، وكانت قريش تعرفُ ما عليه الأوس والخزرج من شدةِ البأس، فجعلتْ تحسب حساب هذه القوة الواقعة في طريق تجارتها إلى الشام، وأوجَستْ في نفسها خيفة، بينما كانَ الرسول ﷺ قد أوعزَ بالهجرة لأصحابه إلى المدينة قائلاً لهم: «إنَّ اللهَ قد جعلَ لكم إخواناً وداراً تأمنونَ بها» فخرج الصحابة زرافاتٍ ووحداناً تاركين وراءهم ما يملكون، ولما رأى المشركون أنَّ المسلمين يتسللونَ تباعاً مِنْ بينهم، ازدادَ حنقهم وتأججتْ نيران الحقد في صدورهم، فضاعفوا الأذى للمسلمين، وجعلوا يمنعونَ مَنْ يستطيعون مَنْعَهُ منهم، وبخاصةٍ بعض المستضعفين؛ ثم هاجر النبيُّ ﷺ بصحبةِ «أبي بكر الصديق»، ثم ما لبث أَنْ لَحِقَ بهما «علي بن أبي طالب»، وبقي صُهيب في مكة مع مَنْ بقي مِنَ المستضعفين، وحزنَ لما أصابه مِنْ عدمِ الخروجِ مهاجراً بصحبةِ النَّبيِّ والصِّدِّيق، وأحسَّ أنَّه أصبح وحيداً في ديار تكره كلمةَ الحق؛ لكنه لم ييأس من ذلك، وراح يتحيَّنُ فرصةً يتمكنُ خلالها مِنَ الهربِ لأنَّ أعينَ الرقباء كانت تحيط به وتلاحقه؛ وأخذ يفكر في طريقة يفْلتُ بها مِنْ قبضة قريش، ويلحق بالرسول وأصحابه، إلى أَنْ

---

(١) طبقات ابن سعد جزء ٣ ص٢٤٨.

اهتدى إلى حيلة تمكّنه مِنَ الهرب، وكان لهجرته قصةٌ طريفة وهاكم القصة:

* عندما جثَم الليلُ على مكة، وأرخى سدوله، وهجع الكون وراح صهيب يشكو بطْنَه، ويُكثِرُ الخروجَ إلى الغائِطِ ثم ما يلبث أَنْ يعود، وعندما رآه رُقباؤُه على هذه الحالة، قال أحدهم: ـ لقد شُغِلَ الرجلُ ببطنه ـ ثم ما لبثَ القوم أَنْ تركوه وشأنه، وركنوا إلى النوم، فقد كانت ليلةً باردة؛ عندها خرجَ صهيب خائِفاً يَتَرقَّب، وسار على حذرٍ يتلفَّتُ خلفه وسحبَ راحلته، وهو يرجو ألا يُحْدِثَ صوتاً يُنبِّهُ القوم إليه، وانطلقَ يساورهُ القلق خشية أَنْ يعثرَ به أحد فيفتضح أمره، وينكشفَ خبره، فيتألَّبُ عليه القوم يمنعونه منَ الخروج، واستطاع أَنْ يتسللَ، ثم توجه تلقاءَ المدينة المنورة، لكنَّه ما كاد يبتعد قليلاً حتى شعرَ به مراقبوه، وأرادوا أَنْ يحولوا بينه وبين مبتغاه، بَيْدَ أَنَّه لمْ يستسلمْ، وعندها لم يجدِ الخوفُ إلى قلبهِ سبيلاً، ولنتركْ «سعيد بن المسيب» يحدثنا عن هجرة صهيب يقول: «أقبل صَهيبُ مهاجراً نحو المدينة، واتّبعه نَفَرٌ من قريش، فنزل عن راحلته، وانتشل ما في كنانته ثم قال: يا معشر قريش لقد علمتم أَنّي مِنْ أرماكم رجلاً، وايمُ الله لا تَصِلُون إليَّ حتى أَرمي بكل سهم معي في كنانتي، ثم أَضْربكم بسيفي ما بقيَ في يدي منه شيء فافعلوا ما شئتم»[1].

قالوا: أتَيْتَنا هاهنا صعلوكاً حقيراً فكثُر مالُك عندنا وبلغتَ ما بلغتَ ثم تنطلقُ بنفسك ومالك؟!

قال: أرأيتم إنْ تركتُ لكم مالي تُخَلُّونَ أنتم سبيلي؟

قالوا: نعم؛ فجعَلَ لهم ماله أَجْمَع.. وأخْلى الكفار سبيله.

* انطلق صهيب يغذُّ السيرَ نحو المدينة تاركاً كل ما يملكُ وراء ظهره، ولم يأخذْ معه إلا حفنة مِنَ الدقيق عجنَها في الطريق ليقيمَ بها صُلبهُ، وتُبلغه مأمنه في المدينة، إلى أَنْ قدم على الرسول ﷺ وهو بقباء ومعه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما وبين أيديهم رُطَب قد جاءهم به «كلثوم بن الهدم»، وكان

---

(١) طبقات ابن سعد جزء ٣ ص٢٢٧.

صهيب قد رَمدَ بالطريق، وأصابتْه مجاعة شديدة، فوقَع في الرُّطب فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله، ألا ترى إلى صهيب يأكل الرطب وهو رمد؟! فقال رسول الله ﷺ: «تأكلُ الرطبَ وأنتَ رمد»؟ فقال صهيب: إنما آكله بشق عيني الصحيحة، فتبسمَ رسول الله ﷺ، وجعلَ صهيب يقولُ لأبي بكر رضي الله عنه: وعدتني أَنْ نصطحبَ فخرجتَ وتركتني، ثم يقولُ للرسول ﷺ: وعدتني يا رسول الله أَنْ تصاحبني فانطلقتَ وتركتني فأخذتْني قريش فحبسوني فاشتريتُ نفسي وأهلي بمالي، فقال رسول الله ﷺ: «ربحَ البيعُ أبا يحيى ربح البيع أبا يحيى»[1]، فأنزلَ الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾[2] والحقيقة فقد ربح صهيب وأمثاله، وبشَّرهم الله بأنّه اشْترى مِنَ المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنة.

* ونزل صهيب مع أصحابه العُزّاب على «سعد بن خيثمة»[3] ثم ما لبث النّبي ﷺ، أَنْ آخى بين المهاجرين والأنصار، فقد آخى الرسول بين بلال وأبي رويحة، وبين عمّار بن ياسر وحذيفة بن اليمان، وآخى بين صهيب والحارث بن الصِّمَّة[4] رضي الله عنهم أجمعين.

صهيب وغزوات الرسول:

* جاءت غزوة بدر، أَولى غزوات الرسول ﷺ، وراح أبطال المسلمين يقاتلون في سبيل الله يرجون النَّصر أو الشهادة، وخاضَ صهيب رضي الله عنه غِمار المعركة، وأبلى فيها بلاء حسناً، وقاتل قتالَ الأبطال، وجنْدل رجلين

---

(١) صفة الصفوة جزء ١ ص٤٣١.

(٢) سورة البقرة آية / ٢٠٧/ وانظر تفسير القرطبي للآية.

(٣) سعد بن خيثمة رضي الله عنه، أنصاري من الأوس كنيته: أبو عبد الله، أحد النقباء الاثني عشر شهد العقبة الآخرة واستشهد بغزوة بدر. طبقات ابن سعد جزء ٣ ص٦٠٧.

(٤) أحد الأنصار الذين جاهدوا مع رسول الله ﷺ وقتل شهيداً يوم بئر معونة. طبقات ابن سعد جزء ٣ ص٥٠٩.

مِنَ المشركين هما «عثمان بن مالك»[1] و«الحارث بن منَبِّه بن الحجاج»[2]، فقد كان صهيب مِنَ الفرسان الشجعان.

* ثم شهد أُحُداً والخنْدق، وتأتي غزوةُ حُنَين، فيكون شديد القرب مِنَ الرسول ﷺ دائماً، يرى أفعاله عن كثب، ففي غزوة حنين هذه، رأى صُهيبٌ رسول الله ﷺ يحرِّكُ شفتيه، فاقتربَ منه أكثر حتى تَعِيَ أذناه ما يقول، وحتى يخبرَ الصحابة ليسيروا على الهدي النبوي القويم، فيقتدون بكل ما يأتيه الرسول ﷺ من قول أو فعل، ولكنه لم يسمعْ شيئاً، وكَرِهَ أَنْ يسألَ رسول الله ﷺ عن ذلك، ثم صلى رسول الله ﷺ صلاة الغداة، فأخذ في تحريكِ شفتيه مرةً أخرى، عندها لم يطقْ صهيب صبراً وقال: يا رسول الله، أراكَ، تحرك شفتيك بشيء وكنتَ لا تفعله!

فقال الرسول ﷺ: «إنَّ نبياً كانَ قبلنا أعجبته كثرة أمته فقال: ـ لا يرومُ هؤلاء ـ أحسب قال شيئاً؛ فأوحى الله تعالى إليه أَنْ خَيِّرْ أُمَّتَكَ بين ثلاث؛ إما أَنْ أسلِّطَ عليهم الموت، أو العدو، أو الجوع؛ فعرضَ عليهم نبيّهم ذلك فقالوا:

* أما الجوعُ فلا طاقة لنا به.

ولا طاقة لنا بالعدو،

ولكن الموت..

فمات منهم في ثلاثة أيام سبعون ألفاً؛ فأنا اليوم أقول: «اللهمَّ بك أحاول، وبكَ أصاول، وبك أُقاتل»[3].

وقد قال الرسول ذلك في غزوة حُنَين، عندما اغترَّ المسلمون بكثرتهم حتى قال بعضهم: لن نُغلَبَ اليوم عن قلة، ونسيَ المسلمون في ذلك الموقف

---

(١) سيرة ابن هشام مجلد (١) ص٧١٠.
(٢) سيرة ابن هشام مجلد (١) ص٧١٥.
(٣) حلية الأولياء جزء (١) ص١٥٥ ترجمة صهيب.

أنَّ النّصرَ مِنْ عند الله بعد أَنْ يُعِدّوا ما استطاعوا من قوة ومنْ رباط الخيل؛ وقد بلغ المسلمون في غزوة حنين كثرةً لم يبلغوها قط، وركنوا إلى أنفسهم ساعة من نهار، واطمأنوا إلى قوَّتهم، فوكلهم الله سبحانه إلى أنفسِهم فكانت الهزيمة باديء الأمر، فلما رجعوا إلى ربِّهم واستعانوا به، جاءهم العونُ والتأييد، فكان النصر والفوز، وفي هذا الموقف نزلَ قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[1].

* وشهدَ صهيب رضي الله عنه المشاهد كلَّها مع رسول الله ﷺ وأبلى فيها بلاءً حسناً إذْ كان يجيدُ رميَ النبال وضرْبَ السيف، فكان مثال الجندي المطيع في الغزوات والسرايا، ومع هذا كلهِ كان رضي الله عنه يتهيَّبُ أَنْ يرويَ حديثاً عن رسول الله ﷺ بل كانَ يقول: «هلمّوا نُحدِّثكم عَنْ مغازينا فأَمَّا أَنْ أقولَ قال رسولُ الله، فلا»[2].

* إن صهيباً رضي الله عنه يمتلك الشجاعة في السيف ويجعل نفسه فداءً لرسول الله، لكنَّه لا يمتلكُ الشجاعة ليقول: قال رسول الله!.. أي رجل هو!.. إنَّه منذ الدقائق الأولى لإسلامه أحسَّ بفطرتهِ الصائبة، وبصيرته النافذة أنَّه جندي مِنْ جنود الإسلام، يفدي رسول الله بنفسه وماله، لا يغيبُ عنه لحظة، شديد اللصوق به، يتحدث صهيب عن نفسه أنَّه مِنْ أَولِ يوم دخل الإيمان في قلبه ووضع يمينه في يمينِ الرسول مبايعاً، يقول: «لم يشهدْ رسولُ الله ﷺ مشهداً قطُّ إلا كنتُ حاضره، ولم يبايعْ بيعة قط إلا كنتُ حاضرها، ولم يَسر سريةً قط إلا كنتُ حاضرها، ولا غزا غزاةً قط أول الزمان

---

(١) سورة التوبة آية ٢٥/٢٦.

(٢) طبقات ابن سعد جزء ٣ ص٢٢٩.

وآخره إلا كنتُ فيها عن يمينه أو شماله، وما خافوا[1] أمامهم قط إلا وكنت أمامهم ولا ما وراءهم إلا كنت وراءهم، وما جعلت رسول الله ﷺ بيني وبين العدو قط حتى توفي رسول الله ﷺ[2]. تلك هي صورة وضّاءة عن حياة صهيب تحت راية الإسلام. ومع رسول الله ﷺ.

مكانةُ صُهيب وصفاتُه:

* تطالعُنا كتب السيرة بوصفٍ موجز لشخصية صهيب رضي الله عنه، فقد كان رجلاً أحْمر شديد الحمرة، كثير شَعْر الرأس[3]، متوسِّط الطول، في لسانه لُكْنة لمكثهِ مدَّةً طويلة عند الروم، وكان حسنَ الشكل والثياب، حلو الشمائل، يحب الدعابة والمرَح، فَطِناً حاضرَ البديهة، فقد رُوي عنه أنَّه قال: «جئتُ النبيَّ ﷺ وهو نازلٌ بقباء، وبين أيديهم رُطب وتمْر وأنا أَرْمدُ، فأكلتُ.. فقال النبي ﷺ: «أتأكل التمر وأنت أرْمد؟» فقلت: إنَّما آكل على شِق عيني الصحيحة، فتبسم الرسول ﷺ» وكنّاه أَبا يحيى.

* وكان صهيب رضي الله عنه كريمَ النفس سخيَّ اليد، ولا عجبَ في ذلك، فهو ابن أمير، وحالف أحد الأجواد وهو «عبد الله بن جدعان»، ثم علَّمه الإسلام الإنفاقَ وهو الذي سمعَ الرسول يقول: «خِيارُكم مَنْ أطعمَ الطعامَ وردَّ السلام». ويروي صهيب عن نفسه فيقول: «صنعتُ لرسولِ الله ﷺ طعاماً فأتيتهُ وهو في نَفَرٍ جالسٌ، فقمتُ حياله فأومأتُ إليه، وأومأ إليَّ؛ وهؤلاء[4]؟ فقلتُ: لا. مرتين فَعَل ذلك أو ثلاثاً، فقلتُ: نعم وهؤلاء، وإنَّما كان شيئاً يسيراً صنعتهُ له، فجاءَ وجاؤوا معه فأكلوا، قال وفضَلَ منه»[5]. وهذه الحادثة هي إحدى معجزات النبي ﷺ مع صهيب رضي الله عنه، وقد عَرَفَ صهيب أنَّ الدنيا ليستْ بدارِ قرار، فتخفّفَ منها، وأدركَ أَنَّ المال زائلٌ

---

(١) يقصد بذلك المسلمين.
(٢) حلية الأولياء جزء (١) ص١٥١. وانظر صفة الصفوة جزء١ ص٤٣١.
(٣) صفة الصفوة جزء (١) ص٤٣٠.
(٤) يشير عليه الصلاة والسلام إلى النفر معه.
(٥) حلية الأولياء مجلد (١) ص١٥٤.

فلم يكنزه، فتصدَّقَ به، وأطعمَ الطعام، واقتدى بسلوك النَّبي ﷺ، وكان يبغي من وراءِ ذلك الجنة.

* كانت مكانةُ صهيب تزدادُ في نفس الرسول ﷺ، فقد كان دائماً بجوارِ النبي، لا يتخلفُ عنه أبداً، ويحرصُ الحرص كلّه على أَنْ ينال رضاء النبي، وكان مِنَ السابقين إلى الإسلام؛ وكان الرسول ﷺ ينظر إلى صهيب والمستضعفين نظرةَ إكبار واحترام؛ فهؤلاء في ميزان الإسلام أفضلُ مِنَ السادة الكفار، فقد روى البخاريُّ عن سهل رضي الله عنه قال: «مَرّ رجل على النبي ﷺ فقال: ما تقولون في هذا؟ قالوا: حَرِيٌّ به إِنْ خطب أَنْ يُنكح وإن شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ وإِنْ قال أَنْ يُستَمع.. ثم سكتَ، فمرَّ رجلٌ مِنْ فقراء المسلمين فقال: ما تقولون في هذا؟ قالوا: حَريٌّ به إنْ خطب ألاّ ينكح وإِنْ شَفع ألاّ يُشَّفَع وإنْ قال ألاّ يُستَمع.. فقال رسول الله ﷺ: هذا خيرٌ مِنْ مِلءِ الأرض مثل هذا».

وقد كان لصهيب رضي الله عنه منزلة عظيمة عند رسول الله ﷺ لحُسْنِ بلائه وإخلاصه للإسلام والمسلمين، فقد رُوي أَنَّ أبا بكر الصديق رضي الله عنه مرَّ بأسيرٍ له يستأمنُ له من رسول الله ﷺ، وصهيب جالس في المسجد، فقال لأبي بكر: مَنْ هذا الذي معك؟ قال: أَسِيْرٌ لي مِنَ المشركين أستأْمِنُ له مِنْ رسول الله ﷺ، فقال صهيب: لقد كان في عنقِ هذا موضع للسيف، فغضبَ أبو بكر، فرآهُ النبي ﷺ فقال: «مالي أراكَ غضبان؟» قال: مررتُ بأسيري هذا على صهيب فقال: لقد كان في رقبة هذا موضع للسيف، فقال النبي ﷺ: «فلعلك آذيتَه» فقال: لا واللهِ، فقال: «لو آذيتَه لآذيتَ الله ورسوله»[1]. لذا فقد كان صهيب وأصحابه يُحبّون الرسول الكريم حباً عظيماً حَلَّقَ بهم عالياً، فقدَّموا خدمات جليلة للإسلام، وكان حبُّهم ذاك منبعثاً عن إيمانٍ قوي بالله، فذابتْ رغباتُهم في حب الحياة، وتغيرت عندهم القيم، فغدتْ نفوسهم تتوقُ إلى الارتفاع والسمو فوق مظاهر الحياة الفانية، وكان

---

(١) حياة الصحابة جزء (٢) ص٤١١ ـ ٤١٢.

أحدهم وهو تحت العذاب الشديد لا يفكر أَنْ يُصابَ الرسول ﷺ بشوكة، ولا أقلَّ مِنْ ذلك، وكان عليه الصلاة والسلام يشعر بما عاناه أصحابه مِنْ تعذيبٍ مِنْ قِبَلِ المشركين، فكان يكِنُّ لهم كلَّ الحب لأنهم كانوا على صلة دائمة بربهم، يذكرونَ الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم. وذُكِرَ أَنَّ النَّبيَّ عليه الصلاة والسلام قامَ مرة يلتمس أصحابه المستضعفينَ فوجدهم في مؤخرِ المسجد يذكرون الله فقال: «الحمدُ لله الذي لم يُمتْني حتى أمرني أَنْ أُصَبِّرَ نفسي مع قوم مِنْ أمتي، معكم المحيا ومعكم المماتَ»[1].

ورُوي أنَّ نفراً من قريش قالوا للنَّبي ﷺ: يا محمد أرضيتَ بهؤلاء من قومك؟ أفنحن نكون تبعاً لهؤلاء؟ أهؤلاء الذين مَنَّ الله عليهم؟ اطردهم عنك فلعلك إن طردَتهم اتبعنَاك!. لكنَّ الرسول ﷺ لم يلتفتْ إلى أقوال المشركين؛ وتساءَل المشركون:

* ماذا كان يفعلُ الرسول ﷺ لهؤلاء الناس الذين كانوا يتابعونَه فيما يدعو إليه؟ وما هي المعطيات التي كان يقدمُها لهم؛ فتكون هذه المعطيات أغلى عندهم مِنَ الأب والأم والمال وكل شيء؟! أكان هناك بديل يعوضهم عن ذلك كله؟

* الحقيقة؛ أنَّ محمداً عليه الصلاة والسلام لم يكن يملك شيئاً مِنْ حطام الدنيا؟ وإنَّما جلُّ ما يقدمه لهم آيات مضيئة مِنَ القرآن الكريم أخرجتْهم مِنْ ظُلمات الجهل وضيقِهِ إلى نورِ الإيمان وسَعَتِهِ، وحوّلت كل واحد مِنْ هؤلاء إلى إنسانِ جديد أصبحَ أمّةً وحده، ولا يرجو إلا رحمةَ الله سبحانه وتعالى.

صُهيبُ بعد وفاة الرسول ﷺ:

* توفي رسولُ الله ﷺ وهو راضٍ عن صهيب، ثم جاء خليفته أبو بكر الصّديق، فكانَ رجل الإسلام الذي أبطلَ الشرك وحارب المرتدين، ونصحَ الأمة، وعملَ للإسلام وأهله، وقد عاشَ صهيب رضي الله عنه في كَنَفِ الصّديق يُؤدي ما عليه مِنْ واجبات، وكان أبو بكر رضي الله عنه يعرفُ

(١) حلية الأولياء مجلد (١) ص٣٤٥.

لصهيب مكانتَه عند رسول الله ﷺ، وهو الحريصُ على احترامِهِ واحترامِ المستضعفين أمثاله، فهو يذكر تماماً ذلك الموقف العظيم عند الرسول مع هؤلاء، تذكّرَ يوم مَرَّ أبو سفيان ـ قبل أنْ يسلم ـ على سَلمان الفارسي وصهيب وبلال فلما رأَوْه قالوا: والله ما أخذتْ سيوفُ الله مِنْ عُنُقِ عدو الله مأخذَها؛ وكانوا يعنون أَبا سفيان، وسمعهم أبو بكر رضيَ الله عنه، فقال لهم: أتقولونَ هذا لشيخِ قريش وسيدهم؟! وذهبَ إلى النَّبي ﷺ فأخبرَهُ، فقال له النبي ﷺ: «لعلكَ أَغضبتَهم؟ لئن كنتَ أغضبتهم لقد أغضبتَ ربّك». . وأقبلَ أبو بكر رضي الله عنه عليهم مسرعاً وقال: يا إخوتاه، أغضبتُكم؟ قالوا: لا يا أبا بكر يغفرُ الله لكَ يا أخي»[1].

* كان صهيبٌ والمستضعفون من المسلمين، يودون لو نالتْ السيوف مِنْ أعناق المشركين الذين كانوا يعذبونهم بمكة، فقد تحمَّلوا منهم ألوان التعذيب، لذلك كان النبي ﷺ يكرمهُم ويعرف لهم سبقهم في الإسلام، وكانتْ مكانتهم عنده عظيمة؛ وكذلك عند الخلفاءِ الراشدين وعند كبارِ الصحابة رضوان الله عليهم.

* وفي خلافةِ عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كانتْ لصهيب مكانة عظمى، لا تقلُّ عن المكانة ذاتها في حياة الصديق، فقد كان عُمَر محباً لصهيب أشدَّ الحبِّ، فكثيراً ما كان صهيب موضعَ استشارة عمر في مسائل الدين أو الغزوات، أو يكون رسوله لإنجازِ بعض الأمور المتعلقة بالمسلمين.

* كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه حسنَ الظّنِّ في صهيب، وهو منْ أَعرف الرِّجالِ بالرجالِ، وقلّما تخطىء فِراسته، ولكنَّ عمر يحبُّ التحققَ في الأمور كلها، فقد لفتَ نظره بعضُ التصرفات والملاحظات عن صهيب، فأحبَّ أنْ يتحققَ بنفسه فقال له:

«يا صهيب مالك تُكنى أبا يحيى وليس لك ولد، وتقول إنكَ مِنَ العربِ

(١) انظر فضائل الصحابة ص٥١ والحديث أخرجه مسلم.

وأنتَ رجل مِنَ الرومِ، وتطعمُ الطعام الكثير وذلك سرفٌ في المال؟» فقال صهيب رضي الله عنه:

«إنَّ رسول الله ﷺ كنَّاني أَبا يحيى. وأمَّا عن قولكَ في النَّسبِ وادِّعائي إلى العرب، فإنِّي رجل من «النِّمر بن قَاسِط» من أهل المَوْصل، ولكنْ سُبِيتُ، سَبَتْني الروم غُلاماً صغيراً بعد أَنْ عَقَلْتُ أهلي وقومي وعرفتْ نسبي.

* وأمَّا قولك في الطعام وإسرافي فيه، فإنَّ رسول الله ﷺ كان يقول: «إنَّ خيارَكم مَنْ أطعَم الطعامَ وردَّ السَّلامَ» فذلك الذي يحملُني على أَنْ أطعمَ الطعامَ»[1].

* وسُرَّ سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه بهذه الإجابة، وبخاصة حينما علم أَنَّ رسول الله ﷺ كنَّى صهيباً أبا يحيى، لأنَّ عمر كان يكرهُ الإكثار من التكني بأسماء الأنبياء حتى لا يكون هنالك وَهْن في نفوسِ بعض المسلمين، فيستغلونَ هذه الكنى والأسماء استغلالاً خاطئاً.

* كان صهيب رضي الله عنه يبادل عمر بن الخطاب الحب والاحترام ويكنُّ له كل تقدير. ولما طُعِنَ سيدُنا عمر رضي الله عنه أَقْبلَ صهيب يبكي رافعاً صوته، فقال له عمر: أَعليَّ؟ قال: نعم؛ قال: أما علمتَ أَنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ يُبكَ عليه يُعَذَّب»[2].

وحاول صهيب أَنْ يكفكفَ دموعه، وأُتيَ عمر رضي الله عنه بشرابٍ فخرج من جراحته فلم يتمالكْ صهيب نفسه وقال:

* واعمراه، واأخاه؟ مَنْ لنا بَعْدَكَ؟!

لكنَّ عمرَ سرعان ما يقول له: مه أخي، أَمَا شعرتَ أَنَّ «المُعْوَلَ عليه يُعَذَّبُ؟» ولم ينْسَ سيدنا عمر وهو يعاني الألم مكانةَ صهيب وعلوَّ قدره، وسابقته إلى الإسلام، ثم إنَّه أوصى فقال:

---

(١) طبقات ابن سعد جزء ٣ ص٢٢٧. وانظر حلية الأولياء جزء (١) ص١٥٥.
(٢) طبقات ابن سعد جزء ٣ ص٣٦٢.

«إن قُبضتُ فليصلِّ لكم صُهيب ثلاثاً ثمَّ أجمِعُوا أمركم فبايِعوا أحدَكم». فلما مَات عمر ووُضعَ ليُصلّى عليه أقبل عليٌّ وعثمان رضيِ الله عنهما أيهما يصلِّي عليه، فقال عبدُ الرحمن بن عوف رضيِ الله عنه: ـ إنَّ هذا لهو الحرصُ على الإمارة لقد علمتُما ما هذا إليكما ولقد أُمِرَ به غيركما، تَقَدّمْ يا صهيب فَصَلِّ عليه، فتقدمَ صهيب فصلى عليه»(١) إنها لشهادة عظيمة من الفاروق عمر رضي الله عنه لصهيب، فقد كان يُقَالُ: صلى عمر على أبي بكر عندما توفيَ، وصلى صَهيب على عمر. وبلغ من مكانة صهيب أيضاً أنَّه نَزَلَ في قبرِ عمر مع عثمان بن عفان وسعيد بن زيد وعبد الله بن عمر.

* وظلَّ صهيب رضي الله عنه يحتلُّ مكانة عظيمة في خلافة سيدنا عثمان، ينال احترام الخليفة، والمسلمين، ويبذل كل ما يملك في سبيل الله.

بشارة الرسول ﷺ لصهيب:

* كان صحابة رسول الله ﷺ لا يريدون من الدنيا إلا بمقدار ما يُبلِّغهُم الآخرة، لذا لمْ يرغبوا فيها، فكُتِبتْ لهم السعادة، ولم يتظاهروا بأعمالهم فخلَّدها لهمُ التاريخ؛ لم يلتفوا إلى بقاءِ ذكرهم فحفظه لهم الخلف، ولم يكونوا يريدون إلا رضاء الله ورسوله، فنالوا منازلَ الرضا، وتوفي الرسول ﷺ وهو رَاضٍ عنهم، وقد نال بعضُهم مكانة سامقة في حياة الرسول وبعد وفاته، ومنهم صهيب رضي الله عنه، فقد حظيَ بمكانة عظيمة، فكان منَ السابقين إلى الإسلام، تركَ في مكة كل ما يملك من مالٍ ومتَاع وخرج مهاجراً لا يريدُ إلا وجه الله، يتحدث صهيب عن هجرته فيقول:

«خرجتُ حتى قدمتُ على رسول الله ﷺ، في قباء قبل أَنْ يتحوّل منها، فلما رآني قال: «يا أبا يحيى ربح البيع» ثلاثاً، فقلتُ: يا رسول الله، ما سبقني إليك أحد، وما أخبركَ إلا جبريل عليه السلام»(٢) ثم ما لبثَ أَنْ نزل

---

(١) طبقات ابن سعد جزء (٣) ص٣٦٧.

(٢) حلية الأولياء جزء (١) ص١٥٢.

القرآن الكريم يشهُد لصهيب بالصدق والصفاء ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[1]. وكان جزاء هذا البيع الجنَّة، حيث إنَّ رسول الله ﷺ قد بشَّرَ صهيباً بالجنة وشهدَ له بها، فعن أبي أَمامة رضي الله عنه قال: «سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: أنا سابقُ العرب إلى الجنة، وصهيبُ سابق الروم إلى الجنة..».

* قفز صهيب منذ لحظة إسلامه مِنْ رجل رومي ربما لا تَعِيهِ ذاكرة التاريخ إلى رجلٍ عظيم فاضِلٍ، خَلَّدَ الخَلَفُ أَعْمالَه وتضحياتِهِ.

* بقي صهيب رضي الله عنه يقضي حياته في الجهاد والعمل الصالح، يجاهدُ بنفسه وماله ابتغاءَ مرضاةِ الله إلى أَنْ أربَى عمره عَلى السبعين، وحتى رأى أَنَّ الله قد أعزَّ جُنْدَه ونصرَ دينه، وأتمَّ نعمته على المؤمنين، فحُطِمتْ قلاع الكفر وحصونُ البغي في بلاد الروم وفارس، وترددتْ كلمةُ التوحيد في أركان الأرض، وشعرَ صهيب رضي الله عنه بالطمأنينةِ تستقرُّ في أعماقه، وسُرَّ بانتصارات المسلمين وعزّتِهم.

* وفي شهر شوال من السنةِ الثانية والثلاثين مِنَ الهجرة النبوية، مرضَ صهيب رضي الله عنه وتوفي بالمدينة المنورة، ودُفنَ بالبقيع، فكان مِنَ الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه.

* وهكذا، كانت رحلة حياة سيدنا صهيب رضي الله عنه حافلةً بكل معاني الجهاد والتضحية، فكان مِنْ تلاميذ مدرسة النبوة المخلصين، ومن فرسانها الشجعان الذين قال الله تعالى فيهم:

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾. صدق الله العظيم.

* * *

---

(١) سورة البقرة آية /٢٠٧/ وانظر تفسير القرطبي للآية، وأسباب النزول للسيوطي للآية نفسها.




سيدنا

عبد الله بن أنيس

رضي الله عنه

* قال ﷺ:

«أمسك هذه العصا عندك يا عبد الله بن أنيس».

* «تخصَّرْ بهذه في الجنة، فإن المتخصِّرين في الجنة قليل».

مقدمـــة:

* قوافلُ الحجاج تتوجه تلقاءَ مكة لِتؤدي الحج، تلك الجموعُ التي جاءتْ من كل فجٍّ عميق تتناقلُ «النبأ العظيم» ذلك النبأ الذي ظهَر بمكة، إنَّه الدِّينُ الجديدُ الذي يدعو إليه «محمد بن عبد الله بن عبد المطلب القرشي» ﷺ.

* كفارُ قريش تبذلُ كل جهدٍ لديها، لتصدَّ وفودَ الحجاج عن هذا الدِّين الذي يُسَفِّهُ أصنامهم وأوثانهم، ويَحُطُّ مِنْ قيمة الأنْصاب والأزلام! فاتهموا صاحبَهُ بالكهانة والسحرِ والشِّعرِ، زعموا أنّه يفرِّقُ بين المرءِ وزوجهِ، ويجعل المرء يفرُّ مِنْ أمّهِ وأبيه، ويبتعدُ عن أخيهِ وذويه.

* القبائلُ تتلقى هذا النبأَ ببعضِ الخوف، ممّا جعلها تنْفِرُ مِنْ هذا الدين، وتبتعدُ عن الاجتماعِ بمحمد بن عبد الله ﷺ الذي يدعو الناسَ لعبادةِ إلهٍ واحد لا شريك له، ونَبْذِ عبادة الأصنام؛ لكنَّ نفراً مِنَ الخزرجِ الذين قدموا من «يثرب» استمعوا إلى الرسول الكريم، فوقعَ كلامه في نفوسهم موقعاً جميلاً، واستقبلوه استقبالاً حسناً، إذْ كانَ هؤلاء قد سمعوا مِنَ اليهود جيرانهم عن نبي سيظهرُ، فقال بعضُهم لبعض والبِشْرُ يملأُ وجوهَهُم: «والله إنَّه لهو النبيُّ الذي توعّدكُم به يهود فلا يسبقنَّكم إليه» وما كادَ رسولُ الله يعرضُ عليهم الإسلام حتى سَارعوا إلى الإيمان به وتصديقِهِ، ولم يَرْكَنوا إلى تلك الإشاعات التي تُطلقُها عليه قريش، بل رَجَوْا أَنْ يصلحَ الله بهذا النّبي ذات بينهم، إذْ أَنَّ الحروبَ بينهم وبين الأوس قد أهلكت الحرْثَ منهم والنَّسلَ، وما حَرْبُ «بُعاث» عنهم ببعيد، فقد كادوا يُهلكُونهم عن آخرهم، لولا تَدَخُّل العقلاء منهم، وحسْم الأمر بالتي هي أحسن.

* ثم تقدموا مِنَ الرسولِ ﷺ، وشرحوا له حالتهم وقالوا له:

«إنَّا تركنا قومنا ولا قومَ بينهم مِنَ العداوة والشَّر ما بينهم، فعسى اللهُ أنْ يجمعَهُم بكَ، وسنقدمُ عليهم فندعوهم إلى أمرِك ونعرض عليهم الذي أجبْنَاك

إليه مِنْ هذا الدِّين، فإنْ يجمعْهُم الله عليك فلا رجلَ أعزّ منك».

وأعطَوه وعداً للّقاءِ في العام المقبل، ثم انصرفوا راجعينَ إلى بلدهم والبِشرُ يملأُ نفوسهم وقد آمنوا وصدقوا، ولما قدموا المدينة ذكروا لقومهم ذاك اللقاء السعيد مع الرسول الكريم، ودعوا أهلَهم وعشيرتهم إلى الإسلام، حتى فشا فيهم، ولم تبقَ دارٌ من دُور الأنصار إلا وفيها ذكْرُ رسولِ الله ﷺ.

* ولما استدارَ العام، وافى موسمَ الحج اثنا عشر رجلاً؛ عشرة من الخزرج واثنان من الأوس، واجتمعوا بالنّبي ﷺ عند العقبة، فعَرضَ عليهم الإسلام فبايعوه، وسُمِّيَتْ هذه البيعة «بيعةُ العقبة الأولى» ولمّا انصرفوا بعثَ معهم «مصعبَ بن عمير» يُعلمُهُم القرآن ويفقِّههم في الدِّين، وفي المدينة نَشطَ مصعب رضي الله عنه في الدعوة إلى الإسلام، ووصلت أَنباءُ الإسلام إلى أَسماعِ كثيرٍ مِنَ العقلاء فأعلنوا إسلامهم، وكان «عبدُ الله بن أُنَيْس» أحدَ الذين استجَابوا للهِ والرسول بعدما تَبيّنَ لهُ الحق والرَّشاد.

* كان «عبد الله بن أُنَيْس بن أسعد» الذي ينتهي نسبه إلى قضاعة حليفاً لبني سَلَمَة من الأنصار، فيقال له الأنصاري والجهني[1]؛ وقد قَدِمَ إلى يثرب وطابَ له المقام فيها، واتخذَ أصدقاء وأصحاب وفي مقدمتهم «معاذ بن جبل» «وثعلبة بن عَنَمة»؛ وقد تزوجَ «عبد الله بن أُنَيْس» من «هُزيلة بنت مسعود بن زيد» من بني سلمة، وكانت قد أسلَمتْ وبايَعتْ رسول الله ﷺ[2]، وكان يكنى أبا يحيى، وله من الأولاد أربعة هم: «عطية، وعمرو، وضمرة، وعبد الله»[3].

* استقبلَ عبد الله بن أُنَيْس دعوةَ الإسلام بقلب مُتَفَتِّحٍ للإيمان، ونفسٍ راغبة في التضحية، وبدأَ يستعدُّ لأداءِ الحج فقد اقترب موعده، وكان سرورهُ عظيماً عندما عَلِمَ أَنّه مِمَّنْ سيلقى رسولَ الله ﷺ، فقد آمنَ به قبل أَنْ يراهُ،

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات جزء / ١/ ص٢٦٠.
(٢) طبقات ابن سعد جزء / ٨/ ص٤٠٧.
(٣) تهذيب الأسماء واللغات جزء / ١/ ص٢٦١.

وهو في شوق عظيم للقائه عليه الصلاة والسلام.

* وحانَ موسم الحج فخرج اليثربيونَ واتجهوا نحو مكةَ، وعند العقبة جاءَهم رسول الله ليلاً، وكانوا حذِرينَ كلَّ الحذر مِنْ أَنْ يراهم أَحَد أَوْ تشعرَ بهم قريش، فأَدى الجميع البيعة على نُصرته، وسُميَتْ هذه البيعة «بيعة العقبة الثانية»، وكانَ أَهمّ ما فازوا به، واعتبروه مغنماً عظيماً أَنْ يهاجرَ الرَّسول الكريم إلى بلدهم.

* وأولُ مشهد نَرى فيه «عبد الله بن أُنَيْس» في العقبة الثانية مع الأنصار، يوم أَخَذَ النبي ﷺ عليهم أَنْ يمنعوه مِمّا يمنعونَ منه نساءَهم وأولادَهُم، ومقابل ذلك الجنة إِنْ وَفَّوا؛ في ذلكَ اليوم التَقَتْ يمينُ «عبد الله بن أُنيْس» بيدِ الرسول ﷺ مصافحةً مبايعةً[1] معاهدةً على ما يُرْضي اللهَ ورسولَه.

* عاد الوفدُ اليثربي مسروراً بالمعاهدة، أَمّا «عبد الله بن أُنَيْس» فقد غمرتْ السعادةُ قلبَه وسَرَت الطمأنينةُ في نفسه وبَدَا رجلاً غيرَ الذي كان عليه مِنْ قبلُ، فقد شَرَعَ يدعو في يثربَ إلى الإيمان بالله والرسول، وجَعَلَ يُسفِّهُ لهمُ الأصنام، ويبثُّ ما يجيشُ بصدره وما يجول في خاطرِهِ مِنْ كراهيةٍ للأصنام إلى صديقيه «معاذ بن جَبَل» و«ثعلبةَ بن عنمة»، فقررَ ثلاثتهم تحطيمَ أصنام بني سَلَمَة، ولم تمضِ أيامٌ حتى غَدَتْ أصنام قومهم جذاذاً، وكان الذين جعلوها من عداد الحجارة: عبدُ الله بن أنيس ومعاذُ بن جبل وثعلبةُ بن عنمة[2]. كما راحَ سيدا الأوس «سعد بن معاذ وأسيد بن الحضير» يحطمان أصنامَ قومهما أيضاً، وشاءت إرادةُ الله أَنْ يكرهَ الأنصار الباطلَ، فأقبلوا يدخلونَ في دين الله أفواجاً، وكانتِ السعادةُ تغمرُ قلبَ عبد الله بن أُنَيْس وأصحابه لإسلام قومهم وهدايتهم إلى سُبُلِ الرَّشادِ.

* الأنصارُ والمسلمونَ في المدينة يترقبونَ قدومَ النبي ﷺ، حيث إِنَّهم سمعوا بخروجه مهاجراً مِنْ مكةَ، فكانوا يتحرقونَ شوقاً إلى لقائِه ورؤيته،

---

(١) سيرة ابن هشام مجلد / ١/ ص٤٦٣.

(٢) طبقات ابن سعد جزء / ٣/ ص٥٨٣.

ويخرجونَ في صُبْح كل يوم ينتظرونه في بعضِ الطريق حتى يؤذيهم الحَرُّ وتحرقهُم الشمس فيعودوا إلى منزلهم. وذاتَ يوم جاءهم البشيرُ أَنَّ رسول الله قد أطلَّ عليهم، فهبَّ زهاء خمسمئة مِنَ الأنصار لاستقباله ﷺ، وكان عبد الله بن أُنَيْس في عداد المستقبلين. وقد تزاحمَ المسلمون حول ناقةِ رسول الله ﷺ، وبلغَ مِنْ حرصهِم أَنَّ أحدَهُم ينازعُ صاحبه في الوصولِ إلى الرسول والتبرك به ودعوتِه إلى قبيلتهِ، وكانت الحفاوةُ التي استُقبل بها رسول الله ﷺ في المدينة تدلُّ على طِيب أهلها وكرمهم، فأطلقَ الرسول عليها لقبَ «طيبة» ثم سمَّاها المسلمونَ فيما بعد «المدينة المنورة».

* بعد أَن استقرَّ الرسول والمسلمونَ في المدينة شَرَعَ ينظِّمُ شؤونَه وشؤونَ أصحابِه، ويعمل على بناء مجتمعٍ جديدٍ قوامه الحبُّ والإخاء، فعاش المسلمونَ متحابين متعاونين، وأصبحوا بنعمةِ الله إخواناً حيثُ سادَهُم الوئامُ وظللهم الأمنُ والسلام.

مشاهد عبد الله بن أُنَيْس وأعماله:

* قال الإمام النووي متحدثاً عن «عبد الله بن أُنَيْس»:

«شهدَ عبد الله بن أُنيس العقبةَ في السبعين من الأنصارِ وكان يُكسِّرُ أصنامَ بني سلمة هو و«معاذ بن جبل» حينَ أسْلَمَا، شهدَ بدراً وأُحُداً والخندقَ وسائرَ المشاهدِ كلِّها مع رسول الله ﷺ»[1].

* بعد أَنْ انتصر المسلمون في غزوة بدر بدأت أحقادُ اليهود في المدينة تخرجُ من مدافِنِها، إذْ ساءَهم أَنْ ينتصرَ المسلمون، وزاد مِنْ غيظهم أيضاً أَنْ يَرَوا المهاجرينَ والأنصار إخوةً متحابين تحت قيادةِ الرسولِ ﷺ، وحسدوهم

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات جزء / ١/ ص٢٦٠. وقيل إن عبد الله بن أنيس لم يشهد بدراً، فعن خبيب بن عبد الرحمن قال: لقي عبد الله بن أنيس رسول الله ﷺ بتُربان فقال: يا رسول الله الحمد لله على سلامتك وما ظفّرك، كنتُ يا رسول الله ليالي خرجت موروداً [أي محموماً] فلم يفارقني حتى كان بالأمس فأقبلت إليك فقال: «آجرك الله» انظر مغازي الواقدي جزء / ١/ ص١١٧.

على ذلكَ، وقد كانوا كثيراً ما يتوعدونَ الأنصار بظهور نبيٍّ، وهذا الوعيدُ نبّه الأنصار للاستجابةِ السريعةِ لدعوة الإسلام وقَبُولها قَبُولاً حسناً، فقد رَوى ابن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري عن رجالٍ من قومه قالوا:

«إنَّ ممّا دعَانا إلى الإسلام ـ مع رحمةِ الله تعالى وهُداهُ لنا ـ أَنْ كنَّا نسمعُ مِنْ يهود وكنَّا أَهْلَ شِرْكٍ وأوثان وكانوا أَهْل كتاب عندهم علمٌ ليس عندنا، وكانت لا تزالُ بيننا وبينهم شرور، فإذا نِلْنا منهم بعضَ ما يكرهون قالوا لنا: أنَّــه قد تقاربَ زمان نبيّ يُبعَثُ الآن نقتلُكُم معه قَتْل عادٍ وإرم فكُنّـا كثيراً ما نسمعُ ذلك منهم. فلمّا بُعِثَ رسول الله ﷺ أجبناهُ حين دعانا إلى اللهِ وعرفْنا ما كانوا يتوعدونَنا فيه، فبادرناهم إليهِ، فآمنا به وكفروا به، ففينا وفيهم نزلتْ هذه الآية: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1].

* وهكذا لم يهنأْ عيشُ اليهود ومَنْ وَالاهم بقدوم النبيّ ﷺ المدينة، فجعلوا يعيثونَ في الأرض فساداً، وبدتِ العداوةُ والبغضاء في وجوههم، وحزَّ في نفوسهم المريضة الحاقدة أَنْ يظهرَ الإسلام على دينهم، وجزعوا أشدَّ الجزعِ حين بلغهم نبأ هزيمةِ قريش ببدر، فانطلقوا ينالون مِنَ الرسولِ والمسلمين، وكان بنو قينقاع أولَ مَنْ جاهرَ بالعداوة، ونقضوا عهودهم التي عاهدوا رسول الله عليها، وأخذوا يتحرشون به وبأصحابِه، فأجلاهم الرسولُ عليه الصلاة والسلامَ عنِ المدينةِ إلى أَذْرُعات بالشام.

* لم يَرُقْ لبقيةِ اليهود الذين ظلّوا في المدينة أَنْ يُبْعدَ الرسول إخوانَهم عنها، فطفق «كعبُ بن الأشرف» أَحَـدُ شعرائهم يجاهرُ بالعداء ويفحشُ بالقول ويعملُ على الغدْرِ والكيد للرسولِ والمسلمين، فرغّبَ رسول الله بالتّخلُّصِ منه ومِنْ شروره، فانتدبَ له «محمد بن مسلمة» الأنصاري فقتله؛ فازدادَ اليهود غيظاً على غيظهم وكشفوا عن نواياهم السوداء الآثمة، وكان

---

(١) سورة البقرة آية / ٨٩/ .

«عبد الله بن أُنَيْس» يرى حقدَهُم وغدرَهُم، ويتمنى لو يستطيع أَنْ يفعلَ شيئاً، فنفسُه الكبيرة تكرهُ الغدرَ والحقد، وتكرهُ اليهودَ الذين لا يعرفُ الودُّ والخير إلى قلوبهم سبيلاً، وبخاصةٍ عدو الله في خيبر «سلاّم بن أَبي الحُقَيق».

ابـن أُنـيس يقتـل سـلاَّم بـن أبـي الحقيـق:

* لما انقضى شأن الخندقِ وهَزَمَ الله الأحزاب، ظهرتْ عداوة بني قريظة، فحكَّمَ الرسول ﷺ فيهم «سعد بن معاذ» الذي قضى بقتلهم، وكان «أبو رافع سلاّم بن أبي الحقيق» ملك خيبر ممّن حزَّبَ الأحزابَ على رسول الله ﷺ، ومِنْ أشدِّ النّاسِ عداوةً للرسول والإسلام، فقد كان بخيلاً شحيحاً، لكنّه يبذلُ أموالَه لكل مَنْ يقفُ حجر عثرة في طريق الرسولِ والمسلمين، وجعل يحرِّضُ يهودَ بني النَّصير ويزينُ لهم اغتيالَ رسول الله ﷺ، وحاولَ بنو النَّضير تنفيذَ مأربهم ومأرب ابن أبي الحُقيق، لكنّ اللهَ ردَّ كيدهم إلى نحورهم جميعاً ومَنَعَ رسولَهُ منهم، وفي إحدى المجالس تذاكرَ الخزرج عداوةَ «سلاَّم بن أبي الحُقيق»، وذكروا كيف أَنَّ إخوانهم الأوس قد أوقعوا بكعب بنِ الأشرف مِنْ قبلُ، وكان الأوسُ والخزرجُ يتسابقون في الخيراتِ لإرضاءِ الله ورسوله، فعن عبد الله بن كعب بن مالك قال: «وكان ممّا صنعَ الله لرسولهِ ﷺ أَنَّ هذين الحيين من الأنصار الأوس والخزرج، كانا يتصاولانِ مع رسول الله ﷺ تَصاوُلَ الفحلَيْن، لا تَصْنَعُ الأوس شيئاً فيه غَنَـاء(١) عن رسول الله ﷺ إلاّ وقالت الخزرج: والله لا يذهبون بهذه فضلاً علينا عند رسول الله ﷺ فلا ينتهونَ حتى يوقعوا مثلها، وإذا فعلتِ الخزرج شيئاً قالتِ الأوسُ مثل ذلك»(٢).

* استطاع نَفَرٌ مِنَ الخزرج أَنْ يحصلوا على موافقةِ النبي الكريم في التخلُّصِ من «سلاَّم بن أبي الحقيق»، بعدما تبيَّن لهم أَنَّه أشدُّ خطراً على المسلمين من «كعب بن الأشرف»، فاستأذنوا رسولَ الله ﷺ بالخروجِ لقتله

---

(١) غناء: نفع وتأييد ونصرة.
(٢) البداية والنهاية جزء / ٤/ ص١٣٧.

فأذنَ لهم، وخرج من الخزرج من بني سلَمَة خمسة نَفَرٍ فيهم «عبد الله بن أُنيس» وأمَّرَ الرسول ﷺ «عبد الله بن عَتيك» لأنه كان يرطن باليهودية، ونهاهم أَنْ يقتلوا وليداً أو امرأة[1].

* خرجَ هؤلاء النَّفر بعد أَنْ رتَّبوا أمورَهُم، وانطلقوا على بركة الله، حتى إذا قدموا خيبرَ كانت الشمسُ قد غربتْ وراح الناس بسرحهم، قال لهم «عبد الله بن عتيك»: اجلسوا مكانكم فإني منطلقٌ متلطفٌ للبوابِ لعلي أَدْخُل، فأقبل حتى دنا مِنَ الباب ثم تقنَّع بثوبهِ كأنه يقضي حاجتَه وقد دخل الناس فهتف به البواب: يا عبد الله إنْ كنْتَ تريدُ أَنْ تدخلَ فادخل فإني أريدُ أَنْ أغلقَ الباب. ودخلَ عبد الله مع الناس، وكَمَنَ قريباً يراقبُ الحارس، حتى إذا دخلَ الناسِ أغلقَ الباب ووضع مفتاحَ الحصنِ في كوةٍ وانصرف، ولما أرخى الليلُ سدولَه نهض عبد الله بن عتيك وفتح باب الحصن وأشارَ إلى أصحابه، فسارعوا إلى الدخولِ وأتَوْا دارَ ابن أبي الحقيق، ولمْ يدعوا بيتاً في الدَّار حتى أغلقوهُ على أهله، وكان عدو الله ابن أبي الحقيق في عِلْيةٍ له فأسْنَدوا إليها حتى قاموا على بابه فاستأذنوا، فخرجتْ إليهم امرأته فقالت: مَنْ أنتم؟

قالوا: أناسٌ مِنَ العرب نلتمسُ الميرة!

قالت: ذاكم صاحبكم فادخلوا عليه.

ولما دخلوا عليه أغلقوا البابَ على أنفسهم وابتدرَهُ الجميع - وهو على فراشه - بسيوفهم فصرختْ امرأته لِتُنبِّهَ أهلَ الحصن عليهم، فلما صاحتْ جَعَلَ الرجل منهم يرفعُ عليها سيفه ثمّ يذكرُ نهيَ رسول الله ﷺ عن قَتْلِ النساء والولدانِ فيكُفُّ يده[2].

يقولُ عبد الله بن عتيك محدثاً عن مقتل أبي رافع:

«فلما ضربناهُ بأسيافنا تحاملَ عليه «عبد الله بن أُنَيْس» بسيفه في بطنه حتى

(١) الدرر ص٢٠٩ وانظر المغازي جزء / ١/ ص٣٩١.
(٢) البداية والنهاية جزء / ٤/ ص١٣٧ بتصرف يسير.

أنفذَهُ وهو يقول: قطني قطني أي: حسْبي حسْبي»[١].

وخرج الأبطالُ الخمسة بحذَرٍ فوقع عبد الله بن عتيك فأُصيبَتْ رجله وانطلقوا مسرعينَ حَذَرَ اليهود الذين خرجوا يطلبونهم، فلمّا يئسوا رجعوا إلى حصونهم، وكان المسلمونَ قد كَمَنُوا بعيداً عنِ الحصنِ ولما هدأتْ نفوسُهم تساءَلوا بينَهم فقالوا:

كيف لنا بأَنْ نعلمَ بأَنَّ عدوَّ اللهِ قد مات؟

فتصدى «عبدُ الله بن أُنَيْس» للمُهمةِ وانطلقَ حتى إذا دخل في الناس سمعَ امرأة أبي رافع تقول: فَاظَ وإله اليهود، فكأَنَّ هذه الكلمة قد نزلتْ على قلبِه برداً وسلاماً، ثمّ رجَع وأخبرَ أصحابه بمَقْتَلِ عدو الله، ثمّ احتملوا صاحبَهم وقدموا على رسول الله ﷺ في المدينة وهو على المنبر فقال:

«أفلحتِ الوجوهُ».

فرَدُّوا جميعاً: أفلحَ وجهُكَ يا رسولَ الله.

قال عليه الصلاة والسلام: «أَقَتلْتموهُ؟».

فقالوا: نعم.

وكلُّ واحدٍ منهم يدَّعي قَتْلَه فأشار إليهم الرسول ﷺ قائلاً:

«هاتوا أسيافَكم».

فجاؤوا بها فنظرَ إليها فقال لسيف عبد الله بن أُنَيْس: «هذا قتله أرى فيه أثرَ الطعام»[٢].

«وغَمَرَ سرورٌ عظيمٌ قلبَ عبدَ الله بن أُنَيْس لهذا الشرفِ العظيم ولهذه الشهادةِ الكريمة مِنْ رسول الله ﷺ، وفرِحَ المسلمون جميعاً بهذه المُهمة التي أَدّاها أصحابُ رسول الله فقال حسان بن ثابت يذكرُ ذلك:

---

(١) المصدر السابق جزء / ٤/ ص١٣٧.

(٢) البداية والنهاية جزء / ٤/ ص١٣٨، وانظر سيرة ابن هشام مجلد / ٢/ ص٤٧٥، وعيون الأثر جزء / ٢/ ص١١٠ وانظر أيضاً السيرة الحلبية جزء / ٣/ ص١٥٣.

للهِ درُّ عصَابةٍ لاقيتَهُم | يابنَ الحُقَيقِ وأَنْتَ يابن الأشرفِ
يَسرونَ بالبِيضِ الخِفافِ إليكمُ | مَرَحاً كأُسْدٍ في عَرينٍ مغرفِ
حتى أَتَوْكُم في مَحلٍّ بلادِكم | فَسَقَوْكم حتفاً بِبِيضٍ ذفَّفِ
مستبصرينَ لنَصْرِ دينِ نبيّهم | مُستَصغِرينَ لكلِ أَمْرِ مُجْحفِ[1]

ابن أُنَيس ومقتل أُسَير بن رِزام:

* بعد مقتل «أبي رافع سَلاَّم بن أبي الحقيق» أَجْمعَ اليهود أمرهم، وجعلوا «أُسير بن رِزَام» ملكاً عليهم، ولم يكنْ أُسَيْر هذا أقلَّ حِقداً ومَكراً مِنْ سابقهِ، بل كان رجلاً شجاعاً يجمعُ الغدرَ إلى جانب شجاعته، فجعلَ يفكرُ في طريقةٍ جديدةٍ ليغزو المسلمين وقام في اليهود خطيباً وقال:

إنّه واللهِ ما سار محمدٌ إلى أَحَدٍ مِنَ اليهود إلاَّ بعثَ أحداً مِنْ أصحابه، فأصابَ منهم ما أرادَ، ولكني أصنعُ ما لا يصنع أصحابي، فقالوا: وما عَسيتَ أَنْ تصنعَ ما لم يصنعْ أصحابُك؟!

قال: أَسِيْرُ في غطفانَ فأجمعهم.

فسار في غطفان فجمعها وقال:

يا معشر اليهود: نسيرُ إلى محمد في عقرِ داره فإنَّه لم يُغْزَ أحدٌ في دارِه إلاّ أدركَ منه عدوُّه بعض ما يريد.

قالوا: نِعْمَ ما رأيتَ.

* وبلغَ رسول الله ﷺ ما عزمَ عليه أُسَيْرُ بن رِزَام، فبعثَ رسول الله «عبد الله بن رواحة» رضي الله عنه في ثلاثينَ راكباً إلى أُسَيْر، وكان مِنْ أشهرِ أَفْراد هذه السرية «عبدُ الله بن أُنَيْس»؛ وأوصاهم أَنْ يكلموه بالحكمةِ والموعظةِ الحسنة، وكان النَّبي الكريم قد قَرَّر أَنْ يعالجَ أَمْرَ أُسَيْر بن رِزَام بالمُداراة والإقْناع والأنَاة، لعلَّه يجنحُ إلى الحقِّ، ولندعْ «عبد الله بن أُنَيْس» نفسَه يحدثُنا عن هذه السرية قال:

---

(١) البداية والنهاية جزء / ٤/ ص١٣٨.

* «خرجنا حتى قدِمْنا خيبر فأرسلْنَا إلى أُسَيْر: إنَّا آمنونَ حتى نأتيكَ فنعرض عليك ما جئْنا له؟

فقال: نعم. ولي مثلُ ذلك منكُم؟

قلنا: نعم.

فدخلْنَا عليه فقلنا: إنَّ رسولَ الله بعثَنَا إليك أَنْ تخرجَ إليه فيستعملكَ على خيبر ويحسن إليك، فطمعَ في ذلك، وشاورَ اليهودَ فخالفوه في الخروجِ وقالوا:

ما كانَ محمد يستعملُ رجلاً مِنْ بني إسرائيل!

فقال: بلى؛ قد مَلَلْنَا الحرب.

فخرجَ معه ثلاثونَ رجلاً من اليهود مع كلِ رجل رَدِيف من المسلمين، فَسِرْنا حتى إذا كنا «بقَرْقَرَةِ ثِبار»[1] نَدِمَ أُسَيْرٌ حتى عرفْنا النَّدامة فيه.

قال «عبدُ الله بن أُنيس»: وأهوى إلى سيفي ففطِنْتُ له، فدفعتُ بعيري فقلت: غَدراً أَيْ عدوَّ الله! ثمَّ تناومتْ فدنوتُ منه لأنظرَ ما يصنعُ فتناولَ سيفي فغمزتُ بعيري وقلتُ: هل مِن رجلٍ ينزلُ فيسوق بنا؟! فلم ينزل أَحد؛ فنزلتُ عن بعيري فَسقْتُ بالقوم حتى انفردَ أُسَيْرٌ فضربتُه بالسيفِ فقطعتُ مؤخرة الرِّجْل وأندرتُ[2] عامة فخذِهِ وساقِهِ وسقطَ عَنْ بعيره وفي يدهِ مِخْرَشٌ من شوحَط[3]، فضرَبَني فشجَّني شجةً مَأْمومة[4]، وملْنَا على أصحابه فقتلناهم كلَّهم غيرَ رجل واحد أعجزَنَا شَدّاً، ولم يُصَبْ مِنَ المسلمين أحد، ثمّ أقبلْنَا إلى رسول الله ﷺ، فَبَيْنَا رسول الله ﷺ يحدّثُ أصحابه إذْ قال لهم: «تَمَشَّوْا بِنَا إلى الثنيّة نتحسبُ مِنْ أصحابنا خبراً» فخرجوا معه فلما أشرفوا على الثنيةِ،

---

(١) موضع على بعد ستة أميال من خيبر.

(٢) أندرت: أسقطت.

(٣) مخرش: عصا معوجة الرأس. الشوحط: ضرب من شجر الجبال.

(٤) أي: بلغت أم الرأس.

فإذا هم بسَرَعان أصحابنا، فجلسَ رسول الله ﷺ إلى أصحابه، وانتهينا إليه فحدثناهُ الحديث فقال: «نجّاكُم اللهُ مِنَ القومِ الظَّالمينَ».

قال عبدُ الله بن أُنَيْس: فدنوتُ إلى النبي ﷺ فنفثَ في شجَّتي فلمْ تَقِحْ بعدَ ذلك اليوم ولمْ تؤذني وقد كان العظمُ فُلَّ، ومسحَ على وجهي ودعَا لي»[1].

* وهكذا، فلمْ تنفعْ مع اليهود النِّيَّة الطيبة والأخلاق الحسنة، فَصِفَةُ الغدر المتأصلة بنفوسهم تمنعهم مِنْ قَبُول الخير بجميع صوره وأشكالِهِ، وقد خَلَّصَ الله رسوله والمؤمنين مِنْ كيدِ أُسَيْر بن رِزَام وأعوانِه، وردَّ كيد اليهودِ إلى نحورهم.

ابنُ أُنَيْس سريةٌ وحده:

* بلغَ رسولَ الله ﷺ وهو في المدينة أَنَّ «خالد بن سُفيان بن نُبيح الهذلي»[2] يجمعُ الجموعَ لرسول الله عليه الصلاة والسلام، وهو ينزلُ في مكان يُسمى «عُرَنَة» أو نَخْلة، وقد اجتمعَ حوله عددٌ كبير من النَّاس من هُذيل وغيرِهم مِمَّنْ جمعهم الطمعُ والسرقة، وكان هؤلاء مع قوم «خالد بن سفيان» يعيشون حياةً بعيدة عن الأخلاق، وتنتشرُ فيما بينهم عاداتٌ سيئةٌ، ويأتون الفواحش دون حياء، وقد سألت هذيلٌ رسول الله ﷺ حين أرادوا الإسلام أَنْ يُحِلَّ لَهم الزِّنى، فقالَ حسان بن ثابت يُعيّرهُم بذلك:

سَالَتْ هذيلٌ رسولَ الله فاحشةً ضَلّتْ هُذيلُ بما سَالتْ ولم تُصبِ
سَالوا رسولَهُم ما ليسَ مُعْطيهِم حتّى الممات وكانُوا سبَّةَ العربِ
ولـنْ تـرى لهـذيـلٍ داعيـاً أبـداً يدعو لمكرمةٍ عن منزلِ الحربِ
لقد أَرادوا خِلالَ الفحشِ ويحَهمُ وأَنْ يحلوا حَراماً كانَ في الكُتبِ

هذه هي حالُ الجموع الملتفة حولَ «خالد بن سفيان الهذلي»، وقد رأى

---

(١) المغازي جزء / ٢/ ص٥٦٧/ ٥٦٨ وانظر سيرة ابن هشام مجلد / ٢/ ص٦١٨/ ٦١٩ وانظر السيرة الحلبية جزء / ٣/ ص١٨٧.

(٢) ورد في بعض المصادر أن اسمه سفيان بن خالد الهذلي. انظر السيرة الحلبية جزء / ٣/ ص١٨٧.

رسول الله ﷺ أنَّه إذا قُضِيَ على هذا الباغي تبددتِ القبائلُ وانفضتِ الجموعُ مِنْ حوله، فدعا الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام عبدَ الله بن أُنَيْس فبعثه سرية وحدَه إلى «خالد بن سفيان» ليقتلَهُ، وقال له:

«إنَّه بلغَني أنَّ خالدَ بن سفيان بن نبيح الهذلي يجمعُ لي النَّاس ليغزوَني وهو بعُرَنَة، فَائْتِهِ فاقْتُلْه».

فطلبَ عبد الله بن أُنَيْس مِنَ الرسول أَنْ يصفَ له خالداً وقال: يا رسول الله، انْعَتْه لي حتى أعرفَه.

فقال رسول الله ﷺ: «إنَّك إذا رأيتَه هِبْتَه وفَرِقْتَ منه وذَكَرْتَ الشيطان».

فقال: «يا رسول الله والذي بعثَك بالحق ما هِبْتُ شيئاً قَط»[1].

ثمّ تابع عبد الله بن أُنَيْس حديثه قائلاً: واستأذنتُ النبي ﷺ أَنْ أقولَ، فقال: «قُلْ ما بدا لكَ».

وانطلق ابن أُنَيْس متوشحاً سيفه، وتوجَّه نحو عُرَنَة، وجعل يخبرُ كل مَنْ لقيه أنَّه يريد «خالدَ بن سفيان» ليكونَ معه، ولْنَدَعِ الحديث لعبد الله بن أنيس ليخبرنا عن سريته هذِه وعن لقائهِ خالدَ بن سفيان قال:

«حتى إذا كنتُ ببطنِ عُرنَة لقيتُه يمشي ووراءَه الأحابيش ومن استجْلَبَ وضَوَى إليه، فلما رأيته هبْتُه وعرفته بالنَّعتِ الذي نعتَ لي رسول الله ﷺ ورأيتُني أَقْطر[2] منه فقلتُ: صدَق اللهُ ورسولُه، وقد دخلتُ في وقْتِ العصر حين رأيتُه، فصليتُ وأنا أمشي أومىءُ إيماءً برأسي، فلما دنوتُ منه قال: مَنِ الرَّجلُ؟

فقلتُ: رجل مِنْ خزاعة، سمعتُ بجمعك لمحمد فجئتك لأكونَ معك؛ قال: أَجَلْ إنِّي لفي الجَمْعِ له.

فمشيتُ معه وحدثته فاستحلى حديثي، وأنشدتُه شعراً وقلت: عجباً لما

---

(١) حلية الأولياء جزء / ٢/ ص٥.

(٢) أجد قشعريرة وأخاف.

أحدثَ محمد مِنْ هذا الدين المُحْدَثِ، فارقَ الآباء وسفَّهَ أحلامَهُم.

قال: لم يلقَ محمد أحداً يشبهني. قال: وهو يتوكأُ على عصا يهدُّ الأرضَ حتى انتهى إلى خبائهِ، وتفرَّقَ عنه أصحابه إلى منازلَ قريبةٍ منه وهم مطيفون به، فقال: هلمَّ يا أخا خزاعة فدنوتُ منه، فقال لجاريته: احلبي، فحلبتْ ثمّ ناولني فمصصْتُ ثمّ دفعته إليه فعبَّ كما يعبُّ الجَمَلُ حتى غابَ أنفهُ في الرَّغوةِ ثمّ قال: اجلسْ فجلستُ معه، حتى إذا هدأَ النَّاس وناموا وهدأَ اغْتَررتُه[1] فقتلتُه وأخذتُ رأسه ثمّ أقبلتُ وتركتُ نساءَه يبكينَ عليه»[2].

واستطاعَ عبد الله بن أُنَيْس أَنْ يفلتَ مِنْ رجالِ خالد بن نبيح، وانطلقَ نحو المدينة، وقد أخذتْه نشوةُ النَّصر، عندها جاشتْ نفسه فقال يذكرُ مَقْتَلَ ابن سفيان ويفتخر بنجاح مهمته:

تركتُ ابنَ ثورٍ كالحوارِ وحوله	نَوائح تَفْري كلَّ جَيْبٍ مُعددِ
تناولتُه والظَّعنُ خلفي وخلفَهُ	بأبيضَ مِنْ ماءِ الحديدِ المُهندِ
عَجومٌ لهامِ الدَّارعينَ كأنَّهُ	شهابُ غضىً مِنْ مُلهبٍ مُتوقدِ
أقولُ له والسيفُ يَعْجُم رأسَهُ	أَنا ابنُ أُنَيْس فارس غير قُعددِ
وقلتُ له خُذْهَا بضربةِ ماجدٍ	خَفيفٍ على دينِ النبيِّ محمدِ
وكنتُ إذا همَّ النبيُّ بكافرٍ	سبقْتُ إليهِ باللسانِ وباليدِ[3]

وظلَّ عبدَ الله بن أُنَيْس يتابعُ مسيرهَ حتى وصلَ إلى المدينة، وكانت مدة غيابه ثماني عشرة ليلة[4]؛ ثمّ توجَّه إلى مسجدِ رسول الله ﷺ فوجدَهُ في المسجد بين أصحابه. يقول ابن أُنيس: فلما رآني قال: «أفْلَح وجهك».

قلت: أَفلَح وجهُك يا رسولَ الله، قد قتلْتُه.

---

(١) أخذته على غفلة.

(٢) المغازي جزء / ٢/ ص٥٣٢/ ٥٣٣.

(٣) البداية والنهاية جزء / ٤/ ص١٤١.

(٤) طبقات ابن سعد جزء / ٢/ ص٥٠/ ٥١.

قال: «صدقتَ»[1] . . ثمّ أعطاهُ الرسول عصاً ليحتفِظَ بها[2].

وهكذا، فقد انفضّتْ الجموعُ والرعاعُ مِنْ حولِ خالد بن سفيان الهذلي، وكفى الله المؤمنين القتال، وقد سُرَّ النبيُّ ﷺ والصحابة من عَملِ عبد الله بن أُنَيْس؛ إذْ خلَّصهم مِنْ شرِّ ابن سفيان الهذلي وقومه.

مـواقـفُ مُـضيئَـة:

* كانَ عبد الله بن أُنَيْس إذا دَعا داعي الجهاد انطلق ملبياً غيرَ مُتَثاقل، ففي غزوة خيبر كانتْ زوجتُه في الأَيام الأخيرة من حَمْلِها، لكنَّه خرجَ وخرجتْ معه، ولما ولدت في الطريق أعطاها رسولُ الله وأعطى وَلَدَها الذي وُلِدَ مِنْ عطاءِ خيبر ولم يُسْهِم لَهُم، فقد أخرجَ الحافظُ البيهقي مِنْ حديث عبد الله بن أُنَيْس قال:

«خرجتُ مع رسول الله ﷺ إلى خيبرَ ومعي زوجي وهي حُبْلى، فنفِستْ في الطريق، فأخبرتُ رسول الله ﷺ فقال لي:

«انْقَعْ لها تمراً فإذا انْغَمَر فأْمر بهِ لتشربه».

ففعلتُ، فما رأتْ شيئاً تكرهه، فلمّا فتحنا خيبر أَجْدى النِّساءَ ولم يُسْهِمْ لهنَّ، فأجدى زوجتي وولدي الذي وُلِد»[3].

* ولعبد الله بن أنيس بعضُ المواقفِ المضيئة التي تكشف عن معالم شخصيته، فمنذُ أَنْ أعْلنَ إسلامه راحَ يطبق تعاليمَ الدين الحنيف ويحرصُ على الخير، فتابعَ حضور مجالس رسول الله ﷺ ينهل من منْبع الهداية النبوية، ويودُّ لو يبقى بقرب النبي ليلاً ونهاراً، غيرَ أَنَّ بُعْدَ دارهِ عنْ قلبِ المدينة، جعله يسألُ الرسول ﷺ عنْ ليلة القدر في رمضانَ ليكون متواجداً في

---

(1) البداية والنهاية جزء / ٤/ ص١٤١.
(2) انظر السيرة الحلبية جزء / ٣/ ص١٨٧.
(3) البداية والنهاية جزء / ٤/ ص٢٠٥ وانظر المغازي جزء / ٢/ ص٦٨٦.

المسجد، فقد وردَ أنَّه قال لرسول الله ﷺ: «إنّي رجلٌ شاسعُ الدّارِ فَمُرْني ليلةً أنزلُ لها، فقال رسول الله ﷺ:

«انزلْ ليلة ثلاث وعشرين من رمضانَ»[1].

فكان عبدُ الله بن أُنَيْس رضي الله عنه ينتظرُ هذه الليلة ويحرصُ فإذا جاءت «كان يدخلُ المسجدَ إذا صلّى العصر فلا يخرج منه لحاجَتِه حتى يُصلي الصُّبحَ، فإذا صلى الصبح، وجد دابته على باب المسجد فجلسَ عليها ولحقَ ببادِيته»[2].

وكانت تلك الليلة تُعْرَفُ بليلةِ الجهني بالمدينة[3]، فكان إذا جاءَ عبد الله بن أُنَيْس تلكَ الليلة حشد أهل المدينة[4].

* حرص عبد الله بن أُنَيْس رضي الله عنه على ألَّا يغيبَ عن مشاهد الرسول الكريم ﷺ، وعلى حضور جميع المجالس، فعندما قَدِمَ بنو جَنَاب بن كلب وأعلنوا إسلامَهم، كتَب رسول الله لهم كتاباً، وكان عبد الله بن أُنَيْس من الشهودِ على هذا الكتاب[5].

* وعُرِف ابنُ أُنَيْس رضي الله عنه، أنَّه شديدُ البُنْيَةَ، سريعُ العَدْوِ، شديدٌ على مَنْ يخالف أوامرَ الله سبحانه وتعالى، وأوامرَ رسوله ﷺ، فعندما أصابَ «مَاعز بن مالك» ذنباً، أتى رسول الله ﷺ فاعترفَ عنده بالزِّنى ـ وكان مُحْصَناً ـ فأمرَ به رسول الله ﷺ إلى الحرّة، وبعثَ معه أبا بكر الصديق يرجمه، فَمسَّتْهُ الحجارة ففرَّ يعدو قِبَلَ الحرَّة فأُدْرِكَ بالمُكَيْمن، وكان الذي أدركَهُ «عبد الله بن أُنَيس» بوظيفِ حمار، فلم يزلْ يضربه حتى قتلَه. ثمّ جاءَ عبد الله بن أُنَيْس إلى النبي ﷺ فأخبرهُ قال:

---

(١) جامع الأصول مجلد / ٩/ ص٢٥٢ والاستيعاب جزء / ٢/ ص٢٥٠.
(٢) أخرجه أبو داود، وانظر جامع الأصول مجلد / ٩/ ص٢٥٢.
(٣) الاستيعاب جزء / ٢/ ص٢٥٠ الجهني نسبة إلى عبد الله بن أنيس.
(٤) الحلية جزء / ٢/ ص٥.
(٥) طبقات ابن سعد جزء / ١/ ص٢٨٦.

«فهلاّ تركتموه لعلَّه يتوبُ فيتوب الله عليه»[1].

وفي «ماعزِ بنِ مالك» يقولُ رسول الله ﷺ عنه: «لقد تابَ توبةً لو تابَها طائفةٌ مِنْ أُمتي لأجزأَتْ عنهم»[2].

* ولعبد الله بن أُنَيْس رضي الله عنه مكانةٌ كريمة في نفسِ النبي ﷺ، إذْ كان النبيُّ يعرفُ حقيقة ابن أنيس حق المعرفة ويعرف أحوالَه ومعيشته، فقد قدم على رسول الله ﷺ رجلٌ مِنْ حِمْيَر فأسلم فماتَ، فقال النبي ﷺ:

«اطلبوا له وارثاً مسلماً».

فطلبوا فلم يجدوا، فقال ﷺ: «ادْفعوه إلى أَقْعَد[3] قُضَاعة في النَّسب» فإذا عبد الله بن أنيس أَقْعد قضاعة في النَّسب[4].

* وبعد، فماذا عند عبد الله بن أُنيس؟

لا زال هناك كثير من النَّفحاتِ العطرة؛ فلم يكُن ابن أُنَيْس رجلاً جريئاً وفارساً شجاعاً فحسب، بل كانَ حافظاً لأحاديث رسول الله عليه الصلاة والسلام واعياً لها، وقد رُويَ له عن رسول الله ﷺ أربعةٌ وعشرونَ حديثاً[5]، وقد روى عنه أبو أُمامة وجابرُ بن عبد الله ورَوى عنه جماعة من التابعين «بسْرُ بن سعيد» وبنوه عطية وعمرو وضمرة وعبد الله[6]، وقد مَرَّ معنا حديث ليلة القدر الذي رواهُ الإمام مسلم.

* ظلَّ عبد الله بن أُنَيس بجوارِ النبي ﷺ إلى أَنْ توفي الرسول عليه الصلاة والسلام، فكادَ قلبُه يَتفطرُ حزناً على فِراقِ حبيبه ومصطفاه رسول الله،

---

(١) المصدر السابق جزء / ٤/ ص٣٢٤.
(٢) الإصابة جزء / ٣/ ص٣١٧.
(٣) أي: أقربهم إلى القبيلة.
(٤) طبقات ابن سعد جزء / ٧/ ص٤٩٨.
(٥) تهذيب الأسماء واللغات جزء / ١/ ص٢٦١.
(٦) الاستيعاب جزء / ٢/ ص٢٥٠.

وضاقتْ عليه الأرضُ بما رحُبَتْ، وشعرَ بالفراغِ الكبير الذي تركه الرسول فقال يبكيه:

تَطَاوَلَ ليلي واعتَرتْني القَوارعُ ... وخطبٌ جليلٌ للبليةِ جَامعُ
غداةَ نَعى النَّاعي إلينَا محمداً ... وتلك التي تَسْتَكُّ منها المسامعُ
فلو رَدَّ مَيتاً قَتْلُ نفسي قتلتُها ... ولكنَّه لا يدفعُ الموتَ دافعُ
فآليتُ لا أثْني على هُلكِ هالكٍ ... مِنَ النَّاس ما أَوفى ثُبَير وفارعُ
ولكنَّني بَاكٍ عليهِ ومُتْبعٌ ... مصيبَتَه إنّي إلى اللهِ راجعُ
فياليتَ شِعري مَنْ يقومُ بأمرِنَا ... وهلْ في قريشٍ مِنْ إمامٍ ينازعُ؟![1]

* ولما تولى سيدنا «أبو بكر الصديق» الخلافة بعد رسول الله ﷺ، ظلَّ عبدُ الله بن أُنَيْس ـ صاحبُ العصا ـ ذلك الجندي المخلص الذي يقاتلُ في سبيل الله لتكون كلمةُ الله هي العليا وكلمةُ الذين كفروا السفلى، وانضمَّ إلى جيشِ أبي بكر لقَمْعِ المرتدين الذين سَوَّلَتْ لهم أنفسهم الارتداد عن الدِّين الإسلامي الحنفي عَقِبَ وفاة الرسول ﷺ، إلى أَنْ عادتِ الجزيرةُ العربية إلى حياضِ الإسلام بفضْلِ الله.

* ولما انطلقتْ جيوشُ المسلمين الفاتحة إلى مناطقَ كثيرة من الأرض، كان ابن أُنَيْس في عداد الجيوش المنطلقة إلى مصر[2] حيث كان مثال الجندي المخلص، ثمّ انطلق وشَارك في فتحِ إفريقية[3] ونشْرِ الإسلام فيها؛ وعاشَ حياته في ظلِّ الخلفاء الراشدين مجاهداً غازياً، وكان همُّهُ الآخرة والبُعْد عن زخارفِ الدنيا.

---

(١) طبقات ابن سعد جزء / ٢/ ص٣٢٠/ ٣٢١.
(٢) الإصابة جزء / ٢/ ص٢٧٠ والأعلام جزء / ٤/ ص١٩٩.
(٣) تهذيب التهذيب جزء / ٥/ ص١٥٠ وانظر الإصابة جزء / ٢/ ص٢٧٠ والأعلام جزء / ٤/ ص١٩٩.

هـديــة وبشــارة:

قال تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾[1].

* كان سيدُنا «عبد الله بن أُنَيْس» واحداً مِنَ الصحابة الذين نذروا حياتَهم وما يملكون ابتغاءَ مرضاةِ الله سبحانه وتعالى وكسْبِ رضاء رسول الله عليه الصلاة والسلام، فاستحقوا المغفرةَ ورضوان الله، إذْ كانوا مِنَ السابقين إلى الخيراتِ، وأسسوا أعمالَهم كلها على تقوى مِنَ الله لا يرجون بذلك إلاّ الجنة، وقد وصفهم الله بقوله:

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[2].

* وعبدُ الله بن أنيس أحدُ السابقين إلى الإسلام مِنَ الأنصار، ولم يتوقفْ عنِ العطاء في سبيلِ الإسلام يوماً واحداً إلى أنْ لقي ربه، وقد سُرَّ منه النبي الكريم ﷺ لما قَدَّمَهُ من أعمالٍ جليلة، وبلاءٍ حَسَن مِنْ أجْلِ الإسلام والمسلمين وقد بشَّرهُ الرسول عليه الصلاة والسلام بالجنَّة حينما قَتَلَ خالد بن سفيان الهذلي، ولندعْ عبد الله بن أُنَيْس يحدثنا عن هدية رسول الله له وبشارته يقول:

ثمّ قام بي رسول الله ﷺ فأدخلَني بيتَه فأعطاني عصاً؛ فقال:

«أمسِكْ هذه العصا عندك يا عبد الله بن أُنَيْس».

قال: فخرجتُ بها على الناس فقالوا: ما هذهِ العصا؟

قلت: أعطانيْها رسول الله ﷺ وأمرني أَنْ أُمسِكَهَا عندي.

---

(١) سورة الأنفال آية / ٧٤/ .

(٢) سورة التوبة آية / ١٠٠/ .

قالوا: أفلا ترجع إلى رسول الله ﷺ فتسأله لِمَ ذلك؟

قال: فرجعتُ إلى رسول الله ﷺ فقلتُ: يا رسول الله لِمَ أعطيتَني هذهِ العصا؟[1]

فقال له النبي ﷺ:

«تخصَّرْ بهذهِ في الجنَّةِ فإنَّ المتخصِّرين[2] في الجنةِ قليل»[3].

* وظل عبد الله بن أنيس رضي الله عنه يرجو الجنة بهذه البشارة، وقد امتلأتْ نفسه سروراً بهذه الهدية العظيمة مِنَ الرسول الكريم ثمّ قرنَها بسيفهِ، وظلَّ يفتخر بها عند كل مناسبة ويتبرَّكُ بها في حِلِّهِ وترحاله.

* كانت حياة ابن أُنَيس مليئةً بالجهاد والتضحية، وفي الفترة الأخيرة من حياته اختار الشام سكناً له مع صديقه معاذ بن جبل الذي اختارَ الشام أيضاً بإشارة من النَّبي ﷺ[4].

* مكثَ عبد الله بن أنيس في الشَّام يتابعُ خطوات حياته، وكلها حياة عَمل في سبيل خدمة الإسلام، وقد رحلَ إليه «جابرُ بن عبد الله» مسيرة شهر[5] ليسمعَ منه حديثاً في القصَاص.

* وجاءت بدايةُ النهاية، ففي العام الرابع والخمسين من الهجرة، وفي أثناء خلافة «معاوية بن أبي سفيان» في الشَّام، شعر عبد الله بن أُنَيْس بدنوٍّ أجله، وأحسَّ بقربِ ساعة اللقاء مع الرسول ﷺ وصحبه، فتحسسَ العصا التي أعطاهُ إياها الرسول، ودعا أهله، وأوصاهم أَنْ يدفنوا معه هدية الرسول الكريم لتكونَ آية بينهما يوم القيامة، وحتى يتخصَّر بها في الجنَّة، يقولُ ابن كثير:

---

(١) سيرة ابن هشام مجلد / ٢/ ص٦٢٠.

(٢) المتخصرون: المتكئون على العصا.

(٣) المغازي جزء / ٢/ ص٥٣٣.

(٤) انظر مجمع الزوائد جزء / ١٠/ ص٦٢.

(٥) الإصابة جزء / ٢/ ص٢٧٠. وانظر حياة الصحابة مجلد / ٣/ ص١٩٦.

«فلم تزلْ معه حتى إذا ماتَ ثمّ أَمَرَ بها فَضُمّتْ في كفنه ثمّ دُفِنَا جميعاً»[1].

* وهناك في الشام، يَضُمُّ ثراها ثُلَّةَ مِنْ خيرة أصحابِ الرسول ﷺ، ومِن بينهم صاحبُ المخصَرة[2] «عبد الله بن أُنَيْس» «أبو يحيى» فكان من الذين رضيَ الله عنهم ورضوا عنه، فقدموا كلَّ ما يملكون من غَالٍ ورخيص ليصيروا إلى دارِ النَّعيم، وصدقوا الله فصدقهَم وعده، وكان من الذين قال الله فيهم:

﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾.

صدق الله العظيم

* * *

---

(١) البداية والنهاية جزء / ٤/ ص١٤٠.

(٢) السيرة الحلبية جزء / ٢/ ص٥.



فهرس الموضوعات


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com